

رواية

الأيام الأربعون لجبل موسى

تأليف: فرانز ويرفل
ترجمة: خالد الجبيلي
مراجعة وتقديم: د. عمر الدقاق

الأيام الأربعون لجبل موسى

* سلسلة الأعمال الأدبية ـ 1 ـ
* الأيام الأربعون لجبل موسى
* تأليف: فرانز ويرفل
* ترجمة: خالد الجبيلي
* مراجعة وتقديم: د. عمر الدقاق
* جميع الحقوق محفوظة
* الطبعة الأولى 1995 / 2000
* الناشر: * **دار الحوار للنشر والتوزيع.**
ص . ب 1018 - هـ 422339 - اللاذقية - سورية
* **نادي الشبيبة السورية** - اللجنة الثقافية
ص . ب 3699 حلب - سورية
* تصميم الغلاف: الفنان اردو هامبارتسوميان

تأليف: فرانز ويرفِل

الأيام الأربعون لجبل موسى

ترجمة: خالد الجبيلي

مراجعة وتقديم: د. عمر الدقاق

تلك « الأيام الأربعون »

مقدمـة

بقلم: الدكتور عمر الدقاق

« رواية معاصرة، مفعمة بأنفاس الحياة بلحمها ودمها، وروحها وعظمها. إنها ترتبط بنياط القلب والعقل، إذ تروي محنة جميع الذين عاشوا وما زالوا يعيشون على سطح البسيطة».

ويليام سارويان

«الأيام الأربعون لجبل موسى» عمل أدبي روائي يستمدّ مادته الأولية من التاريخ القريب. فهو يندرج ضمن فن الرواية التاريخية.

أمّا التاريخ فقد تغلغل منذ القدم في كثير من الأعمال الملحمية والتمثيلية والقصصية لدى الشعوب السالفة، كما توغّل أيضاً في فنون الشعر والسيرة والرواية... غير أن الرواية التاريخية، من الوجهة الفنية، إنما ولدت في الحقبة الحديثة على يد الكاتب الاسكوتلندي والتر سكوت، وكان من أبرز مؤلفيها تشارلز ديكنز من انكلترا والكسندر دوما من فرنسا...

ثم برزت الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث بفضل أعمال جرجي زيدان الذي أغنى المكتبة العربية برواياته العديدة المعتمدة على وقائع التاريخ السالفة عند العرب والمسلمين...، ثم في روايات محمد فريد أبو حديد المقاربة على هذا الصعيد.

وبوسعنا القول إن طابع روايات زيدان تعليمي معرفي أكثر منه أدبياً فنياً، إذ أراد بها صاحبها

أن يصب التاريخ في قالب روائي سردي. وإذا كانت هذه الروايات تمتاز بعنصر الإثارة وتحرص على الإدهاش ، فإنها كانت تفتقر إلى عناصر التحليل والإيحاء والتصوير، ونحو ذلك مما ينطوي عليه العمل الأدبي.

ويعدّ معروف الأرناؤوط معلماً بارزاً في مسار الرواية التاريخية العربية بوجه عام والرواية السورية بوجه خاص، حين طلع على الملأ بروايته المسهبة (سيد قريش) ومن بعدها بسائر رواياته (عمر بن الخطاب) و(طارق بن زياد) و(فاطمة البتول). وعلى الرغم من أنه أثقل فنه الروائي بمتون مسهبة ووقائع كثيرة، فإن رواياته تندرج في إطار (الرواية التاريخية القومية). وقد جنح إلى ما يقارب هذا المنحى التاريخي - القومي نجيب محفوظ في روايته (عبث الأقدار..).

وعلى هذا الغرار من الحرص على التاريخ في رحاب الأدب المسرحي كانت أيضاً مسرحيات شوقي الشعرية التي اتخذت من التاريخ المصري مادتها الأولى...

وبقدر من التقصّي بوسعنا القول إن عنصر التاريخ يكاد يكون واغلاً في أعمال روائية بالغة الكثرة في الأدب العربي الحديث. ولعل ثلاثية نجيب محفوظ والعديد من رواياته الأخرى تأريخ سياسي واجتماعي لحقبة دوارة من حياة مصر في العصر الحديث. وقد بلغت الرواية العربية المعاصرة الملتحمة بتاريخ العرب السياسي والاجتماعي نضجها المنشود بفضل غسان كنفاني وإميل حبيبي وصنع الله إبراهيم وعبد الرحمن منيف...

* * *

ثمة اصطلاح هام في التاريخ الحديث يعرف بـ(المسألة الشرقية)، ويراد به العلاقات السياسية السائدة بين الامبراطورية العثمانية والدول الأوربية، وكذلك القضايا المعقدة والأوضاع المتشابكة بين حكّام استامبول وسائر القوميات المحكومة عهدئذ من عرب وأرمن وأكراد وصرب وبلغار...

أمّا بلاد الشام ولا سيما سورية الشمالية وجنوبي تركيا، فقد شهدت أحداثاً دامية ومجازر رهيبة ومشانق فاجعة، بلغت ذروة حدتها وأوج احتدامها إبّان الحرب العالمية الأولى، وفي ظل الأحكام العرفية القاسية التي انصبّت على العرب والأرمن الساعين إلى حريتهم وكرامتهم..

وفي غمار أعمال القمع والاضطهاد، والتهجير والنفي التي دأبت على ممارستها حكومة الاتحاد والترقي التركية، من خلال قادتها أنور باشا وطلعت باشا وجمال باشا، تناول الكاتب النمسوي فرانز ويرفِل جانباً من هذه الأحداث الأليمة التي كانت تجري بمنأى عن أنظار العالم المتحضر، بعد أن طغت على أسماعه طبول الحرب الكبرى...

إنها قصة القرى الأرمنية السبع القابعة في مرتفعات انطاكية والمطلّة على سهل السويدية وخليج الإسكندرونة.. هذه المنطقة التي كانت تابعة لولاية حلب، وضعت على خارطة التهجير والتذبيح أيضاً، وفق خطة تركية رهيبة، بدأ تنفيذها آنئذ في بلدة زيتون ثم في دير الزور وفي أماكن أخرى عديدة كانت تقطنها غالبية أرمنية.

كانت قرية يوغونولوك وجبل موسى وسفح الداملاجيك وما يلوذ بتلك الربوع، مسرح تلك الأحداث. إنها حكاية الأسابيع الستة، أو محنة الأربعين يوماً التي كانت في حقيقة الأمر مادة هذه الرواية.

وإذا كانت الانتقائية من مقوّمات الفن بوجه عام فقد توقف الكاتب ويرفل ملياً أمام هذه الربوع المنسية والجائشة على صعيد المكان، واقتطع من مجرى الزمان الممتد تلك الأيام العصيبة، ليقدّم عملاً أدبياً متكاملاً زاخراً بروح النضال، وعرق الدأب، ومرارة الصبر، ومحنة الجوع، ووطأة السهر، وسمو الهدف، وعظمة التضحية...

لقد راودت المؤلف ويرفل النمسوي - الألماني فكرة كتابة هذه الرواية في ربيع عام 1929 حين كان مقيماً في دمشق، حيث أتيح له أن يرى جانباً من مأساة اللاجئين الأرمن الذين استطاعوا أن ينجوا بأنفسهم وأطفالهم من جحيم الموت وهول المذابح. وكان تأثره بالغاً بمشهد الأطفال الجائعين داخل البرّاكات البائسة التي أقيمت على عجل في أطراف حلب وعدد من المدن السورية التي فتحت ذراعيها لاستقبالهم وتخفيف محنتهم...

وقد يعزى اهتمام الألمان بهذه الأحوال أكثر من سواهم، ممّا أتيح لهم، بحكم تحالف دولتهم مع الدولة العثمانية، من اتصال عن كثب بأحداث هذه المنطقة، ومن فرص الاحتكاك بالمسؤولين الأتراك فيها، ونحو ذلك ممّا لم يكن متاحاً لسائر الرعايا الأوروبيين ولا سيما الانكليز والفرنسيين الذين كانوا في المعسكر المعادي للدولة العثمانية.

والرواية بوجه عام، وبحكم طبيعتها، وكثرة شخوصها، ثم امتدادها الزماني واتساع رقعتها المكانية أقدر الأجناس الأدبية على رصد الوقائع والأحداث، وتصوير النوازع والأهواء. إنها ترصد قطاعاً واسعاً من الحياة، تمور فيه شخصيات كثيرة، تتلاقى أو تتعارض، تغيب أو تحضر، على حسب مقتضيات الفن الروائي وتشابك أحداثه.

والشخصية الرئيسية في رواية (الأيام الأربعون لجبل موسى) هي كابرييل باكراديان، فمن خلاله تتمحور الأحداث وتتنامى حتى النهاية. رجل أرمني وسيم من أسرة غنية عريقة. كان يعيش في باريس عيشة أوروبية راضية مع زوجته الفرنسية جولييت وولده الصغير ستيفان. وخلافاً للعديدين من أفراد أسرته التي تتعاطى التجارة، أحب باكراديان الفنون والآداب والفلسفة، فجنح لدراستها حتى تخرّج في جامعة السوربون، وكان أن جرته زوجته الحسناء إلى نمط العيش الباريسي الناعم.

ومنذ أن صحب أباه من مسقط رأسه قرب انطاكية في سورية وهو صبي، انقطع أو كاد عن أحوال قومه، إلا ما كان يشعر به مؤخراً من أسى باهت تجاه ما تنشره صحف أوروبا وبعض النشرات هناك من أخبار اضطهاد الأرمن.

إن القدر وحده ساق هذين الزوجين مع صغيرهما إلى الشرق بقصد تسوية أمور تجارية تتعلّق بمصالح الأسرة المقيمة. وسرعان ما شبّت الحرب الكبرى، وتقطعت السبل بهم وبالكثيرين من

أمثالهم. وكان لا بدّ لكابرييل باكراديان أن يلوذ بمسقط رأسه، بعد غياب دام ثلاثاً وعشرين سنة. وإذ ذاك، وخلال وقائع الحرب المتسارعة ما لبث أن وجد نفسه في قلب المأساة. ومع ذلك لم يأسف على ما خلّفه من حياة أوروبا من نعيم، بل لعلّه شعر بأنه ولد من جديد. إن العودة إلى الوطن الأم كفيلة، بقدرة قادر، أن توقظ في أعماق المرء مشاعره القومية الكامنة وتعيد إليه حقيقته. والأرمني، بوجه خاص، كالحصاة الصلدة، يستعصي على التشتت ويتأبى على الذوبان ولو حاولت مياه كثيرة أن تجرفه ورياح عاتية أن تقتلعه. فحتى في باريس قلب فرنسا، حيث كل ما هنالك، الماء والهواء، والزوجة والأصحاب، وكل معطيات الحياة... فرنسي فرنسي، حرص باكراديان على تنشئة ولده نشأة أرمنية واستحضاره أحد المعلمين ليلقّنه لغة أجداده... إنها الصحوة القومية، وإنها العودة إلى الجذور.

وجولييت الزوجة الفرنسية الشقراء، امرأة ثرية راقية، منفتحة على الحياة، محبّة للترف، تبحث عن الغرابة والإدهاش، وتهفو نفسها إلى المغامرة، وفي طبعها استعلاء. وقد انطوت على سوء فهم تجاه الشرق وشعوبه، وتجاه الأرمن والمرأة الأرمنية. لم تكن تروقها طريقة تربية زوجها لابنها ستيفان. كما لم تتلاءم قط بعدئذ مع ما حولها من جبل موسى والذين حولها من الأرمن. حتى غدت صلتها بزوجها كابرييل واهية. وتحت وطأة الأحداث الجائحة ساءت حالها الجسدية والنفسية وأوشكت على الانهيار. ولكنها كانت تتمسّك بأهداب الحياة آملة أن تستعيد هويتها الأوروبية بعودتها المبتغاة.

واسكوهي شابة أرمنية ذكية، حباها الله نعمة البقاء على قيد الحياة بعد مذبحة زيتون، فلاذت إلى جبل موسى وحظيت بعطف كابرييل. إنها فتاة يافعة مثقفة، أتيح لها أن تدرس اللاهوت في سويسرا مستفيدة من إحدى المنح حيث تعلّمت الفرنسية، ثم غدت من بعد في صحبة جولييت خير أنيس وجليس. وهي مواطنة ملتزمة بتقاليد قومها، محافظة على عاداتهم، متمسكة بقيمهم. لقد ظلّت - برغم إنكار جولييت ذلك عليها - حريصة على وضع الوشاح فوق رأسها، ومراعاة الحشمة في لباسها، شأنها في ذلك شأن سائر نساء الشرق من عرب وترك ، مسلمين وغير مسلمين.

وستيفان، ابن الأربعة عشر ربيعاً، كان فرخ البط العوّام، والنموذج الحي للشبيبة الأرمنية النزاعة إلى الحرية، لقد فاق عزمه عمره، حين نذر نفسه للقضية الكبرى، واندفع يحقق البطولة تلو البطولة، ثم ليسقط صريعاً بعد حين سقوط البرعم الغضّ تحت وطأة ريح عاصفة، تاركاً في عين أبويه دمعة وفي قلبهما لوعة.

كذلك حفل هذا العمل الروائي بشخصيات فاعلة، مثل الكاهن (دير هايكازون)، الذي درس في أرمينيا وتخرّج في ديرها العريق (ايتشميادزين) ليعود بعد ذلك إلى (يوغونولوك) زعيماً روحياً للمنطقة كلها، وليكون وقت المحنة موئلاً للإيمان، وسنداً للتضامن، وعماداً للصبر.

وثمّة نماذج بشرية أقل شأناً في نسيج الرواية، ولكنها ذات أبعاد إنسانية آسرة. ففي

مقابل النموذج النفعي والجشع، وأيضاً الانهزامي والخائن، يواجهنا القس الألماني الدكتور جوهانس لبسيوس، وهو شخصية حقيقية ذات نزعة إنسانية وعقل متفتح. لقد دأب على حمل رسالة الخير والمحبة والتسامح والسلام، وسعى جاهداً للحدّ من العنف والتنكيل. ولقاؤه الهام مع أنور باشا، رجل الدولة القوي يعد تاريخياً، كما أن حواره الحار والمطوّل معه في سراي استانبول يعد أيضاً وثيقة تاريخية أضفت على هذا العمل الروائي مزيداً من المصداقية وأكسبته مزيداً من الواقعية...

ومن هذا القبيل من النماذج البشرية المتميّزة، وفي مقابل القس لبسيوس، أو إلى جانبه، نجد الحاج رفعت بركات، هذا المؤمن التقي الذي يحرم دينه على الناس قتل النفس البريئة. إنه صديق حميم لكابرييل باكراديان، على الرغم مما بينهما من اختلاف في الدين وفي القومية وفي أمور جمّة أخرى. لقد انعقدت بينهما مودّة راسخة تنامت مع امتداد العمر، ولطالما قدم هذا الآغا الثري الهدايا التذكارية ذات القيمة الأثرية إلى صديقه الأرمني، كما تطوّع بإيصال ما تبرعت به جماعات خيرية إسلامية إلى الأرمن، من السكر والطحين والبن ونحو ذلك من المؤن التي أفلت بعضها من مصادرة عساكر القائمقام. كما تجلّت شهامة الآغا بركات في عرضه السخي على كابرييل باكراديان بأن يؤويه في داره ريثما تنجلي الغمة، برغم ما ينطوي عليه هذا العرض من مخاطر...

وفي رحاب الرواية أناس بسطاء مثل علي ناصيف، ذلك الدركي الطيّب الذي يرجو الخير للجميع، ولكنه، كحال الكثيرين أمثاله، مغلوب على أمره ولا يستطيع شيئاً...

وفي غمار مشاعر الحقد العارم، والرعب القاتل، والعنف البغيض... يستريح قارىء الرواية إلى واحات ظليلة ينعم في رحابها بأجواء سمحة من الودّ والإيثار والتسامح والأريحية... والقارىء العربي، أو المسلم، أو التركي، أو الأرمني، لا بدّ أن تهزّ مشاعره مواقف إنسانية سامية ترتفع به عن درك الأنانية وحمأة التعصب. وأي شيء أروع من أن نسمع عبارات الإكبار من قس مسيحي تجاه عقيدة الإسلام السمحة، وأن تتخلل سطور الرواية أيضاً آيات بيّنات من القرآن الكريم على لسان بعض الأتقياء المسلمين، كالشيخ أحمد المتصوّف الورع الذي يؤمن إيماناً راسخاً بأن الإسلام دين السلام.

ويتجلى في النسيج الروائي الطابع المحلي الشائق الذي نسج الكاتب خيوطه من الواقع الجغرافي بالإضافة إلى الحقيقة التاريخية، وذلك من خلال معالم كثيرة قريبة من حياة القارىء العربي، بل ملتحمة به أحياناً، فمسرح الأحداث الرحيب متنقل بين حلب واستانبول وأنطاكية واسكندرون وبتياس وأرسوز، وكذلك مسكنة ودير الزور والقدس... ويطيب لهذا القارىء أيضاً أن يصعد إلى جبل موسى ويمضي في شعابه وصخوره، ويطلّ على سهل السويدية ومصب العاصي، وأن يتأمل الشمس الغاربة خلف أشجار التوت وغابات الصنوبر... وكم هو ممتع أن يصحب بعض أشخاص الرواية أيضاً عبر أسواق حلب وحاراتها، وحمامات أنطاكية وأزقّتها، وأن

نسمع أصوات الباعة هنا وهناك وقت البكور، وهم يرددون: يا فتّاح يا عليم... يا رزّاق يا كريم...

ولا يستطيع المرء إلا أن يعيش تلك الأيام الأربعين بكل جوارحه، وأن يمضي مع أولئك القرويين الصابرين عبر درب الآلام، ويحيا معهم في أحلك لياليهم، وهم أيقاظ نائمون، يفترشون الأرض، ويتوسدون الصخر، وبنادقهم العتيقة ملتصقة على جنوبهم.

إن محنة جبل موسى ليست مجرّد فصل من مأساة شعب أرمني قدّر لها أن تحدث في زمن محدود ومكان معلوم. وهي ليست أيضاً قصة الحزن والجوع، والصبر والرعب، والتهجير والعذاب، ولكنها فوق ذلك، وفي عالم تحكمه شريعة الغاب، شعلة وهّاجة لكل المستضعفين في الأرض. إنها ملحمة الكفاح المرير والمقاومة العنيدة، لكل شعب ينشد الكرامة، ويتوق إلى الحرية.

الكاتب فرانز ويرفِل

- ولد فرانز ويرفِل في العاصمة التشيكية براغ سنة 1890 من أب نمساوي.
- تلقّى تعليمه في براغ ولايبزيغ وهامبورغ.
- هاجر إلى فرنسا سنة 1938 بعد اشتداد وطأة الحكم النازي حيث بقي زهاء عامين.
- هاجر سنة 1940 إلى الولايات المتحدة الأمريكية وأقام في كاليفورنيا إلى أن توفي سنة 1945 .
- عمل في الجيش وهو في نحو العشرين من عمره، وأبدى نشاطاً سياسياً في معارضة العنف والتسلّط فأودع السجن سنة 1912 .
- استأنف نشاطه السياسي إثر انتهاء الحرب العالمية الأولى وشارك في الحركات الثورية.

* * *

- بدأ ويرفِل حياته الأدبية شاعراً، وظهرت أولى مجموعاته الشعرية سنة 1912 باسم «صديق العالم»، ومن بعدها «نحن موجودون» سنة 1913 ثم «الصديق للصديق» سنة 1915 ثم «يوم الدينونة» سنة 1919 .
- اهتمّ بدراسة التاريخ الحديث وحركات التحرر، كما تعمّق في دراسة القضية الأرمنية وتاريخ الأرمن.
- تحوّل ويرفِل بعد ذلك عن نظم الشعر، وانصرف إلى الكتابة المسرحية والقصصية والروائية...
- من مسرحياته « الإنسان من خلال المرآة» وقد صدرت سنة 1920 ومسرحية «هاكوبوفسكي والقائد» وتنطوي على إدانة للفاشية، وقد صدرت سنة 1944 وكانت آخر أعماله المسرحية.

– غلبت على وَيرفِل الكتابة الروائية، وعليها قامت معظم شهرته. ومن رواياته «القاتل ليس مذنباً بل المقتول»، وأشهرها رواية «الأيام الأربعون لجبل موسى». وقد صدرت له بعد وفاته روايته الأخيرة «نجمة الذين لم يولدوا بعد».

– دراسة ويرفِل للتاريخ عمّقت فهمه للمشكلات الإنسانية وقضايا الشعوب، وكانت رافداً غزيراً أغنى مادته الروائية، وهذا ما جعله من أبرز كتّاب الرواية التاريخية الحديثة...

* * *

– صدرت روايته «الأيام الأربعون لجبل موسى» باللغة الألمانية للمرة الأولى سنة 1932 – 1933 ،حين كانت النازية تشقّ طريقها بسرعة في ألمانيا، وحين كانت بوادر حرب عالمية ثانية تلوح في الأفق.

– لقيت الرواية لدى ظهورها انتشاراً واسعاً، ولا سيما بين الناطقين بالألمانية في أوروبا الوسطى.

– أحدثت الرواية في نزوعها إلى المقاومة وتطلّعها إلى الحرية سخط الحكّام النازيين في ألمانيا، فقرروا مصادرتها، ثم تمّ إحراقها مع كثير من الكتب الأدبية والفكرية التي ألّفها أعلام الكتّاب الألمان والنمسويين والفرنسيين في الساحة الرئيسية للعاصمة برلين، بأمر من غوبلز، وزير الدعاية والاعلام في حكومة هتلر...

– استمدّ فرانز ويرفِل المادة الأولية لروايته من الواقع، حيث كان قريباً من مسرح الصراع وقد أتيح له بفضل إقامته في سورية وعاصمتها دمشق مدة في أواخر العشرينات، أن يلتقي بأناس رسميين وشعبيين كانت لهم صلة على نحو ما بما كانت تضطرب به هذه المنطقة من أحداث. ولا ريب أن تلك اللقاءات والحوارات عادت بالفضل على عمله الروائي وزادته واقعية وثراء.

– تكررت طباعة هذه الرواية بالألمانية، وتمّت ترجمتها إلى لغات عديدة، منها الانكليزية والفرنسية والإيطالية والروسية، وهذه الترجمة العربية منقولة عن النسخة الصادرة باللغة الانكليزية.

– عمد الموسيقار التشيكي جوزيف ماديه إلى تحويل مضمون الرواية إلى أوبرا غنائية، وذلك في عام 1957، كما تمّ تحويل هذه الرواية إلى فيلم سينمائي في عام 1982، كذلك تحوّلت إلى سيناريو ومثّلت على المسرح.

– صدرت «الأيام الأربعون» ضمن سلسلة المليون كتاب العالمية، وطبع منها مليون نسخة.

– أكثر أعمال فرانز ويرفِل الأدبية على صعيد الشعر والرواية والمسرحية ذات مضمون إنساني، ويغلب عليه النزوع إلى السلام والوئام. والكاتب بوجه عام داعية إلى الحرية، شديد التصدّي للويلات والحروب، مؤمن بجدوى التعاون بين الشعوب.

- يعدّ الكاتب فرانز ويرفِل في نظر النقاد من مؤسسي المذهب التعبيري في الأدب EXPRESSIONISME.

- نال الروائي ويرفِل سنة 1934، إثر صدور روايته «الأيام الأربعون لجبل موسى» جائزة أفضل كتاب في العالم.

- أطلقت جمهورية أرمينيا اسم فرانز ويرفِل على أحد شوارع عاصمتها يريفان.

- أصدرت حكومة النمسا في سنة 1990 مجموعة طوابع تذكارية بمناسبة مرور مائة عام على ولادة كاتبها فرانز ويرفِل.

ع. د.

تحفة أدبية معاصرة

من حيث عدد الكلمات والصفحات، فإن هذه الرواية تعتبر طويلة، أما من حيث رشاقة الأسلوب والحركة فهي قصيرة. فلدى قراءة هذه الرواية، يحدو المرء أمل بأن لا تنتهي، وفي الحقيقة فهي لا تنتهي. إذ أن مضمونها يرتبط بنياط قلب وعقل القارىء، لأنها تروي قصة محنة أصبحت في طي النسيان، ولكنها تبرز فجأة إلى الذاكرة، محنة جميع الذين كانوا يعيشون على سطح هذه البسيطة، وما زالوا يعيشون بشكل أو بآخر. تمتاز القصة بأسلوبها الطلي، نجد فيها في نهاية الأمر، رواية معاصرة مفعمة بنَفَس الحياة، بلحمها ودمها، بعظمها وروحها.

ويليام سارويان

ملاحظة

لقد راودت المؤلف فكرة كتابة هذه الرواية في آذار 1929 خلال فترة إقامته في دمشق. إذ أن رؤيته لعدد من الأطفال اللاجئين الذين لم يكونوا ليجدوا لقمة يقيمون بها أودهم، والذين كانوا يعملون في أحد مصانع السجاد، منحه الحافز النهائي لانتشال الشعب الأرمني من ذلك الجحيم الذي آل إليه، والذي لا يمكن فهم كنهه. وقد كتبت هذه الرواية خلال الفترة من تموز 1932 إلى آذار 1933، وبينما كان المؤلف يطوف في عدد من المدن الألمانية يلقي خلالها عدداً من المحاضرات في تشرين الثاني، اختار الفصل الخامس من الكتاب الأول ليلقيه على الجمهور. وقد تلا هذا الفصل بشكله الحالي، الذي يستند على السجلات التاريخية للقاء الذي جرى بين أنور باشا والقس جوهانس لبسيوس.

برايتشتاين، ربيع 1933

الكتاب الأول

الأحداث القادمة

«حتى متى أيها السيد القدوس الحق لا تقضي ولا تنتقم لدمائنا من سكان الأرض ؟ ».

سفر الرؤيا 6 – 10

1 - تصريح المرور

- «ماذا جاء بي إلى هنا؟».

قال كابرييل باكراديان هذه الكلمات التي بدت كئيبة دون أن يعرف سبباً لذلك. ولم يكن ذلك سؤالاً يطرحه على نفسه، بل شيئاً غير محدد، نوع من الدهشة التي امتلكت كل حواسه. ولعل يوم الأحد هذا، من أيام آذار التي تتلألأ فيها الشمس، هو الذي أوحى له بترديد هذه الكلمات. فقد كان يوماً جميلاً من أيام الربيع في سورية، حيث غشت سفح جبل موسى أزهار شقائق النعمان الكبيرة، وامتدت على سفح جبل أنطاكية المتعرج. فقد غطت تلك الأزهار بلونها الأحمر القاني تلك المروج المنحدرة، وهي تحاول أن تحجب أزهار النرجس البيضاء الكبيرة المنتفخة. وبدا له أن صوت همهمة لا يعرف مصدره يحيط بالجبل. هل هو يا ترى صوت أزيز أسراب النحل المنطلقة من كبوسية، أم صوت أمواج البحر الأبيض المتوسط، التي كانت تتلاطم في تلك الساعة الرائقة من النهار على الصخور العارية من الطرف الآخر لجبل موسى؟ لقد كان الطريق المتعرج يلتف نحو الأعلى تحفّه على الجانبين جدران بيوت مهدمة. وفجأة انتهى الطريق بفعل أكوام من الحجارة، ليصبح طريقاً ضيقاً لمرور الأغنام فوقه. وأخيراً وصل إلى قمة السفح.

استدار كابرييل باكراديان، ووقف منتصب القامة مشنفاً أذنيه. كان يرتدي ثياباً بسيطة من نسيج صوفي أوروبي. دفع طربوشه إلى الوراء قليلاً، وأزاحه عن جبهته المتفصدة بالعرق. كانت عيناه متباعدتين. كانتا كاشفتين قليلاً، لكنهما لم تكونا أصغر من عيون سائر الأرمن.

رأى كابرييل الآن مسقط رأسه. فقد بدا له البيت بجدرانه المتلألئة وسقفه المستوي من بين أشجار الأوكالبتوس المنتصبة في الحديقة. كما كانت الاسطبلات والأبنية الملحقة تتلألأ بفعل أشعة شمس الصباح الباكر. وعلى الرغم من أنه لم تعد تفصل بين باكراديان ومنزله مسافة تزيد على نصف ساعة سيراً على الأقدام، فقد بدا له أنه وثيق القرب منه. وتراءت له من على بعد كنيسة يوغونولوك بقبابها الكبيرة ومنائرها المستدقة من الجانبين، وكأنها تحييه. فلقد كانت هذه الكنيسة الضخمة المهيبة وفيلا باكراديان وحدة متكاملة. إذ قام بتشييدهما جد باكراديان منذ خمسين سنة. فقد جرت العادة عند الفلاحين والحرفيين الأرمن بعد هجرتهم خارج البلاد- حتى إلى أمريكا- سعياً وراء الربح، العودة إلى مسقط رأسهم. أما البرجوازيون الذين أصبحوا أثرياء فقد

كانوا يفكرون بطريقة أخرى. إذ كانوا يشيدون فيلاتهم الفخمة على طول الريفيرا بدءاً من «كان» وبين حدائق هليوبوليس أو على الأقل على سفوح لبنان قرب بيروت. غير أن أواديس باكراديان العجوز كان قد حدد خطاً فاصلاً بينه وبين حديثي النعمة أولئك. ذلك الرجل الذي أسس مؤسسة ضخمة للأعمال التجارية في استانبول ذات الفروع العديدة في باريس ونيويورك ولندن، كان يقيم في الفيلا التي شادها في أعالي قرية يوغونولوك على سفح جبل موسى بقدر ما كانت تسنح له ظروفه وأعماله. إلا أنه لم تكن يوغونولوك المستفيدة الوحيدة من سخاء أواديس السابغ بل كذلك القرى الأرمنية الست من مقاطعة السويدية. فبالإضافة إلى المدارس والكنائس التي بناها، واستدعائه لمعلمي البعثات التبشيرية الأمريكية، يكفي التنويه بالعطاء السخي الذي بقي، أكثر من أي حدث آخر، ماثلاً في ذاكرة الناس حتى اليوم. فقد قام بتوزيع ماكينات خياطة من ماركة «سنجر» على خمسين عائلة معوزة في القرى بعد أن أصاب ربحاً كبيراً في تلك السنة.

كان كابرييل، الذي كان لا يزال ينظر إلى الفيلا، يعرف جده. فقد ولد في ذلك البيت، وأمضى فترة طفولته فيه حتى بلغ الثانية عشرة من العمر. ومع ذلك، فقد بدت له هذه الحياة المبكرة غير حقيقية وكان ينتابه شعور مؤلم عندما يفكر بها. إذ كانت هذه الحياة تبدو أشبه بحياة قضاها في الرحم، ذكريات مبهمة تحرك الروح إلى درجة يشعر معها بخلجات غير مستحبة. هل كان حقاً يعرف جده أم أنه قرأ عنه ورأى صوره في إحدى القصص؟ رجل ضيئل الجسم ذو لحية صغيرة بيضاء، يرتدي ثوباً حريرياً ذا خطوط سوداء وصفراء طويلة. وكانت نظارته الذهبية تتدلى من سلسلة على صدره. وكان يسير فوق عشب الحديقة بحذائه الأحمر. وعند قدومه كان الجميع ينحنون أمامه احتراماً وإجلالاً. وتذكر أصابع ذلك الرجل المسن النحيلة وهي تربت على وجنتي الصبي. هل كان كل ذلك حقيقة أم مجرد حلم؟ فلقد كان الجد وجبل موسى شيئاً واحداً بالنسبة لباكراديان. فعندما رأى منذ أسابيع قليلة ذلك الجبل الذي أمضى طفولته عليه، ذلك السفح المظلم إزاء الشمس المائلة للغروب، انتابته أحاسيس مثيرة للفزع، وفي الوقت نفسه ممتعة لا يمكن وصفها، ولم يعرف كنهها. فكفّ عن هذه المحاولة على الفور. هل كانت تلك أول بادرة من إحساسه الداخلي ؟ أم أنها السنوات الثلاث والعشرون تلك ؟.

ثلاثة وعشرون عاماً قضاها في أوروبا، وبالتحديد في باريس! سنوات من التمثل التام. بل إن تأثير هذه السنوات بلغ ثلاثة أضعاف ذلك. فقد أخمد فيه كل شيء. فبعد موت الرجل العجوز، أحلّت العائلة نفسها من الوطنية المحلية التي كان يتمتع بها مؤسسها، ونزحت عن هذه البقعة الشرقية. غير أن مكتب الشركة الرئيسي بقي في استانبول. وعاش والدا كابرييل مع ابنيهما في باريس. لكن سرعان ما غادر شقيق كابرييل أواديس، الذي يكبر كابرييل بخمسة عشر عاماً، وعاد إلى تركيا ليصبح شريكاً في إحدى شركات الاستيراد. واستعادت بفضله الفيلا في يوغونولوك سيادتها السابقة بعد سنوات من الإهمال. وكانت تسليته الوحيدة الصيد، فكان ينطلق من يوغونولوك التي كان قد اتخذها قاعدة له إلى جبال طوروس وهارون. وكان كابرييل، الذي لم يكن يعرف أخاه جيداً، قد أرسل إلى مدرسة داخلية في باريس، ومن ثم انتقل للدراسة

في جامعة السوربون. ولم يرغمه أحد على الدخول إلى عالم الأعمال الذي لم يكن يلائمه، وبذلك كان الاستثناء الوحيد في عائلته. فقد أتاحت له الظروف أن يحيا حياة دارس، مغرم بالأدب، عالم آثار، مؤرخ للفنون وفيلسوف. وقد خصص له دخل سنوي جعله رجلاً ميسوراً حراً. وتزوج جولييت وهو ما زال شاباً صغيراً. وقد أحدث هذا الزواج تغييراً جذرياً في نفسه. إذ دأبت تلك المرأة الفرنسية على تطبيعه بطباعها، فأصبح فرنسياً أكثر من أي وقت مضى، ولم يكن أرمنياً إلا من الناحية النظرية. غير أنه لم ينس تلك الحقيقة قط، فقد كان ينشر في بعض الأحيان مقالاً علمياً في إحدى الصحف الأرمنية. وعندما بلغ ابنه ستيفان العشر سنوات من العمر، أحضر له معلماً أرمنياً ليلقنه لغة آبائه. وفي البداية، بدا كل ذلك عديم الجدوى، بل إن ذلك كان يسبب الضيق لجولييت. بيد أنها عندما بدأت تميل نحو صامويل أفاكيان الشاب، أخذت تستكين للأمر. وكان لمشاحناتهما البسيطة سبب واحد. فمهما حاول كابرييل أن يشغل نفسه بسياسة الأجانب استمر في الانكباب على سياسة شعبه. ونظراً لأنه كان ينتمي إلى عائلة عريقة، كان الزعماء الأرمن يأتون لزيارته لدى قدومهم إلى باريس. بل إنه مُنح زعامة حزب الطاشناق. وعلى الرغم من أنه رفض ذلك، فقد ارتاع لهذا الاقتراح. وقد شارك على الأقل في ذلك المؤتمر الشهير الذي عمل على توحيد صفوف الأتراك الشبان مع الوطنيين الأرمن عام 1907 الذي كان يرمي إلى تأسيس امبراطورية يعيش في كنفها الشعبان في سلام ووئام جنباً إلى جنب، وأن لا يسيء أحد للآخر. وقد عبّر الأتراك في تلك الأيام عن أسمى مشاعرهم بالحب تجاه الأرمن.. وأخذ كابرييل كعادته هذه الإطراءات بجدية أكثر من الآخرين. وهذا ما دفعه إلى التطوع في الجيش التركي عندما نشبت حرب البلقان. وخضع لدورة عسكرية سريعة في مدرسة الضباط الاحتياطيين في استانبول، وحارب كضابط بطارية مدفعية هاوتزر في معركة بولير. وانفصل عن عائلته مدة تزيد على ستة أشهر. فشعر بحرارة الاشتياق تستعر في داخله لهم. بل راوده شعور بأن جولييت ستنفصل عنه. وبدا أن شيئاً ما يعرض علاقتهما للخطر، رغم أنه لم يتمكن من إدراك سبب يدعوه لمثل هذا الشعور. فقد كان متعقلاً، ورجلاً مثالياً. وكان يفكر في اكتساب الجنسية الفرنسية، لأن ذلك سيدخل السعادة إلى نفس جولييت، غير أن إحساسه بعدم الارتياح لتلك الفكرة كان يحول دون ذلك. وخلال تطوعه للقتال في الحرب، كانت بلده ما تزال ماثلة في مخيلته على الدوام، رغم أنه لم يعش فيها. ألم تكن بلد آبائه وأجداده؟ ..

* * *

لقد عانى هؤلاء الآباء في هذا البلد معاناة شديدة، إلا أنهم لم يستسلموا حتى الآن. لكن كابرييل لم يتعرض لأي معاناة. وكانت الكتب والقصص هي المصدر الوحيد لمعرفته بهذه المجازر وأعمال التعذيب. وكان يقول لنفسه: «إن البلد الذي ينتمي إليه حتى إنسان مثالي ليس موضوع لا مبالاة». لذلك بقي مواطناً عثمانياً. عامان من السعادة قضاهما في شقة رائعة تقع في شارع كليبر بباريس. وبدا أن جميع المشكلات قد حُلّت بالفعل وأن حياته اتخذت شكلها النهائي.

كان كابرييل في الخامسة والثلاثين، وجولييت في الرابعة والثلاثين وستيفان في الثالثة عشرة. ولم يكن يعكر صفو حياتهما شيء، فقد كان جلّ عملهما فكرياً، كما كان لهما بعض الأصدقاء الدمثين. وكانت جولييت عاملاً هاماً في اختيار هؤلاء الأصدقاء. ويتضح ذلك من أن معارف كابرييل الأرمن- بعد أن توفي والداه منذ فترة من الزمن- لم يعودوا يزورونه إلا نادراً. وكانت جولييت تصر دائماً على صلاتها الدموية، إلا أنها لم تتمكن من تغيير لون عيني ابنها. ومع ذلك، فقد بدا أن كابرييل لم يلاحظ أياً من ذلك. غير أن رسالة سريعة من أواديس باكراديان غيّرت مسيرة حياته. إذ طلب منه أخوه الكبير الحضور إلى استانبول على عجل، وأعلمه أن المرض قد اشتد عليه ولم يعد قادراً على إدارة أعماله، وأنه منذ أسابيع بدأ يتخذ جميع الإجراءات لتحويلها إلى شركة محدودة، وإنه من أجل رعاية مصالحه يتعين وجود كابرييل. وطلبت جولييت مرافقته وذلك لمساعدته في إدارة المفاوضات متذرعة باطلاعها الواسع على أمور كثيرة. في حين كان هو بسيطاً بطبعه ولم يكن على دراية بالأساليب الملتوية. كان ذلك في حزيران 1914. إنه عالم لا يصدق. وقرر كابرييل أن لا تصطحبه جولييت فقط بل ستيفان وأفاكيان معلمه الخاص كذلك. إذ شارف العام الدراسي على نهايته، ويمكن أن تطول فترة بقائه هناك، ولا يمكن لأحد أن يتكهن بذلك. ووصل جميعهم في الأسبوع الثاني من تموز إلى استانبول.

لم يطق أواديس باكراديان صبراً على انتظارهم. فاستقل قارباً إيطالياً صغيراً وأبحر إلى بيروت. كانت رئتاه تزدادان سوءاً بسرعة ولم يعد يحتمل هواء استانبول (ومن الملفت للنظر أن يختار شقيق كابرييل، ذلك الأوروبي، سورية وليس سويسرا للإقامة فيها). لذلك كان على كابرييل الآن أن يتعامل مع المديرين والمحامين بدلاً من أواديس. وسرعان ما أدرك بأن أخاه الذي لا يعرفه جيداً كان يرعى مصالحه بعناية وبعد نظر. كما أدرك لأول مرة أن أخاه المريض ذاك كان يعمل لمصلحته، ذلك الأخ الذي كان يدين له بحياته الرغيدة فكم كان من غير الطبيعي أن يكون الأخوة غرباء بهذا الشكل. لقد حال كابرييل ذلك الشعور بالفخر بنفسه الذي لم يحاول أبداً كبحه، احتقاره «للشرقي » « رجل الأعمال ». وتملكته الآن رغبة- بل نوع من الحنين- لأن يصلح هذا الإجحاف. كانت الحرارة قائظة ولا تطاق في استانبول. فلم تكن فكرة العودة إلى الغرب واردة وقال في نفسه « لننتظر ريثما تهدأ العاصفة». وفكّر أن القيام برحلة بحرية قصيرة سيكون لها أثر منشط. فقد كان من المزمع أن يصل قارب إلى بيروت في طريقه إلى الاسكندرية. وكانت فيلات حديثة معروضة للآجار على السفوح الغربية من لبنان، وهي من النوع الذي يحقق أكثر المتطلبات دقة. والجميع يعرف أنه لا توجد مناظر طبيعية في تلك البقعة من الأرض أكثر سحراً من تلك المنطقة. لكن كابرييل لم يكن بحاجة إلى مثل هذا الإقناع، وذلك لأن جولييت أبدت موافقتها على الفور. فقد انتابها منذ فترة طويلة شعور بالملل، وقد استمالتها فكرة مشاهدة مناطق جديدة.

وبينما كانوا في عرض البحر، تفشت أنباء إعلان الحرب . وما إن وصلوا إلى رصيف مرفأ بيروت حتى بدأ القتال في بلجيكا والبلقان وجاليسيا. وأصبح الآن من المستحيل العودة إلى

فرنسا. فبقوا في مكانهم. وأعلنت الصحف أن الباب العالي سيدخل في تحالف مع قوى المحور وبذلك أصبحت فرنسا طرفاً معادياً.

غير أن الهدف الحقيقي من الرحلة لم يتحقق. فقد أضاع أواديس باكراديان أخاه الأصغر مرة ثانية. إذ غادر بيروت منذ بضعة أيام ورحل إلى يوغونولوك عن طريق حلب وأنطاكية. حتى لبنان لم تكن تكفيه لكي يقضي نحبه فيها، وكأنما قدره أن يموت في جبل موسى. إلا أن الرسالة التي أنبأت بموته، لم تصل لكابرييل حتى الخريف. وفي غضون ذلك انتقلت عائلة باكراديان إلى فيلا جميلة تبعد قليلاً عن المدينة. ووجدت جولييت الحياة في بيروت ممكنة. إذ كانت هناك مجموعات من الفرنسيين، وقدم لزيارتهم عدد من القناصل، وهنا، مثل أي مكان آخر، كانت جولييت تعرف كيف تجمع حولها الكثير من الأصحاب والأصدقاء. وشعر كابرييل بالغبطة لأن المنفى لم يكن ثقيلاً عليها. ففي جميع الأحوال، كانت بيروت أكثر أماناً من المدن الأوروبية، على الأقل حالياً. لكن كابرييل ظل يفكر ببيته في يوغونولوك. فقد توسل إليه أواديس أن لا يتركه مهملاً. وبعد خمسة أيام من وصول الرسالة، وصلت برقية الدكتور ألتوني يعلن فيها نبأ وفاته. ولم يعد كابرييل الآن يفكر بالبيت الذي ترعرع فيه فقط، بل كان دائم الحديث عنه. ومع ذلك، عندما أعلنت جولييت فجأة أنها ترغب في الانتقال إلى البيت الذي ولد فيه وورثه الآن بأسرع وقت ممكن انتابه شعور بالفزع. ورفضت بعناد ظاهر جميع اعتراضاته. العزلة في الريف؟ بعيداً عن العالم؟ أمر غير مريح؟ لكنها ستتدبر ذلك. وهذا ما جذبها. فقد كان والداها يملكان منزلاً ريفياً نشأت هي فيه وترعرعت. وكان يراودها حلم بأن يكون لها منزل ريفي خاص بها، ولم تكن تبالي أين يقع ذلك البيت. وعلى الرغم من كل هذا الحماس استمر كابرييل في معارضتها حتى انتهاء موسم الأمطار. ألم يكن من الحكمة العودة بعائلته إلى سويسرا؟ لكن جولييت تمسكت بهذه الرغبة. بل كادت تتحداه. ولم يتمكن من كبت شعور غريب بالقلق ممزوج بالحنين. وفي أوائل كانون الأول بدأوا يتخذون ترتيبات العودة إلى منزل آبائه. وصلوا إلى حلب بالقطار حيث استأجروا عربتين في حالة سيئة، وتمكنوا بمعجزة الوصول إلى أنطاكية على الطرق الموحلة. وعند جسر نهر العاصي، كان كريستوفر الخادم بانتظارهم ومعه سيارة وعربتان يجرهما ثوران لحمل الأمتعة، وبقي أمامهم أقل من ساعتين إلى يوغونولوك. ومرت هاتان الساعاتان والغبطة تغمرهم، ولدى وصولهم أعلنت جولييت أن الرحلة لم تكن سيئة.

«كيف وصلت إلى هنا»؟ وبدا له أن مجموعة الأحداث السطحية هذه هي الجواب عن هذا السؤال. كان كابرييل ما يزال يتملكه الذهول. وانتابه شعور غامض بالقلق والاضطراب. إذ يجب أن تترسخ أشياء مغرقة في القدم مدفونة تحت ثلاثة وعشرين عاماً قضاها في باريس في عقله ثانية. أشاح كابرييل بوجهه عن منزله وقال في نفسه لا بد أن جولييت وستيفان نائمان. إذ لم تكن أجراس كنيسة يوغونولوك قد أعلنت حلول صباح الأحد بعد. وأخذت عيناه تتابعان هذا الوادي الذي يضم قرى أرمنية نحو الشمال. ومن مكانه في السيارة تمكن من رؤية القرية المشهورة بتربية دود القز «أزيز». أما كبوسية وهي آخر قرية في ذلك الاتجاه فغابت عن عينيه. كانت أزيز تقبع

نائمة بين أشجار التوت الكثيرة. وهناك، وفوق التلة الصغيرة القابعة إزاء سفح جبل موسى كانت تنتصب آثار دير قديم. فقد كان توما الرسول قد أنشأ هذا المعبد. وكانت قد حفرت على الأحجار المتناثرة كتابات غريبة. فلقد كانت أنطاكية تتمتع بنفوذ واسع في العالم وتمتد حتى البحر، وتشهد الأرض المليئة بالآثار والتي كانت تظهر مع أول ضربة معول على ذلك. وكان كابرييل قد جمع خلال الأسابيع الأولى، مجموعة كاملة من الآثار القيمة في بيته. فقد جعل البحث عنها كل وكده. إلا أن إحساسه بالهيبة حال دون صعوده التلة، حيث تنتصب آثار القديس توما (إذ يشاع أن أفاعي نحاسية اللون وعلى رؤوسها تيجان تحرس هذه الآثار. وعندما كان أحدهم ينتهك حرمة هذا المكان ويسرق الأحجار المقدسة لتشييد بيته بها، كانت تكبر وهو يحملها على ظهره، لذا كان عليه أن يحمل هذا الوزر إلى قبره معه). من كان قد روى له هذه القصة؟ هل سمعها مرة عندما كانت بعض النساء العجائز ووجوهن مطلية يجلسن في غرفة أمه (التي أصبحت الآن غرفة جولييت). أم كان ذلك مجرد وهم؟ هل كان ذلك ممكناً- هل كانت أمه في يوغونولوك وأمه في باريس هما نفسهما؟

كان قد مضى زمن طويل منذ أن ولج كابرييل الغابة الكثيفة، حيث كان يمر أخدود واسع شديد الانحدار يؤدي إلى القمة يطلق عليه اسم وادي البلوط. وفيما كان باكراديان يغذ خطاه باتجاه الممر الذي تطرقه الأغنام والمتجه نحو الأعلى بشكل وعر عبر نباتات كثة عرف فجأة أن شيئاً حاسماً لا بد أن يحدث. فقد وصل إلى المؤقت.

المؤقت ؟ كان كابرييل ضابطاً احتياطياً في كتيبة المدفعية في الجيش العثماني. فقد كانت الجيوش العثمانية تحارب على أربع جبهات: ضد الروس في القوقاز. وضد الانكليز والهنود في بلاد الرافدين. وكانت الفرق الاسترالية قد حطت في غاليبولي لفتح بوابات مضيق البوسفور بالتعاون مع أساطيل الحلفاء. أما الجيش الرابع المتمركز في سورية وفلسطين، فقد كان يستعد لشن هجوم جديد على قناة السويس. وكان الأمر يحتاج إلى قوى خارقة للتمكن من عدم خرق الجبهات الأربع. وكان أنور باشا، لورد الحرب المغرور الذي ضحى بفيلقين كاملين من الجيش عندما شن حملتين بشكل جنوني على جبهة القوقاز المكسوة بالثلج، ولم يكن لدى الأتراك، على الجبهات الأربع عدداً كافياً من الضباط فضلاً عن العتاد.

كانت آمال سنوات 1908 و 1912 قد تلاشت في نفس باكراديان. فقد انقلب الاتحاديون، الأتراك الشبان « لجنة الاتحاد والترقي » على الأرمن، وعلى الفور، حنثوا بجميع الوعود التي قطعوها على أنفسهم. ولم يكن لدى كابرييل الآن أي سبب يدعوه لإثبات وطنيته التركية. واختلفت الأمور هذه المرة اختلافاً تاماً. فقد كانت زوجته فرنسية، وهكذا كان عليه أن يحمل السلاح ضد أمة كان قد أحبها، والتي يكنّ لها امتناناً عميقاً والتي اتحد بها برابطة الزواج. ومع ذلك فقد التحق بقيادة المنطقة في حلب التابعة لكتيبته السابقة، وشعر أن من واجبه أن يفعل ذلك. إذ أنه إن لم يفعل ذلك فسيعتبرونه فاراً من الخدمة. إلا أن الكولونيل المسؤول لم يكن

بحاجة إلى ضباط، فقد أخذ يتفحص أوراق باكراديان بشكل دقيق وصرفه مرة أخرى. وكان كل ما عليه أن يعطي عنوانه وينتظر الأوامر الصادرة له. كان ذلك في تشرين الثاني، ثم أدركته نهاية آذار ولم يتلق أية أوامر من أنطاكية، هل كان ذلك ينطوي على نية مبيتة أم كانت مجرد فوضى مستحكمة في نفس الضابط التركي ؟

انتاب كابرييل شعور بأن القرار سيصله اليوم، إذ أن البريد يصل عادة من أنطاكية في يوم الأحد - ليس فقط الصحف والرسائل، بل كذلك الأوامر الصادرة عن الحكومة من القائمقام إلى المواطنين. وكان تفكير كابرييل منحصراً في عائلته. فقد أصبح الأمر في غاية التعقيد. فماذا سيحل بجولييت وستيفان وهو في الخدمة العسكرية؟ وقد سعد كابرييل بتسامح جولييت، لكن تهاودها لم يمنعه من التفكير بأن زوجته وابنه سينعزلان عن العالم الخارجي إذا ما بقيا وحدهما في هذا المكان.

وصل كابرييل إلى غيطة الصفصاف قبل أن تنجلي له هذه النقطة. كان الممر الذي محيت آثاره يتجه شمالاً، ثم يضيع في غيطة من المشمش البري وشجر الدفلى. كانت هذه البقعة من جبل موسى تدعى الداملاجيك التي لم تكن تصل إلى علو شاهق. وكانت هاتان الذروتان تشكلان آخر سلسلة من الجزء الرئيسي الذي يأخذ فجأة وبدون تدرج منتظم في الانحدار الشديد ويشكل جرفاً صخرياً ضخماً يمتد حتى سهل العاصي. هنا في الشمال، حيث أخذ كابرييل يتحسس طريقه، أصبحت الداملاجيك أكثر انخفاضاً، ثم تنحدر لتصبح أشبه بحلقة في سرج، وهي أضيق جزء من طرف الجبل على طول الشاطىء- وسط جبل موسى. ويضيق السهب عند القمة ليصبح عرضه بضعة مئات من الياردات. واعتقد كابرييل أنه يعرف كل غيطة وصخرة فيه، إذ أنه من بين جميع صور الطفولة العالقة في مخيلته كان هذا المكان أكثر التصاقاً في ذاكرته. أشجار الصنوبر بقممها الواسعة، ونبات الجولق الزاحف فوق الأرض الصخرية نفسها. وكان اللبلاب والنباتات المتشعبة الأخرى تلتف حول الصخور البيضاء، وسرب من السنونو يزقزق في وسط هذا الهدوء وهو يطير، وبدا له أن تلاطم أجنحة تلك الطيور أشبه بارتعاش رموش العين.

استلقى كابرييل فوق العشب، وعقد يديه خلف رأسه. ومع أنه كان قد صعد مرتين حتى الآن إلى جبل موسى بحثاً عن أشجار الصنوبر هذه وكتل الحجارة، إلا أنه ضل طريقه. أغلق عينيه المتعبتين. فعندما يسترجع المرء ذكريات وتأملات ماضية، ويستعرض حياته الداخلية، فإن هذه الأرواح التي نشأت في داخله- هو ذلك العائد - والتي غادرته، تعود الآن وتتملكه بحماس شديد. فلقد اندفعت أشباح طفولة باكراديان إليه كما لو أنها كانت تنتظر عودته مدة ثلاث عشرة سنة بإخلاص، تحت أشجار الصنوبر والصخور وفي هذه البيداء الخلابة. وهي أشبه بالأشباح المحاربة. الأحلام المجنونة التي تراود كل صبي أرمني (وهل يمكن أن تكون غير ذلك ؟) فقد كان عبد الحميد، ذلك السلطان الدموي قد أصدر فرماناً يقضي بالقضاء على الأرمن. وأخذ يحشد الأتراك والأكراد والقوقازيين حول الرايات الخضر لقتل الأرمن ونهب أملاكهم. إلا أنهم أخرجوا

كابرييل باكراديان من حسابهم. وراح الآن يجمع حساباته الخاصة به. يقودهم إلى الجبل، وبحماس زائد راح يبعد هذه القوة الجامحة.

لم يتمكن كابرييل من إبعاد هذه التخيلات الطفولية. إنه ذلك الباريسي، زوج جولييت، المثقف، الضابط الحريص على أداء واجبه كمواطن تركي والذي يعرف حقائق الحرب الحديثة، كان في الوقت نفسه، صبياً تسري في دمه تلك الكراهية البدائية التي تجعله يلقي بنفسه على كل من يعادي شعبه. الحلم الذي يراود كل صبي أرمني. غير أن كابرييل تعجب من ذلك وابتسم ابتسامة ساخرة قبل أن يغط في نوم عميق.

وثب كابرييل وقد اعتراه شيء من الخوف. فقد شعر أن أحداً يراقبه وهو مستسلم للنوم. فقد تبين له أنه استغرق في النوم لبعض الوقت. نظر إلى الأعلى ووقعت عيناه على عيني ابنه ستيفان الهادئتين المضيئتين، اعتراه شعور غامض كريه. كان صوته حاداً قاسياً عندما سأل ابنه: « ماذا تفعل هنا؟ وأين المسيو أفاكيان ؟ » انتاب ستيفان الحرج عندما وجد أباه نائماً. ولم يدر ما يفعل بيديه. انفرجت شفتاه. كان يرتدي ثيابه المدرسية. سترة واسعة، كلسات قصيرة، وياقة واسعة فوق المعطف. أخذ يجذب سترته عندما أجاب: « قالت لي ماما أنه بإمكاني أن أتنزه بمفردي. إنه يوم عطلة المسيو أفاكيان ونحن لا نفعل شيئاً أيام الآحاد » لكن والده أجاب بتجهم: « نحن لسنا في فرنسا الآن بل في سورية يا ستيفان. وفي المرة القادمة يجب ألا تجول في التلال وحدك ».

نظر ستيفان إلى أبيه بحماس وكأنه يتوقع أن يقدم له تعليمات هامة أخرى بالإضافة إلى هذا التوبيخ. غير أن كابرييل لم يفه بكلمة أخرى. فقد تملكه شعور غريب بالحرج. قد شعر بأن هذه هي أول مرة ينفرد فيها بابنه. إذ لم يعد يوليه اهتماماً كبيراً منذ أن وطأوا يوغونولوك ولم يكن يراه إلا عند تناول الطعام. فعندما كانوا في باريس، أو عندما كانوا يقضون العطل في سويسرا، كان في أغلب الأحيان يصطحب ستيفان في جولات سيراً على الأقدام. هل يمكن للمرء أن يكون وحيداً في باريس؟ في مونترو أو شامونيو؟ وفي جميع الأحوال كان هواء جبل موسى العليل يحتوي على عنصر خاص بدا أنه يجمعهما معاً في مكان لم يكن أحد منهما يعرفه. وسار كابرييل أمامه كأنه دليل لابنه الذي سار وراءه صامتاً.

الأب والابن في الشرق! إذ قلما يمكن مقارنة علاقتهما بعلاقة الآباء والأطفال الأوروبيين السطحية. فمن يرى أباه يرى الله. لأن ذلك الأب هو الرابطة الأخيرة في سلسلة طويلة ومستمرة من الأسلاف يربط جميع الرجال بآدم ومنه إلى أصل الخليقة. ومع ذلك فمن يرى ابنه يرى الله لأن الابن هو الحلقة التالية التي تربط البشر باليوم الآخر، نهاية كل شيء. تمام كل شيء. أفلا يجب أن تكون العلاقة المقدسة بينهما مهيبة ولا تحتاج إلى كلمات ؟. غيّر كابرييل الحديث إلى حديث جدي وسأله: « ما هي المواضيع التي يعلمك إياها مسيو أفاكيان ؟ ». « بدأنا بدراسة اللغة الاغريقية منذ فترة وجيزة يا أبتي.. وهو يدرسني الفيزياء والتاريخ والجغرافيا..».

رفع كابرييل رأسه. فقد نطق ستيفان ذلك بالأرمنية. لكنه هل طرح عليه السؤال بالأرمنية؟ إذ

أنهما عادة يتحدثان بالفرنسية. وقد أثارته كلمات ابنه الأرمنية بصورة غريبة. فقد كان يدرك أنه كان يرى في ستيفان صبياً فرنسياً أكثر من كونه أرمنياً.

- «الجغرافيا؟.. وما هي القارة التي يدرسك إياها الآن؟ ».

- «آسيا الصغرى وسورية» أجاب ستيفان بحماس.

هز كابرييل رأسه موافقاً كما لو كان قد قال أفضل شيء.

كان ما زال شارداً. حاول أن ينهي الحديث: « هل تظن أنه بوسعك رسم خريطة عن جبل موسى ؟» داخل ستيفان شعور بالسرور لهذه الثقة الأبوية: « نعم يا أبي، في غرفتك توجد خرائط العم أواديس كما تعلم. عن أنطاكية والساحل وكل ما عليك هو أن تكبّرها وتملأ الفراغات فيها». حقيقية. تملك كابرييل شعور بالسرور بذكاء ستيفان. إلا أنه سرعان ما عاد إلى الشرود بأوامر التحاقه، فربما كانت في طريقها إليه، أو لعلها كانت لا تزال ملقاة على الطاولة في مكتب الضابط التركي في حلب أو ربما في استانبول.

انتظرت نفس ستيفان المفعمة بالتوقع إبداء ملاحظة أخرى. فهذا بلد الوالد. وكان يتوق لأن يسمع قصصاً عن طفولته، تلك الفترة الخفية التي قلما رووا له شيئاً عنها. وبدا أن والده يريد أن يصل إلى نقطة محددة. وأصبحا لتوهما قرب ذلك الجرف الذي كان يفكر به. فقد كان يمتد من الجبل إلى حيز ناتيء في الفضاء. وكان عبارة عن صخرة كبيرة وكأن أصابع ممدودة ترفعها أو كأنها صحن. أرض مسطحة من الغرانيت تتناثر فوقها الصخور، وكانت عريضة بحيث تتسع لبناء بيتين فوقها. وكانت العواصف البحرية التي تهب باستمرار لم تترك فيها سوى عدد قليل من الأعشاب القاسية. وتمتد هذه المصطبة الناتئة والمعلقة والممتدة إلى الأمام بحيث يمكن لأي شخص أن يرمي بنفسه من على حافتها إلى المياه المالحة التي تبعد ألفاً ومئتي متر، أن يصل إلى المياه دون أن يصاب بخدش واحد من الصخور. حاول ستيفان الصغير أن يركض إلى الحافة، إلا أن أباه شدّه إلى الوراء وأمسك يده بقوة. أما يده اليمنى الطليقة فقد أشارت إلى الأركان الأربعة من الكرة الأرضية « هناك إلى الشمال تستطيع أن ترى خليج اسكندرونة إذا لم يحل دون ذلك رأس الخنزير. وإلى الجنوب مصب نهر العاصي، إلا أن الجبل ينحدر». وتابع ستيفان بعينيه حركات إصبع والده باهتمام شديد وهي ترسم نصف دائرة على البحر. ولكن ما كان يقوله، لم يكن له علاقة بجغرافية جبل موسى وسأله: « هل ستذهب حقاً إلى الحرب يا أبتي ؟ ».

لم يلاحظ كابرييل أنه ما زال يمسك بيد ستيفان بقوة وقال : « نعم... فأنا أتوقع وصول الأمر في أي يوم..».

- «وهل يجب أن تذهب ؟».

- «نعم.. يجب علي أن أذهب يا ستيفان. فقد استدعي جميع الضباط الاحتياطيين الأتراك».

- « لكننا لسنا أتراكاً.. ولماذا لم يستدعوك فوراً ؟ ».

- « يقولون إنه لا يوجد حالياً عدد كاف من المدافع الكبيرة، وعندما يتم جلب بطاريات جديدة فيستدعون جميع ضباط الإحتياط ».

- « وإلى أين سيرسلونك ؟ ».

- «إني أنتمي إلى الجيش الرابع في سورية وفلسطين ».

وشعر كابرييل بالعزاء عندما فكر أنهم يمكن أن يرسلوه لبعض الوقت إلى حلب أو دمشق أو القدس. وربما أتيحت له الفرصة لاصطحاب جولييت وستيفان. وبدا أن ستيفان حدس بهذه الهواجس الأبوية .

- « وماذا سيحل بنا يا أبتي ؟ ».

- « هذا ما..».

قاطعه الصبي بحماس «اتركنا هنا ياأبي - أرجوك اتركنا هنا. ماما تحب هذا البيت كثيراً بقدر ما أحبه أنا ». كان ستيفان يحاول أن يهدىء أباه بشأن مشاعر أمه التي تعيش في بلد أجنبي. فقد كان يدرك برهافة حسه التيارين المتناقضين في زواجهما.

- « من الأفضل لو حاولت إرسالكما إلى سويسرا عن طريق استانبول. لكنها للأسف تعتبر منطقة حربية أيضاً ».

ضم ستيفان يديه إلى قلبه وقال: «لا.. ليس إلى سويسرا. دعنا نبقى هنا يا أبي ». نظر كابرييل إلى عيني ابنه المتوسلتين بشيء من الدهشة. فمن الغرابة أن يشعر هذا الصبي الذي لم ير قط منزل أبيه برابطة قوية نحوه. لقد ورث ستيفان الذي ولد في باريس ذلك بدمه. وضع يده على كتف الصبي وقال: « سنرى».

عندما رجعا إلى وادي الداملاجيك، كانت أصوات الصباح قد بدأت ترد من يوغونولوك. ولم يستغرقا أكثر من ساعة للوصول إلى الوادي. وكان عليهما أن يسرعا للوصول في الوقت المناسب لحضور الشطر الثاني من صلاة القداس. وفي أزيز، القرية المشهورة بتربية دودة القز، لم يلتق آل باكراديان إلا بعدد قليل من الناس الذين كانوا يمرون بجانبهم ويلقون عليهم تحية الصباح « باري لويس » (عمتم صباحاً) وكان من عادة سكان أزيز الذهاب إلى كنيسة يوغونولوك. وشاهد ستيفان وكابرييل أمام عدد من البيوت طاولات عليها ألواح عريضة تنتشر فوقها بيوض دودة القز. كتل تميل للون الأبيض وهي تفقس تحت أشعة الشمس. وعلم ستيفان من أبيه أن أواديس العجوز هو ابن غازل حرير، وكان قد بدأ مهنته في وقت مبكر جداً وهو في الخامسة عشرة من عمره وذلك بعد أن ذهب إلى بغداد لشراء بيوض دودة الحرير.

وفي منتصف الطريق صادفا الدركي العجوز « علي ناصيف »، وهو أحد الأتراك العشرة الذين عاشوا سنوات عديدة بين الأرمن بسلام ووئام. فقد كان يرأس مفرزة مؤلفة من خمسة رجال من الدرك الذين كانوا يتناوبون باستمرار، أما هو فقد بقي ثابتاً مثل جبل موسى نفسه. أما الممثل

الوحيد الآخر للحكومة العثمانية فكان ساعي البريد المشوه الذي كان يعيش هنا مع عائلته، وكان يجلب البريد من أنطاكية أيام الأربعاء والأحد. كان القلق بادياً على وجه علي ناصيف، ذلك الدركي الرث الهيئة التابع للباب العالي. وكان يغذ الخطا، وقد أخذ وجهه المليء، ببثور الجدري يلتمع من العرق المتصبب من تحت قبعته. وكان سيفه يحدث صوتاً لدى ملامسة ساقيه المنحنيتين. وكان من عادته أن يلقي التحية على كابرييل لدى رؤيته، أما اليوم فقد حياه بجفاء، رغم أن تحيته كانت تشوبها نظرة قلق. هذا التغير في السلوك جعل كابرييل يشعر بقلق شديد حتى أنه وقف وراح ينظر إليه من الخلف لدقائق عديدة.

كان ما زال عدد قليل من الأشخاص الذين يقطنون أماكن بعيدة يهرعون إلى ساحة كنيسة يوغونولوك. كانت النساء يرتدين مناديل على رؤوسهن منقوشة بأشكال وألوان زاهية. أما الرجال فكانوا يلبسون الشالوار وبنطالاً فضفاضاً وفوقه الإنتاري المصنوع من قماش الغباردين. كانت وجوههم متجهمة وجادة. وكانت الشمس قائظة، وكانت البيوت المطلية حديثاً باللون الأبيض والتي كان يتألف معظمها من طابق واحد تتلألأ: بيت الكاهن دير هايكازون، منزل الطبيب، الصيدلية، مبنى المجلس الكبير الذي يملكه كبير وجهاء يوغونولوك المختار الثري توماس كبوسيان. وكانت الكنيسة «القوى الملائكية» قد بنيت على قوصرة عريضة، وكان الدرج الذي لم يكن يحفه من الجانبين درابزين يؤدي إلى أبوابها الكبيرة. وكان أواديس باكراديان الذي شيدها قد جعلها نسخة ولو بشكل مصغّر من بناء شهير في القوقاز. كانت أصوات الجوقة تصل خارج أبوابها المفتوحة. وفي الطرف الآخر، ووراء جماعة المصلين يقبع الهيكل حيث كانت الشموع الصغيرة تضيء ذلك الركن المظلم. وكان الصليب الذهبي يتلألأ على ظهر رداء دير هايكازون الأحمر.

صعد كابرييل وستيفان الدرج. قابلهم صامويل أفاكيان، معلم ستيفان الخاص الذي كان ينتظرهما بفارغ الصبر.

- «ادخل يا ستيفان » قال لتلميذه «إن امك تنتظرك ».

وما أن اختفى ستيفان بين الحشد حتى استدار نحو كابرييل وقال: «أردت فقط أن أعلمك أنهم جاؤوا وطلبوا جوازات سفركم وتصاريح المرور. كانوا ثلاثة موظفين من أنطاكية».

نظر كابرييل إلى وجه المعلم بعينين حادتين. فقد أمضى سنوات طويلة معهم وأصبح واحداً من العائلة. كان وجهه ينم عن شخص مثقف أرمني. جبهة واسعة منحدرة بعض الشيء. عينان قلقتان عميقتان دائبتا التطلع من وراء النظارة، ويعلوه تعبير يعبر عن استسلامه للقدر ولكن في الوقت نفسه نظرة حادة تدعوه للإحتراس، ولأن يكون مستعداً دوماً لصد أي ضربة توجه إليه. وبعد لحظات من الدراسة العميقة لذلك الوجه سأله باكراديان: «وماذا فعلت؟».

- «أعطتهم المدام كل ما طلبوه».

- « حتى تصريح المرور للداخلية؟ ».

- « نعم.. جواز السفر وتصريح المرور».

استدار كابرييل باتجاه درجات الكنيسة وأشعل لفافة وسحب منها نفساً عميقاً. إذ أن تصريح المرور وثيقة تخول حاملها حرية التنقل في طول الامبراطورية وعرضها. ومن الناحية الأخرى، فإنه لا يمكن لأحد من رعايا السلطنة أن يتنقل من قريته إلى قرية أخرى بدون هذه القصاصة. رمى كابرييل لفافته ورفع كتفيه بحركة مفاجئة وقال: « هذا يعني أنني سألتحق بسريتي في حلب اليوم أو غداً».

وقف أفاكيان ينظر إلى الحفرة التي خلفتها الدواليب في الطين الذي نجم عن الأمطار الأخيرة وقال: «لا أظن أن ذلك هو طلب استدعاؤك للجندية إلى حلب يا أفندينا».

- «لا يوجد تفسير غير ذلك ».

أصبح صوت أفاكيان شديد الهدوء « طلبوا مني أوراقي أيضاً». أما باكراديان الذي أخذ يضحك توقف فجأة وقال: « هذا يعني أنك يجب أن تذهب إلى حلب لإجراء الفحوص الطبية يا عزيزي أفاكيان، فهذه المرة ليست مزحة. ولكن لا تقلق، فسوف نتدبر أمر بدل الجندية مرة أخرى. فأنا أحتاج إليك من أجل ستيفان ».

كان أفاكيان ما زال يحدق بالأخدود الذي خلفته دواليب العربات وقال: « من المؤكد أن الدكتور ألتوني والصيدلي كريكور والكاهن نوخوديان ليسوا في سن الجندية وكذلك أنا. لقد أخذوا تصاريحهم جميعاً».

بدأ الغضب يتملك كابرييل وقال: « هل أنت متأكد من ذلك ؟ ومن طلبها ؟ من هم هؤلاء الموظفون ؟ وما هي الأسباب التي قدموها؟ أين هم، فأنا أرغب في التحدث إليهم ».

وعلم أنه مضى على ذهاب هؤلاء الموظفين الذين كان يرافقهم رجال من الخيالة الدرك قرابة نصف ساعة وقد ذهبوا باتجاه السويدية. ومن طلباتهم استنتج كابرييل أن الأمر لا بد أنه يعني وجهاء القرية وذلك لأن الفلاحين والحرفيين لا يحملون هذه التصاريح، بل تصريحاً خطياً من السوق في أنطاكية.

أخذ كابرييل يذرع المكان جيئة وذهاباً بخطوات طويلة ولم يعد يلاحظ وجود المعلم. توقف فجأة وقال: «ادخل أنت إلى الكنيسة يا أفاكيان وسأتبعك ». لكنه لم يشعر برغبة في سماع ما تبقى من القداس، بينما كانت أصوات الكورال تنساب خارج الكنيسة في لحظة واحدة بخشوع. كان رأسه مائلاً وهو مغرق في التفكير بينما كان يتجول في الساحة، وسار قليلاً باتجاه شارع القرية، واتجه نحو الفيلا عندما تشعب الطريق. لكنه لم يدخل البيت، بل توقف عند الاسطبل وطلب من السائس أن يعدّ له أحد أحصنته التي كان يفتخر بها أواديس. ولسوء الحظ لم يكن كريستوفر موجوداً لمرافقته فطلب من الصبي مرافقته. ولم يكن حتى ذلك الوقت قد قرر ماذا سيفعل. وقال في نفسه إنه إذا أسرع فسيصل أنطاكية في غضون ساعة واحدة.

2 - دار الحكومة، الحمام العمومي، غرفة الاستقبال

كان مبنى دار حكومة انطاكية، الذي يعرف بقوناق القائمقام يقبع على سفح تلة القلعة. وكان عبارة عن بناء قديم لكنه كبير جداً وذلك لأن قضاء انطاكية يعتبر أحد أكبر الأقضية السورية.

أما كابرييل الذي ترك السائس مع الحصانين عند جسر العاصي، فقد أخذ ينتظر في المكتب المركزي للقوناق (دار الحكومة). وكان يحدوه الأمل بأن يستقبله القائمقام نفسه الذي أرسل له بطاقته. وكان كابرييل يعرف جيداً المكاتب الحكومية التركية المتشابهة. فقد كانت تعلق على الحائط المليء بالبقع والذي أخذ الدهان يتقشر عنه، صورة باهتة للسلطان وآيتان قرآنيتان. وكانت جميع ألواح زجاج النوافذ تقريباً مشققة، وقد ألصق فوق هذه الشقوق شريط لاصق. وكانت الأرض قذرة وقد تناثرت كتل البصاق وأعقاب السكائر فوقها. وكان موظف صغير يجلس وراء مكتب خالٍ من الأوراق ويحدق في الفضاء. والذباب يتطاير في أنحاء الغرفة. وعلى امتداد الجدران كانت تمتد مقاعد خشبية واطئة، جلس فوقها عدد من الفلاحين الأتراك ينتظرون دورهم وكان واحد منهم يجلس القرفصاء على الأرض. وكانت تفوح من الغرفة رائحة كريهة تشبه رائحة الجلد الروسي وهي عبارة عن مزيج من رائحة العرق والتبغ القديم. وكان كابرييل يعلم أن لكل مكتب رائحة مميزة به. إلا أن هذا الشعور بالخوف كان قاسماً مشتركاً بينهم – أناس ضعفاء لا حول لهم ولا قوة يعتبرون سلطة الدولة قوة طبيعية ومتوحشة.

وأخيراً قاده الحاجب بلا مبالاة إلى غرفة صغيرة تختلف عن باقي الغرف الأخرى بسجاجيدها وألواح زجاجها السليمة، والمكتب الذي تتناثر فوقه أكوام من الوثائق. ولم يكن معلقاً على الحائط صورة للسلطان بل صورة كبيرة لأنور باشا وهو يمتطي صهوة حصان، ووجد كابرييل نفسه إزاء شاب أحمر الشعر، وقد غشى وجهه النمش وعلا شفته العليا شارب صغير. لكن هذا الشاب لم يكن القائمقام بل المدير المسؤول عن المنطقة الساحلية في ناحية السويدية. وقد لفت انتباه كابرييل أظافره الطويلة المشذبة. وكان يرتدي بذة رمادية تميل إلى الضيق على جسده الناحل، وربطة عنق حمراء وكانت جزمته مشدودة برباط أصفر. ومن مظهره الخارجي عرف كابرييل على التو أنه من سلانيك، موطن حركة الوطنيين الأتراك التي تميل نحو تبني الأساليب الغربية، والتي تكنّ احتراماً كبيراً للتقدم الغربي في جميع أشكاله. ومما لا ريب فيه أن هذا المدير كان عضواً في جمعية

الاتحاد والترقي السريّة التي تسلمت زمام السلطة. وكان في غاية التهذيب تجاه زائره، فقد نهض على الفور وأحضر له كرسياً ووضعه بجانب طاولة المكتب. وفي معظم الأحيان، كانت عيناه اللتان تحفهما رموش حمراء مثبتتين على كابرييل. شدد كابرييل على اسمه. هز المدير رأسه وقال: « إن عائلة باكراديان الموقرة معروفة جيداً لنا ».

ولا يخفى أن لهجته وكلماته، أدخلت نوعاً من الرضاء في نفس كابرييل الذي أصبح صوته واثقاً وقال: « لقد سحبت اليوم جوازات سفر بعض المواطنين من قريتي ومن بينهم أنا، هل هذا الأمر رسمي؟ هل تعرفون ذلك ؟

بعد برهة من التفكير العميق والبحث بين الوثائق، أعلن المدير بلهجة رسمية إنه يتعذر عليه الاطلاع على كل شاردة وواردة. وأخيراً قال فجأة: «آه.. نعم. بالطبع. تصاريح المرور التابعة للداخلية. إن هذا ليس قراراً مستقلاً من الحاكم، بل أمر جديد صدر عن سعادة وزير الداخلية».

وأخيراً عثر على ورقة مجعدة وفتحها، وبدا أنه مستعد إذا ما طلب منه ذلك أن يقرأ نص المرسوم الذي أصدره سعادة طلعت بك. وسأل كابرييل فيما إذا كان الأمر سيطبق بشكل عام. لكن الجواب كان ينطوي على شيء من المراوغة. « لن يؤثر على كل أفراد الشعب وذلك لأن أصحاب المحلات الأغنياء والتجار وأمثالهم يحملون تصاريح مرور فقط ».

حدق كابرييل بالأظافر الطويلة وقال: « لقد أمضيت معظم سنوات حياتي في الخارج. في باريس – أمال الموظف رأسه قليلاً وقاطعه «نعرف ذلك يا أفندي».

– « لذلك لم أعتد على هذا النوع من حظر الحريات ».

ارتسمت على وجه المدير ابتسامة خفيفة وقال: « إنك تعطي المسألة أكثر من حقها يا أفندي.. إننا نمر في زمن حرب. وحتى المواطنين الألمان والفرنسيين والانكليز ينبغي عليهم أن يذعنوا لأشياء لم يكونوا قد اعتادوا عليها. إذ أن الوضع في جميع أنحاء أوروبا يشابه الوضع هنا. لكنّ هل علي أن أذكّرك أيضاً أن هذه المنطقة تابعة للجيش الرابع ولذلك فهي منطقة عسكرية! لذا من البديهي أن نقوم بمراقبة حركات الناس ».

بدت هذه الأسباب مقنعة لكابرييل باكراديان فشعر بالارتياح. وأخذ ذلك الأمر الذي حدث في الصباح والذي قدم من أجله إلى أنطاكية يفقد حماسه والذي أدخل في نفسه الكآبة. وكان يتردد في كل مكان عن وجود خونة وفارين من الخدمة وجواسيس، وعلى الدولة أن تدافع عن نفسها. ومن المستحيل الحكم على مثل هذه الإجراءات في بقعة صغيرة مثل يوغونولوك. أما الملاحظات الأخرى التي أبداها المدير فكانت من النوع التي تعمل على تخفيف الشعور بعدم الثقة التي تنتاب الأرمن. ولكي يدخل الثقة في نفسه قال له إن الوزير أمر بسحب جميع جوازات السفر، لكن هذا لا يعني أنه، في حالات خاصة، لن يتم إصدار جوازات جديدة. والسلطة المخولة بذلك هي مكتب الولاية في حلب، ويجب على باكراديان أفندي أن يعرف بنفسه أن الوالي جلال بك هو أكثر الحكام عدلاً وسماحة في أرجاء الامبراطورية. وأنه سيرسل طلباً مشفوعاً

بتوصيات من هذه المكاتب إلى حلب.. ثم قطع المدير حديثه وقال: «إذا لم أكن مخطئاً يا أفندي فإنك مطلوب للخدمة العسكرية».

حدّثه كابرييل عن الأمر وقال إنه كان يتساءل عن سبب عدم وصول أمر الاستدعاء. ولكن الساعات القليلة الماضية غيّرت كل شيء. إذ أن فكرة الحرب - وجولييت وستيفان - كانت تؤرقه. وتلاشى إحساسه بالواجب كضابط تركي. وتمنى الآن أن تكون سريته في حلب قد نسيته ولم يعد يشعر بالرغبة في لفت الانتباه إليه. ولكن الشيء الذي فاجأه معرفة هؤلاء المسؤولين في أنطاكية بكل شيء يتعلق به. لكن المدير سرعان ما أزال شعوره بالرضى. «لذلك يا أفندي فيمكن أن تعتبر نفسك جندياً في إجازة. لذلك فلا داعي لتصريح المرور».

- « لكن ماذا عن زوجتي وابني ؟ ».

عندما قال كابرييل ذلك، بدا أن المدير قد شعر بالارتباك فقال في نفسه: «لا بد أننا وقعنا في شرك ».. وفي تلك اللحظة انفتح الباب بمصراعيه والمؤدي إلى المكتب التالي، ودلف رجلان. أحدهما ضابط كبير في السن والآخر لا بد أن يكون القائمقام. وكان الحاكم الإقليمي هذا ضخم الجثة، منتفشاً، يرتدي معطفاً رمادياً مجعداً. وكان تحت عينيه انتفاخ بني داكن اللون. نهض باكراديان والمدير فور دخولهما، لكن القائمقام لم يعر الأرمني أي لفتة وأصدر توجيهاته بصوت منخفض للمدير ورفع يده إلى طربوشه وتبعه المايجور وخرج من المكتب.

نظر كابرييل ناحية الباب وقال: « هل تميزون إذاً بين الضباط ؟ ». كان المدير قد أخذ في ترتيب طاولة مكتبه وقال: « لم أفهم ماذا تقصد يا أفندي » فرد عليه كابرييل: «أقصد هل يوجد تمييز في المعاملة بين الأتراك والأرمن؟». انتاب المدير شيء من الاضطراب لدى سماعه هذا السؤال وقال: «إن كل الرعايا العثمانيين متساوون أمام القانون ». ثم أردف إن هذا هو أهم إنجاز حققته ثورة 1908 وإن بعض العادات التي كانت سائدة قبل أيام الثورة يجب أن تبقى مثل المعاملة التفضيلية للعثمانيين في المكاتب العسكرية والحكومية، وهي أحد الأمور التي لا يمكن لدستور البرلمان أن يغيرها. فالشعوب لا تتغير بالسرعة التي تتغير فيها دساتيرها، وإن الإصلاحات على الورق أسهل بكثير مما هي في الواقع. واختتم حديثه بنظرية سياسية وقال : «إن الحرب ستحدث تغييرات هامة عديدة ».

اعتبر كابرييل هذه نبوءة مفعمة بالأمل، إلا أن المدير أدار وجهه المنمش فجأة، وأصبح يقطر كراهية بدون سبب ظاهر وقال: « ولنأمل في الوقت نفسه أن لا تطرأ أمور ترغم الحكومة على أن تعامل بعض الطوائف بشدة ودون هوادة ».

عندما توجه كابرييل باكراديان إلى السوق في أنطاكية، كان قد اتخذ في قرارة نفسه قراراً يتعلق بنقطتين. فهو سيبذل جهده للخلاص من الجندية إذا ما استدعي، وسينتظر حتى تضع الحرب أوزارها في بيته الهادىء في يوغونولوك، وعندما يحل السلام يعود إلى باريس بأسرع ما يمكن. سار في البازار ، ذلك الدفق الحاشد من الناس وهم يغذون الخطا على الرصيف. من الجائز

أن يبقى في هذه البقعة الموحشة من أنطاكية بل من الممكن أن ينقل إلى حلب أو دمشق. وبدا أن التيارين المتقابلين من المارة لا ينضبان. أتراك يرتدون ثياباً أوروبية، ويضعون طرابيش على رؤوسهم، ياقات مرفوعة وعكازات، موظفون أو تجار أرمن، يونانيون، سوريون. هؤلاء أيضاً يرتدون ثياباً أوروبية لكنهم يمتازون بأغطية رؤوسهم. وبين هؤلاء أكراد وقوقازيون بلباسهم التقليدي. كان معظمهم يحمل سلاحاً. وكانت الحكومة تنظر إلى كل سكين يحمله الأرمن بعين من الريبة، في حين كانت تتسامح مع أولئك الجبليين بل إنها كانت تزودهم بتلك الأسلحة. فلاحون عرب من المناطق المجاورة، وعدد من البدو من الجنوب في جلابيبهم الطويلة وغطراتهم الحريرية المنسدلة فوق أكتافهم. ونساء يرتدين ثيابهن المعهودة. ألبسة محتشمة للمسلمات. ولكن كذلك هناك نساء غير محجبات، المتحررات منهن يرتدين فساتين وقد بدت سيقانهن المغطاة بكلسات حريرية. وهنا وهناك، وفي خضم هذا التيار من البشر، كان يمر حمار يئن تحت أثقاله، ذلك الحيوان الكادح المسكين من بين أكثر الحيوانات. لكن هذا العالم بأكمله المؤلف من رجال ونساء وأتراك وعرب وأرمن وأكراد وجنود بمعاطف بنية، وفي وسط كل هؤلاء ماعز وحمير اندمجت كلها في وحدة لا توصف، خطوة طويلة وبطيئة تتحرك إلى الأمام بدون مقاومة دون أن يكون لها هدف محدد.

كان يتناهى إلى سمعه أصوات البائعين الجوالين المليئة بالحماس: «يا رزاق يا كريم، يا فتاح يا عليم». كان ذلك صوت الصبي الذي راح يعرض على المارة أرغفة الخبز الأبيض المستديرة وهو يردد بملء فمه يا رزاق يا عليم.. وهذا بائع آخر يصيح: الدايم الله، الله الدايم. اشترى كابرييل قطعاً من البرازق، وهي عبارة عن كعك صغير الحجم مدهون بعصير العنب. وأعاد هذا الصنف من الطعام إلى ذاكرته أيام طفولته. إلا أنه ما أن قضم أول لقمة منها حتى شعر باضطراب في معدته فأعطى هذه الحلوى إلى ولد صغير، كان واقفاً إزاءه يحدق به.

تولاه شعور بالفزع فأغمض عينيه برهة. ماذا كان يمكن أن يحدث من أجل تغيير العالم بشكل كامل؟ فقد ولد هنا، في هذا البلد. ولا بد أن يشعر بالراحة والطمأنينة هنا. غير أن الحشد المتحرك الذي لا يمكن مقاومته في البازار بدا أنه أصبح معادياً له. وذلك المدير الشاب؟ لقد كان مهذباً... « عائلة باكراديان الموقرة».. ومع ذلك خطر لكابرييل أن هذه الدماثة و«العائلة الموقرة» لم تكن سوى إهانة. كانت شعوراً بالكراهية تحت ستار من الدماثة والتهذيب. وأحس أن هذه الكراهية تحيط به وتغمره هنا. وبالفعل انتابه الفزع. ذلك الفزع الذي ينتاب إنساناً يطارده الأعداء دون أن يكون لديه صديق واحد. وفي يوغونولوك، ما عدا في بيته الكبير لم يكن ينتابه مثل هذا الشعور. وقبل ذلك أيضاً عندما كان في باريس. فهناك، وعلى الرغم من الرضاء الذي كان يعيشه، كانت تحيد به الفراغات الباردة التي تحيط عادة الغرباء والذين يضربون بجذورهم في مكان آخر. هل ضرب جذوره هنا؟ هنا وللمرة الأولى في هذا البازار الحقير، في الوطن، كان بإمكانه أن يقيس الدرجة المطلقة لشعوره بالغربة عن هذه الأرض. أرمني! إن دماء قديمة، دماء شعب قديم تجري في عروقه. لكن لماذا يفكر في معظم الأحيان بالفرنسية وليس بالأرمنية (رغم أنه

شعر بسعادة خاصة عندما رد عليه ابنه بالأرمنية في ذلك الصباح). صلة الدم والشعب، أليست هذه المفاهيم جوفاء. بدا له الآن الزقاق الجانبي من البازار. إن معظم البائعين في هذا السوق من الأرمن، يقفون أمام محلاتهم وأكشاكهم: صرافو عملة، بائعو سجاد وصائغون. هؤلاء هم أخوته إذاً؟ تلك الوجوه المكدودة، العيون المتلألئة، المتمسكة بالعادات... لا، شكراً، فهو يرفض مثل هذه الأخوّة. كل جارحة فيه تثور ضدها ولكن هل كان أواديس باكراديان العجوز مختلفاً أم كان أفضل من هؤلاء؟ - رغم أنه كان يتمتع ببصيرة نافذة، إنه موهوب، مفعم بالنشاط والحيوية. أليس من واجبه، هو الحفيد الوحيد، أن يشكر ربه لأنه لم يرغم على العيش كما يعيشون؟ وراح يغذ السير وهو يرتجف مشمئزاً. ثم أدرك فجأة أن إحدى الصعوبات الكبيرة التي بدأ يواجهها في حياته هي أنه أصبح يرى أشياء كثيرة من خلال عيني جولييت. لذلك لم يكن يشعر بالغربة في هذا العالم فقط، بل بغربة في نفسه عندما يتواصل مع أناس آخرين. يا إلهي.. ألا يمكن للمرء أن يكون متفرداً، حراً من مشاعر العداوة المتأججة، الكريهة كما انتابه هذا الشعور في هذا الصباح في جبل موسى ؟..

لم يكن ثمة شيء يوهن العزيمة أكثر من اختبار واقع الإنسان بهذا الشكل. وهرب كابرييل من أوزون تشارشي، السوق الطويل الذي كان الأتراك يدعونه بهذا الاسم. ولم يعد بوسعه أن يحتمل هذا الشعور المتواتر بالعداء. وجد نفسه في ساحة صغيرة مؤلفة من أبنية جديدة. وبرز أمامه منزل جميل المنظر، حمّام بخاري يتسم بشيء من الأبهة مثل الحمّامات العامة الأخرى في تركيا. وجد أن الوقت ما زال مبكراً لزيارة الآغا رفعت بركات العجوز. وحيث أنه لم يشأ التوجه إلى أحد المطاعم المثيرة للريب فقد ولج الحمّام.

أمضى عشرين دقيقة في غرفة البخار الكبيرة وسط الأبخرة التي كانت تتصاعد وتملأ المكان ببطء، ولم يكن هذا البخار لشدة كثافته يجعل بقية المستحمين يبدون وكأنهم أشباح بعيدون عنه فقط بل بدا كذلك أنه يفصله عن جسده. كان نوعاً من الموت الهادىء البطيء. فقد أخذ يشعر بأهمية هذا اليوم.

وفي غرفة التبريد المجاورة، استلقى على إحدى الأرائك، وشعر الآن بأنه أصبح عارياً أكثر مما كان عليه عندما كان في وسط البخار. وأحس بعامل الحمّام يلقي بنفسه عليه، وراح يدلك له جسمه. وبينما كان يفرك ردف كابرييل كان يصدر صوتاً أشبه بالعزف على الصناجات وكان خلال ذلك يصدر دمدمات وهمهمات. ومن الجانب الآخر كان ثمة عدد من البكوات الأتراك يخضعون لذات المعاملة. وكانوا مستسلمين لذلك بمتعة. ومن حين لآخر، كانت تقاطع أصواتهم آنات من الألم. ولم يشأ كابرييل في البداية الاستماع لحديثهم، إلا أن أصواتهم التي كانت تمتزج بهمهمات، كانت تصل إليه وتبدو له فردية جداً، متميزة جداً حتى بدا له أنه يستطيع أن يراها.

الأول، صوت جهير ممتلىء. لا شك أنه رجل محترم، واثق من نفسه ويهمه معرفة خفايا وتفاصيل كل شيء، حتى قبل أن يعرف المسؤولون المعنيون إن أمكن. هذا الرجل الذي يعرف

معلومات كثيرة لديه مصادر سريّة. يقول: « لقد أرسله الانكليز في أحد طراداتهم من قبرص ووضعوه على الشاطىء... قرب أوجالكي.. وأحضر معه نقوداً وأسلحة وكان يجول في أنحاء القرية... بالطبع لم يكن المسؤولون على علم بأي شيء... حتى أني أستطيع أن أذكر لك أسماء.. كوشكريان هو اسم ذلك الخنزير القذر.. ».

الصوت الثاني يأتي عالياً مضطرباً. رجل مسن هادىء. يبذل ما بوسعه لكي يكون متفائلاً. سمعه يقول: «لا إله إلا الله... لا يمكن أن يكون ذلك موجوداً.. لكن ربما لم يكن ذلك صحيحاً ولعلها مجرد شائعة...». يعلق الصوت الجهير بشيء من الاشمئزاز «لدي رسائل هامة من شخصية تتبوأ منصباً عالياً... صديق وثيق..».

صوت ثالث. صوت سياسي مبتدىء بدا أنه يرى أن العالم يجب ألا يستقر. يقول: «لا نستطيع أن نترك الأمور تجري أكثر من ذلك.. يجب أن نضع حداً لها. لقد وجدت الحكومة من أجل ذلك.. ماذا عن الاتحاد؟.. إن الشيء الذي يدعو للأسف هو هذا التجنيد الإجباري.. حتى إننا سلحنا هؤلاء الأوغاد... كيف تظنون أنه بإمكاننا التعامل معهم؟.. الحرب.. لقد صرخت حتى بُحّ صوتي ».

صوت رابع مشحون بهموم الدولة: « وزيتون ؟.. ثم الصوت الهادىء زيتون؟.. لماذا.. ماذا تقصد؟ بحق السماء.. ماذا يحدث في زيتون؟ أجاب السياسي بتجهم في زيتون ؟ لقد عُلّقت أخبار زيتون في جميع غرف المطالعة التابعة للحكومة.. بإمكان الجميع أن يقنع نفسه بأن..

الصوت الجهوري: «لقد أقام القناصل الألمان غرف المطالعة في كل مكان..» يقاطعه صوت خامس من أبعد أريكة: « نحن الذين أقمناها. تلميحات غامضة: «كوشكريان.. زيتون.. يجب أن نضع حداً لها..».

إلا أن كابرييل فهم كل شيء دون أن يلج في التفاصيل. وفيما كان عامل الحمّام يضغط بقبضته على كتفيه كانت الأصوات التركية هذه تدوي في أذنيه. يا للعار. فهو الذي كان منذ فترة وجيزة يمر أمام أصحاب المحلات الأرمن في البازار، وانتابته رعشة من الكراهية، وشعر الآن أنه متورط، مسؤول عن مصير شعبه.

في تلك اللحظة نهض المستحم في الطرف الآخر، وصدر عن الأريكة أزيز. ارتدى البرنص، وعلى قدمين مترنحتين أخذ يذرع الغرفة. تبين كابرييل أنه طويل وممتلىء. ومن طريقة حديثه والطريقة التي كان فيها الآخرون ينصتون له باحترام استنتج كابرييل أنه لا بد أن يكون رجلاً ثرياً جداً وراح يقول: «إن الناس لا ينصفون الحكومة... إن نفاذ الصبر وحده لا يكفي لتحديد سياسة حكومة. إن حقيقة الأمور تختلف تماماً عما يظن الناس أنه يحدث. معاهدات.. امتيازات أجنبية.. اعتبارات من كل نوع.. الرأي الأجنبي.. لكن دعني أؤكد للباهوات بشكل موثوق بأن الأوامر صدرت عن وزارة الحربية وعن سعادة أنور باشا شخصياً إلى السلطات العسكرية في المناطق بتجريد الشعب الأرمني الخائن من السلاح – أي استدعاء الأرمن من الخطوط الأمامية

وجعلهم يقومون بأعمال وضيعة مثل شق الطرق، حمل الأثقال.. هذه هي الحقيقة.. لكن يجب عدم البوح بها.

- «لا يمكنني أن أدع ذلك يمر.. لا يمكنني أن أقبل ذلك» قال كابرييل في نفسه. وحذره صوت آخر بهدوء: «أنت نفسك المضطهد» إلا أن قوة غامضة دفعته للنهوض عن الأريكة وجعلته يقرر النضال. دفع العامل جانباً واستوى واقفاً على قدميه. ربط المنشفة البيضاء حول خصره. كان وجهه يتقد غضباً، وشعره أشعث، وبدا أن صدره العريض لا يخص ذلك السيد الذي كان يرتدي بزة مصنوعة من قماش (التويد) هذا الصباح، ووقف أمام الرجل الثري، وعلى الفور تبين أنه القائمقام من الانتفاخ تحت عينيه ووجهه الباعث على الغثيان، وهذا ما زاد حفيظته وغضبه وأخذ يقول:

« لو لم ينقذ الجنود الأرمن حياة سعادة أنور باشا وحاشيته في القوقاز، لكان الروس قد أخذوه أسيراً. وأنت تعرف ذلك يا أفندينا مثل ما أعرف. وكما تعلم فقد أثنى سعادته على شجاعة الأرمن برسالة بعث بها إلى مطران قونية. وقد أصدرت الحكومة أمراً بنشر هذه الرسالة وتعميمها. هذه هي الحقيقة. ومن يحاول تشويه هذه الحقيقة بنشر الشائعات لإضعاف الروح المعنوية وتهديم وحدتنا، هو عدو الامبراطورية، خائن.. أنا كابرييل باكراديان الضابط في الجيش التركي أقول لكم ذلك ».

وقف وانتظر سماع رد. لكن الباكوات الذين لم يسرهم هذا الانفجار غير المتمدن لم ينبسوا بكلمة - حتى القائمقام، الذي شد برنصه بقوة حول خصره. وهكذا تمكن كابرييل من الخروج من الحمّام منتصراً، مع أن جسده كان ينتفض من الغضب. وعندما أخذ يرتدي ثيابه، أدرك تماماً أن ما فعله لم يكن إلا أكثر الأمور حماقة في حياته. الآن أصبح الطريق إلى أنطاكية مسدوداً، التي كانت الوسيلة الوحيدة لدخول العالم والخروج منه. كان يتعين عليه قبل أن يوجه الإهانة إلى القائمقام أن يتذكر جولييت وستيفان... ومع ذلك لم يتمكن من توجيه اللوم إلى نفسه.

كان قلبه ما زال ينبض بسرعة عندما قاده خادم رفعت آغا بركات إلى غرفة الاستقبال الباردة. وأخذ كابرييل يذرع الغرفة فوق السجادة الكبيرة مغموماً. وكانت ساعته التي ما زالت على التوقيت الأوروبي، تشير إلى الساعة الثانية بعد الظهر. فهذه إذاً ساعة القيلولة المقدسة التي يجب عدم الازعاج خلالها. لقد وصل في وقت مبكر جداً، لكن الآغا الذي يتمسك بالشكليات التركية القديمة سمح له أن ينتظره.

أخذ كابرييل يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً التي كادت تخلو من أي شيء. ففضلاً عن الأريكتين الطويلتين، لم يوجد سوى قطع نحاسية وطاولة صغيرة لوضع الأكواب عليها. وراح يبرر لنفسه عدم لباقته بالمجيء الآن - كان ثمة شيء يغلي في داخله - لا أعرف ما هي بالضبط، لكني لا أملك دقيقة واحدة لكي أضيعها حتى تنجلي الأمور - كان رفعت بركات صديقاً لعائلة باكراديان منذ زمن قديم. وكان قد زاره مرتين منذ وصوله إلى يوغونولوك. ولم يكن الآغا يساعده في عقد صفقات شراء فحسب بل كان يرسل له من حين لآخر وكلاء تجاريين يحملون عروضاً مغرية جداً من المكتشفات الأثرية النادرة ليضيفها إلى مجموعته.

وجد صاحب البيت الذي دلف إلى الغرفة. دون أن يصدر عنه صوت لأنه كان يرتدي خفاً من جلد الماعز، إن كابرييل كان يحدث نفسه. كان الآغا رفعت بركات قد نيف على السبعين وقد خطت على وجهه لحية بيضاء خفيفة. كانت ملامحه دقيقة ناعمة، وعيناه نصف مغلقتين، ويداه الصغيرتان ترتعشان. وكان يلف منديلاً أصفر حول طربوشه علامة الورع والتقي.

رحب الرجل المسن القصير بضيفه ولوح بيده لامساً قلبه وفمه وجبهته. ورد كابرييل التحية بنفس القدر. ولم يبد أن الانتظار قد وتّر أعصابه. اقترب الآغا منه ومد يده اليمنى نحو قلب ضيفه حتى لامست أطراف أصابعه صدر كابرييل. فلقد كان هذا «الاتصال القلبي » أوثق أشكال التعاطف الشخصي. وإحدى الطرق الصوفية التي يسلكها بعض الرجال الأتقياء الذين ينتمون إلى إحدى طرق الدراويش. وبدت اليد الصغيرة البيضاء أكثر تلألؤاً في ضوء الغرفة. وتخيل كابرييل أن هذه اليد وجه، بل لعلها أكثر حساسية ورهافة من الوجه الفعلي. « صديقي وابن صديقي ». كان هذا التأكيد الطويل جزءاً من حفاوة الترحيب – « لقد وصلتني بطاقتك للتو كهدية جميلة غير متوقعة. إن وجودك معي يضيء يومي ». أما كابرييل الذي كان يعرف طريقته بالترحاب وجد الصيغة المناسبة للرد: «لقد تركني والداي المتوفيان وحيداً وأنا ما زلت يافعاً، لكني أجد فيك شاهداً حياً على ذكراهما. لكم أنا سعيد حقاً بأن أجد فيك أباً ثانياً.. إني مدين لك بالكثير». وقاد الرجل المسن ضيفه إلى الأريكة.

– «إنك تشرفني اليوم للمرة الثالثة. وكان من المفروض أن أقوم بزيارتك في بيتك منذ زمن بعيد. ولكنك ترى أني أصبحت مسناً وعاجزاً، والطريق إلى يوغونولوك وعر وطويل، بالإضافة إلى ذلك أمامي رحلة طويلة وعاجلة يجب أن أوفر لها كل طاقتي.. لذا أرجوك أن تسامحني ».

وبهذه الجملة انتهت مراسم الحفاوة. جلسا، وأخذا يرشفان القهوة ويدخنان السكائر والصمت يرين عليهما. إذا كانت، العادات تقضي بأن ينتظر الزائر الشاب حتى يباشر الرجل العجوز الحديث ويوجهه كما يشاء. غير أن الآغا بدا أنه غير راغب في الخروج من عالمه المظلم إلى ضياء النهار. وأشار إلى الصبي الخادم فأعطى سيده علبة صغيرة من الجلد. أمسكها رفعت بركات ثم ضغط على نابض فانفتحت العلبة. وراحت أصابعه النحيلة تمسح قطعة الساتان التي كانت تغلف قطعتين نقديتين قديمتين، واحدة من الفضة والأخرى من الذهب. « إنك رجل مثقف، درس في جامعة باريس ومتضلع في فك الرموز وقراءة الخطوط. أما أنا فرجل غير متعلم لكني أحب الآثار العتيقة ولا يمكنني أن أباريك في هذا. لكني هيأت منذ أيام هذه الأشياء الصغيرة لأقدمها لك هدية. لقد سُك ت هذه القطعة الفضية منذ ألف سنة في عهد الملك الأرمني الذي يشبه اسمه اسم عائلتك: أشود باكرادوني. وهي منطقة تجاور بحيرة فان، إنها قطعة نادرة. أما القطعة الذهبية فهي إغريقية وتستطيع أن تفك رموز أحرفها الجميلة بدون مكبّرة: «إلى المجهول الذي لا يعلل، فينا وفوقنا».

نهض كابرييل باكراديان لأخذ الهدية وقال: «إنك تخجلني يا أبتي. وفي الحق لا أعرف

كيف أشكرك. لقد كنا دائماً فخورين بحمل أسماء تبدو متشابهة. كم هو جميل هذا الرأس. رأس أرمني حقيقي. ويجب على المرء أن يضع القطعة الإغريقية حول عنقه لتكون فأل خير. «إلى المجهول الذي لا يعلل، فينا وفوقنا» كم كان هؤلاء الفلاسفة عظاماً. وكم يا ترى تدنينا إلى الحضيض ».

هز الآغا رأسه موافقاً وقال: «إنك على حق! فكم تدنينا إلى الحضيض !» أعاد كابرييل القطع إلى قطعة الساتان. لكن كان من عدم اللباقة تغيير موضوع الهدية فقال: «أرجو أن تختار لنفسك هدية لقاء ذلك من مجموعتي الأثرية، ولكني أعرف أن دينك يحرم وضع رسم له ظل ». قال الآغا بشيء من السرور حول هذه النقطة: « نعم ولهذا السبب بالذات، أنتم معشر الأوروبيين تكنون احتراماً لقرآننا الكريم؛ ألا توجد حكمة عميقة وراء هذا القانون الذي يحرم جمع التماثيل التي لها ظل؟ إن تقليد الخالق وخلقه هي البداية الأولى لافتخار الإنسان الأمر الذي يؤدي إلى تدمير البشرية ».

– «هذا الزمان وهذه الحرب تثبت لنا أن نبيكم على حق يا آغا ».

بدا أن هذه المحادثة راقت للآغا فأردف قائلاً: « نعم. إن الأمر لكذلك. إن الإنسان الذي يقلد خلق الله يصبح ملحداً وهو السبب العميق الذي يكمن وراء اشتعال هذه الحرب الذي جرّنا الغرب إليها. هذا من سوء حظنا. فماذا سنجني من ورائها ؟ » وحاول باكراديان تلمس الخطوة التالية: « ولقد أصابوا تركيا بعدوى وباء خطير – الكراهية العرقية».

أمال رفعت بركات رأسه إلى الوراء قليلاً. وكانت أصابعه تعبث بحبات السبحة الكهرمانية، وبدا له أن هاتين اليدين كانتا تبعثان هالة خفيفة من نور القداسة وقال: « من المبادىء السيئة جداً أن يُطلب منا البحث عن أخطائنا في جيراننا ».

– « بارك الله بك! البحث عن أخطائنا في جيراننا. إن هذا المبدأ يستحوذ على أوروبا كلها. لكني للأسف، علمت مؤخراً أنه يوجد عدد من الأتراك والمسلمين الذي يعتنقون هذا المبدأ».

– « من هم الأتراك الذين تقصد ؟» وفجأة توقفت أصابع الآغا عن العبث بسبحته: « هل تقصد تلك الزمرة التافهة من المقلدين في استانبول ؟ ومقلدوهم أيضاً ؟ تلك القرود التي ترتدي معاطف وسترات العشاء؟ هؤلاء الخونة، هؤلاء الكفرة الذين سيدمرون الكون الذي خلقه الله من أجل النفوذ والنقود فقط؟ إن هؤلاء ليسوا أتراكاً أو مسلمين. إنهم مجرد أوغاد يركضون وراء المال.

رفع كابرييل فنجان القهوة الصغير، الذي لم يبق فيه سوى الحثالة في قعره. وبدا عليه الارتباك «اعترف أنه منذ سنوات مضت، جلست مع هؤلاء الأشخاص وكنت أتوقع أشياء طيبة منهم. لقد اعتبرتهم مثاليين، وربما كانوا كذلك في تلك الأيام. الشباب دائماً يؤمن بكل شيء جديد. لكن اليوم وللأسف الشديد فإني مرغم على رؤية الحقيقة كما تراها أنت. فمنذ لحظات فقط، كنت في الحمّام وسمعت حديثاً أزعجني جداً. ولهذا السبب جئت لزيارتك في هذه الساعة غير المناسبة ».

لم تكن بصيرة الآغا تحتاج إلى دليل آخر « هل كان الحديث يتناول أمراً عسكرياً سرياً يقضي بجعل الأرمن كانسي شوارع وحمالين ؟».

فك كابرييل رمز الزهرة المرسومة على السجادة عند قدميه وقال: « كنت حتى صباح هذا اليوم أنتظر أوامر التحاقي بكتيبتي.. ثم سمعت حديثاً عن مدينة زيتون. ساعدني بربك. ماذا يحدث حقاً ماذا جرى ؟ عادت حبات السبحة الكهرمانية تنسل بشكل منتظم بين أصابعه وقال: « بالنسبة إلى زيتون فلدي معلومات عنها. إن ما حدث هناك يحدث يومياً في الجبال. سرقة مؤن. فارون من الجندية من بينهم أرمن. لكن أحداً لم يلاحظ هذا الأمر من قبل ثم أردف قائلاً: « لكن ما هو الحدث ؟ إن ما يحدث هو تفسير لذلك ».

كان كابرييل على وشك أن يفقد السيطرة على نفسه «هذا ما حدث بالفعل... ماذا تنوي الحكومة أن تفعل ؟ ».

قال العجوز هذه الكلمات المشوبة بالاستياء وحرك يده المتعبة « سأقول لك شيئاً يا صديقي وابن صديقي. إن مصيراً مشؤوماً يحوم فوقكم لأن قسماً منكم ينتمي إلى الامبراطورية الروسية وقسماً ينتمي إلينا. لقد قسمتكم الحرب قسمين. إنكم مشتتون بين الأمم.. ومع ذلك، نظراً لأن جميع الأشياء في هذا العالم متداخلة مع بعضها، ونحن كذلك مستسلمون لمصيركم ».

- «أليس من الأفضل أن نفعل كما فعلنا في 1908 ونسعى للمصالحة وتسوية الأمر؟ «المصالحة؟» هذه مجرد كلمة جوفاء يستخدمها أولئك الذين يهتمون بالأمور الدنيوية. لا يوجد شيء يدعى المصالحة في هذا الكون. نحن نعيش هنا في جو من الفساد وحب الذات ».

وقف كابرييل الذي لم يعد قادراً على الجلوس هادئاً على الأريكة ولكن نظرة الرجل العجوز أرغمته على الجلوس ثانية:

- « هل تريد أن تعرف ما هي نوايا الحكومة؟ أنا أعرف فقط أن الكفرة في استانبول يحتاجون إلى الكراهية العرقية لتحقيق مآربهم نظراً لأن جوهر الإلحاد هو الخوف والإحساس بخسارة اللعبة. لذلك فهم ينشرون الآن الشائعات في كل مدينة صغيرة لنشر نيتهم الشريرة في الخارج. ومن الجيد أنك جئت إليّ ».

أحكم كابرييل قبضته حول العلبة التي تضم القطع النقدية « لو كان الأمر يتعلق بي فقط لكنت... ولكن كما تعرف لست وحدي. لقد توفي أخي أواديس دون أن يخلف ذرية، لذا فإن ابني الذي يبلغ من العمر ثلاثة عشر عاماً هو آخر فرد في عائلتي فضلاً عن ذلك فإني تزوجت امرأة فرنسية وقد انجرّت إلى هذه الكارثة دون أن يكون لها ذنب في ذلك ».

لكن الآغا رفض هذه الحجة بشيء من الحدة: «إنها تنتمي إلى عرقك بعد أن تزوجتها، ولا يمكن أن تتخلص من مصيرها».

وبما أنه كان من العبث محاولة التحدث عن استقلال المرأة في الغرب إلى هذا الرجل المغرق

في شرقيته، تجاهل باكراديان هذا الاعتراض وقال: « يجب أن أرسل عائلتي إلى الخارج أو على الأقل إلى استانبول. غير أنهم سحبوا منا جوازات السفر ولا أتوقع شيئاً طيباً من القائمقام ».

وضع التركي يده اليمنى على ركبة ضيفه وقال: « يجب أن أحذرك بعدم الذهاب إلى استانبول مع عائلتك، حتى لو أتيحت لك إمكانية ذلك ». « ماذا تعني ؟ لماذا؟ فلدي أصدقاء في استانبول من جميع المستويات، حتى في الدوائر الحكومية. كما يوجد هناك المقر الرئيسي لشركتنا. علاوة على أن اسمي معروف جيداً هناك ». أصبحت اليد على ركبة كابرييل أكثر ثقلاً « ولهذا السبب بالذات - لأنك معروف هناك جيداً - فإني أحذرك حتى من الإقامة ولو لفترة قصيرة في العاصمة ».

- « بسبب المعارك في الدردنيل ؟ ».

- «لا. ليس بسبب ذلك ». وأصبح وجه الآغا غامضاً. وقبل المضي في كلامه استمع إلى صوت داخلي «لا يعرف أحد إلى أي مدى ستتمادى الحكومة. ولكن الكثير من ذلك أمر مؤكد - سيكون كبار قومك وأكثرهم شهرة أول من يعاني. ومن المؤكد أن تبدأ في مثل هذه الحالة الاعتقالات وتوجيه الاتهامات في العاصمة».

- «هل تقول ذلك لأنك سمعت شيئاً أم لديك أخبار مؤكدة وترغب في تحذيري؟» وضع الآغا سبحته الكهرمانية في جيبه العريض وقال: « نعم لدي أخبار أكيدة». لم يعد كابرييل قادراً على تمالك نفسه فانتصب واقفاً وقال: « ماذا سنفعل إذن ؟ ».

- « إذا كان عليّ أن أسدي إليك نصيحة فتوجه إلى منزلك في يوغونولوك. وابق هناك وانتظر بهدوء. إذ ليس بإمكانك أن تختار مكاناً أفضل لك ولعائلتك من هذا في مثل هذه الظروف ».

- « بهدوء؟ » صاح كابرييل بشيء من الازدراء « لقد أصبحت للتو سجيناً».

أشاح رفعت بركات بوجهه وقد انزعج من هذا الصوت المرتفع في الغرفة الهادئة وقال: «يجب ألا تفقد أعصابك. سامحني إن كانت كلماتي الصريحة قد جرحتك. ولا يوجد سبب يدعوك للقلق. فمن الجائز أن يتلاشى كل شيء، إذ لا يمكن أن يحدث شيء سيء في ولايتنا لأن الوالي جلال بك طيب ولا يلجأ إلى مثل هذه الأساليب الباطشة.. ومع ذلك فمهما حدث، فهو موجود للتو، مستتر كالبرعمة والفاكهة داخل البذرة وإن ما سيحدث مكتوب علنياً.

أثارت هذه الأعذار العقائدية البراقة غضب باكراديان ولم يعد يبالي بالشكليات فراح يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً وراح يقول: «إن المثير للفزع حقاً هو أنه لا يوجد شيء تتمسك به، لا شيء تقاتل ضده».

اقترب الآغا من كابرييل الذي أخذته الدهشة وأمسك بيده بكلتا يديه وقال: «لا تنس أبداً يا صديقي أن الأوغاد الكفار من جمعية الاتحاد ليسوا سوى أقلية ضئيلة، وشعبنا شعب لطيف. وإذا ما أريقت الدماء مرة أخرى عندما يصبح الغضب هو السائد فلن تكون المعاناة بسببنا. وهناك عدد

كاف من الرجال المؤمنين بالله الذين يعيشون في التكايا وفي الأديرة، يناضلون من أجل مستقبل نقي طاهر في صلواتهم المقدسة. فإما أن يفوزوا أو نهلك جميعاً. ويتعين عليّ أن أقول لك إن رحلتي إلى الأناضول واستانبول هل لمصلحة الأرمن. وأرجو أن تكون ثقتك بالله كبيرة».

كانت يدا العجوز قويتين بشكل يكفي لتهدئة روع كابرييل.

– «إنك محق. سأفعل كما تقول. فمن الأفضل العودة إلى يوغونولوك وعدم إثارة أي شيء حتى تضع الحرب أوزارها ».

كان الآغا ما يزال يمسك يدي كابرييل وقال له: « عدني أنك لن تتفوه بكلمة واحدة في القرية. ولماذا تفعل ذلك ؟ فإذا سارت الأمور كما في السابق، فلن تكون قد عملت شيئاً سوى بث الذعر في نفوس الناس بشكل غير ضروري. وإذا ما لحق بكم أي مكروه فلن يجدي الخوف نفعاً. إنك تفهمني – ثق بي والزم الصمت ».

عندما استأذنه في الانصراف كرر الآغا بحماس «ثق بي والزم الصمت فلن تراني ثانية إلا بعد أشهر عديدة. ولكن تأكد أنني خلال هذه الفترة سأعمل من أجلكم. لقد كان آباؤك في غاية اللطف معي، والآن يتيح لي الله فرصة رد الجميل ».

3- أعيان يوغونولوك

استغرقت رحلة العودة إلى يوغونولوك بعضاً من الوقت، وذلك لأن كابرييل ترك حصانه يسير ببطء، كما أنه لم يتخذ الطريق الأقصر بل سار على الطريق العام الممتد على نهر العاصي. ولكنه ما أن برز أمامه الخط الساحلي وراء البيوت التي بدت على شكل عنقود في السويدية والإسكل نفض أحلامه من رأسه واستدار باتجاه الشمال نحو وادي القرى الأرمنية ووصل إلى الطريق – إذا ما سمحنا لأنفسنا أن نطلق ذلك على ممر العربات الذي يربط الطرق السبعة بطريق واحد – في الوقت الذي أخذت فيه الشمس في ذلك النهار الربيعي تميل إلى الغروب . ونظراً لأن يوغونولوك كانت تقع في الوسط تقريباً، كان عليه أن يعبر القرى الجنوبية وهي الوقف، الخدير بيك ، حاجي حابيبلي. لذلك لم يكن بإمكانه الوصول إلى قريته قبل حلول الظلام. لكنه لم يكن على عجلة من أمره.

في تلك الساعة، كانت حارات القرى المحيطة بجبل موسى مكتظة بالناس. فقد كان الجميع يقفون أمام أبواب منازلهم كما جرت عليه العادة في مساء كل يوم أحد. كانت الأجساد والعيون والأصوات تتلاقى لتزيد من متعة كونهم أحياء من خلال الثرثرة والتذمر من أحوال هذا الزمن. وكان الناس ينقسمون إلى مجموعات حسب الجنس والعمر. فقد كانت العجائز يرمقن بعضهن بعين من الريبة، أما الزوجات الشابات فكانت الفرحة بادية على وجوههن وقد ارتدين أفضل ما عندهن في يوم الأحد، في حين كانت الفتيات تتضاحكن، والقطع النقدية التي كن يتزين بها تهتز وتحدث رنيناً، وكانت تبدو أسنانهن الجميلة والابتسامة تعلو شفاههن. وانتابت كابرييل الدهشة من العدد الكبير للشباب ذوي الأجساد المتينة الذين كان من المتوجب استدعاؤهم للجندية. وكان هؤلاء يتبادلون الدعابات ويضحكون بملء أشداقهم. وكأن أنور باشا لم يكن له وجود في هذا الكون. وتناهى إلى سمعه صوت أنغام الغيتار الأرمني من بين الكروم والبساتين، في الوقت الذي كان فيه عدد من الرجال منهمكين في بعض الأشغال اليدوية. إن النهار التركي ينتهي مع الغسق، وكذلك ينتهي يوم الراحة. فبعد أن أخلد الرجال الذين أمضوا سحابة النهار في العمل إلى الراحة، شعروا بالحاجة إلى تجاذب أطراف الحديث حول أمور مختلفة قبل الاخلاد للنوم.

وكان من الممكن تسمية القرى السبع حسب المهن اليدوية التي كانت تتميز بها كل واحدة

منها بدلاً من الأسماء التركية. فقد كانت جميعها تزرع الكرمة والفواكه وقلما تزرع الحبوب. لكن شهرتها كانت تنبع من مهارتها في الأعمال اليدوية. فها هي ذي (حاجي حابيبلي) المشهورة بالأعمال الخشبية إذ أن رجالها لا يصنعون أفضل أنواع الأخشاب والأمشاط الدقيقة والغلايين ومماسك السكائر والأشياء ذات الاستخدام اليومي وكانوا كذلك يقومون بحفر صلبان من العاج وتماثيل عن السيدة العذراء والقديسين التي كانت تصدر إلى حلب ودمشق والقدس . وكانت تتميز تلك القرية بأسلوبها الخاص في أعمال الحفر هذه. أما قرية (الوقف) فكانت تشتهر بصناعة المناديل الرقيقة وأغطية الرأس الجميلة التي كانت تجد رواجاً حتى في مصر، دون أن يعلم صانعوها بذلك. إذ أن كل ما كانوا يعرفونه هو أنهم يرسلون منتجاتهم إلى أسواق أنطاكية فقط مرة أو مرتين في الأسبوع. وكنا قد تحدثنا عن قرية (أزيز) وتربية دود القز الذي تشتهر به. وكان الحرير يغزل في (خدير بك). أما في القريتين الكبيرتين (بيتياس ويوغونولوك) فكانت كل هذه الأعمال تتم جنباً إلى جنب. أما (الكبوسية)، القرية المنعزلة في أقصى الشمال فكانت تشتهر بتربية النحل. وكان عسل الكبوسية أفضل عسل على سطح الكرة الأرضية، أو على الأقل، هذا ما كان يعتبره كابرييل باكراديان. فقد كان النحل يمتص رحيق جبل موسى الأخاذ، المنعزل عن جميع القمم الكئيبة في الأرض، بمروجه التي تزينها الأزهار على سفوحه الشرقية، وبساتين المشمش والكرمة وبيارات البرتقال المنتشرة على سفوحه. لقد بدا أن كل هذا الجمال الأخاذ نادراً ما تأثر بسقوط الإنسان. فهنا على طول الشاطىء السوري، وإلى مسافة أبعد قليلاً في بلاد الأنهار الأربعة، كان خبراء جغرافية الانجيل يغرمون بتحديد مكان جنة عدن.

ومن نافلة القول، إن القرى السبع المحيطة بالجبل كانت تشارك في هذه النعم التي حباها الله بها. فبعد نصف قرن من الزمن، ظهرت في هذا المكان ثمار الجهود المضنية التي بذلها أواديس باكراديان، والحب الذي كان يكنه هذا الرجل النشيط الذي كرس جل طاقاته لتحسين تلك القطعة من أرض الأجداد بالرغم من مغريات العالم. وجاء الآن حفيد هذا الرجل ليشاهد بعينين مليئتين بالدهشة هؤلاء الناس الذين جعلوا الطبيعة من حولهم بمثل هذا الجمال الرائع. وقبل وصول كابرييل بدقائق قليلة لاذت المجموعات التي كانت منهمكة في الحديث بالصمت، وراحت تستدير نحو وسط الشارع وتحييه بصوت عال: « باري ايركون»، وربما تخيل أنه رأى في عيونهم بصيصاً من العرفان بالجميل، ليس نحوه بل نحو المحسن القديم. ووقفت النساء والفتيات ورحن ينظرن إليه وهن ممسكات بأشغال الصوف.

لم يكن هؤلاء الناس يقلون غرابة عن الناس الذين رآهم في ذلك اليوم في البازار. ماذا كان يجب عليه أن يفعل لهم - هو الذي خرج من أشهر قليلة للتنزه في بوا (Bois)، وكان يحضر محاضرات برجسون، ويتحدث عن الكتب، ويصدر مقالات عن الفن في مجلات هامة؟ ومع ذلك نأى عنهم. ولأنه لمس الخطر الذي يحيق بهم ولا يدرون به، فقد انتابه إحساس غريب بالأبوة نحوهم، وقد حمل هموماً كبيرة في قلبه بمفرده وسيحتفظ بها لنفسه بقدر ما يستطيع. فلم يكن الآغا العجوز رفعت بركات واهماً رغم أنه غلّف فطنته ونباهته بقالب من الأقوال

المعسولة- لقد كان محقاً. فيجب أن يبقى في يوغونولوك وأن ينتظر ما سيحدث. فقد كان جبل موسى منتصب وراء العالم، ولن تصله أية عواصف حتى لو هبت واحدة منها.

لقد ملأ كابرييل قلبه حب دافيء لهؤلاء الناس. «أدام الله سعادتكم غداً وبعد غد..» ورفع يده من فوق صهوة الحصان يرد عليهم التحية.

وصعد الطريق عبر الحديقة إلى الفيلا تحت جنح الظلام. ودلف إلى القاعة الكبرى. وشعر بالمتعة تغمر قلبه عندما شاهد الفانوس الحديدي المهترىء المعلق من السقف وقد أشاع نوراً خافتاً. فقد ذكّره ذلك بأمه. ليست تلك السيدة العجوز التي كانت ترحب بعودته من المدرسة في باريس، في تلك الشقة الفخمة. بل الأم الصامتة الهادئة، وكأنها حلم وهي تنحني فوق طفلها النائم وتقول: « جعلني الله أضحية لروحك ». وكان ثمة ذكرى وحيدة أخرى لا زالت متبقية منذ ذلك الوقت - الفانوس الصغير الموجود تحت صورة السيدة العذراء في الكوة تحت الدرج. أما كل ما تبقى فكان يعود إلى أيام أواديس الصغير. إذ كانت الجدران مزدانة بأسلحة وتذكارات النصر. مجموعة كاملة من بنادق قديمة كان يحملها البدو ذات فوهات طويلة جداً.

عندما صعد كابرييل الدرج شارد الذهن، تناهت إليه أصوات من إحدى الغرف في الطابق الأرضي. فقد كان أعيان يوغونولوك مجتمعين هنا. وقف في غرفته بعضاً من الوقت بجانب النافذة المفتوحة وراح يحدق في الفراغ، في الجزء الجانبي من الداملاجيك الذي بدا له في ذلك الوقت بضعف حجمه. وبعد دقائق قرع الجرس لخادمه ميساك الذي استمر هو وكريستوفر وهوفهانيس الطباخ وجميع العاملين الآخرين في المنزل في خدمته بعد وفاة أخيه.

استحم كابرييل وبدّل ملابسه. ثم دلف إلى غرفة ستيفان. كان الصبي راقداً في سريره يغط في سبات عميق. كانت النوافذ مفتوحة، وأوحت له الأشجار العارية في الخارج بتوجس حدوث شر مستطير. وهنا كذلك غلّف الظلام الذي كان يسود جبل موسى الغرفة. جلس باكراديان على كرسي بجانب السرير. في ذلك الصباح كان الابن يراقب أباه النائم، أما الآن فقد راح الأب يراقب ابنه النائم.

كانت جبهة ستيفان (التي تشبه جبهة كابرييل تمام الشبه) تلتمع بشفافية، وتحتها ظلال العينين المغلقتين كأنهما ورقتان من أوراق الورد. ولم يكن قد أخذ الأنف الضيق المدبب عن أبيه بل عن أمه جولييت. كان ستيفان يتنفس بسرعة. فقد كانت جدران نومه تغلف حياة مندفعة. وكانت يداه المطويتان منضغطتين على جسده كما لو كان يمسك لجام حصان وكأن الأحلام تجري معه.

أصبح نوم ستيفان قلقاً. لم يتحرك الأب. أدار وجه ابنه نحوه. هل كان يخشى على ستيفان؟ لم يستطع القول. لم تخطر له أية أفكار. وأخيراً وقف ولم يتمكن من كتم سخطه. شعر باكتئاب شديد وعندما أخذ يتحسس طريقه إلى خارج الغرفة اصطدم بطاولة. وقد زادت الظلمة من أثر تلك الضجة. تسمّر كابرييل في مكانه، وخشي أن يكون قد أيقظ ابنه. لكنه سمع صوت الصبي النائم في الظلام وهو يدمدم: «من هناك.. أبتي هل هذا أنت ؟». وعلى الفور عاد تنفسه ليصبح

هادئاً. وأشعل كابرييل مصباحه اليديوي برهة. وسلط الضوء على الطاولة حيث كانت الرسوم متناثرة. كان ستيفان قد بدأ في رسم جبل موسى كما اقترح عليه والده. وكان قد أنهى مخططاً سريعاً، وكانت الخطوط الحمراء العديدة تتداخل بين الخطوط التي رسمها أفكايان.

كانت غرفة الاستقبال في الفيلا تؤدي إلى غرفة واسعة تنفتح بدورها على الصالة. ولم تكن الغرفة مؤثثة تأثيثاً جيداً وكانت تستخدم كحجرة انتظار. فقد كان أواديس العجوز قد بنى بيته وهو يفكر بعدد كبير من الذرية، لذلك لم تستخدم تلك العائلة الصغيرة المتبقية سوى بضع غرف. وكان يضيء هذه الحجرة العارية مصباح يعمل بالكيروسين وقد وضع على الأرض. توقف كابرييل لحظة، وراح ينصت للأصوات في الباب المجاور. سمع جولييت تضحك. إذاً فهي سعيدة بالإعجاب الذي يكنه لها القرويون الأرمن. وهذا مكسب له.

في تلك اللحظة فتح الدكتور بدروس ألتوني العجوز الباب يهم بالخروج. وقد أضاء الشمعة في مصباحه وحمل حقيبته الجلدية القابعة على الكرسي. ولم يلاحظ ألتوني مضيفه إلا عندما ناداه كابرييل بصوت ناعم: « هايريك بدروس.. بدروس أبتي ». أجفل الطبيب. كان رجلاً قصيراً ضئيل الجسم، وقد نبتت على وجهه لحية غير منتظمة أسفل ذقنه، أحد أفراد الرعيل القديم من الأرمن الذين بدا أنهم يحملون على عاتقهم عبء الشعب المضطهد بأكمله. فقد كان قد درس الطب في صدر شبابه في فيينا على حساب أواديس باكراديان ورأى العالم. في تلك الأيام، كان المحسن ليوغونولوك قد نفذ مشاريع كبيرة وعديدة شملت بناء مستشفى. كان كابرييل يكنّ لهذا الطبيب الذي يعرفه منذ فترة طويلة احتراماً خاصاً، وهو أحد المشاعر التي ورثها عن طفولته. كان ألتوني يبذل جهداً في ارتداء معطفه الذي كان يبدو أنه من أيام الدراسة في فيينا.

- « لم أعد أقدر على انتظارك أكثر من ذلك يا ولدي.. حسن.. ماذا عرفت من الحكومة؟».

رمق كابرييل ذلك الوجه الصغير المليء بالتجاعيد بنظرة سريعة. لقد كان كل شيء في هذا الرجل العجوز حاداً- حركاته، صوته بل حتى ما كان يقوله في بعض الأحيان. فقد كان عليه أن يقطع الطريق الممتد من يوغونولوك إلى القرية المشهورة بالحفر على الخشب من جهة والقرية المشهورة بتربية النحل من الجهة الأخرى، عدة مرات في الأسبوع على ظهر حماره. وقد عرف كابرييل تلك الحقيبة الجلدية الأبدية التي كانت تضم بالإضافة إلى لاصق طبي ميزان حرارة وأدوات جراحية وكتيباً طبياً ألمانياً يعود إلى عام 1875 وملقطاً عتيقاً يستخدم في التوليد. إن رؤية هذه الحقيبة الطبية يجعله يحجم عن الرغبة في البوح بما عرفه في أنطاكية.

- «لا شيء معين».

قرّب ألتوني المصباح منه وقال: « لقد جدّدت تصريح المرور هذا ما لا يقل عن سبع مرات خلال حياتي. لقد أخذوه للحصول على الضريبة المترتبة على كل شخص جديد. إنها لعبة قديمة، لكنهم لن يحصلوا على المزيد مني، فلن احتاج إلى تصاريح أخرى في هذا العالم». ثم أردف قائلاً بسخرية ممضة:« بل لن احتاج إلى الآخرين، فقد مضى على خروجي من هنا أربعون سنةً ».

أدار باكراديان وجهه نحو الباب وقال:« ما نوع هذا الشعب الذي ننتمي إليه، الذي يستكين دون أن يحرك ساكناً؟».

- «يستكين» ردد الطبيب الكلمة وأردف: « أنتم جيل الشباب لا تعرفون ماذا تعني الاستكانة. لقد نشأتم في زمان مختلف ».

لكن باكراديان أصرّ على سؤاله: ما نوع هذا الشعب الذي ننتمي إليه؟ « يا ولدي العزيز، لقد أمضيت حياتك كلها في أوروبا، وكنت أنا سأفعل ذلك لو بقيت في فيينا. وكان من سوء حظي أني تركتها. فقد كان من الممكن أن أصبح شيئاً ما. لكنك تعرف أن جدك كان أحمق مثل أخيك ولم يسمع شيئاً كثيراً عن العالم الخارجي. كان عليّ أن أوقّع اقراراً بالعودة، وكان ذلك من سوء طالعي. كان من الأفضل لو لم يرسلني».

- « لا يستطيع المرء أن يعيش دائماً أجنبياً» قالها كابرييل الباريسي وقد شعر بالدهشة لدى قول هذه الكلمات.

ضحك ألتوني بصوت أجش « وهنا- هل يمكن للمرء أن يعيش هنا؟ فالمصير مجهول دائماً؟ وأظن أنك تخيلت أن الأمر مختلف تماماً. وفجاة ومضت فكرة في رأس باكراديان: « على الأقل يجب أن نفعل شيئاً لندافع عن أنفسنا».

وضع ألتوني حقيبته على الكرسي ثانية وقال: « اللعنة! عن ماذا تتحدث؟ إنك تحاول أن تستدرجني لأروي القصص القديمة ثانية. أنا طبيب ولم أؤمن بالله بشكل مطلق. ومع ذلك، فقد كنت أتجادل معه حول ذلك في بعض الأحيان. يمكنك أن تكون روسياً أو تركياً. أو يعلم الله ماذا... ولكن أن يكون المرء أرمنياً- فهذا مستحيل».

وبدا أنه أخذ يبتعد عن حافة خليج كان قد وصل طريقة إليه « هذا يكفي. لندع كل هذا أنا طبيب وهذا كل ما يعنيني. ويتعين علي الآن أن أنسحب من هذه اللتة اللطيفة لاعاود امرأة جاءها المخاض. فأنت كما ترى لا زلنا نجلب إلى هذا العالم أطفالاً أرمن. إنه لشيء مجنون».

أمسك حقيبته الجلدية بعصبية، فقد بدا أن هذا الحديث الذي دار على العتبة والذي لامس لب المشكلة قد أثار حنقه.

- « وأنت؟ ما خطبك؟ لديك زوجة جميلة، وابن ذكي وتعيش بدون هموم وتملك النقود التي ترغبها - ماذا تحتاج إلى أكثر من ذلك؟ إنك تعيش حياتك المنشودة وعليك أن لا تشغل نفسك بكل هذه التوافه. فعندما ينشغل الأتراك في حرب، يتركوننا في أمان وسلام - إننا نعرف ذلك دوماً، وبعد الحرب ستعود إلى باريس وتنسى كل شيء يتعلق بنا وبجبل موسى.

ابتسم كابرييل باكراديان كما لو أنه لم يأخذ كلامه بجدية: « وافترض أنهم لم يتركونا بسلام يا ابني الصغير؟...».

توقف كابرييل برهة أمام غرفة الاستقبال حيث اجتمع ما يقرب من اثني عشر شخصاً.

وكانت ثلاث نساء عجائز يتحلقن حول طاولة صغيرة وقد ران عليهن صمت مطبق. كانت إحداهن زوجة الطبيب ألتوني التي كانت تشكل جزءاً من ذكريات طفولة كابرييل وكان اسمها مايريك أنتارام وتعرف بالأم أنتارام الصغيرة. وكانت تتشح برداء حريري أسود، وشعرها مرفوع عن جبهتها ولم يكن قد اشتعل الشيب فيه بصورة كاملة. وكان وجهها العريض الذي برزت منه العظام ينم عن جرأة. كانت تجلس صامتة وتجول بعينيها بين الحاضرين. ويمكن قول الشيء ذاته عن جاراتها، زوجة هاروتيون نوخوديان، قسيس بيتياس، وزوجة مختار قرية يوغونولوك توماس كبوسيان. وكان يكفي التطلع إليهن لمعرفة مدى الحرج الذي كان ينتابهن رغم أنهن كن قد ارتدين أفضل ثيابهن وحليهن حتى لا يشعرن بشيء من الخجل تجاه المرأة الفرنسية.

أما مدام كبوسيان فقد كانت تمر في أسوأ لحظاتها، إذ إنها لم تكن تفهم ولا كلمة افرنسية رغم أنها كانت من بين اللاتي ذهبن للتعلم في مدرسة البعثة التبشيرية الأمريكية في مرعش. وكانت زوجة القس وزوجة المختار ترمقان زوجيهما بدهشة وقد ضممن اذرعتهن إلى حجرهن. وبالفعل، فقد طرأ تغير على القس الطيب والمختار الضخم الجثة تغيراً تاماً، وكانا ينضمان إلى مجموعة الرجال المتحلقين حول جولييت (التي كانت تعرض لهم المقتنيات الأثرية التي كان كابرييل قد جمعها). وكان من بين المجموعة معلّما المدرسة، أحدهما أمضى وهو هابيت شاداخيان بضعة أسابيع في لوزان، وقد أدرك من حينها أنه يتكلم الفرنسية بلهجة ممتازة. أما المعلم الآخر، هرانت أوسكانيان فقد كان قصيراً جداً وقد نما شعره الأسود على جبهته. وعندما دخل كابرييل الغرفة سمع صوت شاداخيان وهو يتكلم الفرنسية بصوت عالٍ: « لكن يا مدام، يجب أن نشعر بالامتنان لك لأنك جلبت شعاعاً من الثقافة إلى منطقتنا القفراء ».

في ذلك اليوم انتاب جولييت صراع داخلي. فقد كان من الصعب عليها أن تختار الثوب الذي كانت سترتديه لاستقبال مواطنيها الجدد. إذ كانت حتى الآن ترتدي في مثل هذه المناسبات ثياباً بسيطة جداً لأنه بدا لها أنه من غير اللائق، ومن غير الضروري، أن تحاول ابهار هؤلاء « الجهلة أنصاف المتوحشين». لكنها لاحظت في المرة الأخيرة مدى السحر الذي يمكن أن تخلقه على ضيوفها. لذلك، استسلمت اليوم إلى هذا الاغراء، واختارت أكثر فساتينها المسائية أناقة (إذ قالت لنفسها وهي تتفحصه، إنه منذ الربيع المنصرم، ولا أجرؤ على ارتدائه في فرنسا) وبعد قليل من التردد، قررت أن تضيف إلى الفستان الباهر بحد ذاته بعض المجوهرات. إن تأثير هذا القرار الذي اتخذته والذي شعرت بالخجل منه في البداية، أشعرها بالمفاجأة إذ أنه من الممتع أن تشعر امرأة أنها جميلة بين جمع من النساء. غير أن هذا الشعور سرعان ما تبدد.

وجد كابرييل زوجته محاطة بلمة من المعجبين البسطاء المبهورين بها. وعندما تحركت، أدرك ثانية أن «لها حظوة رائعة» وهذا ما قاله لها مرة. وبدا له أن جولييت قد دخلت إلى قلوب هؤلاء المواطنين البسطاء في يوغونولوك مع أنها كانت تنفر من الأرمن ذوي الثقافة الرفيعة عندما كانت في أوربا. بل الأغرب من ذلك كله، انتابت كابرييل مخاوف أن تشعر جولييت بالحنين إلى

الوطن عندما كانا في بيروت وقد فوجئا بالحرب دون أن تتاح لهما فرصة العودة إلى الوطن. فقد كانت فرنسا تخوض أسوأ معاركها في التاريخ، وكانت الصحف الأوربية نادراً ما تصل إلى هذه البقعة المنزوية من العالم، إذ يشعر المرء هنا بالعزلة التامة ولا يعرف شيئاً عما يحدث في العالم، وحتى الآن لم يصلها سوى رسالة واحدة من أمها مؤرخة في تشرين الثاني. ومن حسن حظها، لم يكن لها أخوة، وزواجها بأجنبي جعلها تشعر بشيء من الفتور نحو عائلتها. فقد كانت نادراً ما تفكر ببلدها، وفي هذه السنة الرابعة عشرة من حياتهما الزوجية بدا أن الشيء الذي لم يكن في الحسبان قد حدث.

وبالفعل شعر كابرييل بشيء جديد يكتنفها عندما طوقته بذراعيها وقالت: «أخيراً ياحبيبي، لقد كدت أشعر بالقلق».

وبدأت تشعر بالقلق حيال إحساسه بالجوع والعطش إلى درجة المبالغة، لكن لم يكن لدى كابرييل وقت لتناول الطعام. ومن الطبيعي أن الزيارة الرسمية هذا الصباح لم تمر دون أن تترك أثراً في عقول الناس، فمن المؤكد أن السلطات التركية قد اختارت يوم الأحد في الساعة التي يتجمع فيها أكبر عدد من الناس لتأدية صلاة القداس - لتجمع التصاريح ويمكن أن يعتبر ذلك بحد ذاته مؤشراً عدائياً، ونذير عداوة متأصلة.

لم تكن القرى المنتشرة حول جبل موسى طرفاً في الأحداث الدامية خلال أعوام 1896 و 1909ومع ذلك فقد كان الرجال مثل كبوسيان وقسيس بيتياس حذرين متيقظين لأدنى اشتباه. غير أن هذه السهرة فقط ووجود جولييت المشع كانا كافيين لإبعادهما عن تفكير صفوهما. والآن وعندما تذكر وعده، كرر كابرييل كلمات المدير التركي بأن هذا لم يكن سوى إجراء عام في وقت الحرب - وبالطبع أجاب الجميع: كبوسيان، نوخوديان والمعلمون عن هذا اللغز، فشعروا بشيء من التفاؤل. وكان شاداخيان أكثرهم تفاؤلاً وأملاً، فقد استوى واقفاً وقال موجهاً كلماته البراقة إلى مدام كابرييل: « لقد ولت العصور الوسطى. وستشرق شمس التقدم حتى فوق تركيا. لقد كانت هذه الحرب فجرها الوردي. فقد كانت الحكومة التركية تخضع لرقابة حلفائها» ونظر شاداخيان مستبشراً إلى جولييت. ألم يلفظ كلمه Progression (تقدم) بفرنسية جيدة؟ أما الآخرون فقد بدوا أنهم يشاطرونه هذا الرأي. وكان أوسكانيان المعلم الثاني صامتاً ويبتسم ابتسامة ساخرة. وعلا صوت آخر «دعك من الأتراك ولنتحدث عن شيء أكثر أهمية». قال ذلك كريكور الصيدلي أكثر الأشخاص أهمية في الغرفة.

كانت ثياب كريكور تنم عن أنه شخص لا يخضع للتغيير. فقد كان الجميع يرتدون ثياباً أوروبية، حتى المختار (فقد كان يعيش في القرية خياط قدم من انكلترا). أما كريكور فكان يرتدي قميصاً روسياً أزرق كاشفاً من أكثر أنواع الحرير الخام نعومة، ورغم بلوغه الستين فلم تكن تظهر على وجهه أية تجاعيد. ومن لحيته الخفيفة أسفل ذقنه وعينيه المائلتين، كان يبدو أحد حكماء الصين أكثر من أن يكون أرمنياً. وكان يتكلم بصوت عالٍ صادر من جوفه. وكان كريكور يمتلك

مكتبة لم يكن لها مثيل في سورية – بل كان هو مكتبة متنقلة بحد ذاته، رجل موسوعي يعيش في أحد السهول النائية على سطح الأرض. وسواء كان الموضوع يتعلق بالنباتات الطبيعية المنتشرة في جبل موسى أو جيولوجيا الصحراء، أو أنواع الطيور المنقرضة، أو تذويب النحاس، والأرصاد الجوية، أو آباء الكنيسة، أو النجوم الثابتة أو وصفات بعض الأطعمة أو السر الذي يمتلكه الفرس من أجل استخلاص الزيت من الورد... كان كريكور يجيب بصوته الأجوف ويقدم هذه المعلومات وبطريقة لا مبالية. وباختصار، كان كريكور سقراط جبل موسى، أحد المشائين (أتباع أرسطو) حين كان يتمشى في أطراف الليل مع تلاميذه. فقد أتاحت له هذه النزهات فرصاً عديدة لزيادة احترام أتباعه له، إذ كان يشير إلى السماء المكسوة بالنجوم ويقول:

– « هابيت شاداخيان، هل تعرف اسم تلك النجمة المائلة للاحمرار هناك في أعلى السماء؟». «أي منها؟ تلك؟ أليس ذلك كوكباً؟ » خطأ يا معلمي، فتلك النجمة تدعى الدبران. وهل تعرف ما الشيء الذي يجعلها تميل للاحمرار؟ « نعم – ربما كان الجو المحيط هو السبب » – خطأ يا معلم. إن نجم الدبران يتكون من حديد مصهور مغناطيسي وهذا ما يجعله أحمر اللون، فهذا على الأقل ما يقول به كاميل فلاماريون المعروف كما كتب في رسالته الأخيرة إلي ».

لم تكن رسالة ذلك الفكلي مجرد وهم. بل كانت موجودة فعلاً. إذ كتبها كريكور الذي تقمص شخصية كاميل فلاماريون. ومن المؤكد أنه نادراً ما كان يرسل لنفسه مثل هذه الرسائل، ولم يكن يحدث ذلك إلا في أكثر المناسبات أهمية. وفي العادة لم يكن التلاميذ قد سمعوا بها، لأن رجالاً عظاماً مثل فولتير ورافي الأديب الأرمني الكبير قد أجابوا عن أسئلة كريكور. لذلك كان كريكور عضواً مراسلاً لجبل الأولمب.

عندما اندلعت الحرب، كان عدد من الأرمن قد عبر الأطلسي مهاجراً ولم يبق سوى كريكور. حتى أنه كان من النادر أن يقوم بزيارة قرية مجاورة. ففي صدر شبابه أعلن أنه رأى من عجائب الدنيا ما يكفيه وكان كريكور يقول دائماً بعدم وجود حاجة كبيرة إلى السفر. إذ أن جميع الأماكن متشابهة لأن العالم الداخلي محتوى في العالم الخارجي، فالحكيم يقبع هنا، هادئاً كعنكبوت في العش الذي نسجه عقله حول الكون. لذلك، عندما كان الحديث يدور حول الحرب أو السياسة أو أي موضوع مثير من مواضيع الساعة، كان كريكور يتململ في جلسته. إذ كان يمقت كل الحروب التي لم يرد ذكرها في الكتب. ولهذا السبب كان يسخر من الملاحظات التي كان يبديها معلم المدرسة. وكان ينهي كلامه بقوله: «لا يمكنني أن أرى لماذا يراقب الناس جيرانهم إلى الأبد. الحرب، أوامر الحكومة، الوالي، القائمقام – دعوا الأتراك يفعلون ما يشاؤون. فإذا لم تعرهم اهتماماً فلن يعيروك اهتمامهم. فلدينا أرضنا وعالمنا هنا. ولها معجبون مميزون. إذا سمحتم..» ثم قدم كريكور شاباً إلى مضيفه، شخص أجنبي لم يكن كابرييل قد لاحظ وجوده، ونطق كريكور اسمه بحزالة: « كونزاك ماريس ».

كان هذا الشاب يبدو من مظهره الخارجي أوروبياً. وكان شاربه الأسود الصغير المرسوم على

وجهه اليقظ الشاحب يدل على أنه فرنسي كاسمه. وكان أكثر ما يميزه جفناه اللذان يرتفعان إلى الأعلى في زاوية غير منتظمة. لكن كريكور قدمه للحاضرين: «المسيو كونزاك ماريس يوناني » وأردف بسرعة «ليس يونانياً تركياً بل أوروبياً».

كانت رموش هذا الأجنبي طويلة جداً. ابتسم وقال: « كان أبي يونانياً وأمي فرنسية، وأنا أمريكي الجنسية ».

أدخلت هذه الطريقة الهادئة والخجولة الإعجاب في نفس باكراديان. مد يده مصافحاً وقال: «يا لها من صدفة غريبة – إذا سمحت لي أن أسميها كذلك – أن يحضر أمريكي من أم فرنسية إلى هنا – من بين كل الأماكن. افترت عن شفتي كونزاك ابتسامة وأطرق عينيه في الأرض وقال: «إن الأمر في غاية البساطة. فقد كان لدي عمل في اسكندرونة منذ بضعة أسابيع، وقد اعتراني مرض هناك. فنصحني الطبيب بالذهاب إلى التلال المجاورة، إلى بيلان. لكن بيلان لم تلائمني. وقد حكوا لي كثيراً في اسكندرونة عن جبل موسى، فشعرت بالرغبة لزيارته. لقد كانت بمثابة مفاجئة كبيرة لي أن أجد في الشرق الموحش مثل هذا الجمال، أناس مثقفون، والراحة والضيافة التي حباني بها مضيفي المسيو كريكور. إني أحب كل شيء غريب. فلو كان جبل موسى في أوروبا لأصبح مشهوراً. حسن. إني سعيد بأنه ينتمي إليكم.

وأضاف الصيدلي بصوته اللامبالي الأجوف «إنه كاتب وسوف يعمل في منزلي ». بدا كونزاك ماريس محرجاً «أنا لست كاتباً، بل إني أرسل من حين لآخر مقالاً إلى صحيفة أمريكية. هذا كل ما أفعله. بل إني لست صحفياً بكل معنى الكلمة» وألمح إلى أن خربشاته ليست سوى محاولة منه لكسب المال.

لكن كريكور لم يكن يدع ضحيته الذي ود أن يبرزه تقديراً له. تفلت منه «ولكنك فنان كذلك. موسيقي. ألم تقدم حفلات موسيقية؟». رفع الشاب يده في محاولة منه للدفاع عن نفسه «هذا ليس صحيحاً تماماً. فمن بين أمور أخرى فإني عازف مرافق. يجب على المرء أن يجرب جميع الأشياء» وتطلع إلى جولييت يلتمس مساعدتها.

قالت جولييت بإعجاب. «كم هو صغير هذا العالم. أليس غريباً أن تتاح لي فرصة لقاء واحد من مواطني، فإنك نصف فرنسي ». وبفضل حيوية جولييت وتوقدها، كانت السهرة ناجحة جداً ولا تقارن باللقاءات السابقة التي جرت في فيلا باكراديان. إذ أن معظم هؤلاء الأرمن الريفيين كانوا يعيشون بطريقة شرقية، بمعنى أنهم لا يجتمعون إلا في الكنيسة أو في الشارع. أما الزيارات فكانت تتم في مناسبات رسمية، وهذا ما جعل النساء لا يشعرن بالراحة، ومع ذلك فقد شعرن في هذه الأمسية بالانفراج شيئاً فشيئاً. فنسيت زوجة القس أن تذكر زوجها، (وهي التي كرّست كل إمكانياتها لإطالة عمره وكانت تعتبر أن مواعيد نومه مقدسة) بأنه حان وقت العودة إلى البيت. واقتربت زوجة المختار من جولييت لتلمس فستانها الحريري بأصابعها. أما انتارام مايريك فقد غادرت بعد أن أرسل زوجها في طلبها لمساعدته في عملية ولادة صعبة. حيث كان من بين

مهامها إبعاد العجائز اللاتي كن يحطن بالمنزل عند كل ولادة، ليبعن تعاويذ سحرية من أجل سلامة الأم. فخلال عشر سنوات، أصبحت مدام ألتوني مساعدة الطبيب الرئيسية، وأصبحت تتقن كثيراً من فنونه الطبية إذ كان يقول على الدوام: «إنها أفضل مني في هذا العمل ».

استغرق المضيف وقتاً لكي يتخلى عن التكلف، وأصبح أكثر ودية. فنظر - وهو غير راض - إلى الطاولة الطويلة التي افترشت فوقها أطباق من الكاتو وفناجين الشاي والقهوة. وكرافتّان من الراكي، وقال فجأة: «يا أصدقائي، يجب أن نشرب شيئاً أفضل من هذا». ونزل مع كريستوفر وميساك إلى القبو لإحضار زجاجات من النبيذ. وعندما أترعوا كؤوسهم نهض باكراديان ليشرب نخبهم وقال إنه من الجيد حقاً أن يجتمع الكل هنا في هذه الليلة وأن يقضوا وقتاً ممتعاً. فمن بوسعه أن يعرف أن السعادة ستدوم. ورغم أن هذه الأفكار لا تنطوي على أمور جيدة يجب ألا يدع أحد مثل هذه الأفكار تعكر صفو السهرة.

بعد هذا النخب، بل بعد هذا التحذير المبطن الذي قاله كابرييل بالأرمنية رفعت جولييت كأسها ونظرت إليه وقالت « لقد فهمت كل كلمة قلتها، لكنك لماذا أنت متشائم إلى هذا القدر يا عزيزي؟ ». فقال محاولاً أن يجد لنفسه عذراً: «إنني متحدث سيء يا عزيزتي لذا يجب ألا أكون زعيماً للناس».

قاطع كريكور الحديث واستدار إلى جولييت قائلاً: «رافائيل باتكانيان.. باتكانيان كان واحداً من بين أربع أكبر الزعماء الشعبيين، ملهم حقيقي للشعب الأرمني، ومع ذلك فقد كان أسوأ متحدث يمكن للمرء أن يتصوره. لقد كان يتأتيء وأتيح لي شرف التعرف إليه والاستماع إليه في يريفان ». ضحك كابرييل وقال: «تعني أن كل شيء ممكن».

كان مفعول النبيذ القوي قد أخذ يسري في الرؤوس. وكان المعلم أوسكانيان الوحيد الذي ظل صامتاً بسبب الأهمية التي يعزوها إلى نفسه. أما نوخوديان، رجل الدين فقد أخذ يدافع عن كأسه الذي كانت زوجته تحاول انتزاعه منه وهو يقول: « لماذا يا امرأة.. إنه يوم عيد أليس كذلك؟».

عندما فتح كابرييل النافذة ليلقي نظرة إلى سكون الليل أحس بجولييت خلفه وهمست «أرجو أن تكون قد استمتعت بوقتك ». فوضع ذراعه حول خصرها وقال: «من لي أن أشكر سواك على ذلك؟». ولكن صوته المشوب بالتوتر لم يكن يلائم كلمات الحب هذه. ومع الخمر انبثقت الرغبة في الغناء. فأشار عدد من الحاضرين إلى شاب يدعى أساريان، تلميذ كريكور، يعرف بصوته الرخيم وإتقانه الأغاني الأرمنية. إلا أنه لم يكن يحبذ الغناء دون مصاحبة عوده. لكن بيته كان بعيداً جداً يتعذر عليه الذهاب لإحضاره. وفكرت جولييت بإحضار الحاكي (الغرامافون) من الطابق العلوي، لكي تعرّف أبناء يوغونولوك بهذا النصر التقني. إلا أن كريكور حسم الأمر أخيراً وألقى نظرة ذات مغزى إلى ضيفه الأجنبي وقال: « يوجد بيننا شخص محترف».

لم يحتاج الأمر إلى كثير من الإقناع لكي يجلس كونزاك ماريس إلى البيانو الذي قال عنه كابرييل: «إنه واحد من اثني عشر بيانو في سورية، فلقد أرسل إلى أمي من فيينا منذ ربع قرن مضى. غير أن كريستوفر يقول لي أن أخي أواديس أحضر خبيراً من حلب لكي يدوزنه. وفي الأسابيع الأخيرة من حياته كان يعزف عليه كثيراً، ولم أكن أعلم أنه كان موسيقياً. ثم أمال رأسه إلى الأمام فوق المفاتيح وكانت لفافته بين شفتيه وعندما بدأت أصابعه تعزف صدرت أصوات حادة ناشزة ودمدم قائلاً: «الدوزان غير مضبوط. توقف كونزاك فجأة وأغلق غطاء البيانو وقال: «أرجو أن تعذروني ». وكان هذا إيذاناً بنهاية السهرة. فكانت زوجة القس نوخوديان أول من غادر بعد عدة دقائق. وبقي أوسكانيان الصامت حتى الأخير. وعندما صار الآخرون إلى الحديقة، استدار فجأة نحو جولييت بحيث أثار فزعها قليلاً وتقدم منها وقدم لها ورقة ملفوفة مكتوباً عليها بأحرف أرمنية ذات ألوان مختلفة وانطلق بسرعة. كانت تلك قصيدة شعرية يعبر فيها لها عن حبه.

أفاقت جولييت في منتصف الليل لتجد كابرييل جالساً متسمراً على طرف سريرها وقد أضاء الشمعة إلى جانبه. وأدركت أنه يجلس هناك وينظر إليها وهي نائمة منذ فترة من الوقت، وانتابها شعور قوي بأن عينيه، وليس ضوء الشمعة، هما اللتان أيقظتها. لمس ذراعها وقال معتذراً: « لم أكن أنوي أن أوقظك، لكني أردتك أن تستيقظي ». أزاحت شعرها إلى الوراء. كان وجهها ودياً حيوياً وقالت: « لم أكن لأنزعج لو أنك أيقظتني. أنت تعرف ذلك. تعرف أني أحب أن أتحدث إليك دائماً في الليل ».

قال بصوت متردد: « كنت أفكر في أمور...» لكنها قاطعته « كنت أغط في نوم عميق لذيذ. إن صداعي ليس سببه ذلك النبيذ الأرمني، بل يجب أن يكون عزف نصف مواطني ذاك. يا لها من مصادفة. تصور أنه يتخذ يوغونولوك مصحاً للاستشفاء ومنزل المسيو كريكور منزلاً له. لكن أكثرهم إثارة للضحك، كان معلم المدرسة النحيف ذا الشعر الأسود الذي قدم لها القصيدة. وذلك المعلم الذي يمطّ كلامه ويخرجه من أنفه. فقد كان يظن أنه يتكلم أفرنسية رائعة، لكنها كانت تبدو مثل خليط من أصوات الحجارة وعواء الكلاب. إن لكم أنتم الأرمن لكنة تثير الضحك. حتى أنت يا حبيبي عندك هذه اللكنة بعض الشيء. آه، لكن يجب ألا أكون شديدة النقد إلى هذا الحد. إنهم حقاً أناس لطفاء ».

«أناس مساكين. يا لهم حقاً من مساكين ».

لم تكن جولييت قد لاحظت أبداً أدنى مشاعر العطف في كابرييل، لذلك نبعت دهشتها من هنا. نظرت إليه بصمت، ولم تمكنها الشمعة المضيئة خلف رأسه من دراسة تعابير وجهه، إذ كان بإمكانها رؤية النصف العلوي من جسمه ككتلة ظلماء أو صخرة صماء. أما كابرييل فكان يرى جولييت مخلوقاً مشعاً رائعاً ليس بسبب ضوء الشمعة فقط بل كذلك بسبب ضوء أولى تباشير الفجر، وقال: « في تشرين الأول يكون قد انقضى على زواجنا أربعة عشر عاماً. إنها أكبر سعادة

في حياتي، ومع ذلك فقد كان خطأ جسيماً. كان يجب ألا أرمي بك في أتون مصير غريب عنك ».

تحسست بيدها تبحث عن علبة كبريت تشعل بها شمعتها. لكنه سحب يدها ليحول دون ذلك. فبقيت تنصت له وهو يتحدث في الظلام « سيكون من الأفضل أن تلوذي بالفرار.. يجب أن نطلّق بعضنا».

ران صمت طويل ثقيل، إذ لم يخطر ببال جولييت قط هذا الاقتراح المجنون الذي لم تفهمه والذي كان ينطوي على حقائق جارحة. اقتربت منه وقالت: « هل آذيتك.. هل جرحت مشاعرك وجعلتك تشعر بالغيرة؟». « لم تكوني لطيفة قط بقدر ما كنت هذه الليلة. ولم أشعر بحب عاتٍ نحوك منذ سنوات أكثر من الليلة وهذا ما يجعل الأمر أكثر فظاعة». تحرك قليلاً وأردف قائلاً: « جولييت، يجب أن تتفهمي ما سأقوله لك بشكل جدي. دير هايكازون سيعمل كل ما يلزم لإتمام الطلاق بأقرب وقت. والسلطات التركية لا تضع عراقيل كثيرة أمام هذا الأمر. عندئذ ستكونين حرة ولن تبقي أرمنية، وبوسعك الابتعاد عن المصير الموحش الذي سيلاقيه شعبي. بإمكانك الذهاب إلى حلب حيث يمكنك وضع نفسك تحت حماية أي قنصل أوروبي أو القنصل الأمريكي أو السويسري لا يهم. وستكونين في أمان مهما حدث هنا أو هناك. وسيذهب ستيفان معك. سيكون بإمكانك مغادرة تركيا دونما صعوبة وبالطبع سأسجّل لك كل أملاكي وأموالي ».

قال ذلك بصعوبة بالغة، وبسرعة لكي لا يتيح لها فرصة مقاطعته، إلا أن جولييت قربت وجهها من وجهه وقالت: « وهل تأخذ هذا الجنون مأخذ الجد ؟. وإذ بقيت على قيد الحياة عند الانتهاء من كل هذا فسأعود إليكما».

– « لكننا البارحة كنا نتناقش بهدوء ما يمكن أن يحدث عندما استدعيت..».

– «البارحة؟ البارحة كان وهماً. لقد تغير العالم منذ البارحة ».

– « ماذا تغير؟ موضوع جوازات السفر؟ سنعطى جوازات جديدة. لماذا. لقد قلت إنك لم تسمع شيئاً في أنطاكية ».

– « لقد سمعت كل شيء يبعث على الغثيان – لكن ليس هذا هو الأمر الآن. فربما حدث تغير ضئيل فعلاً. لكن الأمور تأتي فجأة كزوبعة صحراوية. إنها في عظامي، ويمكن لأسلافي في داخلي الذين عانوا الأمرّين أن يشعروا بها. إن جسمي بكل جوارحه يشعر بها. لا يا جولييت، ليس بوسعك أن تفهمي ذلك. لا يمكن لأحد أن يشعر بأنه ممقوت بسبب عرقه».

قفزت جولييت من على السرير وجلست بجانبه وأمسكت كلتا يديه: « إنك مثل ستيفان. عندما يحلم حلماً سيئاً يستيقظ نصف أفاقه ولا يمكنه نسيانه إلا بعد ساعة. لماذا يجب أن نتعرض للخطر؟ وماذا عن جميع أصدقائك الأتراك، هؤلاء الناس الرائعين الحساسين الذين تعرفنا إليهم في باريس؟ هل تغيروا فجأة وأصبحوا وحوشاً كاسرة؟ لا.. لا.. أنتم معشر الأرمن لم تكونوا منصفين أبداً مع الأتراك ».

- «إني لست مجحفاً بحقهم، فمنهم أناس في غاية الدماثة والرقة. على كل حال أصبحت أعرف هذا الشعب المسكين في الحرب جيداً. يا لهم من مساكين ويتحلون بالصبر. إنه ليس خطأنا وليس خطأهم، ولكن ما الفرق في ذلك؟ ».

أخذ النهار يطلع وينشر ضوءه على جبل موسى الذي لاح من وراء النافذة. راح كابرييل يحدق في الجبل « كنت أفكر كم كان أمراً غريباً أن تأتي إلى هذا المكان سعياً وراء أواديس الذي أخذ يهرب منا كما لو أنه كان يسعى لاستدراجي إلى يوغونولوك بموته.. لكن لا.. حقاً - لقد كنت أنتِ من ألح على المجيء إلى هنا ».

بدأت تشيع برودة شديدة، وكادت قدما جولييت العاريتان تتجمدان. لم ترغب في الدخول في جدال معه « حسن.. كما ترى.. كان ذلك نتيجة عنادي. وذلك يجب أن تهدىء من روعك ».

إلا أن أفكار كابرييل كانت تتلاحق بطريقة أخرى: « البارحة، ولبرهة، شعرت بقناعة راسخة بأنني أحضرت إلى هنا بقوة غير طبيعية. إن الله يخبىء لي شيئاً. لقد كان إحساسي راسخاً، مع أنه لم يدم سوى لحظة واحدة. إن الحياة التي أعيشها الآن ليست هي الحياة الصحيحة. من الجيد أن يتصور المرء أن شخصيته استثنائية، الحبة الوحيدة في سنبلة قمح لا تخضع لقانون الجاذبية، بل تكون حرة في التحرك والتنقل. وهذا كله بمشيئته. إن الله أحضرني إلى هنا بواسطة أواديس »... توقف. أمضت بضع لحظات تتأمل تعابير وجهه ثم قالت: « هذه أول مرة أراك فيها خائفاً ». كان لا يزال يحدق في قمة جبل موسى الحادة « خائف ؟ عندما كنت طفلاً، كنت أتخيل في بعض الأحيان نجمة صغيرة في السماء وهي تكبر وتتضخم وتقترب حتى تصطدم بالأرض وتتهشم ». حاول أن يتمالك نفسه « جولييت.. إن ذلك ليس من صالحي بل من صالحك وصالح ستيفان ».

وفي النهاية انتابها غضب شديد « إنني بكل بساطة لا أؤمن بجميع مخاوفك، نحن في عام 1915 ولم أصادف شيئاً في تركيا أو في أي مكان آخر إلا الصداقة والمدنية. إني لا أخاف الناس . لكن أفترض أنه يوجد ثمة خطر ما، فهل تظن أني جبانة إلى حد أن أهرب وأتركك وحدك تواجه هذا الخطر ؟.. لا.. لا أستطيع أن أفعل ذلك حتى لو لم أعد أحبك ».

لم يقل كابرييل شيئاً وأغمض عينيه. أرادت جولييت النهوض بهدوء. لكن كابرييل دفن رأسه في حجرها. كانت جبهته رطبة باردة وبحركة مفاجئة راحت العصافير تغرد وتصفق بأجنحتها.

4- الحادث الأول

مر ذلك الشعور بالضعف والاستسلام المفاجئين بالسرعة التي قدما فيها. ومع ذلك فقد تغير كابرييل منذ اليوم الذي أمضاه في أنطاكية. فهو الذي كان يمضي ساعات طوالاً في غرفته وهو يعمل. أصبح يقضي جلّ وقته في النوم كما أصبح دائم الصمت. وتفادت جولييت الخوض في ذلك الأمر، لأنها كانت على ثقة بعدم وجود شيء يخشى منه. فقد تعرضت خلال حياتها الزوجية لمثل هذه الأزمات ثلاث أو أربع مرات مع كابرييل – أيام من الكآبة والقنوط دونما سبب، صمت مطبق لم تتمكن أية مشاعر عاطفية من تبديدها. لقد كانت تعرف ذلك منذ زمن. ففي مثل هذه الأوقات ، كان يقام بينهما جدار. يشعران بأنهما غرباء، وكانت جولييت تشعر بالفزع لتلك النزوة الطفولية التي جعلتها تقترن بهذا الدم الغريب.

وفي حقيقة الأمر، كانت الأمور في باريس مختلفة بالنسبة لجولييت . فقد كان لها عالمها الخاص بها حيث كان كابرييل الأجنبي يدعمها كقوة كبيرة. أما في يوغونولوك فقد انقلبت مواقعهما. ومن السهل جداً فهم لماذا كانت جولييت تسعى جاهدة لتعزز من شعورها بالميل نحو هذا الشعب « نصف المتحضر» الذي تعيش بين ظهرانيه. وكانت تشعر أنه يجب أن تترك كابرييل يعيش في أوهامه، فذاك الحديث المؤلم الذي دار في تلك الليلة لم يكن بالنسبة لجولييت سوى واحد من حالات كابرييل النفسية التي تعرفها عنه. إذ أن هذه المرأة الفرنسية، التي تربت في أجواء آمنة، لم تكن تتصور بأقل تقدير ما كان كابرييل يعني بـ « زوبعة صحراوية ». فأوروبا الآن ساحة حرب . حتى في باريس كان الناس يمضون الليل في الأقبية ليحتموا من الطائرات المغيرة . أما هنا فهي تعيش في ربيع دائم، في جنة وارفة. وإن قضاء بضعة أشهر أخرى هنا سيكون أمراً ممتعاً، وبعدها سيعودون، إن عاجلاً أم آجلاً، إلى شارع كليبر. وعادت إليها فكرة أن تصبح سيدة القصر، فكان عليها أن تملأ وقتها بتدريب أولئك الخدم على الأساليب المتحضرة. وخلال أسابيع قليلة أصبح بإمكان الطباخ هوفهانيس إعداد وجبة الكوردون بلو، ووجدت في رئيس الخدم ميساك مواهب متعددة حتى إنها فكرت في أخذه معها إلى باريس. وسرعان ما حل بالفيلا عدد كبير من العمال لبعض الإصلاحات والترميمات وتعهد توماسيان بتنفيذ جميع أعمال النجارة. وكان توماسيان يرفض أن يصفه أحد بأنه معلم نجار بل بأنه متعهد، وكان يضع ساعة ذهبية تتدلى من وسطه، عليها صورة كبيرة لزوجته المتوفاة والتي رسمها له معلم المدرسة أوسكانيان. ولم يكن

يدع الفرصة تفوته إلا ويخبر الناس بانه ارسل طفليه، الصبي والفتاة إلى المدرسة في جنيف. ومع حلول نيسان، كانت جولييت تدرك بافتخار أنها تملك في أكثر المناطق النائية من الشاطىء السوري منزلاً ريفياً يضاهي البيوت الريفية الأوروبية باستثناء تمديداته الصحية والإنارة.

أخذ كابرييل يغادر الفيلا في الصباح الباكر من كل يوم، ويذهب إلى القرى الأخرى، فقد قرر أن يتعرف عن كثب على هؤلاء الناس ، وأسلوب حياتهم، وحاجاتهم وكل ما يتعلق بهم. وفي الوقت نفسه بعث بمجموعة من الرسائل إلى بعض الأصدقاء الأرمن في حزب الطاشناقسوتيون وإلى أصدقاء سابقين من الأتراك الشبان في استانبول. وكان يحدوه الأمل بأنه على الرغم من الرقابة في العاصمة التي يمكن أن تحول دون وصول معظم هذه الرسائل ، فإن بعضها سيصل، وبناء على هذه الردود فإن مستقبله سيتحدد. فإذا كان كل شيء على ما يرام في العاصمة، وإذا كان الأمر لا يتعدى أن تكون حالة عسكرية عامة، فإنه سيقوم برحلة إلى استانبول حتى بدون أن يكون معه تصريح المرور . أما إذا لم تصله أية ردود أو وصلته ردود لا تحمل أنباء جيدة فإن مخاوف الآغا تكون عندئذ صحيحة، ويكون مصيره قد تقرر ولم يعد ثمة رجعة. وسيبقى الأمل الوحيد بأن لا يثير أصدقاء الأرمن مثل الوالي جلال بك أية « حوادث » في ولايته، وأن يترك القرى المتناثرة حول جبل موسى دون أن يدع مثيري الفتنة أن يمسوها بمكروه، وفي تلك الحالة، ستصبح الفيلا في يوغونولوك ملاذه المثالي كما قال له الآغا.

وبسبب عدم وصول أمر الاستدعاء إلى الخدمة، خُيِّل لكابرييل أنه أصبح يدرك ما يدور في عقل القيادة التركية العليا. فلماذا إذن تم سحب الجنود الأرمن من الخطوط الأمامية وتجريدهم من السلاح ؟ من المؤكد أن الأتراك كانوا يخشون أن الهزيمة يمكن أن تعني قيام أقلية قوية مسلحة بأحدث أنواع الأسلحة والمطالبة ببعض الحقوق من الشعب المهيمن . لم يكن بال كابرييل ليهدأ ولو لثانية واحدة بل كان دائم التفكير . ولم يكن شعوره بالقلق عصابيّاً بل مثمراً ويهدف الوصول إلى غرض معين . فأخذ يقلب الأمور على أوجهها من أجل التوصل إلى أشياء محددة.

كانت خطوته الأولى تتمثل في دراسة قرية يوغونولوك جيداً وذلك لأنها أكبر قرية في المنطقة حيث كانت تجري فيها جميع الأعمال البلدية الخاصة بالقرى السبع وخاصة فيما يتعلق بالسلطات وعندما توجه كابرييل إلى مكتب المختار، لم يكن كبوسيان موجوداً، إلا أن الكاتب رحّب به أشد الترحيب ، نظراً لأن زيارة أحد أفراد عائلة باكراديان العريقة تعتبر شرفاً كبيراً .

- « هل توجد سجلات ؟ » أشار الكاتب إلى الرفوف الممتدة حول جدران المكتب والتي يعلوها الغبار. « بالطبع توجد قوائم إذ يتم تسجيل جميع الأفراد ما عدا الأكراد أو البدو . الأرمن فقط في سجلات الكنيسة. فقد بدأ مخاتير القرى منذ سنوات ماضية بإجراء إحصاء للسكان بشكل مستقل . ففي عام 1909 - ونتيجة لردود الفعل إزاء جمعية الأتراك الشبان والمجزرة الكبيرة التي جرت في أضنة - أصدر زعماء الأرمن أوامر بعمل قوائم عن السكان في القرى . وبحساب إجمالي يمكن أن يبلغ عدد الأرمن سبعة آلاف . لكن إذا رغب أفندينا فيمكنه الحصول على

الأرقام بدقة خلال بضعة أيام ». وبالفعل كانت تلك رغبة كابرييل . أما سؤاله الثاني فكان أكثر دقة. كيف يتم تسجيل أولئك الشبان الخاضعين للخدمة العسكرية ؟ وبدأ الكاتب يراوغ قليلاً مثل سيده المختار. إن الأمر يتضمن جميع الرجال الأقوياء الذين تتراوح أعمارهم بين العشرين والثلاثين سنة رغم أن السابعة والعشرين هي السن القصوى قانوناً. وقد تأثر ما يقرب من مئتي رجل في هذه القرية بذلك . إذ دفع مائة وخمسون منهم البدل وهو المبلغ الذي يعفيهم من الخدمة وهو خمسون ليرة تركية لكل فرد . ويعرف الأفندي كم كان الناس مقتصدين. إذ يبدأ معظم الآباء في توفير مبلغ البدل منذ أن يولد أبناؤهم وذلك لتخليصهم من أهوال حياة الثكنات التركية. ويقوم المختار بمساعدة مخفر الدرك بجمع المبالغ مع كل دفعة من أوامر الاستدعاء وإرسالها إلى حكومة أنطاكية. لكن باكراديان سأله « ولكن كيف يعقل أن يبلغ عدد المناسبين للخدمة مئتي شخص بين سكان يبلغ عددهم ستة آلاف » .

لم يكن هذا السؤال مفاجئاً ، فقد قال الكاتب إنه يجب أن يتذكر الأفندي أن نقص عدد الرجال القادرين يعود إلى المجازر التي كانت ترتكب كل عشر سنوات على الأقل ضد الشعب الأرمني . إلا أن ذلك كان مجرد عذر واه، فقد شاهد كابرييل بأم عينه أكثر من مئتي شاب في شوارع القرية. إذن كانت توجد طرق أخرى للتهرب من التجنيد دون دفع البدل. وبلا ريب ، فإن الدركي ذا الوجه الأنقر علي ناصيف كان يعرف تماماً هذه الأساليب الأخرى ..

دخل باكراديان في الموضوع مباشرة: « حسن .. عندئذ .. لقد تم إرسال خمسين شخصاً إلى الثكنات في أنطاكية فماذا حل بهم؟ ».

- « أبقي على أربعين منهم للخدمة ».

- « وفي أية كتائب ، وفي أية جبهات ؟ هل سيؤدون الخدمة ؟ ».

لم يكن ذلك أكيداً ، فلم تتلق العائلات أنباء عن أبنائها منذ أسابيع لا بل منذ أشهر. علماً أن البريد العسكري التركي مشهود له بسرعته. فربما كانوا في الثكنات في حلب حيث كان الجنرال جمال باشا يعيد ترتيب جيشه.

- « وهل لا يذكر أحد في القرى أنهم سيستخدمون الأرمن كجنود سخرة ؟ ».نظر إليه الكاتب بشيء من عدم الارتياح وأجاب :

- « يتحدث الناس في القرى عن أشياء كثيرة ».

نظر كابرييل إلى رف من الكتب ولاحظ كتاباً بعنوان « قائمة بأرباب البيوت » وإلى جانبها نسخة من كتاب « دستور الإمبراطورية العثمانية ». ثم ميزان صدىء لوزن الرسائل . استدار على نحو مفاجيء وسأل: « وماذا بشأن الفارين من الخدمة؟ ».

توجه الكاتب الذي ارتسمت على وجهه أمارات القلق على رؤوس أصابعه إلى الباب وفتحه ثم أغلقه ليتأكد من عدم وجود أحد وقال لكابرييل: « بالطبع يوجد فارون. هنا وفي كل مكان.

فلماذا لا يفر الأرمن من الخدمة عندما يقدم لهم الأتراك مثالاً على ذلك ؟ أما عددهم فمن عشرين إلى خمسين. نعم. إن السلطات تلاحقهم. وقد قامت منذ أيام قليلة فصيلة من المشاة من الجيش النظامي بقيادة ضابط تركي بحملة تفتيشية في الجبل ، لكنهم تمكنوا من الفرار.

وفجأة ارتسمت تعابير الانتصار على وجهه وقال : « لقد لاذوا بالفرار يا أفندينا.. فأنت تعلم أن أولادنا يعرفون جبلهم جيداً ».

كان بيت الكاهن دير هايكازون أفضل ثالث بيت في ساحة كنيسة يوغونولوك، ولا يضاهيه سوى بيت المختار والمدرسة. فقد كان مؤلفاً من طابق واحد، وكانت واجهته بنوافذها الخمس تشبه البيوت في أي بلدة صغيرة في جنوبي إيطاليا. كان دير هايكازون كبير القساوسة الغريغوريين في المنطقة بأسرها، بل كانت المنطقة تشمل قرى صغيرة أخرى يوجد فيها سكان من مختلف الأجناس فضلاً عن القرى الأرمنية الصغيرة في مدن تركية مثل السويدية والإسكل. وكان هايكازون قد درس في (ايشميادزين)، على يد رئيس الأساقفة (الجاثليق) الذي يعتبره جميع الأرمن رئيسهم الروحي، ولهذا فقد اختير كاهناً للمنطقة بأكملها.

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو كيف جاء الخوري البروتستانتي هاروتيون نوخوديان للعيش في هذه القرية الأرمنية النائية؟ والجواب عن ذلك يكمن في وجود عدد كبير من البروتستانت في سورية والأناضول وأنه كان للكنيسة الإنجيلية التي أنشأتها البعثات التبشيرية الألمانية والأمريكية دور للأيتام تضم الأطفال والضحايا الأرمن. وقد كان نوخوديان الفاضل يتيماً، وقد أوفدته هذه الإرساليات إلى (دوربات) في شرقي ألمانيا لدراسة اللاهوت، غير أنه كان يحيل جميع الأمور التي لا تتعلق بالأمور الروحية إلى دير هايكازون. ونظراً لأن الخلافات اللاهوتية الأرمنية كانت قد اكتسبت أهمية كبيرة، فقد أصبح دير هايكازون زعيماً روحياً بكل ما تحمله الكلمة من معنى وبقي في هذه المنزلة بدون منازع كما كان فوق الانتقاد.

قاد القندلفت العجوز كابرييل إلى غرفة مكتب الكاهن. كانت عبارة عن غرفة عارية وقد فرشت أرضها سجادة كبيرة. وإزاء النافذة كانت توجد طاولة مكتب، وبجانبه كرسي مهترىء محشو بالقش . وقف دير هايكازون خلف الطاولة ثم تقدم خطوة من جانبها واقترب من كابرييل. لم يكن قد نيف على الثامنة والأربعين بيد أن لحيته قد وخطها الشيب على الجانبين . وكانت لعينيه الكبيرتين (إن عيون الأرمن دائماً كبيرة تقريباً وذلك نتيجة ألف سنة من الرعب) نظرة ممتزجة بالخجل من العزلة ومعرفة وثيقة بالعالم. وكان الكاهن يرتدي ثوباً أسود ذا قبعة ارتفعت قليلاً فوق رأسه. وكانت يداه لا تكادان تظهران من أكمامه العريضة، وكأنهما مجمدتان في هذا اليوم الربيعي الدافىء. كانت الرجفة التي اعترته صادرة عن التواضع ؟ جلس كابرييل بحذر على الكرسي المتأرجح قليلاً والمكسو بالقش وقال: « أود أن أعبر عن عميق أسفي يا أبتي لأني لم أتمكن من استقبالك في بيتي » .

رمقه الكاهن بعينيه، ولوحت يداه بتعبير من الاعتذار وقال : « بل أود أنا أن أعبر عن اعتذاري

أكثر منك يا أفندي. لكن مساء الأحد هو الوقت الوحيد الذي يتاح لنا فيه نحن القساوسة وقت حر في خلال الأسبوع كله ».

نظر كابرييل حوله. فقد كان يملأه الأمل بأن يجد في هذا المكتب بعض الوثائق والسجلات، لكنه لم يجد شيئاً على الإطلاق سوى بضعة أوراق مكدسة على الطاولة «أعتقد أنكم تحملون عبئاً ثقيلاً». هز دير هايكازون رأسه موافقاً على ذلك. حاول كابرييل أن تلتقي عيناه بعيني الكاهن « ألا توافق معي يا دير هايكازون أن هذه الأيام لا تسمح بإجراء لقاءات اجتماعية» رمقه بنظرة قصيرة مركّزة وقال: « على العكس يا أفندي، فهذا أنسب وقت لكي يتقابل فيه الناس ».

لم يقل كابرييل في البداية شيئاً رداً على هذه الكلمات الغريبة التي تحمل في طياتها معنى مزدوجاً، ثم قال بعد أن سادت لحظة صمت: « إنه لمن المثير للاهتمام أن الحياة هنا تمر بهدوء شديد ولا يشعر أحد بالانزعاج ».

مرة أخرى كان الكاهن جالساً وعيناه مطرقتان ، وكأنه كان مستعداً لتقبل أية إهانة ثم قال كابرييل ببطء شديد: « كنت في أنطاكية منذ عدة أيام وسمعت أشياء كثيرة ». انزلقت يدا دير هايكازون المتجمدتان خارج الأكمام وضم رؤوس أصابعه « نادراً ما يذهب الناس في قرانا إلى أنطاكية. وهذا شيء جيد. إنهم يعيشون داخل حدودهم ولا يعرفون إلا القليل عن العالم الخارجي ».

– « إلى متى سيكون بوسعهم العيش في هدوء داخل حدودهم يا دير هايكازون ؟ فماذا سيحدث مثلاً لو اعتقل جميع زعمائنا وأغنياء الأرمن في استانبول ؟ ».

أجاب الكاهن بهدوء بالغ: « لقد تم اعتقالهم للتو. وقد زُجوا في سجون استانبول في الأيام الثلاثة الأخيرة وهم كثيرون... كثيرون جداً ».

ها قد سُد الطريق أمام كابرييل إلى العاصمة. ومع ذلك فإن هذا الأمر الرئيسي لم يثره مثلما أثاره هدوء دير هايكازون. ولم يشك في صحة هذه الأنباء. لقد كان رجل الدين هذا، على الرغم من أنه ينتمي إلى حزب الطاشناق الأحرار، لا يزال يتمتع بنفوذ كبير بين صفوف الناس. وكان الكاهن أول من علم، بأساليب سريّة وسريعة، بالإجراءات الخطيرة، حتى قبل أن تجرؤ العاصمة أن تكتب عنها بوقت طويل. أراد كابرييل أن يقنع نفسه بأنه قد فهم تمام الفهم فسأله:

– « هل اعتقلوا حقاً؟ ومن ؟.. هل أنت متأكد جيداً ؟ ».

– « نعم إني متأكد ».

– « ومع ذلك فإنك ، وأنت كبير قساوسة سبع قرى كبيرة، تبقى هادئاً ولا تحرك ساكناً ».

– « إن أي إثارة لن تجدي نفعاً، بل ومن الجائز أن تسبب الضرر لشعبي ».

– « هل تم اعتقال أي من القساوسة؟ » .

أدرك دير هايكازون المكر الذي يكتنف سؤاله فهز رأسه بأسى وقال: « سبعة حتى الآن. من بينهم المطران هيماياك وثلاثة أساقفة على مستوى رفيع ».

عند سماع هذه الأنباء السيئة تاق كابرييل إلى تدخين لفافة ، فقدم له الكاهن واحدة وولاعة « كان عليّ أن أقوم بزيارتك قبلاً يا دير هايكازون. لا توجد لديك فكرة كم من الصعب أن يحافظ المرء على صمته».

- « لقد فعلت خيراً في بقائك صامتاً، ويجب أن تستمر في ذلك ».

- « أليس من الجائز أن يكون من الأفضل إعداد هؤلاء الناس لما يمكن أن يحدث ».

لم يظهر على وجه هايكازون أي تعبير بالتعاطف مع ذلك. «لا يمكنني أن أعرف ماذا يمكن أن يحدث. لكني أعرف ما يمكن أن ينجم عن الذعر الذي سيدب في صفوف الناس ».

كان هذا الكاهن المسيحي يتحدث بنفس اللهجة تقريباً التي كان يتحدث بها رفعت ذلك المسلم الورع . إلا إن فكرة ومضت في عقل كابرييل لكنها سرعان ما تلاشت: كلب ضخم . كلب نغل ضال يحيل تركيا أرضاً مليئة بالمخاطر . رجل مسن يسير على الطريق. يقف مذعوراً من هذا الكلب . يحرك قدميه ، ويستدير فجأة استعداداً للهرب ، إلا أن الكلب سرعان ما ينشب مخالبه في ظهره.. مرر كابرييل يده على جبهته ثم قال : « إن الخوف هو الوسيلة الوحيدة التي تحفز عدونا على قتلنا. لكن أليس من الإثم بل ربما كان أكثر خطورة أن نبقي الناس غير دارين بمصيرهم ؟ إلى متى يمكن أن نبقي هذا السر في طي الكتمان ؟ ».

بدا أن دير هايكازون كان ينصت ويسبح في الفضاء الفسيح « ما زال لا يسمح للصحف أن تنقل هذه الأخبار ، لذا، فمن الجائز أن لا يصبح للبلدان الأجنبية علم بها. وفي الربيع يصبح لدى الناس أعمال كثيرة جداً بحيث قلما يجدون أمامهم وقتاً للذهاب إلى أي مكان آخر . وبمشيئة الله، سنكون في منأى عن القلق لفترة من الزمن، لكن ذلك اليوم سيأتي إن آجلاً أم عاجلاً .. ».

- « سيأتي ؟ كيف تراه سيأتي ؟ ».

- «لا أرى أي شيء ».

- « لقد تم تجريد جنودنا من سلاحهم وإلقاء القبض على زعمائنا ؟ ».

أنهى دير هايكازون كلامه بنفس الصوت الهادىء كما لو أنه كان يجد متعة غامضة في تعذيب نفسه وتعذيب مستمعه « حتى أنهم قبضوا على فارتكس، الصديق الحميم لطلعت وأنور، وقد تم ترحيل البعض منهم، ولعلهم لقوا حتفهم الآن. كما تم إغلاق جميع الصحف والمجلات الأرمنية. وفي الوقت الذي تجلس فيه هنا، يكون قد علق خمسة عشر بريئاً أرمنياً على أعواد المشانق في الساحة أمام سر عسكريت ».

استوى باكراديان واقفاً وقد انتابه شعور بالاضطراب بحيث جعل الكرسي ينقلب « ما معنى كل هذا الجنون ؟ هل تعرف ؟ »

- « أستطيع أن أرى فقط أن الحكومة تخطط لضربة قاصمة ضد شعبنا بأكمله بشكل لم يجرؤ عبد الحميد على فعله ».

حدق كابرييل بدير هايكازون وقد امتلأت عيناه غضباً وكأنه يواجه أمامه عدواً، أحد أعضاء الاتحاد وقال : « هل نحن حقاً ضعفاء إلى هذه الدرجة؟ هل يتوجب علينا أن ندخل رقابنا في أنشوطة المشنقة بصمت ؟ ».

- « نحن لا حول لنا ولا قوة. ويجب أن نحني رؤوسنا صاغرين. من الجائز أن يسمح لنا بالاحتجاج ».

- « آه من هذا الشرق اللعين بإيمانه الراسخ بالقسمة والقدر» قال كابرييل في قرارة نفسه. وفي تلك اللحظة، زحفت إلى وعيه آلاف الأسماء، علاقات وصداقات قديمة من سياسيين، دبلوماسيين، أصدقاء شخصيين، فرنسيين، انكليز، ألمان، اسكندنافيين. يجب أن يثيروا العالم كله! ولكن كيف ؟ لقد أحكم الفخ. عاد الضباب يغلف كل شيء. خرجت كلماته خافتة « إن أوروبا لن تحتمل ذلك أبداً ». لم يكن صمت هايكازون السلبي محتملاً وقال: «إنك ترى ذلك من خلال عيون أجنبية. فأوروبا مقسمة إلى شطرين. إن ألمانيا بحاجة إلى الحكومة التركية أكثر مما تحتاجه هي إليها، والدول الأخرى لا تقدر على مساعدتنا ».

حدق كابرييل في الكاهن الذي لم يكن يبدو على وجهه اليقظ أي انزعاج وقال بحدة: «إنك الأب الروحي لآلاف الناس، ومهارتك الوحيدة تكمن في المقدرة على إخفاء الحقيقة عن الناس، كما لو كنا نخفيها عن أطفال من أجل إنقاذهم. هل هذا هو كل ما بوسعك أن تفعله من أجل رعيتك؟ ماذا بوسعك أن تفعل غير ذلك ؟ ».

بدا أن الهجوم قد أثار الكاهن من الأعماق. فوضع يديه على الطاولة ببطء، وغاصت ذقنه في صدره. وكأنه كان يشعر بالخجل من ترك غريب يشاهد الصراع الروحي الذي يعتمل في نفسه مع الله من أجل سلامة رعيته. فلربما كان حفيد أواديس باكراديان مفكراً حراً، أخذ يذرع الغرفة وهو يتنفس بعمق. ثم ضرب بكف يده الحائط بقوة واقتلع شيئاً من الدهان وقال : « اسمح لي يا دير هايكازون... إني استميح عفوك .. لكن الله يساعد من يساعدون أنفسهم » .

* * *

نزولاً عند رغبة ستيفان أقام كابرييل عدداً من التجهيزات الرياضية في الحديقة. فقد كان ستيفان رياضياً بطبعه، وكان والده غالباً ما يشاركه في ألعابه الرياضية. وكانت الرماية رياضتهما المفضلة على الرغم من أن جولييت كانت تفضل الكريكت. وبعد الغداء مباشرة من بعد ظهر ذلك اليوم خرج كابرييل وأفاكيان وستيفان إلى المرج خارج سور الحديقة. وهي وهدة صغيرة مكسوة بالأشجار على جبل موسى. وكان قد ثبت تحت شجرة سنديان طويلة لوح خشبي جُعل كهدف للرماية. إذ كان أواديس قد خلف لأخيه مجموعة من الأسلحة - صندوق يحوي ثماني بنادق صيد من أنواع مختلفة وبندقيتي ماوزر للمشاة بالإضافة إلى مجموعة من الطلقات.

كان كابرييل رامياً ماهراً إلى حد ما لكنه لم يصب سوى طلقة واحدة من بين خمس طلقات. فقد انتابت كابرييل حالة عقلية غريبة لم يسبق أن انتابته من قبل . إذ طغى عليه شعور بالتفاهة. كان لسانه جافاً وثقيلاً في فمه. وكانت يداه وقدماه باردتين، وبدا له أن رأسه قد خلا من الدم. ولكن لم تكن تلك سوى علامات خارجية تدل على حدوث بعض التغييرات في كيانه. « إني لا أشعر بالمرض ، بل كل ما أشعر به هو إني أرغب في الانسلاخ عن جلدي، أن أنزع جسدي ». وفي الوقت نفسه انتابته رغبة جامحة وغير واضحة للهرب من كل هذا، لا يهم إلى أين. وقرر في النهاية « دعونا نذهب في نزهة قصيرة». لم يشأ أن يترك وحيداً. فقد كان يشعر أنه إذا ما ترك وحيداً فإنه سيسير على غير هدى ويمضي إلى مسافات بعيدة.

حمل أفاكيان البنادق إلى البيت وترك الأب والابن في الحديقة حيث أخذا يسيران على الطريق المؤدي إلى يوغونولوك. وفجأة شعر كابرييل أن جسده ثقيل ومتعب فاتكأ على ستيفان، وتناهت إليهما أصوات قبل أن يصلا إلى ساحة الكنسية.

يمتاز الأرمن على عكس الشعوب الشرقية الأخرى، بقلة الكلام في الأماكن العامة. إذا أن المصير الذي تعرضوا له على مر الأيام كان في حد ذاته كافياً لكبح مشاركتهم في اجتماعات تعلو فيها الأصوات أو أن يصدروا هم أنفسهم تلك الأصوات. أما هنا فقد أحاط ما يقرب من ثلاثمائة قروي بالكنيسة. وكان من بين أولئك رجال ونساء، فلاحون ومهنيون. وكان بعضهم يطلق هتافات شديدة اللهجة ويلوحون بقبضاتهم. أمسك كابرييل يد ستيفان وشق طريقه بين صفوف الناس. في البداية شاهد شخصاً طويلاً رث الثياب وقد توج قبعته السوداء بأكاليل من التبن وراح يحرك بيده اليمنى قرصاً من زهر عباد الشمس وقد انهمك في الرقص . إلا أن أحداً من الناس لم يكن ينظر إليه. بل كانت عيونهم موجهة إلى مكان آخر.

كان يجلس على درجات الكنيسة أربعة أشخاص . رجل وامرأتان شابتان وفتاة في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمرها. وكان الأربعة يحدقون بعيداً وقد علت وجوههم تعابير الذهول. وقد بدا أن عيونهم لم تكن تدرك الناس الذين يحيطون بهم.

كان الرجل شاباً في مقتبل العمر، وكان وجهه النحيف غير حليق ويرتدي ثوباً رمادياً طويلاً من النوع الذي يرتديه القساوسة البروتستانت. وكانت أطراف بنطاله مهترئة وحذاءه العالي ممزقاً. وكانت طبقة سميكة من الغبار تكسو وجهه وثوبه، تثبت أنه لا بد قد أمضى أياماً عديدة سيراً على الأقدام. أما النساء فكن يرتدين ثياباً أوروبية وبدا أن المرأة التي كانت تجلس إلى جانب القسيس -لا بد أن تكون زوجته - على وشك أن يغمى عليها أو أن تصاب بالتشنج. وفجأة سقطت إلى الوراء وكاد رأسها يصطدم بالدرجات لو لم يسارع زوجها إلى إسنادها. كانت هذه أول حركة غريبة تصدر عن هذه المجموعة.

أما المرأة الأخرى، التي كانت ما تزال في ريعان الصبا، فكانت تبدو على درجة من الجمال بالرغم من هذه المحبة. فقد كان وجهها الناعم نحيلاً ممتقع اللون ، لكن عينيها ما زالتا ممتلئتين

ببريق من الحيوية وكانت الشفتان الطريتان المكتنزتان منفرجتين وهي تجهش في البكاء. كان من الواضح أن نوبات من الألم تنتابها، فلا بد أنها جريحة أو أنها تعرضت لحادث ما، وذلك لأن ذراعها اليسرى كانت ملتوية ومعلقة بقطعة من قماش مربوطة بعنقها. أما الطفلة فكانت ترتدي صدرية مخططة كالتي يرتديها الأطفال في دور الأيتام. وكانت هذه الطفلة تمد قدميها من تحت ثوبها الطويل .

قال كابرييل: « إن هؤلاء أشبه بحيوانات جريحة وهي تمد مخالبها المجروحة بعيداً عن جسدها». وبالفعل فقد كانت قدما الطفلة المسكينة منتفختين، يشوبهما لون أحمر وتملأهما جروح واضحة. وبدا أن الراقص هو الوحيد الذي يتمتع بأعضاء سليمة، وموفور الصحة.

تقدم رجل مسن مهرولاً عبر الساحة. وكان ما زال يرتدي مئزراً أزرق. وعرف ستيفان على الفور أنه توماسيان ، ذلك المتعهد الذي أشرف على عمليات تحسين وترميم الفيلا. وتذكر ستيفان على الفور ذلك اليوم عندما كان يتسكع حوله وحكى له توماسيان متفاخراً عن ابنه، رجل فاضل يعيش في مدينة زيتون، قسيس ورئيس دار الأيتام فيها. قال ستيفان في نفسه: «لا بد أن يكون هذا هو الابن الذي حدثني عنه ». توقف توماسيان العجوز أمام الجمع ورفع يديه متسائلاً.

نهض القسيس أرام واقفاً بصعوبة، وبذل جهده لأن يرسم ابتسامة على وجهه، وكأن شيئاً خطيراً لم يحدث. ثم وقفت النساء كذلك بصعوبة وبدا أن يد واحدة منهن مكسورة في حين كان من الواضح أن المرأة الأخرى كانت حاملاً، أما الفتاة الصغيرة التي ترتدي صدرية دار الأيتام المخططة فقد بقيت جالسة وهي تنظر إلى رفيقتيها بعين من الدهشة. ضم القسيس أرام أباه إلى صدره، لكنه سرعان ما فقد السيطرة على نفسه، فألقى برأسه على كتف الرجل العجوز وندت عنه حشرجة من الألم. أما النسوة فلذن بالصمت. وقد انتشر هذا المشهد بين الحشد كصدمة كهربائية، فصدرت عنه أصوات بكاء وحشرجة. إن الناس المظلومين هم الذين يتألمون ألماً حقيقياً. فما يصيب الواحد يصيب الجميع. وهنا في ساحة كنيسة يوغونولوك أخذ الألم يعتصر قلوب ثلاثمائة أرمني لقصة لم يسمعوها بعد. حتى كابرييل الغريب، الباريسي، الذي تغلب على أصله منذ زمن بعيد ، حاول أن يكظم شيئاً ما في داخله واختلس نظرة إلى ستيفان فوجده قد شحب لونه. ولو رأته جولييت لانتابها الفزع ليس لإصفرار لون ابنها وشحوبه فقط بل لنظرة الرعب التي ملأت عينيه. فقد كانت ترتعد عندما ترى ابنها يبدو أرمنياً.

في تلك الأثناء انضم الدكتور ألتوني إلى الجمع بالإضافة إلى أنتارام ألتوني والمعلمين اللذين هرعا من مدرستهما، ثم المختار كبوسيان وأخيراً دير هايكازون الذي كان قد عاد لتوه من زيارة قام بها إلى بيتياس على حماره. قال القسيس بضع كلمات بالتركية للكاتب علي ناصيف، ولم يسمح لأحد بالدخول إلى الكنيسة، بل دفع عائلة توماسيان والفتاة الصغيرة عبر الباب وتبعهم الطبيب وزوجته والمعلمان والمختار وبقي الناس والراقص الذي يحمل قرص عباد الشمس في الساحة.

قاد دير هايكازون الأشخاص المنهكين إلى غرفة الكاهن. وهي غرفة كبيرة مضاءة تحوي أريكة وعدداً من المقاعد وأرسل القندلفت لإحضار شيء من النبيذ والماء الحار. وشرع الطبيب وزوجته على الفور في العمل، وراحا يفحصان الفتاة ذات الذراع المكسورة - اسكوهي توماسيان، شقيقة القس ، وقدم ساتو اليتيمة الصغيرة التي أحضرها القسيس أرام من زيتون. أما كابرييل فقد انتحى جانباً وقد أمسك يد ستيفان وشعر أنه غريب - في هذه اللحظة على الأقل - واستمع إلى الأسئلة المضطربة والردود غير الواضحة، وهكذا سمع شيئاً فشيئاً عن قصة زيتون والتاريخ المأسوي لبلدة القسيس أرام وشعبها.

زيتون اسم مدينة قديمة تقع على هضبة عند السفوح الشمالية لسلسلة جبال طوروس. وشأن القرى المحيطة بجبل موسى، فقد كان يقطنها سكانها الأرمن الأصليون. ونظراً لأهميتها، حيث كان يبلغ عدد سكانها ثلاثين ألف نسمة، وضعت فيها الحكومة التركية عدداً لا بأس به من الجنود والضباط والمسؤولين مع عائلاتهم، كما جرت عاداتهم لوضع السكان من غير الأتراك تحت المراقبة. وكان الأمل ما زال يحدو أناساً مثل باكراديان الذين أمضوا حياتهم في باريس أو أي عاصمة غربية أخرى، بالمصالحة والتخفيف من حدة الكراهية التي تجري في العروق أو انتصار العدل تحت راية الأتراك الاتحاديين. فقد كان كابرييل صديقاً لعدد من الصحفيين والمحامين الذين ساعدتهم الثورة على تبوأ مناصب هامة. وفي تلك الأيام كان يمضي الليالي الطوال حتى ساعات الفجر في مقاهي مونمارتر في أحاديث طويلة حيث كانوا دائماً يؤكدون على الصداقة الأبدية والتوقعات المستقبلية بقدوم المسيح المخلّص للأتراك والأرمن على حد سواء. ودفاعاً عن أرض الأجداد الذي لم يكن بوسعه أن يفعل الشيء الكثير حيالها، تطوع، وهو الرجل المتزوج، لخوض الحرب، وهي فكرة لم تطرأ على بال معظم الوطنيين الأتراك في باريس. أما الآن ؟ فقد كانت وجوههم ما تزال ماثلة في مخيلته، شيء من اللهب لم يزل متأججاً من بقايا صداقة جعلته يطرح على نفسه السؤال: ماذا ؟ هل يمكن أن يكون هؤلاء الأصدقاء القدامى هم الأعداء الألداء ؟

كانت زيتون هي الرد الفج. لقد كانت شوكة دائمة في خاصرة تركيا. فللأرض أماكنها المقدسة حيث يقصدها الحجاج والتي تشكل العقل الإنساني للتعبد ، وحصونها الطبيعية تفوح منها رائحة الكراهية والتحدي والتي تعمل روحها على الإثارة حتى الوصول إلى مرحلة إراقة الدماء من أجل تعصب عرقي مقيت . ويوجد في زيتون أسباب تدعو لمثل هذه الكراهية. فقد كانت زيتون تتمتع بحكم ذاتي حتى القرن التاسع عشر. لكن الذكرى التي لم تستطع أن تغفر لها هي سلوكها المثير للذهول عام 1896.

ففي تلك الأيام دعا السلطان عبد الحميد إلى تشكيل «الحميديين » - عصابات من البدو وقطاع الطرق والمجرمين الذين أخرج عنهم من السجون لهذا الغرض - لتشكيل قوة من الرعاع لإثارة الفتن يستطيع بواسطتها أن يكم أفواه المصلحين الأرمن. وفيما تمكنت هذه العصابات من تنفيذ مهامها بنجاح في جميع الأماكن، تعرضت لهزيمة دموية في زيتون . والأسوأ من ذلك، فقد

دحرت الكتيبة التي أرسلت من الجيش النظامي التي هرعت لمساعدة هذه العصابات، بعد أن تكبدت خسائر فادحة في حرب الشوارع الضيقة. بل حتى أن الحصار المسلح الذي أعقب هذه الهزيمة لم يحقق لهم النصر. وظلت تعتمل في زيتون روح الثورة. إلا أنه صدر في نهاية الأمر عفو عام عن زيتون بعد أن تدخلت الدبلوماسية الأوروبية لصالح هؤلاء الأرمن الشجعان وبعد أن توسط السفراء الأوروبيون إلى الباب العالي. لكن الأتراك كشروا عن أنيابهم وشعروا بالإهانة.

لقد تعرضت جميع الشعوب المقاتلة وليس العثمانيون فقط إلى الهزيمة على يد شعب آخر وقد نسيت تلك الهزيمة. إلا أن التعرض للهزيمة على يد شعب جله من التجار والحرفيين، أناس ليس لديهم طموح عسكري بل شعب عاكف على القراءة (دودة كتب) هو الذي جعل من المتعذر على شعب محارب أن ينسى. وهكذا فإن الحكومة الجديدة، بعد أن أطاحت بالقديمة، عزمت على الانتقام من زيتون.

وهل من فرصة للانتقام أفضل من ظروف تشوب حرب عظمى؟ فقد تم إعلان القانون العرفي وحالة الطوارئ ، ووضع معظم شبان زيتون على الخط الدفاعي الأول أو الثكنات النائية. وأجريت عمليات بحث متكررة من منزل إلى منزل بعد أن جرد السكان من السلاح منذ الأيام الأولى لنشوب الحرب. وكان الموضوع يحتاج إلى أمر واحد فقط : ذريعة.

كان عمدة زيتون ناظاريت جاووش رجلاً أرمنياً جبلياً نموذجياً ذا شارب كث وأنف معقوف. لكنه كان مريضاً ولم يعد شاباً. وكان يشمّ رائحة حدوث مجازر في المستقبل القريب. وكانت خطوط منخريه تزداد حدة في كل يوم وهو يصعد التلة الشديدة الانحدار المؤدية إلى مبنى الحكومة لكي يتلقى آخر الأوامر الصادرة من القائمقام . وكانت يده القابضة على عكاز غليظ قد تشوهت بفعل العقد الروماتيزمية. كان ناظاريت حاد الذكاء، وكان يرى أنه لا توجد سوى سياسة واحدة وهي الحرص على عدم إثارة أي استفزاز، وعدم السماح لأي شيء أن يلوث نقاء الوحدة الوطنية للأرمن. إذ يجب تجنب كل الاستفزازات بمهارة وحكمة. ويتمثل أحد تلك الأمور في أن يكون المرء وطنياً عثمانياً بصورة كاملة وهذا يعني أن ناظاريت كان حقاً لا يحمل أي شعور بالضغينة تجاه تركيا أو أي مواطن من زيتون. إذ كانت تركيا مصير هذا الشعب وليس من المجدي أن يتشاحن المرء مع الأرض التي يعيش عليها، أو مع الهواء الذي يتنشقه ولم تكن تراوده أحلام الطفولة بالتحرر، وذلك لأن الخيار هو الوقوع في قبضة القيصر أو قبضة السلطان وأحلى هذين الخيارين مر. وكان يوافق على الكلمات التي حققت شيئاً من الشهرة للأرمن « أن الهلاك جسدياً في تركيا أفضل من الهلاك روحياً في روسيا » ولم يكن ثمة خيار ثالث.

لذلك تحدد أسلوب واضح المعالم من السلوك إزاء السلطات التركية. وقد اتخذ سكان، زيتون زعيمهم ناظاريت جاووش مثالاً حياً لهم إلا أن ذلك لم يخفف أبداً من رغبة القيادة العليا السريّة في الانتقام وقد كان المجلس الطبي يجند حتى العجزة والمشلولين في الجيش الذين كانوا يلتحقون بالجيش دون أن ينبسوا بكلمة. وكان القائمقام يفرض ضرائب غير شرعية للمجهود الحربي. يا

إلهي فقد كانت تقدم هذه الضرائب بشكل دقيق. كما كان القائمقام هذا يقدم أكثر الحجج غباء لعقد احتفالات بالنصر ومسيرات شعبية حاشدة تعبر عن وطنيتهم. وكان سكان البلدة يحتشدون بكامل عددهم ووجوههم مفعمة بالولاء المخلص بترديد الشعارات الموضوعة لهم وأناشيد النصر التي ينشدونها لفرق الجيش التركي .

لم يكن القائمقام سفاحاً يحب إراقة الدماء بل مسؤولاً تافهاً يرغب في العيش حياة هادئة من ناحية، والسير على خطى أسياده من ناحية أخرى. وبدأ هؤلاء الأسياد بمتصرف سنجق مرعش الذي كانت تتبع له ناحية زيتون. إذ كان هذا المتصرف ذو العينين الحادتين من أعضاء جمعية الاتحاد المخلصين، وكان قد وطد العزم على تنفيذ جميع قرارات أنور باشا المتعلقة بهذا الشعب الذميم دون هوادة. حتى لو كانت هذه القرارات مخالفة لأوامر رئيسه والي حلب جلال بك. إذ أغرق المتصرف القائمقام بسيل من الأسئلة والتحذيرات والتوبيخات اللاذعة. لذا تعين على قاضي القضاة البدين في زيتون - الذي كان يعيش بدعة مع الأرمن - أن يختلق أي سبب للتذمر حتى من شخصية بارزة واحدة. إذ أن جوهر الموظف المثالي أن يكون سلبياً وأن لا تكون له شخصية تميزه بل أن يعكس شخصية رئيسه ولو كان مؤقتاً. لذا توجه القائمقام إلى المختار ناظاريت جاووش الذي كان يدعوه يومياً لزيارته فيغمره بترحيب بالغ ، ويقدم له فرصة ممتازة لعقد صفقة مع الحكومة. ولم يكن ناظاريت يحضر على الفور، بل كان يقدم كل ما بوسعه من التوسلات والاستمالات. وقد أدت هذه الزيارات المستمرة إلى تبادل أحاديث نابعة من القلب. وراح قاضي القضاة يؤكد للعمدة مدى الحب الذي يكنه للأرمن، إلا أن جاووش طلب منه عدم المبالغة: إذا لكل شعب أخطاؤه، ولا يستثنى مواطنوه من ذلك . فقد كان على الأرمن أن يثبتوا مواقعهم على أرض الآباء لقاء الخدمات التي قدموها في الحرب. وسأله قاضي القضاة من أي صحيفة حصل على القصة الحقيقية للوضع ؟ فأجاب ناظاريت «الطنين » وهي الصحيفة العثمانية الرسمية. وفي الواقع فقد كانت هذه الأيام مشحونة بالأحداث العسكرية التي تهز العالم - ومن المؤكد أن إظهار الحقيقة كان سلاحاً محظراً. وأصبح القائمقام في بساطته أكثر وضوحاً. فأخذ يكيل الإهانات إلى الاتحاد، القوة وراء السلطة، ولعله كان يعني ما يقوله. انتاب ناظاريت جاووش الذعر وقال: «لا بل أنهم رجال عظام، والعظماء دائماً يسعون نحو الأفضل ».

فقد القائمقام أعصابه عندما شعر بأن المختار يهزأ منه ومن أنور باشا.

- «ما هو رأيك بأنور باشا يا مختار ؟».

- «أنور باشا هو أعظم جنرال في عصرنا الحالي. ولكن كيف لي أن أفكر بغير هذا يا أفندينا؟».

رفّ القائمقام عينيه وراح يتوسل إليه: « يامختار كن صريحاً معي. هل سمعت أن الروس يتقدمون؟ ».

- « ماذا تقول يا أفندي ؟ لا أظن ذلك. لا يوجد شيء من هذا القبيل في الصحف ».

«حسن، فأنا أقول لك أنهم يتقدمون. كن صريحاً معي يا مختار، ألن يكون ذلك هو الحل ؟ ».

قاطعه ناظاريت وقد استشاط غضباً « احذرك يا أفندي. فإن رجلاً مسؤولاً مثلك ليس خليعاً به أن يتكلم هكذا. أرجوك اسكت بحق السماء . إن ذلك خيانة عظمى. ولكن لا يخشى شيئاً فإن كلامك سيبقى طي الكتمان ».

عندما فشلت جميع هذه الحيل ، لم يبقَ أمامهم سوى الاعتداء الفاضح. ومن الطبيعي، كان في زيتون وفي الأرياف المحيطة بها « فارون من الجندية» وكانت أعدادهم تزداد مع امتداد فترة الحرب . ولم يكن الأرمن وحدهم، إذ لم يكن عدد الأتراك الفارين من الثكنات في مرعش يقل عن عدد الأرمن . وأصبحت سلسلة جبل ألاكايا ملاذاً آمنا لهولاء الفارين من جميع المستويات. أو هكذا سرت الشائعة في جميع الثكنات. لكن هؤلاء الفارين لم يمسوا أحداً بأذى ، بل كانوا حريصين على عدم اثارة أية فتنة.

غير أنه هوجم في أحد الأيام مكاري بغال تركي في الجبال ولا يعرف أحد إذ كان الفارون هم الذين هاجموه أم غيرهم. وقال البعض أن هذا المكاري القذر ترك نفسه يضرب حتى كاد يموت من أجل بخشيش ضئيل. وقد وجد الرجل مرمياً في حفرة وهو فاقد الوعي وها قد جاء «الحادث » المنشود. فأخذ مديرو النواحي وصغار المسؤولين ينظرون بعين من الريبة، وصدرت أوامر بتسيير دوريات عسكرية في شوارع زيتون، كما استدعي ناظاريت جاووش للمثول أمام القائمقام.

قال القائمقام وعلى وجهه مسحة من الحزن: « يبدو أن القلاقل آخذة في التزايد إلى حد يثير الفزع »، وان رؤساءه ولا سيما متصرف مرعش يطلبون منه اتخاذ الاجراءات اللازمة لاخمادها. وإذا ما تأخر في تنفيذها فإن الأمر لن يكون في صالحه شخصياً. لذلك فقد قرر أن يعتمد على مساعدة صديقه ناظاريت جاووش الذي يكنّ له جميع الناس في هذه المناطق احتراماً كبيراً. وينبغي ألا يكون من الصعب على المختار ولمصلحة الشعب الأرمني برمته، التخلص من بعض المجرمين ورجال العصابات : إذ لا بد أن يكون عدد كبير منهم موجوداً في المناطق المجاورة بل حتى في البلدة نفسها. وهنا وقع هذا الرجل الذكي في الشرك الذي نصبه له ذلك الغبي. فبدل أن يقول: « يا أفندينا أنا تحت أمرك وأمر المتصرف. أأمرني بما عليَّ أن أفعله، قال: « أنا لا أعرف شيئاً عن المجرمين أو الثوار يا أفندينا».

– « هكذا إذن لن تخبرني بالمكان الذي يختبيء فيه الرعاع من شعبك الذين يلوثون شرف الأتراك في وضح النهار ؟ ».

– « بما أني لا أعرف شيئاً عن هؤلاء الرعاع ، فأنا لا أعرف كذلك مكانهم ».

– « للأسف، ولكن الأسوأ من ذلك، أنك استقبلت أنت نفسك منذ أيام قليلة ماضية عدداً من هؤلاء الخونة في منزلك ».

رفع ناظاريت جاووش أصابعه المتورمة إلى السماء وأقسم منكراً ذلك، لكنه لم يتمكن من اقناعه.

– «أود أن أقول لك يا مختار أنه يوجد لديّ طلب منك فقد بدأت فعلاً أنفر من الصعوبات التي أخذت تنشأ بيننا. فأنا رجل مسالم ولست كلباً بوليسياً. وأنت تتحمل كل هذه المتاعب من أجلي. أرجو أن تذهب إلى مرعش لكي تتكلم مع المتصرف، فأنت كبير وجهاء المدينة وهو المسؤول وقد بعثت له بتقريري عما يجري هنا، وأني متأكد أنكما ستجدان الطريقة المثلى لحلها».

– « هل هذا أمر يا أفندينا؟ ».

– « قلت لك أنه طلب شخصي، ويمكنك أن ترفض ، لكن ذلك سيزعجني كثيراً ».

– « لكني سأتعرض للخطر إذا ما ذهبت إلى مرعش ».

أصبح القائمقام محباً للخير « خطراً ؟ ولماذا ؟ إن الطريق أمينة جداً. سأعطيك عربتي وحارسين، وسأحمّلك رسالة توصية شخصية للمتصرف ، وبإمكانك أن تقرأها قبل أن تنطلق ، وسأقدم لك أي شيء آخر إذا رغبت ».

أصبح وجه ذلك الأرمني الجبلي المليء بالتجاعيد شاحباً، وحاول أن يختلق أي عذر ولكن بدون جدوى. ولم تتمكن شفتاه اللتان يعلوهما شارب كث من التفوه بأية كلمة. فقد كبحت قوة غامضة ارادته. وفي نهاية الأمر هز رأسه موافقاً. وفي اليوم التالي ودع عائلته بهدوء. إنها رحلة قصيرة ولن تستغرق أكثر من أسبوع. شيعه ابنه الأكبر حتى عربة القائمقام، حيث ساعده على أن يستقل العربة لعدم تمكنه من صعود العربة بسبب انتفاخ قدميه ويديه. وبينما كان يستقل العربة استدار نحو ابنه وهمس في أذنه لكي لا يسمع سائق العربة «إني أعرف أني لن أعود ثانية يا بني». وكان محقاً. فعلى الرغم من الرسالة الودية التي حملها إلى المتصرف ، استقبل بصفته مجرماً، ووجهت إليه تهمة معاداته للدولة وانتمائه إلى جمعية سريّة خائنة واودع السجن . وعندما لم تكشف التحقيقات التي أجريت معه عن أية معلومات تتعلق بالتنظيم السرّي للحركة الثورية الأرمنية أو بالفارين من الخدمة في زيتون، عوقب بالضرب على القدمين. ثم صب سائل حامضي قوي على قدميه الداميتين. ولكنه لم يعد يقدر على الاحتمال فأسلم روحه بعد ساعة. وكانت الفرقة الموسيقية النحاسية في أثناء ذلك تعزف خارج نوافذ السجن، وذلك لكي تغطي أصوات الطبول والأبواق صوت الصرخات الصادرة من زنزانته.

انتاب سكان البلدة شعور بالحزن الشديد وخيمت سحابة مظلمة فوق هذه البلدة الجبلية وراحت تضغط على أنفاس الناس وكأنها ضباب حالك السواد. وفي آذار جرت حادثتان زودتا الحكومة بذريعة لتنفيذ نواياها المبيتة. الأولى عندما انطلقت رصاصة من نافذة أحد المنازل على دورية للدرك وهي تمر في حي يني دنيا أمام منزل المختار المتوفى وأصيب أحد الدرك بجروح طفيفة. وبدلاً من اجراء التحقيق المعتاد أعلن القائمقام على الفور أن حياته معرضة للخطر في زيتون فأرسل برقيات إلى جميع الجهات وانتقل ليقيم في إحدى الثكنات الواقعة خارج المدينة. وكان هذا الاجراء ينسجم مع شخصيته المتسمة بالغباء والحرص على عدم التعرض لأية متاعب. وفي الوقت نفسه أصدر أوامر بتسليح « حرس مدني » بذريعة حماية السكان الأتراك، ولم يكن

أولئك سوى عدد من الرعاع تم تشكيلهم على طريقة عبد الحميد. إذ كان كل واحد منهم يلف قطعة قماشية خضراء ويحملون بندقية ماوزر. وكان الأتراك القاطنون في زيتون والممثلون للقانون أول من أخذ يتذمر من « حماتهم » فأحاطوا القائمقام وطالبوه بحل هذا الحرس على الفور. إلا أن ذلك لم يجدِ فتيلاً. وأخيراً قدم الحرس المدني ذريعة جيدة للحادث الثاني الذي أوصل الأمور إلى ذروتها. فقد اعتادت الفتيات والنسوة الأرمنيات على ارتياد « اسكي بستان » وهي حديقة عامة صغيرة تقع في إحدى الضواحي، بعد الظهر من كل يوم، حيث كانت أشجار ضخمة تظلل عدداً من المقاعد المنتشرة في الحديقة. وكان الأطفال يلعبون حول نافورات المياه، بينما كانت النساء منشغلات بالحياكة والثرثرة. وفجأة غزت الحديقة أعداد كبيرة من الحرس المدني، وألقى هؤلاء الرعاع أنفسهم على تلك النسوة، وأمسكوا بهن، وأخذوا يجردونهن من الثياب. فقد كان هؤلاء الأتراك الذين تعتريهم رغبة جامحة في قتل رجال ذلك الشعب المنكود، يتوقون دوماً إلى امتلاك نسائهم ذوات الأعطاف اللينة والشفاه المكتنزة والعيون الجميلة. وأخذت أصوات النساء وصرخات الأطفال تعلو في السماء. لكن سرعان ما وصلتهن المساعدة، فقد تسلل عدد كبير من الرجال الأرمن إلى الحديقة وانقضوا عليهم وجردوهم من بنادقهم وحرابهم.

ثورة مفضوحة ضد الدولة. إذ أن تجريد الثوار الأرمن الحرس المدني من سلاحهم قدم للأتراك ذريعة طالما تاقوا إليها. ففي مساء ذلك اليوم صدرت عن القائمقام قائمة بأسماء الأشخاص المتوجب اعتقالهم وتسليمهم إلى السلطات. واجتمع الرجال المعنيون وقد تملكهم الغضب وأقسموا على ألا يسلموا أحداً منهم والتجأوا إلى تكية قديمة على مبعدة نصف ساعة من البلدة. وتناهى إلى بعض الفارين الذين كانوا قد لجأوا إلى جبل ألاكايا وإلى مناطق أخرى من الجبال المجاورة فانضموا إليهم. وهكذا أصبح عدد الرجال الذين تحصنوا في هذه القلعة حوالي مائة رجل.

وهكذا أصبح بحوزة المتصرف وعملاء الحكومة في استانبول كل ما كانوا يبحثون عنه. فقد انتقضى زمن الاستفزازات الصغيرة، وأصبحوا الآن في مواجهة ثورة صغيرة فعّالة. ولم يعد من الضروري ابقاء عيون قناصل الحلفاء والدول المحايدة مغلقة ازاء خروج الأرمن على القانون. وبعد يومين وصلت تعزيزات عسكرية إلى زيتون (سريتان من المشاة من الخط الأمامي) وعلى الفور ضرب الباشي، قائد الوحدة، حصاراً حول المدينة، ولكنه سرعان ما وقع صريعاً مع ستة من رجاله وهو يتقدم مع عدد من أعوانه باتجاه التكية لاخضاع هذا الحصن المنيع . وكان ذلك أكثر من المرغوب. فقد اذيع على الفور نبأ مصرع الضابط البطل وأخذت الأبواق تعزف في أرجاء الامبراطورية، وبذل الاتحاد كل ما بوسعه لإثارة سخط الناس. ولم تمض ثلاثة أيام حتى أصبحت زيتون معسكراً مدججاً بالسلاح. إذ استدعيت أربع كتائب وبطاريتا مدفعية لرفد القوات الموجودة لسحق هذا المعقل الصغير من الفارين. حدث كل ذلك في الوقت الذي كان فيه جمال باشا بحاجة إلى كل مدفع من أجل جيشه الرابع . وتقدم جندي من هذه القوة الضخمة يحمل راية بيضاء في محاولة منه لاقناع الثوار بالاستسلام، ولكنه تلقى الرد المعهود : « بما أننا سنموت، فلنمت ونحن نقاتل ».

لكن الشيء المثير للدهشة والذي تم بإعجوبة أنهم بقوا على قيد الحياة. إذ ما كادت تسقط القذيفة الرابعة على أحد الجدران نصف المتهدمة، حتى وصلتهم أوامر من جهة غامضة بوقف النار. تطيّر سكان زيتون شراً من هذه الهدنة المفاجئة. وفي غمرة الهلع الذي انتابهم أرسلوا وفداً إلى القائمقام يتوسلون إليه أن تقوم القوات الباسلة بتحريرهم من هؤلاء الثوار اللعينين في أقرب فرصة ، وأنه ليس للسكان علاقة بهم. ولكن القائمقام أطلق تنهدة وقال إن الأمر خرج من يده وأصبح كل شيء بيد قائد الكتائب المحتلة. وهو نفسه لم يعد يشكل شيئاً بالنسبة لها.

وفي صباح أحد أيام آذار المشرقة انتشرت شائعة مثيرة للذعر في أنحاء البلدة مفادها أن الفارين المحاصرين تمكنوا من الفرار بعد أن مثّلوا في جثث الموتى وعادوا إلى الجبال في جنح الظلام. وتساءل سكان زيتون الذين لم يكونوا يؤمنون بالمعجزات: كيف تمكن مائة رجل من اختراق صفوف أربعة آلاف جندي مدربين تدريباً جيداً؟ فقد كان أولئك السكان يعرفون جيداً ما ينطوي عليه سؤالهم. ووجهت الضربة في منتصف النهار. فقد اعتبرت القيادة والقائمقام سكان زيتون مسؤولين عن اختفاء الرجال المائة، وقدم المتصرف شخصياً في عربته من مرعش. وسار المنادون والطبالون في شوارع المدينة يطلبون حضور وجهاء زيتون وأعيانها اجتماعاً مع المتصرف والقائد العسكري لمناقشة الوضع. وهرع خمسون من أعيان البلدة منهم الأطباء والمعلمون والقساوسة وأصحاب المكتبات ورجال الأعمال إلى المكان المحدد، وكان معظمهم ما زال في ثياب العمل، وخبأ عدد قليل منهم أموالهم تحسباً لأي خطر. وأخذ الجنود يجمعون هؤلاء الرجال بطريقة وحشية في ساحة الثكنة وتم اعلامهم أنهم سينطلقون في صباح اليوم التالي على طريق مرعش – حلب باتجاه الصحراء إلى دير الزور. وراح هؤلاء يحدقون في وجوه بعضهم دون أن ينبسوا بكلمة. وبضربة واحدة أصبحوا في الحضيض بعد أن كانوا سادة البلد منذ نصف ساعة فقط . أما المختار الجديد، المتحدث الرسمي باسمهم، فقد أخذ يتوسل بصوت خافت بأن تترك عائلاتهم في زيتون بسلام مناشداً الرحمة الآلهية لكنه قوبل بالسخرية. وطلب منهم القائمقام الحضور في صباح الغد قبل الشروق بساعة واحدة، وأن يقدموا تصريحاً خطياً يصرحون فيه عن استعدادهم للمسير مع أقاربهم وأمتعتهم وزوجاتهم وأبنائهم وبناتهم وأطفالهم مهما كانت أعمارهم . فقد كانت الأوامر الصادرة من استانبول واضحة وتتمثل في وجوب إخلاء جميع السكان الأرمن حتى الأطفال الرضع . فلم يعد ثمة وجود لزيتون، وأصبح اسمها من الآن وصاعداً السلطانية وذلك لمحو اسم مدينة تجرأت على عصيان الشعب التركي البطل .

وفي اليوم التالي، وفي الساعة المحددة، انطلقت بالفعل أول قافلة وبها بدأت أكثر المآسي قساوة ووحشية في التاريخ المدون حاقت بشعب من الشعوب. وساقت القوة العسكرية هؤلاء المهجّرين، وهكذا تبين أن هذه القوة الضخمة التي استدعيت لمواجهة مائة فار كانت موكلة بمهام أخرى. وبدأت تنطلق في كل صباح قافلة بصورة تتفطر معها القلوب. إذ تبع الخمسين عائلة الأولى خمسون عائلة أخرى، وبدأت بعدها الأرقام في التزايد. ومن المؤكد، كانت هناك أعداد مماثلة من اللاجئين في جميع المناطق الحربية على طول الجبهات

الأوروبية ، إلا أن ما لاقوه لم يكن يقارن بسكان هذه المدينة الذين أصبحوا بدون مأوى.

إن انتقال المرء من مكان إلى آخر أمر بالغ الصعوبة، أما الانتقال إلى بلد آخر والاستقرار فيه فيعتبر أمراً هاماً لدى الجميع ولكن أن ينتقل الإنسان بالقوة بين عشية وضحاها من بيته أو عمله وأن يتخلى عن جهد سنوات من العمل الدؤوب، وأن يصبح فريسة الكراهية والحقد وأن يشعر بالعجز والضعف فهذا أمر فظيع.

كان القسيس آرام، قسيس الكنيسة البروتستانتية في زيتون قد أصبح مدير دار الأيتام فيها منذ أكثر من عام، ويعود سبب تعيينه مديراً لتلك الدار ولما يبلغ الثلاثين من العمر بعد إلى أن المبشّرين الأمريكيين في مرعش رأوا أن آرام كان أكثر التلامذة نجابة وكانوا يستبشرون منه خيراً. فأرسلوه إلى جنيف لإكمال دراسته حيث قضى ثلاث سنوات. ولهذا السبب كان يتقن الافرنسية ويجيد الألمانية والانكليزية. وكانت دار الأيتام التابعة للإرسالية التبشيرية الأمريكية ثمرة جهود دامت خمسين عاماً. وكانت غرفها الواسعة الجيدة الإضاءة تضم أكثر من مائة طفل، كما كانت تضم مدرسة ملحقة بها يلتحق فيها أطفال المدينة. وكانت تحيط بالدار مزرعة صغيرة توفر لها حليب الماعز والخضار وبعض المواد الأخرى. وكان آرام قد تزوج في الربيع الماضي، قبل أن يتسلم مهامه الجديدة بوقت قصير، من فتاة تدعى أوسانا وهي ابنة قسيس من الكلية اللاهوتية هناك. فبينما كانت معظم النساء الأرمنيات ذوات المطاف رقيقة لكنهن لسن فارعات الطول، كانت أوسانا ممشوقة وجسدها مكتنزاً. وكانت بطيئة الحركة وتميل للسكوت، وفي أغلب الأحيان كانت تعطي انطباعاً بأنها لا تمت إلى العالم المحيط بها بصلة. وكانت اسكوهي قد أوحت لأخيها أن هدوء أوسانا يشوبه في بعض الأحيان شيء من الخبث والعناد. وكانت قد قالت ذلك على سبيل الدعابة، إلا أن هذه الملاحظة بدت في غير موضعها إذ كيف تطيق امرأة متزوجة خبيثة وعنيدة العيش مع أخت زوجها ؟ فقد كانت العلاقة بين اسكوهي التي تبلغ من العمر تسعة عشر عاماً وآرام أخيها تقوم على ود منقطع النظير. فعندما كانت ما تزال في التاسعة من عمرها بعيد وفاة أمهما، أحضرها آرام من يوغونولوك وأدخلها في مدرسة الإرسالية التبشيرية في مرعش. ثم أرسلها إلى لوزان بسويسرا حيث أمضت سنة في إحدى المدارس. ولم يكن يتصور أن يعيش بدون اسكوهي. وكانت أوسانا تعلم ذلك حق المعرفة وهي التي اقترحت أن يعيش ثلاثتهم معاً. وقد أوكلت للفتاة مهمة تعليم اللغة الفرنسية في مدرسة دار الأيتام. وبالإضافة إلى عينيها الرائعتين، كان أجمل ما فيها فمها. فقد كانت شفتاها الرقيقتان تفترن دائماً من ابتسامة لطيفة. وكان الثلاثة يحيون حياة سعيدةً تقوم على الود والمحبة. وكانت مواعظ القس آرام إلى الناس مفعمة بالسرور وتشي بالسلام والحبور.

لقد كادت الضربة تصيبه بالذهول، إذ رأى أن كل ثمرات جهده قد ذهبت أدراج الرياح، غير أنه كان ما زال يفعمه الأمل بأن الحكومة لن تجرؤ على اغلاق الدار والاستيلاء عليها . لكن آرام سرعان ما تمالك نفسه. وشجعته أوسانا في الأيام الأولى من الترحيل على مواجهة الأمر بثبات .

فلم يعد باب الكنيسة مفتوحاً على مصراعيه ليلاً نهاراً لتقديم الراحة الروحية إلى جميع المهجرين وهم يهمون بالمغادرة فقط، بل أخذ ينتقل من بيت إلى بيت، ومن عائلة إلى أخرى ويختلط مع هؤلاء المساكين يواسيهم ويمد لهم يد المساعدة. وكان ينظم القوافل، ويكتب مناشدات لجميع البعثات التبشيرية الممتدة على الطريق لتقديم العون لهم، كما كان يوجه مناشدات مكتوبة بعناية إلى المسؤولين الأتراك. عندما لم يعد بوسعه فعل المزيد على مواساة المعذبين، كان يجلس صامتاً بجانب هؤلاء الناس وقد انتابه حزن عميق. وكان يضم أصابعه المتشنجة، ويغلق عينيه ويجهش في البكاء متضرعاً للسيد المسيح.

وأخذت المدينة تفرغ يوماً بعد يوم، وراحت الطرق المؤدية إلى مرعش تكتظ بقوافل طويلة تسير ببطء شديد. وفي الوقت نفسه أخذ اللصوص وقطاع الطرق من المناطق المجاورة بغزو شوارع زيتون التي أدركها الهلاك وراحوا يهاجمون البيوت المهجورة وينهبونها، ويملأون العربات بالسجاجيد والثياب والأثاث وتلال من الألبسة والمتاع بهدوء وطمأنينة وكأنه حق من حقوقهم. ولم تفعل السلطات أي شيء لتمنعهم من ذلك، بل إنها كانت تنظر إلى أعمال النهب هذه على أنها مكافأة طبيعية للأتراك. كما صدر أمر من السلطات يقضي بموجبه بقاء ستة رجال يمثلون كل حرفة في «السلطانية»، والأمر الممعن في التعذيب العقلي في هذا الأمر هو أن هؤلاء الستة كان يجب أن يختارهم الأهالي أنفسهم وليس السلطات.

وفي اليوم الخامس تلقى القس آرام أمراً بالمغادرة. إذ جاءه رجل مسن في ذلك اليوم يطلب منه تسليم مفاتيح الكنيسة، وعلم القس أن الكنيسة ستصبح مسجداً قبل موعد صلاة العشاء. كما صدر أمر يقضي بأن يلتزم الجميع بيوتهم، وعدم فتح النوافذ والظهور منها بل تعين عليهم إغلاق الأباجورات طيلة النهار وعدم إنارة أية أضواء في المساء. وفي اليوم التالي، أي في اليوم السادس طلب أحد المسؤولين من القس المثول أمام قائد المدينة.

انطلق آرام بردائه الكهني وهو يردد صلاته، ولم يبد على وجهه أي أثر للخوف. ومثل بهدوء أمام الضابط الذي راح يزمجر قائلاً:« أنت القسيس البروتستانتي آرام توماسيان من مواطني يوغونولوك قرب اسكندرونة؟ عليك أن تغادر مع آخر قافلة منطلقة غداً صباحاً إلى مرعش - حلب. هل تفهم ؟ ».

- « أنا جاهز ».

- « لم أسألك فيما إذا كنت جاهزاً أم لا .. ويجب أن ترافقك زوجتك وأقرباؤك ويجب أن تحمل معك المتاع الذي يمكنك حمله فقط. وسوف تحصل على جعالة يومية من الخبز تقدر بمائة درهم. ويسمح لك شراء مؤونة إضافية. وإن أي محاولة للتخلي عن صفك أثناء السير بدون إذن سيعرضك لعقوبة الموت من قبل الضابط المسؤول. كما يحظر عليكم استخدام العربات ».

- «لكن زوجتي حامل وتنتظر طفلاً « قال آرام بهدوء ». إلا أن ذلك بدا أنه أدخل السرور في نفس البنباشي وقال:« كان عليك أن تفكر بذلك من قبل » ثم نظر إلى أوراقه وأردف:« أما تلاميذ

دار الأيتام فنظراً لأنهم أطفال أرمن فهم ليسوا مستثنين من الترحيل، ويجب أن يكونوا على استعداد للرحيل - هم وجميع العاملين في الدار ».

تراجع القس آرام خطوة إلى الوراء وقال:« هل لي أن أسأل فيما إذا كان هؤلاء الأطفال الأبرياء المائة سيزودون بمؤنة. إذ أن عمر معظمهم يقل عن العشر سنوات، ولم يقوموا برحلة طويلة على الأقدام. كما أن الأطفال بحاجة للحليب ».

صرخ الضابط في وجهه: «إنك لست في موقع يمكنك فيه طرح الأسئلة يا قسيس . فأنت هنا لكي تتلقى أوامري لأنك تعيش في منطقة عسكرية منذ الاسبوع الماضي ». لكن ذلك لم يدخل الزعر في قلب آرام بل أردف بهدوء وإصرار: « إذن سأعمل على أخذ الماعز لكي يتمكن الأطفال من الحصول على حليبهم كالعادة».

- « أغلق فمك أيها الوقح واسمع الأوامر ».

- « إني أحمّلك المسؤولية الشخصية لمبنى دار الأيتام الذي هو من أملاك المواطنين الأمريكيين وتحت وصاية سفيرهم ».

في البداية لم يحر الضابط جواباً، وبدا أن هذا التهديد قد أثمر. فهؤلاء الآلهة يخفضون أصواتهم حالما تعلو أصوات على أصواتهم. لكنه بعد فترة طويلة من الصمت أرغى وأزبد: « هل تعرف أنني أستطيع أن اسحقك كحشرة؟ عليّ فقط أن أتخذ قراراً وكأنك لم يعد لك وجود ». قال آرام: « لن أمنعك من ذلك » وكان يعني ذلك لأنه انتابه في تلك اللحظة حنين طاغ إلى الموت.

كان يوماً غائماً، وكانت السحب المنخفضة قد حجبت قمم جبل زيتون، وهو أفضل بكثير من يوم مشمس للمسير. لكن هذا اليوم المكفهر بدا أنه يثقل على ظهور المنفيين أكثر بكثير من المتاع الذي سمح لهم بحمله.فهذه الخطوة الأولى تحمل في ثناياها شيئاً مقدساً، شعور بالرعب انتاب الجميع كالبرق. وتم جمع العائلات كلها بصمت شديد حتى أنه لم يسمع بكاء طفل. ولكن بعد نصف الساعة الأولى، وعندما خلفوا وراءهم آخر نسق من البيوت، شعر هؤلاء بشيء من الراحة.

كان الكثير من العجائز والأطفال يمتطون الحمير المحملة بالأغطية والأكياس. وكان الضابط المسؤول قد سمح بذلك على مسؤوليته الشخصية، رغبة منه في التخفيف من وطأة العذاب الذي أحاق بهم. وحصل آرام كذلك على حمار لزوجته. ووضع الأطفال اليتامى في مؤخرة القافلة يليهم مباشرة قطيع الماعز. في البدء شعر الأطفال بالسرور وظنوا أنهم مقدمون على مغامرة ممتعة. وبذلت اسكوهي التي كانت تسير في وسطهم كل ما بوسعها لترفع من معنوياتهم. ولم يتمكن أحد من ملاحظة التعب الذي احدثته لها الليالي التي قضتها مهددة، وارتسمت على وجهها امارات السرور وبذلت جهدها لكي تبدو بشوشة، بل إنها حاولت تشجيع الأطفال على الغناء. وراحت تردد معهم أغنية لطيفة اعتاد الناس ترديدها أثناء عملهم في الكروم والبساتين في يوغونولوك:

« لقد ولت أيام النكبات
كأيام الشتاء تأتي وتذهب ،
إن أحزان الرجال لا تدوم طويلاً،
مثل المشترين - يأتون ويذهبون ».

لكن آرام هرع إلى الوراء ليمنع الغناء على الفور وقد قطع ضعفي أو ثلاثة أضعاف المسافة التي قطعها الآخرون. إذ كان يشاهد تارة في رأس القافلة، ثم في نهايتها. وكان يبث الشجاعة في النفوس، ويلقي الدعابات ويسوي الخلافات باذلاً ما بوسعه أن يدخل شيئاً من النظام بين صفوف الناس. وكان لكل شخص مهمة موكلة به. فمن بين الحرفيين انيطت بالحذائين مهمة إصلاح الأحذية المعطوبة بسرعة عند كل توقف. وبالرغم من وجود عدد قليل جداً من البروتستانت في القافلة، فقد كان توماسيان القس الوحيد وذلك لأن جميع الغريغوريين والكاثوليك كانوا قد رحلوا في الأيام الأولى. لذلك كان القس مكلفاً بجميع هؤلاء الناس، وكان يكرر طوال الرحلة بصوت مفعم بالثقة: سنصل مرعش مساء الغد. وهناك سيختلف الوضع تماماً. ومن الجائز أن نقيم هناك فترة من الزمن حتى تأتي الأوامر بإعادتنا إلى بيوتنا. وإني متأكد أننا سنعود إلى بيوتنا، إذ لا يمكن أن تكون حكومة استانبول وراء كل هذا. فنحن لنا نواب وممثلون وطنيون. وبعد ثلاثة أسابيع من الآن سيتم اعداد كل شيء. لكن المهم يجب أن يكون الجميع في صحة جيدة عندما نصل إلى مرعش وأن نحافظ على قوتنا ورباطة جأشنا.

كان لهذه الكلمات تأثير مخفف، حتى على الأشخاص الذين سيطر عليهم التشاؤم، والذين كانوا يعتقدون ببراءة الحكومة المركزية، وأخذت الوجوه اليائسة تشع بالأمل، ولم تكن المعجزة تكمن في المستقبل المشرق بل في هدف محدد وفكرة ثابتة. وفي خلال فترات الراحة الطويلة كان الضابط التركي الشاب المكلف بمراقبة القافلة يظهر طيبة واضحة. فعندما كان رجاله ينتهون من طهي طعامهم، كان يسمح للقسيس استخدام أدوات الطهي الميدانية لإعداد طعام ساخن ليقدم للضعفاء والمرضى. ولكن بما أنهم سيصلون إلى مدينة كبيرة في الغد فلم يسع أحد منهم إلى الاقتصاد في مؤونته.

وعندما حل المساء عسكرت القافلة في العراء، وتمدد المهجرون على بطانياتهم. منهكين حتى الموت. وعلى مسافة غير بعيدة، كانت تقبع قرية كبيرة تدعى توتليسيك. وتحت جنح الظلام قدم عدد من سكان القرية الجبلية لزيارة الدرك الأتراك. وجلس الرجال القرفصاء وهم يدخنون، وبدا أنهم يبحثون أمراً هاماً. وقبل بزوغ الفجر استيقظ سكان زيتون ليجدوا أن قطيع الماعز قد اختفى. كانت هذه أول ضربة وجهت إليهم في يوم قاس ومتعب. فبعد مسيرة ساعتين حصلت أول وفاة في صفوفهم. إذ سقط فجأة رجل عجوز على الأرض. توقفت القافلة. جاء الضابط الشاب ممتطياً صهوة الحصان وقال غاضباً: « هيا.. إلى الأمام» وحاول عدد منهم حمل الرجل العجوز، إلا أنهم تركوه ملقى على الأرض ووطئه أحد رجال الدرك بقدمه وقال: « هيا انهض أيها المخادع » لكنه

بقي مستلقياً وفمه فاغر وعيناه جاحظتان. فألقوا به في إحدى الحفر وحثهم الضابط على المسير «يجب عدم التوقف. إن ذلك ممنوع . هيا هيا » . ولم تفد توسلات آرام وعويل عائلة المتوفي سواء في حمل الجثمان أو دفنه بسرعة. وقد اكتفوا برفع رأس الرجل قليلاً، ووضعوا أحجاراً كبيرة على جانبيه. ولم يكن ثمة وقت أمامهم ليضعوا يديه على صدره على شكل صليب ، وذلك لأن الدرك أخذوا يلوحون بهراواتهم ويشتمون الحشد الذي أصيب بالبلبة. وقد نزل الرعب في نفس أفراد القافلة فأخذوا يتراكضون ولم يتوقفوا إلا عندما خلفوا الجثة وراءهم بمسافة بعيدة وأخذت الطيور الجارحة تحلق فوقها.

وما كاد الرعب الذي انتابهم يتلاشى حتى أدركت القافلة عربة يجرها حصانان. وأخذ المنفيون يبتعدون عن الطريق الضيق لإفساح الطريق أمامها. وكان في العربة شاب وسيم في حوالي الخامسة والعشرين من العمر، وقد زينت أصابعه خواتم عديدة. ومد يده المليئة بالمجوهرات خارج العربة وقدم وثيقة إلى الضابط. أمر حكومي ممهور بشكل رسمي يمنحه الحق في اختيار فتاة أو عدة فتيات أرمنيات ليصحبهن معه. ونظراً لأن الأيتام أحاطوا بعربته، وقعت عيناه على اسكوهي. فأشار إليها بعصاه وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة. وكان يعتبر هذا الشاب نفسه أنه منعم على أولئك النساء. لم يكن مستعداً لانتشال واحدة من تلك المخلوقات القذرة من مصيرها البائس، وضمها إلى رعايته ورعاية عائلته الجليلة؟ ولدهشته أخذت تلك الفتاة الشقراء في الابتعاد عنه بدل أن تغمرها السعادة في الالتجاء إلى ذراعيه الحنونتين وراحت تصرخ «آرام ». لكن العربة لاحقتها. ولم يحل هذه المسألة سوى تدخل الضابط بحدة، فقد مزق الأمر الحكومي الذي كان بحوزة الشاب وقال أنه بصفته الضابط المسؤول فله وحده السلطة بالتصرف بالقوافل الأرمنية وقال له أنه إذا لم ينصرف في التو فإنه سيلقي عليه القبض فانطلق في سبيله.

وبعد قليل أفاقت اسكوهي من هول هذه الحادثة فانفجرت ضاحكة لكن شعورها بالسرور لم يدم طويلاً. فبعد ظهر ذلك اليوم، أخذ الأطفال يبكون ويصرخون بأصوات تمزق نياط القلب من الألم وتورم أقدامهم. ولم يكن بوسع الضابط اللين العريكة التساهل في موضوع فترات الراحة أو التأخير في المسير، إذ كان يحمل أوامر محددة بوجوب وصول القافلة إلى مرعش بعد الغروب بساعتين. وقد حرص على تنفيذ هذا الأمر بدقة على الرغم من تساهله الذي كان غالباً يعارض تعليمات رؤوسائه. لذلك لم يكن التوقف من أجل أقدام الأطفال لمعالجتها أمراً وارداً. قال لهم:«إن هذا ليس في صالحكم. يجب أن تحرصوا على الوصول إلى مرعش في الوقت المحدد، عندئذ يمكنكم معالجة جروحكم هيا... إلى الأمام ..».

كان آرام قد حذر اسكوهي مراراً بعدم التلكؤ في مؤخرة القافلة بل بعدم السير مع اليتامى الذين كانوا يسيرون في مؤخرة القافلة فهو المكان الأكثر خطورة في كل القافلة. لكن اسكوهي لم تنصت لتحذيرات أخيها إذ أنها شعرت أن مكانها الطبيعي هو بين الأولاد وخاصة في هذه اللحظات من الإعياء وآلام القدمين. وأخذ المشرفون يتقدمون إلى الأمام تاركين اسكوهي وحدها

بين الأطفال المساكين الذين لم يكفوا عن العويل مستخدمة كل وسيلة لتهدئة روعهم. فقد أخذوا يتعثرون في مشيتهم وأصبحت فجوات عديدة تتخلل الصف ، واتسعت الفجوة بين مؤخرة القافلة وجزئها الرئيسي . وشعرت اسكوهي أن أحداً يمسك بها من الوراء. صرخت وراحت تحاول التخلص من تلك القبضة. فبدا أمامها وجه مخيف لرجل ضخم قذر وهو يزمجر وعيناه جاحظتان وتفوح منه رائحة نتنة. أطلقت اسكوهي صرخة ثاقبة وهي تحاول التملص من بين يدي ذلك الرجل الذي ملأ البصاق أطراف فمه بينما راحت مخالبه تمزق ثوبها إلى قطع صغيرة. ثم أمسك بقبضتيه الكبيرتين ثدييها العاريين فراحت قوتها تخور. وبدا وجهه فوقها وكأنه جبل ضخم. ومن حسن حظ اسكوهي أن الضابط وصل إليها بسرعة بعد أن سمع صوت صراخ الأطفال الذي كان يصم الأذان. فرماها الرجل أرضاً بذراعيه الضخمتين على الأرض وحاول الفرار إلا أنه لم ينج من ضربة السيف التي أصابته على مؤخرة رأسه.

نهضت اسكوهي لكنها لم تتمكن حتى من أن تذرف دمعة واحدة. وفي البداية ظنت أن ذراعها اليسرى قد أصابها خدر نتيجة العراك . لكنها سرعان ما بدأت تشعر بألم فظيع فيها. ولم تخبر أخاها بما حدث . قادتها أوسانا وآرام وهي صامتة. فقد أصبحت لا تشعر بشيء حتى بقدميها اللتين كانتا تخطوان خطوات سريعة وقصيرة.

كان وصولهم إلى مرعش ما زال لغزاً. فما أن أخذت المدينة تلوح في الأفق حتى توجه القسيس البائس إلى الضابط وتجرّأ على سؤاله كم سيسمح للمهجرين المكوث فيها فأجابه أن ذلك يتوقف على المتصرف . إذ من الجائز أن يسمح بتوقف القافلة لبضعة أيام وذلك لإعادة تنظيم مجموعات المهجّرين الوافدة إلى المدينة. رفع آرام يديه متوسلاً: «أنت ترى الحالة التي آلت إليها زوجتي وأختي. أرجوك وأتوسل إليك أن تدعنا نذهب إلى الإرسالية التبشيرية الأمريكية هذا المساء».

فكر الضابط بهذا الطلب. وفي النهاية تغلب عطفه على اسكوهي المسكينة على جميع الاعتبارات الرسمية فكتب إذناً رسمياً وهو لا يزال على صهوة الحصان للقس آرام مع المرأتين. لكنه قال له: «لا يحق لي أن أدعك تذهب. فإذا هربت فسأتحمل المسؤلية. ويجب أن تحضر يومياً إلى معسكر التجمع لكي أراك ».

استقبل آباء البعثة الثلاثة والتلاميذ بترحاب وعطف شديدين. وعلى الفور عرضت اسكوهي على طبيب شاب، لكنه لسوء الحظ كان شاباً تعوزه الخبرة. فلوى ذراع اسكوهي إلى الوراء والأمام فأضاف إلى ألمها آلاماً شديدة أخرى فغابت عن الوعي لبضع دقائق. وقال أنه لا يوجد كسر في العظام رغم أن الذراع كانت تبدو منخلعة. وبما أن مصدر الألم كان الكتف فقد وضع رباطاً كبيراً ومحكماً. لم يغمض لاسكوهي جفن في تلك الليلة. أما أوسانا فقد غطت في سبات عميق في الغرفة المخصصة للنسوة.

أما آرام فقد جلس إلى طاولة مبشري البعثة يبحث معهم ما يتوجب عمله. وكان التصويت

بالإجماع . قال رئيس البعثة الكاهن ودليي بشكل حاسم: « مهما حدث فلا يمكنك العودة إلى القافلة. إذ أن أوسانا واسكوهي ستلاقيان حتفهما قبل أن تصلوا إلى حلب بفترة طويلة. وفضلاً عن ذلك فإنكم لستم من مواطني زيتون بل نحن الذين أرسلناكم إليها ».

كانت تعتلج في نفس القسيس آرام صراعات روحية شديدة.« كيف يمكنني أن أترك شعبي في الوقت الذي هو في أشدّ الحاجة إلي ».

- « كم عدد البروتستانت الموجودين في القافلة ؟ »

كان عليه أن يقر بذلك، ففضلاً عن كونهم أقلية قليلة، فقد كانوا ينتمون جميعهم إلى الكنائس الأرمنية القديمة أو الكنائس المتحدة لكن ذلك لم يقنعه أبداً وقال : « في مثل هذه الظروف لا يمكنني أن أفكر بمثل هذه الترهات، فأنا القسيس الوحيد بينهم ».

هدأه السيد ودليي قائلاً: « سنرسل أحداً آخر معهم، ولكن عليك أن تعود إلى منزلك. يجب أن تنتظر هناك حتى نجد حلاً آخر لك ».

- « وماذا سيحل بالأيتام ؟ » زمجر آرام توماسيان.

- «لا تستطيع أن تساعد الأطفال عندما تكون معهم. فدار الأيتام في زيتون تقع تحت مسؤوليتنا وأنت قمت بأكثر من واجبك بجلب اليتامى إلى مرعش. اترك الباقي لنا ولم يعد الأمر من مهامك ».

لكن آرام كان حانقاً إذ قال: «ألا يحق لي أن أفعل أكثر من واجبي ؟ ». نفذ صبر ودليي العجوز مع أن قلبه كان ينبض بالفرحة لمشاعر آرام وقال: « بالتأكيد إنك لا تتصور يا آرام بأننا سنعالج موضوع الأيتام في حينه؟ إذ لم تتخذ حتى الآن قراراً بشأنهم ولكنك تقف حائلاً في طريقنا يا بني العزيز. حسن ، فاني أحلك رسمياً من مهامك كمدير لدار الأيتام » .

شعر آرام بأنه لو أتيحت له بضع دقائق أخرى فإن ودليي لن يكف عن معارضته فقط بل سيباركه لشجاعته. لكنه لم ينبس بكلمة واستكان لكلام رئيس البعثة، إذ كان يعتقد أنه كان يعمل من أجل أوسانا واسكوهي.

وفي صبيحة اليوم التالي توجه الخوري ودليي مع وكيل القنصل الأمريكي إلى المتصرف وحصلا له ولزوجته واسكوهي على إذن رسمي بالسفر إلى يوغونولوك. وكان عليهم أن يصلوا إلى يوغونولوك خلال أربعة عشر يوماً. لذلك، وعلى الرغم من حالة ذراع اسكوهي السيئة جداً، كان عليهم الانطلاق بعد ثلاثة أيام. وكان بإمكانهم اختيار الطريق الأقصر عن طريق باغجة وهي أقرب محطة سكك حديدية على طول خط الأناضول، وقد نصحوا بعدم المرور منها. وكان الحذر يستدعي عدم إجراء أي اتصال غير ضروري مع الجنود الأتراك وخاصة الذين يرافقون النساء الارمنيات. وبما أن القس كان قد أذعن لقرار خوري مرعش، فقد كان مستعداً كذلك لأن يختاروا لهم طريقة. فبدلاً من رحلة القطار القصيرة، انطلقوا في رحلة عسيرة بالعربة استغرقت

أياماً عديدة على الطرق الجبلية الوعرة. فساروا أولاً عبر الجبال إلى عنتاب ثم على طول الطرق الملتوية المحاذية لطوروس المؤدية حتى حلب. ووضع آباء البعثة عربة كبيرة يجرها حصانان تحت تصرف آرام مع حصان إضافي وأبرقوا إلى ممثلهم في عينتاب لتقديم كل ما يلزم لإكمال رحلتهم.

وما كاد الثلاثة يجتازون أطراف مرعش حتى تناهت إليهم أصوات استغاثة. فقد كان يجري وراءهم الفتاة اليتيمة ساتو والصبي الخادم كيفورك . ومن حسن الحظ كان ذلك في الصباح الباكر ولم يكن ثمة أحد في الشوارع لكي يفشي بهما. ولم يكن أمام آرام إلا أن ينقذ هذين الطفلين ويتحمل عناء مرافقتهما لهم . وصلوا إلى عينتاب بشق النفس - وكانوا يقضون الليل في خانات القرى المزرية - دون مواجهة أية متاعب. وأمضوا فيها ثلاثة أيام. وكان الأرمن هناك قد تلقوا برقية السيد ودليي وكانت الأحصنة البديلة في انتظارهم. إذ كانت قد وصلت في اليوم المنصرم أول قافلة من زيتون إلى المدينة. وقد شاهد سكان عينتاب تلك المخلوقات البائسة وراحوا ينتظرون مصيرهم بيأس شديد. وكانوا قلما يخرجون من بيوتهم. وأخذت الإشاعات بالانتشار. فقد أشيع أن الحكومة كانت تنوي اعطاء عينتاب مهلة أقصر من تلك التي منحتها لزيتون وبأنه سيتم احراق الحي الأرمني وستطلق النار على سكانه. ومع ذلك فلم تظهر الجالية الارمنية في عينتاب وداً شديداً للقسيس. وحاول آرام أن يجد بيتاً في تلك المدينة لساتو، إلا أنها تمسكت باسكوهي بقوة فاضطر لاصطحابها، ولعل ذلك كان تكفيراً عن خطيئته.

مرّت الأمور بسلام حتى حلب بعد قضاء أربعة أيام من اجتياز ممرات طوروس، ووجدوا صعوبة بالغة في ايجاد بدائل لأحصنتهم ناموا خلالها مرتين في زرائب فارغة. ولكن المدينة الكبيرة بأسواقها الكثيرة وشوارعها المرصوفة بشكل جيد وأبنية الحكومة الكبيرة وحدائقها الجميلة وخاناتها وفنادقها النظيفة بهرت هؤلاء الأشخاص الذين أصابهم الوهن وتغلغل اليأس إلى نفوسهم. وكان استقبال البعثات التبشيرية ووجهاء الجالية الأرمنية فيها لهم مختلفاً تماماً عن استقبالهم في عينتاب ومرعش. إذ كان الآباء هنا يقومون بشتى الأعمال وكانوا منظمين تنظيماً وافياً بحيث احجم آرام عن طلب المساعدة منهم. وكان كل ما طلبه غرفتين صغيرتين لايوائهم.

كان الأرمن في هذه المدينة أغنياء جداً وأكثر جلافة من الأرمن في عينتاب الأكثر بساطة. والأنكى من ذلك، أن آرام أدرك أن مجرد ذكر كلمة زيتون، كان يثير مشاعر متباينة في نفوس هؤلاء الأشقاء. إذ لم يكونوا يرغبون في أن تظهر انه لهم أية علاقة تربطهم بهؤلاء الناس الذين وصفوا بأنهم ثوار عنيدون أمام أعين الرسميين. كما كان وجود القس معهم كافياً لأن يضعهم موضع الريبة. فإذا ما رغب شخص في انقاذ أرمني آخر في هذه الأيام، فإن ذلك يدل على أنه موالٍ ومتعصب لقومه. لذلك أخذوا ينأون بأنفسهم عن أي جماعة مشبوهة. ولم تتعد مساعدة هؤلاء لآرام تقديم مبلغ من المال فرفضه شاكراً.

كان الوقت يمضي بسرعة، ووجد توماسيان نفسه مرغماً على استئجار عربة يجرها حصانان. وفي البداية رفض مالك العربة حتى التفكير في الخوض في مثل هذه الرحلة المضنية. « حتى

الساحل بعد أنطاكية ؟ ».أمسك العربجي طربوشه وقد ذهل لهذه الجهالة. لكن بعد أخذ وردّ تمّ الاتفاق على الأجر الذي أصر على دفع ثلثيه مقدماً. وبما أن آرام كان يعرف أن جميع أصحاب العربات سيطلبون الطلب نفسه، رضي ونقده حقه. واختار القس الطريق المؤدية إلى اسكندرونة بالرغم من كثرة التواءاته ومنحنياته. وكان يأمل أن يصل بعد يوم ونصف اليوم إلى الطريق المتشعبة إلى أنطاكية ومن هناك سيكون أمامهم أربع وعشرون ساعة للوصول إلى يوغونولوك. ولكن قبل الغروب من ذلك اليوم، نزل العربجي من مقصورته وراح يفحص حوافر أحصنته ودواليب العجلة وأعلن أنه لن يكمل الرحلة، بحجة أن حصانيه قد اعتراهما الإرهاق، وأن عربته مثقلة بالأحمال وأنه ليس من مهمته نقل الأرمن إلى أنحاء المعمورة - لذلك فإنه سيعود حالاً إلى بلده، وسيكون أمامه وقت كافٍ من الوصول إلى تورونت حيث يوجد لديه أقارب هناك ، قبل أن يحلّ الظلام. ولم تجد معه كل التوسلات بل أن آرام عرض عليه مضاعفة الأجر ومع ذلك فقد رفض وقال أنه حصل على أجره مقدماً وهذا كل ما كان يطلبه.

ساروا مدة ساعة على الطريق آملين الوصول إلى قرية أو الالتقاء بأحد يساعدهم على الوصول إلى أي قرية. لكن أياً من ذلك لم يتحقق إذ لم يجدوا عربة بل حتى لم يصادفوا حتى حظيرة أو كوخاً أو قرية. وكان عليهم قضاء تلك الليلة في العراء. وقد مرت تلك الليلة ببطء شديد. كان القمر يسطع بنوره الباهت على جانب الطريق، وقد استلقوا على الأرض العارية. بل حتى الطبيعة أثبتت أنها هي الأخرى تكنّ مشاعر العداء للأرمن. إذ أخذت الرطوبة تتغلغل من تحت البساط. وكان الهواء الذي يهب من المستنقعات عابقاً بالحشرات. وبقي آرام وكيفورك مستيقظين للحراسة، وكان القس يمسك بقوة بندقية الصيد التي أعطاها له الآباء في مرعش لتساعده في رحلته.

لكن آلام الرحلة ازدادت في الخمسين ساعة التي سبقت وصولهم إلى يوغونولوك. وكانت معجزة حقاً أن أوسانا لم تصب بأذى كما ظلت اسكوهي متماسكة تماماً، إذ أخطأ القس بعدم السير بمحاذاة الطريق العام بل تبع الطريق الجنوبية الغربية. ولم يتبين له أن هذا الطريق لن يفضي إلى شيء إلا بعد أن قطعوا أميالاً عديدة. وهكذا ضلوا طريقهم وساروا ساعات طويلة دون جدوى. وفي المرحلة الأخيرة من رحلة العذاب تلك، أظهر كيفورك قوة جسدية كبيرة فأخذ يحمل المرأتين، الواحدة بعد الأخرى على ظهره لمسافات طويلة (وسرعان ما تخلوا عن أمتعتهم). وكان الفلاحون الذين صادفوهم أثناء الرحلة ودودين فقدموا لهم الماء والجبن، ولم يكن بوسعهم الدفاع عن أنفسهم فيما لو تعرضوا لأي هجوم.

عندما رأى كابرييل الأشخاص الخمسة جالسين على درجات الكنيسة، كانوا لا يزالون يعيشون في ذلك الكابوس الرهيب، إلا أن إحساسهم بأنهم ما زالوا في ريعان الشباب، وأنهم نجوا من موت محقق، وعندما أخذت تتراءى لهم الوجوه التي طالما عرفوها: الكاهن والقس والطبيب، والأصوات الصاخبة من حولهم والإحساس بالدفء بالعودة إلى الأهل جعلهم يستعيدون وعيهم بسرعة.

أصرّ القس آرام توماسيان قائلاً : «لا تفكروا بالمجازر القديمة. فهذه أسوأ بكثير منها وأشدّ وحشية. والأهم من ذلك فإن تأثيرها أبطأ بكثير، فهي تبقى معكم ليلاً نهاراً ». وضغط بيديه على صدغيه «لا أستطيع أن أنتزع ذلك الشعور الرهيب من عقلي. إذ ما أزال أرى هؤلاء الأطفال .. كم أتمنى لو تمكن ودليبي من إنقاذهم ».

كان الدكتور ألتوني يفحص اسكوهي بصمت. أما الآخرون فقد استمروا في توجيه الأسئلة لآرام. سيل من الأسئلة المضطربة: « هل سيتوقف ذلك عند زيتون ؟ ».. أليس أرمن عينتاب على الطريق الآن ..؟ ماذا يقولون في حلب .. ؟ هل ثمة أخبار من بقية الولايات ؟ ونحن ..؟

كان الطبيب قد فك الرباط وراح يغسل الذراع بماء دافيء ثم أطلق ضحكة حادة وقال: «إلى أين يمكن أن يأخذونا؟ فقد نقلنا للتو إلى جبل موسى ». سمع صوت الضجيج الصادر عن الحشد في الخارج إلى الغرفة. أنهى دير هايكازون فجأة جميع هذه التساؤلات المضطربة. أدار عينيه الخجولتين المصممتين في الوقت نفسه إلى كابرييل وقال له: « هلا خرجت إلى الناس لتقول لهم بضع كلمات ؟ أطلب منهم الذهاب إلى بيوتهم ».

ما الذي جعل دير هايكازون يطلب ذلك من كابرييل الباريسي الذي لم تكن تجمعه مع هؤلاء القرويين قواسم مشتركة كثيرة؟ فقد شعر أن مهمة التحدث إلى الحشد تقع على عاتق المختار كبوسيان، أم هل كان للقسيس أسبابه الخفية من هذا الطلب ؟ فوجيء باكراديان وشعر بالحرج. لكنه نزل عند طلب هايكازون وأخذ معه ستيفان. كانت اللغة الأرمنية لغته الأم، لكنه في هذه اللحظة بالذات، عندما وجد نفسه في مواجهة الحشد - الذي كان يزيد عدده على الخمسة آلاف شخص - شعر أن التكلم أمامهم يعتبر تدخلاً بقضاياهم لا مبرر له. وكان على وشك أن يتحدث بالتركية، لغة الجيش، إلا أن كلماته الأولى جعلته يشعر بالحرج، ثم بدأ يتدفق منه سيل من الكلمات وطلب من أهالي يوغونولوك وجميع الذين قدموا من القرى الأخرى العودة إلى بيوتهم بهدوء. وقال لهم أنه لم تحدث حتى الآن أية أعمال غير إعتيادية إلا في زيتون، وإنه ستدرس الأسباب الحقيقية الكامنة وراء ذلك إذ أن كل أرمني يعرف أن زيتون هي استثناء، وأن الناس الذين يقطعون القرى حول جبل موسى هم بعيدون تماماً عن ذلك. ونظراً لأنهم لم يكونوا معنيين بالسياسة فلم يكن ثمة خطر يتهددهم. ومع ذلك فإن الالتزام بالقانون والنظام ضروري أكثر من أي وقت مضى، وأنه من الآن وصاعداً سيحرص على نقل أي حدث هام بانتظام إلى القرى وإذا ما دعت الضرورة فإنه سيجمع كل القرى لبحث الأمور المستقبلية.

انتابت كابرييل الدهشة عندما وجد أنه يتكلم بصورة جيدة إذ أخذت الكلمات تنطلق من فمه من تلقاء نفسها حتى صاح أحدهم: « عاشت عائلة باكراديان » وسمع صوت امرأة تندب « يا إلهي ترى ماذا سيحلّ بنا؟ » لم يتفرق الحشد على الفور. بل أخذ الناس يتحلقون في مجموعات صغيرة وابتعدوا عن الكنيسة. وأخذ علي ناصيف رئيس وحدة الدرك يجوس المكان فتوجه كابرييل إليه. ووجد علي ناصيف أنه من الصعب أن يقرر فيما إذا كان عليه أن يعامل

الأفندي كرجل محترم أم كخنزير كافر . وهذا ما جعل كابرييل يتخذ معه أسلوباً صارماً وقال له: « إنك تعرف من أنا ؟ فأنا سيدك ورئيسك فأنت تعرف أني ضابط في الجيش ».

وقف علي ناصيف في حالة استعداد وتحسس كابرييل جيبه وقال : «إن الضابط لا يعطي بخشيشاً، لكنك ستأخذ مني هذين المجيدين لقاء خدماتك غير الرسمية التي سأشرحها لك الآن». أصبح علي المجهم أكثر إذعاناً وليونة، وحرّك باكراديان يده وأشار له أن يسترح. وقال: «بدأت أرى في الأونة الأخيرة وجوهاً غريبة بينكم. هل ازداد عدد أفراد مخفركم؟» فرد علي ناصيف «لم يكن يوجد عدد كافٍ من الدرك يا أفندي بسبب طول الطرق وكثرة المهام، لذا أرسلوا إلينا عدداً أخر.»، « هل هذا هو السبب الحقيقي ؟ حسن.. يمكنك الإجابة عندما تريد.. ولكن كيف تستلمون أوامركم ورواتبكم وما شابه ذلك ؟ ». « يذهب أحد الرجال إلى إنطاكية في كل أسبوع ويجلب الأوامر ».

– « حسن يا علي ناصيف. استمع فإني سأطلب منك خدمة غير رسمية. فإذا ما استلمت أمراً أو سمعت خبراً من قيادتكم تتعلق بمنطقتنا وتكون هامة هل تفهم ؟ يجب أن تأتي فوراً وتراني في بيتي وسأعطيك ثلاثة أضعاف ما أعطيتك الآن » ثم ابتعد عنه باكراديان بنفس الشعور بالتعالي وعاد إلى الكنيسة.

كان الدكتور ألتوني قد انتهى من فحصه للذراع ودمدم بشيء من الإحتقار: « كنا نظن أنه يوجد في مرعش مستشفى كبير وأدوات وغرف عمليات ومكتبات طبية. ومع ذلك فإن ذلك الطبيب الغبي لم يفعل ما يجب فعله. ماذا أستطيع أن أفعل ؟ فليس لديّ هنا سوى ملقط صدىء لقلع الأسنان يجب أن نضع الذراع بين لوحين ويجب عليها أن تنال قسطاً وافراً من الراحة في السرير وفي غرفة جيدة. وذات الشيء ينطبق على زوجتك يا آرام ».

انتاب المتعهد العجوز توماسيان شعور باليأس إذ قال: « عندي غرفة صغيرة جداً بعد أن بعت منزلي. كيف سنتدبر الأمر ؟ فعرض كابرييل على الفور أن يستضيف الآنسة توماسيان في إحدى غرف الفيلا المطلة على الجبل. فمن الضروري إتباع تعليمات الدكتور ألتوني بدقة. شعر الطبيب العجوز بالسعادة تغمره وقال: « هذا رائع يا صديقي.. وهذه المخلوقة الصغيرة، ساتو أيضاً، أليس كذلك ؟ هلا أخذتها أيضاً حتى تكون مريضتايّ المحترمتان مع بعضهما. إن عظامي المسنة تشكرك ». وحسم الأمر. فقد ذهب آرام وأوسانا مع والد توماسيان واصطحبوا معهم كيفورك الراقص، وأرسل كابرييل ستيفان إلى الفيلا ليعلم جولييت بذلك.

وصل الصبي منقطع الأنفاس إلى الفيلا وقال: « ماما.. ماما.. لقد حدث شيء هام. سيأتي إلى بيتنا فتاتان للإقامة معنا. الآنسة اسكوهي، أخت القس في زيتون وفتاة صغيرة تنزف، الدماء من قدميها ». أثار هذا الخبر المفاجيء جولييت. إذ لم يسبق لكابرييل أن أحضر غرباء من قبل للإقامة في المنزل دون أن يستأذنها. فقد كانت علاقته معها يشوبها التردد عندما يتعلق الأمر باستضافة أشخاص ولا سيما الأرمن. لكنه عندما وصل بعد عشر دقائق مع اسكوهي وألتوني

وساتو، أظهرت جولييت لهم بشاشة ووداً. فهي شأنها شأن الكثيرات من النساء الجميلات كانت تقع فريسة سهلة للسحر النسوي وخاصة سحر فتاة صبية. إذ أثار مرأى اسكوهي المسكينة مشاعر العطف لديها وأحيا فيها غريزة تقديم المساعدة. وما أن انتهت من إصدار الأوامر الضرورية حتى أخذت تقول في نفسها بعين الرضاء: «إنها حقاً غير عادية. إذ قلما يرى المرء وجوهاً ناعمة كهذه بينهم. إنها تبدو سيدة حقيقية، حتى وهي ترتدي اسمالاً بالية. كما بدا أنها تتكلم الإفرنسية بشكل جيد بالنسبة لأرمني ». وبعد فترة قصيرة كانت الغرفة جاهزة. وجاءت جولييت بنفسها لرعاية اسكوهي ، وأحضرت لها رداء نوم جميل من الدانتيل. كما لم تتردد في التضحية بعطورها الغالية الثمن، رغم أن هذه الأشياء الثمينة لم تكن لتعوض.

فحص ألتوني ثانية ذراع اسكوهي وأطلق دعابات جارحة حول موضوع الأطباء في مرعش وسألها: «هل تؤلمك كثيراً يا عزيزتي ؟ ». لا. لم تكن تشعر بالألم الآن، بل كان يسري فيها شعور بالخدر. وحاولت أن تجد الكلمة المناسبة لتعبر عن شعورها لكنها لم تستطع. وبعد قليل استرخت اسكوهي فوق السرير حيث شعرت بالراحة تسري في جسدها بعد استحمامها. وقبل أن تغادرها جولييت التي ساعدتها في كل ذلك قالت لها:

– « إذا احتجت إلى أي شيء يا عزيزتي فكل ما عليك عمله هو أن تقرعي هذا الجرس بقوة. وسنرسل لك الآن طعاماً تقيمين أودك به. لكني سآتي لأراك أولاً ».

– « شكراً يا سيدتي فلن أحتاج إلى أي شيء.. شكراً يا سيدتي ..» ثم أخذت تتذكر أحداث ذلك الاسبوع المخيف في زيتون والأيام التي أمضتها في القافلة فانفجرت في البكاء وراحت تذرف دموعاً غزيرة. شعرت جولييت برغبة في الجثو بجانبها وتقبيلها وتقول لها أنها ملاك. إلا أن ثمة شيئاً جعل هذه الكلمات تبدو مستحيلة.

وفي الوقت نفسه كانت أنتارام مايريك قد انتهت من ربط قدم ساتو ووضعت الطفلة على السرير في إحدى غرف الخدم غير المستخدمة. وما كادت تغط في النوم حتى انطلقت من فمها صيحة تجمد الدم في العروق. وتتابعت صيحاتها الثاقبة. إذ لم تظهر هذه الفتاة خلال تلك الأيام أية دلائل على الخوف، لكنها الآن، بعد أن استذكرت الأحداث التي مرت بها أحست وكأن مائة جلدة تسوطها.

في ذلك المساء دعا كابرييل كلاً من الكاهن دير هايكازون وبدروس ألتوني الطبيب، والصيدلي كريكور لزيارته. جلسوا في غرفة الضيوف الخافتة وراحوا يدخنون. لقد أراد كابرييل أن يعرف كيف ينظر كبار المثقفين والأعيان هؤلاء إلى الوضع وماذا ينوون فعله إذا ما صدر أمر بالطرد وما هي الوسائل المتاحة في حوزة سكان جبل موسى لتجنب الأسوأ.

لم يحصل كابرييل منهم على شيء مفيد. فقد لاذ دير هايكازون بالصمت. وقال الطبيب إنه نظراً لأنه قد نيف على الثامنة والستين من العمر، فإن السنوات الثلاث أو الأربع المتبقية أمامه في هذه الحياة ستمر بأي شكل كان. وإذا ما حدث شيء يسرع من وضع حد لحياته فلن يكون الأمر

سيئاً. فمن السخافة بمكان أن يرهق المرء رأسه من أجل بضعة أشهر تافهة وهل تستحق الحياة فعلاً من المرء أن يقلق بالتفكير من أجلها. أما كريكور فقد أخذ ينفث في نرجيلته التي أحضرها معه بهدوء. وكان يختار قطع الفحم المتوهجة ويضغطها بأصابعه على تبغ النرجيلة. ولعله أراد من ذلك أن يري الآخرين أنه بإمكانه أن يمسك النار دون أن تحرق أصابعه. وقال: ولماذا الرغبة في عمل أي شيء ؟ فكل الأعمال لا تجدي فتيلاً والعقل وحده يفكر إلى الأبد. واستشهد بأية من القرآن، كان الآغا رفعت بركات يرددها وهي «لا يصيبنا إلا ما كتب الله لنا».

ساعدت هذه الكلمات تقديم الفرصة للتهرب من مشاكل الساعة العويصة. وأصبح صوت كريكور الأجوف ذلقاً وهو يتحدث عن نظريات القضاء والقدر وعلاقة المسيحية بالإسلام والمجمع المسكوني الخلقيدوني. استوى كابرييل واقفاً على قدميه وقال هذا شيء لا يحتمل. فالأوروبي في نفسه كان مسلحاً ضد هؤلاء النوام الثرثارين المستعدين لأن يلقوا حتفهم دون اعتراض بينما يواصلون حياتهم في القذارة والبؤس . قاطع كريكور بعد أن أشاح بيده بازدراء «أريد أن أنقل لكم رأيي أيها السادة. ما الذي طرأ لي اليوم بينما كنت أتحدث مع الدركي علي ناصيف. فأنا ما زلت ضابطاً في الجيش التركي، فقد كنت جندياً في الخط الأول وحصلت على وسام في حرب البلقان الأخيرة. افترضوا الآن إني استدعيت إلى الجندية وذهبت إلى حلب، فكيف ستكون عليه الأمور ؟ فمنذ سنوات كنت قد أسديت للجنرال جمال باشا »، فقاطعه الطبيب المسن وقال:« إن جمال باشا نقل مقر قيادته إلى القدس »، لكن كابرييل أكمل قائلاً:«لا يهم، بل إن الوالي جلال بك هو أكثر أهمية من جمال باشا. فأنا لا أعرفه شخصياً لكننا جمعينا نعرف عنه، من هو، وأنه سيبذل كل ما بوسعه لمساعدتنا. حسناً. الآن، افترضوا أن أذهب إليه وأذكره بأن جبل موسى ليس له علاقة بهذا العالم وليس لسكانه علاقة بالسياسة ربما.. ».

أمسك كابرييل عن الكلام وساد الصمت ، ولم يعد يسمع في الغرفة سوى صوت قرقرة الماء في نرجيلة كريكور الذي كان يتوقف عن إصداره من حين لآخر. قال دير هايكازون وهو يحدق أمامه « حقاً إن الوالي جلال بك صديق عظيم لشعبنا. وفي ظله لم نكن نخشى حدوث أمور سيئة.. لكن لسوء الحظ فإن صداقته لنا لن تنفعه كثيراً.. وأخرج من جيبه الواسع جريدة مثنية وأردف قائلاً:«اليوم هو الجمعة.. وهذا عدد يوم الثلاثاء من جريدة «طنين». سأقرأ عليكم فقرة صغيرة في هذا الركن ». أبعد الصحيفة عن عينيه قليلاً وراح يقرأ:

– «استناداً إلى معلومات تلقيناها من وزارة الداخلية، فقد أحيل سعادة والي حلب جلال بك على التقاعد بصورة دائمة » .. هذا كل ما تقوله.

5 - تدخل الآلهة

فيما كان الدكتور جوهانس لبسيوس يحث سائق السيارة على الإسراع أكثر، كان على السيارة أن تتوقف عند الجسر الكبير الذي يصل بين حديقة بيرا في الضاحية إلى وسط استانبول. وأخذت الإشارة الآلية تطلق صافراتها، ونزل الحاجز واهتز الجسر وكأنه شيء حي وانقسم إلى شطرين وراح نصفاه الصدئان يرتفعان إلى الأعلى ببطء لكي تمر سفينة حربية إلى الميناء الداخلي للقرن الذهبي. « هذا فظيع » قال الدكتور لبسيوس بصوت عال بالألمانية وأغلق عينيه، وغاص في الكرسي الوثير مستسلماً لأمره. ثم خرج من السيارة وأعطى السائق عدة قروش وأخذ يجري (وكاد ينزلق بعد أن داس فوق قشرة فاكهة) وهو يهبط الدرج المؤدي إلى الرصيف حيث تتوقف عدة عبارات معدة للإيجار. ولم يكن ثمة خيار، فقد كان هناك رجلان مسنان بليدا الحركة منهمكان في قاربيهما، ويبدو أنهما لا يرغبان في الحصول على أجر. قفز لبسيوس فوق إحدى هاتين العبارتين ولوّح بيده ناحية استانبول على الطرف الآخر. فقد كان ما زال أمامه ست دقائق على موعده في وزارة الحربية. وحتى لو قطع صاحب القارب إلى الضفة الأخرى بسرعة فسيحتاج إلى عشر دقائق، ومن هناك سيحتاج إلى خمس دقائق أخرى للوصول إلى مبنى الوزارة. ست دقائق من أصل خمس عشرة دقيقة. وإذا ما سارت الأمور على ما يرام فسيتأخر على موعده تسع دقائق فقط. ولسوء الحظ ، لم تكن الأمور تسير على ما يرام. إذ لم تجد كل التوسلات والإلحاحات نفعاً لكي تجعل صاحب القارب أن يسرع . وكان القارب يصعد ويهبط لكنه لم يكن يتقدم بسرعة. «إنه المدّ يا أفندينا » بهذه الكلمات حدد ذلك التركي ذو الوجه البرونزي القدر الذي لا يمكن لأحد أن يفعل شيئاً حياله. وما زاد الأمور سوءاً مرور قارب صيد معترض من أمامهم وكان ذلك يعني ضياع دقيقتين أخريين. وعندما انتابه اليأس، سرح الألماني بخواطره. فمن أجل هذا اللقاء قام بهذه الرحلة المنهكة وقدم إلى استانبول من بوتسدام، بعد أن التمس وساطة السفير الألماني طويلاً بل وجميع ممثلي الدول المحايدة. إذ جعله هذا اللقاء أن يهرع لرؤية كل ألماني أو أمريكي في الداخل وفي كل مكان أمكنه الحصول على تفاصيل أخرى. وقد جعله هذا الموعد يجلس أياماً عديدة وطويلة في مكاتب جمعية الأنجيل الأمريكية، وجعله يبدو ثقيل الظل على أناس من شتى المشارب ويسلك طريقاً لا تخطر على بال ويهرب من الجواسيس ليقابل الأرمن في غرف سريّة. وذلك كله استعداداً للمواجهة الكبيرة. والآن لعب القدر هذه الدعابة العملية ليجعله

يتأخر. وكان ذلك كافياً لجعله يؤمن بأن قوة شيطانية تتدخل في هذا الأمر، إذ كم قاسى ذلك القائد البحري الألماني اللطيف في سبيل تدبير هذا اللقاء الذي تمّ الاتفاق عليه ثلاث مرات وأجّل ثلاث مرات. فأنور باشا هو إله الحرب العثماني ولا يبالي بالرسميات مع شخص معاد مثل الدكتور جوهانس لبسيوس .

وهكذا ضاعت الدقائق العشر . ومن المؤكد أن يكون أنور قد أصدر أوامر بعدم السماح لهذا الألماني المشاغب بالدخول تحت أي حجة. لقد خسر اللعبة. فمن هم الأرمن حقاً بالنسبة لي ؟ لكن جوهانس استبعد هذه الأفكار بتنهدة قصيرة وجافة. لا.. إن الأرمن يعنون الشيء الكثير له - بل حتى أكثر من ذلك ، إذا ما جرؤ على التفكير حقيقة بما يعتلج في نفسه - بل ربما أكثر من مواطنيه. فمنذ مجازر سنة 1896 أيام عبد الحميد، ومنذ تلك الرحلة التي قام بها إلى المناطق الداخلية في الأيام الأولى من تجربته في البعثة التبشيرية، كان يشعر بأنه أرسل خصيصاً إلى هؤلاء المنكودين. كانوا كل همه. وفجأة رأى عدداً قليلاً من وجوههم. كانت عيونهم تشبه عيون السيد المسيح وهو مصلوب على الصليب. فمنذ ساعة خلت ، كان يرى ذلك في عيني البطريرك ، كبير قساوسة الأرمن في تركيا، المطران زافين الذي كان في زيارة له وهي التي أدت إلى هذا التأخير. ولقد كان من الغباء العودة إلى بيرا بعد انتهاء زيارته إلى فندق توكاتليان لكي يبدل ثيابه. نعم. كان عليه أن يزور البطريرك وهو يرتدي رداء أسود طويلاً يلائم رجل دين بروتستانتي . أما مع أنور فلم يكن يرغب في تأكيد موقفه. وكان ينتابه قلق شديد لتجنب أي مظهر من مظاهر الرسميات. لقد كان يعرف هؤلاء الاتحاديين، خصومه حق المعرفة .

كان عليه أن لا يبقى طويلاً مع البطريرك ، وكان يتوجب عليه أن يغادر قبل عدة دقائق. «ستكون في حضرة أنور باشا بعد ساعة » . وكان يبدو من صوت المطران زافين أنه أمضى ليالي عديدة دون أن يغمض له جفن، وبدا أن صوته مائت مع شعبه « ستقف أمام ذلك الرجل . ليباركك الرب ! لكن لن تتمكن من فعل شيء ». ومضى يحدث نفسه: «لست متشائماً إلى هذا الحد يا سيدي» وبذل لبسيوس جهداً لتأكيد هذه الكلمات. لكن كلماته توقفت بتعبير من الخضوع الأليم « لقد تناهى إلينا اليوم بأنه بعد زيتون وعينتاب ومرعش، فإن خطر الترحيل سيتوقف في الولايات الواقعة شرقي الأناضول . لذلك، وباستثناء مناطق غربي آسيا الصغرى، سيتم استثناء حلب والشريط الساحلي الممتد من اسكندرونة. وأنت تعلم أكثر من أي شخص آخر أن الترحيل أكثر إيلاماً، إنه نوع من الموت بالتعذيب.. إنهم يقولون إنه لم يبق ولا شخص من أهالي زيتون على قيد الحياة» ومنعت عينا البطريرك لبسيوس من إبداء أي اعتراض « اترك المستحيل وركز على الممكن. يمكنك أن تنجح مع أني لا أظن ذلك، في الحصول على مهلة لحلب والريف الممتد على طول الساحل . ركز على الرأي العام الألماني وعلى الصحف التي تنوي إعلامها. والأهم من كل ذلك، لا تتطرق إلى الأخلاقيات، فهي تثيره إلى حد الاشمئزاز . ركز على الوقائع السياسية. هدده اقتصادياً، ولعل هذه أفضل طريقة للضغط عليه. والآن يا ولدي العزيز، إني

أبارك عملك النبيل وليكن المسيح معك » أطرق للبسيوس رأسه ورسم البطريرك على صدره شارة الصليب.

كان القارب ما زال يشق طريقه فوق مياه القرن الذهبي، وعندما وصل أخيراً إلى الطرف الآخر كان التأخير قد بلغ عشرين دقيقة وبنظرة واحدة تبين للبسيوس أنه لا يوجد أتراك على الرصيف. ضحك ضحكة خفيفة – كانت ثمة قوة خفية تحرك موضوع الأرمن التي يجب أن تمر، دون شك، دون معارضة. ولم يبذل محاولة أخرى في إيجاد عربة أجرة، بل أخذ يهرول .

لم يتمكن من الابتعاد كثيراً. فقد كانت ساحات وحارات استانبول القديمة مكتظة بالناس في يوم العطلة هذا. إذ كان آلاف من الرجال المعتمرين الطرابيش يسيرون على الأرصفة المليئة بالمحلات والمقاهي وقد تدلت الأعلام تحت نوافذ الشرفات. ماذا في الأمر؟ دحر الحلفاء من الدردنيل ؟ فكر لبسيوس بالمسافة التي أطلق منها المدفع الذي كان يسمع صوته عالياً. مدافع الأسطول البريطاني الكبيرة وهي تدك بوابات استانبول. وقال في نفسه إنها لا بد أن تكون ذكرى انتصار حققته تركيا الفتاة – ربما كان ذلك اليوم المجيد الذي قامت فيه جمعية الاتحاد والترقي بقتل جميع مناوئيها السياسيين والاستئثار بالسلطة في نهاية الأمر. لا يهم بماذا كانوا يحتفلون، فأي حشد من الناس تراهم يهتفون ويصرخون. مجموعة كبيرة من الناس تقف أمام أحد المحلات. صبيان محمولون على الأكتاف يسعون للوصول إلى واجهة المحل. وبعد دقيقة ارتفعت لافتة كبيرة. شق لبسيوس طريقه في الحشد وسأل رجلاً لم يكن يضع طربوشاً عن سبب ذلك فقال له: « لا عبارات أجنبية بعد الآن. إن تركيا للأتراك، فمن الآن وصاعداً يجب كتابة جميع اللافتات وأسماء الشوارع والإعلانات بالتركية فقط ». ثم أطلق ضحكة عالية (ولعله كان يونانياً أو شرقياً) وقال بازدراء: « ها إنهم يحطمون حليفاً لهم . إنه مكتب شركة أعمال ألمانية ». قال لبسيوس لنفسه: « حقاً إن هذا لا يهم .. عندما أصل إلى هناك سينتهي الأمر » واندفع يشق طريقه بسرعة وقوة بين الجموع . زقاق فرعي آخر وتظهر أمامه الساحة. مبنى وزارة الحربية الفخم المهيب. وارتفع أمامه برج محمود الثاني عالياً. وأخذ يمشي الهوينا لكي لا يصل وهو منقطع الأنفاس إلى عرين ذلك الأسد. وبعد أن أصيب بالإنهاك بعد صعوده سلالم وممرات تكاد لا تنتهي، أخرج بطاقته عند مكاتب وزارة الحربية . لكن شاباً عسكرياً أخبره بمنتهى اللطف أن معاليه أنور باشا يأسف بعمق بأنه وجد أن انتظاره شيء مستحيل ويطلب من سيادته أن يشرفه في وزارة الداخلية داخل السراي.

وهكذا تعين على الدكتور جوهانس لبسيوس القيام برحلة أطول من سابقتها. لكن الشياطين الآن تفكر بطريقة مغايرة. في الخارج كانت تقف سيارة. وكان السائق يرغب في القيام برحلة سهلة بعيدة عن الحشود. لذلك، وفي وقت قصير للغاية، دخل إلى عالم السراي وهو يشعر بالارتياح وقد انتابه شعور زائد بالثقة بالنفس.

لقد كانوا يتوقعون حضوره إذ ما كاد يظهر بطاقته حتى حياه أحد المسؤولين وبادره بالسؤال:

الدكتور لبسيوس ؟ يا له من فأل خير. مزيد من السلالم والدهاليز الطويلة. لكنه شعر بأنه كان يطير فوقها بسرعة نتيجة الإحساس بالسعادة الذي تملكه. إن وزارة الداخلية الهادئة، حصن طلعت بك جعله يشعر بأنه يعيش حلماً. لم تكن تفصل بين تلك المكاتب أبواب بل ستائر ولم يعرف سبباً لذلك . أخذ إلى نهاية الممر وإلى جناح خاص ، مقر أنور باشا في الوزارة. مما لا ريب فيه أن مصير الأرمن كان قد تقرر في هاتين الغرفتين . غرفة ضخمة يبدو أنها تستخدم للانتظار والاستقبال ويليها مكتب يضم طاولة كبيرة فارغة. رأى لبسيوس ثلاث لوحات على الحائط وراء طاولة المكتب الفارغة: إلى اليمين نابليون، وإلى اليسار فريدريك العظيم، وفي الوسط صورة مجسمة لجنرال تركي لا بد أنه أنور باشا، إله الحرب الجديد.

جلس القس ازاء النافذة. رأى على بعد تلالاً من الخرائب الأثرية وعواميد محطمة، وإلى الوراء كان يمتد البوسفور. كانت عينا القس الحسيرتان الزرقاوان، وشفتاه الطفليتان تتحركان من وراء شعر لحيته الرمادية القصيرة. وكان خداه المتوردان ما زالا متوهجين من مشيه السريع. أحضر خادم ركوة نحاسية من القهوة. جرع لبسيوس ثلاثة فناجين من القهوة بنهم شديد. لقد منحته القهوة زخماً قوياً فقد شدت من أعصابه، وأخذ الدم يسري في عروقه صاعداً إلى دماغه. وعندما دلف أنور باشا الغرفة كان قد أفرغ فنجانه الرابع.

قبل مغادرته برلين، كان جوهانس لبسيوس قد طلب تفاصيل دقيقة عن أنور باشا. ومع ذلك فقد انتابته الدهشة عندما شاهد إله الحرب هذا، أحد السبعة أو التسعة المتحكمين في مصير العالم. فقد كان قصيراً جداً. وعلى الفور عرف سبب وضع صورة فريدريك العظيم ونابليون. أبطال لا يتعدى طولهم خمسة أقدام. غزاة ضئيلو الجسم يقفون دائماً على رؤوس أصابعهم، ويتبوؤون السلطة تعويضاً عن قصرهم. ظهر لبسيوس. أنه كان يرتدي حذاء بكعب عال، لكنه سرعان ما تبين غير ذلك. وكانت بزته المارشالية المذهبة تزيده أناقة وهي تتلألأ بصف من النياشين. قال لبسيوس في نفسه « ملك الغجر »، ومع أن قلبه كان يخفق بقوة، إلا أنه لم يتمالك نفسه من ترديد هذا البيت الشعري الذي كان قد حفظه في صدر شبابه:

« كل هذا وأكثر
يمكن أن تكون واثقاً
بأني سأفعله».

لكن أنور باشا كان يبدو خجولاً محرجاً. وكان يفتح عينيه من حين لآخر كشابة ذات خفر. وقد أعطى ردفاه الضيقان وكتفاه المنحدران حركاته شيئاً من الرشاقة والخفة. أخذ هجوم أنور الأول شكل إثارة تعاطف مفاجيء مع شخصه الخفيف الحركة. شعور كان يعرف كيف يثيره في نفوس زائريه. فبعد أن رحب بلبسيوس لم يدخله إلى غرفة المكتب المجاورة بل رجاه أن يبقى في مكانه، وجرّ لنفسه كرسياً من وراء الطاولة بجانب النافذة، ولم يعر الضوء الذي أصبح في وجهه أي اهتمام بينما بقي زائره جالساً في الظل.

استهل جوهانس اللقاء بنقل تحيات سيدة ألمانية معجبة به، فارتسمت على شفتي الجنرال تلك الابتسامة الخجولة وقال بلهجة ناعمة وبلكنة ألمانية ممتازة «إني أكنّ احتراماً عميقاً لألمانيا. ولا يوجد أدنى شك بأنك واحد من أكثر الناس الرائعين في العالم. وأنا شخصياً يسعدني جداً أن أحظى بلقاء شخص ألماني مثلك ».

كان القس لبسيوس يعرف أن أنور كان مناصراً للفرنسيين في الجمعية وربما استمر في ذلك سراً. وقد بذل ما بوسعه أن لا ينحاز إلى جانب الألمان في الحرب، بل إلى جانب الحلفاء. تابع لبسيوس بأدب جم « ثمة عدد كبير من الألمان المخلصين المعجبين بسعادتكم: وكلنا نتوقع أن تدهش العالم بانتصاراتك » .

فتح أنور عينيه، وصدرت عنه حركة خفيفة متعبة للدفاع عن نفسه ازاء المطالب التي تقف دائماً وراء هذه الاطراءات. سادت فترة من الصمت ثم أخذ يقول : « حسناً الآن يا صديقي العزيز، انظر مع من تتعامل » وأدار لبسيوس وجهه نحو النافذة وهو يستمع رغم أنه لم تكن تسمع أصوات في الخارج سوى أصوات أبواق وصافرات قادمة من البوسفور.

– «لاحظت وجود حركة نشيطة في صفوف الشعب في استانبول اليوم. وأنا دائماً أعجب بحماس الناس ».

فأجاب الجنرال بصوته الهادىء مردداً جملة على شكل شعار وطني.

«إن الحرب قاسية لكن شعبنا يدرك ذلك جيداً».

وهنا ألقى الألماني ملاحظته الأولى « هل ينطبق هذا الأمر كذلك على المناطق الداخلية يا صاحب السعادة ؟ ».

حدق أنور بشيء من الانفراج في أبعد زاوية من الغرفة وقال:

– «بالتأكيد فإنه تحدث أشياء خطيرة الآن في المناطق الداخلية».

– «أعرف تماماً هذه الأشياء الخطيرة يا صاحب السعادة».

رفض إله الحرب أن يفهم ما يقصده وقال: «إن الوضع على الجبهة القوقازية آخذ في التحسن يوماً بعد يوم. وبطبيعة الحال فمن السابق لأوانه التحدث عن الجيش الجنوبي بقيادة جمال ومواطنك كريس ».

– «هذا أمر مشجع جداً يا صاحب السعادة. لكني أعني بالمناطق الداخلية الولايات المسالمة وليس منطقة الحرب ».

– «عندما تكون دولة ما في حالة حرب، فإن جميع مناطقها تصبح مناطق عسكرية بشكل أو بآخر».

– «ربما أدركتم أني لست هنا بصفتي كفرد، بل كممثل للجمعية الشرقية الألمانية التي ستطلب مني أن أرفع لها تقريراً عن بعض الأمور».

اتسعت عينا أنور وقد انتابته الدهشة. « فما هي بالضبط الجمعية الشرقية؟ إن وزارة خارجيتنا، وفي حقيقة الأمر مستشارنا متعاطف جداً مع بعثتي، ولدى عودتي إلى ألمانيا سألقي محاضرة في الرايخستاغ عن المسألة الأرمنية أمام الصحافة الألمانية».

نظر أنور باشا الذي كان ينصت بصمت رتيب، وعيناه مطرقتان. ولدى سماعه «المسألة الأرمنية» رفع بصره لكن لبسيوس أردف قائلاً:

– «لقد جئت إليك يا صاحب السعادة لأني على قناعة تامة بأن قائداً مثلك لن يقدم على شيء يمكن أن يلوث اسمه في التاريخ ».

وهنا بدأ أنور باشا الحديث بصوت هادىء ومسترسل : «أعرف يا سيد لبسيوس بأنك جئت إلى هنا، وأنك طلبت هذا اللقاء للحصول على تفسيري عن جميع هذه الأمور. وعلى الرغم من وجود عدد من القضايا الملحة التي تستدعي دراستي لها فاني على استعداد تام لأمنحك الوقت الذي تحتاجه وازودك بأية معلومات ترغب في معرفتها».

قابل لبسيوس هذه الأريحية بانحناءة بسيطة عبرّ فيها عن امتنانه وتابع «منذ أن تسلمنا أنا ورفاقي زمام السلطة، بذلنا كل ما بوسعنا لتلبية طلبات الملة الأرمنية وأن نحرص على نشر العدالة المطلقة. فلقد كان ثمة تفاهم قديم. فقد رحب أصدقاؤك الأرمن بالثورة وأشادوا بها. وقد أقسموا لنا بشتى الطرق إنهم سيكونون مخلصين لنا. لكن لسوء الحظ حنثوا بوعدهم في ليلة وضحاها. وحاولنا أن نفض الطرف بقدر ما أمكننا طالما أن الشعب التركي، وهو الشعب الحاكم، لم يكن معرضاً للخطر من جراء ذلك. فنحن نعيش في تركيا أليس كذلك؟ ولكن عندما أعلنت الحرب، أخذت حوادث الخيانة العظمى وارتكاب الجرائم وأعمال التخريب تتزايد، وبلغت حالات الفرار من الجيش حدّاً يثير الفزع، حتى وصل الأمر إلى قيام ثورة علنية – وإني أشير فقط، أرجو أن تنتبه إلى ذلك، إلى ثورة زيتون – ثم وجدنا أنفسنا مرغمين أما أن نتخذ اجراءات لقمعها أو أن نفقد حقنا في توجيه دفة الحرب وأن نبقى زعماء لشعبنا».

هز لبسيوس رأسه كما لو كان على وشك الاقتناع وسأله:

– «هل أثبتت حالات الخيانة والتخريب هذه قانوناً يا صاحب السعادة؟ ».

– «لا يمكن احصاء هذا الكم الهائل من الجرائم التي ارتكبوها.. المؤامرة مع روسيا والكلمة التي ألقاها سازانوف التي يمتدح فيها الأرمن في بطرسبرغ اثبات كاف، والمؤمرات مع فرنسا وانكلترا، الدسائس، أعمال التجسس، كل ما يمكن أن تفكر به».

– « وهل تم تمحيص هذه الحالات قانوناً؟».

– «طبعاً، فقد قامت المحكمة العسكرية بذلك، ولو تم ذلك في بلدك لجرى نفس الشيء. فمنذ فترة ليست بالبعيدة أعدم خمسة عشر رجلاً من المسيئين أمام أعين الناس ».

قال لبسيوس في نفسه «وقاحة خرقاء» ومال إلى الوراء وحاول السيطرة على صوته المتهدج

«حسب معلوماتي فقد تم إلقاء القبض على هؤلاء الأرمن الخمسة عشر قبل اندلاع الحرب بفترة طويلة، لذا لا يمكن ادانتهم بالخيانة حسب القانون العرفي ».

– « نحن أنفسنا نستلهم تصرفاتنا من الثورة» ومع أن الجنرال لم يرد على هذه النقطة إلا أنه قال كمن تذكر فجأة شيئاً ساراً وقال: « نحن نعرف تماماً كيف تم ذلك ».

تنحنح لبسيوس استعداداً لإلقاء سؤاله الثاني « وماذا عهد وجهاء الأرمن ومفكريهم الذين قبضتم عليهم هنا في استانبول ورحلتموهم. هل هم مدانون بالخيانة أيضاً ؟ ».

– « يجب أن ترى بنفسك بأننا لا نستطيع أن نبقي أشخاصاً يشك في خيانتهم في منطقة قريبة من الدردنيل ».

لم يعارض جوهانس لبسيوس ، لكنه دخل مباشرة في الموضوع الأصلي .

– « وزيتون ؟.. فأنا متلهف بالفعل لسماع وجهة نظر سعادتكم بزيتون ».

وفجأة غشت دماثة أنور باشا لهجة استهجان .

– «إن الثورة في زيتون هي أحد أسوأ أعمال التمرد والعصيان في تاريخ الامبراطورية العثمانية. وللأسف فقد وقعت خسائر جسيمة في صفوف قواتنا أثناء محاولتها القضاء على المتمردين مع أني أخشى أني لا أستطيع أن أزودك بأرقام دقيقة» .

– « لكن تقاريري عن زيتون تختلف عن تقارير سعادتكم » .

وجّه لبسيوس هذه الضربة بتردد «إذ أن التقارير التي وردتني لا تذكر قيام أي ثورة هناك، بل تذكر أعمالاً قمعية استفزازية قام بها المسؤولون في السنجق أو الناحية لأشهر عديدة. فهم يتحدثون عن حدوث قلاقل كان يمكن إخمادها بواسطة قوة الشرطة الموجودة في المدينة، في حين أن أي شخص منطقي يدرك بسهولة أنه كانت توجد نية مبيتة بعد قدوم تعزيزات عسكرية تزيد على أكثر من ألف جندي ».

– « لقد زُوِّدت بمعلومات خاطئة». كان أنور ما زال هادئاً ثم أردف :

– « ولكن هل لي أن أسأل من هم الذين زودوك بالمعلومات يا سيد لبسيوس؟ ».

– « أستطيع أن أذكر بعضاً منهم، لكن يمكنني أن أضيف أنه لا توجد بينها مصادر أرمنية. ومن الناحية الأخرى، توجد بحوزتي مذكرات من قناصل ألمان عديدين، وتقارير من بعثات تبشيرية ومن شهود عيان شاهدوا بأم أعينهم أبشع الفظائع، وأخيراً زودني السفير الأمريكي السيد مورغنتاو أكثر الروايات صحة حول هذا الأمر». لكن أنور قاطعه بابتهاج: «إن السيد مورغنتاو يهودي واليهود دائماً يقفون إلى جانب الأقليات بتعصب ».

فغر لبسيوس فاه لهذه المراوغة. وكانت يداه ورجلاه باردتين كالثلج وقال: «إن موضوعنا ليس موضوع مورغنتاو يا صاحب السعادة بل موضوع الوقائع ، ولن تنكرها بل لن تستطيع أن تنكرها. مائة ألف شخص في طريقهم إلى المنفى. والمسؤولون لا يتحدثون إلا عن إعادة التوطين لكني

أقترح عليك بأن هذه التسمية غير صحيحة. إذ كيف يمكن لأناس من الفلاحين من سكان الجبال ومهنيين ومحترفين أن يعاد توطينهم بسحبة قلم في صحراء ما بين الرافدين - السهول القفراء التي تبعد مئات الأميال عن موطنهم التي رفض حتى البدو الاقامة فيها؟ وذلك الهدف أعمى، فالمسؤولون في النواحي يقودون هؤلاء المنفيين الذين يصابون بالانهيار أو الجنون نتيجة الجوع والعطش أو المرض مسيرة ثمانية أيام. أما الصبيان والرجال العزل فيقتلون على يد الأكراد وقطاع الطرق هذا إذا لم يقتلهم الجيش نفسه، وترغم الفتيات الصغيرات والنسوة على أن يصبحن عاهرات ..» .

انصت الجنرال باهتمام بالغ رغم أن وضعيته الهادئة كانت تدل بوضوح على أنه يجب على المرء أن ينصت إلى هذا الهراء ما لا يقل عن اثني عشر مرة في اليوم ». كل ذلك مؤسف جداً، لكن القائد الأعلى لأي قوة عسكرية كبيرة يكون مسؤولاً عن أمن المناطق الحربية التابعة له ».

- «المناطق الحربية ؟ » صاح لبسيوس لكنه تمالك نفسه على الفور محاولاً أن يحذو حذو أنور في اصطناعه الهدوء ».إن المناطق الحربية هي ذلك الشيء الجديد المقرف. أما كل ما تبقى: زيتون، الخيانة العظمى، الدسائس.. فهي أساليب قديمة، فقد استخدمها السلطان عبد الحميد بمهارة فائقة، وكان الأرمن يصدقونها في كل مرة. فأنا أكبر منك سناً يا صاحب السعادة وأرى كل ذلك بوضوح شديد. لكني عندما أفكر بأعمال الترحيل، أشعر برغبة لأن أقدم اعتذاري لذلك الآثم العجوز. فقد كان طفلاً غير مؤذي بالمقارنة بأسلوبكم الجديد، ومع ذلك يا صاحب السعادة فقد تسلم حزبكم السلطة بهدف أن يحل العدالة والوحدة والتقدم محل اراقة الدماء زمن عبد الحميد كما يشير اسم جمعيتكم ».

كانت هذه الضربة جريئة بالفعل. وللحظة توقع جوهانس أن يضع إله الحرب هذا حدّاً للقاء. إلا أنه بقي جالساً بهدوئه المعهود ولم يعكر صفوه شيء. بل انحنى إلى الأمام وهمس وكأنه يبيح سراً: « دكتور لبسيوس، هل لي أن أريك الوجه الآخر ؟.. حسن إنه لمن حسن حظ ألمانيا أنه لا يوجد فيها عدد كبير من الأعداء الداخليين، هذا إن لم تقل أنه لا يوجد فيها أبداً، لكن لنفترض أنها، في ظروف أخرى، وجدت نفسها تواجه خونة في وسط ألمانيا - الالزاس أو اللورين أو لنقل البولنديين أو الاشتراكيين الاجتماعيين أو اليهود- وبأعداد أكبر بكثير مما يوجد حالياً، فهل ستعارض يا دكتور لبسيوس الاجراءات الرامية إلى تحرير بلدك، الذي يواجه معركة حياة أو موت ضد عالم كامل من الأعداء في الخارج، من أعدائها في الداخل؟ هل ستعتبر جمع العناصر الخطيرة من السكان ونفيهم إلى مناطق غير مأهولة أمراً غير إنساني؟ ».

كان على جوهانس أن يمسك ذراعي الكرسي باحكام لكي يمنع نفسه من القفز على قدميه واعطاء نفسه حرية كاملة للتعبير عن سخطه، لكنه تمالك نفسه وقال: « لو أن حكومتي تصرفت بشكل جائر وغير قانوني وغير إنساني إزاء مواطنينا من القوميات المختلفة فسأترك على الفور ألمانيا وأرحل إلى أمريكا».

حدق أنور باشا بعينين واسعتين طويلاً ثم قال:« من المحزن لألمانيا أن يكون هناك كثيرون يفكرون بالطريقة نفسها وهذا يدل على أن شعبك تعوزه القوة لتعزيز إرادته الوطنية بقوة».

شعر القسيس بالإعياء عند هذه النقطة من اللقاء وهمس :«إنه ليس نفس الشيء ».

– « صحيح أنه ليس نفس الشيء. لكننا نحن الذين نفوز من هذه المقارنة فنحن الأتراك نمر في مرحلة حاسمة لتوكيد حقوقنا أكثر منكم معشر الألمان بمائة مرة».

أخرج لبسيوس الذي كان شارد الذهن ويشعر بالوهن منديلاً ورفعه مثل راية برلمانية «إن الموضوع لا يتعلق بحماية أنفسكم من عدو يعيش بين ظهرانيكم، بل موضوع إبادة منظمة ومخططة لشعب آخر».وقال هذا بصوت كئيب، ولم تعد عيناه قادرتين على التطلع إلى برود أنور فراحتا تجولان في غرفة المكتب ويتطلع إلى صور الأبطال الثلاثة المعلقة على الجدار. وتذكر فجأة أنه جاء إلى هنا لبحث الأمور الاقتصادية. وبسرعة استجمع قواه لمواجهة جديدة «يا صاحب السعادة لن أجرؤ على أن أضيع وقتك في حديث عقيم، ولكن هل لي أن أجرؤ وألفت انتباهكم إلى بعض المثالب الخطيرة نوعاً ما التي من الجائز أنكم لم تولوها العناية اللازمة – فمن الطبيعي أنكم تتحملون هذا العبء بصفتكم الرئيس المسؤول، ولعلي أعرف المناطق الداخلية جيداً، الأناضول وكيليكيا وسورية بشكل أفضل مما تعرفونه أنتم نظراً لأني عملت لسنوات عديدة تحت ظروف صعبة في جميع تلك المناطق..».

وهكذا، وبكلمات سريعة، شعر أن الوقت يمر بسرعة، عرض مناشدته. فالإمبراطورية العثمانية بدون الملة الأرمنية محتم عليها الفشل اقتصادياً وسيتعرض جيشها، كنتيجة لذلك للخطر. لماذا؟ ولم يركز على موضوع التصدير الذي كان تسعون في المائة منه بحوزة الأرمن، وصاحب السعادة يعرف كذلك أن معظم التجارة الخارجية تتم على يد شركات أرمنية، لذلك ونتيجة لذلك، فإن أحد أكثر فروع الحرب أهمية هو الصناعة والتزود بالمواد الأولية فضلاً عن السلع المصنعة التي لا يمكن أن تدار بنجاح إلا على يد تلك الشركات. فخذ على سبيل المثال الشركة التجارية العالمية أواديس باكراديان وأولاده التي لها فروع وممثلون في اثني عشر مدينة أوروبية مختلفة. أما في المناطق الداخلية، فقد لاحظ خلال رحلاته السابقة هناك منذ سنوات عديدة أن الأساليب الزراعية التي يتبعها الأرمن في الأناضول كانت متقدمة على الحيازات التركية الصغيرة بمائة مرة. ففي تلك الأيام استورد أرمن كيليكيا مئات الدرّاسات والحصّادات والمحاريث البخارية من أوروبا، وهذا أعطى الأتراك حافزاً قوياً للقيام بالمذابح، وأنهم لم يكتفوا بذبح الآلاف العشرة من أضنة فقط بل حطموا الدرّاسات والمحاريث، وهنا مكمن الشر الحقيقي أن الملة الأرمنية من أكثر الشعوب العثمانية تقدماً ونشاطاً، وقد بذلت جهوداً كبيرة لكي تتخلى تركيا عن أساليبها الزراعية القديمة البدائية والأخذ بيدها إلى عالم زراعي متقدم وازدهار صناعي ولهذا السبب تم اضطهاد الأرمن وذبحهم.

– « دعنا نقرّ يا صاحب السعادة أن المهارة الحرفية والتجارة والصناعة الزراعية التي تكاد

تنحصر بيد الأرمن في المناطق الداخلية يمكن أن تنتقل إلى الأتراك -الذين يجب عليهم أن يحلوا محل العدد الضخم من الأطباء الأرمن الذين نالوا تعليمهم في أرقى الجامعات الأوروبية، والذين يعتنون بمرضاهم العثمانيين بنفس المهارة التي يقدمونها لمواطنيهم، من سيحل مكان جميع المهندسين والمحامين والمصوّرين الذين يؤدي عملهم إلى تقدم البلاد؟ ربما قلتم لي يا صاحب السعادة أنه بإمكان شعب أن يعيش ولو للحظة بدون فكر لكنه لا يستطيع أن يعيش بدون معدة. وفي الوقت الحالي لقد شرخت معدة تركيا وأنتم تأملون الصمود أمام ذلك ».

استمع أنور باشا إلى كل ذلك، وكان رأسه مائلاً قليلاً إلى أحد الجانبين. أما القسيس فبدا أشعثاً غير مرتب . إذ أخذ العرق يتصبب منه، وكانت ربطة عنقه مائلة إلى أحد الجانبين وقد ارتفعت أكمامه فوق ساعديه. وضع الجنرال ساقاً على ساق، وبدت جزمته الطويلة وكأنها تتدلى من فوق شجرة. ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة وقال:

- «إنك تتحدث عن المعدة يا سيد لبسيوس. حسناً ربما أصبح لتركيا بعد الحرب معدة ضعيفة نوعاً ما».

- « لكنها لن يبقى لها معدة على الإطلاق يا صاحب السعادة».

لكن الجنرال الذي لم يبد عليه أي اضطراب قال: «إن عدد سكان تركيا أربعون مليوناً. حسن، الآن، حاول أن تراها من وجهة نظرنا يا سيد لبسيوس. ألا تظن أن محاولة جمع شمل هؤلاء الأربعين مليوناً وتأسيس امبراطورية متجانسة لتلعب في آسيا نفس الدور الذي فعلته ألمانيا في أوروبا سياسة عظيمة وجديدة.إذ أن هذه الإمبراطورية تنتظر وعلينا أن نمسكها بقبضتنا. إني أوافق أن المرء يجد بين الأرمن جزءاً مذهلاً من الذكاء. هل أنت حقاً تؤيد ذلك النوع من الذكاء يا سيد لبسيوس؟ أنا لا أرى ذلك. نحن الأتراك يمكن ألا نكون أذكياء بهذا الشكل، لكننا من الناحية الأخرى شعب عظيم ويتسم بالبطولة. فقد أسسنا وحكمنا إمبراطورية عالمية لذلك فإننا ننوي تذليل كل الصعاب ».

لوى لبسيوس أصابعه، لكنه لم ينبس بأي كلمة. فقد كان هذا الطفل المدلل سيداً مطلقاً وبيده سلطة عظيمة. وأخذ رأسه الصغير يفكر بمثل هذه الإحصائيات التي أذهلت كل من كان يعرف الحقيقة. ولم يكن بوسعه إعطاؤه إحصائيات ليواجه الدكتور لبسيوس الذي كان يدرك بدقة أنه لا يكاد يوجد في الأناضول كلها ستة ملايين تركي من أصل تركي نقي. فإذا ذهب المرء إلى شمال بلاد فارس والقوقاز وتركستان فلن يستطيع أن يجمع من كل القبائل التركية البدوية وقطاع الطرق وسكان البوادي المنتشرين فوق أراض شاسعة تبلغ مساحتها نصف مساحة أوروبا أكثر من عشرين مليوناً.

أصبح صوت جوهانس لبسيوس هادئاً ومشحوناً بالحكمة « ترغبون في تأسيس إمبراطورية جديدة يا صاحب السعادة، يكون الشعب الأرمني تحت أنقاضها، هل يمكن أن يجلب ذلك لكم الإزدهار؟ ألا يمكن أختيار طريق سليم أكثر من هذا؟ ».

هنا وللمرة الأولى عرض أنور باشا الحقيقة عارية، فلم تعد ابتسامته تنطوي على أي تحفظ، وبرزت منه نظرة شاخصة باردة، وتراجعت شفتاه عن صف من الأسنان القوية الخطرة وقال :«لا يمكن أن يعيش الإنسان بسلام مع جراثيم فتّاكة».

عاد لبسيوس إلى هذا الموضوع للمرة الثالثة: «إذاً تعترفون بصراحة عن نواياكم في استخدام الحرب لإبادة الملّة الأرمنية؟ ».

إن آرائي ونواياي الشخصية موجودة في المذكرة التي أصدرتها حكوماتنا حول هذا الموضوع. إننا نسلك وفق ظروف الحرب القاهرة دفاعاً عن النفس بعدما انتظرنا وراقبنا بقدر ما نستطيع. إن المواطنين الذين يعملون لتدمير الدولة فإنهم يتعرضون في جميع البلاد للتعامل بحدة بموجب القانون ولهذا فإن حكومتنا تتصرف بموجب حقوقها الشرعية».

عاد إلى البداية مرة أخرى، ولم يستطع جوهانس لبسيوس أن يكتم صوتاً أشبه بأنّة. وكان بإمكانه أن يسمع صوتاً ساخناً «لا تعقلن الأمور بل كن واقعياً. المناقشة».آه ليته كان واقعياً لاستخدم مناقشات حادة كنصل الشفرة! لكن جلوسه وعدم تمكنه من الوقوف على قدميه للإجابة جعله متوتر الأعصاب. وهو المتحدث المعتاد على إلقاء الكلمات في الجمعيات والجلسات العامة، كان يشعر بأنه بحاجة إلى مكان ليصبح حر الحركة.

- « يا صاحب السعادة» وضغط بيده على جبهته العريضة الجميلة الشكل « لن أحدثك عن أمور بديهية. لن أقول أنه من الممكن عدم تعريض شعب كامل للآلام نتيجة تصرف أفراد معينين ولن أسأل ما هو ذنب النساء والأطفال الصغار لكي يتعرضوا لموت وحشي من أجل سياسة لم يسمعوا بها. أريدك أن تتطلع إلى المستقبل، مستقبل شعبك يا صاحب السعادة! فهذه الحرب ستضع أوزارها يوماً، وستجد تركيا نفسها مضطرة لعقد صلح جعل الله ذلك اليوم جيداً لنا جميعاً، ولكن ماذا لو كان ينطوي على أمور سيئة يا صاحب السعادة؟ بالتأكيد يجب على الرئيس المسؤول عن الشعب أن يتخذ بعض الإجراءات إزاء إمكانية انتهاء الحرب نهاية غير مستحبة. وما هو الموقف الذي ستكون لجنة السلام العثمانية المفاوضة إزاءه إذا ما وجدت نفسها في مواجهة السؤال: أين أخوك يا هابيل؟ حالة مثيرة للألم. إذ يمكن للقوى الكبرى المنتصرة- لا سمح الله - أن تتخذ هذه الجريمة العظمى ذريعة لتقسيم الغنيمة فيما بينها دون أن تندم لحظة واحدة، والجنرال أنور باشا سيكون هو الرجل الذي حمل على عاتقه كل هذه المسؤولية إذ أن كلمته كانت الكلمة الفصل - فكيف سيمكنه الدفاع عن نفسه أمام أولئك الناس ؟ ».

سرحت عينا أنور باشا ثم قال بجد تام: « شكراً على هذه اللفتة العظيمة. لكن يجب على أي إنسان يدخل في معترك السياسة أن يتمتع بخاصتين هامتين: أولاً: إحساس معين بالخفة والطيش أو إذا أحببت شعور باللامبالاة إزاء الموت والأمران سيّان في تلك اللحظة وثانياً: الإيمان الراسخ بالقرارات التي يتخذها».

استوى القس واقفاً. صالب ذراعيه على صدره على الطريقة الشرقية. فقد كان الملاك الحارس

الذي أرسله الله لحماية الشعب الأرمني في حالة يرثى لها. إذ تدلى منديل كبير من جيبه وارتفع ساق بنطاله حتى كاد يصل إلى ركبتيه، كما وصلت ربطة عنقه إلى قرب أذنه حتى كاد أنفه الصغير يختبئ وراءها. انحنى أمام محدثه الجالس وقال:

- «أتوسل إليك يا صاحب السعادة أن تنهي هذا الأمر اليوم. فالمئات والآلاف يلاقون حتفهم على الطرق العامة في الشرق. ضع حداً لهذا اليوم. أصدر أوامر تقضي بإعادة هؤلاء المنفيين، فأنا أعلم أنه لم يتم إخلاء جميع المناطق والسناجق من السكان بعد. فمن أجل السفير الألماني والسيد مورغنتاو لا زلتم مترددين بشأن عمليات الترحيل الكبيرة في غربي آسيا الصغرى. عفّوا عن شمال سورية وحلب واسكندرون وأنطاكية من أجلي. قل :« هذا يكفي » وعندما أعود إلى ألمانيا سأذيع أفضالك هذه أينما حللت ».

لم يعد القس قادراً على البقاء جالساً، رغم أن الجنرال كان يشير إليه بالجلوس عدة مرات. وأخيراً قال أنور:« سيد لبسيوس إنك تغالي بجدارتي ، إذ أن تنفيذ قرارات حكومية من هذا القبيل هي من شأن وزارة الداخلية».

أبعد الألماني نظارته عن عينيه « هذا هو بيت القصيد - الطريقة التي يتم من خلالها تنفيذ الأمور. فليس الوزير أو الوالي أو المتصرف هو الذي ينفذ هذه المراسيم والقرارات ، بل صغار الموظفين وجنود متوحشون خالية قلوبهم من أية رحمة. فهل تريدون أنتم مثلاً أو سعادة الوزير أن تنهار النساء والأطفال على الطريق العام وأن يساقوا تحت فوهات البنادق؟ هل ترغبون في أن تمتلأ منطقة بأكملها بأجساد تفوح منها رائحة النتن وأن يمتلأ الفرات بالجثث ؟ أعرف تماماً أن هذا هو ما يجري فعلاً».

تقدم أنور باشا قليلاً منه وقال: « إني أدرك جيداً مدى اطلاعك الواسع على المناطق الداخلية، وسأكون في غاية السعادة إذا ما حصلت على مقترحاتك بشأن تحسين هذه الأمور خطياً وسوف أدرسها بعناية». مدّ لبسيوس يده وقال: «أرسلني إلى هناك. هذا هو اقتراحي الأول. حتى أن السلطان العجوز لم يرفض لي هذا الطلب. امنحني سلطة كاملة لتنظيم هذه الترحيلات والقوافل، وسيمدني الله بالقوة إذ أن لدي خبرة أكثر من غيري في هذا الشأن - ولا أحتاج إلى قرش واحد من الحكومة العثمانية إذ سوف أحصل على الأموال اللازمة من لجان الإغاثة الألمانية والأمريكية. فقد نجحت قبل ذلك في المساهمة في المساعدة بتنظيم أعمال عظيمة. فقد ساعدت في إقامة العديد من دور الأيتام والمستشفيات وأكثر من خمسين جمعية صناعية. وبالرغم من هذه الحرب، فإني أستطيع أن أقوم بالشيء نفسه مرة أخرى بل وعلى نحو أفضل - وبعد سنتين ستشكرني أنت نفسك يا صاحب السعادة».

لم ينصت أنور باشا هذه المرة بانتباهه المعهود بل بحماس شديد ورأى لبسيوس على وجه لورد الحرب هذا قناعاً متجمداً تغلب على كل الأحاسيس - قناع عقل بشري تجاوز الشعور بالذنب. ورد عليه أنور: «إن اقتراحاتك العظيمة تثير اهتمامي. لكن لا مندوحة لي من رفضها إذ

أن طلبك الأخير هذا يدل على أننا حتى الآن نتناقش في أهداف متباينة. فإذا ما سمحت لأجنبي أن يساعد الأرمن ، فسأخلق سابقة ستسمح بتدخل شخصيات أجنبية وبالتالي البلدان التي تمثلها. وأكون بذلك قد قوضت سياستي كلها التي من أهدافها أن ألقن الأرمن عواقب الرغبة التي تحدوهم في التدخل الأجنبي. والأرمن أنفسهم ستنتابهم الحيرة. إذ كيف تريدني وأنا أعاقبهم على آمالهم وتخيلاتهم الداعية للفتنة أن أرسل لهم صديقاً مخلصاً لإعادة صحوتهم، كلا يا عزيزي لبسيوس هذا من ضرب المستحيل. فأنا لا أستطيع أن أدع الأجانب يقدمون يد العون لهذا الشعب إذ يجب على الأرمن أن يروا أننا نحن المحسن الوحيد لهم ».

غاص القس في كرسيه. شعر بالضياع. لقد انتهى الأمر إذ لم يعد من داع لقول المزيد. آه لو كان الرجل خسيساً خبيثاً.. لو كان شيطاناً! لكنه لم يكن خبيثاً أو شيطاناً. فقد كانت عملية القتل الجماعي هذه جذابة بصورة صبيانية ثم أردف أنور باشا بلهجة تشوبها الثقة.

– « سأقترح عليك شيئاً يا سيد لبسيوس. خذ الأموال. خذ قدر ما تستطيع من جمعياتك هذه.. مالاً كثيراً – في ألمانيا وأمريكا. وأحضرها لي . فسوف أستخدمها حسب ما تريد ووفق مقترحاتك. لكني يجب أن أشير بأنني لا أسمح أبداً بأي إشراف مهما كان سواء من الألمان أو غيرهم من الأجانب ».

لو لم يكن لبسيوس في حالة من الحنق الشديد لانفجر ضاحكاً لهذا الاقتراح. إذ كانت فكرة وضع الأموال تحت تصرف أنور وانفاقها بأساليب ملتوية مثيرة للضحك. لم يحر جواباً. فقد أحس بالهزيمة التامة رغم أنه لم يكن يحدوه أمل كبير حتى قبل إجراء هذا اللقاء بالنجاح. وأدرك الآن فقط أن العالم ممزق. حاول أن يستجمع أفكاره، أن يتمالك نفسه، أن يبدو مقبولاً أكثر. مسح جبهته عدة مرات واستوى واقفاً.

– «لا أستطيع أن أتحمل مجرد التفكير يا صاحب السعادة بأن هذه الساعة التي تفضلتم عليّ بها بأنها لم تكن مجدية أبداً. فهناك مئات الآلاف من الأرمن في شمالي سورية وعلى طول الساحل يعيشون بعيداً عن ساحات المعارك. وأنا متأكد يا صاحب السعادة بأنكم توافقون بأنه من الأفضل وقف إجراءات العقاب التي لا هدف لها».

ومرة أخرى افترت عن شفتي إله الحرب ابتسامة « ربما تكونون متأكدين يا سيد لبسيوس بأن حكومتنا ستتجنب القيام بأية أعمال قاسية لا مبرر لها ».

لقد كانت هذه مجرد رسميات فارغة من كلا الجانبين. إذ لم يقدم أنور باشا أي تنازل. وكان لبسيوس يعرف جيداً بأن كلماته الأخيرة لم تكن تنطوي على أي معنى ولم يقلها إلا لإنهاء اللقاء.

توجه أنور باشا إلى مكتب طلعت بك . وكان الموظفون الذين يقفون احتراماً له ينظرون إليه نظرة بطل. لقد كان هؤلاء يكنون له حباً غامضاً إذ شاعت عنه مئات القصص تدور حول بطولته وجرأته الجنونية. فعلى سبيل المثال، عندما تمردت كتيبة مدفعية خلال الحرب في ألبانيا. وقف

ولفافته في فمه أمام فوهة مدفع الهاوزر وتحدى المتمردين أن يطلقوا النار عليه. لقد كان الناس يرون في تقاطيع أنور الناعمة هالة الرجل المخلص، ألم يكن الرجل الذي بعثه الله ليعيد بناء إمبراطورية عثمان وبيازيد وسليمان.

حيا الجنرال موظفيه ببشاشة ملحوظة أثارت في نفوسهم مزيداً من البهجة، وشرعت أمامه الأبواب المؤدية إلى مكتب طلعت بسرعة. بدت الغرفة الصغيرة صغيرة جداً بالنسبة لشخصية ذلك الوزير القوية. وما أن دخل الغرفة حتى استوى طلعت واقفاً وراء مكتبه. كان رأس طلعت كبيراً وقد وخط الشيب فوديه. وكان يحف شفتيه العليا شارب صغير شديد السواد وبرزت من فوق ياقته ذقن سمينة مزدوجة. كان يرتدي سترة بيضاء ترتسم من تحتها معالم بطنه الكبيرة المندفعة إلى الأمام. وفي كل مرة كان طلعت بك يرى شريكه في الحكم كانت تنتابه رغبة عارمة في وضع يديه الضخمتين بعطف أبوي على هاتين الكتفين الصغيرتين لذلك الرجل الذي باركته الآلهة. لكن طلعت كان الرجل المتدفق حيوية، المتحدث اللبق، الذي كان بإمكانه أن يستعيض عن خمسة دبلوماسيين بطريقته المباشرة والمفعمة بالثقة. أما أنور، نصف الإله، وقرين أميرة من عائلة السلطان فقد كان ينتحي في معظم الأحيان في حفلات الاستقبال جانباً لمدة نصف ساعة حيث يستسلم لأحلامه. ألقى طلعت يده الضخمة المكتنزة مرة أخرى واكتفى بسؤال واحد: « إذاً كان الألماني في زيارتك ؟ ».

تطلع أنور باشا إلى البوسفور بمياهه المتموجة بحبور والسفن تمر مسرعة فوقه. ثم نظر وراءه وجعل عينيه تسرحان في المكتب الفارغ حتى توقفتا على جهاز إرسال مورس بالي كان قد وضع على طاولة مفروشة وكأنه شيء ذو أهمية كبيرة، فبواسطة الآلة اللعينة تلك كان طلعت الشاب الموظف الصغير في إدارة البريد والبرق يبعث إشارات المورس، قبل أن ترفعه ثورة الاتحاديين ويصبح الرجل الأول في امبراطورية الخليفة. وكان يتركه هنا لكي يتيح لكل زائر فرصة الإعجاب بهذا الدليل على صعوده الكبير مكافأة لجدارته. كما بدا أن أنور ينظر إلى هذا الجهاز بعينين هادئتين قبل أن يتذكر أن يرد على سؤاله « نعم الألماني! حاول أن يهدد قليلاً بالرايختاج ».

هذه الملاحظة أثبتت كم كان البطريرك زافين محقاً، إذ كم كان الدكتور لبسيوس منذ البداية مخطئاً في محاولته لاستثارة إنسانية هؤلاء الناس. أحضر السكرتير البريد وأخذ طلعت يوقعه دون أن يعود ويجلس ثانية. ولم ينظر إلى الأعلى عندما قال « إن هؤلاء الألمان يخشون أن يتحملوا المسؤولية جزئياً. ولكنهم ربما جاؤوا ليتوسلوا لنا بأمور أكثر أهمية من الأرمن ».

لعل ذلك أنهى مناقشة اليوم حول الترحيل لو لم تقع عينا أنور الفضوليتان على البريد بنظرة فاحصة. لاحظ طلعت بك نظرته، وجعل الأوراق تصدر صوتاً وهو يقلبها «الإتجاهات المحددة إلى حلب. افترض في الوقت نفسه أن الطرق ستصبح فارغة مرة أخرى. في الأسابيع القليلة القادمة يمكن البدء بالتحرك ثانية من حلب واسكندرونة وأنطاكية والساحل بأكمله». «أنطاكية والساحل؟ رد أنور متسائلاً كما لو كان لديه شيء يود قوله حول هذه النقطة. لم ينبس بأي كلمة

بل راح يحدق بإعجاب في أصابع طلعت المكتنزة التي كانت ترسم تواقيع في أسفل النصوص. لقد كانت هذه الأصابع هي التي خطت الأمر الذي أرسل إلى جميع الولاة والمتصرفية« إن الهدف من أعمال الترحيل هو الإبادة ».

رفع الوزير ظهره المنحني وقال: « لقد تم الأمر. ففي الخريف سأكون قادراً على القول دون مواربة لجميع هؤلاء الناس أن المسألة الأرمنية لم يعد لها وجود ».

وقف أنور إزاء النافذة ولم يسمع ما قاله طلعت، هل يا ترى كان يفكر بخليفة المستقبل الذي كان من المزمع أن يصل من مكدونيا إلى الهند؟ هل كان ينتابه القلق بشأن توريدات الذخيرة إلى الجيش؟ أم كان يحلم بأثاث جديد لقصره الرائع المطل على البوسفور؟ فقد أقيم العرس المهيب في قاعة الولائم الكبيرة وقد أحضرت السلطانة ناجية ، ابنة السلطان دوطتها: أربعة أعمدة من الفضة المطلية بالذهب ومفرشاً من الديباج البيزنطي الموشوم بالنجوم.

كان جوهانس لبسيوس ما زال يشق طريقه عبر حارات استانبول وأزقتها. وكان الوقت قد جاوز الظهر وفاته طعام الغداء. لم يجرؤ القس على العودة إلى فندق توكتليان الأرمني. إذ كان يشعر جميع نزلائه بالرعب واليأس بدءاً من صاحب الفندق والنزلاء حتى أصغر نادل وحمال. فقد كانوا يعرفون مهمته والجواسيس وأتباع أنور يتابعون تحركاته في كل مكان. انتابه الحزن لأن أصدقاءه ينتظرونه الآن في مكان آمن من بينهم تافيتيان، رئيس الجمعية الوطنية الأرمنية السابق الذي كان قد ألقي عليه القبض لكنه تمكن من الهرب وهو متوار في استانبول. لم يكن لدى لبسيوس القوة أو الشجاعة الكافيتان لمواجهتهم. وأن عدم مجيئه سيكون دليلاً كافياً لإظهار الحقيقة لهم وقد أمل أن يكونوا قد تفرقوا الآن وتوقفوا عن انتظاره. إذ لم يستبعد حتى أكثر المتشائمين منهم (وكانوا جميعهم متشائمين ولا عجب في ذلك) أن يسمح للقسيس الذهاب إلى المناطق الداخلية ويمكن جني الشيء الكثير من جراء ذلك.

وصل لبسيوس إلى حديقة عامة. كان في دوامة. وقع بصره على مقعد. كان يوجد مكان بجانب أناس آخرين. تراءت أمامه نصف دائرة بألوان زاهية. وفي تلك اللحظة كانت فرقة موسيقية عسكرية على المنصة تعزف لحناً انكشارياً. أصوات الأبواق والطبول والناي والآلات النحاسية كانت تعلو وتهبط. غاص جوهانس لبسيوس وسط أنغام هذه الموسيقى حتى ذقنه وكأنه في حمام مملوء بشظايا الزجاج. لكنه أراد أن يتألم وأن لا يتحرر من ذلك الألم. فراح يضغط على حفنة من قطع الزجاج في وعيه. وفي تلك اللحظة حلق سرب من الطائرات فوق سماء استانبول وراح يرمي بقصاصات من الورق. ورغم أنه لم يعرف سبب ذلك فقد أصبح واضحاً لجوهانس أن هذه الطائرات التي تحلق فوقه يجب أن يطلق عليها اسم «الخطيئة الأولى وافتخارها ». وقف . قال في نفسه يجب التفكير بسبل جديدة. فإذا فشلت السفارة الألمانية فلعل (مارك غراف بالوفيتجي) الرجل النمساوي الجليل يمكنه أن يحرز نجاحاً أكبر. إذ بإمكانه أن يهدد بالقيام بأعمال انتقامية- فقد كان البوسنة من المسلمين مواطنين من رعايا النمسا- المجر وحتى الآن كانت

تحذيرات البابا فاترة جداً. لكن أنور اقترب منه بابتسامته المعهودة. لا. فإن الخجل لم يكن هو الكلمة الصحيحة التي يمكن بها وصف هذا الود الصبياني (أو البناتي) لقاتل الشعوب « في نيتنا يا سيد لبسيوس أن نستمر في تنفيذ سياسة مصالحنا حتى النهاية. ولا يمكن لأي قوة أن تمنعنا من ذلك إلا القوة التي تعلو جميع هذه المصالح. وإذا حدث وإن صادفت اسماً لمثل هذه القوة في سجلات الدبلوماسية فسأكون في غاية السعادة لأن استقبلك ثانية في الوزراة ».

استدار لبسيوس فجأة وبعنف بحيث أثار الفزع في المرأة المحجبة الجالسة بجواره على نفس المقعد فنهضت على التو وابتعدت «لم يعد بالإمكان عمل شي ». لم يكن بالوسع تقديم مساعدة أخرى. وخطر في بال القس ما كان يعرفه دير هايكازون في يوغونولوك منذ أسابيع. لم يعد أمامنا سوى وسيلة واحدة - الصلاة.

بدأت الموسيقى الإنكشارية تنطلق ثانية في يوم العطلة ذلك في وسط تلك الجموع الحاشدة. وراح رأسه، وعيناه مغلقتان، يترنح من جانب لآخر وبدأت روحه تتكلم «أبانا الذي في السموات..تبارك اسمك ». لكن كيف تغير « أبانا»؟ فكل كلمة كانت من العمق بحيث لا يمكن للعين أن تسبر أغوارها. وعندما وصل إلى كلمة « نحن » كان رأسه ما زال يميل يمنة ويسرة. من لا زال يجرؤ على القول « نحن » منذ أن صعد المسيح، الذي ربط « نحن » مع بعضنا إلى السماء منذ اليوم الثالث ؟ فبدونه لا يتعدى الأمر أكواماً عفنة من العظام التي تقدر بنصف الكون. فكر لبسيوس بوالدته. بالكلمات التي سطرتها بعد عماده مباشرة منذ ستة وخمسين عاماً في مفكرتها « أتمنى أن يكون اسمه جوهانس لكي أتذكر إلى الأبد أن واجبي المقدس أن أربي جوهانس المؤمن الذي يحب الله حقاً ويسير على خطاه..».

هل أصبح جوهانس مؤمناً؟ هل كان حقاً مفعماً بالثقة بالله الذي لا يمكن تسميته؟ واحسرتاه فإن مثل هذه الثقة مهددة بالتزعزع عندما ينحدر الجسد. لقد عاد إليه مرض السكري وكان عليه أن يكون حريصاً في نوعية طعامه والأهم من ذلك عدم تناول الحلويات أو الخبز أو البطاطا. وإن عدم سماح أنور له بالسفر إلى الأناضول يمكن أن يكون من أجل أن لا تسوء صحته أكثر. لكن ماذا كان يفعل بواب فندق توكتليان هنا؟ ومنذ متى يرتدي القبعة المستديرة التي يرتديها الضباط؟ هل أرسله أنور ؟ وبتهذيب جم سلمه البواب تصريحاً للذهاب إلى المناطق الداخلية. كانت صورة نابليون ممهورة بالتوقيع. نعم. فقد كان عليه أن ينتظر أول قافلة من المنفيين خارج الفندق حيث سيلتقي كل أصدقائه: تافيتيان وجميع الآخرين. كانوا يبتسمون ويشيرون إليه. توقفوا على ضفاف نهر تحت صخور ناتئة. يا إلهي أنهم يحملون خياماً. لعل أنور قدم بعض التنازلات. وعندما استلقوا لنيل قسط من الراحة، تقدم منه أرمني طويل وقد تلوثت ثيابه بالوحل وبادره بلغة ألمانية مكسرة:«انظر - إن هذا النهر العظيم هو الفرات وهؤلاء هم أولادي. ولكن عليك أن تمد جسدك عليه من الضفة إلى الضفة لكي يصبح جسراً ليعبر عليه أولادي ».

تظاهر لبسيوس بأن هذه مجرد دعابة وقال : «حسن، عليك أنت وأطفالك أن تنتظروا قليلاً

حتى يصبح جسدي أكبر قليلاً». وفجأة أخذ جسمه ينمو فامتدت يداه ورجلاه إلى اللانهاية بعيداً عنه وأصبح بإمكانه الآن تحقيق طلب ذلك الأرمني. ومع ذلك فلم يجد ذلك نفعاً في نهاية الأمر. فقد اختل توازنه وكاد يسقط من فوق المقعد.

قال لنفسه للمرة الثانية في ذلك اليوم: «إن هذا حقاً أمر فظيع ».لكن في الواقع فإن ما كان يعنيه أكثر من أي شيء آخر هو العطش الذي كان يعذبه. استوى واقفاً وهرع إلى أقرب دكان للمرطبات دون أن يلقي بالاً للتحذيرات الطبية وأخذ يجرع بنهم شراباً مبرداً حلواً. وعاوده الإحساس بالنشاط. ضحك بشرود وقال: «لن أدعها تمر» وكانت هذه الضحكة الغامضة بمثابة إعلان حرب على أنور باشا.

في تلك اللحظة بالذات، كان السكرتير الخاص لطلعت بك يسلم ممثل المكلف المسؤول في وزارة البريد والبرق رسالة رسمية تتعلق بحلب واسكندرونة وانطاكية والساحل .

6- الاجتماع الكبير

منذ اليوم الربيعي الذي رفض فيه جلال بك والي حلب الجليل تنفيذ أوامر الحكومة بتهجر الأرمن في ولايته، لم تعد هناك أية عوائق أمامها. وباستثناء أولئك الذين تأثروا بشكل مباشر بهذه القرارات فقد ألقي عبء اتخاذ هذه التدابير المأسوية على عاتق المديرين. فقد كانت النواحي التي يديرونها تتألف من مساحات شاسعة من الأراضي التي كان قلما يوجد فيها خط حديدي كما أن الاتصالات البرقية نادرة فيها والتنقل بالعربات على طرق شديدة الوعورة كان يشكل معاناة حقيقية. لذلك، لم يكن أمام المديرين خيار سوى الجلوس طيلة النهار ونصف الليل على صهوة حصانهم ليشرفوا على ترحيل كل القرى الأرمنية – التي كانت تبعد مسافة ميل – في الوقت المحدد الذي كان غالباً يعني منتصف الليل وقبل طلوع النهار.

وكان من السهولة بمكان للوالي والمتصرف والقائمقام إصدار أوامرهم وتحمل المسؤولية. أما في المدن فكان الأمر أشبه بألعاب الأطفال. ولكن عندما يكون أمام المرء سبعة وتسعون ناحية وقرية صغيرة فإن الأمر يبدو مختلفاً تماماً. لذلك فإن الكثير من المديرين الذين لم يكونوا قادرين على عمل المعجزات والحريصين على تطبيق القانون بحرفيته قرروا دون تردد كثير أن يتناسوا هذه أو تلك القرية النائية. وبينما كان المثقفون الأتراك من الطبقات الوسطى الذين أخذوا يرتادون المسارح ويسمعون بأسماء مثل سارة برنار وبيسمارك في المدن التركية فقد وقفوا وقفة رجل واحد في وجه سياسة أنور باشا فيما يتعلق بالأرمن، في حين كان الأتراك البسطاء من الفلاحين أو العمال يحملون شعوراً مغايراً. وفي أغلب الأحيان، كانت تنتاب المدير الدهشة وهو يرى دموع الأتراك والأرمن تمتزج مع بعضها بعد أن يتلو أمر النزوح. كما كان يشعر بالعجب وهو يرى الأتراك يقفون أمام بيت أحد من الأرمن يذرفون الدمع ويقولون لسكانه الذين تملكهم الذهول دون أن تسيل دمعة واحدة منهم وهم يغادرون بيوتهم دون أن يتطلعوا إلى الوراء ويقولون لهم: «كان الله في عونكم» كما كانوا يحملونهم بالمؤن والهدايا الثمينة التي كانت عبارة عن عنزة أو حتى بغل. بل أن المدراء كانوا يرون هؤلاء الأتراك وهم يشيعون جيرانهم الذين حلت عليهم اللعنة. بل لعلهم كانوا يرون بني قومهم وهم يرتمون أمام أقدامهم ويتوسلون لهم: « دعوهم يبقوا معنا. إنهم ليسوا مؤمنين لكنهم أناس طيبون. إنهم إخوتنا دعوهم يبقون معناً ».

ولكن ما جدوى كل ذلك. إذ لم يكن بإمكان أحد المديرين الطيبين التغاضي عن أكثر من

بضع قرى صحراوية لا تحمل اسماً. وبذلك يكون قد سمح سراً بوجود بعض بقايا هذا الشعب المنكود. وفي أحوال أخرى كان عليهم أن يقطعوا مسافات طويلة حتى يصلوا بعد أيام إلى الطريق العام المؤدي إلى الجنوب الغربي وإلى حلب عبر الصحراء. مليون إنسان يترنحون أثناء سيرهم بشكل لم تر له الأرض مثيلاً. وكان قادة الجيش غير المنظورين قد اتبعوا خطة ذات بعد نظر استراتيجي. فخلال الأيام القليلة الأولى كانت تتوفر كميات ضئيلة من الخبز والبرغل والقمح المجفف. وفي تلك الأيام كان يحق لكل فرد أن يسحب من الأونباشي، مأمور الدفع في القافلة مبلغاً قدره أثنتا عشرة بارة. لكن معظم هؤلاء كان حكيماً بعدم طلب هذا المبلغ، لأن ذلك يمكن أن يجلب كراهية المسؤولين تجاههم. ومع ارتفاع تكاليف المعيشة، فإن كل ما كان يؤمل شراؤه باثنتي عشرة بارة برتقالتين أو بيضة واحدة. لذلك، كانت الوجوه تزداد نحولاً والخطوات أكثر تعثراً. وما هي إلا فترة وجيزة حتى لم يعد يسمح لهذا الحشد الممتد على طول الطريق سوى التأوهات والآنات ترافقها صرخات متشنجة في بعض الأحيان. فكانوا يتهالكون على الأرض ويتكومون في الحفر حيث يلقون مصرعهم. وكانت عصي الدرك تنهال على ظهورهم المرتجفة وذلك لأن هؤلاء الدرك كانوا يتميزون حنقاً. فقد كانوا يحيون حياة تعيسة حتى يتمكنوا من إيصال قوافلهم إلى حدود الناحية الأخرى. وفي البداية كان يجري تفقد أحوال المهجّرين، إلا أنه ما أن علت سطوة الموت والمرض، بدأت ترمي المزيد من جثث الأموات وخاصة في الخنادق لم يعد المأمور يأبه لإجراء التفقد. فمن يهمه أن يعرف أن جسد سركيس أو أسدغيك أو هابيت أو أنوش أو فارتوهي أو كورين قد أصيب بالنتن في مكان ما في العراء؟ ولكن لم يكن جميع الدرك سيئين. بل لعل معظمهم كان طيب القلب، ولكن ماذا بوسع دركي أن يفعل ؟ إذ أن لديه أوامر صارمة بالوصول إلى نقطة محددة مع القافلة في ساعة محددة. وربما كان يشعر بالتعاطف مع تلك الأم التي تبكي طفلها وتحاول انتشاله من خندق أو التي ترمي بنفسها على الطريق وتتشبث بالأرض. فلا فائدة من التحدث إليها. فقد أضاعت دقائق وأمامهم ستة أميال حتى نقطة التوقف التالية. صرخات مجنونة تنطلق من حناجر الآلاف. لماذا لا تلقي هذه الجموع الضعيفة بأنفسها على المأمور وزملائه وتنزع السلاح منهم وتمزقهم إرباً إرباً؟ ربما كان الدرك في خوف مستمر من حدوث مثل هذا الهجوم الذي سيودي بحياتهم. لذلك كان أحدهم يطلق النار ويلوح الباقون بسيوفهم ليضربوا بها هؤلاء العزل البائسين.

ثلاثون أو أربعون رجلاً يستلقون على الأرض والدماء تنزف منهم بغزارة. ومع رؤية الدم تعود الرغبة المتأججة في نفوس الحراس المثارين. رغبتهم القديمة المتأججة في امتلاك نساء هذا الشعب المنكود. إذ يمكن النيل من أكثر من امرأة من أولئك النسوة اللاتي لا حول لهن ولا قوة. وبعد أن يفرغوا من ذلك، قلما يدرك هؤلاء الدرك كيف حدث ذلك.

سجادة متنقلة حيكت بخيوط من مصائر الناس الملطخة بالدماء. وكانت القصة نفسها في كل مكان. فبعد الأيام القليلة الأولى من السير على الطرقات العامة، كان يتم عزل الشبان والرجال عن باقي أفراد القافلة. فهنا مثلاً رجل في السادسة والأربعين من العمر، يرتدي ثياباً

جيدة، مهندس، تنهال عليه ضربات عديدة بالهروات لإبعاده عن زوجته وأطفاله الذين يبلغ أصغرهم السنة والنصف من العمر.إذ يتعين تسجيل الرجل في كتيبة للسخرة لشق الطرق. يتعثر في الصف الطويل من الرجال وهو يدمدم:«لقد دفعت البدل... لقد دفعت البدل » وفجأة يمسك بجاره ويقول: « لم ترَ أجمل من هذا الطفل..» تيار من العذاب العاطفي ويبتعد عنهم وقد تملكه الأسى. في ذلك المساء يستلقون للاستراحة على سطح التلة. وبعد منتصف الليل بفترة طويلة يوقظه جاره من النوم «إنهم أموات الآن » وينتابه الهدوء.

وفي قافلة أخرى زوج وزوجة في ريعان الصبا. حتى أن العريس لم يكن قد ظهر على وجهه شارب بعد. الساعة تقترب لأنه سيتم عزل جميع الرجال القادرين. تومض في رأس العروس فكرة لإخفاء عريسها في ثياب امرأة. وراح هذان الطفلان يضحكان لهذه الفكرة الممتعة. إلا أن الآخرين لا يتوجسون خيراً من ذلك فيحذرونهما. وعند أطراف إحدى المدن الكبرى تداهمهم مجموعة من قطاع الطرق ويسعون لاختيار عدد من النساء لمضاجعتهن. ومن بين نساء أخريات يختارون العروس التي تتمسك بقوة بزوجها وهي تتوسل « إكراماً لله اتركوني معها فإن أختي صماء خرساء وهي بحاجة لي » لكنهم يقولون لها:« إن هذا ليس سبباً وجيهاً جانم إذ أن الشقراء ستصحبك ». ويؤخذ الزوجان إلى كوخ قذر. وهناك تظهر الحقيقة. فيقتل الشاب على الفور وتمثل بجثته وهم يتضاحكون من هذا التنكر. لكنهم لم يكتفوا بذلك بل قاموا بربط الفتاة وهي عارية مع عريسها - وجهاً لوجه مع ذلك الجسد الممثل به.

وثمة أمثلة عديدة أخرى. فها هي أم تحمل طفلها الذي مات جوعاً طوال أيام عديدة في كيس على كتفها حتى لم يعد بوسع أفراد القافلة تحمل رائحة النتن فيشكونها في نهاية الأمر إلى الدرك. وهناك كذلك أمهات مدينة كيماخ المختلات العقل اللاتي كن يجأرن وعيونهن تلتمع ويرمين أطفالهن من أعلى ضخرة إلى الفرات. ومرة أخرى يرتمي كاهن أمام المدير ويتوسل إليه وهو ينشج «ارحم هؤلاء الأبرياء يا أفندينا»، فيرد عليه المدير: «لا تتدخل أيها القس بالسياسة فالحكومة تحترم الكنيسة وأنا لا أتدخل معك بالأمور الإلهيّة».

وكان الألم الذي تشترك فيه جميع القوافل هي الجوع والعطش والأقدام الدامية والمرض. وفي أحد الأيام كانت ممرضة ألمانية تقف خارج مشفى مرعش الذي كانت قد وصلت إليه لتوها للخدمة فيه. ومرت أمامها قافلة ساكنة لا نهاية لها من الأرمن وهم يجرون أقدامهم جراً. وقفت متسمرة تنظر إليهم حتى تلاشى آخر شخص في القافلة. شيء لم تستطع فهمه بدأ يتحرك في هذه الأخت الممرضة - ليس الشعور بالعطف، لا، وليس الشعور بالفزع، بل هو شيء كبير وغامض يكاد يكون شعوراً بالزهو. وكتبت رسالة إلى ذويها عن ذلك قالت فيها: « لقد مرت من أمامي قافلة طويلة من المنفيين الذين رحلوا من قراهم وكانوا ما زالوا في حالة جيدة. وانتظرت طويلاً حتى مروا من أمامي ولن أنسى ما حييت التعابير المرسومة على وجوههم. عدد قليل جداً من الرجال والأكثرية من النساء والأطفال. وكانت الكثيرات منهن ذوات عيون زرقاء وشعر

أشقر، وكن يحدقن بي بعيون يائسة. لقد كانت فيهن عظمة لا تدرك ولعلهن كن ملائكة اليوم الآخر».

كانت تلك الملائكة قد قدمت من زيتون ومرعش وعينتاب وأضنة. كما قدمن وهن يترنحن من المناطق الشمالية ومن ولايات وسيواس وطربزون وأرضروم، كما جئن من الشرق، من خربوط وديار بكر التي اكتسحها الأكراد ومن أورفة وبتليس، وكانوا قبل وصولهم طوروس أو حلب يتمازحون في بساط متحرك من الكائنات الحية. ولم يحدث في حلب أو في السناجق أو النواحي التابعة لها أي شيء بالاضافة إلى المنطقة الساحلية. وكان جبل موسى ما يزال يعيش في دعة وسلام. وبدا أن سكان الجبل لم يلاحظوا تلك القوافل التي كانت تمر بعيداً عنهم.

تابع كابرييل تحرياته في القرى المجاورة واتجه جنوباً حتى السويدية وشمالاً حتى بيلان بعد رحلة دامت ساعات عديدة، كما تجرأ مرة وذهب إلى أنطاكية ووجد أبواب قصر الآغا رفعت بركات موصدة. قرع عدة مرات على الباب الخشبي المكسو بالنحاس لكن أحداً لم يجبه من الداخل وأيقن كابرييل أن الآغا لم يعد بعد من حلب. ومع أن كابرييل كان يعلم أنه كان مسافراً لمساعدة الأرمن، فقد أشعره غياب صديق أبيه بالكآبة.

وعندما عاد قرر أنه من الآن فصاعداً لن يتجاوز في رحلاته حدود جبل موسى، وكانت تنبعث من جبل آبائه قوة سحرية خفية تزداد كلما بقي فترة أطول هنا. وكانت رحلاته الشاقة إلى القرى قد أسفرت عن نتائج طيبة إذ تمكن من الحصول على ما كان يسعى إليه. فقد كوّن فكرة جيدة عن سكان تلك القرى والأفكار التي تدور في خلدهم وطبيعة علاقاتهم العائلية. ولم يكن ذلك أمراً سهلاً. ففي البداية كان الكثير من هؤلاء القرويين يرون فيه أجنبياً ثرياً، مهما كانت الرابطة التي تربطه بهم. لكن الثقة أخذت تتوثق بينهم وبينه بل أخذوا يشعرون بأمل خفي في شخصه. فلا بد أن يكون هذا الأفندي الثري رجلاً قوياً ويعرف جهات أجنبية، وأن الترك يخشونه بسبب نفوذه، وأن بقاءه في يوغونولوك يمكن أن ينقذ القرى مما يمكن أن يحدث. وعلى الرغم من أن كابرييل لم يتحدث كثيراً عن المستقبل كما كانوا يفعلون، كان الكثير يرى من عينيه وقلقه وتعابير وجهه، ومن الملاحظات التي كان يحصل عليها منهم، شيئاً آخر يميزه عن الباقين جميعهم. وكانت عيون الجميع تنصب عليه عندما يلتقي بهم. وكان الكثير منهم قد دعوه لزيارتهم. ومع أن الغرف كانت خاوية تماماً إلا أن الراحة والنظافة كانتا تشعره بالطمأنينة. كانت السجاجيد تكسو الأرض، كما كانت تغطي الأرائك سجاجيد صغيرة جميلة حيث كانت تقوم مقام الكراسي. أما في بيوت الأسر المعدمة، فكانت الاستطبلات تقع بجوار غرف الجلوس، وكانت تعلق على الجدران صور ورسوم قديمة بجانب صور القديسين. وكانت الكثير من الزوجات يزيّن غرفهن بالأزهار – وهي عادة غير معروفة في الشرق – وما أن يأخذ الضيف مكانه حتى تمد أمامه مائدة خشبية مملوءة بصحون واسعة من أنواع الكعك وأصابع العسل وفطائر الجبنة المحلاة وتمكن كابرييل من تذكر مذاقها عندما كان طفلاً.

تمكن كابرييل من عقد صداقة مع الكثير من أهالي القرى خلال جولاته المتكررة. وكانت أوثق تلك الصداقات مع الجاووش نورهان الذي كان حدّاداً وصانع أقفال، كما كان لديه ورشة لصنع السروج والعربات وأخيراً، قدس الأقداس، كان يمتلك محلاً يعمل فيه سرّاً بعيداً عن عيون الجميع. والمطلعون على بواطن الأمور كانوا يعرفون أنه كان يصلّح سرّاً بنادق الصيد بالإضافة إلى صنع الخراطيش لها.

وكان الجاووش نورهان قد خدم في الجيش النظامي التركي لمدة سبع سنوات حيث أمضاها في الحرب وفي إحدى كتائب المشاة في الأناضول وفي الثكنات الكبيرة في بورصة. وكان خبيراً باستخدام الأسلحة والذخيرة. وقد وافق على فحص الأسلحة الموجودة في إحدى غرف الفيلا للتأكد من سلامتها وصلاحيتها. وحمل هذه البنادق سرّاً إلى ورشته لفكها وتزييتها. وكان كابرييل يزوره في الورشة ويصطحب في بعض الأحيان ابنه ستيفان.

ظهر خلاف بسيط حول سياسة التعليم في القرى. فقد أقرّت الهيئة العامة للمدارس الأرمنية انتهاء السنة الدراسية في أوائل الصيف – أي في الأسبوع الأول من أيار. لكن دير هايكازون، بصفته كبير المشرفين على المداس في الناحية أصدر فجأة أمراً يقضي باستئناف الدراسة بعد عطلة مدتها أسبوع واحد. لكن الأساتذة وعلى رأسهم هرانت أوسكانيان لم يرغبوا في حرمانهم من عطلتهم. فناشدوا المختار وحذروا آباء الأطفال بأن هؤلاء الأطفال الصغار المساكين يمكن أن يصابوا بحمى دماغية إذا ما تابعوا دراستهم في هذا القيظ اللاهب . ووجه أوسكانيان الصامت أبداً سيلاً من الكلمات الحاقدة ضد دير هايكازون، لكن ذلك لم يجد نفعاً. فقد تمسك الكاهن بقراره ودعا إلى اجتماع لمخاتير القرى السبع وأقنعهم بكلمات وجيزة. وهكذا بدأت السنة الدراسية على الرغم من الحرارة اللاهبة ولما تكد تنتهي السنة السابقة. أما الأساتذة فقد حاولوا، كملاذ أخير، أن يستميلوا باكراديان إلى جانبهم فحضر شاداخيان وأوسكانيان إلى الفيلا وطلب منه التوسط في هذا الأمر، لكن كابرييل أصر على وجوب استمرار الدراسة. فقد رحب بهذه الفكرة ليس من منطلق سياسة عامة بل من أجل مصلحته الشخصية، إذ كان يرغب في إرسال ابنه ستيفان إلى المدرسة مع السيد شاداخيان لأن ذلك سيمكنه من الاختلاط مع أبناء جلدته من هم في سنه.

وفي اليوم الأول من الفصل الدراسي وصل كابرييل إلى مدرسة يوغونولوك مع ستيفان، كما جاءت ساتو التي التأم جرح قدمها. أما جولييت فقد انتابها القلق بشأن ستيفان الذي سيجلس على مقاعد المدرسة إلى جانب هؤلاء الصبية غير النظيفين في اسطبل شرقي ! حتى في باريس لم يذهب ستيفان إلى مدرسة ابتدائية حكومية بالرغم من أن خطر الاصابة بالأمراض المعدية والقمل كان أقل بكثير. لكن كابرييل تمسك بقراره، فقد اعتبر أنه من المهم جداً أن يتعرف ستيفان على حياة شعبه عن كثب. وكان بإمكان جولييت في الماضي أن تثير مائة اعتراض على مثل هذه الأمور، لكنها استسلمت على الفور ولم تقل شيئاً. كان اذعاناً صامتاً لم تفهم له سبباً. وبدا أن

الحياة التي كانت تقوم على أساس من الثقة المتبادلة - حصيلة زواج استمر أربعة عشر عاماً - آخذة في التلاشي . وأصبح ينتاب جولييت شعور أنها وزوجها لم يعودا يتشاطران نفس الحياة الماضية، فقد خلفا زواجهما في باريس وفي مدن متلألئة في أوروبا، التي فقداها وانقطعا عنها. فما الذي كان يجري؟ هل كابرييل هو الذي تغير أم هي؟ وهل ما

زالت غير قادرة على دراسة ما يمكن أن يحدث في المستقبل بجدية. لقد كانت واثقة أن الأمر لن يتعدى بضعة أسابيع ثم يعودان إلى فرنسا. فمهما حدث أو يمكن أن يحدث خلال الأسابيع المقبلة لا يهم، ولذلك لم تجادل كثيراً في قرار كابرييل بارسال ستيفان إلى مدرسة القرية. أما ستيفان الصغير فقد غمرته الفرحة لمجرد التفكير في هذا التغيير في حياته.

كانت مدرسة يوغونولوك تبدو فخمة نظراً لأنها أكبر مدرسة في ناحية جبل موسى. فقد كانت تتألف من أربعة صفوف وكان دير هايكازون قد عهد بأمر الإشراف على المدرسة إلى شاداخيان الذي كان يدرِّس الإفرنسية والتاريخ بينما كان أوسكانيان يدرِّس الأدب والخط. لكن ذلك لم يكن كافياً. فقد بدأت كذلك دروس مسائية للكبار، وأتيح بذلك للصيدلي كريكور الحكيم بأمور الكون أن يبرز معارفه. فأخذ يلقي محاضرات عن النجوم والأزهار والحيوانات وعن الجيولوجيا والشعوب والشعراء والحكماء القدامى. وكعادته لم يكن يميز بين هذه الأمور بشكل جيد، بل كان يلبسهم جميعاً في قصص علمية خرافية.

انتحى شاداخيان بكابرييل جانباً وقال:«لا أفهم تماماً قصدك يا أفندي إذ ماذا تتوقع أن يتعلم ابنك هنا؟ ولا بد لي أن أقول أنه يعرف أموراً كثيرة حتى أكثر مما أعرف في الكثير من الموضوعات مع أني درست فترة من الزمن في سويسرا. لكني أعيش هنا عيشة خاملة منذ سنوات عديدة.انظر إلى هؤلاء الأطفال فقط. لا أعلم إذا كان سيكون لهم تأثير جيد ».

- «إن هذا التأثير هو الذي أسعى إليه يا هابيت شاداخيان» وأبدى شاداخيان استغرابه من هذا الأب الذي بدا أنه يصر على تحويل ابنه من أوروبي جيد إلى شرقي صغير. كانت الغرفة مليئة بالأطفال والآباء الذين جاؤوا لتسجيل أبنائهم. تقدمت امرأة عجوز وهي تدفع أمامها صبياً واقتربت من شاداخيان وقالت:« حسناً يا أستاذ ها هو ابني. لا تضربه كثيراً أرجوك ».

استدار شاداخيان إلى كابرييل وأطلق تنهدة بشأن هذا القفر من الإيمان بالخرافة، وحياة العصور الوسطى وظلام الروح التي أمضى أياماً يقارعها وقال «أتسمع ؟ ».

واتفق على أن يحضر ستيفان إلى المدرسة ثلاثة أيام في الأسبوع. وكانت دروسه تتركز على إتقان لغته الأرمنية المحكية والكتابية أما ساتو فقد وضعت في صف الصغار الذي كان يضم في معظمه فتيات من سنها. وفي اليوم الثاني من حضوره المدرسة، جاء ستيفان إلى البيت معكر المزاج. فقد أخذ التلاميذ يهزؤون من لباسه الأوروبي وأصر على أن يقوم الخياط المحلي بصنع بذلة انتاري له مع حزام وبنطال فضفاض وقد استتبع هذا الطلب جدلاً طويلاً مع أمه، إلا أن الأمر بقي معلقاً ولم يبت فيه.

بعد أن توقف صامويل أفاكيان عن تعليم ستيفان، كلّفه كابرييل بمهمة مختلفة تماماً. فقد أعطاه جميع المعلومات التي جمعها لأسابيع عديدة وطلب منه أن يرتبها في جدول إحصائي. ولم يعلمه بسبب هذه الرغبة. وكان عليه تصنيف سكان جميع القرى قرية قرية بدءاً من قرية الوقف، تلك القرية الصغيرة في الجنوب وحتى الكبوسية في الشمال المشهورة بتربية النحل. وكان باكراديان قد جمع هذه المعلومات من كاتب قرية يوغونولوك والقرى الست الأخرى وكان يتعين تدقيقها وترتيبها. وفي صباح اليوم التالي قدم أفاكيان إلى كابرييل الجدول التالي:

سكان القرى السبع هم مصنفون حسب الجنس والعمر:

583 رضيعاً وطفلاً صغيراً (أقل من أربع سنوات من العمر)

579 بنتاً بين 4 و 12 سنة

823 صبياً بين 4 و 14 سنة

2074 أنثى أكثر من 12 سنة

1556 ذكر أكثر من 14 سنة.

وشمل هذا الإحصاء عائلة باكراديان مع العاملين فيها. وفضلاً عن هذه التصنيفات أجريت تصنيفات أكثر دقة تبين عدد العائلات في كل قرية حسب الحرفة. ولم يكتف كابرييل بالأهالي فقط بل حاول حصر عدد الأبقار في الناحية. وكان هذا العمل في غاية السهولة، إذ لم تكن توجد أعداد كبيرة من المواشي أو الثيران أو الأحصنة. ومن الناحية الأخرى، كانت كل عائلة ميسورة تملك زوجاً من الماعز وحماراً أو بغلاً. أما القطعان الكبيرة من الأغنام فكانت تساق إلى المروج للرعي هناك كما كانت عادة سكان الجبال. وقد تبين أنه من المتعذر الحصول على عدد دقيق من تلك القطعان. وذهب أفاكيان إلى القرى وجعل من دراسة باكراديان نوعاً من مكتب للإحصاء. وكان يهزأ في سريرة نفسه بهذه الهواية المتعبة التي كان يحاول من خلالها رجل ثري أن يملأ فراغه.

وبدا على كابرييل القلق عندما علم أن سكان الجبل كانوا يشترون الذرة والقمح السوري الأحمر من الفلاحين المسلمين في السهول. وبدا أن عدم وجود مطاحن أرمنية في يوغونولوك وبيتياس أو في القرى الأخرى قد أزعجه. وتجرأ وسأل كريكور عن وضع الأدوية الموجودة لديه. وكان كريكور الذي توقع أن يستعرض له مكتبته وليس صيدليته، تابع خط إنحناء السقف بإصبعه بخيبة أمل. وكانت قد اصطفت على رفين صغيرين زجاجات ومرطبانات من جميع الأشكال والأنواع وقد كتب عليها كتابات غريبة الشأن. وكان ثمة ثلاثة مرطبانات كبيرة من النفط في الزاوية، وكيس ملح وعلبتان من التبغ من نوع تشيبوك. لكن الأهم من كل ذلك بالنسبة لكابرييل كان موضوع الأسلحة الصغيرة. لكنه ما أن بدأ يبحث هذا الموضوع مع أعيان القرى حتى انسحب جميعهم بسرعة. وفي أحد الأيام فاجأ مختار يوغونولوك كبوسيان وقال له «كن صريحاً معي يا توماس كبوسيان، كم بندقية توجد لديك وما هو نوعها؟».

بدأ المختار يرفّ عينيه وهز صلعته وقال: « بحق المسيح هل تريد أن تجلب على رؤوسنا المصائب يا أفندي؟ ».

- « لماذا، فهل أنا لست جديراً بثقتك ؟ ».

- «إن زوجتي نفسها لا تعرف عن ذلك شيئاً، لا بل حتى أبنائي والمعلمون لا أحد أبداً ».

- « هل كان أخي أواديس يعرف بها؟».

- « نعم كان أخوك أواديس رحمه الله يعرف بها. لكنه لم يذكر ذلك لأي مخلوق كان ».

- « وهل أبدو أنا من النوع الذي يفشي السر؟ ».

- «إذا انكشف ذلك فسنهلك جميعنا».

ورغم شعوره بالضيق لم يتمكن كابوسيان من التهرب من كابرييل فأغلق باب البهو بالمزلاج وراح يروي له قصته بصوت هامس مشوب بالذعر. ففي عام 1908 عندما قامت ثورة الاتحاديين ضد عبد الحميد، وزع عملاؤهم أسلحة على جميع المناطق والنواحي في أرجاء الامبراطورية ولا سيما في النواحي التي يقطنها الأرمن الذين كانوا من المناصرين الرئيسيين للثورة. وكان أنور باشا يعرف كل ذلك بطبيعة الحال. وعندما نشبت الحرب أصدر على الفور أمراً يقضي بتجريد الأرمن من السلاح. لكن طرق تنفيذ القرار اختلفت مع اختلاف المسؤولين المعنيين. ففي ولايات مثل أرضروم وسيواس، بؤر الحماس للاتحاد، أرغم الناس الذين جردوا من السلاح على شراء البنادق من الدرك لإعادة تسليمها إلى الحكومة مرة أخرى. إذ اعتبر أن عدم امتلاك الأسلحة في تلك النواحي محاولة ماكرة للتهرب من القانون. أما هنا وفي ظل ولاية جلال بك، فقد سارت الأمور بشكل جيد بفضل ذلك الوالي الذي يدعو للإعجاب والذي كانت دوافعه الإنسانية تقف دائماً في وجه قرارات إله الحرب في استانبول. فقد كان ينفذها بتهاون شديد وذلك لأنه لم يكن بوسعه تجاهل القرارات تجاهلاً تاماً. وقد انعكست طيبته هذه على موظفيه الإداريين باستثناء واحد منهم - وهو متصرف مرعش. فقد وصل مدير أنطاكية ذو الشعر الأحمر في أحد أيام كانون الثاني إلى يوغونولوك برفقة رئيس شرطة أنطاكية لجمع الأسلحة. لكنه عاد أدراجه بهدوء عندما تلقى تأكيدات بعدم وجود مثل هذه الأسلحة. ولحسن الحظ فإن المختار في تلك الأيام لم يكن قد أعطى عملاء الجمعية وصلاً كتابياً. « حسن جداً» كان كابرييل مسروراً من المختار « وهل تساوي هذه الأسلحة شيئاً؟ ». « خمسون بندقية ماوزر ومئتان وخمسون بندقية يونانية صغيرة. ويوجد لكل بندقية مخزن أي يوجد حوالي مائة وخمسين طلقة ».

وقف كابرييل ساهماً. حقاً ألم يكن ذلك جديراً بالحديث. « ولكن ألا يملك رجال القرية أسلحة أخرى من أي نوع ؟ ».

تردد كابوسيان مرة أخرى وقال: « هذا شأنهم هم. فمعظمهم يمارس الصيد . ولكن ما جدوى عدة مئات من البنادق الصغيرة ذات الزند الصوّاني ؟ ».

استوى كابرييل واقفاً ومد يده إلى المختار مصافحاً « شكراً يا توماس كابوسيان لأنك وضعتني محل ثقتك. لكن أريد الآن أن أعرف أين هي مخبأة ؟ ». « وهل يجب أن تعرف يا أفندينا ؟ ».

- «لا.. ولكن لمجرد الفضول، ولا أرى سبباً يجعلك تخفي هذا السر عني بعد أن بحت لي بكل شيء ».

انتاب المختار صراع داخلي. إذ لم يكن يعرف هذا الموضوع أحد من المسؤولين سوى دير هايكازون والقندلفت. ومع ذلك فقد كان أمراً لم يتمكن كابوسيان من حجبه عنه، فقد أنزل عن عاتقه ذلك العبء الثقيل بعد حذر يائس وقال له أن الصناديق التي تضم تلك البنادق مع الذخيرة مدفونة في مقبرة ساحة الكنيسة في يوغونولوك، وعليها شواهد زائفة وإشارة الصليب.

تنهد المختار وهو يفتح الباب ثانية لزائره وقال: « ها إني أضع الآن حياتي بين يديك يا أفندي » فأجابه كابرييل دون أن يستدير نحوه « ربما فعلت ذلك حقاً يا توماس كبوسيان ».

بقيت الأفكار التي كان كابرييل يرتعش منها تنتابه. كانت قوية جداً بحيث أنها حركت أشجانه ولم يتمكن من التهرب منها ليلاً أو نهاراً. وأصبح كابرييل يرى الخطوات الأولى فقط. مفترق الطرق. ومع ذلك فقد كان من السهولة فهم السبب الذي دعا كابرييل إلى التحرك بكل ما أوتي من قوة في هذا الوادي الضيق متجنباً أي طريق يؤثر فيه السلامة. لماذا تضيع الوقت يا باكراديان ؟ لماذا تترك الأيام تمر بسرعة ؟ إن اسمك معروف جيداً ولديك ثروة كبيرة. لماذا تضع كل هذا في كف عفريت ؟ ومع ذلك فإنك أمام خطر داهم وصعوبات جمة. لماذا لا تحاول الوصول إلى حلب مع جولييت وستيفان ؟ فحلب مدينة كبيرة ولديك معارف كثر فيها.على الأقل تستطيع أن تضع زوجتك تحت حماية القنصلية إذ مما لا شك فيه أنهم يلقون القبض الآن على جميع الوجهاء في كل مكان. ينفونهم يعذبونهم ويقتلونهم. صحيح أن مثل هذه الرحلة ستشكل خطراً حقيقياً ولكن هل البقاء هنا أقل خطورة ؟ لا تضيع لحظة أخرى. افعل شيئاً قبل فوات الأوان وانقذ نفسك !..

لم يكن هذا الصوت صامتاً دائماً. لكنه كبت هذه الصيحات. فقد كان جبل موسى يقبع هادئاً. ولم يتغير شيء. وقد بدا أن الآغا رفعت بركات كان محقاً.

كتم كابرييل سر الأسلحة الصغيرة المخبأة حتى أنه لم يبح بها لأفاكيان الذي كلفه برسم خريطة دقيقة وكبيرة عن الجبل وأن يجعلها على ثلاث نسخ. وقال أفاكيان في نفسه « ها قد وصل إلى نهاية الوادي بجميع مواشيه وسكانه، والآن يتجه نحو التلال » والداملاجيك هو بطبيعة الحال قلب جبل موسى. واستغرق أفاكيان وقتاً طويلاً وبذل جهداً كبيراً في رسم الخريطة لإرضاء كابرييل الذي كان يكتشف في كل مرة أخطاء جديدة فيها. وخشي أفاكيان أن تكون هواية سيده قد أصبحت هوساً. ونتيجة لذلك أمضيا أياماً كاملة على الداملاجيك. وكان باكراديان الذي خدم كضابط في سلاح المدفعية في حرب البلقان ما زال يملك منظاراً ميدانياً وبوصلة مغناطيسية وأدوات مسح أخرى والتي كانت في غاية الإفادة الآن. وحرص على تحديد كل

الخطوط - كل جدول للمياه أو شجرة طويلة أو أي كتلة كبيرة من الصخر. ولم تكفه الخطوط الحمراء والخضراء والزرقاء بل أضيفت إليها كلمات وإشارات ورموز غريبة.

عندما رفع الطبيب ألتوني الضمادات عن ذراع اسكوهي وكتفها دمدم بصوت كئيب «تماماً كما حسبت. آه لو كنا في مدينة كبيرة، لكان الوضع أفضل بكثير. لقد كان من الأفضل لو بقيت في حلب يا نور عيني وذهبت إلى أحد المستشفيات هناك. ومع ذلك، لعلك فعلت خيراً بقدومك إلى هنا. فمن يتكهن في أوقات كهذه ؟ الآن يا روحي يجب ألا تكتئبي . سنرى ماذا بوسعنا أن نفعل ».

هدأت اسكوهي من روع الرجل العجوز «أنا لست قلقة، ومن حسن حظي أنها الذراع اليسرى» لكنها لم تؤمن بتأكيدات الطبيب الواهية. ونظرت بسرعة إلى نفسها. ذراعها معلقة مسترخية، مشوهة وقد قصرت عن الكتف. ولم يعد بإمكانها تحريكها، لكنها شعرت بالسعادة لأنها لم تعد تؤلمها. وقالت في نفسها أنها أصبحت الآن عاجزة طوال حياتها. ولكنها عندما فكرت في مصير معظم أفراد القافلة الذين كانت بينهم منذ يومين (وأصبحت تدرك الآن بأنها، شأن بقية الناس، لم يعد لها مستقبل). ففي الليل كانت تستيقظ على أصوات وصور مرعبة.أصوات آلاف الأقدام المترنحة. أطفال منهكون يترنحون ويتساقطون على الأرض ، وعليها أن ترفع طفلين أو ثلاثة أطفال بيدها المكسورة. أصوات مجنونة تصدر من نهاية الصف والجنود بعيونهم الحمراء الدموية يلوحون بهراواتهم ويندفعون نحوها بغضب. وكان يتراءى لها دائماً وجه ذلك الرجل الذي حاول اغتصابها. ولم يكن له وجه واحد، بل ثلاثون وجهاً مختلفاً. كانت في أغلب الأحيان وجوهاً قذرة ملطخة بالدماء وهي تنحني فوقها، وفقاعات من البصاق تتجمع على أطراف الشفاه. انحنى فوقها وطوقها بذراعيه وصدرت من فمه رائحة مثيرة للغثيان. وجاهدت للتملص منه وأطبقت بأسنانها على ذراعه المكسوة بالشعر بينما كانت كفاه تضغطان على نهديها. قالت وكأنها تجد عذراً لنفسها « لدي ذراع واحدة» وغابت عن الوعي. وكانت أشبه بمريض الملاريا المصاب بحمى لاهبة والذي تهبط درجة حرارته الشديدة الارتفاع فجأة إلى ما دون الدرجة الطبيعية ثم تتشكل غشاوة فوق أحاسيسها.

جاء القسيس آرام توماسيان لاصطحاب أخته اسكوهي بعد أن أمضت فترة من الزمن في بيت باكراديان وشكر العائلة لضيافتها لأخته. لكن كابرييل شعر بأنه أصيب بجرح عميق لهذا الطلب وقال: « لكن لماذا تريد أن تحرمنا من اسكوهي يا قس آرام؟ فقد أصبحنا مغرمين بها وخاصة زوجتي ».

- «إن الزوار الذين يطيلون زيارتهم يصبحون عبئاً على مضيفيهم».

- «أرجوك لا تقل هذا. فأنت تعرف أن الآنسة اسكوهي من النوع الذي لا يلحظها المرء كثيراً في البيت. فهي هادئة ومتحفظة جداً. ثم ألا نشترك جميعنا في نفس المصير..؟ نظر آرام ببطء إلى كابرييل وقال: «آمل أن لا تتصور أن مصيرنا سيكون أكثر إشراقاً مما هو عليه في الواقع » وكان

يغلف هذه الكلمات نوع من الشك بهذا الأجنبي. ذلك الرجل الثري الذي بدا أنه لا يحمل فكرة عن الأهوال التي تكتنفهم. لكن هذا التحفظ المشوب بعدم الثقة جعل باكراديان يشعر بود شديد نحوه فقال له بصوت ودي:

- «كنت أتمنى أن تقيم معنا أيضاً يا قسيس آرام توماسيان . لكن أرجوك أن تأتي لزيارتنا عندما تشعر برغبة في ذلك وسأعطي على الفور الخدم تعليمات بإعداد مكانين إضافيين لك ولزوجتك. أرجو أن لا تنزعج من دعوتي وأن تأتي لتناول الطعام معنا إذا لم يكن في ذلك عناء كبير».

أظهرت جولييت استياءها لمغادرة اسكوهي الفيلا . إذ نشأت علاقة حميمة بين هاتين المرأتين. ولا يمكن إنكار أن جولييت كانت تسعى لنيل استحسان الفتاة الأرمنية، إذ كانت ترى في اسكوهي فتاة غير ناضجة رغم بلوغها التاسعة عشرة من العمر، مع العلم أن المرأة تنضج في وقت مبكر في الشرق. فقد كانت شديدة الخجل ولا تستطيع السيطرة على خجلها عندما كانتا تجلسان في غرفة جولييت في الطابق العلوي . وكانت جولييت تتطلع إلى اسكوهي بصمت لفترة من الزمن ثم تنفجر قائلة: « هل تعرفين يا عزيزتي أني أمقت النساء الشرقيات لخمولهن وحركتهن الكسولة. حتى إنني لا أتحمل وجود سمراوات في البيت. أما أنت فلست شرقية يا اسكوهي. أجلسي هناك أمام الضوء لكي أرى عينيك الزرقاوين ».

شعرت اسكوهي بالمفاجأة «أنت تقولين هذا يا سيدتي ولديك عينان زرقاوان وشعر أشقر؟ ».

- «كم مرة قلت لك أن لا تخاطبيني يا عزيزتي بكلمة سيدتي ؟ ناديني جولييت، هل تريدين أن تشعريني دائماً بأني أكبرك كثيراً في السن ؟ ».

- «آه- لا- حقاً فأنا لم أكن أعني.. أغفري لي هذا أرجوك ».

وكانت جولييت لا تألو وسعاً في أن تطلق ضحكة بسريرة خالصة. وفي إحدى الأمسيات طلبت منها جولييت أن ترتدي ثوبها الواسع الرقبة وبدون أكمام فاحمرّ وجه اسكوهي وقالت: «لكن هذا مستحيل. لا أستطيع وذراعي...».

بدت جولييت في غاية القلق وقالت: « صحيح.. ولكن إلى متى سيدوم ذلك ؟ شهران.. ثلاثة أشهر وسنعود عندئذ كلنا إلى أوروبا وسأصحبك معي يا اسكوهي . إني أعدك. ففي باريس وسويسرا توجد عيادات جيدة لمعالجتك ».

وفي نفس الوقت الذي كانت فيه زوجة باكراديان تعبّر عن أملها في علاج اسكوهي ، كانت بقايا القافلة الأولى قد وصلت إلى مكانها المحدد في دير الزور على أطراف رمال الرافدين. وكانت تحدو جولييت دائماً رغبة في التحدث عن موضوع يثير حفيظة زوجها، وللغرابة بمكان بدا أن اسكوهي أصبحت تلهمها في الخوض بذلك، وكان ذلك يأخذ شكل سلسلة من الملاحظات المهنية ضد الأرمن. فقد كانت تقول لها دائماً « ربما كنتم شعباً قديماً.. حسن. شعب متحضر بلا شك. ولكن كيف تثبتون ذلك ؟ آه.. لقد سمعت جميع الأسماء مراراً وتكراراً: أبوفيان، رافي، سيامانتو، ولكن من سمع بكل هؤلاء؟ لا أحد في العالم سوى الأرمن. فلا يوجد ثمة أوروبي

يستطيع أن يفهم لغتكم أو يتكلمها. ولا يوجد عندكم راسين أو فولتير ولا كاتول مندي ولا بيير لوتي. هل قرأت أياً من أعمال بيير لوتي يا صغيرتي ؟ ». نظرت اسكوهي إليها بعينين ساهمتين وقالت: «لا يا سيدتي - لم أقرأ شيئاً من ذلك ».

ومن نظرة اسكوهي كان واضحاً أنها كانت تنوي أن تقول شيئاً لكنها بعد تردد أجابت بجملة واحدة بسيطة « يوجد لدينا بعض الأغاني القديمة والجميلة جداً ». فقال ستيفان الذي كان جالساً في ركن الغرفة متوسلاً «ألن تنشدينا واحدة منها يا آنسة ؟ وتبين لها الآن أكثر من ذي قبل أن ابن المرأة الفرنسية ذاك ما هو إلا صبي أرمني صرف. ولعل هذا الإدراك هو الذي جعلها تتغلب على ترددها فأخذت في ترديد أنشودة « المجيء والذهاب » التي كانت شديدة الشيوع في القرى السبع :

« لقد ولت أيام النكبات
كأيام الشتاء تأتي وتذهب ،
إن أحزان الرجال لا تدوم طويلاً،
مثل المشترين - يأتون ويذهبون.

الظلم والدم يجعلان الناس تذرف الدموع
والقوافل تذهب وتؤوب ،
ويظهر الرجال في حديقة الأرض
سواء البنج أو البلسم تأتي وتذهب .

لا يفخر القوي ولا تدع الضعيف يشحب
لأن الحياة ستبدل مواقعهما،
الشمس تشع نورها دون خوف
بينما الغيوم من المحراب تأتي وتذهب .

إن الحياة خان على الطريق.. آه يا مغني
والناس ضيوفها يأتون ويذهبون
والأرض تضم إليها طفلها المتعلم جيداً
بينما الشعوب الجاهلة يمكن أن تهلك وتذهب .

وما إن فرغت من أنشودتها حتى طلب منها ستيفان أنشودة أخرى. جلست اسكوهي بهدوء

شديد وانحنت قليلاً إلى الأمام وقد ألقت يدها اليسرى على حجرها، وبعد فترة قصيرة من الصمت بدا أنها تذكرت شيئاً «أعرف أنشودة أو أنشودتين عن الحب معروفتين جيداً في المنطقة إحداهما يجب أن يغنيها رجل مع أن الفتاة هي موضوعها الرئيسي » وعندما أخذت تنشد بدا أن صوتها الناعم الطلي يأتي من الفراغ:

« خرجت من حديقتها

وضمتهما بقوة إلى صدرها

ثمرتان من شجرة الرمان

تفاحتان كبيرتان تتلألأان ،

أعطتني إياهما ولن آخذهما

وبيدها دقت بيدها على صدرها

دقت ثلاث مرات، ست مرات، اثنتي عشرة مرة

دقت حتى انكسرت عظام صدرها».

وعندما انتهت طلب منها ستيفان أنشودة أخرى، لكنها أحجمت عن ذلك عندما لاحظت أن كابرييل كان واقفاً في الغرفة.

* * *

كان علي ناصيف ينتظر باكراديان في بهو الفيلا. وعندما تقدم منه بادره قائلاً: « عفواً يا سيدي. لقد جئت من أجل المجيديات التي وعدتني بها». أخرج كابرييل ليرة تركية وقدمها إلى علي بيد ثابتة. أخذ الدركي العجوز النقود بحذر وقال: « سأفضي إليك بأمر هام لكنك لن تفشي بي يا أفندي ».

– « لقد أخذت نقودك. قل ما تريد أن تقوله».

نظر علي ناصيف حوله بشيء من الحذر وقال: « بعد ثلاثة أيام سيحضر المدير ورئيس الشرطة إلى القرى ».

أسند كراديان عصاه على الزاوية وأبعد عنه المنظار المعلق على كتفه « هكذا إذن.. وما هي الأخبار الطيبة التي سيجلبها لنا المدير ورئيس الشرطة ؟ ».

حك الدركي ذقنه وقال: « سيتعين عليكم مغادرة هذا المكان يا أفندي. فقد أصدر الوالي والقائمقام أمراً بذلك. وسيجمعكم رجال الدرك أنتم جميع الأرمن من السويدية وأنطاكية ويقودونكم باتجاه الشرق. وأستطيع أن أقول لك أنه لن يسمح لكم بالتوقف في حلب بسبب وجود القناصل ».

– «وأنت.. هل ستكون مع أولئك الدرك يا علي ناصيف ؟».

فاحتج علي بحدة «الحمد لله لا. ألم أكن أحيا بينكم اثنتي عشرة سنة كرئيس للناحية كلها دون أن تحدث أية مشكلة خلال ذلك؟ نعم. لقد حافظت على النظام ليلاً نهاراً.. والآن ها أنا أفقد عملي الجيد. آه إنه شيء مؤسف فقد تقرر حل مركزنا ».

ولتهدئة هذا المسكين وضع باكراديان بضعة سكائر في يده.

- « والآن قل لي متى سيحل مركزكم؟ ».

- « لدي أوامر بالتوجه اليوم إلى أنطاكية. وسيأتي مدير الناحية مع فرقة كاملة».

في هذه الأثناء وصلت جولييت واسكوهي وستيفان إلى البيت. وأثار وجود علي ناصيف الريبة في أنفسهم. لكن كابرييل أبعد ناصيف من البهو وقاده إلى باحة مكسوة بالحصى أمام المنزل وقال: « استناداً إلى ما كنت تقوله يا علي ناصيف فإن القرى ستبقى دون إشراف الدرك لمدة ثلاثة أيام ». خفض الدركي صوته وقال وقد انتابه القلق: «آه يا أفندي إذا وشيت بي فسيقتلونني والأسوأ من ذلك سيلصقون لافتة على صدري يكتب عليها « خائن ». ومع ذلك فسأقول لك كل شيء. فلن يكون ثمة دركي واحد خلال ثلاثة أيام كاملة في القرى لأن المركز سيتحول إلى أنطاكية وستمنحون بضعة أيام لحزم أمتعتكم ».

نظر كابرييل إلى نوافذ المنزل وقد خشي أن تطل من إحداها جولييت ثم سأله « هل أرسلت قوائم السكان يا علي ناصيف ؟ » ارتعش الوجه المجدّر وقال بشيء من الإخلاص : «لا تأمل شيئاً لنفسك يا أفندي، إذ أنهم سيعاملون الأغنياء والمتعلمين على وجه الخصوص بقسوة شديدة. وهم دائماً يرددون ما فائدة أن يهلك هؤلاء الأرمن الفقراء النشيطون إذا بقي الأثرياء والمحامون في بلادنا؟ وتوجد إشارة بجانب اسمكم فقد سمعتهم يرددون اسمك في مقر القيادة يا أفندي. فلا تتصور أنهم سيعفونك أنت وعائلتك وسوف يأخذونكم حتى أنطاكية لكنهم سيفصلونكم بعد ذلك ».

رمق باكراديان الدركي بشيء من البهجة « يبدو أنك من أولئك الذين يعرفون جيداً. فهل فتح لك المدير قلبه يا علي ناصيف ؟».

هز علي ناصيف رأسه بجد وقال: « من أجلك فقط يا أفندي تكبدت كل هذا العناء. فلقد وقفت في مكاتب الحكومة وعندما تذكرتك شنفت أذناي. آه يا أفندي فعلى الرغم من ليرتك الورقية البائسة فلقد فزت بحسنة في الآخرة. إذ ماذا تساوي ليرة ورقية في هذه الأيام ؟ حتى لو صرفوها لك في السوق فسيغشونك. وانظر فإن من سيحل مكاني سيحصل على أكثر من مائة ليرة ذهبية وكل النقود التي يعثرون عليها في القرى وسيصبح بيتك بكل ما فيه من أثاث لهم، إذ لن يكون بوسعك أن تأخذ شيئاً أبداً كما سيضعون يدهم على أحصنتك وحديقتك و...».

أوقف باكراديان هذا التعداد « ليسعدوا بها كلها».

تحرك كابرييل ولكن علي ناصيف ظل ثابتاً في مكانه « والآن لقد بعتك كل هذا لقاء قطعة

ورقية» ومن أجل التخلص منه أفرغ باكراديان كل القروش من جيوبه وأعطاها له.

عندما دخل باكراديان بيت الكاهن انتابته الدهشة عندما علم أن دير هايكازون كان قد علم بالكارثة التي ستحل بهم قبل ساعات من إخبار علي ناصيف له. وكان توماس كبوسيان والمخاتير الستة وقسيسون آخرون من القرى فضلاً عن القسيس نوخوديان من بيتياس مجتمعين ووجوههم صفراء شاحبة. إذ أن هذه العواصف الرعدية لم تتمكن من تبديد تلك الغيمة من الغيبوبة المرضية التي كانت تخيم فوق رؤوسهم منذ أسابيع عديدة، بل جعلتها أكثر كثافة. وكان جميع الحاضرين واقفين ومتكئين على الجدار الذي بدا أنه شديد الضخامة بالنسبة لهم وكان دير هايكازون الوحيد الذي كان جالساً. وكان رأسه منحنياً إلى الوراء ويداه موضوعتان على الطاولة أمامه. وعندما كان أحدهم يتحدث، كان يتحدث بصوت خفيض جداً بحيث يكاد يكون مسموعاً. همس دير هايكازون واستدار ليرحب بباكراديان وقال: « لقد طلبت من هؤلاء المخاتير أن يجمعوا الناس حال عودتهم إلى قراهم اليوم وفي أقرب وقت ممكن حيث سنعقد اجتماعاً عاماً لنقرر فيه ما هي أفضل وسيلة يمكن أن نتخذها؟ وجاء صوت القس نوخوديان مرتعشاً من إحدى زوايا الغرفة « ولكن لا يوجد ثمة شيء بوسعنا أن نفعله».

تقدم مختار بيتياس بضع خطوات وقال: « سواء كان الأمر مجدياً أم لا فيجب أن يجتمع الناس لسماع الكلمات وإبداء رأيهم فهذا سيجعل الأمر أكثر سهولة». ترك دير هايكازون هذه المداخلات تمر بينما جلس مقطباً ثم مضى يخبر كابرييل قراراته « في هذا الاجتماع العام سيختار الناس مندوبين عنهم يثقون بهم ويتسلمون زمام القيادة. فالنظام هو السلاح الوحيد المتبقي أمامنا. فإذا حافظنا على النظام فلربما لن نلاقي حتفنا هناك » وعندما لفظ كلمة « هناك » فتح دير هايكازون عينيه نصف المغلقتين ليلقي نظرة إلى كابرييل.

هز توماس كبوسيان رأسه الأصلع وقال: «لا نستطيع أن نعقد اجتماعاً في باحة الكنيسة بل ولا في الكنيسة. فهناك رجال الدرك وآخرون أيضاً.. فمن يعرف أنه لن يندس أحدهم ويستمع إلى ما نقوله ثم يفشي أمرنا. كما أن الكنيسة صغيرة جداً ولا تسعنا جميعنا. لذا فأين ؟ ».

أجاب كابرييل على الفور أين؟ هذا أمر بسيط للغاية.. إذ يوجد حول حديقتي جدار مرتفع ولها ثلاثة أبواب يمكن إغلاقها جيداً والمكان فسيح يتسع لعشرة آلاف شخص كما تصلح لأن تكون حصناً منيعاً.

حسم هذا الاقتراح الموقف ولم يبد أولئك الذين كانوا يتوقون لترك أنفسهم تتحطم بدافع اليأس أو الإرادة السلبية دون إبداء أي مظهر من مظاهر المقاومة أي اعتراض.

وما هو الاعتراض الهام الذي كان بإمكانهم أن يبدوه إزاء الأوامر القاضية باجتماع القرى في هذا الجو من الكره المميت لشعبهم واختيار زعماء لا حول لهم ولا قوة مثلهم؟ كما كان مكان الاجتماع أميناً، وليس ثمة داع للخوف من مضاعفة العقاب الذي سيلحق بهم وربما ساهم في هذا الشعور اعتقادهم الخرافي بأن لباكراديان صلات قوية يمكن أن يستخدمها من أجلهم. وغادر

المخاتير المكان وهم يجرون أقدامهم بتثاقل شديد. وبما أن يوغونولوك كانت تقع في الوسط فإنه من المزمع أن تصل آخر فلول سكان القرى إلى حديقة باكراديان عند الرابعة بعد الظهر. وقد انيطت بالمخاتير مهمة حراسة المداخل وعدم السماح بدخول أي شخص غريب.

وقف دير هايكازون وراحت النواقيس تقرع استعداداً لصلاة القداس. وفي القداس استغرق دير هايكازون وقتاً أطول من ذي قبل في تلاوة كل فقرة من الكتاب المقدس. هل كان يسعى الآن يربط صلاته بمعجزة تنقذ شعبه لا يعرف كنهها ؟ هل كان يرغب في تأجيل لحظة حلول المصيبة على هذا الشعب الغافل ؟ وأخيراً صدرت منه التبريكات الأخيرة « اذهبوا في سلام فإن الرب معكم » وبدأ الناس يستعدون للرحيل. لكن دير هايكازون وقف على حافة درجات المذبح ورفع ذراعيه وراح يدعو: «إن ما كنا نخشاه قد حصل » ثم أخذ يشرح لهم الأمر بصوت هادىء إذ يجب ألا يشعر أحد باستثارة غير ضرورية أو يدع نفسه ينسلق مع عواطفه وأنه يجب ألا يشوب هذا الصمت المميت خلال الأيام التالية أي اضطراب أو فقدان السيطرة على النفس أو البكاء والعويل فإن ذلك كله لن يجدي نفعاً بل إن ذلك سيجعل الأمور أكثر سوءاً. فالوحدة والتصميم والنظام هي الوسائل الوحيدة المفيدة في تجنب الأسوأ وما زال أمامهم وقت للتفكير بكل خطوة ثم دعا الناس إلى حضور الاجتماع العام الذي سيعقد في حديقة باكراديان، وطلب منهم إحضار قلم وورقة من أجل التصويت لاختيار قادتهم ثم ناشدهم«امضوا الآن إلى بيوتكم في هدوء ولا تتسكعوا في الطرقات ولا تفتعلوا القلاقل. فلعلهم أرسلوا جواسيس لمراقبتكم ويجب أن لا يلاحظ الدرك أي تغير في سلوككم ولا تنسوا أن تحضروا معكم قصاصات من الورق للتصويت. أرجوكم الهدوء قبل كل شيء ».

ولم يكن بحاجة لأن يحوزهم مرة أخرى. فقد راحوا يتلمسون طريقهم بهدوء وكأنهم ميتون أو أشخاص مسهم الموت. فالإنسان لا يعرف نفسه حق المعرفة إلا عندما يوضع موضع الاختبار. وهاكم سيرة حياة كابرييل حتى ذلك اليوم: ابن عائلة ثرية. ربي في أجواء مريحة جداً وقضى حياته كمثقف يملك وقت فراغ كبير أزجاه هنا وهناك في أوروبا ولا سيما في باريس. وكان قد تحلل منذ زمن بعيد من أي رابطة تربط إنساناً بعائلته أو أي إحساس جماعي بشعبه. ولكن خلال الحملة القصيرة التي قام بها، اكتشف في نفسه قدرات عظيمة. فلم يكن كما كان يظن حتى ذلك الوقت، مجرد رجل ثبتت عيناه على عوالم غير مرئية فقط. فقد أظهر وعلى نحو مدهش أنه قادر على الارتقاء إلى مستوى المتطلبات التي حفزت قواه للعمل وحضوره الذهني، وبعد نظره وشجاعته إلى درجة أعلى بكثير من معظم رفاقه الشرقيين، وقد شعر أنه أصبح أكثر نضجاً واتزاناً من ذي قبل في ذلك اليوم الموافق الرابع والعشرين من تموز الذي أعاد تشكيل حياته.

كان وجه كابرييل يتقد حماسة وقال في نفسه: « لقد بدأت أشعر بأمل كبير يملأ نفسي » ثم توجه إلى صامويل أفاكيان وقال: « إني أعرف طبيعة الجنود الأتراك جيداً. إذ أن أفضل قواتهم موجودة الآن على الجبهة وقد جمعوا من أنطاكية كل الحثالات ورجال الدرك والجنود غير

النظاميين الذين لا يصلحون إلا لأعمال النهب والسلب ». وفجأة شعر أفاكيان بالمواجهة إزاء هذا العمل العسكري الجديد وأصبحت جبهته المنحدرة بيضاء على عكس وجنتي كابرييل المتقدتين وقال: « لكن في أفضل الحالات نستطيع أن نعتمد على ألف رجل. ولكن لا أعرف ما هي البنادق والذخائر التي سيستخدمونها كما يوجد جنود نظاميون في كل مدينة تركية- وليس فقط في أنطاكية- بل في كل مكان ». لكن كابرييل قاطعه «إن عدد السكان في قرانا حوالي خمسة آلاف وخمسمائة نسمة ولا نتوقع أن نتلقى منهم أي رحمة، بل الموت البطيء. غير أن حصار جبل موسى لن يكون أمراً سهلاً».

حدق أفاكيان بعينين جاحظتين من النافذة « لكن هل تحدو الخمسة آلاف شخص نفس الرغبة التي تحدوك يا سيدي؟ ».

- «إذا لم يرغبوا في ذلك فهم يستحقون الهلاك.. لكني لا أريد أن أعيش، أريد أن أقاتل !.. أريد أن أقتل أكبر عدد ممكن من الأتراك بقدر ما لدينا من طلقات وإذا لزم الأمر فسأبقى لوحدي على الداملاجيك مع الفارين ».

لم يكن الأمر مجرد شعور بالكراهية، بل هو نوع من الغضب المقدس والمبهج في الوقت نفسه الذي أخذ يلتمع في عيني باكراديان، كما لو أنه وجد متعة فائقة عند فكرة وقوفه وحيداً إزاء جيش أنور باشا الذي يبلغ تعداده مليون جندي وهذا ما جعله ينهض عن الكرسي ويمشي في الغرفة ذهاباً وإياباً كرجل مجنون وهو يردد: «لا أريد أن أعيش. أريد أن تكون لي قيمة ما !».

رد عليه أفاكيان المنهار: « ولكن يمكننا أن ندافع عن نفسنا لفترة من الزمن وبعد ذلك... ؟».

توقف كابرييل ثم جلس بهدوء وقال: « على كل حال يجب أن نحل كل هذه الأمور خلال الأربع والعشرين ساعة القادمة». ثم أردف: « ما هو أفضل مكان للزريبة، لمستودع الذخيرة والمستشفى ؟ ما نوع المخبأ الذي يمكن أن نحدده؟ ها هي بعض الملاحظات التي وضعتها على عجل. انسخ منها نسخة جيدة يا أفاكيان فإننا سنحتاج إليها. ولا أظنني نسيت شيئاً. فحتى الآن ما زال الأمر نظرياً لكني مقتنع أن معظمه يمكن تطبيقه. فنحن الأرمن نفاخر دائماً بعقولنا المتفوقة والآن أصبحنا على المحك لإثبات أننا أكثر ذكاء منهم ».

عند الساعة الواحدة بدأ الناس يتوافدون. وأخذ المخاتير حسب الترتيبات المتخذة يراقبون أبواب الحديقة لتفقد هوية كل شخص سيحضر الاجتماع. وأثبت هذا الإجراء الاحترازي أنه لا مبرر له وذلك لأن علي ناصيف ورجاله كانوا قد عادوا إلى أنطاكية دون أن يودعوا معارفهم لسنوات عديدة. ولم تنضم عائلة ساعي البريد التركي أو أي من الأتراك الآخرين من القرى المجاورة سراً إلى الحشود المتجهة إلى يوغونولوك . وعندما أصبح الجميع داخل الحديقة أوصدت دونهم الأبواب واحتشد الناس في الساحة الواسعة أمام المنزل. حوالي ثلاثة آلاف رجل وامرأة. ووقف أعيان القرى على مصطبة مرتفعة أمام المنزل. وشكلت الدرجات القليلة منبراً ممتازاً لإلقاء الكلمات من فوقها. ووضع كاتب قرية يوغونولوك طاولته أسفل هذه الدرجات ليسجل المقررات الهامة.

بقي كابرييل أطول فترة ممكنة في غرفته وكانت النوافذ مغلقة. ولم يخرج من البيت إلا عندما أرسل دير هايكازون في طلبه. أخذت الوجوه القانطة الشاحبة تنظر إليه. لم يكونوا ثلاثة آلاف شخص بل هم وجه واحد فقط. وجه المنفي المغلوب على أمره، ما يجري هنا مثل ما كان يجري في مئات الأماكن الأخرى في هذه الساعة. ووقف الحشد متراصاً بشكل مؤلم بحيث أنه بدا أصغر بكثير مما هو. وعندما نظر كابرييل إليهم، انتابه ذعر مفاجيء وأخذ قلبه يخفق بقوة. ومرة أخرى بدت الحقيقة مختلفة عن أي مفهوم كان قد كوّنه. فهؤلاء لم يكونوا أولئك الذين كان يراهم يوماً بعد يوم في القرى. وكانت عيون الجميع تحدق به جاحظة ممتلئة مرارة وشعوراً ممضاً بالموت. وللمرة الأولى، وفي هذه اللحظة من القلق العميق ترسخت العلاقة العميقة بين هذا «الأوروبي » الذي استؤصل من جذوره. وكانت النساء ما زلن يرتدين ثياب يوم الأحد وقد وضعن على رؤوسهن مناديل حريرية وتدلت من حول أعناقهن سلاسل من النقود وأساور حول معاصمهن. أما الرجال فكان معظمهم يرتدي سراويل فضفاضة. وراح كابرييل يحدق بالرجال الذين كانوا يضعون على رؤوسهم طرابيش أو قبعات من الفرو في هذا الجو الحار. مرر كابرييل يداً شديدة البرودة على سترته المصنوعة من قماش انكليزي ومضى في رأسه سؤال « لماذا أنا من بين جميع الناس؟ كيف سأتحدث إليهم؟ » فقد جعلته المسؤولية التي حملها على عاتقه يشعر ببرود شديد – مثل خسوف مفاجيء. وبدت له الفكرة مثيرة للخجل «ابتعد عن كل هذا حالاً.. اليوم.. لا يهم إلى أين ». وكان دير هايكازون قد أخذ يلقي كلماته الأولى ببطء شديد إلى الحشد. وبدت شديدة الوضوح بالنسبة لكابرييل ثم بدأ يصبح للكلمات والجمل معنى، وتلاشى الخسوف من السماء.

وقف دير هايكازون دون حراك على الدرجة العليا. وفي أثناء حديثه لم يكن يتحرك شيء سوى شفتيه والصليب على صدره قليلاً. وكانت القبعة المدببة تظلل وجهه الشاحب وبرزت لحيته السوداء التي وخطها الشيب من خدين ارتسمت عليهما أخاديد عميقة. أفيجب عليهم أن يعرفوا ما تنوي الحكومة فعله بالضبط. فقد كان معظم المسنين الموجودين بين هذا الحشد قد ذاقوا طعم المجازر، إذا لم يكن في شخصهم فعلى الأقل من خلال أقربائهم في الأناضول. لكن السيد المسيح كان يظلل جبل موسى برحمة لا يستحقها. فلسنوات كثيرة كانت هذه القرى تتمتع بسكينة وسلام بينما كان عشرات الآلاف من الأرمن يلقون مصرعهم في أضنة وفي أماكن أخرى. لكنهم يجب أن يميزوا جيداً بين المجازر والنفي. فالأولى دامت أربعة أو خمسة أيام بل ربما أسبوعاً. وكانت هناك فرصة لأن يجد أحدهم مخبأ للأطفال والنساء. إذ أن التعطش للدم الذي كان يتملك الجنود سرعان ما خبا ثانية. حتى أن أكثر الحراس وحشية انتابهم شعور بالقرف عندما انتهى الأمر. ومع أن الحكومة هي التي كانت تفتعل هذه المجازر دائماً إلا أنها لم تعترف بذلك قط. وإن ذلك ظهر في خضم الفوضى تلاشى في الفوضى وكان أسوأ ما يخشاه المرء هو الموت. أما النفي فأمر مختلف تماماً. فالمجازر كانت تمر وكأنها هزة أرضية وتبقي دائماً عدداً محدوداً من الناس والبيوت. أما النفي فسوف يستمر حتى يقتل آخر أرمني أو أن يموت جوعاً على الطريق أو

العطش في الصحراء أو يهلك بحمى التيفوئيد أو الكوليرا. وهذه المرة لم يكن الأمر يتعلق برغبة جامحة لإراقة الدماء بل شيء أكثر هولاً- هجوم منظم. فقد كان كل شيء يسير وفق خطة رسمتها الحكومة في استانبول. وكان دير هايكازون يعرف بأمر هذه الخطط منذ أشهر حتى قبل أن تحل بزيتون هذه النكبة. كما كان يعلم أن كل الجهود التي بذلها الكاثوليكوس مع البطاركة والمطارنة، وجميع تهديدات السفراء والقناصل قد باءت بالفشل. وكان كل ما كان بوسع ذلك القسيس القابع في إحدى القرى أن يفعله هو أن يظل صامتاً مهما بلغ ذلك من الصعوبة لكي يشيع الذعر بين صفوف رعيته السعيدة. وقد انتهى كل ذلك الآن. وعليهم الآن أن يروا الأمور بوضوح كوضوح النهار. وليس على أحد أن يقدم اقتراحاً لا طائل تحته بإرسال عرائض أو وفود إلى السلطات. فكل ذلك مضيعة للوقت « فلقد انتهى الشعور بالتعاطف الإنساني وإن المسيح المصلوب يطلب منا أن نتبعه في عاطفته فلم يبق أمامنا سوى الموت ..» وهنا توقف دير هايكازون لحظة قبل أن يختم كلامه بسؤاله « ولكن كيف ؟ ».

- « كيف ؟ » صاح القس آرام توماسيان، وشق طريقه ليقف إلى جانب الكاهن وقال: «إني أعرف جيداً الطريقة التي سأموت فيها. وبالتأكيد لن أموت ميتة نعجة مسلوبة الإرادة أو على الطريق الصحراوي أو بين أقذار معسكر اعتقال. وبالتأكيد لن أموت جوعاً أو بالطاعون. لا..فأنا أرغب في أن أموت على عتبة داري ويبدي بندقية والمسيح الذي اعظ كلامه سيساعدني في ذلك كما ستموت زوجتي والجنين الذي لا زال في رحمها معي ..».

كاد يحطم دفق الكلمات هذا صدر آرام. وضغط بيديه على صدره ليأخذ نفساً عميقاً ثم راح يروي لهم بهدوء عن تجربته المريرة في القافلة وما لقي من معاناة هو نفسه مع أنه لم يمض فيها سوى فترة قصيرة جداً. « فلا أحد يعرف سلفاً ما ستكون عليه طبيعة هذه الرحلة. ولا يدرك المرء هذا الألم إلا في اللحظة الأخيرة عندما يصدر الضابط أمره بالمسير وتبدو البيوت والكنيسة وأنت تنظر وراءك إليها أصغر وأصغر حتى تتلاشى ..» وتابع آرام وصف مشقات الطريق وكيف تزداد حالة الأقدام سوءاً يوماً بعد يوم ويأخذ الجسد في الانتفاخ حيث يترك الناس الذين فقدو وعيهم يموتون على الطريق وأناس يجرون أقدامهم حتى يصبحوا شيئاً فشيئاً أشبه بالحيوانات وآخرون يهلكون واحداً إثر واحد تحت لسع سياط الدرك. ونزلت كلماته على الحشد نزول الصاعقة ومن الغريب إنه لم تصدر عن أحدهم صيحة تعاطف مع آلاف الأرواح المعذبة تلك بل كانوا متسمرين في مكانهم واجمين. وصاح آرام توماسيان: « فليتبارك الموتى لأن كل شيء قد انتهى بالنسبة إليهم ».

هنا وللمرة الأولى صدرت تأوهة عميقة من حناجرهم. لم تكن صيحة بل نفساً عميقاً طويلاً وتأوهة أليمة. وتوج صوت آرام الحاد هذه المناحة قائلاً:« نحن أيضاً نطلب الموت في أقرب وقت لذلك يجب أن ندافع عن بيوتنا لكي نحظى جميعنا رجالاً ونساء وأطفالاً بموت سريع مشرف ». « ولكن لماذا يجب علينا أن نموت ؟ » صاح كابرييل باكراديان ثم أردف: « إخوتي وأخواتي. أنا

لم أعش بينكم.. هذا صحيح.. فقد ابتعدت عن وطني ولم أعد أعرفكم.. وثم.. وبدون شك فقد قدّر لي الله أن أعود من تلك المدن الكبيرة في الغرب إلى هذه الفيلا القديمة التي بناها جدي. لذلك لم أعد الآن الضيف، الغريب، بل أصبحت واحداً منكم وأصبح قدري قدركم.. ومعكم سأموت أو أحيا.. فلن تستثنيني الحكومة. أنا أعرف ذلك.. فهم يمقتون ويضطهدون نوعي أشد المقت لذلك ينبغي علي ، مثلكم تماماً، أن أحمي حياة زوجتي وعائلتي. ولهذا السبب فقد شحذت ذهني منذ عدة أسابيع وأنا أفكر بالوسائل الممكنة التي يمكننا من خلالها الدفاع عن أنفسنا... اسمعوا.. لقد انتابني ذعر شديد في البداية، لكني لم أعد أخشى شيئاً الآن.. وأنا مفعم بالأمل وبعون الله لن نموت.. وأنا لا أقول لكم ذلك كأحمق بل كرجل ، كضابط شارك في الحرب ». وبدأت أفكاره تتجسد في كلمات أكثر وضوحاً إذ أن العمل الدائب والمركّز في الأسابيع القليلة الماضية أصبح مفيداً، فراح يعدد المشكلات التي فكر بها جيداً وهي التي منحته ثقة داخلية كبيرة. هذه الثقة بالتفكير المنظم - كما تعلّم ذلك في أوروبا - رفعته إلى مصاف أعلى بكثير من مصاف أسرى القدر المستسلمين له. فقد أهمل الكلمة اليائسة التي ألقاها آرام ولم يشر إليها بشكل مباشر. إذ أن تحدي الدرك في الشوارع وعند أبواب البيوت سيكون محاولة يائسة فلربما لاقت نجاحاً مدهشاً لساعات قليلة لكنها ستؤدي إلى الأسوأ، إذ أن ذلك لن يؤدي بنا إلى الهلاك بسرعة بل إلى موت بطيء يرافقه التعذيب واغتصاب نسائنا. وقال إنه هو يناصر المقاومة حتى آخر قطرة من دمه. وهناك أماكن للقتال أفضل من الوادي وشوارع القرية وأشار إلى جبل موسى الذي كان يطل من فوقهم بقممه الشاهقة. ولعلهم تذكروا القصص القديمة التي منح فيها الداملاجيك المساعدة والحماية للأرمن الفارين « وسيحتاج الأمر إلى قوة هائلة لمحاصرة ومهاجمة الداملاجيك . لكن جمال باشا يحتاج الآن إلى كل رجل بوسعه الحصول عليه إذ أن على عاتقه مهام أكبر من القيام بطرد بضعة آلاف من الأرمن. وسيكون من السهل علينا القضاء على الدرك وكل ما نحتاجه هو بضعة مئات من الرجال المصممين مع بنادق للدفاع عن الجبل ولدينا الرجال والبنادق أيضاً. ثم رفع يده وكأنه يؤدي قسماً« وإني أتعهد هنا أمامكم جميعاً أن أقود عملية الدفاع بحيث نمكن نساءنا وأطفالنا أن يعيشوا فترة أطول مما سيعيشونه في القافلة. ونستطيع أن نقاوم لأسابيع عديدة بل ربما لأشهر فمن يعرف؟ وربما يضع الله حداً لهذه الحرب. عندئذ سنضمن السلامة. وحتى لو لم يحل السلام، فالبحر وراءنا وقبرص التي ترسو فيها السفن الحربية الفرنسية والإنكليزية قريبة منا. وأليس هناك أمل بأن تقترب إحدى هذه السفن من الشاطىء وأن نصل إليها باستخدام إشاراتنا وننال منها المساعدة ؟ ولكن حتى لو لم يخبئ لنا القدر حظاً طيباً فسيكون أمامنا متسع من الوقت لكي نموت. وعندئذ لن نمقت أنفسنا على الأقل بأننا نعاج لا حول لها ولا قوة ».

كان تأثير هذه الكلمات واضحاً لا لبس فيه. وظن كابرييل في البداية أنهم لم يفهموا ما قاله أو أنهم رفضوا مخططه بصيحات من الغضب. فقد تفرق هذا الحشد وراحت النساء تصرخ والرجال يقسمون وتشرذموا هنا وهناك. أين كانت وجوه الفلاحين المخددة المستسلمة الخائفة وأين

حجب الهدوء المميت ؟ وراح الرجال يتصايحون في وجوه بعضهم بل أخذوا يمسكون بتلابيب بعضهم البعض.

ماذا؟ ألم يكن بين تلك الآلاف التي أخذت تجأر وتهذي بهذا السيل العارم من اليأس أحد قادر على أن يفكر بهذه الطريقة خلال فترة القلق والخوف هذه؟ هل كان ذلك يحتاج إلى « سيد أوربي » رجل قوي لأن يأتي ويتحدث إليهم؟ نعم فقد طرأت نفس الفكرة على بال الكثيرين من بين تلك الآلاف، لكن كحلم يقظة فقط. فمن هم في نهاية الأمر؟ قرويون بائسون، شعب مضطهد يعيش فوق جزيرة محاربة دون أن توجد مدينة وراءهم تحميهم. فقد كان هناك عدد قليل من الأرمن في أنطاكية من بينهم صرافو عملة، تجار، مضاربون في الحبوب أي لم يكونوا بأي حال ذلك النوع من مثيري الشغب. كما توجد في اسكندرونة جالية صغيرة جداً وغنية، أصحاب مصارف ومتعهدون يعيشون في فيلات فاخرة شأن الأرمن القاطنين في بيروت. ولم يكن لدى هؤلاء أدنى فكرة عن سكان جبل موسى الفقراء. ولم يكن ثمة شبيه لشخص أواديس باكراديان العجوز يعيش بينهم. فقد أوصد جميعهم أبواب ونوافذ فيلاتهم وتسللوا إلى أكثر الزوايا ظلمة للاختباء فيها. واعتنق اثنان أو ثلاثة منهم الإسلام لانقاذ حياتهم وأملاكهم. لقد كان أولئك الناس الذين يعيشون في الطرف الشمالي الشرقي يحيون حياة راغدة، أما أولئك الأرمن في فان وأورفة هاتين المدينتين الأرمنيتين الكبيرتين المليئتين بالسلاح والتحدي فقد كان فيهما ناس أذكياء ونواب الطاشناق ومن السهولة التحدث هناك عن المقاومة وتنظيمها. ولكن من يجرؤ أن يعبر عن مثل هذه الأفكار الآثمة في يوغونولوك البائسة؟ عن مقاومة مسلحة تقف في وجه القوات العسكرية والسلطات المدنية، إذ أن كل شخص ولد في هذه الأصقاع كان يكنّ في أعماقه احتراماً ممزوجاً بالرعب للحكومة. الحكومة ذلك العدو المتوارث. فقد كانت الحكومة تعني بالنسبة لهم الدرك الذين بإمكانهم إلقاء القبض عليك وأن يشبعوك ضرباً دونما سبب؛ الحكومة ذلك المكتب القذر المعلق على جدارنه صورة السلطان وبلاطه المغطى بالبصاق حيث يتوجه المرء لدفع البدل. كما كانت الحكومة تعني الثكنات الموحشة حيث تنهال لكمات الجاووش على وجه الجندي وحيث يعاقب الأرمني بالضرب على أسفل القدمين. لذلك كان من المفهوم سبب وجه الغرابة- باستثناء فورة القس توماسيان العبثية - أن يطرح رجل حر وليس مواطناً محلياً أول فكرة منتظمة عن المقاومة على هذا الجمع. إذ من يملك الحرية ليجهر بمثل هذه الآراء إلا أجنبي متحرر لا يعتريه شعور بالذنب . وكان الناس أبعد ما يكونون عن استيعابها. وبدا أن هذا الصخب لن ينتهي ، بل أخذ يزداد. فانطلقت الأصوات واهتزت القبضات بطريقة لا تبدو أنها تنسجم مع تلك النسوة اللاتي كن في العادة خجولات ورجال لا يعرفون إلا الجد. وزاد الأمر سوءاً أصوات صياح وبكاء الأطفال الذين كانت أمهاتهم يحملهن على ظهورهن. وراح كابرييل ينظر إلى هذه الزوبعة بدهشة. اقترب منه دير هايكازون ولمس كتفه برؤوس أصابعه العشرة. كانت محاولة بدائية لمعانقته، إنه تعبير فوري عن منحه البركة. ولعل باكراديان قرأ شيئاً في أعماق هاتين العينين المتواضعتين المصممتين .« وهكذا إذن نتضافر» دون أن ينبسا بكلمة لبعضهما.

في الوقت نفسه كان القس هاروتيون نوخوديان يبذل ما بوسعه لتهدئة الحشد. وكان على الرجل الضئيل أن يتشاجر مع زوجته التي ألقت بنفسها عليه محاولة منعه من قول أي شيء غير متحفظ. وكان عليه أن يرفع صوته عالياً بقدر ما يستطيع ليقول «إن المسيح ينهانا عن مقاومة السلطة. إن المسيح ينهانا تماماً عن مقاومة الشر والوقوف في وجهه. إن شريعتي هي الإنجيل. وبصفتي راعياً لرعيتي فأنا لا أوافق على أي عصيان ». وقد أظهر هذا القس الذي اعتبره باكراديان دائماً رجلاً مريضاً خجولاً تصميماً قوياً في الدفاع عن وجهة نظره. فقد أخذ يصف عواقب المقاومة المسلحة كما كان يراها. إذ أن مثل هذه الثورة ستعطي الحكومة في نهاية الأمر الحق في تغيير مرسوم بشع إلى عملية إبادة وحشية انتقامية. وعندئذ لن يعود الموت عاطفة محببة للمسيح، بل سيصبح العقاب القانوني للثوار. ولن يصب الله جام غضبه على الأرواح المحتشدة هنا لقيامها بالثورة الآثمة، بل إن الشعب كله سيشعر بعواقبها. وهذا لن يكون في صالح أبناء وبنات الأرمن. إذ سيعطون سادتهم الزريعة لوصم الملة الأرمنية أمام العالم كله بأنهم مثيرو شغب ومعكرو صفو السلام وعلى أنهم خونة. إذ لا يحق للمرأة الصالحة حتى لو أساء زوجها معاملتها أن تسلم منزلها للغرباء. ومن منا سيقول بثقة تامة أن طردنا سيؤدي بالضرورة إلى النتيجة التي تنبأ بها ديرهايكازون وآرام توماسيان ؟ أليست أوامر الله مستعصية الفهم عليهما أيضاً؟ أليس بقدرته أن يرسل لنا العون من كل صوب ؟ ألا توجد كائنات بشرية في كل مكان تشعر بالعطف والرثاء علينا حتى بين صفوف الأتراك والأكراد ؟ ألن نجد الطعام والمأوى في كل مكان إذا حافظنا على ثقتنا بالله؟ أليس من الممكن الآن أن تكون المساعدة قادمة إلينا ونحن في غمرة البؤس والأسى ؟ وإذا لم تصلنا هنا فعلى الأقل يمكن أن تصلنا في حلب. وإذا لم تكن في حلب، فعلى الأقل نستطيع أن نأمل الحصول عليها في مكان توقفنا التالي. ومن الجائز أن تتعرض أجسادنا لآلام شديدة لكن أرواحنا ستكون حرّة. وإذا تعيّن علينا الاختيار بين الموت الآثم والموت البريء فلماذا يجب علينا أن نختار الموت ونحن آثمون ؟

لم يستطع نوخوديان إكمال حديثه لأن صوت امرأة حاد غطى على صوته. أليس من الممكن أن تكون هذه المرأة المشاكسة المتشحة بالسواد هي الأم أنتارام زوجة الطبيب ؟ هل كانت حقاً أنتارام مايريك ، تلك الأم الضئيلة الجسم، المساعفة التي تحنو على الأمهات القرويات والتي ما فتئت تمدّ الناس بالعون والنصح منذ زمن طويل. فقد كانت متحمسة جداً بحيث انزلق شالها الأسود عن منتصف رأسها الذي لم يدب الشيب فيه تماماً. وكان أنفها الكبير يبرز بشكل واضح من وجهها المتورد. وكان جذعها القوي ينتصب بقوة وهي ترفع رأسها شامخة. وكانت عيناها الزرقاوان محصورتين بين آلاف التجاعيد ومع ذلك فقد جعلها غضبها تبدو شابة ثانية. وراحت تقول بملء صوتها: « إني امرأة وإني أتكلّم بالنيابة عن جميع النساء هنا.. فلقد عانى الكثير منا وقد خذلني قلبي مرات ومرات . ومنذ وقت طويل لم أعد أكترث بالموت ولم أعد أكترث متى أموت ولكني بالتأكيد لن أموت مثل كلب نفل على الطريق العام. ولن أدع جسدي يصبح نتناً في الحقول كما لا أرغب في العيش في معسكر اعتقال بين جميع هؤلاء القتلة الأوغاد والنساء

المسكينات اللواتي دنسوهن. كما لا ترغب أي امرأة منا، نحن معشر النساء أن يجري ذلك لنا وإذا كنتم أنتم يا معشر الرجال على هذه الدرجة من الجبن لكي تبقوا هنا وتذبحوا فنحن النسوة سنتسلح وحدنا ونصعد جبل موسى مع كابرييل باكراديان ».

أثار هذا الحماس الضجة أكثر من ذي قبل. وبدا وكأنّ هؤلاء المجانين مستعدون لإشهار سكاكينهم ضد بعضهم البعض ويسبقون الأتراك في إراقة دمهم. وكان معلمو المدرسة وعلى رأسهم شاداخيان يستعدون للإندفاع بين الجموع ويعملون بمثابة شرطة لحفظ النظام ولكن دير هايكازون أشار لهم بيده بهدوء أن يلزموا أماكنهم. فقد كان يعرف شعبه أكثر من هؤلاء المعلمين والمخاتير. إذ لم تستوعب تلك الآلاف بعد فكرة النفي. وكان عليها الآن أن تستوعب ببطء معنى تلك الكلمات الحماسية المفعمة بالتحدي التي ألقيت. وراح الكاهن يراقب الجموع بعينين صبورين ونظرته تقول: « دعوهم وشأنهم ». وأخذت أصوات النساء التي يعلوها صوت أنتارام تعلو وتستلم زمام المبادرة. ومنع دير هايكازون أشخاصاً آخرين من التكلم مثل المعلم أوسكانيان وكان محقاً في ذلك. وما هي إلا بضع دقائق حتى تلاشت الضجة من تلقاء نفسها، ولم يعد يسمع صوت سوى دمدمات وهمهمات. وأصبحت الآن الفرصة متاحة أمام دير هايكازون لتوضيح الأمور وأن يعيد جمع شملهم. لوّح بيده اليمنى لكي يلوذوا بالصمت وأخذ يتكلم مركّزاً على كل حرف يقوله:

– « كما ترون فإن الأمر في غاية البساطة. فقد عرض عليكم اقتراحان وهما الطريقتان الوحيدتان اللتان يمكننا أن نسلكهما. وليس ثمة طريق ثالث. وقد أشار إلى الطريقة الأولى القس نوخوديان وهي التي تقودكم شرقاً برفقة رجال الدرك، والأخرى التي أشار إليها كابرييل باكراديان وهي تقودنا مع أسلحتنا إلى قمة الداملاجيك. وكل واحد منكم حر تماماً في اختيار الطريقة التي تناسبه . وليس من داع لقول المزيد إذ أن كل شيء قد قيل للتو. وأود أن أجعل الأمر سهلاً بالنسبة إليكم. سيتفضل القس نوخوديان بالوقوف هناك على الساحة الأخرى وكل من يوافق رأي القس ويفضل الذهاب إلى المنفى أن يذهب إلى الجهة الثانية ويقف معه أما الذين يؤيدون كابرييل باكراديان فليبقوا حيث هم. لا داعي للعجلة فأمامنا متسع من الوقت ».

وفجأة خيّم هدوء عميق. ولم تعد تسمع سوى شهقات مدام نوخوديان التي كادت تكون صراخاً. أحنى القس العجوز رأسه المغطى بقبعة قماشية. وبدا وكأنه يحمل حملاً ثقيلاً من الأفكار وبقي ساهماً لفترة من الزمن. ثم بدأت ساقاه تتحركان. وهرول في خطوات مترددة إلى المكان الذي حدده له دير هايكازون. واستغرقت ساقا نوخوديان القصيرتان لحظات طويلة للوصول إلى جنبة الماغنوليا حيث توقف وأدار ظهره للحشد. ثم لحقت به زوجته التي كانت تنتحب. وسادت فترة صمت طويلة ثم خرج رجل أو رجلان من وسط الحشد وتوجها إلى المكان الآخر بخطوات بطيئة وعيون ساهمة ووقفا بجانب القس نوخوديان. في البداية خرج عدد قليل فقط – المسنون من البروتستانت في بيتياس مع زوجاتهم. ولكن شيئاً فشيئاً أخذ عدد الذين

اختاروا النفي يزداد حتى انضم إليه جميع أتباعه البروتستانتية شيباً وشباباً. ثم لحق بهم عدد من الذين خذلتهم القوة على المقاومة أو الذين كانوا يخشون في نهاية عمرهم معارضة تعاليم السماء. وزاد أتباع نوخوديان حتى وصلوا إلى حوالي أربعمائة شخص ما عدا أتباع الطائفة البروتستانتية الذين وقفوا بعيداً عن الاجتماع . وأخذ القس معه عدداً لا بأس به من أهالي بيتياس ، ثاني أكبر قرية في الوادي. وأخذ الناس يراقبون بعيون مبهورة الخطوات المترددة لأولئك الذين قرروا الإمتثال للأمر. ولم تصدر عن أحدهم كلمة تعليق، وأخيراً تقدم رجل عجوز قصير محدودب الظهر يتكيء على عصاه وهو يترنح وكأنه سكران وتقدم إلى مجموعة نوخوديان. هذا المشهد المضحك الذي يعرفه سكان كبوسية جيداً والذي بدا حقاً أنه لا يعرف حقيقة ما يحدث أثار صيحة استهجان في الحشد. وفي البداية لم يتعد الأمر مشهد شخص معتوه يعبر عن حقده، لكن سرعان ما تبع ذلك الشعور بالتعالي فصاح أحدهم: « هاهنا يقف الشجعان وهناك الجبناء. هاهنا الأقوياء، الرجال الذين يساوون الشيء الكثير وهناك العاجزون » وتفوه شاب بشيء يدعو للسخرية فانفلتت من الحشد ضحكة مجلجلة. لكن دير هايكازون كان يشق طريقه بين الحشد الكثيف ويبعد الناس من أمامه بكلتا يديه وكأنه يريد الوصول إلى مثير هذه الفتنة لينقض عليه ويسحبه خارجاً ويشبعه ضرباً. فقد كان وجهه كظيماً، وقد مالت قبعته إلى الوراء قليلاً وبان شعره الأشيب، وكان الغضب يشع من عينيه« من هو ذاك الكلب الذي تجرأ وقال ذلك ؟ من هم هؤلاء الأفظاظ الذين يضحكون ؟ ». ثم راح يدق على صدره بكلتا يديه وكأنه يعاقب نفسه من هذا الساحر ثم تابع طريقه إلى هاروتيون نوخوديان ومجموعته ووقف على بعد مسافة قصيرة منهم وأنحنى أمامهم وقال بصوته الكهنوتي الرنان: « ستكونون بالنسبة لنا دوماً قديسين. نرجوا من الله أن نكون قديسين لكم ».

وأخذ سيل من الأفكار يتدفق إلى رأس باكراديان. إذ أن عملية الدفاع الكبيرة كانت تحتل حيزاً كبيراً من تفكيره وأعجب بشخصية دير هايكازون والالهام العظيم الذي اظهره وقال لنفسه «إنه أمر عظيم» أن يكون لي مثل هذه السلطة التي تضرب جزورها في الأرض « وأعتبر أن اختيار نوخوديان وجماعته لهذا الحل كان من حسن حظه « إذ أن ذلك سيؤدي إلى عدم انكشاف تحركاتنا وقراراتنا للدرك حتى اللحظة الأخيرة. إذ يجب ألا تكون القرى فارغة تماماً، ويجب أن لا يشك الأتراك بأي شيء قبل أن نكون مستعدين لهم ». فاستناداً إلى تقرير علي ناصيف سيصل المدير مع رجاله بعد ثلاثة أيام من يوم الأحد. وبحلول يوم الأربعاء يجب أن يكون كل شيء قد تم. وأعطى دير هايكازون فرصة أخرى أمام الناس لترسيخ القرار الذي اتخذوه من أجل تقوية عزيمة المترددين والخائفين. ثم طلب من الحشد اختيار ممثلين لهم على الفور. وتنقل كاتب قرية يوغونولوك بينهم وهو يحمل سلة يجمع فيها أوراق التصويت. ولم يضع معلمو المدرسة مع أفاكيان وقتاً فباشروا على الفور في عد الأصوات داخل الفيلا. وغني عن القول أن معظم الأصوات كانت لصالح دير هايكازون ثم الطبيب والمخاتير السبعة والقساوسة الثلاثة الذين حصلوا على أصوات طوائفهم بالإضافة إلى كريكور ومعلمي المدرسة شاداخيان وأوسكانيان. أما كابرييل

فقد حصل على نفس عدد الأصوات التي حصل عليها القس آرام توماسيان. ومن بين القرويين الآخرين حصل توماسيان العجوز والجاويش نورهان على عدد كبير من الأصوات بالإضافة إلى أنتارام مايريك التي رفضت قبول ذلك بشدة وتلا شاداخيان النتائج. ثم دخل الأعضاء المنتخبون إلى البيت للمباشرة في وضع الخطط. وكان كابرييل قد أعلم كريستوفر وميساك أن يجهزا غرفة الاستقبال الكبيرة وإعداد طعام بارد ونبيذ وقهوة. أما القرويون في الخارج - حتى الأمهات اللاتي كن يحملن أطفالاً صغاراً فقد طلب تلبية متطلباتهم - وانتشروا في أرجاء الحديقة الكبيرة وأرسل لهم صاحب البيت كمية من الماء والنبيذ والفواكه والتبغ . وسرعان ما اختلطت الثرثرات مع دخان السكائر وفقاعات الغليون. أما القس نوخوديان وأتباعه فقد قفلوا عائدين إلى بيتياس . وانسحب عدد قليل من الشباب منهم عند باب الحديقة وانضموا إلى المجموعة التي بدا أن حماسها للحياة قد عاد إليها للمرة الأولى بعد أسابيع من الغيبوبة.

امتص ليل جبل موسى بسرعة شفق تلك الليلة التموزية. ومن الشرق برز الهلال من وراء قمم الأمانوس وراح يسبح في السماء الفسيحة. وبقيت أبواب فيلا باكراديان مشرعة على مصراعيها. واجتمع القادة في غرفة الاستقبال الكبيرة. ولاحظ كابرييل وجود زعزعة في نفوس بعض المنتخبين، فقد كان حريصاً على أن لا يعتري هؤلاء شعور بالتراخي والتردد وأن لا يسمح بكلمات مثل «إذا» و « لكن ». فقد اتخذ الناس قرارهم الشرعي ولن يسمح الآن بأي تذبذب. وكان من مهمة باكراديان بصفته صاحب البيت أن يضع حداً لهذا التردد والخروج بنتائج مثمرة للجميع. وأحس أنه يجب على الجميع أن يشعروا بمزايا ثقافته الأوروبية فاستدار بوقار إلى دير هايكازون وقال: « دير هايكازون..لقد انتخبك أكثر الناس الموجودين في الخارج وأنا هنا أتكلم بالنيابة عنهم ونطلب منك برجاء خاص أن تصبح زعيماً لنضالنا. ففي وقت السلم كنت تتبوأ مركزاً قيادياً وكزعيم روحي للقرى قمت بواجبك على أكمل وجه بتضحية كبيرة في النفس ولكن إرادة الله ووحشية الإنسان تشاءان أن تمتد سلطتك حتى وقتنا هذا ونريدك أن تصبح المرجع الأخير، أي أن أي قرار يمكن أن تتخذه ستكون كلمتك هي الكلمة الفصل دون أي اعترض. ولن يكون لأي قرار يتخذه هذا المجلس قوة قانونية وملزماً للناس ما لم تصادق عليه».

وبدا أن كلمات كابرييل وجدت آذاناً صاغية من الحاضرين وخاصة أولئك الذين كانوا لا يزالون ينظرون إليه بشيء من عدم الثقة كأجنبي وقد أسفر ذلك عن تيارين من الأفكار: إذ كان الكثير يتوقع أن الرجل الفرنسي سيخطف الزعامة نتيجة شعوره بالتفوق الغربي، وثم- وهو سبب أكثر عمقاً - فإن كلمة باكراديان وشكله الجدي ومحتواه القانوني مهد السبيل لاتخاذ جميع القرارات المزمع اتخاذها مستقبلاً. ورسم دير هايكازون شارة الصليب بصمت دلالة قبوله هذا المنصب وتحمل أعبائه ومسؤولياته الجسام. وبدءاً من هذه اللحظة أصبحت هناك قوتان شرعيتان - مجلس القادة والرئيس الذي كان له وحده سلطة اتخاذ القرارات السارية قانوناً. وتقدم الجميع لتقبيل يد دير هايكازون حسب العادات ولأداء القسم. وبعد انتهاء هذه المراسم ، تحلقت المجموعة حول الطاولة الطويلة. وكان بحوزة كابرييل عدة خرائط عسكرية ومعلومات كاملة، ووقف

صامويل أفاكيان وراءه استعداداً لتقديم أي مشورة. وعندما طلب كابرييل الصمت بنظرة منه بدأ يقول: «أصدقائي، لقد مالت الشمس إلى الغروب منذ ساعتين، وستشرق ثانية بعد ست ساعات. أي أمامنا ست ساعات فقط لإنجاز كل شيء. وعندما نخرج غداً صباحاً لمواجهة الناس مرة أخرى يجب أن نكون قد أزلنا أي نوع من الشك والتردد. إذ يجب أن تكون إرادتنا واضحة وجماعية. لكني سأقول لكم عن أهم الإجراءات. ففي الساعات الأولى من صباح الغد يجب على الشباب الأقوياء الصعود إلى الداملاجيك والبدء في بناء التحصينات. لذا أرجوكم أن توفروا الوقت. وقد كان من مصلحتنا جميعاً أنني رتبت تفاصيل الدفاع منذ فترة وبوسعي أن أعرض عليكم مقترحاتي على الفور. وأخال أنه في هذه الجلسات سيكون من الأفضل أن نعمل بنفس الطريقة التي نعمل بها في اجتماعاتنا الطائفية، وإني استأذن دير هايكازون لشرح خطتي ».

وكعادته أغلق دير هايكازون عينيه وقال وقد بدت على وجهه معالم الإعياء والألم:« لنسمع كابرييل باكراديان ».

فتح كابرييل أفضل ثلاث خرائط كان قد رسمها أفاكيان وقال: « سيكون أمامنا أعمال ضئيلة كثيرة جداً يجب أن ننجزها، ولكن ما أن نبحث الأمر بشكل صحيح فإننا نجدها تقع تحت بندين رئيسيين: الأول والأكثر أهمية الأسلوب الذي سنتبعه في الدفاع عن النفس والثاني الأسلوب الذي سننظم فيه حياتنا. وإني سأبدأ بأسلوب نضالنا..» رفع القس آرام توماسيان يده مقاطعاً«إننا نعرف جميعنا أن كابرييل باكراديان كان ضابطاً، وهو يعرف معظم دقائق الأمور العسكرية ولذلك نوليه قيادة القتال » فارتفعت جميع الأيدي تعبيراً عن الموافقة على هذا الإقتراح. غير أن القس آرام لم يكن قد أنهى كلامه بعد « منذ فترة من الزمن وكابرييل باكراديان يركز كل تفكيره على خطة دفاعية، لذا من الأفضل لنا أن نتركه يتدبر أمر المقاومة. لذلك أقترح أن يؤجل المناقشات حول الخطة التكتيكية حتى تتضح لنا فكرة كيف يمكن لخمسة آلاف شخص سينقطعون عن العالم العيش على قمة الداملاجيك وإلى متى؟ صدرت عن كابرييل الذي كان مندفعاً لأن يكمل حديثه تنهدة وفتح خرائطه على الطاولة وقال: « لقد شملت الترتيبات التي اتخذتها تلك المشكلة، فقد دوّنت على هذه الخرائط جميع الملاحظات الضرورية المتعلقة بالحياة هناك. ولكن إذا أحب القس توماسيان فإني على أتم الاستعداد لتأجيل شرحي لخطّة الدفاع ».

أخذ الطبيب ألتوني يمشي في الغرفة ويدمدم غاضباً مبدياً أن الجدال وإلقاء الكلمات والموافقة برفع اليد في هذه اللحظة من الخطر الداهم أمر تافه. وكان على عكس كريكور الذي جلس ساكناً في كرسيه وقد التزم الهدوء وكأنه يتساءل « متى سينتهي كل ذلك وننجو من هذا العدوان البربري » وأبدى الطبيب الذي كان يمشي في الغرفة ملاحظة مفاجئة ليس لها علاقة بهذا الأمر «خمسة آلاف شخص هم خمسة آلاف شخص، وحرارة الشمس هي حرارة الشمس ، والوابل الشديد هو وابل شديد». لكن كابرييل الذي كانت تشغله مشكلات المأوى والغذاء والعناية

بالأطفال والتي قضى ليالي طويلة في حلّها قال: « من أجل حمايتنا من الأفضل أن نبقي جميع الأطفال بين سنتين وسبع سنوات في مكان واحد ». لكن دير هايكازون الصامت رفض هذا الاقتراح بشدة وقال: «إن ما ذكره كابرييل يعني بداية اضطراب خطير فيجب ألا نفرق ما جمعه الله. بل على العكس يبدو لي أنه من الضرورة بمكان عدم فصل العائلات أو الأبرشيات إذا لم يكن من ضرورة قصوى لذلك. إذ يجب أن يكون لكل قرية معسكرها المنفصل وسيكون المختارون مسؤولين عن سكان قراهم كالعادة. ويجب أن لا تتغيّر العلاقات التي اعتدنا عليها هنا إلا بأقل قدر ممكن ».

وافق الجميع على ذلك وأكّد لهم دير هايكازون أنه يجب أن يبقى أسلوب حياتهم طبيعياً. إذ أن أسوأ ما في الأمر وأكثره قساوة بالنسبة لهؤلاء الفلاحين التغيير، لكن كابرييل لم يستسلم بسهولة لهذا الفشل، فمرر الخريطة مع رسم عن محيط البلدة وادرك الجميع المرج الفسيح الذي ترعى فيه قطعان القرى وبدأ يجول في خاطرهم أن هذه المساحة الشاسعة المكسوة بالأعشاب هي المكان المحتمل الوحيد لإقامة المعسكر. إذ يمكن أن تتسع لألفي عائلة. وبسرعة توصل كابرييل إلى حل مشترك مع دير هايكازون وتم تقسيم العائلات وأرض المعسكر بسهولة حسب رغبة الكاهن.

توقف المجلس فجأة بعد منتصف الليل بقليل. وكما يحدث غالباً في مثل هذه الحالات فلن يخطر في بال أحد أن يتأكد من الموضوع الذي سيرتكز على المستقبل بقضه وقضيضه. فقد كانت ما تزال خمسون بندقية ماوزر ومئتان وخمسون بندقية يونانية قديمة مدفونة في أحد القبور ويتوجب إخراجها على الفور وحملها إلى الداملاجيك مع الذخيرة قبل بزوغ الفجر. ومع أن كابرييل لم يكن يشك بتقرير علي ناصيف فقد كان احتمال حضور عدد من الدرك الجدد خلال الأربع والعشرين ساعة القادمة لإجراء تفتيش مفاجئ عن الأسلحة أمراً وارداً. فأرسلت مجموعة مؤلفة من ستة رجال بسرعة إلى ساحة الكنيسة وتمركزت خلف القرية على الطريق المؤدي إلى حابيبلي. وجاء حفارا القبور بعدئذ. كانت البنادق قد لفّت في قطع من القماش ووضعت في توابيت محكمة الإغلاق لا يتسرب إليها الهواء وقد نثر تحتها قش. وكان الجاويش نورهان قد فحصها بسرعة منذ أربعة أسابيع فقط ووجدها في حالة جيدة هي والذخيرة. في تلك الليلة أخرجت الصناديق الخمسة عشر من مدفنها في المقابر . وكان ذلك عملاً شاقاً نظراً لعدم وجود أيد كافية للمساعدة. وكان دير هايكازون نفسه قد خلع ثوبه وشارك في العمل. ثم أحضر حمارين قويين وقبل حلول الفجر انطلقت قافلة سرية يقودها الجاووش نورهان باتجاه الممر الجبلي الشمالي عبر القرى المهجورة أزيز وبيتياس .

وبفضل جهد كابرييل الحثيث أنجز أعضاء اللجان الفرعية عملاً مفيداً . فقد تم وضع الخطوط الرئيسية لظروف الدفاع وتوفير المؤن. وتم تحديد مجموعة المقاتلين وأجريت حسابات تقريبية عن كميات الأغذية وأنواعها التي يمكن الحصول عليها. كما تم توفير المواد اللازمة لبناء مجموعة من الأكواخ ومشفى ومستودع. ومع عودة دير هايكازون عاد المجلس العام إلى الإلتئام. وأطلع

كابرييل الرئيس على القرارات المتخذة بشكل مقتضب وبدعم آرام توماسيان الحثيث قبلت جميع مقترحاته تقريباً. ومع بدء طلوع النهار خيم عليهم صمت عميق وراح الرجال يحدقون عبر النافذة. وكانت عيونهم تلمع بشكل غريب. ولم يكن يصدر صوت في هذه الغرفة سوى صوت خربشة قلمي رصاص - قلم أفاكيان وقلم كاتب القرية- اللذين أنهمكا في صياغة مسودة بروتوكول عن أهم المقرارات المتخذة. وعندما نشرت الشمس خيوطها الذهبية في الغرفة وضع كابرييل حداً لهذا الحلم وقال: «أظن أننا قمنا بواجبنا الليلة وأننا لم ننسَ شيئاً».

لكن دير هايكازون قال وهو ما زال جالساً: «لا.. فقد نسينا شيئاً واحداً - أهم شيء» وأعاد صوته الرنان الجميع حول الطاولة. ثم رفع عينين عميقتين وقال مؤكداً على كل حرف يقوله «المُصلّى» ثم أردف أنه يجب بناء مصلى خشبي في وسط المعسكر كمكان مقدّس لإقامة الصلاة وخدمة الرب.

في حوالي الخامسة دلف كابرييل إلى غرفة جولييت في الطابق العلوي حيث وجد عدداً من الأشخاص الذين أمضوا الليل مع السيدة باكراديان. وكان ستيفان الذي بقي يقظاً رغم توسلات أمه بالذهاب إلى سريره، مستلقياً على الأريكة ويغط في سبات عميق. وكانت جولييت تتكيء على النافذة وقد أدارت ظهرها للحاضرين في الغرفة. وكانت اسكوهي تجلس متشنجة بجانب ستيفان النائم الذي تدثر بغطاء. أما أوسانا زوجة القس آرام فكانت تغوص في الأريكة وهي تحدق في الفراغ في حين كانت أنتارام مايريك أقل تأثراً من غيرها، وكانت تنصت من الباب المشرع إلى همهمات الأصوات الصادرة عن غرفة المجلس. وكان هناك رجل بين تلك النسوة هو كونزاك ماريس الذي بدا أنه الشخص الوحيد الذي لم يكن غارقاً في أفكاره. وكان شعره الممشط بشكل أنيق يلمع وكأنه لم يتأثر بهذه الأحداث. تقدم كابرييل بضع خطوات من جولييت، لكنه توقف فجأة وأخذ يحدق في كونزاك وسأله: « هل حقاً تحمل جواز سفر أمريكياً ؟ » فرد عليه الشاب اليوناني بطريقة تشوبها السخرية « هل تريد أن تلقي عليه نظرة يا سيد ؟ أم تريد أن ترى أوراقي التي تثبت أني صحفي ؟ » وراحت أصابعه النحيلة الباردة تعبث في جيوبه. لكن كابرييل استدار إلى جولييت وأمسك يدها. لم تكن اليد باردة لكن كأنما الحياة قد فارقتها، وكان في عينيها شيء من المد والجزر كما يحدث لها في لحظات الصراع. وكان منخاراها يرتعشان قليلاً- وهي دليل على المقاومة ويعرفها كابرييل جيداً - وللمرة الأولى خلال الأربع والعشرين ساعة بدأ يشعر بالإنهاك. تردد وراحا ينظران إلى عيون بعضهما البعض بطريقة متفحصة. رجل وامرأة. أين كانت زوجة كابرييل؟ كان ما زال يشعر بيدها كشيء أشبه بقطعة بورسلان، لكنها سرعان ما ابتعدت عنه، وفي هذه المرة بدأ بعد ساحق يزداد في كل لحظة، ليس منها نحوه، بل منه نحوها. وقفت جولييت الممشوقة القامة بقربه. لقد كان هذا الجسد جزءاً من كيانه. فكل بقعة منه تتذكر قبلاته، العنق، الكتفان، النهدان، الركبتان، قصبة الساق بل حتى القدمين. هذا الجسد الذي أنجب ستيفان يعاني الآن من أجل مستقبل آل باكراديان. والآن لم يعد يدرك ذلك. فقد نسي صورة عري هذا الجسد كما لو أن أحداً نسي اسمه. لكنه كان يسوءه أن يجد سيدة أفرنسية تقف هنا، امرأة كان

له صلة بها- فقد أصبحت هذه السيدة عدوة، تقف إلى جانب الطرف الآخر، تحتل مقعداً في مجلس القتلة مع أنها هي نفسها أم أرمنية. شعر كابرييل بجفاف في حنجرته لكنه حرر نفسه من هذا الإحساس الخانق بسرعة «لا.. هذا مستحيل يا جولييت ». أمالت رأسها قليلاً وقالت: «ما هو المستحيل ؟ ماذا تعني ؟ ».

نظر إلى الألوان الزاهية خارج النافذة لكنه لم يستطع تمييز الأشكال إذ كان يتحدث بالأرمنية لساعات عديدة، وبدأت الأفرنسية تزحف في عقله بغضب. وبدأ يقول بصوت متردد وبلهجة قاسية غير اعتيادية، بطريقة بدا أنها تثير أعصاب جولييت «أعني.. أنت محقة.. أظن.. أنه يجب أن لا تنجري إلى هذا.. ما هو ذنبك ؟ تتذكرين حديثنا تلك الليلة؟ يجب أن تبتعدي أنتِ وستيفان » وبدا أنها تزن كلماتها « أذكر بالضبط ما قلناه.. في ذلك الوقت .. أنا معك في كل ذلك .. لقد قلت ذلك حينئذ » ولم تكن قد استخدمت هذه اللهجة من قبل ولكن لم يعد يهم. ألقت نظرة معاتبة إلى أوسانا واسكوهي كما لو أنها أدركت أنهن كن المسؤولات عن كل ذلك.

مرر كابرييل يده فوق عينيه مرتين، فقد شعر مرة أخرى أنه رجل وزعيم في الليلة الماضية وأردف « ثمة منفذ لك ولستيفان.. إنها ليست مأمونة أو سهلة، لكنك تملكين إرادة قوية يا جولييت » وبرزت في عينيها نظرة حادة. لكن ما أن بدأ كابرييل يتحدث حتى خبأ الوميض في عينيها والتوتر في وجهها. «كونزاك ماريس سيغادرنا اليوم أو غداً» قال باكراديان بلهجة قرار لا رجعة فيه: « فلديه جواز سفر أمريكي وهو على درجة عالية من القيمة في ظروف كهذه. أنا متأكد يا ماريس أنك لن ترفض أن تعمل على إيصال زوجتي وابني إلى مكان مأمون. ويمكنك أن تسلك طريق الصيد. فالوقت صيف ولا تزال طرق الوادي سالكة. وسأعطيك عربة وأربعة أحصنة وسيذهب معك كريستوفر بالإضافة إلى سائق العربة ، وهؤلاء يمكنهم الهرب على اعتبارهما خادمين عندك وإذا ما ذهبت عن طريق سيلدران والمغارة فلا يستغرق الأمر خمس أو ست ساعات إلى أرسوز . وأظن أنه ليس من الضروري أن تجعل الأحصنة تسير معظم الطريق. إذ أن الخمسة عشر ميلاً إلى الشاطئ من أرسوز إلى اسكندرونة شيء لا يذكر لأنك تستطيع أن تسير ساعات على طول الشاطئ الرملي . وأعتقد أنه توجد في أرسوز حامية صغيرة ، ولن يكون من الصعب على ماريس أن يفزع الأونباشي هنا بجواز سفره».

في هذه اللحظة دخل كريستوفر ليسأل سيده عن أية تعليمات . استدار كابرييل إليه بحدة وقال:« كريستوفر، هل من الممكن الوصول إلى أرسوز عن طريق اسكندرونة في عشر ساعات إذا اتبع المرء طريق الصيد ؟ » فتح الخادم عينيه واسعاً وقال: « يا أفندينا هذا يعتمد على الأتراك » لكن صوت باكراديان أصبح أكثر حدة « لم أسألك عن ذلك يا كريستوفر ما أعنيه هو هل أنك واثق من أنك تستطيع أن توصل السيدة وابني وهذا السيد الأمريكي إلى اسكندرونة ؟ تفصّد العرق من جبهة الخادم وبدا كرجل عجوز رغم أنه كان في الأربعين من عمره. ولم يكن واضحاً تماماً ما هو الشيء الذي أثاره - هل هو الخوف من مغامرة محفوفة بالمخاطر أو هذا الأمل المفاجئ بإنقاذ

روحه. وجالت عيناه من باكراديان إلى كونزاك، وأخيراً شعر بالسعادة تغمره إلا أنه سرعان ما كبت سعادته إما احتراماً لسيده أو لكي لا يطلق عنان التفاؤل لنفسه: « أستطيع أن أقوم بذلك يا أفنديا. فإذا كان السيد يحمل جواز سفر فلن يمسه الجنود بأذى ».

بعد هذا الشرح أعاد كابرييل كريستوفر إلى المطبخ لإعداد فطور للجميع . وأكمل تعليماته إلى ماريس. ولسوء الحظ لم يكن هناك قنصل أمريكي في اسكندرونة، بل يوجد فقط نائب قنصل ألماني وقنصل نمساوي - هنغاري. وكان قد بحث منذ وقت أمر هذين القنصلين. إذ كان القنصل الألماني يدعى هوفمان في حين يدعى النمساوي بلفانت. وكان كلاهما رجلي أعمال أوروبيين طيبي القلب ومساعفين. إلا أنه نظراً لأن دولتيهما حليفتان للأتراك فمن الضروري توخي الحذر الشديد. « يجب أن تختلق قصة.. جولييت سويسرية فقدت جواز سفرها في حادث طريق.. ويجب على نائبي القنصل أن يمنحاك تصريحاً للسفر بواسطة السكك الحديدية من السلطات العسكرية المحلية.. وسيفتحون بعد عدة أيام خطاً فرعياً إلى توبراك قلعة.. وهوفمان وبلفانت يعرفان تماماً فيما إذا كان بالإمكان رشوة القيادة ».

كان كابرييل قد أمضى ليالي كثيرة دون أن يغمض له جفن وهو يفكر بكل وسائل الهرب وقد قلب الأمر على جميع وجوهه. وكان ثمة بدائل كثيرة: واحد في اتجاه حلب والآخر إلى بيروت وكان كلامه يدل على أنه قد فكر فيها للتو. حدقت جولييت وبدا أنها لا تفهم كلمة واحدة مما قاله.

- « يجب أن تفكر برواية أكثر إقناعاً يا ماريس .. فلن يكون من السهل أن تدخل في رأسهم موضوع الحادث وجواز السفر الضائع .. لكن هذا ليس الشيء الرئيسي .. جولييت.. إن الشيء الرئيسي هو أنك أوروبية ولن يشك أحد في أنك تنتمين إلينا وهذا يكفي لإنقاذك ، وسيظنون أنك رحالة أو في أسوأ تقدير جاسوسة .. وثمة خطورة في ذلك.. فربما تتعرضين لإزعاجات، بل ربما عانيت الأمرّين من جراء ذلك. لكن بالمقارنة مع ما سنعانيه هنا- لا يعني شيئاً.. يجب أن تضعي شيئاً رئيسياً نصب عينيك - الخروج من هنا. حرري نفسك من هذا الشعب الذي حلت عليه اللعنة والذي تورطت فيه دون ذنب منك ».

بهذه الكلمات هدأ وجه كابرييل. وثنت جولييت الجزء العلوي من جذعها إلى الوراء قليلاً. حركة لا إرادية بدا أنها مستعدة لتنفيذ رغبة زوجها. تقدم كونزاك ماريس بضع خطوات من الزوجين - ربما ليقترح أنه، بالرغم من استعداده لذلك، لا يود أن يرغم على اتخاذ أي قرار. استعاد كابرييل تمالك نفسه « إن القطارات الوحيدة التي ما زالت تسير هي قطارات الجنود. ويجب أن تدفع رشوة للمسؤولين عند كل نقطة من الخط. وهؤلاء يكونون عادة كباراً في السن متمسكين بالعادات القديمة وليس لهم علاقة بالاتحاد.. وما أن تتمكن من الركوب في القطار فستفوز بالشيء الكثير.. فالعوائق مثيرة للفزع.. لكن كلما اقتربت من استانبول ستتحسن الأمور.. وستصل إلى استانبول حتى لو استغرق ذلك أسابيع.. هل تذكره؟ السفير الأمريكي.. ؟

تحسس كابرييل جيبه وأخرج ظرفاً يحمل خاتماً قانونياً وأردف « وهذا أيضاً». لقد كانت وصيته التي أعدها منذ أسابيع لجولييت دون علمها. مدها بصمت لكنها أبعدت يديها ببطء ووضعتهما وراء ظهرها. لكن كابرييل أشار إلى جبل موسى الذي كان منتصباً وكأنه ذاب في ضوء شمس الصباح القوية وقال: « يجب أن أصعد إلى هناك.. لقد بدأ العمل وأخشى أن لا أتمكن من العودة اليوم».

عادت اليد الممدودة بالرسالة المختومة إلى جانبه.« ما نوع الدموع التي تذرفها جولييت؟» وجولييت لا يمكنها التحكم بها » قال كابرييل لنفسه، « هل تبكي من أجل نفسها؟ أم من أجلي؟ هل تقول الوداع ؟ شعر بألمها لكنه لم يتمكن من تمييزه. ألقى نظرة سريعة إلى الآخرين . هؤلاء الصامتون الذين لم يجرؤوا على التنفس خشية أن يؤثروا على هذا القرار. لقد كان كابرييل يتوق إلى جولييت التي كانت تقف على بعد خطوات منه. تكلم بوضوح وبسرعة كرجل يجب أن يتكلم إلى المرأة التي يحب « كنت متأكداً أن هذه اللحظة ستأتي يوماً يا جولييت لكن لم أكن أعرف أنها ستأتي بهذا الشكل بيني وبينك ». جاء ردها غامضاً، خارجاً من أعماقها، غاضبة لكن دون أن يمزقها البكاء « وما هو إذن ذلك الشيء الذي فكرت به عني ؟ » لم يكن أحد يعرف منذ متى كان ستيفان مستيقظاً وماذا سمع من هذه المحادثة الدائرة بين والديه. استوت اسكوهي واقفة فجأة بحركة مذعورة. كانت جولييت تعرف أن العلاقة بين كابرييل وابنه كانت رصينة وعميقة. فستيفان الذي كان عادة نشيطاً ومهذاراً، يلوذ بالصمت في وجود كابرييل الذي كانت معاملته لابنه متحفظة جداً وجادة، فهما لا يتبادلان الكلام إلا لماما . ففي جميع القرى السبع هذه يقوم الأبناء على اختلاف أعمارهم بتقبيل أيدي آبائهم صباح مساء. بل حتى أن هناك بعض العائلات المتشددة لا تقوم المرأة فيها بخدمة زوجها عند وجبات الطعام بل يقوم الابن الأكبر بذلك. أما الأب فيكرم ابنه الأكبر بطريقة قاسية نوعاً ما وذلك حسب التقاليد العتيقة وذلك لأن الابن يأتي في المرتبة الثانية من سلم الخلود، وصحيح أنه بالنسبة لكابرييل وستيفان، فإن هذه العلاقة لم تعد تعبر عن نفسها بالطقوس القديمة المذكورة، إلا أنها بقيت تتسم بالخجل الذي يفصلهما ويجمعهما. وكان موقف كابرييل من ابنه مماثلاً. فهو أيضاً وفي وجود والده كان يشعر دائماً بالتحفظ والشعور بالخجل لذلك لم يجرؤ أبداً على قول كلمة لطيفة أو يحظى منه بمداعبة. لذلك كانت الصيحة التي أطلقها ستيفان عندما أدرك خطر انفصال والديه ذات أثر بعيد ورمى عنه الغطاء واندفع إلى أبيه وتعلق به «لا.. لا.. يا أبي.. يجب ألا ترسلنا بعيداً. أريد أن أبقى معك ». « إن ما سيأتي يا ستيفان ليس لعب أطفال ».

لكن صيحة ستيفان كانت بمثابة تحدّ « أريد أن أبقي معك يا أبتِ، لن أذهب » أنا، أنا! تملكت جولييت غيرة جامحة. آه أنتم معشر الأرمن! كيف تتعلقون ببعضكم، فهي نفسها كأنها لم تعد موجودة هناك. إذ أن ابنها ينتمي إليها بقدر ما ينتمي له ولن تخسره. ومع ذلك، فإذا طالبت بحقوقها فستفقد ستيفان. تقدمت خطوة حاسمة وغاضبة نحوهما وأمسكت بيد ستيفان لتشده نحوها. لكن كابرييل أدرك أن جولييت أصبحت قريبة منهما « وهكذا إذن، بماذا تفكر؟».

كان يكمن في ذلك السؤال الخبيث لمحة من عدم القرار. لكن هذه الخطوة الغاضبة كانت حاسمة بالنسبة لكابرييل فضم إليه الزوجة والابن.

-« ليساعدنا عيسى المسيح! فلعل هذه الوسيلة أفضل » وعندما جاهد لتهدئة نفسه بهذه الكلمات، سيطر عليه نوع من الذعر، كما لو أن المخلِّص الذي ناجاه قد أدى إلى إغلاق الباب أمام ستيفان وجولييت. وقبل أن يؤدي عناقه لهما إلى أي دفء حقيقي، أنزل يديه واستدار وتركهما، ثم توقف ثانية عند الباب ليقول: « على كل حال يا ماريس تستطيع أن تأخذ واحداً من أحصنتي لتقوم برحلتك ».

ابتسم كونزاك ابتسامة عريضة وقال: « أتقبّل لطفك بامتنان كبير ولكن لي طلب آخر. أريد منك أن تأذن لي بأن أشاطركم حياتكم على جبل موسى فلقد تحدثت بهذا الشأن مع كريكور وقد استأذن دير هايكازون وقبل ». فقال باكراديان: «أظن أنك تدرك جيداً أن جواز سفرك الأمريكي لن يفيدك في شيء بعد الآن ».

- « لقد عشت هنا لفترة طويلة يا كابرييل باكراديان وأصبحت أجد في تركككم صعوبة كبيرة. كما أني صحفي كما تعرف ويمكن أن لا أحظى بفرصة ثانية كهذه». شيء ما في كونزاك أوحى لباكراديان إحساساً بالعداوة بل بالنفور منه. وحاول أن يفكر بطريقة يرفض فيها طلب هذا الشاب. « المسألة هي هل سيكون بإمكانك الحصول على فرصة الإفادة مما تكتبه ؟ ».

لم يوجه كونزاك جوابه إلى كابرييل فقط بل إلى جميع الناس الموجودين في الغرفة:« لقد وجدت في أحيان كثيرة أنني أستطيع أن أعتمد على حدسي وأنني أكاد أكون متيقناً بأن الأمور ستنتهي على نحو جيد. إنه مجرد شعور لكنه نوع من الإحساس الذي يمكنني أن أثق به ». وانتقلت عيناه المخمليتان اليقظتان من أوسانا إلى اسكوهي ثم إلى جولييت اللواتي كن يتطلعن إليه، وبدا أن عيني كونزاك تسألان مدام باكراديان أليست كلماته مقنعة ؟..

7 - جنـازة الأجـراس

أمضى كابرييل على قمة الداملاجيك يومين بليليتيهما. وفي أمسية اليوم الأول أرسل إلى جولييت يعلمها أن لا تنتظره. إذ أنه مرغم، لظروف معينة، على البقاء هناك. وللمرة الأولى عرف وجه الجبل الحقيقي. فكل شيء متوافر على الأرض، وليس الإنسان وحده، وتظهر حقيقته عندما تدعو الحاجة إلى ذلك. وهكذا كان الداملاجيك، وكانت الأرض التي اختارها كابرييل أرضاً مسطحة تبلغ مساحتها عدة كيلومترات مربعة، تتخللها تلال صاعدة هابطة قاسية. ولم يشأ كابرييل أن يضيع الوقت والجهد في النزول إلى الوادي، ولم يشعر في حياته قط أنه يتمتع بمثل هذه القوة. إن المرء عبارة عن مادة إنسانية تدفعها قوة طبيعية إلى الأمام عند الإحساس بالخطر. فقد كان كابرييل في السنوات القليلة الماضية يعاني من آلام في معدته، لكنه لم يعد يشعر بهذه الآلام، حتى أن لم يعد يشعر أنه له معدة أو قلباً، وببساطة لم يلحظ بأن نوم ثلاث ساعات فوق أو تحت بطانية كان يكفيه تماماً وأن قطعة من الخبز وأي نوع من الطعام المعلب يمكن أن يقيم أوده طوال النهار. ولكن بالرغم من ذلك فلم يفكر كثيراً بذلك. وهذا الشعور بأنه حقاً رجل قوي ملأه بالفخر والإعتزاز.

وكان عقل كابرييل مشغولاً بشيء آخر. إذ أن معظم هؤلاء الرجال الذين آلوا على أنفسهم أن يصبحوا مقاتلين قد تجمعوا على الجبل مع بضعة نساء قويات وعدد من الصبيان نصف البالغين لاستخدامهم كعمال. أما باقي الناس فقد بقوا في الوادي حيث كانت تسير الحياة بشكل هادئ لكي لا تنشر شائعات عن مغادرة السكان لقراهم. وقد أخذ هؤلاء القرويون على عاتقهم حمل ما بوسعهم من المؤن إلى الجبل تحت جنح الظلام. لم يكن بالإمكان حمل كل ذلك على ظهور البغال. فمثلاً كان على العمال حمل القضبان والدعامات الموجودة في ورشة توماسيان العجوز على أكتافهم، وكان كابرييل في حاجة إلى ممثلي الشعب الشباب على قمة الداملاجيك وعلى رأسهم القس توماسيان والمعلمون في حين تابع المجلس العام برئاسة دير هايكازون أعماله في الوادي.

في ذلك الوقت كان يعسكر حوالي خمسمائة رجل في الداملاجيك. وعندما كانوا يجتمعون في الليل حول نار المعسكر وقد هدهم التعب، كان القس آرام يشرح لهم المعنى الحقيقي لهذه المقاومة، وكان يتحدث عن الحق الإلهي في الدفاع عن النفس وتاريخ الأرمن على مر

العصور، وعن قيمة هذه المحاولة الشجاعة واتخاذها كمثال يمكن أن يثير حماس بني جلدتهم للمقاومة وإنقاذ أنفسهم. وأخذ يصف لهم الأعمال الوحشية التي تلاقيها القوافل وذكر لهم ما رآه وسمعه، وأكد لهم أن العمل العظيم الذي توحدوا من أجله هو الأسلوب الوحيد لنيل حرتيهم وإحراز النصر. ومن المؤكد أنه لم يوضح لهم كيف بإمكانهم إحراز حريتهم هذه. كما لم يسأله أحد عن ذلك. فقد كان سماع تلك الكلمات العاصفة كافياً لإثارة دماء هؤلاء الشباب أما المعاني التي تكمن وراءها فلم تكن تهمهم في شيء.

وفي بعض الأحيان كان كابرييل أيضاً يتحدث إلى هؤلاء الرجال. ومع أنه كان أقل قدرة على إلقاء المواعظ إلا أنه كان أكثر دقة. فقد كان يحثهم على عدم إضاعة أية لحظة من وقتهم وألا يأكلوا لقمة غير ضرورية. ويجب أن يصبوا كل اهتمامهم على الهدف الواحد وأن يفكروا بالمصير المحتوم السيء أقل من تفكيرهم بالألم والمهانة التي كان يلحقها الأتراك برعاياهم الأرمن. وقال إنه إذا ما تمكنا من دحرهم إلى أسفل الجبل، فلن نكون قد أزلنا هذه المهانة ، بل نكون قد لقنا الأتراك درساً لن ينسوه إلى الأبد. ومهما كان الشيء الذي يدور في عقل كابرييل وآرام فقد ظلا يلحان على نتائج المقاومة المجيدة وهما يشحنان النفوس الشابة السريعة التأثر بالمعتقدات التعصبية. ونجح كابرييل في الساعات القليلة الأولى في تشكيل أكثر الفرق قدرة في جيشه، فهي العمود الفقري للتعزيزات التي سيتم تشكيلها. كما شكل ثلاث فرق رئيسية: فرقة مقاتلة، وفرقة احتياطية وفرقة مؤلفة من صغار الشباب الذين تتراوح أعمارهم بين الثلاثة عشر والخمسة عشر، وذلك لاستخدامها كملاذ أخير في حال تكبدهم خسائر جسيمة، بالإضافة إلى عملهم كفرقة استطلاع واتصالات. وقد بلغ عدد القوة الكاملة لهذا الخط الدفاعي ثمانمائة وستين رجلاً. وكان هؤلاء يؤلفون الرجال الأقوياء والذين تتراوح أعمارهم بين السادسة عشرة والستين، أما الاحتياط فقد كانوا يشكلون جميع المسنين القادرين على العمل ونسبة محدودة من الفتيات والنساء- وهكذا فقد أصبح عدد قواته يتراوح بين ألف وألف ومائة شخص . أما الفرقة الثالثة، وهي فوج الكشافة فقد كانت تتألف من أكثر من ثلاثمائة صبي . وفي اليوم التالي ، أرسل كابرييل أفاكيان إلى الوادي لإحضار ستيفان حيث سجله في قائمة الكشافة. ومن بين الثمانمائة وستين رجلاً الذين يشكلون قوام الدفاع الرئيسي ، لم يكن بالإمكان تسليح أكثر من ثلاثمائة رجل ببنادق المشاة التي يمتلكونها. ومن سوء الحظ فقد كان معظمهم يملك بندقية صيد أو بندقية زناد التي كانت متوفرة في كل منزل ريفي تقريباً.

وأمر كابرييل بتوزيع جميع البنادق الصالحة التي كانت موجودة في صناديق أخيه. ولحسن الحظ كان معظم الرجال وليس فقط أولئك الذين خدموا في الجيش التركي يعرفون كيفية استخدامها. وهكذا فقد تم تسليح خط الدفاع الرئيسي. وقسّم كابرييل القوة الدفاعية الرئيسية إلى فصائل تتألف كل واحدة منها من عشرة رجال لكي تتمتع بسرعة الحركة، كما حرص على أن يكون الرجال العشرة من كل فصيلة ينتمون إلى نفس القرية بل وإن أمكن إلى نفس العائلة. وقد واجهت القيادة صعوبة في اختيار قائد للفصيلة وحرص كابرييل على اختيار هؤلاء من الذين

أدّوا الخدمة العسكرية في الجيش النظامي. وتولى نورهان قيادة الفرقة كما أنيطت به مسؤولية العتاد. وبدا أن نورهان يشعر بالامتنان العميق للأرمن، الأمر الذي أتاح له الفرصة لإبراز مواهبه العسكرية. وعكف على تدريب هؤلاء الرجال دون أن يترك لهم مجالاً للراحة. وكان جل اهتمامه يتركز على المناورات العسكرية، والتمركز السريع وكيفية استخدام الأرض والهجوم المفاجيء. وكان نورهان الكهل يجري من سرية إلى أخرى لكي يعطي مدرب الفصيلة تعليماته بصوت عال.

وفي اليوم الأول بدأ جميع الفارين الموجودين على جبل موسى يلتحقون بالحامية وأصبح عددهم في خلال الأيام القليلة التالية ستين رجلاً. وبدا أن صوت نورهان المرتفع قد جمع هؤلاء الشبان من التلال المحيطة من جبل الأحمر وجبل الأقرع. وكان يراود كابرييل شعور مزدوج نحوهم فقد كانوا مسلحين بشكل جيد وهذا جيد لدعم تعزيزاته، إلا أن هؤلاء الرعاع كانوا مزيجاً من العصاة- الجبناء والمتنمرين على الضعفاء والذين لا يلتزمون بالنظام - والعناصر الشريرة. كما كان بينهم المحتالون من قطاع الطرق الذين يبدو أنهم هربوا من سجن باياس وليس من ثكنات أنطاكية وحلب واسكندرونة. وكان من الصعوبة بمكان التمييز بين الصالح والطالح بين هؤلاء. وكان كابرييل قد حدد ثلاث عشرة نقطة مختلفة يحتمل أن يتم تهديد الداملاجيك منها. وكانت أكثر النقاط المعرضة للهجوم تقع في الشمال، تلك الفجوة الضيقة التي دعاها كابرييل (المواقع الشمالية) والتي كانت تفصل الداملاجيك عن بقية أجزاء جبل موسى المبعثرة باتجاه بيلان. أما النقطة الثانية والأكثر خطراً فكانت ذلك الممر الواسع المطل على يوغونولوك فوق غيطة شجر البلوط. أما المناطق الخطرة الأخرى فكانت تقع على الأطراف الغربية من الجبل حيث السفوح فيها أقل انحداراً، وحيث كانت قد شكلت القطعتان فيها ممرات طبيعية نتيجة مرورها فوقها. وكانت النقاط المختلفة عبارة عن صخور شاهقة تقع إلى الجنوب وسميت (التحصينات الجنوبية) التي تمتد على المنحدرات الصخرية الواسعة من سهل العاصي على شكل مصاطب ناتئة، وفي السهل، أسفل تلك الصخور، كانت توجد بقايا حضارة بائدة وهي آثار سلوقية الرومانية. وبإشراف صامويل أفاكيان وتوجيهات باكراديان أقيم ستاران عاليان من الصخور الكبيرة والجلاميد على جانبي هذا المنحدر. وانهمك كابرييل مع بقية الرجال في حفر الخندق الطويل الذي بلغ طوله عدة مئات من الأمتار.

عندما حلّ المساء، استلقى كابرييل على التراب وهو منهك، وراح يحدق بهيكل المصلّى الذي لم يكتمل نصبه بعد. وبينما كان مغمضاً عينيه نصف إغماضة شعر بأن ثمة شخصاً ما يحدق به. سركيس كيليكيان ذلك الفار الذي لم يكد يبلغ الثلاثين من العمر. كان جلد وجهه النحيف الأسمر مشدوداً، وصدغاه بارزين. ومع أن بذته كانت ممزقة شأن بذات رفاقه الفارين، إلا أنها كانت تعطي انطباعاً بالأناقة، ولعل ذلك يعود إلى أنه كان الوحيد حليق الذقن. سرت في جسد كابرييل قشعريرة ونهض واقفاً. ثم رمى بلفافة إليه فتلقفها كيليكيان دون أن ينبس بكلمة، وأخرج علبة قداح قديمة فأخذ بقدحها وأخيراً وبعد محاولات يائسة أشعل لفافته وراح ينفث

دخانها بلا مبالاة وكأنه معتاد على هذا النوع من السكائر. وراح الاثنان يحدقان ببعضهما مرة أخرى بصمت مشوب بالقلق ولم يحول كيليكيان الذي كان يدعى «الروسي» عينيه اللامباليتين المزدريتين عن يدي باكراديان البيضاوين.

لم يعد كابرييل قادراً على احتمال تلك النظرة فزمجر قائلاً: «حسناً ماذا تريد ؟» نفث سركيس كيليكيان لفافته وأخرج سحابة كثيفة من الدخان. كانت عيناه ما تزالان مثبتتين على يدي كابرييل، وبدا أنه مستغرق في تفكير عميق. وأخيراً فتح فمه ذا الشفتين الرقيقتين وافترتا عن أسنان سوداء تالفة. وكان صوته مشوباً بالكراهية «إن هذا الشيء لا يليق بسيد محترم كهذا». قفز كابرييل على قدميه وفكر في الرد عليه بشكل جارح، لكنه لم يحر جواباً. أما الروسي فقد أدار ظهره ببطء إليه وقال وكأنه يكلم نفسه بلهجة فرنسية جيدة: «لنرى كم بإمكانك أن تحتمل».

في تلك الليلة وبينما كان المقاومون متحلقين حول نار المعسكر، استفسر كابرييل عن أمور عديدة تتعلق بسركيس كيليكيان الذي كان ذائع الصيت في المنطقة المحيطة بجبل موسى. ومع أنه لم يكن من الفارين المحليين فقد كان الدرك يتوقون للإمساك به. وراح شاداخيان يروي لكابرييل قصة ذلك الروسي. وكاد كابرييل أن يشك بأن شاداخيان كان يروي قصصاً مثيرة من خياله الخصب لجعل سيرته شائقة، إلا أن الجاووش نورهان الذي كان جالساً بجانبه كان يهز رأسه موافقاً على كل شيء.

ولد سركيس كيليكيان في دورت يول، وهي قرية كبيرة تقع في سهل إسوس شمالي اسكندرونة. وعندما بدأت المجازر في زمن عبد الحميد في الأناضول وكيليكيا كان في الحادية عشرة من عمره. وكان والده ساعاتياً وصائغاً. رجل قصير هادىء ميسور عاكف على تربية أولاده الخمسة بشكل جيد، ولأنه كان ميسور الحال فقد أراد أن يصبح ابنه الأكبر سركيس قسيساً. في ذلك اليوم الأسود الذي حل بدورت يول، أغلق كيليكيان الساعاتي محله باكراً عند منتصف النهار. لكنه ما كاد يجلس إلى مائدة الطعام حتى انقضت مجموعة من الرعاع على باب المحل. وكانت السيدة كيليكيان القوقازية ممشوقة القامة شقراء الشعر. وما كادت تحضر الصحون حتى نهض زوجها الذي أصبح وجهه شاحباً ليفتح باب الدكان. وانطلق سركيس في أثر والده إلى الدكان الذي اكتظ بالرجال، مجموعة من قوات الصاعقة التابعة للسلطان عبد الحميد. وكان قائد المجموعة شاباً مورد الوجه، ابن أحد المسؤولين. وكان الشيء الملفت للنظر في هذا الشاب التركي الميداليات والنياشين الكثيرة الغريبة المبعثرة هنا وهناك على صدره. بينما واصل رجاله الأكراد عملهم بإفراغ محتويات الدروج في أكياس ثم زمجر الشاب في وجه الساعاتي: «إنك مرابي وتقرض النقود. جميع الأرمن الخنازير مرابون ومقرضون للمال. أنتم أيها الخنازير القذرون مسؤولون عن تعاسة شعبنا».

أشار المعلم كيليكيان بهدوء إلى الطاولة التي يعمل عليها، وعليها منظار وملقط ونوابض وقال: «ولماذا تدعوني مرابياً ؟».

- « كل الموجودات هذه تستخدمها لتتستر على مصك للدماء ».

ولم يستمر النقاش أكثر من ذلك، إذ سرعان ما انطلقت رصاصات في الغرفة الضيقة الواطئة. وللمرة الأولى في حياته شم المعلم سركيس رائحة البارود المنبعثة من البندقية. وفي البداية لم يفهم كنه ما حدث عندما شاهد أباه ينحني فوق طاولته ويسقط معها على الأرض . ودون أن ينبس بكلمة انسحب سركيس إلى البهو. ووقفت أمه الشقراء واجمة وظهرها للحائط ولم تجرؤ على التنفس، وكانت تضم إليها ابنتيها الصغيرتين البالغتين من العمر سنتين وأربع سنوات، وكانت عيناها مثبتتين على المهد الذي يستلقي عليه وليدها. وكان ميسروب البالغ من العمر سبع سنوات يحدق بجشع إلى قطعة الكباب التي كانت لا تزال على الطاولة. ولكن عندما أطبق الرجال المسلحون عليهم، أمسك سركيس أحد الصحون ورماه في الهواء فأصاب وجه قائدهم المنتفخ الوردي. وأطلق الشاب صيحة في الهواء، وكأنه أصيب بقنبلة يدوية. وتناثر مرق اللحم على ثيابه ثم تبعه الإبريق الفخاري. وبدأ الدم يسيل من أنف زعيم المجموعة، لكن ذلك لم يمنعه من حث رجاله بصيحات مجنونة. ووقف سركيس الصغير وهو يحمل سكين مطبخ أمام أمه لحمايتها. ورمى أحدهم بنفسه بسرعة وجبن على المهد وخطف الطفل الذي كان يطلق صيحاته في الهواء وهشم جمجمته بالحائط. دفن سركيس وجهه في جسم أمه الذي تشنّج ثم بدأ سيل الطلقات المنبعثة من المسدسات العديدة ينهال على المرأة والأطفال الأربعة. وغطت الغرفة سحابة كثيفة من الدخان. إلا أن سركيس لم يصب بأية رصاصة، وكان أول من لقي حتفه ميسروب البالغ من العمر سبع سنوات. وتعلق جسد الفتاتين الصغيرتين وهما متدليتان في ذراعي أمهما التي ظلت ممسكة بهما. كان وجهها المستدير المكتنز صلباً جامداً.وأصابت إحدى الرصاصات ذراعها اليمنى ثم ثقبت رصاصتان كتفيها. كانت لا تزال منتصبة ومتمسكة بطفلتيها. وعندما أصابت رصاصتان أخريان وجهها سقطت إلى الأمام وانحنت فوق سركيس الذي كان ما زال متشبثاً بها وأخذ الدم المنساب من أمه يتدفق فوق شعره وغطته بجسدها وبقي ساكناً تحت جسد أمه الدافىء الذي كان يتنفس بصعوبة لكنه لم يعد يتحرك أبداً. وثقبت أربع رصاصات أخرى الحائط. وشعر قائد المجموعة بأنه أنجز مهمته بنجاح وصاح « تركيا للأتراك ». بينما كان سركيس مستلقياً وكأنه في رحم أمه، كانت أحاسيسه متوفزة بشكل غريب. وتناهت إليه أصوات جعلته يستنتج أن قائدهم كان يسلك بشكل يثير الاشمئزاز من أحد أركان الغرفة. وسمع أحدهم يعنفه: « لماذا فعلت ذلك ؟ فها هنا أموات ». لكنه رفض أن يعنفه أحد من أجل المبدأ الوطني وقال: « حتى لو كانت جثثاً فيجب أن تعرف أننا نحن السادة وهم القذرون ».

وبعد فترة من السكون المطبق، جرؤ سركيس الذي كان مستلقياً تحت أمه وقد غمرته الدماء على التسلل من تحتها وبدا أن هذه الحركة قد أعادت لأمه وعيها. وكان وجهها قد تشوه، لكن صوتها كان هادئاً جداً « أحضر لي ماءً يا ولدي ». وبما أن الإبريق كان قد انكسر تسلل سركيس وبيده كأس إلى بركة الماء في الساحة. وعندما عاد كانت ما تزال تتنفس لكنها لم تقدر على الشراب أو التكلم ثانية. بعدها أرسل الصبي ليعيش مع بعض أقارب والده الأثرياء في اسكندرونة،

وبعد مضي اثني عشر شهراً بدا أن الأمور قد أخذت تسير سيراً حسناً رغم أنه نادراً ما كان يأكل أو يتحدث. وكان المعلم شاداخيان يعرف كل هذه المعلومات لأن العائلة التي عاش سركيس في كنفها هي نفسها التي كانت تمول دراسته في سويسرا. ثم أرسلت تلك العائلة سركيس إلى أكبر معهد لاهوتي أرمني في ايتشميادزين في روسيا. وكان يتوخى من بين تلامذة هذا المعهد الشهير أن يتبوأ أعلى مناصب الكنيسة الغريغورية، لكن سركيس كيليكيان الذي نما فيه توق شديد إلى الحرية هرب من الدير ولما يكمل سنته الدراسية الثالثة وهو في الثامنة عشرة من عمره وراح يتسكع في الحارات القذرة في باكو وهو لا يملك شيئاً سوى الثوب الذي منحه إياه الدير. ومنذ يوم هروبه من ايتشميادزين فقد أولئك الذين تولوه بالرعاية أي أثر له. ولم يعد أمام سركيس كيليكيان الآن سوى البحث عن عمل. وبالفعل وجد عملاً في حقول النفط الضخمة على طول الشواطىء الجرداء لبحر قزوين. لكنه بعد أشهر قليلة جداً، وبتأثير النفط والغازات الطبيعية أصبح جلده أصفر وبدا منكمشاً. وبدأ جسده يجف وكأنه شجرة يابسة. وإذا أخذنا بالاعتبار طبيعته والكتب التي دأب على قراءتها فلا نستغرب انضمامه إلى الحركة الثورية الاجتماعية التي بدأت في تلك الأيام تستحوذ على أفكار عمال الروس في الشرق الأدنى: الجورجيون والأرمن والتتر والتركمان والفرس. ومع إن حكومة القيصر كانت قد بذلت ما بوسعها لإثارة تلك الشعوب ضد بعضها البعض فإنها لم تنجح في كسر تضامنها ضد ملوك النفط. وأخذت الاضطرابات تزداد انتشاراً ونجاحاً سنة بعد سنة. وفي إحدى تلك السنوات حدثت اضطرابات دموية عنيفة واغتيل حاكم المنطقة الأمير كاليتزين الذي كان يقوم بزيارة اطلاعية. وكان سركيس كيليكيان من بين المتهمين بالتآمر. لكنه لم يثبت ضده شيء. إذ لم يكن يلقي خطباً ولم يكن يعمل بالنشاطات السرية. ولم يتمكن أحد من تقديم بينة ضده، وكان يكفي أنه كان هارباً من الدير لذلك حكم على سركيس كيليكيان بالسجن المؤبد في سجن باكو. ولو لم يخبئ له القدر أشياء كثيرة لكان قد لقي حتفه بعد فترة وجيزة في ذلك الجحر المليء بالأقذار والأمراض. فقد حل الأمير فورونتسوف محل كاليتزين المغدور. وسرعان ما قدمت أخت الحاكم الجديد التي كانت عازبة لتعيش معه في مقر الحكومة في باكو. وكانت الأميرة فورونتسوفا تصرّ على أن تبقى عازبة وكان من عادتها أن تجري اصلاحات كبيرة في كل المناطق التي يتسلم فيها أخوها الحكم. وكانت عيناها أينما كانت تذهب تتجه نحو السجون مباشرة عملاً بقول أحد الشعراء الروس الذي يقول إن أقرب شيء إلى مملكة الله وكر اللصوص . وفي السجون كان يقبع شبان مثقفون وسياسيون أثاروا اهتمامها. وأصبح سركيس كيليكيان يتجه في صباح كل يوم إلى الثكنات الخاوية مع عدد آخر من المسجونين حسب إرشادات فورونتسوفا وذلك بهدف إصلاحهم. وكان برنامج إصلاحهم يتكون من تمارين رياضية ومن محاضرات أخلاقية. ورأت الأميرة في هذا الأرمني الشاب الجذاب الشيطان بعينه، فشاركت بنفسها في إصلاحه، وبدأت الأميرة تستلطفه. وظهر ذلك بنزع سلاسل الحديد عنه وانتهى بنقله من السجن إلى غرفة صغيرة فارغة في إحدى الثكنات. لكنه لم يعبأ هذه المزايا التي منحت له، إذ اختفى في صباح اليوم الثالث من انتقاله من السجن إلى مكانه الجديد.

ولكن إلى أين يمكن للمرء أن يهرب من القوقاز الروسية سوى إلى القوقاز التركية. ولم يمض شهر على هربه حتى أدرك كيليكيان سلوكه الطائش وأنه رحل إلى جهنم وترك الجنة. وأخذ يبحث عن عمل في أرضروم، لكن الشرطة سرعان ما ألقت القبض عليه لأنه لم يحضر لإجراء الفحص الطبي ولم يدفع البدل فحكم عليه القاضي بالسجن مع الأشغال الشاقة لمدة ثلاث سنوات بجرم الفرار من الخدمة. وأطلق سراحه في الأشهر الأخيرة قبل اندلاع الحرب. ومع أن الطبيب العسكري اعتبره غير لائق للخدمة، فقد أُلحق كيليكيان بكتيبة مشاة أرضروم. وفي الشتاء الأول من الحرب، شاركت كتيبته في حملة أنور باشا الشهيرة إلى القوقاز حيث لقي هزيمة نكراء على يد الروس. وكانت الفرقة التي غطت انسحاب فلول الجيش وأنقذت حياة أنور مؤلفة بشكل كامل تقريباً من الأرمن. وقد حمل أحد الجنود الأرمن ذلك القائد على ظهره بعيداً عن خط الجبهة. وقاتل كيليكيان إلى جانب هؤلاء الشجعان وسرعان ما عبّر أنور عن شعوره بالإمتنان العميق للشعب الأرمني. وسرعان ما نقل سركيس إلى إحدى الثكنات وتلا عليهم الضابط قرار وزير الحربية بطرد الأرمن من فرقهم بشكل مزري وتجريدهم من السلاح ونقلهم إلى فرق السخرة. ثم اقتيدوا إلى التلال المجاورة لأورفة في الجنوب الغربي وهناك تعرضوا لحملة تجويع شديدة وكلفوا بنقل الأحجار الثقيلة لبناء طريق باتجاه حلب. وفي أحد الأيام استدعى الكابتن جميع رجال فرقة السخرة الأرمن واقتيدوا برفقة ضابط إلى مسير ساعة تقريباً حيث أخذوا إلى وادٍ يقع بين تلتين. وفجأة وجد هؤلاء أنفسهم في مواجهة فصيلة مسلحة وبدون سابق إنذار فتحت الفصيلة النار على الجانب الأيمن من الصف وملأت الصيحات السماء. (عندها قاطعت امرأة من بين المستمعين الأستاذ شاداخيان: « وهل يمكن لله وملائكته نسيان هذه الصرخات ؟ » وأجهشت بالبكاء لكنها ضبطت نفسها بصعوبة). وكان سركيس من الذكاء بحيث رمى نفسه مع الآخرين وانطلقت الرصاصات من فوقه. وللمرة الثانية نجا من موت محقق على يد الأتراك. واستلقى بين الجثث حتى حلول الظلام. ومنذ تلك الليلة بدأ جولاته الموحشة متخفياً يقطع البوادي والسبخات. وكان يقتات بكل ما تقع عليه عينه من الأعشاب. ووصل كيليكيان إلى دورت يول في أوائل نيسان وتوجه إلى منزل أبيه الذي غادره منذ عشرين عاماً.

وبقي المنزل وفياً لصنعة أبيه إذ كان يعيش فيه ساعاتياً وصائغاً أيضاً. حيث مكث يومين ثم غادر بعد أن حصل له الساعاتي على بارودة وبعض الطلقات وسكين تحت جنح الظلام. وبعد عدة ليال قابل فارين آخرين في قرية كوي ميدان ونصحاه بالصعود إلى جبل موسى. هذه هي قصة «الروسي » سركيس كيليكيان كما رواها المعلم شاداخيان وأيده فيها الجاووش وبعض الأشخاص الآخرين الذين ظلوا صامتين. ولم يكن بوسع الأوروبي سوى أن يكون مشدوهاً لهذا المصير المليء بالآلام. وفي تلك الليلة، وبعد مداولات مطولة مع الجاووش نورهان قرر كابرييل تكليف الروسي والفارين الآخرين بالدفاع عن «المعقل الجنوبي » الذي كان أقوى جزء من التحصينات وأكثرها بعداً عن المخيم.

وفي صبيحة اليوم الثالث عاد الجميع إلى قراهم ولم يبق في الداملاجيك سوى عدد قليل من

الحراس لحراسة مخازن الذخيرة. وكان دير هايكازون قد أصدر القرار بالعودة إذ يجب ألا يجد الدرك الذين سيأتون للبحث عن الأسلحة بيوتاً خاوية وذلك لأنه لا يمكن التستر عن غياب ملحوظ لشبان القرية بمجموعة نوخوديان في بيتياس . وفي الساعة التي كان حددها علي ناصيف دخل ما يقرب من مائة دركي إلى يوغونولوك . وكانت جماعة الاتحاد قد تمكنت من بث الكراهية والتعصب الديني في نفوس هؤلاء الدرك الذين يشكلون فرقة الترحيل بقيادة قائد شرطة أنطاكية. وانبث المنادون في شوارع القرية وهم يقرعون الطبول. ولكن على الرغم من ذلك بقي الأرمن قابعين في بيوتهم. وكان دير هايكازون قد أصدر أوامر صارمة للقرى السبع بعدم الظهور قدر الإمكان وعدم السير في أماكن يمكن إثارة الاستفزاز فيها وتلا المدير الشاب قرار النفي على مجموعته من رجال الدرك، بينما كانت النوافذ مغلقة في ساحة الكنيسة. كما علق الأمر في أماكن عديدة على جدران الكنيسة وعلى مبنى المجلس والمدرسة.

كان الهدوء الذي يسود الساحة غريباً وغير طبيعي. وفجأة انقطع هذا السكون الموحش. فقد انقض قائد الشرطة على قروي لم يراع الأوامر فخرج إلى باب داره. وألقي بالرجل في وسط الساحة. وكانت عينا قائد الشرطة مختلفتين تماماً إذ كانت عينه اليمنى كبيرة جاحظة واليسرى تكاد تكون مغلقة. وكان شاربه خفيفاً وذقنه ناتئة وراح يزمجر في وجه القروي الأسير:

- « ما هو اسم قسيسكم؟ ما هو اسم مختاركم ؟ » فصمت القروي وسرعان ما انطلقت أصوات تنادي في الساحة:

- «مرحباً هايكازون. اخرج من مخبئك. اخرج يا كبوسيان .. اخرجا يا هايكازون وكبوسيان».

انتظر دير هايكازون النداءات داخل الكنيسة. فبعد القداس ظل جاثياً أمام المحراب ولما يخلع ثوبه بعد. فقد أراد أن يواجه الدرك وهو في سموه الروحي. ولم يكن ذلك ينطوي على تعبير فارغ، فنفوس الشرقيين تمتلئ بالأحاسيس المقدسة الجليلة عند ممارسة طقوسهم الدينية. فقد حدس دير هايكازون أن ظهوره أمام الدرك وهو بلباسه الديني سيخفف من وحشيتهم. وبيطء خرج من باب الكنيسة وهو موشى باللون الأحمر والذهبي وكان يرتدي على رأسه تاج الأسقف ويحمل بيده اليمنى الصولجان حسب الشعائر الأرمنية. وبالفعل فقد أدى هذا المشهد المقدس إلى تهدئة غضب قائد الشرطة الذي فقد صوته الأجش بعض حدته.

- « هل أنت الكاهن. ستكون مسؤولاً أمامي عن كل شيء يحدث هنا. كل شيء هل تفهم؟ ». أمال دير هايكازون وجهه كرد على كلامه، حنى رأسه ولم يحر جواباً. وشعر رئيس الشرطة أنه في خطر لكونه متساهلاً. وبدأت عينه اليسرى المتورمة ترف بشدة وقد انتابه الغضب وشعر أنه آن الأوان ليذكر المدير ورجاله من الدرك وهذا الكاهن بسلطاته القوية، فاندفع تجاه دير هايكازون وقد أحكم قبضته، ولكنه وجد أن عليه أن يتوقف.

– « يجب أن تسلموا كل أسلحتكم – كلها؟ هل تفهم ؟ يمكنك أن تبدو كحاو غريب الشكل كما يحلو لك لكنك ستكون مسؤولاً شخصياً عن كل مدية موجودة في القرية ».

– «لا يوجد لدينا أسلحة في القرية» قالها دير هايكازون بهدوء وثبات. وفي غضون ذلك كان يجري شيء غريب في بهو منزل المختار. وانتهى الأمر بخروج كاتب القرية العجوز الملتحي من الباب الذي أوصد وراءه بسرعة. وبهذه الطريقة البدائية وفي هذه اللحظة الحرجة والصعبة من فترة ولايته كمختار، عين المختار كبوسيان كاتبه مختاراً مكانه. وتقدم المختار المنكود الحظ وهو يتعثر بين أيدي الدرك الذين قذفوا به إلى قائدهم وردد الكاتب صدى دير هايكازون «لا يوجد لدينا أسحلة». شعر قائد الشرطة بالارتياح لدى رؤية المختار وهو يرتعش ويتأتئ . فقد منحه ذلك شعوراً بالقوة، فسحب سوطاً جلدياً من يد أقرب دركي وساط به في الهواء « سيكون الوضع أسوأ لكم إذا لم يكن لديكم أسلحة». هنا وللمرة الأولى تدخل المدير ذو الشعر الأحمر. وكان هذا الشاب القادم من سلانيك حريصاً على أن يرى رجل الدين المسيحي هذا. كم هو شاسع الفرق بين أمثاله وبين أمثال رئيس الشرطة السيء الطبع . فلم يكن الاتحاد يحتمل فكرة المجازر التي أصبحت بائدة العهد. لذلك كانت الوسائل التي يسعها أكثر رقة وتمدناً. أليس هو متحضراً ويكره حمامات الدم التي جرت في الماضي. وكان يفتخر بأنه يمتلك أعصاباً قوية. استدار إلى دير هايكازون وقال:«هل تعرف ماذا قررنا أن نفعل بكم ؟ ». نظر القس في وجهه بثبات لكنه لم يحر جواباً. ثم أشار المدير وقد انتابه شيء من الارتباك إلى لافتة وقال: « لقد قررت الحكومة أن ترحّلكم وقد خصصت لكم منطقة أخرى لتعيشوا فيها».

– « وأين هي تلك المنطقة ؟».

– « هذا ليس من شأنك أو من شأني. فمهمتي تنحصر في جمعكم ومهمتكم هي بكل بساطة أن تسيروا حيث نقودكم ».

– « ومتى يبدأ المسير ؟ ».

– «إن الوقت الذي سيمنح لكم لجمع حاجاتكم وتجهيز أنفسكم لبدء المسير سيتوقف على طريقة سلوككم».

وتمكن الآن كاتب القرية ضبط نفسه وسأل بصوت مستجدٍ: « وماذا يسمح لنا أن نأخذ معنا يا أفندي ».

– «كل ما يمكن للمرء حمله بنفسه على ظهره أو بيده فقط. وكل ما تبقى: حقولكم وحدائقكم وأملاككم من الأراضي ومنازلكم مع الأثاث وممتلكاتكم المنقولة وغير المنقولة ستؤول إلى الدولة بموجب مرسوم وزاري صادر في الخامس عشر من نيسان من هذا العام القاضي بتخصيص أملاك جديدة لكم بدل الأماكن التي اخليتموها. ويجب على كل مالك أن يبرز وثيقة بممتلكاته لكي يحصل على بديل لها من الحكومة بشكل قانوني. ويجب أن يلصق على هذه الوثيقة طابع بقيمة خمسة قروش. ويمكن الحصول على هذه الطوابع من مقر قيادة شرطة الناحية».

ثم رفع أصبعه وأردف: « سيكون من الأفضل لكم جميعكم أن تتفادوا إحداث أي اضطراب بقدر الإمكان - وعدم تخريب أية ممتلكات وتسليمها بحالة سليمة وكاملة إلى الدولة».

فتح دير هايكازون يديه ومدهما باتجاه هذا الدبلوماسي السلانيكي وقال: «لا نريد أن نحتفظ بأي شيء يا حضرة المدير، فما نفعها بالنسبة لنا؟ خذوا ما تجدونه فأبوابنا مشرعة».

بدأت لهجة المدير الهادئة تثير حنق قائد الشرطة الذي اعتبر أن ذلك يؤدي إلى تقويض سلطته. فهو رئيس الحملة وما هذا الشاب إلا مجرد مساعد أرسله القائمقام. وشعر أنه إذا ما سمح له بأن يستمر بهذه اللهجة فلن يصدق أحد بأنه هو رئيس شرطة مدينة أنطاكية. فتح عينيه بشكل واسع واقترب خطوتين من دير هايكازون وقد تميّز غضباً فأمسكه من كمه وقال: الآن سأحصل على ستمائة بندقية ويجب أن أراها مكدسة أمامي هنا، هل تفهم ؟ ».

نظر دير هايكازون بإمعان إلى المكان الذي أشار إليه قائد الشرطة لتكديس البنادق، وفجأة رجع خطوة إلى الوراء واستدار بسرعة وقال: « قلت لك إنه لا توجد بنادق في القرى ».

ابتسم المدير. فقد شعر أنه جاء دوره الآن لكي يحصل على ما يطلبونه دون صياح وتحديق بل بطرق سياسية ماكرة. وقال وكأنه يحاول أن يعطي الأرمني عذراً:« منذ متى وأنت كبير القساوسة في القرية إذا ما غفرت لي سؤالي يا دير هايكازون ؟ ».

لكن هذا اللطف المفاجيء والغامض جعل دير هايكازون حذراً وأجاب بلطف: « في الخريف المقبل يكون قد مضى علي خمسة عشر عاماً».

- « خمسة عشر عاماً ؟ » انتظر.. إذن في عام الثورة الكبرى يكون قد مضى عليك في يوغونولوك ثماني سنوات. الآن حاول أن تتذكر. ألم تستلموا صناديق معبأة بالبنادق في تلك السنة لكي تشاركوا في النضال ضد الحكومة القديمة ؟ ».

أدار هايكازون رأسه نحو الشدياق الذي لم يجرؤ على نزول درجات الكنيسة وأشار إلى القس الآخر كشاهد: « ربما كان قساوستك يتعاملون بالأسلحة يا حضرة المدير ولكن هذا لا ينطبق على قساوستنا». في هذه اللحظة بدأ كاتب القرية يزمجر « لكننا كنا نعيش دائماً بسلام في هذا المكان فهذا بلدنا منذ آلاف السنين ». حدق دير هايكازون وهو ساهم الوجه بالمدير وبدا وكأنه يحاول أن يتذكر « أنت على حق يا حضرة المدير. لكن الحكومة الجديدة لم توزع أسلحة في ذلك الوقت في كثير من الأماكن في الامبراطورية - حتى للأرمن - ولو كنت متقدماً في العمر قليلاً لتذكرت كذلك بأن جميع الطوائف التي حصلت على أسلحة كان عليها أن تقدم اقراراً خطياً بذلك. والقائمقام الذي كان مديراً مثلك في ذلك الوقت نظم عملية التوزيع ولا بد أنه يحتفظ بجميع الوصولات. حسن، لا أظن أنهم قد أرسلوك إلى هنا بدون هذه الوصولات لو كانت توجد أسلحة في القرية».

كان هذا أمراً لا يمكن إنكاره. وصحيح أنه في الأيام القليلة الأخيرة قُلب مكتب السجلات في أنطاكية رأساً على عقب بحثاً عن هذه الوصولات فقد كانت معظم النواحي قد سلمتها وبدا

أن ناحية السويدية والمنطقة المحيطة بها لم ترسل لها أسلحة فعلاً في عام 1908 ،وأعلن القائمقام أنه بدا أنه يتذكر العكس لكنه لم يتمكن من إثبات ذلك وهكذا وجد دير هايكازون منفذاً جيداً.

لكن هذا الإثبات أحنق الدبلوماسي اللطيف فأصبح صوته متهدجاً: « ولكن ما هو الوصل ؟ إنه مجرد خربشة على ورق. ماذا يثبت ذلك بعد كل هذه السنين ؟ ».

لوح دير هايكازون بيده بصورة لا مبالية وقال: «إذا لم تصدقنا فابحثوا عنها بأنفسكم».

ضرب رئيس الشرطة، الذي كان يتوق لأن يضع حداً لهذه المناقشة الطويلة السطحية، بسوطه وأصاب كتف الكاهن « نعم سنبحث يا ابن العاهرة وأنت والمختار مقبوض عليكما وبإمكاني أن أفعل بكما ما يحلو لي فحياتكما رهن بيدي. وإذا وجدنا أسلحة فسأعلقك على باب كنيستك وإذا لم نجد سأشويك على نار حامية».

قيد الدرك دير هايكازون والكاتب في حين أخرج المدير مبرد أظافر وراح يحف أظافره وقال لرئيس الشرطة: «لا تنس ساحة الكنيسة فهي مخبأ مفضل للذخيرة»، ثم استدار وراح يتمشى في شارع القرية. وبكلمة من قائد الشرطة الشرس انقسم الدرك إلى مجموعات صغيرة. وبقي عدد منهم لحراسة المعتقلين. أجلس دير هايكازون على درجات الكنيسة بردائه الكنسي وراح الدرك في الوقت نفسه يقتحمون البيوت بوحشية. وسرعان ما بدأت تسمع أصوات أثاث يتكسر، وصوت تحطم زجاج من وراء الجدران ثم أشرعت النوافذ وبدأت تلقى منها السجاجيد والبطانيات والوسادات والحصر وكراسي القش والإيقونات وأشياء كثيرة أخرى. وعلى الفور أحاط بهذه الأشياء أناس احتشدوا من القرى المجاورة لنهبها. ثم بدأت تلقى أشياء أكثر هشاشة - فوانيس، نظارات، لمبات ، أباريق وراحت تتحطم وسط أصوات النسوة اللواتي وقفن لالتقاطها وهي تعبر عن أسفها. وبعد ثلاث ساعات رهيبة بقي الرجلان المقيدان جالسين على الدرجات قبل أن يعود الدرك من مهمتهم. وكانت الحصيلة التي عادوا بها أسوأ من مزعجة - بندقيتان قديمتان وخمسة سيوف صدئة وثلاثون سكيناً بأغمادها - ولم يقم الدرك بحفر ساحة الكنيسة وذلك إما لأنهم لا يمتلكون رفوشاً يحفرون بها أو أنهم كانوا كسالى لأن يفعلوا ذلك. وزمجر رئيس الشرطة واستشاط غضباً. فقد خدعه هذا القسيس الخنزير. ويا لها من نكسة لشرطة أنطاكية. أنهض دير هايكازون على قدميه ثانية، وحدجه قائد الشرطة بعينين متورمتين. وكان النفس الذي نفثه في وجهه يقطر كراهية لكن القسيس أشاح بوجهه بتعبير من القرف وفي اللحظة التالية سقطت على خديه ضربتان من عقب السوط الجلدي.

غاب القسيس عن وعيه لثوان، وترنح لكنه سرعان ما ثاب إلى رشده ووقف مشدوهاً منتظراً أن يتدفق منه الدم. وأخيراً اندفع الدم من أنفه وفمه وتملكه شعور غريب وهو يقف هناك محنياً رأسه إلى الأمام لكي لا يلوث الدم رداءه الكنسي. وتراءى له أنه يسمع صوتاً ملائكياً يقول له: «إن هذا الدم دم طيب ». وبالفعل كان دماً طيباً لأن رؤيته أدخل انطباعاً معيناً في نفس المدير السلانيكي الذي كان قد عاد لتوه من قيلولته. فقد كان هذا الرجل من أكبر أنصار الإبادة لكنه

لم يكن يرغب في رؤيتها شخصياً. وكان الوقت يمر بسرعة وما زال أمام الدرك ست قرى أخرى لتفتيشها. وأطلق سراح الكاهن والكاتب. وهكذا مر اليوم بدون مشاكل في يوغونولوك بالقياس لما يمكن أن يحدث في مثل هذه الأيام في المدن والقرى. فقد أطلق النار على رجلين كانا قد أبديا مقاومة فقتلا واغتصب الدرك فتاتين.

كان على كابرييل باكراديان أن ينتظر أربعة وعشرين ساعة قبل ان يحين دوره للتفتيش. وظل الجميع يقظين طوال الليل وتسلل التعب إلى أجسادهم واستسلم سكان الفيلا - جولييت، اسكوهي، أوسانا، كونزاك ماريس الذي استقر هناك - إلى النوم وهم جالسون في أماكنهم. فعلى الرغم من توقعهم أن الدرك لن يصلوا إلى الفيلا قبل صباح اليوم التالي بل حتى منتصف النهار لم يذهبوا إلى أسرّتهم للنوم. وفي الصباح، عندما أرسل الطباخ هوفهانيس القهوة الطازجة والبيض والفروج البارد في صحن من البورسلان إلى غرفة الطعام، كان القلق ينتابهم رغم شعورهم بالجوع والعطش . فتناولوا الأكل بسرعة وكان البيت سيسقط على رؤوسهم قبل أن ينتهوا. وكان كابرييل قد ارتدى بذة الضابط التركي الموجودة لديه وكان يعلق سيفه ونياشينه. فقد قرر أن يستقبل هؤلاء بصفته رئيسهم. لكن كونزاك نصحه بأن لا يفعل ذلك إذ قال: «أن بذتك العسكرية الأنيقة ستجعلهم يتميّرون غضباً، ولا أظن أن ذلك سيكون من مصلحتك ». لكن كابرييل لم يستجب له وقال :«إني ضابط تركي وحتى الآن لم ينزع أحد رتبتي » فقال ماريس :« ولكن سيتم ذلك قريباً، لا تستطيع أن تفعل شيئاً لهؤلاء الأرمن . إنهم مجانين - وسيبقون دائماً هكذا».

في حوالي الساعة الحادية عشرة من صباح ذلك اليوم انهارت اسكوهي فجأة. ففي البداية شعرت بالإغماء ثم انتابتها رعشة عنيفة. وخرجت من الغرفة ورفضت أن يمد لها أحد يد المساعدة. وعندما أرادت جولييت الخروج وراءها رفعت أوسانا يدها محذرة وقالت:« دعيها، إنها زيتون.. فهي مذعورة.. وتريد أن تجد مخبأ.. يجب أن نمر بهذه التجربة مرة ثانية» وخبأت زوجة القسيس وجهها بيديها وأخذت تجهش بالبكاء.

في تلك الأثناء وصلت فرقة الدرك وعلى رأسهم رئيس الشرطة والمدير إلى فيلا باكراديان. وهرع الحرس الذين وضعهم كابرييل ليعلموه بوصولهم. وقف ستة رجال من الدرك خارج أبواب الحديقة وستة في الحديقة وستة في ساحة الإسطبل. ودخل المدير ورئيس الشرطة وأربعة رجال إلى المنزل. وبدا أن الأتراك كانوا منهكين. إذ كانوا خلال الأربع والعشرين ساعة الماضية يعيثون فساداً في القرى، ينهبون بيوتها ويحطمونها ويلقون القبض على الرجال ويضربونهم بالسياط حتى تسيل منهم الدماء، واغتصبوا عدداً من النساء، وهكذا أنجزوا جزءاً من المهمة التي كلفتهم بها الحكومة. ولحسن الحظ خبا حماسهم للعمل عند وصولهم إلى الفيلا. ووجد هؤلاء أنفسهم وسط جمع مهيب من السيدات والسادة الأوروبيين المحاطين بالخدم. ولم يتحرك أحد منهم. فقد كانت جولييت تمسك بيد ستيفان بقوة، وكان كونزاك يدخن لفافة. اقترب كابرييل خطوة من اللجنة. وبدا أن كونزاك كان مخطئاً، فقد كان للبذة العسكرية تأثير. فقد ألقى رئيس الشرطة نظرة بشيء

من القلق إلى هذا الضابط الذي اصطفت على صدره النياشين. وفي وسط هذا الجو المتمدن، أصبحت أعصاب السلانيكي تشكل عائقاً. فبدل التقدم بدون رحمة لسلب هذا البيت اللعين باسم الشعب والاتحاد والدولة، هز الشاب رأسه وأمسك بطرف طربوشه. وتذكر لقاءه مع باكراديان في مكتبه. هذا الصراع الأخلاقي سبب تأخيراً وحال دون إيجاد طريقة مناسبة لفتح الحديث. رمقه كابرييل بازدراء وبدت الطاولات وكأنها تكاد تنقلب وكأن أرمينيا المحاربة تواجه تركيا أحمر الشعر، ذليلاً . وبدا أن باكراديان يعلو ويكبر والمدير يعاني من تقزمه الذي جسد النوعية البطولية لشعبه. وفي النهاية أبرز وثيقة كبيرة وراح يقرأ منها « كابرييل باكراديان، المولود في يوغونولوك ، مالك هذا البيت ورب هذه العائلة، بصفتك أحد الرعايا العثمانيين فإنك تخضع لمراسيم وقوانين قائمقام أنطاكية. أنت وباقي سكان هذه الناحية من السويدية وحتى جبل موسى، سترحلون في يوم سيحدد قريباً إلى المنطقة باتجاه الشرق. وسيرافقك جميع أفراد عائلتك ، وليس من حقك أن تعترض مهما كان ذلك مخالفاً للأمر العام القاضي بالترحيل - سواء يتعلق بشخصك أو بزوجتك أو أطفالك أو أي من العاملين معك ...»، ثم أردف: « إني ألفت انتباهك إلى أن اسمك مدرج في قائمة المشبوهين السياسيين، فأنت على صلة وثيقة مع حزب الطاشناق. لذلك ستكون تحت مراقبة شديدة حتى أثناء سيرك في القافلة. وأي محاولة للهرب أو عصيان أوامر الحكومة أو الأوامر التنفيذية أو عدم الالتزام بنظام الترحيل فلن تتعرض وحدك إلى عقوبة الإعدام الفوري بل جميع أقاربك أيضاً».

حاول كابرييل الرد عليه، لكن المدير لم يسمح له بالتكلم. وبدا أن صياغته للكلمات بهذه الطريقة الرسمية والرنانة ملأه بالشعور بالرضى « بأمر خاص من معاليه والي حلب لا يسمح للأرمن المرحّلين استخدام أية وسيلة نقل أو دابة أو أية حيوانات يمكن أن يفكروا بأنها مناسبة لهم. وفي حالات استثنائية جداً يمكن السماح باستخدام عربة أو حمار للمرضى والعاجزين. هل لديك أية متطلبات لمثل هذه المعاملة الخاصة ؟ ».

ضغط كابرييل بقبضة سيفه على ساقه. وبدأت الكلمات تتدفق كالأحجار من شفتيه: «سأسير على الدرب الذي سيسير عليه شعبي ». فقال المدير: « ولكي لا تتعرض لمخاطر الإغراء بالمحاولة للتغيب أو ترك القافلة فيما بعد فإني سأحتجز أحصنتك وعربتك وجميع حيوانات النقل».

ومع أن قائد الشرطة كان ما يزال لا يعرف كيف يتعامل مع بذة ونياشين ذلك الأرمني فقد طرح سؤاله المعهود عن الأسلحة مزمجراً. وأرسل كابرييل كريستوفر وميساك لجلب البندقية القديمة ذات الزند الصوّاني والماسورة الطويلة المعلقة على الحائط في الردهة. (وبطبيعة الحال كان ذلك مرتباً، إذ أن جميع الأسلحة المفيدة كانت قد أرسلت إلى الداملاجيك) وانطلقت قهقهة مشوبة بالسخرية من قائد الشرطة. وتفحص المدير البندقية القديمة وقال: « من المؤكد أنك لن تخبرنا يا أفندي بأنّك تعيش هنا في هذا المكان الموحش بدون أسلحة ؟ ».

أمسك كابرييل البندقية بثبات وقال: « ولم لا ؟ فهذه هي المرة الأولى التي يقتحم فيها بيتي منذ أن بُني عام 1870. هزّ المدير الأتمش كتفيه فقد جعل هذا التمرّد من المستحيل عمل أي شيء. فأرغم على ترك الساحة للسلطة وكان من الواجب تفتيش البيت بحثاً عن الأسلحة. شمّر قائد الشرطة كميه بالرغم من أن بذّة الضابط أمامه كانت تملأه بالإثارة والإرتباك. ولم تتمكّن عينه اليمنى من التوقّف عن التحديق في النياشين المعلّقة على صدر باكراديان. بحث الأتراك أركان المنزل وقلبوا الأثاث ودقّوا على الجدران وحطّموا كل ما يمكن تحطيمه. وعندما صعد رجال الدرك إلى الطابق العلوي واقتحموا غرفة جولييت، فتحوا خزانتها وأخذوا يرمون ثيابها على الأرض . نظر كابرييل بعين حزينة لما حلّ بأغراض جولييت المسكينة، ولكن ماذا يشكّل هذا مع ما سيحدث في الأيام والأسابيع القادمة ؟ انتابه القلق وتذكّر اسكوهي وهي تزحف مبتعدة لتختبئ في سريرها. لم تكن شيئاً بالنسبة له- ومع ذلك فقد شعر بالعطف نحوها. فهؤلاء المتوحشون جعلوها عاجزة ومشلولة، وكان عليها أن تواجه هذا الرعب مرة أخرى. وفكّر باكراديان بطريقة يبعد فيها قائد الشرطة ودركه عن باب غرفة اسكوهي.

وبدا أن السماء رؤوف بها، فقد تناهى إلى اسكوهي التي غطت نفسها تحت الشرشف وقع أقدام وأصوات قعقعة شياطين الموت وهي تقترب، تمدّدت وجسدها متشنّج وقد أمسكت عن التنفس. لكن سرعان ما ابتعدت الخطوات عن باب غرفتها وأخذت الأصوات تتلاشى. وبدا أنهم يهبطون إلى الطابق الأرضي ثانية. ثم ساد صمت مفاجئ . هل رحلوا؟ نهضت اسكوهي من السرير وتوجّهت إلى الباب وفتحت جزءاً بسيطاً منه. يا إلهي هل ذهبوا حقاً؟ وكادت تسقط على الأرض عندما سمعت صوت لسعة سوط وأصوات رجال تتعالى وتمكّنت من تمييز صوت كابرييل بينها. أمسكت ذراعها المتدلي واندفعت تهبط الدرج وتوقفت في الردهة. ظن كابرييل الآن أن الأسوأ قد انتهى وقال مخاطباً المدير: « هل تأكدت. لا يوجد عندنا شيء مخبأ. هل من شيء آخر؟».

- « لكنّنا لم نفتّش كل شيء بعد.. فهناك غرف لم ندخلها في الطابق العلوي » ولو تمكّن كابرييل من السيطرة على نفسه لانتهت الأمور على خير ما يرام. إلا أنه قفز على أول درجة من السلم وفتح ذراعيه وصاح: « هذا يكفي ». لكن هذا التصرف أتاح الفرصة لقائد الشرطة أن يتدخّل فرفع قبضته تحت أنف باكراديان وقال: «ماذا يكفي أيها الأرمني الخنزير؟ قل ذلك مرة أخرى. ماذا يكفي أيها الوغد القذر ؟ » أدرك كابرييل في تلك اللحظة أن حياته وحياة من معه أصبحت في كفة الميزان فقال لنفسه:«انسحب وتنحى جانباً. دعهم يصعدون ثانية وهناك ادفع رشوة لذاك الحيوان عشر ليرات ».. وكان لا يزال يقلب تلك الفكرة في عقله حتى صاح بصوت أجش : «ارجعوا أيها الدرك .. فأنا ضابط وأمركم بذلك ».

لكن هذا أوصل قائد الشرطة إلى صميم هدفه « هل أنت ضابط ؟ أنت لست بالنسبة لي سوى كلب ميت نتن » وبحركة سريعة راح يقتلع النياشين الفضية عن بذة كابرييل . وفي أقل من

لحظة وجد كابرييل نفسه ممدّداً على الأرض وقد رمي السيف بعيداً عنه وجثم أحد الدرك فوق صدره بينما أخذ الآخرون يمزّقون بذته. واندفع كونزاك والنسوة خارج غرفة الاستقبال واختلطت صيحات ستيفان بأصوات همهمات والده. ولم تمض دقيقة حتى كان كابرييل يستلقي عارياً على الأرض وقد ملأت جسده الجروح. ولو لم يسعفه كونزاك ماريس بلفت الانتباه إليه لكانت حياته لا تساوي بارة واحدة. إذ أخرج أوراقه وأمسكها فوق رأسه. فاستدار الجميع نحوه يتطلعون إليه. وحدّق به المدير وقد بدا عليه انزعاج شديد واتّجه قائد الشرطة نحوه فابتعد الدرك عن كابرييل.

فتح كونزاك وثائقه بهدوء وثقة العميل السريّ الذي أوفده الاتحاد لمراقبة سلوك السلطات المحلية وقال: « ها هو جواز سفر أمريكي وتأشيرة دخول من القنصلية العامة في استانبول »، وركّز على هذه الكلمات بطريقة سلطوية وكأنه يعلمهم أنه في مهمّة دبلوماسية سريّة ذات أهمية بالغة لتركيا »، وها هو تصريح لزيارة المناطق الداخلية موقّعة من معاليه شخصياً. « هل تفهمني يا أفندي ؟ » شعر المدير بارتباك للحظة إذ كانت تعليمات الترحيل تؤكد دائماً على عدم اتّخاذ إجراءات مسيئة بقدر الإمكان عند وجود قناصل الحلفاء والدول المحايدة. وللحظة تصوّر المدير بأنه يتعامل مع عميل سريّ موفد من السفارة الأمريكية. وبنظرة إلى الأوراق أكّدت له إن هذا الشخص كان عديم الضرر. لكنّه كان سعيداً حقاً بأن تدخّل هذا الأجنبي حال دون إراقة الدماء. أعاد إلى كونزاك أوراقه وقال بلهجة ساخرة: « وماذا تعني لي أوراقك ؟ من الأفضل لك أن تغادر هذه المنطقة في أقرب وقت ممكن – أو سألقي عليك القبض ». أما قائد الشرطة فلم يهدأ اضطرابه فقد كان الدم يثيره أكثر من الأوراق . وخلال مسيرة عمله لم تكن الوثائق تقنعه كثيراً وقرّر أن يترك باكراديان وشأنه حالياً على الأقل. إذ يمكن إجراء ذلك على الطريق العام دون وجود شهود يحملون جوازاً أمريكياً. وأعاد مسدسه إلىحقيبته ورمق الضابط العاري الملقى على الأرض بنظرة حاقدة وبصق عليه وأصدر أوامر للدرك «احجزوا جميع الأحصنة والبغال ».

نهض كابرييل الذي كان يتنفّس بصعوبة وقد تملّكه شعور بالخزي. وكانت جوليت وستيفان ينظران إليه بإشفاق. س بحثت عيناه عن زوجته الواقفة هناك متصلّبة وقد أشاحت بوجهها. تعثّر كابرييل قليلاً ثم تمالك نفسه. شعر بشيء يرتعش من ورائه – اسكوهي . ثم بدأ يشعر بخدوشه تؤلمه لكنّها لم تكن جديرة بالاهتمام. ونظر بعينيه المتوسّلتين إلى صامويل أفاكيان الذي أحضر معطفاً وغطى جسد كابرييل الذي كان يتصبب عرقاً.

وحدث تحوّل غير متوقع في الأحداث. فقد غادر المدير وقائد الشرطة والدرك القرية في اليوم نفسه متّجهين إلى السويدية والإسكل. وكان من أهم عناصر سياسة الترحيل التركية عدم تحديد يوم وساعة الرحيل المرتقب. وذلك لأن الترحيل كان يعتبر أحد الإجراءات العسكرية الضرورية ونظراً لأنه كان إجراءً عقابياً فإن « تلك اللحظة يجب أن تكون مباغتة». غير أن القسيس هاروتيون نوخوديان تمكّن من معرفة موعد أول قافلة بعد أن دفع رشوة كبيرة وهو الواحد والثلاثون من تموز. وإلى أن يحين ذلك الموعد سيتمّ تعزيز الكتيبة الأولى بمائة دركي آخر

وسيصادف اليوم الواحد والثلاثون يوم السبت. أي بقي يومان من الآن لذلك قرر مجلس القادة بدء انتقال الأهالي إلى الداملاجيك بدءاً من ليلة الجمعة والسبت. وكان لديهم أسباب وجيهة لقرارهم هذا. إذ أن يوم الجمعة يوم عطلة عند الأتراك. وقد جعلت التجربة السابقة أنه من المحتمل أن يقوم الدرك في القرى المسيحية بإخلاء سكانها يوم الجمعة. وقد وضع المجلس التطوّرات التالية في الاعتبار: لن يجد الدرك الذين سيصلون صباح السبت سوى القس نوخوديان مع الخمسمائة بروتستانتي في بيتياس. وكان على القس أن يروي للمدير قصة مختلفة بأن جميع الناس كانوا قد حزموا أمتعتهم في الليل وانطلقوا من تلقاء أنفسهم في رحلة النفي. والسبب في ذلك خوفهم من الدرك ورئيس الشرطة بوجه خاص. ولا يعرف الطرق التي سلكوها وذلك لأنهم انطلقوا في مجموعات صغيرة في كل اتجاه: إذ انطلقت مجموعة باتجاه أرسوز واسكندرونة وأخرى باتجاه الجنوب لكنهم كلّهم ينوون تجنّب الأماكن المأهولة. ومن حكم المؤكد أن أكبر مجموعة ذهبت باتجاه حلب لكي تجد لها ملاذاً في المدينة الكبيرة. وأظهر القس نوخوديان الذي ظن الكثير أنه جبان لامتثاله للروح المسيحية المطيعة شجاعة فائقة. فهذه الخدعة تعني الموت لدى إنكشافها لكنه لم يأبه لذلك وقال لنفسه أليس خطر الموت جاثماً فوقنا؟ ولكن يجب أن يكسب المقاتلون على الداملاجيك مزيداً من الوقت إذ أن هذه الخدعة ستؤخر اكتشافهم عدّة أيام أخرى مما سيمكّنهم من إكمال تحصيناتهم.

اجتمع المجلس في منزل دير هايكازون الذي تشوّه وجهه من جراء ضربة قائد الشرطة بالسوط. وكانت عينه اليمنى وخده متورمين وقد خطّ وجهه خدش بنفسجي اللون حتى منتصف جبهته كما فقد سنين. أما كابرييل فلم يعد يشعر بجروحه بعد أن ضمدها له ألتوني. وقد ساعد هذا التصرّف الوحشي على تقريبه من الآخرين بشكل أوثق. وفي هذه الجلسة بحث المجلس ظرفاً مناوئاً ومثيراً للقلق لكنّ الوقت كان متأخراً لتلافيه. فخلال السنوات السابقة اعتاد القرويون على شراء الحبوب في تموز بعد الحصاد من الفلاحين الأتراك والعرب في السهول. إذ قلّما كانوا يزرعون حبوباً. أما هذه السنة وبعد أن سمعوا بالخطر المحدق بهم أجّلوا شراء مؤنتهم المعتادة. وكان هذا التأخير مشكلة هامة. فقد كان لدى القرويون دقيقاً وبطاطا وذرة لكن بكميات ضئيلة جداً. وللإبقاء عليها كان الأمر يحتاج إلى الاقتصاد الشديد بها. ونظراً لأن الأرمن يأكلون كميات كبيرة من الخبز وقليلة من اللحم فإن نقصها كان مصدر قلق للقادة. لذلك قرّر القس آرام أنه يجب إبقاء جميع أفران التنّور في القرى مشتعلة حتى مساء الجمعة لصنع أكبر قدر ممكن من الأرغفة قبل مغادرة الوادي ريثما يتمّ بناء أفران على الداملاجيك. واختتم دير هايكازون الجلسة بإعلان نزع الأجراس من على برج الكنيسة بعد الصلاة في صباح اليوم التالي (الجمعة) وحملها بموكب مهيب إلى ساحة الكنيسة ودفنها هناك . كما أعلن أنه ينوي نقل عدّة براميل من التراب المقدّس إلى الداملاجيك.

وبالفعل عاد الدرك في صباح يوم الجمعة إلى الريف المسلم وانطلق المدير ورئيس الشرطة إلى أنطاكية، وامتلأت الكنيسة في وقت مبكر بشكل لم يحدث من قبل. إذ لم يأت جميع المصلين

إلى يوغونولوك لحضور القدّاس من القرى الأخرى فحسب بل جميع القساوسة وجوقة المرتلين التي أخذت ترتّل بصوت واحد عند أسفل المذبح:

- «السر العميق اللا مدرك بدون بداية

لقد زيّنت بالمجد

ضيف كائنات النار».

واتّخذ كابرييل أكثر الترتيبات أهمية بالنسبة لجولييت. فقد كان قد أرسل في الليلة السابقة أفاكيان وكريستوفر مع جميع خدمه إلى الداملاجيك لإعداد مكان إقامة جولييت وهي عبارة عن ثلاث خيمات تضمّ مطبخاً ومكاناً لغسل الأواني. وأمر كابرييل أن تكون الخيام الثلاث تحت تصرّف جولييت. وبجهد شاق تمّ نقل السجاجيد ومناقل النار والأرائك والطاولات والكراسي إلى الداملاجيك ومجموعة كبيرة من الأمتعة الأنيقة - صناديق تضمّ ألبستها وحقائب جلدية برّاقة وسلال فضية وأدوات مطبخ ومجموعة كاملة من زجاجات الدواء وأدوات التجميل وزجاجات مياه حارة. فقد أراد كابرييل أن تستمد جولييت الراحة من رؤية الأدوات الأوروبية تلك. إذ كان عليها أن تحيا حياة أميرة مغامرة تسافر من أجل نزوة محاطة بالألعاب. ولهذا السبب فقد بدت حياته في أعين الناس ضعف حياة اسبارطة. فقد قرّر أن لا ينام في خيمة ولا يأكل طعاماً مطهواً.

بعد أن قام القرويون في يوغونولوك بزيارة مقابر موتاهم ألقو نظرة أخيرة على منازلهم التي لم تعد ملكاً لهم. وحمل كل منهم صرة ضخمة ثقيلة على ظهره وراحوا ينتظرون حلول الليل. وشأن الآخرين أخذ كابرييل يجول في غرف منزله في المساء التي أصبحت فارغة وميتة. وكانت جولييت وكونزاك ماريس وجميع الخدم قد انطلقوا إلى الجبل منذ ساعات. إذ نظراً لأن اليوم كان قائظاً بشكل لا يحتمل، كانت تتوق للبرودة التي تتوقع الحصول عليها في قمة الجبل، كما لم ترغب في أن تنحشر بين صفوف بقية القرويين. وشعر كابرييل بالأسف لدى مغادرته غرفة النوم وذلك لأن المرء يترك قطعة منه في كل مكان يحلّ فيه، إذ يتعيّن عليه الآن مغادرة منزل الآباء، هذا المكان الذي ترعرع فيه منذ طفولته والذي أمضى فيه الأشهر الأخيرة الحاسمة، لكنّه لم يكن ينتابه حزن شديد لذلك بل انتابه حزن للعاديات التي كان عليه أن يتركها، تلك الأشياء التي كانت تُدخل في نفسه المتعة خلال الأيام السعيدة الأولى التي قضاها في يوغونولوك وراح ينتقل من أرديميس وأبولو إلى ميثراس المجيد وهو يربت على وجوه الآلهة بيد لطيفة. وعند باب غرفة الاستقبال استدار بحدة وابتعد عن المنزل إلى الأبد.

تذكّر كابرييل القطع النقدية التي أعطاها إياه الآغا التي نسيها في الفيلا. قال لنفسه: « سأعود وآخذها.. من المؤسف أن لا..» وعاد لكنّه تردّد عند باب الفيلا. ثم أسرع بخطوات سريّة إلى غرفة نومه وأخذ القطع النقدية من علبتها ووضعها في جيبه ثم غادر المنزل دون أن يتطلّع إليه ثانية. وبعد عدّة خطوات توقف لينظر إلى ساعته التي ما زالت على التوقيت الأوروبي. وكانت

الشمس فوق الداملاجيك، ولاحظ كابرييل الساعة والدقيقة التي بدأت فيها حياته الجديدة.

بعد غروب الشمس أخذت جموع القرويين من القرى السبع وهي تنوء تحت أحمالها الثقيلة تتحرك في مجموعات أو عائلات نحو الجبل. وبرز القمر من وراء قمم الأمانوس الفضية في الشمال الشرقي وراح يسبح في السماء الرحبة وكانت جموع القرويين ما تزال تشق طريقها بصعوبة تحته. وكان نفس المشهد يتكرّر دائماً. في المقدمة الأب وهو يضرب بعصاه على الأرض ويرزح تحت حمل ثقيل. نداء فظ ورد مصحوب بعويل. والنساء يتعثرن تحت أثقالهن التي جعلتنهن ينثنين نحو الأرض . ورغم كل ذلك كان عليهم أن يحرصوا جيداً على ألا تضل الماعز سبيلها. وبين الحين والآخر وتحت هذه الأحمال كانت تند ضحكة من فتاة صغيرة. استيقظ كابرييل من نصف هجعة. بكاء أطفال لا حصر لهم. مئات الأطفال يصرخون. وفي خضم هذا كانت تُسمع أصوات تذمّر وتقريع الجدّات. لكن لا - لم يكن هؤلاء أطفال مهجّرين، بل قططاً من يوغونولوك وأزيز وبيتياس. لأن للقطط سبع حيوات والكثير من الأرواح ولكل روح منها صوت. لذلك يتوجب أن تُقتل قطاً سبع مرات.

اختفى القمر وراء جبل موسى. وهبّت نسمة خفيفة على الجبل وقدر كابرييل أن الجميع قد وصلوا الآن فقد مرّت بجانبه منذ أكثر من ساعة آخر مجموعة. ومع ذلك لم يبتعد عن مركز مراقبته سواء من الإنهاك أو الرغبة في أن يكون وحيداً. أليست هذه القوة في الرغبة في أن يكون وحيداً أفضل هبة من الله؟ وأعطى نفسه نصف ساعة أخرى لينطلق بعدها إلى التعزيزات الشمالية للإشراف على حفر الخنادق والإسراع في ذلك. أسند ظهره إلى شجرة السنديان وراح ينفث دخان لفافته. ومن خلال الظلام تراءى له شخص متخلّف عن باقي المجموعة. وسمع كابرييل صوت حوافر وأصوات حجارة تتدحرج. ورأى فانوساً ثم بان له رجل وحمار ينوء كلاهما تحت حمل ثقيل وكان الحمار يكاد يسقط عند كل خطوة يخطوها، بينما كان الرجل يحمل كيساً ضخماً، ينزله كل بضع دقائق وهو يلهث ليلتقط أنفاسه، ولم يميّز كابرييل هذا الرجل إلا عندما أنزل كيسه عند قدميه. إنه الصيدلي كريكور الذي بدا وجهه مشوهاً. وكان العرق يتصبب من خديه اللامعين حتى اللحية الصغيرة عند ذقنه التي كانت تعلو وتهبط. وبدا أن ألماً شديداً ينتابه وقد أحنى كتفيه وانثنى إلى الأمام.

كشف كابرييل عن نفسه « كان عليك أن تعطي الكيس المملوء بالأدوية للعاملين عندي بدل أن تحاول جر صيدليتك بمفردك ».

كان كريكور لا يزال يسترد أنفاسه ومع ذلك فقد وضع شيئاً من التعالي في جوابه « ليس لهذه الأمور علاقة بالأدوية فلقد أرسلتها منذ ساعات ». وأدرك كابرييل الآن أن الصيدلي وحماره ينوآن كلاهما تحت حمل ثقيل من الكتب. ولسبب غامض انتابه شعور بالضيق ورغبة في الهزء منه «اغفر لي خطأي أيها الصيدلي. فهل هذه هي المؤن الوحيدة التي استطعت أن تحضرها؟ ».

لم تظهر أية تعابير على وجه كريكور ورمق كابرييل بطريقته اللامبالية المعتادة « نعم يا

باكراديان. هذه هي مؤنتي - ولسوء الحظ ليس كلها ». وهزّت جسده نوبة من السعال. جلس ومسح العرق المتفصّد منه بمنديله الضخم. ووقف الحمار بحمله الثقيل وعقل ركبتيه على الدرب. مرّت دقائق. وشعر كابرييل بالأسف من هذا النازع غير اللطيف لكن صوت كريكور استعاد كل تفوقه « كابرييل باكراديان. بصفتك مثقفاً باريسياً، سنحت لك فرص لم تسنح لي، فأنا لست سوى صيدلي من يوغونولوك، ومع ذلك فقد فاتك أمر أو أمران أدركهما أنا جيداً. لعلك لم تسمع أبداً بالجليل غريغوريوس النزينزي والجواب الذي تلقاه من الكافر ترتوليان ».

ولا غرابة في أن كابرييل لم يكن قد سمع بقول غريغوريوس النزينزي وذلك لأن كريكور هو الرجل الوحيد الذي سمع به وراح يتحدث بلهجته المتعالية المعهودة:

- « مرة دعي الجليل غريغوريوس النزينزي لتناول طعام العشاء عند الكافر الشهير ترتوليان. لا تخش شيئاً يا باكراديان فالقصة قصيرة بقدر ما هي عميقة المغزى. تحدثا عن الغلال الجيدة والخبز الأبيض الجميل الذي كانا يأكلانه معاً. وتسلّل ضوء الشمس على المائدة. رفع غريغوريوس النزينزي قطعة خبره بيديه وقال لترتوليان: « يا صديقي يجب أن نحمد الله على رحمته الواسعة - لأنه، كما ترى فإن هذا الخبز الشهي الطيب المذاق لا يعدو كونه هذه الأشعة الذهبية التي حوّلت ذاتها في تلك الحقول لتصير لنا خبزاً. غير أن ترتوليان استوى واقفاً وراء الطاولة وأخرج من كمّه قصيدة لفرجيل وقال لغريغوريوس: « يا صديقي وضيفي - إذا حمدنا الله من أجل قطعة خبز فقط فكم علينا عندئذ أن نحمده من أجل هذا الكتاب. لأنك كما ترى فإن هذا الكتاب هو أشعة الشمس التي انتقلت من شمس أعلى بكثير من تلك الأشعة التي نستطيع أن نشاهدها بأعيننا عبر الطاولة ».

بعد لحظة سأل كابرييل في تعاطف: « ومكتبتك كلها يا كريكور؟ فهذه مجرد عيّنة منها. هل دفنت كتبك ؟ ». انتصب كريكور وكأنه بطل جريح «لا لم أدفنها فالكتب تهلك تحت الأرض. بل تركتها كما هي ».

رفع كابرييل الفانوس الذي نسيه الصيدلي والذي أصبح أكثر إنارة الآن. لم يتمكّن كريكور من إخفاء دموعه التي أخذت تسيل على خدّيه النحيفين. رفع باكراديان كيس الرجل العجوز وقال: « هل تظن حقاً يا صيدلي بأني خُلقت فقط للبنادق وأحزمة الخراطيش . وحفر الخنادق؟».

ورغم تمنع كريكور المتكرر، حمل كابرييل الكيس الثقيل إلى المواقع الشمالية.

- الكتاب الثاني

نضال الضعفاء

« وديست المعصرة خارج المدينة..»

سفر الرؤيا 14 – 20

1- الحياة على الجبل

انهمك شعب كامل في إقامة مخيّم على قمة جبل موسى عند بزوغ الفجر. وقد بثت قمة الجبل والهواء العاصف وعباب البحر حياة جديدة في هذا الشعب الذي بدا أنه نسي التعب الشديد الذي لاقاه في أثناء الليل. فلم تعد ترى وجوهاً متوترة ومنهكة بل وجوهاً ترتسم عليها إمارات الإثارة والترقّب. وكان الناس يجرّون حول ساحة المعسكر الجديدة يتصايحون، بينما كان دير هايكازون منكبّاً على إقامة المصلى الخشبي في وسط المعسكر. وهكذا إذاً كان منهمكاً في أمور الآخرة وكان يصيح في الرجال الذين يساعدونه حاثاً إياهم على السرعة في العمل.

صعد كابرييل إلى النقطة التي اختارها كمركز للمراقبة. ومن فوق إحدى الأكمات الصخرية فوق الداملاجيك رأى بوضوح شديد البحر وراء سهل العاصي وتعرّجات الجبل الآخذة بالتلاشي حتى أنطاكية. إذ كان بإمكان المرء أن يرى الوادي الممتد من خدير بك حتى بيتياس. وبالإضافة إلى مركز المراقبة هذا كان يوجد من عشرة إلى اثنتي عشرة نقطة مراقبة أخرى، يمكن من خلالها مراقبة قطاعات معيّنة من الوادي بصورة دقيقة. ومن موقعه، وجد كابرييل نفسه فجأة في مواجهة واقعة بحدة. فقد كانت السهول تمتدّ أمامه في الشمال والشرق والجنوب حتى أنطاكية - لا بل حتى الموصل ودير الزور. ومن الناحية الأخرى كان يقبع البحر الأبيض المتوسط بأمواجه التي ترتطم بلا مبالاة على الصخر أسفل الجبل. ومهما قربت قبرص، فلن تولي السفن الفرنسية والانكليزية أدنى اهتمام بهذه المنطقة الجافة من الشاطئ السوري الواقعة خارج منطقة الحرب. إذ أن أساطيل الحلفاء المتمركزة في السويس وعلى شواطئ شمال أفريقيا كانت تمر من خليج اسكندرونة الهادئ . وأدرك كابرييل الذي كان ينظر إلى البحر الصحراوي كم كان مخطئاً عندما حاول في الاجتماع العام أن يثير الآمال باقتراب سفينة لإنقاذهم. لكن هذا الأفق الواسع الممتد أمامه قضى على جميع آماله. إذ كانوا محاطين بالموت ولم يكن ثمة مجال واحد للنجاة - هذه هي الحقيقة الصارخة. عدد من القرويين الذين يثيرون في النفس الأسى والحزن وقد تملّكهم الذعر.. ومع ذلك فلم تكن هذه هي الحقيقة بأكملها. إذ هل يجب أن يأتيهم الموت من الخارج رغم أنه لم يشن عليهم هجوم أو تطلق رصاصة حتى الآن، بل أن الموت سيأتي من الداخل، سيبزغ من بينهم ليحطّمهم كلّهم. بإمكانهم توفير المؤن التي يشاؤون لأنها لن تتجدّد خلال وقت منظور وسيصبهم الإنهاك. وانتاب كابرييل إحساس بأنه انقذف خارج حدود الزمن. ولا ريب أنه

استطاع أن يبعد المحتوم لثوان معدودة، لكنه في المقابل كان عليه أن يضحي بمئات المنافذ التي أتاحها له الحظ . ألم يتّخذ هاروتيون نوخوديان قراراً أكثر حكمة لرعيته؟ وتملّك كابرييل شعور متبلد. يا لها من خطيئة لا تغتفر بحق ستيفان وجولييت. ألم يترك مرات ومرات فرص النجاة تفلت منه ولم يبذل أي محاولة لإخراج جولييت من نعيمها الزائف بشكل جدي ولو لمرّة واحدة مع أنه كان يعرف أن الشرك قد أحكم إغلاقه. وأعقب هذا الشعور بالذنب دوار شديد وخواء مفاجئ في رأسه. وبدأ الأفقان الأرض والبحر يموران أمامه. إذ كانت الأرض عبارة عن حلقة تدور وجبل موسى مركزها الثابت والمائت، لكن المركز الحقيقي لها هو جسد كابرييل. قال لنفسه إن كل ما نطلبه هو أن نبقى على قيد الحياة، وقد تملّكه الذعر. وعلى الفور طرأ له السؤال « ولكن لماذا؟ ».

اندفع كابرييل إلى ساحة المعسكر حيث كانت لجان المجلس ما تزال تعقد اجتماعها. وأصرّ على أن يبدأ كل شخص قادر سواء كان رجلاً أم امرأة العمل فوراً في حفر الخنادق والبدء بإقامة المعاقل الأمامية. إذ يجب أن يكتمل خط الدفاعات بأكمله مساء الغد. فمن يستطيع أن يتكهن بأن لا يقوم الأتراك بشنّ أول هجوم بعد يومين ؟ وكان عليه أن يحث مراراً وتكراراً على أهمية ذلك الدفاع وكل ما يتعلق به – أشد أنظمة الدفاع صرامة – وإن إقامته يجب أن يعطى أولوية على كل شيء آخر. وبما أنهم اختاروه قائداً للمقاومة فإنه يجب أن يُمنح سلطة مطلقة، ليس على مقاتلي الخط الأول فحسب بل كذلك على القوات الاحتياطية، بكلمة أخرى على المعسكر بأكمله. وأكّد القس آرام الذي أصبح شديد النزق على ضرورة تنظيم الحياة الداخلية للمعسكر التي كانت تمرّ في حالة من الفوضى. فقد كانت الأسر تغار من بعضها البعض بسبب أماكن السكن التي خصّصت لها. ووافق كابرييل على ما قاله القس وشدّد على ضرورة أن لا يكون هناك شيء يدعو إلى الشعور بعدم الرضا وذلك لأن الوضع الراهن أمر طارئ . وعلى الفور أيّد كبوسيان والمخاتير الآخرون القس. وكان الدكتور بدروس ألتوني يصرّ على وجوب أن تكون الحاجات الجسدية للناس على رأس الأمور من حيث الأهمية وأنه يجب البدء فوراً في بناء كوخ للمستشفى لكي لا تزداد أحوال المرضى سوءاً. وراح المعلمون ثم المخاتير الواحد تلو الآخر يلقون كلمات مسهبة يركّزون فيها على أمور تهمهم. وأدرك كابرييل كم من الصعوبة أن يكون المرء حليماً في اتّخاذ أكثر الإجراءات أهمية. لكن القانون الذي كان قد اقترحه أثبت جدواه الآن والذي يعطي دير هايكازون سلطة اتّخاذ القرار وهذا جعل الأعضاء يكفون عن إبداء اقتراحات خطيرة ومشوّشة. واتفق على أن عملية الدفاع يجب أن تتصدّر كل الأمور الأخرى ويجب أن تتلو حكّام النظام التي أقرّها المجلس على الناس وأن تصبح سارية المفعول بدءاً من هذه اللحظة. ويجب أن يدين الجميع بطاعة غير مشروطة للقائد الذي يمتاز على الجميع بخبرته في القتال. لذلك كان على المجلس أن يخوله سلطة تامة في كل شيء يتعلق بأمور الدفاع والاستعدادات للقتال والنظام في المعسكر، وكان على كابرييل وأعضاء لجنة الدفاع أن يرفعوا قراراتهم هذه إلى المجلس العام. وقد أصبح القس آرام توماسيان عضواً في تلك اللجنة، كما أصبح كابرييل عضواً

في لجنة النظام الداخلي. وبطبيعة الحال فإنّ القائد يجب أن يكون مخولاً بسلطة فرض العقوبات على العصاة والمتسكعين والتي تتراوح بين حرمانهم من جراياتهم إلى تقيدهم بالسلاسل ومعاقبتهم بالضرب على أقدامهم. أما عقوبة الإعدام فقد بقيت تحت تقدير دير هايكازون فقط وبعد موافقة المجلس بالاجتماع. ويجب أن يدرك جميع من في المعسكر منذ اللحظة الأولى جدّية حالة الحرب التي يعيشونها ومهام لجنة المعسكر الرئيسية المتمثّلة في فرض القانون والنظام بصرامة، والمحاولة في جعل هذه الظروف الصعبة تبدو طبيعية وتركيز كل الجهود نحو تطوير أسلوب يومي طبيعي كما كان الحال في الوادي. وركّز دير هايكازون على كلمتي «عادية» و « كل يوم » ووجوب عدم ترك أي شخص عاطل عن العمل. حتى الأطفال يجب تشغيلهم. ويجب الاستمرار في التعليم في المدرسة في مكان يخصّص لها وبالجدية المعهودة كما يجب على المعلمين متابعة التدريس بالدور.

جمع المخاتير سكان قراهم في الساحة الكبيرة أمام المصلى. وأمر باكراديان الجاووش نورهان بتشكيل دفاعه الأول المؤلف من ثمانية وستين شخصاً. وجمعهم أمام المصلى على شكل مربع. وصعد دير هايكازون منبر المصلى وطلب من كابرييل أن يقف بجانبه. ثم بدأ يتلو عليهم بصوت هادر التعليمات الصارمة كما سجلها أفاكيان. وأكملها ببضعة كلمات تهديدية. فأي شخص لا يطيع الأوامر أو يعارض رئيسه سينال عقاباً فورياً وليأخذ جميع القادمين الجدد من الثكنات التركية ذلك مأخذ الجد. ثم أخذ دير هايكازون الصليب الفضي من المصلى ونزل وراح يمشي بين الصفوف مع كابرييل وأدّى الرجال القَسم وراحوا يردّدون وقد رفعوا أيديهم «أقسم أمام الله. الأب والابن والروح القدس بأني سأدافع عن جميع الناس الموجودين في المعسكر حتى آخر قطرة من دمي وأن أنفّذ كل ما يأمرني به قائدي بطاعة عمياء وإني أقرّ بسلطة مجلس القادة المنتخب ولن أغادر الجبل أبداً لأغراضي الخاصة – وذلك لأن الله سيساعدني في الخلاص ». بعد أداء القسم سار رجال الخط الأول خلف المصلى ، وانقسم الألف ومائة احتياطي من الرجال والنساء إلى اثنين وعشرين مجموعة وأدّوا يمين الولاء والطاعة ووقع عبء حفر الخنادق وبناء المعسكر على هؤلاء الاحتياطيين. وأخيراً سار الشبّان الثلاثمائة إلى الأمام وألقى دير هايكازون فيهم كلمة تحذيرية مقتضبة وشرح لهم كابرييل واجباتهم ككشافة ومراسلين وعمال ارتباط. وتمّ تقسيمهم إلى ثلاث مجموعات ترابط الأولى في مراكز المراقبة ومراكز الرصد المخفية وترسل تقارير كل ساعتين إلى القيادة. وقد اختير مائة صبي الأكبر سناً لهذه المهمّة كما كان من مهامهم الحراسة ليلاً نهاراً في النجد ومراقبة دخان السفينة العابرة (أمل لا طائل تحته). أما المجموعة الثانية فكان من مهامها القيام بعمل منتظم ويجب على هؤلاء التواجد دائماً حول مقر القيادة لنقل أوامر القائد إلى جميع القطاعات والبقاء على اتصال مع مختلف القطاعات الدفاعية. وقد أوكل إلى أفاكيان أمر قيادة هذه المجموعة والتي انضم ستيفان إليها. وأخيراً وضع المائة صبي الأخيرين تحت تصرف القس آرام لاستخدامهم في مهام عامة حول المعسكر ونقل الجرايات إلى خط الدفاع.

استدعى كابرييل الجاووش نورهان ورؤساء المجموعات الهامة. وفي غضون ذلك توجّه دير

هايكازون إلى خيم جولييت وطلب منها أن تشرّف شعبه بالاضطلاع بمهمّة خاصة. فقد كان من الضروري رفع راية كبيرة بيضاء وعليها صليب أحمر على صخرة ناتئة قرب البحر على أمل أن تراها أية سفينة عابرة يمكن أن يرسلها الله برحمته وتعلم بالمحنة التي أصابتهم. ويجب أن تحمل هذه الراية كتابة باللغتين الانكليزية والفرنسية «أرمن في حاجة للمساعدة». ثم سألها فيما إذا كانت ترغب في أن تساعد نساء أخريات في صنع هذه الراية فوعدت بالمساعدة ولكن بفتور وعدم اكتراث. ولم تظهر المرأة الفرنسية أي حماس للشرف الذي منحه لها دير هايكازون بالحضور شخصياً وإبداء هذا الطلب منها. إذ أصبحت مرة أخرى لا مبالية بالأشياء التي تخصّ الأرمن. لكن ما أن غادرها دير هايكازون حتى شعرت بالقلق ينتابها ووجدت نفسها تبحث عن قطعتين كبيرتين من القماش لتخيطهما سوية. أما كابرييل فقد شدّد على الجاووش نورهان وقادة الفصائل على ضرورة تطبيق النظام بصرامة إذ لم يسمح لأحد من الآن وصاعداً ترك موقعه بدون إذن كما لم يعد يسمح لأي رجل على الخط الأمامي أن ينام في المعسكر مع عائلته. ويجب قضاء الليل في الخنادق إلا إذا منح إذناً خاصاً من قبل القائد وأقام باكراديان مقر قيادته في مكان يسهل الوصول إليه حيث سيعقد اجتماعاً يومياً قبل الغروب بساعتين يضمّ قادة المجموعات للاستماع إلى طلباتهم وشكاويهم والعمل على اتّخاذ التدابير اللازمة للتعزيزات وإعطائهم تعليمات اليوم التالي. وكان كابرييل يبحث أمر توزيع مجموعات الدفاع الثلاث عشرة والخريطة بيده. فقد كانت ثلاثة مراكز بحاجة إلى تعزيزات أقوى بينما بقيت المراكز الأخرى للمراقبة. وعيّن كابرييل مجموعة مؤلفة من أربعين مقاتلاً ووزع عليهم مئتي بندقية في حالة جيّدة للتمركز في الخنادق والحواجز الصخرية في الممر الشمالي وقرر أن يقود هذا القطاع الهام بنفسه. وعين الجاووش نورهان الذي كان مسؤولاً عن توريد الذخيرة والمؤن والعناية بالبنادق مساعداً له. وبقي أمر قيادة التحصينات الجنوبية معلقاً حتى الآن. فقد كانت حامية هذا القطاع البعيد جداً تتألف من خمسة عشرة فصيلة وكان قد وُضع فيها جميع الفارين تحت قيادة خدير بك بشكل مؤقت. وقرّر كابرييل أن يشدّد مراقبته على سركيس كيليكيان وأن يوكل إليه قيادة هذه الحامية إذا ما أثبت حسن سلوكه. وعندما سارت جميع الفصائل باتجاه مواقعها طلب كابرييل من الروسي البقاء ثم قال له بلهجة ضابط: « سركيس كيليكيان أريد أن أراك بعد ساعتين في الخنادق الشمالية فلدي عمل لك » رمق الروسي باكراديان بعينين حادتين وأجابه ضاحكاً: «من الممكن أن آتي ومن الممكن أن لا آتي فأنا حقيقة لا أعرف ماذا سأفعل». كان كابرييل يعرف أن كل شيء يتوقف على رده. فإذا ضرب على الوتر النشاز فإن سلطته كلها ستتقوض «استمع إليّ يا سركيس كيليكيان وافتح أذنيك جيداً». كان سلوكه حازماً بحيث أرغم الروسي على التراجع خطوة إلى الوراء. توقّف باكراديان وكان قلبه يخفق بقوة وشعر إن صوته لم يكن ثابتاً. انتظر ولم يبعد عينيه عنه ثم قال: «آذن لك بالإنصراف يا كيليكيان لتفعل ما تشعر أنه يجب أن تفعل لكن قبل أن تغادر هذا المكان يجب أن تقرّر... فأنت حر وتستطيع أن تذهب إلى الشيطان إن أردت فلن يقف أحد في طريقك. فالذين من نوعيتك هم آخر ما نحتاج إليهم في هذا المعسكر». توقف

كابرييل كما لو أنه توقّع أن سركيس كيليكيان سينتهز هذه الفرصة ويتحرّك. إلا أن الروسي ظل واقفاً فأردف كابرييل بصوت يشوبه التعاطف « كنت أنوي أن أميّرك عن زملائك، أنت الذي كنت جندياً، بأن أوكل إليك مهمّة قيادة الحامية بعد أن علمت أنك عانيت ما عانيت من الأتراك وكان بإمكانك أن تنتقم لنفسك وتنتقم منهم.. لكن نظراً لأنك حقاً لا تعرف فيما إذا كنت تحرص علي - وهذا لأنك جبان هارب، لا تستطيع أن تؤدي واجبك نحو شعبك بعد أن أديت القسم. هيا اغرب عن وجهي فنحن لا نحتاج إلى متسكعين يأكلون طعام زوجاتنا وأطفالنا. إذا تجاسرت وأريتني وجهك هنا فسآمر بإطلاق النار عليك. اذهب إلى الأتراك فسرعان ما ستصل كتائبهم إلى هنا فهم في انتظارك ».

بالنسبة لرجل كهذا فإن الشيء المتوقع هو أن ينقض على هذا «الرأسمالي ويهشّم رأسه. لكن سركيس كيليكيان لم يتحرّك من مكانه وفقدت عيناه بريقهما وراح ينقل عينيه من رجل إلى آخر بحثاً عن مناصر له. ساد صمت لبضع لحظات ثم زمجر كابرييل: « يبدو أنك اتخذت قرارك. حسناً. إلى الأمام سر. هيا بسرعة». لكن سركيس ظلّ واقفاً مطأطئ الرأس فقال له كابرييل: «حسن ؟ لماذا أنت واقف هنا ؟».

أدار سركيس كيليكيان وجهه الكئيب وقال: «أريد.. حسن ؟ » ورفع وجهه لكن عينيه كانتا مثل عيني طفل متردد. وعلى الفور تذكّر كابرييل الصبي ذا الأحد عشر ربيعاً وهو يحمل سكين المطبخ في يده ليذود عن أمه ثم قال كيليكيان: «أريد أن أبقى » ولكن كابرييل زمجر في وجهه قائلاً: « سأسامحك هذه المرة يا كيليكيان وسوف أراقب سلوكك لفترة لكنك غير جدير بتحمّل أدنى مسؤولية وحاذر فستكون تحت المراقبة. هيا انصرف » وتم تجهيز التحصينات الجنوبية بنصف الرجال الفارين فقط. وشعر باكراديان أنه وجد في أوسكانيان القزم القائد المناسب فسلمه قيادة التحصينات الجنوبية.

قبع القس آرام في مركز للمراقبة أقامته فرقة الكشافة بين أغصان شجرة سنديان كثيفة وكبيرة جداً. وكان بإمكانه رؤية ساحة الكنيسة والشارع الرئيسي في قرية بيتياس الكبيرة. وكان القسيس قد استعار منظار كابرييل الميداني وشاهد من خلاله مجموعة الروتستانت التابعة لنوخوديان تقف بشكل منتظم خارج الكنيسة استعداداً للسير وشاهد أعداداً كبيرة منهم. وهذا يدل على أن الكثيرين من هذه الطائفة قد انضمّوا سراً إلى نوخوديان. ولعل المفاجأة بعدم وجود السكان الأرمن حتى قرية بيتياس هي التي دفعت المدير وقائد الشرطة إلى تأجيل انطلاق القافلة حتى يوم الأحد. وكان الدرك يندفعون في جميع الاتجاهات وهم يلوحون بهراواتهم أو بنادقهم. ولم يتبيّن القس فيما إذا كانوا يضربون يمنة ويسرة لكنّه لم يسمع أصواتاً تعبر عن الألم أو الغضب حتى الآن. وقد ساعدت المسافة البعيدة على التخفيف من هول مشهد الرعب. وكان توماسيان يقول لنفسه مراراً إنّه لم ينفذ من بين المنبوذين الذين كانوا يجلسون هناك بانتظار رحلة الموت إلا لكي يطيل فترة حياته الدنيوية بضعة أيام أخرى. أما هنا وبين أوراق شجرة السنديان فكان الظل لطيفاً

وشعر براحة تامة. وبدأ القس توماسيان يدرك الذنب الذي اقترفه ببرودة شديدة إذ كان عليه أن يكون هناك وليس هنا. وتذكر البعثة في مرعش. وكيف أرسله الكاهن السيد ودليي بإرادة من الله لاختبار قلبه وطرح سؤاله المبهم والمحير « هل تستطيع أن تساعد هؤلاء الأطفال بالموت معهم؟» وها قد نصب الفخ. لكنه ترك الفرصة تفوته في بيتياس مرة أخرى بالإضافة إلى آلامه التي يشهد بها أمام المسيح.

وكان قد مرّ وقت طويل جداً بصورة تدعو للألم قبل أن تبدأ القافلة مع أخيه في الله نوخوديان بالإنطلاق. وبدا أنه من المؤكد أن المدير الأتمش قد قدّم بضعة تنازلات. فقد سار صف من البغال في القافلة وسارت في المؤخرة عربتان خلّفتا وراءهما سحابة من الغبار. وكان القس آرام قد رأى نفس المشهد الذي شاهده في زيتون: خط طويل أسود من البشر أشبه بدودة مجروحة تحاول عبثاً البحث عن مكان تلجأ إليه بين منحنيات الوادي وشيئاً فشيئاً بدأت تحدث فجوة بين الطرف الأخير لهذه الدودة وآخر بيت من بيوت القرية التي أخذت تبتعد ببطء شديد. قال القس آرام لنفسه: « يوجد بينهم الكثير من الحوامل » وهذه الفكرة جعلته كليلاً. وكانت الدلائل تشير إلى أن زوجته كانت على وشك الولادة ومع ذلك لم يكن بالإمكان عمل أي شيء لمساعدتها. لذلك سيولد أول أطفاله مثل أي حيوان آخر على جبل موسى. وشعر بالخوف من أن يعاني هذا الطفل في رحم أمه تكفيراً للخطيئة التي ارتكبها. أخفض منظاره الميداني وشعر فجأة بالدوار وتمسك بكلتا ذراعيه بالغصن الجالس عليه. وعندما ألقى نظرة أخرى بعد برهة وجد أن المشهد قد تغير. فقد أضحت تلك الدودة تتلوّى عبر شوارع قرية أزيز. وكانت هناك مجموعة من الدرك تسير باتجاه الشمال الشرقي بعيداً عن بيتياس نحو الكبوسية. وعلى الفور أرسل آرام تحذيراً إلى القيادة. لكن الخطر سرعان ما تلاشى. فلم يتجه الدرك نحو الممر الشمالي على الداملاجيك، بل اختفوا بين الوهاد عند أسفل الوادي. فقد دلّهم نوخوديان على الطريق الخطأ. وساد هدوء شديد وراح مئات من الأتراك يجوبون الساحة وشوارع القرى الخاوية. أما مفرزة الدرك فقد عادت باتجاه الشرق وسارت أسفل واد جانبي قبل أن تصل الكبوسية - وهو دليل آخر على خداعهم. واعتراه أمل مفاجيء - لعلنا نترك في سلام هنا لعدّة أيام.. بل لعل الأتراك يتركون جبل موسى إلى الأبد. قفز القسيس آرام من مكانه على الشجرة. وكانت أكواخ قاطعي الأخشاب منتشرة على كل جانب في البساتين الداكنة. فإذا لم يكن بامكانه أن يثبت أنه قسيس الله فليثبت على الأقل أنه جندي الله. وأسرع إلى المعسكر للقيام بمهامه.

كان النشاط يدب في أرجاء المعسكر. صفوف طويلة من الحمير محمّلة بأكوام أغصان السنديان تمرّ بجانبه جلاميد كبيرة لوضع الأساسات وهي محمولة على عربات تجرّ باليد وكان مساعدو الأب توماسيان يقيسون الشوارع بحبل ويحدّدون بها علامات لبناء الأكواخ فوقها. وأخذت العائلات تتنافس فيما بينها. وكان الأطفال يعملون جنباً إلى جنب مع الرجال والنساء الأصحاء. وقد أحرز تقدّم مذهل في تشييد «المباني العامة» (المستشفى تحت إشراف بدروس ألتوني ومخزن الحبوب الكبير). إلا أن الأب توماسيان

أشرف شخصياً على المباني العامة التي كرّس لها كل جهده والتي غطت مساحة كبيرة وبنيت بجانبها غرفتان إضافيتان.

في تلك الأثناء كانت جولييت قد استقرّت في الخيام الثلاث المخصّصة لها. ورجاها كابرييل بأن لا تفكّر في شيء أو بأحد سوى بنفسها وكان قد طرح موضوعها للمناقشة في المجلس « يحق لزوجتي أن تعيش حياتها الخاصة بها. حتى هنا على الداملاجيك. يجب أن تعيش هنا كما يحلو لها. أما نحن فننتمي إلى دم واحد لذلك نخضع إلى قوانين قرّرناها جميعنا. أما هي فيجب ألا تخضع لقوانيننا فهي فرنسية - ابنة عائلة أوفر حظاً رغم أن القدر أجبرها على مشاطرتنا أخطارنا، لذلك فهي جديرة بحفاوتنا الكريمة ». ووافق جميع أعضاء المجلس على طلب كابرييل وكان على الجميع أن يتقبّل المزايا الخاصة التي تتمتع بها. وكان كابرييل قد أمر بتوزيع معظم الحليب على أطفال المعسكر وجميع الأشياء التي يمكن توفيرها من مطبخ جولييت. غير أن هذه الأمور لم تشكّل سوى تنازلات ضئيلة جداً، إلا أنها أبقت جولييت تتمتّع بدرجة عالية من المزايا.

ولم يكن الخصوم أو الأصدقاء الساخطون بحاجة لاظهار البون الشاسع بين إبداء النصح والممارسة. فقد كانوا يلمحون إلى الحياة الفاخرة التي تحياها جولييت بينما دأب كابرييل على الحث عن ضرورة توفير المؤن والاقتصاد بها. لكنهم لم ينكروا في الوقت نفسه أن قائدهم لم يكن ينام في خيمة بل في موقعه وإنه كان يحصل على حصته شأن بقية الرجال وأن أملاكه أصبحت عامة وفي متناول الجميع، بيد أنه بقي من غير الممكن انكار أنه من أجل جولييت كان يسحب الأشياء الكمالية والمترفة من المخزن العام. وكان هذا التحيّز يمكن أن يلهب صراعاً خطيراً لكن لم يبد أن أحداً من القادة كان يفكّر في مثل هذا الأمر.

ومع ذلك فقد كان على مختار يوغونولوك أن يستمع إلى محاضرة لاذعة من زوجته حول موضوع جولييت والخيم الثلاث. إذ ألم تكن هي تلميذة في البعثة التبشيرية في مرعش وعلى نفس قدر السيدة الفرنسية؟ فهل كانت هي أقل قدراً منها لكي تعيش مثل نساء القرية العاديات في كوخ بائس مصنوع من الأغصان؟ وهل كان هو، زوجها، توماس كبوسيان حقاً دودة حقيرة بحيث لم يعد يوجد الآن فرق بينه وبين ديكران وميخائيل الفقيرين بينما يكون الفرق شاسعاً بينه وبين باكراديان المغرور؟ وقد أدت هذه التحريضات الزوجية إلى أن يقوم كبوسيان بتشييد بيت كبير قرب المصلى وليس كوخاً حقيراً، ومن أجل عدم إثارة أية مشاعرة بالضغينة من جراء ذلك فقد قرّر المختار أن يعلق لافتة على باب الكوخ كتب عليها « دار البلدية». نظر دير هايكازون إلى كابرييل قبل أن يخفض عينيه كعادته عندما يتحدث « كابرييل باكراديان. يحدونا الأمل كلّنا أن تتمكن زوجتك من الفرار، إذ سنهلك جميعنا سواء عاجلاً أم آجلاً ونأمل أن تنقل خبرنا إلى الفرنسيين ». أما جولييت فقد اتّخذت لنفسها واحدة من خيمتي الصيد وطلبت من أوسانا واسكوهي أن تشاطراها الخيمة الثانية. وكانت أوسانا تنظر بقلق وضعها وليدها. أما في الخيمة الأخرى التي استُخدمت كمخزن فقد كان فيها ثلاثة أسرّة. وكان ستيفان ينام على واحد منها

في حين كان الثاني لصامويل أفاكيان الذي كان يقضي كل لياليه تقريباً مع كابرييل لكونه ضابط أركان.

ولم تعد اسكوهي ترى جولييت كثيراً كما كانت تفعل من قبل في الفيلا. وكانت قد طلبت من دير هايكازون أن يسمح لها بالعمل كمساعدة معلمة في المدرسة ورحّب الكاهن على الفور بهذه الفكرة. لكن جولييت أبدت امتعاضها واحتقارها لهذا القرار «لكن لماذا يا عزيزتي . فعندما بدأنا نجعلك تبدين بصورة جيدة تريدين أن تذهبي وتحطّمي نفسك لماذا كل هذا؟ فهذا سخيف ». وكانت علاقة جولييت باسكوهي لا تزال غريبة. فقد بدت من خلال اللطافة التي كانت تظهرها لها في كثير من الأحيان أنها تغلّبت مرّة بعد أخرى على شعورها بالخجل وأصبحت متحمّسة لأن تكون مفيدة. حتى أن اسكوهي أظهرت شيئاً من الخجل عند رد هذه العاطفة. فعندما كن يقلن « صباح الخير» أو «تصبحين على خير »، كانت تطوق صديقتها الكبرى بذراعها لكن جولييت كانت تشعر أن هذه المشاعر لم تكن سوى تقليد كما يفعل المرء عندما يتحدث لغة أجنبية إذ يمكنه غالباً أن يستخدم مصطلحاتها دون أن يعرف تماماً ظلال معانيها.

وبدأت اسكوهي تمضي ساعات طويلة كل يوم في المكان الذي أصبح يعرف بالمدرسة حيث كان يوجد لوح أسود كبير وحاسب وخريطة عن الامبراطورية العثمانية وعدد من كتب القراءة وعدد من المقاعد. وبما أن المعلمين الذكور كانوا في الخدمة، كانت اسكوهي في أغلب الأحيان تبقى لوحدها ساعات طوالاً تحت رحمة جموح الأولاد المشاكسين. وكان فرض النظام أو إحلال الهدوء بين أطفال تتراوح أعمارهم بين الرابعة والثانية عشرة أمراً مستحيلاً. وسرعان ما كان يغطي صوت الأطفال صوتها وتنتظر مستسلمة إلى حين قدوم أحد المعلمين مثل أوسكانيان ليبثّ الذعر في قلوب تلك الشياطين الصغيرة. أما جولييت فكانت تقضي نصف نهارها مضطجعة على سريرها وكانت الخيمة الضيقة تشعرها بالاختناق. وكانت تتسلّل من ثقوب باب الخيمة خيوط من أشعة الشمس لم يكن لديها رغبة في النهوض وتغطيتها. وكانت تحدوها رغبة كبيرة بأن تقع فريسة المرض وكان قلبها الذي يخفق بقوة يكاد يتفجر شوقاً لكابرييل. لكن ليس كابرييل الحالي بل كابرييل الباريسي، كابرييل الحسّاس المرهف الذي يراعي شعورها. فقد حنّت إلى كابرييل الذي يقطن في شارع كليبر. وتذكّرته وهو جالس إلى المائدة لتناول طعام الغداء وأخذ عالمها البعيد يكتنفها: صوت أبواق السيارات، ضجيج قطار الأنفاق وروائح محلاتها المألوفة. دفنت وجهها في الوسادة كما لو أنها الشيء الوحيد الذي بقي لها، الذكرى الوحيدة عن الوطن. وحاولت جاهدة أن تتشبّث بذكريات باريس لكنّها أخفقت. وكانت أشعة الشمس قد تسلّلت إلى الخيمة. وعندما تطلّعت إلى أعلى، أحسّت بعيون تتوجّه إليها ووجه رجل غريب ذي لحية كثة. نظرت بذعر إلى كابرييل الذي بدا بعيداً جداً، واجماً. فقد كان يقضي كل لياليه في العراء وتنبعث منه رائحة التراب الرطب العالق به. وكان صوته ينمّ عن شخص متعجل، يتأرجح بين واجبين هامين: « هل أنت على ما يرام يا عزيزتي ؟ ألا تريدين شيئاً؟ لقد مررت لأتأكد عن

أحوالك ». «أنا على ما يرام شكراً » وقدمت له يدها المغلفة بالأحلام. وجلس لبرهة بجانبها ولم ينبس بكلمة وكأنه لا يوجد شيء يتحدثان عنه ثم استوى واقفاً.

نهضت من السرير وقد انتابها شعور بالانزعاج « هل تظنني حقاً أنني فارغة لهذه الدرجة ومادية وأنك لا تحتاج إلا أن تقلق بالأمور السطحية ؟» لم يفهم ما تعنيه على الفور وأخذت تشهق «لا أستطيع أن أعيش هكذا » استدار نحوها وقد ارتسمت على وجهه علائم الجد « أرى تماماً أنك لا تستطيعين العيش هكذا يا جولييت. فالمرء لا يستطيع أن يعيش في مجتمع ينأى عنه. يجب أن تفعلي شيئاً. اذهبي إلى المعسكر. حاولي أن تقدّمي المساعدة.. كوني إنسانة ».

- « لكنه ليس مجتمعي ».

- « وليس مجتمعي بقدر ما يبدو أنك تتصورين يا جولييت. فإننا ننتمي إلى مجتمع بعيداً عن المجتمع الذي جئنا منه ونبذل ما بوسعنا لنصل إليه». « وقد لا نصل ». وراحت تجهش بالبكاء.

عندما خرج كابرييل استجمعت جولييت قواها. لعله كان محقاً. إذ لا يمكن بالفعل للإنسان أن يستمرّ هكذا. فطلبت من أنتارام مايريك أن يسمح لها زوجها الطبيب بالعمل في كوخ المستشفى وقد ساعدتها على اتّخاذ هذا القرار الفكرة التي طرأت لها بأن ألف امرأة تقوم بذات الشيء في هذه اللحظة لمساعدة الجرحى. وفي البداية تردّد الطبيب لكنه سرعان ما وافق. وفي ذلك اليوم ذهبت جولييت إلى الكوخ (الذي كان ما زال قيد الإنشاء) وهي ترتدي قلنسوة ضيقة ومئزراً. ولحسن الحظ لم تكن هناك حالات مرضية خطيرة في الداملاجيك: مريض أو مريضان بالحمى يستلقيان على حصر ووسائد مغطيان بشراشف مهترئة.

كان كل شيء على ما يرام حتى منتصف اليوم الرابع من آب. ففي صباح ذلك اليوم كان كابرييل يرصد الوادي بمنظاره الميداني وبدت له القرى هادئة ومهجورة فترك مكانه وهو مفعم بالأمل بأن الأمور هادئة وأجرى زيارات مفاجئة إلى مختلف القطاعات ثم عاد إلى مقره في منتصف النهار تغمره السعادة. لكن ما هي إلا بضع دقائق حتى وصل الكشافة وهم يجرون من كل صوب وأدلوا بالتقرير التالي: سحابة كبيرة من الغبار على الطريق من أنطاكية إلى السويدية - أعداد كبيرة من الجنود في أربع مفارز ووراءهم عدد كبير من الدرك والناس !.. وكانوا يسيرون باتجاه الوادي وعبروا قرية الوقف ، أول قرية. اندفع كابرييل إلى أقرب مركز للمراقبة وشاهد صفاً من سرية من المشاة تتّجه نحو شارع القرية وعرف على الفور أنهم جنود من الجيش النظامي وذلك من الكابتن الذي كان يقودهم. وكان يسير وراء السرية ما يقرب من مائتي دركي وكانت سحابة من الغبار تنطلق وراءهم. وكان يبلغ قوام هذه القوة قرابة أربعمائة عسكري من بينهم الدرك. وظن كابرييل لوهلة بأن لهذه القوات هدفاً آخر. لكنه أصبح متأكداً من أنها متوجّهة إليهم عندما تحرّكت السرية بعد توقف قصير ودارت مشاورات بين الضباط باتجاه الشمال الغربي عند بيتياس ومن ثم توجّهت إلى الجبل. ومن عدد القوة يخال للمرء أن الأتراك كانوا يظنّون أن هذه

العملية لا تتعدى كونها أكثر من عملية مطاردة للفارين وأن كل ما سيفعلون هو محاصرة القرويين العزّل وجمعهم في الوادي. وعندما وصلت القوة إلى يوغونولوك أعلن كابرييل حالة الطوارىء تجمع دير هايكازون والمخاتير السبعة وأعضاء المجلس الكبار في السن مع بقية الأهالي في ساحة المعسكر ولم يجرؤ أحد على التنفس. وتسلّح الاحتياطيون بالمعاول والمجارف وتجمّعوا حول المعسكر ووقفوا على أهبة الاستعداد. ووقف كاريل مع الجاووش نورهان والقادة الآخرين. وبما أن هذه المواجهة كانت الأولى فلم تكن أي من النقاط الأخرى معرضة للخطر فأُخليت جميع نقاط الدعم من الرجال ولم يبق فيها إلا عدد قليل من المدافعين. ووضع جميع الفرق تحت تصرّفه في خنادق الممر الشمالي. وكان نظام الدفاع مؤلفاً من أربعة خطوط. الأول والمتقدّم جداً منها وهو الخندق الرئيسي الذي يسد المدخل إلى الداملاجيك على القمة الوعرة للمنحدر الأيسر من السادل. ويقع وراءه على مسافة عدّة مئات الأميال الخندق الثاني الذي حفر في أرض شديدة الوعورة. وعلى الطرف الأمامي من المنحدر، خلف الخندق، ربضت القوة الدفاعية الجانبية مع مراكز قنص متقدمة. وأخيراً الجانب المواجه للبحر والمتاريس المرتفعة والتي تتعذّر الرؤية فيها من خلال الصخور الكلسية الناتئة.

وتمركز في الخندق الأول حوالي مئتي رجل من أفضل المقاتلين وأشدهم بأساً تحت قيادة كابرييل. ولم يسمح لسركيس كيليكيان أو أي من الفارين بالتمركز في هذا الخندق. أما في المتاريس الصخرية فقد تمركز عدد من الرجال تم انتقاؤهم بعناية بقيادة الجاووش نورهان. ووقف مئتا رجل آخر في الخندق الثاني استعداداً للتدخّل في حالة الخطر. وسلّم كل مقاتل خمسة عشر رصاصة.

وأكّد باكراديان للمقاتلين « يجب عدم اطلاق أي رصاصة إذا لم تدع الضرورة لذلك حتى لو استمرّ القتال ثلاثة أيام فيجب أن تحرصوا على ما معكم. سواء أنقذنا أو هلكنا - واستمعوا جيداً - وهذا أهم شيء على الإطلاق. لا يفتح أحدكم النار دون أمر مني. ركّزوا عيونكم علي . يجب أن نترك الأتراك الذين لا يعرفون أننا هنا يتقدّمون حتى يصبحوا على بعد خطوات قليلة منا. ثم صوّبوا بثبات إلى الرأس وأطلقوا النار. والآن تذكرّوا الفظائع التي مارسوها ضدنا ولا شيء سوى ذلك ». عندما قال كابرييل ذلك أخذ قلبه يخفق بقوة وأصبح صوته يرتعش. وبذل جهده لتمالك نفسه لكي لا يلاحظ أحد ذلك. إذ لم يكن الإحساس مجرد إحساس باقتراب معركة بل إحساس بهذا التحدي المجنون المتمثل في مواجهة حفنة من الرجال غير المدربين جيداً لقوةٍ من جيش قوي. ولم يكن ينتابه شعور بالكراهية فقد كان يترقب عدواً ليس له شخصية معينة. فلم يعد الأتراك، أو أنور أو طلعت أو رئيس الشرطة أو المدير وبكل بساطة «العدو» الذي يجهز عليه المرء بدون كراهية.

وانتاب ذات الشعور جميع المقاتلين الآخرين. إذ يبدو أن التوتّر قد أوقف دقات قلوبهم عندما زحف الصبية يعلنون عن اقتراب الأتراك. هذه الإثارة تجمّدت فوراً لتصبح هدوءاً جليدياً، بينما

أخذ صوت أحذية المشاة يقترب شيئاً فشيئاً. اقترب الجنود الأتراك من الممر الشمالي وهم يلهثون. وبدا أن الكابتن المسؤول كان مقتنعاً بأن هذا العمل لا يعدو كونه روتينياً، وإلا لما كان قد أهمل أكثر الإجراءات الاحترازية أهمية، المبادىء التكتيكية الرئيسية لقوة ما في أرض معادية. إذ كانت بدون حماية دوريات أو حرس متقدّم، ولم تزوّد بحماية من الجانب أو المؤخرة. وكانت تسمع أصوات ضحكات وثرثرة. وعندما وصلوا إلى الحافة وقفوا يستردّون أنفاسهم.

زحف الجاووش نورهان باتجاه باكراديان وحاول إقناعه بالهجوم ومحاصرة الأتراك وقطع الطريق عليهم. لكن كابرييل كان يشد على أسنانه واكتفى بوضع يده على فم نورهان وأبعده عنه. وكان القائد التركي شاباً ممتلىء الجسم وسيماً وقد خلع سترته المصنوعة من جلد الحمل وراح يمسح العرق الذي أخذ يتصبب من جبهته وقد تجمع ضباطه حوله، وراحوا يتناقشون حول الخريطة. وكان جميعهم يتكلمون بدون نظام عسكري عن المخابىء المحتملة للأرمن. ولم يكلف الكابتن اللاهث نفسه بالصعود إلى نقطة مرتفعة ومراقبة الأرض. وأخيراً أمر نافخ البوق أن يعلن انتظام الجنود في صف واحد. وكان سبب ذلك بدون شك ادخال الذعر في نفوس الأرمن. وانتظمت الصفوف الأربعة بشكل طويل كما لو كانوا في باحة الثكنة وتقدّم العرفاء إلى الأمام وقدّموا صفوفهم لضباطهم وسحب ملازم سيفه ليقدّم الجنود للكابتن.

ألقى كابرييل نظرة متفحصة إلى وجه الكابتن. كان عريضاً ودوداً تقبع فوق أنفه نظارات ذات إطار ذهبي. وسحب الكابتن سيفه وأصدر أمراً بصوت خافت « ثبتوا الحراب » وانطلق صوت قرقعة البنادق. أدار الكابتن سيفه حول وجهه قبل أن يوجهه صوب حافة السادل وقال: «الفصيلة الأولى والثانية اتبعاني » ووجّه الملازم الأقدم سيفه في الاتجاه المعاكس وقال: «الفصيلة الثالثة والرابعة اتبعاني ». وهكذا إذن لم يكن الأتراك متأكدين فيما إذا كان الفارون موجودين على الداملاجيك أو على المرتفعات الشمالية من جبل موسى. وتمركز الأرمن في خنادقهم التي كانت تكاد تصل حتى صدورهم. وكان الخندق الأول مموّهاً بشكل لا يمكن تبيّنه إلا من منطقة شديدة الارتفاع. رفع كابرييل يده واتّجهت عيون الجميع نحوه.

كان الأتراك يتقدّمون عبر الأشجار الصغيرة ببطء. وقد أشعل الكابتن سيكارة جديدة. وفجأة اجفل وتوقف. فماذا يعني ذلك التراب المنهال هناك ؟ واستغرق ثواني عديدة حتى أدرك أنه خندق وأخذ يصيح «انبطحوا، اختبئوا ». ولكن الرصاصة الأولى كانت قد أُطلقت قبل أن تهبط يد كابرييل إيذاناً بذلك. وبدأ الأرمن يطلقون النار الواحد تلو الآخر دون حماس، فقد كان لديهم وقت كاف لكي يسدّدوا جيداً. وكان الجميع يعلم أنه يجب عدم إضاعة أي طلقة سدى. وبما أن ضحاياهم كانوا قد بوغتوا وهم على بعد خطوات قليلة منهم فلم يخطىء أحد الإصابة. وصاح الكابتن الممتلىء الجسم مرة أخرى: «انبطحوا! اختبئوا» ثم نظر مذهولاً إلى السماء وجلس على الأرض. وتدحرج منظاره الميداني قبل أن يستلقي على جانبه. وفجأة دبّت الفوضى في

صفوف الجنود الأتراك. وأخذ الرجال الذين راحوا يتصايحون يجرون أسفل المنحدر مخلّفين وراءهم الموتى والجرحى الذين كان من بينهم الكابتن وعريف وثلاثة جنود. لم يطلق كابرييل النار وشعر فجأة أنه صعد فوق الأرض .

استغرق الأتراك وقتاً طويلاً لاستجماع صفوفهم. وكان أمام ضباطهم عمل شاق لوقف التراجع . وفي الوقت نفسه تقدم الصفان اللذان لم يتعرضا للنار. ولكن بدلاً من اكتشاف خط هجوم عملي أولاً، بحث هؤلاء الجنود عن غطاء لهم بصورة عشوائية خلف الشجيرات والستائر الحجرية. وانطلق وابل من الرصاص من وراء الشجيرات لكنّها لم تلحق أي ضرر بالخنادق.

أرسل كابرييل أمراً من الخندق «لا تطلقوا النار. احتموا بشكل جيد. انتظروا حتى يعودوا». وفي الوقت نفسه أرسل كلمة إلى المواقع الجانبية يقول فيها إن أي شخص يطلق طلقة أو حتى يظهر وجهه سيعاقب بتهمة الخيانة. إذ يجب ألا ينتاب الأتراك أدنى شك بوجود مواقع جانبية. وقد بدا السفح الأرمني هادئاً كالموت. وبعد ساعة من بدء إطلاق النار بشكل جنوني، حاولت السرية شن هجوم جديد وتعززت الثقة الآن في نفوس الأرمن. وللمرة الثانية تركوهم يتقدمون حتى أصبحوا شديدي القرب منهم قبل أن يفتحوا النار ثانية بشكل أكثف من المرة السابقة. وجد ضباط الصف الآن أنه من المتعذر التحكّم في انسحاب عشوائي. وبلحظة واحدة أصبح السادل خاوياً وراحت أنات الجرحى تتعالى من بين الشجيرات. وكان عدد من الأرمن على وشك التسلّق خارج خنادقهم عندما صاح فيهم كابرييل بعدم فعل ذلك. وما هي إلا لحظات حتى تقدّم حاملو النقالات بين الأشجار وراحوا يلوحون براية حمراء. وأرسل كابرييل الجاووش نورهان باتجاههم بضع خطوات وأشار إليهم أن يقتربوا ثم صاح فيهم قائلاً: « يمكنكم نقل موتاكم وجرحاكم أما البنادق والذخيرة والطلقات والأحزمة وجرايات الخبز والبذات والأبواط فيجب أن تتركوها هنا».

وتحت تهديد البنادق الموجّهة إليهم، أُرغم حاملو النقالات على نزع ثياب الجثث ووضعها في أكوام. وأمر كابرييل أفاكيان جمع أكثر الصبية خفة وسرعة وإرسالهم لإحضار الغنائم. واختار أكثر جواسيسه خفة وحركة لملاحقة الجنود ومراقبة تحركاتهم عن كثب. وقبل أن ينتهي الصبية من جمع الغنائم هرع هايك، وهو صبي لا يكبر ستيفان كثيراً، وأعلم أن الأتراك كانوا يتسلقون الجبل من الناحية الشمالية حيث لا يوجد أحد. ولم تكن تلك سوى محاولة لمحاصرتهم من جهة الشاطىء وأوكل كابرييل مهمّة قيادة الموقع إلى أكثر قادة المجموعات الذين يعتمد عليهم وغادر الخندق برفقة نورهان.

لكن العدو كان في هذه المرة أكثر حذراً ويقظة. فقد تقدّمت قوته الأساسية ببطء على طول السفح مقابل السادل وفتح النار على حافة الغابة المحمية بالأشجار. وكانت النار كثيفة موجّهة إلى الخندق الرئيسي لكنّها لم تتلق ناراً معاكسة. وفي خلال ذلك، أعلن الكشافة عن تقدّم دورية مؤلفة من أربعة رجال بين الصخور. وكان واضحاً أن هؤلاء لم يكونوا من المقيمين في الجبل إذ

كانوا يتعثّرون فوق الصخور ويحتمون وراءها. وعرف الأرمن وقد انتابهم السرور أنهم كانوا من رجال الدرك. إذ أن الجنود غرباء تماماً عن المنطقة. أما الدرك فهم يعرفون المنطقة جيداً وقد حان الوقت الآن لرد جزء مما قدّمه لهم أولئك الوحوش القذرون.

تصور الأونباشي أنه لا بد قد تجاوز خط التحصينات وأنه في مؤخرة الأرمن. وأرسل أحد رجاله وراح يلوح بعلم أحمر، وبعد فترة وصلت قوة نصفها من المشاة والنصف الآخر من الدرك. وعندما أصبح معظم المجموعة مكشوفاً، فتح الأرمن النار من جميع الجهات. فراح المهاجمون يقفزون في اضطراب وذعر. وعندما انطلق المقاتلون الأرمن من مخابئهم من بين الصخور كان الهواء مثخناً بالآنات وصيحات الألم. وأقاموا اسفيناً بين الدرك والمشاة بقيادة الجاووش نورهان. وتمّ عزل المجموعة الأولى من المجموعة الرئيسية، كما تمّ دحرها نحو الجروف الصخرية وأخذ أفرادها يحتمون عبثاً بالصخور أو وراء النباتات الشوكية القصيرة. وبدأ الكثير منهم ينزلق، قافزاً من صخرة إلى أخرى ككرات قبل أن يرموا بأنفسهم في البحر. لكن القوة التركية الرئيسية حاولت الإفلات من بين الصخور بأقصر طريق وراحوا يقفزون ويتعثّرون ويندفعون نحو التلال بينما أخذ المقاتلون يطاردونهم.

كانت الضجة التي أحدثتها المعركة بين الصخور إشارة لبدء القوة التركية المتمركزة على حافة الغابة على طول السفح المقابل للتقدّم فخرجت بأرتال طويلة وراح الجنود يطلقون النار في الهواء ثم ينبطحون على الأرض ثم يعودون ويطلقون ثانية في الهواء. وفي تلك اللحظة كان آخر المندحرين قد انسحب من بين الصخور. وقف كابرييل فوق إحدى الصخور ولكنّه لم يطلق النار. وشاهد ملازماً تركياً يعترض مجموعة وقد بثّت فيها الفوضى. لكن الجاووش نورهان انقض على الضابط التركي وضربه بأخمص بندقيته. ورمى الأتراك بنادقهم كما لو أنهم رأوا الشيطان أمامهم. كان وجهه مورداً وشاربه الأشيب الكث يهتز بوحشية. وعندما رأى كابرييل أن الأتراك كانوا يحاولون الالتفاف نحو الصخور بدأ يلوح ببندقيته يعطي رجاله القابعين في الخندق إشارة للجري. فاندفعوا وهم يمطرون الحامية التركية الجديدة بالرصاص دون محاولة منهم توفير طلقاتهم. وهكذا أصبحت السرية بين فكي كماشة. وتمكّن الأتراك من الهرب بالرغم من أن الفرق التي كانت تحمي الجانبين سدّت عليهم الطريق ثم أخذوا يطلقون النار عليهم من الوراء. ولم يتوقّف هرب الجنود الأتراك عند أسفل الداملاجيك بل عند ساحة كنيسة بيتياس حيث أعيد تجميعهم ثانية.

ووقع بين أيدي المقاتلين الأرمن تسعة جنود وسبعة درك وضابط شاب وسرعان ما أخذ المدافعون يظهرون لأسراهم ما كان يعني الموت في مذبحة أرمنية. ولم يتمكّن كابرييل من انقاذ اثنين من الدرك. لكن القس آرام وعدد من المسنّين وقفوا أمام الأسرى لحمايتهم رغم أن الجاووش نورهان ومعه الأغلبية العظمى من المقاتلين لم يفهموا على أقل تقدير سبب الرحمة التي أظهروها

للجلادين الأتراك الذين أودوا بحياة مائة ألف من مواطنيهم. وكان من الصعب جداً على كابرييل أن يفكر بنفس عقلية هؤلاء الرجال المستائين « لن نستفيد من قتلهم ولا من الاحتفاظ بهم هنا كرهائن. فقيادتهم ستضحي بهم بسهولة. وعندئذ يتعين علينا إطعامهم. لذا فمن صالحنا أن نرسلهم إلى أنطاكية ونحملهم رسالة إلى القيادة » واستدار إلى الملازم الشاب الشاحب الوجه الذي كانت ترتعد فرائصه من الخوف « حسن. ترى كم من السهل علينا أن نجهز عليك. وتستطيعون أن ترسلوا لنا فرقاً بدلاً من السرايا - فالأمر سيان بالنسبة لنا. انظر إلى السماء فالشمس لم تمل إلى الغروب بعد ولو أردنا لما أبقينا على أحد منكم على قيد الحياة. اذهب وقل ذلك لقائدك في أنطاكية. قل له كم عاملناك بلطف أكثر مما تستحق. قل له بالنيابة عني أن يوفر كتائبه وسراياه ليحارب بها أعداء تركيا وليس مواطنين مسالمين. نحن نريد أن نبقى أحياء بسلام. هذا كل ما نبغيه. لا تتعرضوا لنا بسوء في المستقبل إلا إذا أردتم أن تحصلوا على تجربة أسوأ..».

عندما عاد كابرييل أخيراً إلى الخيمة، استحم بعد أن حلق له حلاق القرية ذقنه وقامت جولييت برعايته. وكانت قد سخنت الماء في أباريق ثم صبتها في حوض من المطاط ومدت له المناشف والبيجاما المفضلة له. وانتظرته خارج الخيمة حتى جفف نفسه. وقد استغرق حمامه وقتاً طويلاً. « هل أصبحت جاهزاً يا كابرييل ؟ سنحمل الماء بعيدا » قالت بحماس دون أن تنادي أحداً من الخدم. وحمل الاثنان الحوض وأفرغاه وراء الخيمة. وأحسّ كابرييل بأنه مستعد للاستسلام لجولييت. لعل ساعة ذوبان الإحساس بالغربة قد حانت لتستسلم له الآن كما استسلم لها في باريس. « كم سيطول الأمر ؟ » قال في نفسه، لأنه لم يعد له أمل في العيش بعد معركة اليوم. أغلق باب الخيمة بالرباط وسحب جولييت برفق إلى السرير. واستلقيا بجانب بعضهما لكنهما لم ينبسا بكلمة. وأظهرت له جولييت لطفاً شديداً من جديد وبدأت عيناها تذرفان الدموع وهمست: « كنت شديدة الذعر من أجلك ».

حدق بها لكن أفكاره جرفته بعيداً إلى الخنادق « من يعرف فيما إذا كان الأتراك لا يخطّطون لهجوم ليلي » ولم يعد كابرييل ينتمي إلى جولييت بل ولا إلى نفسه. وللمرّة الأولى في حياتهما الزوجية لم يتمكن من إظهار حبه لها.

2- مآثر الصبية

شكّلت الهزيمة المنكرة لسرية المشاة على يد المقاتلين الأرمن في جبل موسى ضربة مؤلمة ومفاجئة للحكومة في أنطاكية واعتُبرت وصمة عار في جبين الأتراك. إذ أن قوة أي شعب محارب تستند على الإيمان السحري لمناعته والمعنويات التي تنجم عن ذلك. وماذا كان سيكتب - بحق السماء - عن جبل موسى ! فمن الناحية السياسية كان هذا الحدث أقل أهمية بكثير من الأنباء التي انتشرت عنه والذي كان من الممكن أن يشكّل خطورة كبيرة. إذ أن وجود عدد آخر من أمثال باكراديان هنا وهناك كان سيضع تركيا أمام مصاعب خطيرة وذلك لأن كل أرمني كان قد حُكم عليه بالموت.

لاحظ وجهاء أنطاكية الذين أخفي عنهم خبر هذه الهزيمة الأنوار مضاءة في نوافذ غرفة اجتماعات القائمقام في ساعة متأخرة جداً من الليل وخشوا من حدوث الأسوأ. وكان مستشار تلك الناحية يرأس الجمعية الرئيسية المؤقتة التي يتألف عادة من أربعة عشر عضواً. وقد بدا وجه القائمقام الشاحب ذو الانتفاخات البنيّة الداكنة أسفل عينيه أكثر وجوماً من ذي قبل تحت ضوء مصباح الزيت. وبينما انهمك المستشارون في المناقشات جلس القائمقام صامتاً وقد تملّكته الهموم. وكان خداه الرخوان الناعمان متهدّلين عند ياقة قميصه وكان طربوشه منحرفاً إلى جانب رأسه مما يدل على ذهوله وتعكر صفوه. وكان يجلس على يمينه قائد أنطاكية، وهو كولونيل ذو لحية بيضاء وعينان صغيرتان وخدود متوردة. وهو ينتمي إلى ضباط الرعيل الأول المستعدين للصمود حتى آخر قطرة من دمائهم. وجلس نائبه اليوزباشي بجانبه الذي لم يكد يبلغ الثانية والأربعين من العمر.

وقف الملازم الذي نجا من معركة 4 آب والذي أرسله كابريل عارياً إلى أنطاكية وقد حمّله رسالة إلى قائده وراح يقدّم تقريره إلى رؤوسائه. وأفاد أنه يجب أن يكون هناك عشرة آلاف بل حتى عشرين ألف مقاتل أرمني يربضون في جبل موسى متمركزين وراء أقوى التحصينات. ومما لا ريب فيه أنهم كانوا قد بدأوا بجمع الذخيرة والمؤن التي تكفيهم لمدة غير محددة منذ سنوات. فقد رأى بأم عينه موقعين لمدافع رشاشة. وإن الرشاشات التي يوجد العشرات منها هي التي أدّت إلى هذه الهزيمة المنكودة. لم ينبس القائمقام بكلمة، بل أسند رأسه المثقل على يده اليمنى وراح يحدق في خارطة الامبراطورية العثمانية المفتوحة أمامه على الطاولة. وعلى الرغم من أن مثل هذه الأمور الهامة لم تكن تعني أياً منهم، فقد

وجد هؤلاء المسؤولون متعة خاصة في تثبيت دبابيس تحمل على رؤوسها أعلاماً، على طول خطوط الجبهات. ولعل هذه الجبهات لا تبرّر سمعة أنور باشا البراقة الذي هزم جيشه في القوقاز وتناثرت أفضل معداته فوق ممرات ومنحدرات هذه الجبال التي لا ترحم. فقد كان الروس يقفون بالمرصاد على حدود بلاد فارس ووجهتهم الموصل بعد أن دحروا جاويد باشا، ابن عم أنور، وأحد الجنرالات المشهورين في أحداث المجازر. أما الانكليز مع جنودهم الهنود فكانوا يهدّدون بلاد ما بين الرافدين، في حين تبدّدت حملة جمال باشا الضخمة إلى السويس على الرمال الحارة. وفي أثناء ذلك كان الحلفاء يدكون أبواب استانبول بمدافعهم البحرية في شبه جزيرة غاليبولي حيث خسر الأتراك في هذه المعارك كميات ضخمة من الأسلحة والعتاد الحربي، علماً أن تركيا لا تملك صناعة عسكرية. بل كانت تعتمد على إنتاج كروب وإسنا وسكودا ويبلسن الضخم. إلا أن مراكز انتاج الدمار هذه لم تكن قادرة على تلبية طلبات الزبائن الضخمة والفورية. إذ كانت تصل نسبة ضئيلة جداً من المدافع الثقيلة ومدافع الهاوتزر ومدافع الهاون والرشاشات والقنابل اليدوية والغازية إلى تركيا وتوزع على مختلف الجبهات على الفور.

وضع البنباشي نظارته رغم عدم وجود شيء يمكن قراءته. ولعله أراد أن يشير إلى أنه كان أكثر الرجال بصيرة في الغرفة. هز رأسه عدة مرات للضابط وقال: « لم يكن هذا الأمر السيء سوى نتيجة مباشرة لغبائكم وعدم مبالاتكم. فالأنظمة تقضي بوجوب استطلاع مواقع العدو قبل التقدّم نحوه. ولكن بما أن الأمر قد تم فإني أريد أن أسأل القائمقام: ماذا بوسعنا أن نفعل حيال ذلك ؟ هل يجب أن نضحي بمزيد من رجالنا؟ أم نترك أولئك الخنازير الملاعين بسلام وندعهم يموتون جوعاً في الجبل؟ ما هو الضرر الذي سيسبّبونه لنا؟ فالترحيل من شأنك وليس شأننا. فلماذا لا تهتمّون أنتم المدنيون بهذا الأمر؟ إذا كان لديهم حقاً عشرة آلاف بندقية؟ رفع المدير رأسه وقال: «لا يوجد لديهم خمسمائة بل حتى ثلاثمائة بندقية - إني أعرف ذلك جيداً لأني مسؤول عن تلك الناحية ».

نزع البنباشي نظارته بنفس الاهتمام الذي وضعها فيه وقال: «أظنّ أنه من الأفضل أن نطوي هذا الأمر فقد قام هؤلاء بترحيل أنفسهم فماذا نريد أكثر من ذلك ؟ هناك أناس من جميع القوميات يعيشون على طول الشاطىء يونانيون وعرب.. هل المطلوب مني أن أجعل نفسي مهزأة لأشنّ حرب تافهة تحت أنوفهم؟ فإذا حاولتُ أن أجمع فرقة من المنطقة فلن أتمكّن من جمع أربع سرايا نظامية. أما الأكراد والقوميات الأخرى فلن يقاتلوا ضد الأرمن بل ضدنا نحن. صدقني. فمن الحكمة أن لا نتكلّم عن هذا الموضوع أكثر من ذلك ».

أشعل اليوزباشي المكتئب لفافة من عقب لفافة سابقة ولم ينبس بكلمة. استوى واقفاً ووجه كلامه إلى رئيسه « سيدي البنباشي هل تتفضل وتسمح لي أن أعبّر عن دهشتي لما قلته للتو !! فكيف يمكننا أن نسكت عن هذا الأمر بينما قتل قائد سرية وثلاثة ضباط ومائة رجل؟ بل إني

أقترح أن تأخيرنا لتقريرنا حتى الآن يعتبر تقاعساً لا يُغتفر . وفي اللحظة التي ينفض فيها اجتماعنا، سأبدأ بكتابة التقرير بعد أمركم لنرفعه إلى القيادة العامة ». صفق البنباشي وازداد خداه احمراراً: لأن اليوزباشي كان أولاً محقاً - وهو دائماً كذلك - وثانياً لأنه كان شيطاناً. وأخيراً بدا أن القائمقام قد انتهى من تأملاته الطويلة وقال: « سأنهي هذا الموضوع في حدود إمكانياتي. وكانت تلك هي الطريقة البيروقراطية لإعلان قرار هام الذي أدى إلى اتخاذه بصورة رئيسية الخوف من والي حلب. إذ كانت التعليمات التي تصدر يومياً تشدّد على وجوب تنفيذ الترحيل بسرعة كبيرة. ولعل المقاومة التي أبدَتْها القرى السبع يمكن أن تؤدي إلى تدمير القائمقام نظراً لأنها تنطوي على وجود تقصير في المراقبة وعدم تجريد السكان من السلاح بشكل كامل. وإذا ما تناهى إلى الوالي أمر هذه الهزيمة فمن الممكن أن ينال القائمقام شر مستطير منه ومن الاتحاد. لذلك يجب أن يكون تقريره المدني مصوغاً بشكل دقيق جداً.

قال البنباشي بشيء من الانفراج: « كيف يمكنك أن تنهي الأمر بينما جميع رجال الدرك الذين لديك قد ذهبوا لمرافقة القوافل وجميع جنودك على الجبهة ؟ » رمش عينيه ونظر إلى اليوزباشي « أما أنت يا يوزباشي فأنا آمرك أن تطلب في تقريرك إلى القيادة العامة تزويدنا بأربع كتائب ومدفعية ميدانية. إذ لا يمكننا محاصرة جبل ضخم من هذا النوع دون قوات ومدافع ».

لكن اليوزباشي بدا أنه لم يلاحظ الغضب الذي انتاب رئيسه. « سيدي البمباشي . أفهم تماماً أمرك لكن جميع هذه الأمور يعرفها جمال باشا معرفة جيدة. وأظن أنه يجب أن تكون واثقاً بأنه سيدعمك. إذ أن ترحيل الأرمن بعد كل شيء هو من عمل رفاقه، ومن المؤكد أنه لن يدع أي فلاح أرمني قذر أن يخدعك ». وقد قرر القائمقام الذي بدا أنه يغط في النوم خطّته. فقد قرر أن يتحالف مع أقوى رجل في الغرفة وهو اليوزباشي وأن يرمي بالبنباشي إلى الذئاب. أمال رأسه قليلاً وراح يدق على الطاولة بقبضة عصاه العاجية « أرفع هذه الجلسة وأطلب من اليوزباشي أن يبقى عدّة دقائق لأتحدث معه على انفراد لكي نتباحث بشأن التقرير الذي سنرفعه إلى السلطات المدنية والعسكرية. وسأرسل لك يا حضرة البمباشي التقرير للمصادقة عليه».

بعد يومين أرسل تقريران طويلان من أنطاكية وبعد خمسة أيام وصل الرد، الذي يؤكد على وجوب مجابهة جبل موسى بالعتاد المتوفر وإبادة من عليه مهما كلف الأمر. وكان التنازل الوحيد الذي قدّم للبنباشي اعارته مدفعي هواتزر قياس 10 سم وهما الآن في طريقهما إلى حلب من حماه ومن ثم سيرسلان إلى أنطاكية. ولم يصل هذان المدفعان إلا بعد سبعة أيام. وكان طاقم المدفعين مؤلفاً من ملازم شاب وثلاثة عرفاء واثني عشر احتياطياً من المستّين وعدد من الجنود الآخرين لجر المدفعين وكان من المستحيل استخدام هذا النوع من المدفعية في الجبال.

في ذلك الوقت تقريباً، كان قد مضى على سكان القرى في جبل موسى تسعة أيام، بدأ المعسكر يعاني من نقص شديد في اللحوم ونقص يكاد يكون تاماً في الفواكه والخضار. وصدرت أوامر صارمة تحصر استخدام جراية الحليب بالعجزة والمرضى والأطفال تحت العاشرة فقط تاركين

كمية ضئيلة جداً لصنع الجبن والزبدة. وشدّد الجميع على ضرورة الاقتصاد بالمؤن. ورغم أن جولييت التي أصبحت تعمل مع الطبيب ألتوني الآن قد وضعت تحت تصرّف المستشفى جزءاً لا بأس به من مؤونتها وأغذيتها المعلبة والسكر والشاي والأرز فقد كان لديها كمية كافية من الكعك والبسكويت يمكنها تعويض نقص الخبز. ولم يعانِ ستيفان بعد من أي نقص كان. وكانت المجموعات على أهبة الاستعداد دائماً وكان عمال الارتباط تحت تصرف الأساتذة الثلاثة عشر الذين يتمركزون حول مراكز المراقبة العديدة. وكان المعلم شاداخيان يجري تفتيشاً على كشافته يومياً ويجري تمارين وتدريبات عن هجوم غير متوقع. وحتى الآن كان يمكن اعتبار تحصينات كابرييل كاملة. وكان على جميع رجال المجموعات المقاتلة وعمال الارتباط والاحتياط أن يبذلوا جهداً كبيراً خلال هذا الأسبوع إذ أصبحت هذه الخنادق أكثر طولاً ومدعمة أكثر بالتعزيزات. وتمّ ربطها بالخط الثاني وبنقاط القنص المتقدمة التي تم تمويهها بالأغصان وذلك لتمكين أشد المدافعين القنص من المؤخرة أو إطلاق النار على الفلول المنسحبة. وكان كابرييل يشحذ فكره لاستنباط طرائق دفاعية جديدة وعمل أشراك وكمائن. وأراد أن يعتمد موضوع الهجوم على أقل قدر من العامل البشري. ولم تكن الدورة التدريبية القصيرة التي أجراها في مدرسة الضباط في استانبول والخبرة التي اكتسبها من خلال مشاركته في معارك المدفعية في بولير مساعفة بقدر ذلك الكتيب القديم عن المشاة الصادر عن وزارة الحربية الفرنسية الذي كان قد اشتراه من أحد أكشاك بيع الكتب المستعملة في باريس. إذ أن رؤية هذا الكتاب الذي اعتبره كنزاً الآن ولّد إحساساً فلسفياً غريباً في نفس كابرييل.

– « لقد اشتريت هذا الكتيب دون أن أعلم أنه سيأتي يوم وأستخدمه فيه. فقد أعجبت بكل بساطة بصفحة العنوان رغم أن الموضوع لم يكن يهمني ولم يجذبني أبداً. لقد كان قدري يتحدّد من تلقاء نفسه منذ اللحظة التي اشتريته فيها دون إرادة مني. حقاً يكاد المرء يظن أن قدري مرسوماً من الألف إلى الياء. منذ ذلك اليوم في 1910 الذي جعلني أتوقف عند كشك الكتب المستعملة على رصيف فولتيو لمجرد أنها احتاج إلى هذا الكتاب لأغراض مستقبلية ». كان ذلك أول تأمل استسلم له كابرييل منذ عدّة أسابيع، لكنّه أبعده عنه على اعتباره شيئاً يثقل عليه. وتوصّل إلى نتيجة مفادها أن الرجل العملي الحق (الذي لم يكن هو من ذلك الضرب) يجب أن يكون بحكم الضرورة دون تفكير. وقد زوّده الكتيب بتحذيرات وأفكار ومخططات كثيرة وحسابات أمكنه استخدامها على نطاق ضيق. وراح الجاووش نورهان الذي مُنح لقب «الأسد» لقاء بطولاته في 4 آب يدرب الفرق طوال النهار حتى درجة الإنهاك. ووضع كابرييل عدة تمارين تكتيكية حتى يتمكن كل رجل من معرفة الأرض شبراً شبراً وأن يكون مسلّحاً تسليحاً تاماً إزاء جميع طرائق الهجوم المحتملة. واكتملت علامات الإنذار حتى أصبح بالإمكان الآن، وفي خلال ساعة واحدة فقط ومهما بلغت المسافة، احتلال ومحاصرة أي نقطة.

لم يكن المخيّم مقسّماً حسب الكيمونات فقط، فقد كانت الأكواخ فيه مصطفّة على شكل «شوارع» تؤدي كلّها إلى ساحة المصلى الكبيرة. وقد شيد هذا المعسكر فوق أرض صخرية

متعرجة إلا أنه تمّ تسويتها بقدر الإمكان. وكانت ساحة المصلى وهي النقطة المركزية لهذا المعسكر البدائي المكتظ قد أحدثت انطباعاً عظيماً. وعندما نجح المختار توماس كبوسيان في بناء كوخه الخشبي الذي أطلق عليه اسم « دار البلدية» لم يهدأ بال زملائه الستة الآخرين حتى يحصلوا على حق بناء أكواخ مماثلة حول المصلى. غير أن تحفة توماسيان كانت ما تزال مقر الحكومة الذي لم يكن له أبواب ونوافذ حقيقية فحسب بل كذلك سقف مغطى بصفائح رقيقة. وقد انتصب هذا البناء القوي كرمز للآمال التي كانت تحدو هؤلاء المقاتلين ويضم ثلاث غرف ، وغرفة مركزية كبيرة وغرفة اجتماعات وغرفتين صغيرتين على الجانبين. وقد فصلت الغرفة الجانبية اليمنى عن غرفة الاجتماعات بواسطة جدار غليظ . وقد خصّصت هذه الغرفة سجناً في حال حدوث جريمة خطيرة. وكان دير هايكازون واثقاً من أنها لن تُستخدم أبداً. أما الغرفة اليسرى فقد خُصّصت لكريكور الذي أقام جداراً متيناً من الكتب ووضع سريره وراءه. وكان يمر عبر فتحة ضيقة فيها. وقد صفّ الجرات والمزهريات على الرفوف إزاء الحائط. لذا فإن مقر الحكومة لم يكن له صفة وزارة أو مبنى برلمان بل كذلك قاعة محكمة بل وحتى جامعة ومكتبة حكومية لأن كريكور كان يستقبل تلاميذه والأساتذة فيه.

لم تكن نهارات آب الطويلة طويلة بشكل كاف لإنهاء جميع الأعمال المزمع إكمالها. فقد كان العمل يبدأ في الرابعة صباحاً عندما تبدأ عاملات الحليب في التجمّع في الساحة حيث يكون الرعاة قد جمعوا الأغنام والماعز ثم يحمل الحليب في أوعية كبيرة إلى الناحية الشمالية من المعسكر حيث تقوم أنتارام مايريك بتوزيعه على المخاتير والمستشفى وصانعي الجبن. وفي الوقت نفسه يكون صف طويل من النساء والفتيات في طريقهن إلى الجداول القريبة لملء جراتهن بمياه الينابيع النقية التي كانت تبقى شديدة البرودة في هذه الجرات حتى في الظهيرات القائظة. فقد كان ما يميز جبل موسى من جمال طبيعي ينابيعه الكثيرة ذات المياه الصافية الرقراقة الباردة. ولدى عودة حاملات القلال يكون المخاتير السبعة في طريقهم إلى المرعى لانتقاء الحيوانات التي سيتم ذبحها في اليوم التالي. أما بالنسبة للمؤن فقد أصبح من الواضح الآن أن الوضع سيصبح مهدّداً. إذ أنه من أجل اطعام خمسة آلاف شخص يقوم الكثير منهم بأعمال يدوية عليهم أن يقتاتوا على هذا اللحم فقط، فقد كان من الضروري ذبح ما يقرب من خمسة وستين غنمة كل يوم إذا قيض لهم اطعام جميع المقاتلين بصورة لائقة. وكم ستطول الحياة على الجبل إذا ما تناقصت المؤن بهذه النسبة المريعة؟ لقد أعطى دير هايكازون والقس آرام توماسيان في أول يوم أحد أوامر صارمة بوجوب عدم إهدار أي جزء من الغنمة مهما كان حتى أحشاؤها. وفي الوقت نفسه انخفض عدد الأغنام المذبوحة يومياً إلى خمس وعشرين غنمة واثنتي عشرة عنزة. غير أن كل هذا لم يخفّف من وطأة الأخطار الكثيرة المحدقة بالقطعان بعد أن استهلكت مساحات كبيرة من المراعي المحيطة بالمعسكر. فمنذ الأيام الأولى من صعودهم إلى الجبل أخذت هذه القطعان تفقد وزنها ومع ذلك فلم يجرؤ أحد على ارسال الرعاة إلى المروج الممتدّة وراء الممر الشمالي. وكان اللحم يُشوى على عواميد ويوزّع مرة في اليوم من قبل كل مختار لمجموعته تحت إشراف القس آرام. وكانت الأجزاء

المخصّصة للقرى المنفصلة توضع على طاولات طويلة ويتمّ تقسيم حصة كل عائلة على حدة. وهكذا كانت تأتي مائة واثنتا عشرة امرأة ويقفن في صف واحد وراء الطاولة المخصصة لقريتهن وتتلقى كل واحدة حصتها بدقة من المختار. وكان يقوم شخص عادة ما يكون قسيس القرية أو أستاذ المدرسة بتدقيق عدد الأشخاص المتلقين من قائمته ويشطب الأسماء حال الانتهاء من توزيع حصتها. وبالطبع كان كل ذلك يستغرق وقتاً طويلاً، وكان قلّما يحدث تبادل للاتهامات والمهاترات. وقبل توزيع الحصص يكون عمال الارتباط قد نقلوا حصة الجيش والتي تشكل أكبر جزء إلى الخنادق. ولم تكن توزع على أفراد المعسكر أكثر من وجبة واحدة في اليوم. وفي المساء كانت تغلى الماء في قدور كبيرة في الساحة وتوضع فيها أنواع من الجذور ليحصلوا على شيء أشبه بالشاي.

ونظّم القس آرام قوة من الشرطة لحفظ النظام مؤلفة من اثني عشر رجلاً. وكانوا يجوبون المعسكر ليلاً نهاراً ليشعروا الناس بأنهم في وقت حرب ويجب على الجميع أن يتصرّفوا بشكل جيد. كما كانوا مسؤولين عن التدابير الصحية التي كان يلح عليها كل من باكراديان وبدروس وألتوني وشاداخيان « والمتعصبين الأوروبيين » الذين كانوا يعتبرونها قضية هامة إذ أن كثيراً من الأمور التي كانت تعتبر عادية في القرى أصبحت محظورة في جبل موسى. إذ لم يعد يسمح برمي الفضلات خارج الخيام أو دلق المياه القذرة في الشارع. وكان من أول الإجراءات التي اتخذها كابرييل حفر مراحيض كبيرة. وكان الشخص الذي ينتهك قانون النظافة يعاقب بعدم توزيع جرايته اليومية طوال اليوم. هذه هي الصورة العامة للحياة التي كان يحياها الناس في جبل موسى خلال الأسبوعين الأولين من المعسكر. فقد عاش هؤلاء الناس في العراء معرضين لشتّى المخاطر وكان الموت يكتنفهم من كل جانب. غير أن هذا القانون فرض إشكالات مجتمعية استسلم لها الجميع بنفور أو رضا. إلا أن الأغنياء بصورة خاصة، أصحاب القطعان المحتجزة، شعروا بالاستياء العميق لهذا التأميم للأملاك الخاصة. وكانوا يتصوّرون أنهم لو كانوا قد وافقوا على الذهاب في القافلة لكان هناك احتمال كبير في فقد أملاكهم فحسب، ولما كانوا أحسوا بمرارة أن يصبحوا مدقعين في الفقر. ورغم أنه بدا لهم أنه لم يبق أمامهم من الحياة سوى أيام معدودة، فقد بذلوا ما بوسعهم لكي يميزوا أنفسهم عن بقية القرويين وذلك « بالاحتفاظ بمظاهرهم» على أقل تقدير.

وفي وسط المخيم انتصب المصلى. وكان من عادة دير هايكازون أن يجثو على أعلى درجة له ويميل برأسه على كتاب القداس في ساعات الصباح الأولى. فقد كان دير هايكازون شكاكاً بطبعه. وعندما توقف الناس عن الاعتقاد بإمكانية إنقاذهم، كان ينتابه شعور أكيد بأنه معجزة ما ستحدث. التأكد من أنهم لن يضيعوا الإيمان الذي يمكن أن يزعزع الجبال ويحي الموتى.

كانت جولييت قد استجمعت نفسها وأصبحت تعيش حياة مختلفة تماماً. فقد أصبحت تنهض بعد شروق الشمس وترتدي ثيابها بسرعة وتساعد أنتارام مايريك في توزيع الحليب

الصباحي ثم تنطلق بسرعة إلى المستشفى. وكان ذلك كل ما بوسعها أن تفعله. وكان كابرييل محقاً تماماً. فلا يمكن لأحد أن يستمر في العيش إلى ما لا نهاية « كأجنبي متميز» في فراغ.

وسيجد المراقب السطحي أنه من السهل جداً توجيه النقد إلى جولييت. فماذا تتوقع هذه المتكبرة؟ إذ ما هي الفائدة التي حصلت عليها من جراء ذلك وهي التي دمّرت حياتها الزوجية بعد خمسة عشر سنة من زواجها، من عالمها لكي تصبح شديدة الغرور؟ أفلم يكون يوجد في تركيا الآن، وفي هذه اللحظة بالذات، الكثيرات من الأوروبيات اللواتي يساعدن الشعب الأرمني في محنته؟ ألم يكن ثمة كارين يبيه في أورفة التي قامت باخفاء اللاجئين الأرمن وأبعدت عنهم الدرك بذراعيها الممدودتين عبر الباب حتى ابتعدوا عنها لأنهم لم يجرؤوا على قتل امرأة دانمركية؟ ألم تنطلق الارساليات التبشيرية الألمانية والأمريكية وتتكبد المشاق حتى دير الزور. لتمد ما أمكنها يد المساعدة للأطفال الضائعين والمتضورين جوعاً وأرامل الرجال المقتولين ؟ رغم أنه لم تتزوج إحداهن من أرمني ولم تنجب صبياً أرمنياً. ويمكن أن يبدو هذا اللوم الشديد عادلاً جداً، ومع ذلك فهو مجحف بحق جولييت. فهي الوحيدة التي عانت على جبل موسى أكثر بكثير من الآخرين فلقد عانت أشد ما عانت من نفسها. إذ كانت تشعر ببؤس شديد من جراء تكبرها فنظراً لكونها فرنسية فهي تمتلك صلابة طبيعية معينة. إذ أنه بالرغم من دماثة الشعوب اللاتينية الظاهرة، فقد كانوا متصلّبين من الداخل. والفرنسيون كقاعدة عامة لا يكرهون شيئاً أكثر من تركهم لبلادهم والخروج عن جلدهم. وكانت جولييت تشاركهم إلى درجة كبيرة في هذه الصفة التي يتّسم بها شعبها. وكانت تعوزها قوة التعاطف الحدسي الذي يصاحب عادة شكوك لا شكل لها. فلو كان كابرييل منذ الأيام الأولى لزواجهما، قد وطد العزم على توعيتها بعناية نحو شعبه فلربما اختلف الأمر. إلا أن كابرييل نفسه كان باريسياً - واحداً من أولئك الذين يتمثلون الشعب الجديد بسرعة. والذين عندما كانوا يفكّرون بأرمينيا كانوا يفكّرون بها على نحو كلاسيكي وليس على أنها حقيقة واقعة. فالأشياء الصغيرة التي أمكنه رؤيتها عن الأرمن، الاتصالات السياسية المثيرة التي أقامها خلال سنة الثورة التركية وتوظيفه لأفاكيان من أجل تعليم ستيفان - كل هذا لم يكن كافياً لإعطاء جولييت المنظور الصحيح ولم يكن كافياً لاستمالتها إلى جانبه طوال خمسة عشر عاماً كانت تدرك أنها كانت متزوجة من مواطن عثماني ولم تكتشف ماذا كان يعني كونه أرمنياً إلا منذ أسابيع قليلة ماضية وبحزن شديد. لذا، فإن اللوم يقع على كابرييل للموقف الذي وقفه من جولييت.

وبدأت جولييت تشعر بوحدة قاتلة. هي تلك المرأة ذات الحيوية التي كانت تدخل الإعجاب في نفوس الآخرين. لم يعد يلحظها أحد الآن، وكانت واثقة بأنها تزداد بشاعة يوماً بعد يوم وأصبح يتملكها شعور بالاستياء الشديد. ومن خضم كل ذلك تمخض ألم جديد - فرنسا! فكل ما كان يصل من أخبار إلى جبل موسى كان يتمّ فقط عن طريق الصحف التركية. التي عادة ما تكون قديمة لأسابيع عديدة بل أشهر. ولم تعلم جولييت بالهزائم التي منيت بها فرنسا وإن الجيوش الأجنبية أصبحت تحتل التراب الفرنسي. فهي التي لم تكن تعنى أبداً بالسياسة، والتي

كانت سرعان ما تشعر بالضيق من معرفة مصير الناس وذلك لأن أمورها الخاصة كانت تحتل الصدارة في نفسها. ولذلك باتت تنتابها مخاوف «الوطن». فقد أصبحت أمها التي لم تتفق معها يوماً وأخواتها اللاتي كانت دائمة الشجار معهن قريبات جداً منها في أحلامها. ومن حين إلى آخر كانت تتخيل أباها المتوفى وقد ارتدى بذته ووضع ريبانة حمراء في العروة وراح يحدق في جولييت بدهشة ويردد تعبيره الودي « هذه الأمور لا تهم ». وكانت جولييت تقضي كل صباح ثلاثة أو أربع ساعات في كوخ المستشفى عادة حتى يتناول المرضى طعام العشاء، وكقاعدة عامة، وعند ذلك الوقت تقريباً، كان كونزاك ماريس يأتي ليصحبها. وإذا لم تكن قد أنهت عملها كان ينتظرها. وكانت عيناه تتابعان كل حركة تصدر عنها. وكانت تشعر بعينيه تحدقان بها. وعندما كانت تنهمك في مهمات المستشفى كان يأتي إليها ويهمس في أذنها « هذا يكفي ! اتركي العمل الآن يا جولييت فهو لا يليق بك كثيراً» ثم يرغمها بلطف على مغادرة الكوخ. وكانت تشعر بالسعادة لقيامها بذلك، لأنه لم تكن لكونزاك مهام يتوجب عليه القيام بها في المعسكر كما لم يطلب من المجلس أن يكلّفه بأي عمل . إذ كان يقضي جل وقته في استكشاف بعض الممرات والأماكن الطبيعية الخلابة ليمضي فيها أوقاته ويتطلّع إلى البحر. لقد كانت المناظر الطبيعية رائعة وتشبه الريفيرا تماماً.

وكانت جولييت وكونزاك يجلسان بجانب بعضهما في كل يوم. وفي ذلك اليوم، الرابع عشر من آب وهو اليوم الرابع عشر في جبل موسى بدا أن كونزاك قد تغير تماماً. فلم تكن جولييت قد رأته قط بمثل هذا الحزن والقنوط. وكانت عيناه تحدقان في اللا نهاية. وكانت أفكاره تنصب على الوادي الممتد عند مصب العاصي حيث كان ينتصب مصنع كبير لصناعة الكحول وهو يتلألأ تحت أشعة الشمس. وكان سؤال جولييت الذي كان يعبّر عن أحاسيسها وليس عن أحاسيسه قريباً من الهدف « هل تشعر بالحنين إلى الوطن يا كونزاك ؟» أطلق ضحكة قصيرة وأدركت وقد انتابها شيء من الخجل كم كان سؤالها تافهاً. وراحت تفكر بالحياة التي أخذ يرويها لها شيئاً فشيئاً. فقد كان والده وهو صرّاف في أثينا قد أغوى أمه تلك المربية الفرنسية، وفجأة ولم يكن قد بلغ الرابعة من العمر بعد، هاجر والده إلى أمريكا وانقطعت كل أخباره وتركه هو وأمه التي كانت مولعة جداً بالزوج الفار. وتمكنت بمشقة كبيرة عبور الأطلسي لتبحث عنه ومعها كونزاك الصغير. وفي أثناء بحثها عن زوجها تزوجت رجلاً آخر. وقد كان رجلاً عجوزاً يملك مصنعاً للمظلات في ديترويت وتبنى كونزاك. وأضاف كونزاك: « وهكذا ترين أني محق تماماً في استخدام اسمين لكني أشعر أنه من الخطأ أن أدعو نفسي كونزاك ماك ويفرلي ولذلك فإني أتمسك بماريس ». لكن والدته لم تكن سعيدة مع زوجها الجديد فافترقا. وكان عليها أن تترك البيت في ديترويت وتنقل كونزاك من مدرسة داخلية إلى أخرى حتى بلغ الخامسة عشرة من عمره. وفي ذلك الوقت تقريباً وبمحض الصدفة عثر على أبيه الحقيقي الذي شعر بالندم وتأنيب الضمير وذلك لأن والدة كونزاك كانت قد ماتت في جناح الفقراء المدقعين في مستشفى نيويورك. لكنه سرعان ما أعاد الصبي الصغير مع مبلغ ضئيل من المال إلى أثينا ليقوم بعض أقاربه

برعايته. ولكن كونزاك لم يتحدث كثيراً عن السنوات التي أعقبت ذلك والتي وصفها أنها لم تكن سنوات سيئة أو جيدة ولم تكن ذات أهمية خاصة. وبعد طفولة معذبة وشباب مهمل ضائع تمكن من اكتشاف مواهبه في باريس التي جعلته يشق طريقه في هذا العالم. وعاش في تركيا بضع سنين بعد أن أحضره أقاربه من أبيه إلى استانبول إزمير. وفي استانبول عمل مراسلاً لصحف أمريكية وراح يزودها بأخبار ومقالات تصف الحياة في المناطق الداخلية. ونظراً للظروف السيئة التي مر بها، عمل بالإضافة إلى ذلك في إحدى فرق الكورال الإيطالية المتنقلة من الدرجة الخامسة التي قدمت من فيينا. وفي النهاية تعرف على صاحب ملهى ليلي من بيرا وأخذ يتجول مع فرقة من المغنين والراقصين المبتذلين. وسألته جولييت عن عدد النساء اللاتي كن في الفرقة الموسيقية التي رافقها إلى اسكندرونة فشعر بالانزعاج من سؤالها وأجابها منتهراً « حوالي ثماني عشرة أو عشرين كما أتصور ». « حسن. لا بد أن يكون بينهن شابات جميلات. ألم تعجب بإحداهن يا كونزاك؟» لكنه أبعد هذا التلميح وقال: « للممثلات وقت صعب وضيق جداً. والمحترفون عادة يعتبرون الحب جزءاً من عملهم ويرفضون العمل الإضافي ».

لكن فضول جولييت لم يتبدد بسرعة فأكملت: « لكنك عشت بضعة أشهر في اسكندرونة.. ذلك الميناء الصغير القذر..».

- « لكن اسكندرونة ليست سيئة إلى الحد الذي تظنين يا جولييت.. فهناك أرمن كثيرون هناك يعيشون في بيوت جميلة وحدائق كبيرة».

- « آه فهمت. إذاً كانت إحدى تلك العائلات هي التي جعلتك تقيم فيها طويلاً» ولم ينكر كونزاك أن فتاة شابة من اسكندرونة دفعته لأن ينهي عقده مع مدير الملهى وأحجم كونزاك عن المضي في المزيد من التفاصيل الأخرى عن تجربته وقال إن الأمر كان مجرد خطأ وقد انتهى كل ذلك وأصبح في طي النسيان. وهذا السبب هو الذي جعله يأتي عن طريق بيلان إلى يوغونولوك ومن ثم إلى فيلا باكراديان.

أخذت جولييت تفكر في وضع كونزاك في هذا العالم. وبدأ شعورها بالوحدة يخف شيئاً فشيئاً. كم أصبحت تزعجها الآن كلمة « حنين » التي كانت قد تفوهت بها منذ لحظات. وأصبحت جولييت تدرك أن هذا الشاب الذي كان يتحدّث عن بعض الذكريات لم تكن لديه ذكريات تخصها. هذا الشاب الذي أبدى لها احتراماً خالصاً بتحفّظ شديد لم يلق منها أي حب. وقد جلس بجانبها كصبي على صخرة ملساء، ويكاد يلامسها من كتفها حتى الركبة. لكن كان ثمة فراغ بينهما. لكن ذلك الفراغ بحد الشفرة كان يمثل الفضيلة وتملك الذات. ولم ينبس كونزاك بكلمة. وكان يتصاعد في قلب جولييت عطف لذيذ محفوف بالمخاطر. «كونزاك؟» سألته بصوت عذب رنان. استدار إليها ببطء. كان أشبه بأشعة الشمس. أمسكت يده ببطء وراحت تداعبها. ثم - لم يكن ثمة شيء آخر تفعله - وتقدّم وجهها وفمها قليلاً من وجهه. زاغت عينا كونزاك ثم تلاشتا فقد انطفأت آخر يقظة متوقعة فيهما. وترك جولييت تقترب منه

أكثر، ثم وبحركة مفاجئة جذبها نحوه وصدرت عنها تأوهة ناعمة بعد أن طبع قبلة على فمها. لقد انزلق شباب هذه الزوجة الوفية، دون أن تكشف ولا مرة الرغبة الصارخة التي كانت تعتمل فيها. وبدأت تشعر في تلك اللحظة بألم بدا وكأنه سيصدع رأسها. كان نفس الألم الذي انتابها في غرفة الاستقبال في الفيلا في تلك الليلة عندما بدأ كونزاك يعزف على البيانو. أبعدت عنها الرجل لكي تستعيد قدرتها على المقاومة وقالت في نفسها « لم يكن هو الذي أمسك بيدي، بل أنا التي أمسكت يده... وهو يحضرني منذ أسابيع إلى هذا المكان عن عمد لكي أكون أنا البادئة وليس هو » وفي اللحظة التالية، عندما ضمها إليه بقوة وأخذ يشبعها لثماً وتقبيلاً، بدا أن قدرتها على المقاومة قد خارت. لقد كان الألم نشوة لا تُحتمل. ولم يتركها إلا عندما صدر فجأة صوت جلبة أفزع كليهما. فابتعدا عن بعضهما وأخذ قلب جولييت يدور بقوة وبدأت تتنفس بصعوبة. وعندما حاولت إعادة ترتيب شعرها الذي أصبح أشعثاً وجدت صعوبة في رفع يديها وكأنهما أصبحتا أداتين ثقيلتين. «ما هذا ؟ » وأسندها كونزاك لكي لا تقع على الأرض وراحا يستطلعان الأمر ولكنهما سرعان ما عرفا مصدر الصوت « إنها الحمير.. لقد انتابها الجنون ».

وبالفعل ما إن اقتربا من مربط تلك الدواب حتى تراءى لهما شيء أشبه بالكابوس. إذ بدا أن هذه الحمير أصبحت حيوانات برية. فكانت في هياج كبير، تشد رسنها، فتنتصب على قوائمها الخلفية وتقفز وتركل في جميع الاتجاهات. وكان الزبد يسيل من فمها وعيونها تلمع من الذعر. فقد بدا أن شبحاً مرعباً قد أثار فزعها لكن لا.. لم يكن شبحاً. بل إن حاستها بالخطر المسبق دل على حقيقة في اللحظة قبل حدوثها. وعلى مسافة بعيدة، وراء الممر الشمالي، سمع صوت ضجيج، ثم أعقب ذلك صوت انفجار حاد جنوب المعسكر ثم ارتفعت سحابة من الدخان الأبيض . وفجأة توقفت الحمير عن نهيقها وهياجها وعاد السكون يخيم على المكان. وأخذ الناس يجرون من داخل أكواخهم ولم يدرك إلا قلّة منهم حقيقة ما كان يجري وبأن تلك السحابة الصغيرة كانت نتيجة تفجّر قذيفة.

كما أثار ذلك الصوت اهتمام كابرييل الذي كان موجوداً في المعسكر فقد كان منهكاً ولم يكد ينام طيلة الليلة السابقة. إذ كانت الرسائل المثيرة للقلق من المواقع الأمامية ترد بشكل متلاحق. فلم يكن ثمة شك بأن الجواسيس الأترك كانوا يحومون حول الخنادق خلال الليلتين المنصرمتين ويحاولون التسلّل وراء الحراس. لذلك أعلن كابرييل تلك الليلة حالة الإنذار ووضع دوريات ثابتة. وجلس على المقعد في مقر قيادته حتى منتصف النهار محاولاً أن يحصل على دقائق من الراحة ثم تراءى له حلم يقظة مزعج في تلك اللحظة. جولييت مسجاة على فراش واسع في غرفة نومها في باريس. ميتة لا بل أكثر من ميتة.. متشنّجة. كتلة جامدة من الجليد. وكان عليه أن يستلقي بجانبها لكي يعيد إلى جسدها لدونته.

لقد أبعد هذه الكوابيس عن ذهنه. كان الأمر واضحاً، فسلوكه نحوها ليس على ما يرام. فقد كان يتفاداها كثيراً. ومع أن حياته وواجباته الحالية لم تترك له لحظة واحدة لكن ذلك لم يكن

عذراً لإرضاء ضميره. لذلك قرر أن يسلّم القيادة إلى نورهان تلك الليلة وأن يقضي فترة بعد الظهر مع جولييت. لكن جولييت لم تكن في خيمتها. وكانت اسكوهي خارجة منها للتو. وكان القس آرام مع زوجته أوسانا. لذا لم تشأ أن تزعج الزوجين. ورجا كابرييل اسكوهي أن تبقى معه ريثما تعود جولييت وجلسا على العشب المجذوذ بقرب الخيام الثلاث. وبذل كابرييل جهداً في اكتشاف التغير الملحوظ الذي طرأ على اسكوهي. فهي لم تكن ترتدي اليوم أحد الأثواب التي أعطتها إياها جولييت، بل فستاناً واسعاً موشىً بالأزهار ذا ياقة عالية وأكمام فضفاضة. وجعلها تبدو فتاة من الطراز القديم لكنه لم يكن ثوباً أرمنياً. فقد كانت تبدو له اسكوهي دائماً ضعيفة لكن هذا الثوب الفضفاض جعلها تبدو مكتنزة وأخفى ذراعها المشلولة. ورأى كابرييل أن وجهها أصبح أكثر جمالاً من أي وقت مضى. وقد التفحت بالشال الحريري وغطت رأسها به لتقيه من حرارة الشمس. ولاحظ بشيء من الدهشة أن شفتي اسكوهي كانتا مكتنزتين مفعمتين بالشهوة وقال في نفسه: « يجب أن ترتدي حجاباً أحمر » وبما أنه كان منهكاً في تلك اللحظة أخذت صور من الماضي تتوارد إلى ذهنه: يوغونولوك.. منزل الجد. قطعة قماشية عريضة من الدمقس مفروشة على الأرض فوق العشب الناعم لتناول طعام الإفطار. كان الجميع في انتظار أواديس باكراديان العجوز للبدء في تناول الطعام. إبريق الشاي الفضي فوق النار يغلي. وسلال مليئة بالمشمش والعنب والبطيخ في صحون مسطحة. أطباق خشبية من البيض والعسل وقمر الدين. قطع رقيقة من الخبز وقد غطيت بفوطة نظيفة بانتظار سيد البيت ليرفعها بعد انتهائه من الصلاة. كان كابرييل في الثامنة من عمره ويرتدي السترة نفسها التي يرتديها الآن ستيفان. آه لو أنهم يسرعون في الإفطار لكي يسرع إلى جبل موسى للتنزه واستكشاف أسراره العظيمة. وكان في الوقت نفسه ينظر إلى ثنايا الدمقس بعينين خجلتين. فلربما كانت حية كبيرة تختبيء تحته. صوت خفيف ذهبي يعلن عن اقتراب الجد. وللغرابة فإن الجد نفسه لم يكن سوى هذا الصوت الذهبي. نظارته الذهبية. لحيته البيضاء المشذبة رداؤه الصباحي الأسود والأصفر. حذاؤه الأحمر المصنوع من الجلد الروسي تبقى صورته مخبأة رغم أنها ماثلة بقوة. ومن الناحية الأخرى، كان بإمكان كابرييل أن يرى بوضوح جميع النسوة وهن يرفعن ببطء نقابهن ويدرن ظهورهن نحو الجد باحترام كما تدعو العادات. هل كانت تلك ذكرى حقيقية أم مجرد حلم مكون من أشتات صفت بجانب بعضها بصورة خاطئة؟ لم يكن كابرييل متأكداً من ذلك. ولكن في أية حال، ودونما سبب ظاهر، جلست اسكوهي على العشب إزاءه. وراح يحدق في وجهها واستغرق ذلك وقتاً طويلاً حتى تذكر أنه يجب أن يقول لها شيئاً ما. فسألها وكأنه يوجه إليها لوماً «أظن أنك تكنين لأخيك حباً أعظم من أي شخص آخر في العالم؟ ».

سقطت القنبلة التركية الأولى على بعد مائة قدم إلى جنوب المعسكر فهرع على الفور. وفي طريقه إلى هناك قابل الدكتور ألتوني الذي كان يمتطي حماره فتنحّى له عن الحمار على الفور وانطلق باكراديان على الحمار حتى وصل إلى المواقع الشمالية بسرعة غير اعتيادية. في هذه المرة ضرب الأتراك ضربتهم الأولى. وكان على رأس الطليعة الأولى البنباشي. قائد أنطاكية، ذلك

السيد المريح الوديع. ومن الغرابة بمكان أن مساعده اليوزباشي كان قد حصل على إجازة قصيرة في هذا الوقت الهام وذهب إلى حلب لكي لا يتحمل مسؤولية. ونظراً لأن اقتراحات البنباشي الحكمية لم تلق آذاناً صاغية في ذلك الاجتماع مع القائمقام توجب الإسراع بالهجوم على جبل موسى وكان قد قضى اليوم بأكمله تقريباً في مكتب البريد في أنطاكية وأخذ يبث من جهاز المورس رسائل إلى جميع القوات المحلية الصغيرة ومراكز الدرك الموجودة ضمن حدود منطقة اسكندرونة وحلب واسكله. وبعد أربعة أيام جمع الكولونيل فرقة لا بأس بها - حوالي ألف جندي - لدعم المدفعية. وقد كانت القوة مؤلفة من سريتين من الجيش النظامي مفرزة في ثكنات أنطاكية وفصيلتين من الكتيبة ذاتها تم جمعهما من المدن الصغيرة ومجموعة كبيرة من الدرك. وأخيراً عدد من الرماة من الجيش غير النظامي الذين تم جمعهم من المناطق الجبلية حول حمام. كما استفاد من نصف سرية المدفعية التي انضمت مؤخراً إلى الحامية.

وفي غضون ذلك، كانت فرقة الاستطلاع قد قامت بمعاينة الخنادق المحيطة بالداملاجيك، وكان الأتراك ما زالوا يعتقدون بوجود عشرين ألف أرمني مسلّح لذلك وضع تحت تصرف البنباشي رجال وأسلحة يكفون للقضاء على المتمرّدين خلال ساعات معدودة. وكانت خطّته تتمثّل في القيام بشن هجوم مفاجيء يتم تغطيته بصورة كاملة. وكان الكولونيل قد قسّم قواته إلى فرق متساوية تقريباً تعمل كل واحدة بشكل مستقل عن الأخرى. وسارت الفرقة الأول في ليلة 13 آب واتّخذت كل حيطة إلى السويدية وأقامت معسكرها في منطقة آثار سلوقية تحت التحصينات الجنوبية وتمكّنت من التخفّي بشكل جيد. أما الفرقة الأخرى بقيادة البنباشي نفسه والتي تضم المدفعية فقد تقدّمت على طريق أنطاكية - بيلان العام ثم استدارت إلى ممر تسير عليه البغال صاعداً الجبل. إلا أن خطة البنباشي أخفقت. فقد تعذّر جر مدفعها الهاوتزر على سفح الجبل . وقد أدّى ذلك إلى تأخير موعد تنفيذ الخطة عشر ساعات أخرى. إذ أن الفرقة انطلقت قبل الفرقة الأخرى ووصلت إلى مرتفعات جبل موسى حوالي منتصف نهار 14 آب بدلاً من وصولها في الليلة السابقة. لذلك لم يعد بالإمكان شن الهجوم المزدوج الذي كان قد حدد توقيته الساعة الأولى بعد بزوغ الفجر. ولم يجرؤ الكابتن المسؤول عن الفرقة الجنوبية أن يدع جنوده يطلون حتى بوجوههم من مخابئهم في هذا القيظ اللاهب لاستلام الإشارة المتفق عليها (إطلاق القذيفة الأولى). فبعد مسيرة دامت خمس عشر ساعة إلى قمة الجبل لم تحصل القوات على أي قسط من الراحة كان قد تخللها ثلاث وقفات قصيرة. وبدل أن يمنح الكولونيل جنوده شيئاً من الراحة وأن يرسل إلى قائد الفرقة في السويدية إشارة بتأجيل الهجوم حتى صباح الغد، أمر رجال مدفعيته بتجهيز مدافعهم وإعداد وجبة سريعة لرجاله. وبعد ساعة قاد السرايا في طابور رفيع طويل لكي يناوش الخنادق الأرمنية الممتدة على مسافة طويلة والتي يقبع بداخلها الأرمن مثل فئران تختبيء في جحورها خلف الصخور والأشجار. وراح البنباشي يلعن القائمقام واليوزباشي والجنرال المسؤول عن النقل الذي أرسل له هذه المدافع الهاوتزر الضخمة بدل أن يرسل له مكانها مدافع تصلح للمناطق الجبلية. ولعن قبل كل شيء الجنرال جمال باشا ووصفه بأنه « مخادع

أحدب كريه الوجه». وفي رأيه أن جميع الضباط السياسيين من الاتحاديين كانوا عبارة عن خونة أخذوا يقفزون في الرتب قفزات سريعة. فهم الذين حاكوا المؤامرات على السلطان القديم واحتجزوا السلطان الجديد في قصره. ضباط صغار تافهون رقّوا أنفسهم إلى جنرالات وأسياد وباشوات. وأن كل ما حدث لهؤلاء الأرمن من أشياء مشينة تعود ببساطة إلى خنزير الاتحاد ذاك. ففي خلال أيام عبد الحميد الذهبية مرت أيام عصيبة بالنسبة للأرمن، لكنها لم تكن من النوع الذي كُلّف به، هذا الضابط المرموق. وانتظر الضابط المتعب مع جنوده سقوط أول قذيفة. فقد كان قد أعطى أوامره للملازم المسؤول عن المدفعية أن يبدأ بإطلاق قذيفتين على الأحياء السكنية في المعسكر. غير أن ضباط «الخرائط» الحربية من الاتحاديين المخادعين لم يكونوا دقيقين في تسديدهم وتحديد المواقع. وكان البنباشي يظن أن القذائف ستحدث ذعراً وبلبلة بين النساء والأطفال وإن هذا سيؤدي إلى تحطيم معنويات الرجال في المعسكر. لكن مدافع الهاوتزر نجحت بالصدفة في تحقيق أكثر مما كانت تهدف إليه. فمن بين اثنتي عشرة طلقة، سقطت ثلاث في وسط المخيم، إنها لم تؤد إلى تحطيم بعض الأكواخ فحسب بل أدّت كذلك إلى إصابة ثلاث نساء ورجل مسن وطفلين بجروح غير خطيرة. غير أن إحدى القذائف سقطت على مخزن واضطرمت فيه النار التي التهمت كل محتوياته من الحبوب بالإضافة إلى ما تبقّى من التبغ والسكر والأرز. غير أنه من حسن الحظ لم تمتد ألسنة النيران إلى الأكواخ المجاورة. وكان اضطراب الناس أسوأ بكثير من هذه الكارثة. بل إن النار كانت بمثابة إنذار للمقاتلين. إذ هرع الاحتياطيون إلى أماكنهم على الفور وتمكن نورهان خلال عشر دقائق من وضع الخنادق في حالة أهبة تامة. وتجمع عمال الارتباط والكشافة والشباب الصغار وراء الخطوط. وعندما هرع كابرييل إلى المكان على ظهر الحمار وجد كل شيء على أهبة الاستعداد. وبعد بضع دقائق وصل أول كشاف وهو يحمل تقارير من التحصينات الجنوبية. وهكذا لم تنجح الغارة التركية هذه نجاحاً تاماً، بل واجهت مدافعين أخذتهم المفاجأة لكنهم وطدوا العزم على الدفاع عن أنفسهم.

كان هذا اليوم يوم انتصار سركيس كيليكيان ويوم انتصار التحصينات الجنوبية. ففي هذه المنطقة كان العدو ما زال دون خبرة إذ لم يجرؤ الجواسيس الأتراك على التقدّم كثيراً ولم يكن الكابتن يعرف مدى قوة تلك الحامية وراء هذه المتاريس الصخرية. وفي اللحظة التي بدأت فيها المدفعية قصفها، أخذ الكشافة يهرعون بتقارير تقول أن الجنود الأتراك قد بدأوا يتسلقون المنحدر من منطقة آثار سلوقية، فقد القائد الذي عينه كابرييل عقله تماماً. فانبطح على الأرض وراح يتطلّع من فتحة في الجدار الحجري إلى السفح ولم يتمكن من إصدار أية أوامر. فقد امتقع لون هرانت أوسكانيان. وراحت يداه ترتعشان حتى أنه لم يتمكن من سحب مغلاق بندقيته لتلقيم أول طلقة وأخذت معدته تتخبط وكاد أن يهوي بعد أن أصيب بالدوار. وراح يتبع سركيس كيليكيان وكأنه دمية. وهكذا وقف القائد وأسنانه تصطك وهو يلتمس الأوامر من مساعده. وكانت عينا الروسي الضيقتان هامدتين كالعادة. وتجمع حوله جميع الفارين وبقية المقاتلين واتخذوه رئيساً لهم. ولم يعد أحد منهم يعير أوسكانيان انتباهاً. ولم يكد كيليكيان يقول شيئاً بل توسّط المدافعين

وعين الأشخاص الذين سيربضون خلف الصخور. وتبع الروسي التكتيك الذي كان قد اتّبعه باكراديان في الرابع من آب. فراح ينتظر اللحظة الحاسمة. لكن صبره ومتانة أعصابه كانتا أكثر قوة وثباتاً بمئة مرة من كابرييل. وعندما ظهرت أخيراً طليعة جيش الأتراك على حافة المنحدر الصخري أخرج قداحته البدائية وبدأ يحاول إشعال سيكارته. أما أوسكانيان فقد كان واقفاً بجانبه وقد أصيب بالتشنّج وهو يلهث ويقول «الآن... يا كيليكيان.. الآن فوراً»، ولما لم ينجح في إشعال سيكارته أمسك بيده الأخرى المعلم لمنعه من القفز في وقت مبكر ويعطي الإشارة. وكان الأتراك يتهادون بهدوء وبطء. ثم اصطفوا في أرتال وراحوا يثرثرون وشكلوا مجموعات كبيرة. وعندما وصلوا إلى منتصف المنحدر أطلق كيليكيان صفرة طويلة. وبدأ المنجنيق يدك الستار الذي بُني بصورة هشة وضعيفة وراحت الأحجار الخفيفة من القسم العلوي منها تنزلق محدثة صوتاً أشبه بدوي القنابل. وأخذت الأحجار تهوى وتتدحرج خلف الأتراك بكتل كبيرة. وكان تأثير ذلك كبيراً جداً. فقد كانت الستارات الدفاعية قد بنيت على شكل اهرامات من الصخور المثلمة وأدى المنجنيق إلى تحطيم أجزاء كبيرة من الصخور الناتئة فأخذت تتدحرج إلى الوادي. وكانت قوة هذا الهجوم الحجري عظيمة وبدا أن الداملاجيك قد تزعزع وأخذ ينهار وأدى هذا الانزلاق الصخري إلى سحق المجموعة الغربية من القوة التركية المتمركزة في قرية هاباسته. وقد نجا حوالي نصف القوة في حين قتل النصف الآخر أو شوهوا كما دمر شطر من القرية. وبعد خمس عشرة دقيقة ساد صمت كأنه الموت. وعندما توقفت الأحجار عن الانزلاق أطلق كيليكيان صافرة أخرى، وبدأ المدافعون تقدمهم. وراح مقاتلو الحامية بقيادة الروسي يذبحون الأتراك الذين أصيبوا بجروح ويجرّدونهم من ثيابهم. وبدّل سركيس أسماله البالية وارتدى بذة جديدة من بذّات المشاة الأتراك رغم أنها كانت ملطخة بالدم من وسطها. أما هرانت أوسكانيان الذي تسلق أعلى نقطة من سلسلة الصخور فقد أخذ يطلق النار في الهواء بصورة جنونية لترسيخ مشاركته الشخصية في تحقيق هذا الانتصار.

لم يكن كابرييل أو البنباشي قد أدركا هول ما حلّ بالفرقة الجنوبية. ففي خضم أصوات الطلقات سمع كلاهما صوت انزلاقات الصخور وكأن السماء ترعد في البعد. أما هنا في المواقع الشمالية، فقد كان القتال سهلاً وكان يتمّ ضد الأرمن.إذ أوقعت مدافع الهاوتزر، وربّما بمحض الصدفة أو نتيجة مهارة طاقمها، خلال ساعة من القصف البطيء، أربع إصابات مباشرة وأدت إلى تدمير خندق الاتصالات الرئيسي، وارتمى حول الخندق عدد من الذين أصيبوا بجروح قاتلة. وكاد كابرييل يُقتل نتيجة الشظايا المتطايرة. وشعر أن جلده أصبح رطباً قاسياً وأدرك بوضوح أن هذا اليوم لن يكون يوماً جيداً بالنسبة له. وفكر أنه كان بإمكانه تفادي هذه الخسائر لو لم يتأخر كثيراً في إعطاء الجاووش نورهان أوامره بالانسحاب. غير أنه تمكّن من تحقيق الانسحاب على الجانب الصخري بشكل ناجح واتّخذ الأتراك مركزاً للمراقبة على شجرة عالية، حيث تمكّنوا من رصد جزء من الخندق وتصحيح مسار مدفعيتهم. إلا أن المتاريس الحجرية من الطرف الأيمن كانت تحول دون تمكّنهم من الرصد بشكل جيد. وأخذ المدافعون يغادرون الخندق واحداً تلو الآخر حتى

وصلوا إلى خط الدفاع الثاني. وكان من شبه المؤكد أن يحاول الأتراك شنّ هجوم على نقطة ثالثة. وتجمّدت الدماء في عروق كابرييل عندما فكر أنه إذا خسر المدافعون هذا الخندق الاحتياطي أيضاً فلن يبقى لهم شيء ليحولوا دون موت خمسة آلاف رجل وامرأة موتاً بطيئاً. ويبدو أن الراصد التركي لم يلحظ انسحابهم. إذ بقيت المدفعية تقصف الخندق الأول بين دقيقة وأخرى. ونظراً لأن السكون ساد الخندق، اعتبر البنباشي أن الوقت قد حان لاقتحامه. وساد صمت طويل في الغابة الكثيفة قبل أن تصدر أصوات مزمجرة. واختلطت أصواتهم مع صيحات الرجال الذين لم يكونوا يهابون شيئاً. فقد كان معظمهم من المجنّدين الجدد، وأخذوا من وراء محارثيهم في الأناضول واخضعوا لتدريبات عاجلة لبضعة أسابيع، وقد حُشروا الآن في معركة للمرة الأولى في حياتهم. إلا أنهم عندما رأوا أن هجومهم لم تقابله أية مقاومة ارتفعت معنوياتهم إلى درجة البسالة. فاندفعوا إلى الخندق الرئيسي وهم يطلقون صيحات النصر. ورأى الكولونيل أن الأمور تجري على ما يرام، ولم يشأ في أن تهبط عزيمة رجاله، فترك الخندق وقاد قوات الصاعقة إلى الأمام في صفوف على شكل عناقيد. لكنه لم يغامر في رمي المدفعية إلى الأمام أكثر من ذلك لكي لا يعرض نفسه ورجاله للخطر.

لم يكن كابرييل وحده الذي يعرف الأخطار التي تحيق بهم، بل جميع المقاتلين كذلك. فقد كان عقل وحياة وجسد كل واحد منهم مثل ليلة كالحة الظلمة تتمحور حول مركز يحترق بشكل لا يطاق - التصويب الدقيق. فهنا لم يعد ثمة وجود للقائد واتباعه، بل ثمة للوعي المعذب: فورائي يقبع المعسكر الذي يضم النساء والأطفال وجميع أفراد شعبي. وانتظروا كالعادة لكي لا تحيد أي طلقة عن هدفها المحدّد لها. وأطلق كابرييل وآرام توماسيان النار للمرة الأولى بتركيز شديد على أهدافها كما لو أنها كانا غارقين في حلم. وما حدث بعدئذ، حدث بشكل مستقل عن بعضها البعض أي أنهما كانا ملتحمين ضمن إرادة واحدة. لم يعيدا تلقيم بنادقهما بعد أن أطلقا رصاصاتهما الخمس. واندفع الأرمن خارج خنادقهم كما لو أنهم كانوا ينصتون إلى نبض جماعي واحد. وكان الأمر مختلفاً تماماً عما حدث في 4 آب. فلم يكن ثمة ارهاق دماء، ولم يتمكّنوا من إطلاق صيحة واحدة. وانقبض أربعمائة رجل من أعمار مختلفة على الجنود الأتراك الذين دبّ في صفوفهم الذعر والذين أفاقوا فجأة من حلمهم في تحقيق النصر. وجرى صدام وجهاً لوجه في هذا الاتجاه وذاك، فما فائدة الحراب الطويلة المركبة على بنادق الماوزر؟ وسرعان ما انتشروا فوق ذلك الشريط، وراحت أصابع الأرمن النحيلة تبقر بصورة عمياء بطون أعدائهم، وبأسنانهم القوية تقبض وكأنها أنياب حيوانات مفترسة دون وعي على رقاب الأتراك تمص دماءهم انتقاماً منهم. وشيئاً فشيئاً بدأت صفوف السرية تنسحب إلى الوراء. لكن الدرك الذين أراد البنباشي الذي امتقع لون وجهه أن يزجهم في المعركة، رفضوا فعل ذلك. فقد أعلن رئيسهم أن الدرك ليسوا وحدة مقاتلة، بل هم هنا لحفظ النظام ولا شيء سوى ذلك، وهم ليسوا مرغمين على الاشتراك في هجوم ضد عدو مدجج بالسلاح، كما أنهم يخضعون للقانون المدني وليس العسكري وجعل هذا الأمر البنباشي يرغي ويزبد وراح يهدّد بأنه سيجعل رجال الدرك

يقتلون رئيسهم. فمن هو المسؤول في المقام الأول عن موضوع الأرمن ؟ أليسوا هم المسؤولين وكلابهم التنة من الدرك الذين لا يصلحون إلا لمواجهة النساء والأطفال والنهب والسلب. لكن هذه النوبة الغاضبة لم تجد نفعاً فقد أخلى الدرك الغاضبون الخندق وانسحبوا إلى السفح المقابل.

وعندما وصلت أنباء الانزالق الصخري إلى المعسكر ونبأ القضاء على الفرقة الجنوبية قضاء مبرماً، جنّ جنون الناس وانتابهم سعار القتل. ولم يتمكّن دير هايكازون ولا المجلس من ارجاعهم. فقد كانت أرواحهم على ثقة بأن الله يقف إلى جانبهم. وفي الوقت نفسه وصل عمال الارتباط وهم يحملون خبر الانسحاب من الجهة الشمالية فحمل الاحتياطيون قضبان الحديد والمجارف والبلطات. وأخذ الرجال والنساء يصيحون في دير هايكازون إلى الممر الشمالي لكي يلقنوا هؤلاء الكلاب الأتراك درساً لن ينسوه. ولم يكن بوسع القس سوى أن يسير على رأس هذا الجمع المزمجر. كما تدفّق المقاتلون من الشمال. ولكن بعد دقائق صدرت الأوامر للجنود الأتراك بالتراجع إلى موقعهم الأولي. وصاح باكراديان طالباً من دير هايكازون ارجاع الاحتياطيين على الفور إلى المعسكر، لأنه إذا ما عادت المدفعية تقصفهم فمن يعلم كم ستبلغ الخسائر في صفوفهم. ونجح القسيس بصعوبة بالغة في اعادتهم. وعلى الفور بدأ المدافعون الذين كانوا يقطرون دماً وعرقاً في سد الفجوات التي حدثت في خندقهم الرئيسي. وكان كابرييل يتوقّع سقوط أول قذيفة في أي لحظة وقد بقيت ساعة واحدة حتى الغسق.

لكن دوي الشظايا الذي كان باكراديان يتوقّع أن يسمعها لم تحدث إلا في مخيلته. لكن شيئاً لم يكن متوقعاً قد حدث. فقد سمع صوت نداء عال ثم حركة عند طرف الغابة من السفح المقابل. وما هي إلا لحظات حتى اندفع الكشافة بتقارير تفيد أن الأتراك كانوا ينسحبون بسرعة من أقصر طريق إلى الوادي. وكان ضوء النهار كافياً لرؤيتهم وهم يشيدون معسكرهم في ساحة كنيسة بيتياس، كما رأوا قائدهم يتّجه مع كبار ضباطه نحو السويدية عن طريق يوغونولوك والقرى الجنوبية. وقد حقّق هذا اليوم انتصاراً أكبر من معركة 4 آب ومع ذلك لم يقم أي احتفال في تلك الليلة.

حصل ستيفان على إذن بقضاء الليلة في الخنادق. فقد أعطاه والده الذي افترش بساطاً على الأرض ، بساطاً آخر ليستلقي عليه. وكان كابرييل قد فقد أي رغبة للنوم في سرير أو في مكان مغلق. وسرعان ما غط الرجال في سبات عميق وكأنهم أموات بعد أن اطفأوا النار. وذهب الحارسان للتمركز في مواقعهما لمراقبة جميع المنافذ المؤدية إلى السادل. أما الأولاد فقد اسرعوا دون احداث ضجة إلى المتاريس الصخرية. فقد كان القمر في ربعه الثاني في تلك الليلة من ليالي آب ووقفوا تحت ضوء القمر وشكّلوا حلقة وأخذوا يتهامسون. في البداية كان الحديث عاماً دونما هدف محدد. لكن رغبة جامحة في المغامرة كانت تعشش في أعماقهم وكان ستيفان مفعماً بهذه الروح. وقد بدأ في فضول طفولي « لنلق نظرة على المدافع ». وكانت فرقة هايك تتألف من عدد من أكثر الأطفال في مجموعة الكشافة ذكاء ونشاطاً. وكانت الأوامر تقضي بعدم تحرّك

أحدهم في أي مهمة استكشافية بدون أوامر صريحة من هايت شاداخيان أو أفاكيان؟. وأخذ هايك واثنان من رفاقه الممتازين يزحفون على طول الجرف الصخري الضيق الواقع في الطرف القصي من المواقع. وتبعهم ستيفان. وقادهم هايك إلى مكان توضع بطارية المدفعية، وانطلق من على بعد عشر خطوات صوت شخير الجنود المستسلمين للنوم. وكان الحراس يحدقون في السماء الخالية من النجوم. جرّب ستيفان في البداية عدّة أغصان لكي يتّخذ وضعية مريحة لبندقيته. وبقي فترة طويلة وهو يسدّد بندقيته ببرود شديد كما لو كانت تلك الأشكال المكونة من اللحم والدم القابعة هناك عبارة عن تماثيل خشبية في أحد أكشاك الرماية في مدينة للملاهي. ثم حدث هذا الطفل، الأوروبي الثقافة، رغبة واحدة فقط وهي إصابة جبهة الرجل التي كانت تلمع تحت ضوء القمر. وضغط على الزناد بهدوء ورأى الرجل يهوي على الأرض . وعندئذ أفاق النائمون وقفزوا واقفين دون أن يعرفوا حقيقة ما يجري حولهم. وسدد بسرعة مرة أخرى وضغط على الزناد مرتين، ثلاث مرات ، أربع مرات . وهرع الأتراك الخمسة عشر في اضطراب وفوضى. واستلقى خمسة منهم وسط برك من الدماء. ولاذ هؤلاء الفلاحون الذين أرغموا على الدخول في الجيش بالفرار غير عابئين بالبحث عن ستار يقيهم من الرصاص بل اندفعوا كيفما اتفق في العراء واتجهو نحو الغابة، وأطلق هايك وراءهم طلقاته الخمس لكنها لم تصب أياً منهم. وهكذا ترك الجنود الأتراك مدفع الهاوتزر المؤلفة من عربة المدفع وعربة الجر، ومغلاق القذيفة وعدد من البنادق والبغال. وهكذا تمكن طفل في الرابعة عشرة من العمر بخمس طلقات فقط من الانتقام لمليون شخص من شعبه ضد فلاحين مساكين أرغموا على الدخول في الجيش - انتقام من الأشخاص الذين ليس لهم علاقة بالأمر، كما هو الحال دائماً في حال الانتقام في الحروب.

عندما سمع الحراس في المراكز المتقدّمة صوت الطلقات في سكون تلك الليلة المقمرة أيقظوا رئيسهم. غير أن الأطفال الذين كانوا ينتظرون ستيفان وهايك انتابهم الذعر عندما تأخر رفيقاهما، فاندفع هاكوب إلى كابرييل الذي نهض مذعوراً. وأشار هاكوب إلى السفح المقابل وراح يردد «هايك وستيفان - هناك، هناك». لم يفهم كابرييل حقيقة ما يجري سوى أن ستيفان كان في محنة. فاندفع كالمجنون إلى حيث أشار هاكوب. وحمل مائة رجل بنادقهم مع الجاووش نورهان وتبعوا قائدهم. إلا أنهم عندما وصلوا إلى ذلك المكان، شاهد كابرييل القتلى وستيفان ولم يمسه أذى، فوبخ ابنه بشدة وبدا أنه يرغب في رميه بالرصاص. أما الآخرون فكانوا مذهولين لما حدث، فلم يكد يلحظ أحد هذين البطلين الصغيرين اللذين استوليا على المدافع. ووقف الرجال الأرمن لحظة يلتقطون أنفاسهم. فقد كان هذا الأمر الذي لا يصدق صعب الفهم بحيث لم يجد أحد وقتاً ليسأل كيف تم ذلك. وللتو باشر مئتا رجل في جر المدفعين اللذين وضعا على عربتهما.

ولم تمض ساعتان على الاستيلاء على المدفعين حتى تمّ توضعهما في المكان الذي حدّده كابرييل. وسمع باقتضاب عن الإنجاز العظيم الذي حقّقه ستيفان. لكن الخوف كان ما يزال يملأ قلبه، لذا لم تسنح له فرصة الحديث عن الموضوع كما لم يشأ أن يشيد بابنه. فقد شعر أن هذا

الصبي نصف البالغ الجريء بتهور كان مثالاً خطراً ليس على الأولاد الآخرين فحسب بل على المقاتلين أيضاً فإذا أراد كل واحد منهم أن يصبح بطلاً فستحلّ الكارثة على الداملاجيك سريعاً. حقاً لا بدّ أن الصبي مجنون ولا يمكن حبسه في موقع الخيام الثلاث... لكن كابرييل لم يتابع تلك الأفكار لأنه كان منشغلاً بالمدافع. فقد كان نوعهما مألوفاً لديه وتذكر أنه كان لديه مثلهما في السرية التي خدم فيها، وكانا من عيار 10 سم وهما من صنع نمساوي - هنغاري من نموذج عام 1899 وقد صدرها إلى تركيا مصنع سكودا، وكان ما يزال في عربة المدفع الثاني ثلاثون قذيفة. ووجد كابرييل كل ما يحتاجه وحاول أن يتذكر كيفية استخدامه - جهاز التسديد للإطلاق من وراء غطاء، مكتوب عليه تعليمات الرماية، وبدأ على الفور يتذكر كل ما كان قد تعلمه، وحدس المسافة التي تفصلهم عن بيتياس. وبذل جهده في تحديد موقع الأتراك بدقة فأخذ يدوّر اللولب من المنظار الخلفي لتحديد مجال الاتجاه، وتمكّن من تحديد ارتفاع المكان الذي هو فيه وأخذ يرفع فوهة المدفع بواسطة العجلة الصغيرة لتركيز الفقاعة في الوسط وأوصل فتيل الإشعال في قذيفتين لحلقة المفتاح، وأولج القذائف المستديرة في البلعة وضغط وراءها القذائف. واستغرق ذلك وقتاً طويلاً وذلك لعدم خبرته، ولم يكن بوسع نورهان أن يساعده في ذلك. وعندما بزغت الشمس، أعاد باكراديان فحص كل أجهزة التسديد وجثا هو ونورهان كما قضت التعليمات، كل واحد منهما من أحد جانبي عربة المدفع وقد أمسكا بيدهما ساعة. ثم مزّق الهواء دوي مرعب، وتراجع المدفع قليلاً وزاد رسوخاً في الأرض . لكن التسديد كان سيئاً إذ سقطت القذيفتان بعيداً عن الهدف الذي حدّده كابرييل في نقطة ما في الوادي.

كان صوت القذيفتين المدوي بمثابة علائم للعون الإلهي بالنسبة لسكان المعسكر. فقد دمدم أشد الفلاحين قسوة والدموع تترقرق في عيونهم « لعل المسيح يريد مساعدتنا ». وتوسّل بعض الفلاحين أن يمنح كابرييل ابنه ستيفان لقب «الأسد» لبطولته، لكن كابرييل رفض ذلك بقوة إذ ما زال ابنه صغيراً ولا يعرف تماماً حقيقة الخطر الذي أقدم عليه. ولم يشأ أن يجعله يشعر بالزهو أو يحشو رأسه بكثير من الحماقات التي يمكن أن تؤدي إلى كارثة وهكذا حرم ستيفان نتيجة لوم وتوبيخ والده من تقدير الناس له، واكتفى بالثناءات التي أحيطت به لأيام قليلة. وعندما سجل المؤرخون الأرمن وصف المعركة التي جرت على الداملاجيك في السنوات اللاحقة أشاروا إلى «العمل البطولي الذي قام به أحد الرماة الصغار» دون أن يذكروا اسمه. لكن ما فائدة امتداح ابن باكراديان بشكل علني ؟.

وشهدت ليلة 14 آب العظيمة حدثاً آخر لا يقلّ أهمية عن سابقه، فقد راحت ساتو تزحف عند الشفق نحو صديقاتها في الوادي اللاتي كن يتشوقن إلى الاستماع إلى قصة المعركة ولتروي لهن كيف أن ست عشرة جثة كانت ملقاة على الأرض الجرداء، وكيف كانت صرخات الجرحى تزداد ارتفاعاً وحدة، والذين أخذت صيحاتهم تشتدّ عندما بلل الطبيب ألتوني جروحهم بسائل بني اللون. وعند منتصف النهار تقريباً حفرت القبور وكان الجميع مستعدين لمراسم الدفن، وحُمل ستة عشر تابوتاً مصنوعة من أغصان قوية وشدت بإحكام إلى بعضها البعض،وساروا بها حول

المصلى مرتين في حين راح دير هايكازون يتلو صلوات الجنازة، ثم ألقى في الناس كلمة قال فيها:

- « لقد خطف الموت هؤلاء يا أخوتي الأعزاء، ومع ذلك يجب أن نشكر الثالوث المقدس بخشوع وذلك لأنهم لقوا مصرعهم في ساحة المعركة دفاعاً عن الحرية، وسوف ترقد أرواحهم براحة أبدية تحت هذا التراب. نعم ما زالت أمامنا نعمة الموت الحد باختيارنا وإرادتنا نحن. لذلك، لكي نرى بحق النعمة التي حبانا الله بها ويجب أن نفكر مرات ومرات بالآلاف الذين حرموا من هذه النعمة، أولئك الذين ماتوا بأبشع الأشكال والذين يستلقون الآن في العراء وفي الخنادق وعلى طول الطرق تلتهمهم الطيور الجارحة والضباع. وإذا ما صعدنا تلك التلة على يسارنا ونظرنا إلى الشرق، فسنرى أمامنا حقولاً مكسوة بالقتلى، حيث لا توجد مقابر ولا يوجد رجال دين يصلون من أجلها، بل لا يوجد أمامهم سوى أمل يوم القيامة. لذا دعونا في هذه الساعة التي تهبط فيها هذه الأرواح السعيدة إلى الأرض أن نتذكّر ما هو البلاء الحقيقي، إنه ليس هنا بل هناك ».

وجعلت هذه الموعظة القصيرة القرويين يجهشون بالبكاء. وذهب دير هايكازون إلى الأحواض التي تحوي التراب المقدس وأخذ يهيل حفنة منها على رأس كل ميت.

3- موكب النار

قبل هيل حفنة التراب على آخر ميت، دخلت أوسانا في المخاض. ولم يكن أحد معها في الخيمة سوى اسكوهي، التي كانت على وشك الخروج من الخيمة بحثاً عن أنتارام مايريك اندفعت المتشردات نونيك وفاراتوك ومانوشاك نحو الخيمة. وكانت وجوههن الوردية تشع في الظلام الحالك. وقفت المرأتان واجمتين. لكن ، لم تكن تلك الندابات المتشردات هن اللواتي أثرن فزعهن - فمن لم يكن يعرفهن في يوغونولوك ؟ - بل من الملابس التي كن يرتدينها لحضور مراسم الدفن. فأسرعت نونيك التي أدركت على الفور السبب الخفي لخوفهن إلى التهديء من روعهن وقالت « يا ابنتي الصغيرة من المستحسن أن نأتي ونحن نرتدي هذه الثياب فإنها تخلف الموت وراءنا». وبدأت نونيك معالجتها النسائية بسحب قضيب حديدي رفيع من داخل ثيابها وراحت ترسم صلباناً كبيرة على الجدار الداخلي للخيمة.

سألتها اسكوهي « لماذا ترسمين هذه الصلبان ؟ » فأخذت نونيك تشرح لها وهي تتابع عملها أن جميع قوى الهواء تتجّمع حول سرات النساء اللاتي يجيئهن المخاض، وأن الأرواح الشريرة هي أكثر بكثير من الأرواح الطيبة وعندما يخرج الطفل إلى العالم، وفي اللحظة التي يندفع فيها رأسه ليرى نور الحياة تنقض عليه تلك الأرواح الشريرة فتتملّكه وتتغلغل فيه، لذلك فإن كل مولود بشري، بحكم الضرورة، يأخذ منها شيئاً. ولهذا السبب فإن الجنون يكمن في صميم قلوبنا جميعاً. وهكذا فإن الشيطان موجود في جميع الكائنات البشرية، والمسيح وحده الذي لم يدخله الشيطان. وفي رأي نونيك فإن فن القابلة يكمن في معرفتها كيف تقطع دابر الشيطان وما هذه الصلبان إلا إشارات لصده ومنعه. وفجأة تذكرت اسكوهي ذلك الحلم المزعج عن القافلة، ووجه الشيطان وأفعاله التي كانت ما تزال تعشش في نفسها. وهي كذلك أخذت تحاول منعه برسم شارة صليب كبير في الهواء بيدها السليمة. آه كم هو مرعب أن يفكر المرء بأن المسيح المخلص غير مستعد للخلاص . وكانت هذه خلاصة حكمة نونيك، ثم تابعت شرحها للمرأتين المبهورتين كيف أن جميع أعضائنا - الرئتين والكبد والقلب بصورة خاصة - تتعاطف مع شياطين مختلفة تسعى جاهدة لامتلاكها. وإن عملية الولادة لا تتعدّى كونها جولة مصارعة بين الخير والشر لامتلاك الطفل بشكل كامل. لذلك، فإن الأم العاقلة تستخدم جميع الحيل المجربة والمساعدة التي تقدمها نونيك. وإذا فعلت ذلك فعليها أن تثق بأن طفلها سيجتاز الأيام الخطيرة.

وعندما خفت وطأة الذعر المفاجيء، أصبح وجود القابلات ذا تأثير مريح ومهدىء، بل أن أوسانا غفت وبدا أنها لم تلحظ كيف أن فارتوك قيدت رسغيها وكاحليها بحبال حريرية رفيعة. إلا أن نونيك اقتربت من السرير وراحت تهمس بإذنها « كلّما بقي جسدك مغلقاً بقيت قوتك مغلقة في الداخل وكلما تأخرت في فتح جسدك فستدخل قوة أكبر وتصدر عنك ». وفي الوقت نفسه قامت مانوشاك الصغيرة القوية الجسم بإشعال غصن صغير أمام الخيمة. ووضعت حجرين أملسين وكأنهما رغيفان مرقدان لكي يسخنا. وكان هذا أحد العلاجات الخرافية لأن هذه الحجرات الدافئة، وبعد أن تلف داخل الثياب، تعمل على تدفئة جسم الأم المنهك. حتى أن الطبيب بدروس، كان من الممكن أن يوافق على هذا الجزء العملي من التوليد السحري وماء الشمرة الذي راحت مانوشاك تسخنه فوق النار. إلا أنه استشاط غضباً عندما وجد منافساته الثلاث مع مريضته وراح يلوح بعصاه ويوجه لهن شتى اللعنات بصوته الحاد ويقول: « يا غراب الجيف ».

كانت أوسانا أول امرأة في المعسكر تلد طفلاً في الداملاجيك. فحتى في أثناء حياتهم الطبيعية في الوادي، كانت الولادة تعتبر حدثاً اجتماعياً هاماً، حيث يجتمع عادة كل الناس، الأقارب البعيدين والقريبين باستثناء الرجال. وكانت الجموع التي أحاطت ذلك الصباح بالغنائم الحربية أخذت تتجمع الآن عند الخيام الثلاث وبقيت أنتارام مايريك مع أوسانا، وراحت تخلي الخيمة من المتطفّلين بكلمات جارحة بل وكانت تستخدم قبضتيها في بعض الأحيان. وشرعت في عملها الذي تقوم به منذ عقود عديدة بدأب ونشاط. وراحت اسكوهي تمسح جبين زوج أخيها بيد باردة كالثلج على الرغم من شدة الحرارة. وكانت عيناها مثبتة على مايريك بقلق خجول. ولم تتمكّن زوجة الطبيب من إخراج الناس من الخيمة، بل ظلّوا يدخلون لتقديم النصح والتشجيع والاطمئنان عليها. كما جاء كابرييل أيضاً للاطمئنان عليها. وفي خضم هذه الحركة الدؤوبة، كانت اسكوهي ما تزال مندهشة إزاء شحوب كابرييل الملتحي. كما فوجئت ببقاء جولييت قرابة نصف ساعة مع أوسانا - فقد عاشتا معاً فترة طويلة تحت كنف عائلة واحدة. أما آرام الزوج فكان يأتي ليراها كل عشرين دقيقة. إذ كان يرى أنّه بعد انتصارهم البارحة على الأتراك يجب عليه أن يحافظ على النظام العام. وفي الحقيقة فإن الشعور بالإثارة والقلق بشأن زوجته جعله يدور في دوامة. وبعد ثماني ساعات من آلام المخاض، ولدت أوسانا وأنجبت صبياً. لكن هذا الطفل الذي كان يقبع في رحم أمه منذ أحداث زيتون عرف الشيء الكثير من الخوف والعذاب فجاء إلى هذه الدنيا فاقد الوعي ولا يتنفس. وأخذت أنتارام تهز الجسد الصغير الذي كان ما زال مغشىً بالدم والمشيمة في حين أخذت اسكوهي تدفع أنفاسها في فمه. إلا أن نونيك ورفيقاتها أمسكن المشيمة بسرعة البرق ورحن يثقبنها بسبع أبر تخصّ سبع عائلات مختلفة ثم رمينها جميعها في النار التي كن قد أشعلنها. وبعد ثوان عديدة بدأ الطفل يتنفس ثم أخذ يبكي. وراحت أنتارام مايريك تدهن جسده بعناية بقطعة من دهن الضان، وراح الجميع الذين سادهم صمت شديد يصفقون. وكانت الشمس قد مالت في ذلك الوقت إلى الغروب. وأمسك القس

آرام تلك القطعة المليئة بالتجاعيد وتقدم به أمام الناس بفخر الأب الشاب وفرح الجميع وأثنوا على توماسيان لأن الطفل كان ذكراً.

لم تكن قد مرّت ثلاثة أيام بلياليها حتى أخذ الكشافة يوردون تقارير تفيد بوجود تحركات غامضة في القرى. وللتو صعد كابرييل إلى مركز مراقبته. ومن المنظار الميداني تبين وجود حركة دائبة وبأشكال مختلفة. إذ رأى صفوفاً طويلة من عربات تجرها الثيران عبر سهل العاصي، على طول الطريق الرئيسي بين القرى وعلى الممرات حشود كبيرة في هذه القرى، رجال يعتمرون الطرابيش والعمائم وهم يدخلون ويخرجون بسرعة واضحة. وأخذ كابرييل يتفحّص كل بقعة من الأرض بعناية فائقة لكنه لم يتبين وجود زي عسكري أو عدد كبير من الدرك. ومن الناحية الأخرى، لاحظ أنه في هذه المرة لم يكن سكان أنطاكية وضواحيها بأشكالهم المميّزة هم الذين احتلّوا الشوارع الخاوية. وكان ثمة حركة دؤوبة في ساحة كنيسة يوغونولوك، وشاهد كابرييل رجالاً يصعدون إلى باب منفذ النجاة في الكنيسة ويتحركون فوق البرج الفارغ وسرعان ما تبين كابرييل أن الكنيسة التي بناها أواديس باكراديان الأكبر قد تحولت إلى مسجد، وبرقت على الفور في رأس الحفيد فكرة الانتقام من ذلك بقذيفة.

وبينما كان كابرييل يراقب كل هذه الحركة في الوادي سأله نفسه كم قتيلاً بإمكانهم أن يدحروا. فعلى الرغم من الانتصار في المعركتين وورشة نورهان لصنع الخراطيش، فإن مورد الذخيرة كان محدوداً جداً. ولم يكن ثمة حل وسط لهؤلاء المتواجدين على الداملاجيك. فإما النصر الحاسم أو النهاية. وقد أفادت مهارته التكتيكية في تأخير تلك النهاية بقدر ما يستطيع . أما سكان الوادي فكانوا يزدادون في كل دقيقة. لكن في هذه المرة لم يكن ينطوي الأمر على شن هجوم ضدهم، وأصبح واثقاً من ذلك بعد دراسة وتمحيص دقيقين. فلربّما كانوا يتظاهرون. وتمكن من تمييز مجموعة صغيرة من الرجال يرتدون زياً أوروبياً تقف أمام باب الكنيسة. إنه المدير برفقة عدد من المسؤولين الآخرين وشعر كابرييل بالسعادة لأنه لم ير ضابطاً بينهم. ومع ذلك فقد أمر أن تبقى حالة التأهب في حالتها القصوى. ووضع حارسين عند كل مركز مراقبة ومجموعات من الكشافة عند جميع الطرق المحتملة إلى الداملاجيك ، حتى الكروم والبساتين لكي يقطع عليها احتمال شن هجوم مفاجيء. كان حدس كابرييل صحيحياً فقد كان المدير الأغشى واقفاً في ساحة كنيسة يوغونولوك، لكن كان هناك كذلك شخص أرفع منه مقاماً. فقد جاء القائمقام ليقف بنفسه على حقيقة الموقف.

توجه القائمقام والمدير السلانيكي إلى مكتب البرق وبعثا برسالة مطوّلة إلى معالي والي حلب وضمت هذه الرسالة ألف ومائة كلمة ملأت عشر صفحات كاملة. واستهلت الرسالة بشرح الجهود المضنية التي بذلت أخيراً « لتصفية» الخسائر الفادحة وغير الضرورية (وقد اشفعت بالأرقام) التي وصفت بأنها أبشع هزيمة عسكرية، واستيلاء مجموعة من المتمرّدين الأجلاف على المدافع الهاوتزر واختتم القائمقام كلامه باقتراح مفاده أن أي محاولة من جانبه للتأثير على

القرارات العسكرية يمكن أن يُساء تفسيرها. ومن الناحية الأخرى فقد شعر أنه من الضروري التأكيد على الشعور العام والقلق الغاضب بشأن هذا الموضوع حيث تطالب المظاهرات التي انتشرت في الشوارع بتنحية البنباشي من قيادته على الفور. وفي أثناء ذلك كتب البنباشي الذي خبا وجهه المتورّد رسالة مطولة إلى رئيسه المباشر مليئة بالإدانات ضد القائمقام الذي أرغمه على الدخول في هذه المعركة التي انتهت بكارثة دون أن يترك له وقتاً للاستعداد كما يجب. لكن البنباشي طرد من الخدمة بعد أربع وعشرين ساعة واستُدعي للمثول أمام محكمة عسكرية واختفى تحت جنح الليل بعد أن قدّم خدماته بنجاح لسنوات كثيرة. و كان هذا البنباشي الضحية البريئة لانتصار الأرمن في المعركة.

لكن معالي والي حلب أعجب أشد الإعجاب باقتراحات قائمقام أنطاكية بحيث أبرقها فوراً إلى وزارة الداخلية في استانبول. وقرأ طلعت بك تلك التحفة الأدبية بمشاعر مزدوجة. فقد كان من واجبه حماية السلاح المدني ضد التغلغل العسكري. وكان ترحيل الأرمن بالنسبة له أمراً في غاية الأهمية وأكبر بكثير من طموحات مملة لضباط ساخطين. وأرسل بسرعة الرسالة وأرفق عليها قصاصة ورقية كتب عليها « تحتاج إلى حل فوري ». وانتقل الملف بسرعة إلى مكتب وزير الحربية. وكان من عادة أنور باشا عدم رفض أي طلب يقدمه له طلعت باشا. وفي ذلك المساء، عندما اجتمعا في اجتماع الوزارة المصغّرة، تقدّم أنور مباشرة من صديقه وقد ارتسمت على وجه إله الحرب الصغير ابتسامة خفيفة وهز رموشه وقال: « لقد أرسلت إلى جمال برقية عادلة بشأن جبل موسى ..» ودون أن ينتظر شكر طلعت أردف: «إنّي متأكد أنه يجب عليكم جميعاً أن تشكروني لإبعاد ذلك المجنون إلى سورية ».

كان الجنرال جمال باشا قد اتّخذ من فندق عربي إزاء بوابة يافا في القدس مقراً مؤقتاً لقيادته. وكانت نوافذه الواسعة تطلّ على قلعة داوود بمآذنها العالية. وفي هذا المكان قرأ الرسائل التي بعثها إليه أنور باشا ووالي حلب وعدد آخر من المسؤولين يتوسلون إليه إرسال حملة على الفور لإخماد الثورة الأرمنية اللعينة. جلس جمال باشا وحده في الغرفة ولم يكن معه في تلك اللحظة رئيسا أركان جيشه علي فؤاد بك والألماني فون فرانكشتاين، ولم يكن برفقته سوى عثمان رئيس حرسه الخاص الذي كان واقفاً عند الباب. وكان حرس جمال الخاص يؤدون هدفين: الإقرار بأن الآسيويين يحبون كثيراً الزهو والمباهاة، والتخفيف من حدة الرعب - وهو الرعب الذي يميّز جميع الدكتاتوريين من زملائهم الأقل نجاحاً بالاغتيال على مر العصور. وكانت لدى عثمان أوامر صارمة بعدم ترك الجنرال بمفرده، وخاصة في حال زيارة أحد قادم من استانبول رغم أن جمال كان يشعر أنه من المستحيل أن يرسل له أخواه أنور وطلعت خبيراً في فن الموت. وراح الجنرال يتفحّص البريد وخاصة الوارد من أنور باهتمام شديد. وعلى الرغم من أن هذا الأمر بدا تافهاً، فقد جعل وجهه الشاحب أكثر شحوباً. وأصبحت شفتاه المتدليتان من وراء لحيته السوداء بيضاويين من شدة الغضب. استوى واقفاً وراح يمشي في الغرفة جيئة وذهاباً. وكان جمال قصيراً شأن أنور إلا أنه أكثر اكتنازاً. وكان قد أحنى كتفه الأيسر قليلاً، لذا كان الناس الذين لا يعرفونه جيداً

يظنون أنه أحدب قليلاً. وقد تدلت ذراعان حمراوان ثقيلتان من بين الأكمام ذات الخطوط المذهبة. وكان مجرد النظر إليهما يفسر الشائعة القائلة بأن جمال هو حفيد منفذ الإعدام السابق في استانبول .

رفع جمال الرسالة مرة أخرى وحاول من خلال شكلها الرسمي أن يسمع صوت أنور المغناج. وخلال هذه الدقائق كان مصير القرى السبع حول جبل موسى على كف عفريت أكثر من أي وقت مضى. فشخطة قلم من جمال تكفي لأن ترسل فرقتين كاملتين من المشاة مدعمة بالمدافع الرشاشة والمدفعية الجبلية لدك جبل موسى. وهذا سينهي الأمر في ساعة واحدة على الرغم من شجاعة كابرييل. وما أن أعاد جمال قراءة الرسالة حتى بدا أن غضبه قد أخذ يزداد حتى درجة الغليان. وأشار إلى عثمان المرتبك بالخروج من الغرفة وأن لا يزعجه مرة أخرى. ثم اتجه نحو النافذة، لكنه سرعان ما انسحب خوفاً من أن يظهر للعالم روحه العارية. آه لو كان بإمكانه التخلص من أنور! غندور الحرب هذا! الحيوان الأليف الصغير المنتفخ تيهاً وكبراً! ذلك المتسلّق الذي لم يقم في حياته بعمل شيء رجولي، الذي اكتسب سمعته كجنرال عند استعادة إدرنة بواسطة خيالته – التي انسل إليها عندما كان كل شيء قد تم. وكان على جمال أن يكون تابعاً لهذا المغرور المنغمس في الملذات التافهة من الإمبراطورية العثمانية! ذلك المخنث المخادع الذي تجاسر وحاول التخلص من جمال واحتال عليه حتى جعله يقبل بقيادة سورية – وقد تعمق غضب جمال ضد إله الحرب القابع في استانبول ، وها هو يفجر الآن هذا الحقد. إنه أمر تافه، إذ بدأت برقية أنور بالكلمات التالية: « الرجاء اتخاذ إجراءات فورية» دون مخاطبة « بصاحب السعادة» بل حتى بدون أبسط الأشياء ألا وهي كلمة « باشا». إذ كان جمال مغرماً بالشكليات وخاصة عند مخاطبته أنور له. فهذه البرقية ببدايتها غير المهذبة كانت النقطة الأخيرة في كوب حقد جمال المترع. وكان أنور قد طلب من جمال منذ عدة أشهر طلبات قاسية وقد نفّذها دون أن ينبس بكلمة. ففي البداية طلب من جمال إعادة فرقته الثالثة والعاشرة إلى استانبول ثم الفرقة الخامسة والعشرين وأخيراً الجيش الثالث برمته الذي نقل إلى بغداد وبتليس. وفي اللحظة التي لم يعد فيها دكتاتور سورية يقود أكثر من ست عشرة إلى ثماني عشرة كتيبة مهلهلة في منطقة حربية واسعة تمتدّ من مرتفعات طوروس وحتى قناة السويس. وكان كل ذلك من عمل أنور باشا فحالة الحرب لم تكن إلا ذريعة، وكان جمال المعاند مقتنعاً بذلك. إذ أن رئيس هيئة الأركان بطرائقه المعتادة في الرقة، قام بتجريده من السلاح وبهذا يكون قد نزع عنه أسنانه وحرمه من أي احتمال في النصر. مئات من التفاصيل الدنيئة المنطوية على خيانات كانت تتضح في الكراهية التي يكنّها جمال باشا فضلاً عن إثباتات كثيرة جداً عن أسلوب معاملة أنور له وهو معاملة إزدراء. وقد حرص هو وعصبته على إبقاء جمال بعيداً ولم يكونوا يعلمونه بأهم قراراتهم كما لم يكونوا يدعونه لحضور جلساتهم الودية. هذه العلاقة كانت من البداية سلسلة من المعاملة بالاحتقار والترفع المدبرة. والأسوأ من ذلك أو الشيء المشين هو أن جمال لم يتمكّن من إثبات نفسه أمام أنور إذ أن وجود هذا الشخص وشخصيته جعلاه يشعر بأنه من الطبقة الثانية بالرغم من معرفته أنه

متفوق عليه كثيراً كقائد عسكري وجنرال. كان جمال باشا ما زال يدور حول الطاولة وشعر بأنه مجرد من القوة. ومضت في عقله مخططات جنونية: تحرك إلى استانبول بجيش جديد. أوقف هذه اللعبة الوقحة. افتح البوسفور أمام الحلفاء. أعقد السلم مع العدو الحالي وللمرة الثالثة رفع البريد إلا أنه سرعان ما رماه على الطاولة مرة أخرى. ما هو الشيء الأكثر ضرراً الذي يمكن أن يلحقه أنور وعصبته؟ فقد عرف جمال أنهم رأوا في الترحيلات الأرمنية أكثر مهامهم الوطنية قداسة وأهمية. فهو نفسه كان قد أشار في معظم الأحيان إليهم بهذا الأمر، إلا أنه لم يوافق على هذا العمل الأخرق الذي جعل من سورية (بالوعة) لجثث الأرمن. وكان وزير الحربية حريصاً على عدم الطلب منه أن يحضر الجلسات التي نوقش فيها قانون الترحيل. فلو كان قد حضرها لأزال أي أثر لمخططات أنور الصغير وثمة سبب آخر وهو لماذا نقله ذلك المخادع الزلق إلى الجنوب الشرقي لإبعاده عن الطريق. وأخذ يتساءل الآن في خضم رغبته الجامحة للانتقام فيما إذا كان عليه أن يغلق الجبهة الشرقية ويعيد القوافل إلى أنطاكية يجعل العمل العظيم هذا وكأنه شيء لم يكن.

بينما كان كل ذلك يدور في خلده قرع رئيس أركانه الألماني الكولونيل فون فرانكشتاين الباب. وعلى الفور أبعد جمال تخيلاته الجامحة وعاد ثانية ذلك الجنرال المتزن الرصين. وكان دائم الحرص على إعطاء هذا الجنرال بشكل خاص انطباعاً بمنطق موضوعي جداً. جلسا وراء الطاولة وفتح الألماني ملفه وأخرج بعض الورقات وراح يقرأ تقريراً عن تمركز قوات جديدة في سورية. ولاحظ أكداس البريد تعلوها تعليمات أنور باشا. « هل يوجد لدى معاليكم بريد هام؟ ». فأجاب: «لا تشغل بالك بذلك يا جنرال فالأمور هنا لا تخص وزير الحربية بل تعنيني أنا وحدي » وأمسك بيد رسالة أنور بينما راحت الأخرى تمزقها إلى قطع صغيرة جداً ثم رماها خارج النافذة فتطايرت القصاصات حتى وصلت إلى قلعة داوود. وهكذا كان لكابرييل باكراديان حليفاً دون أن يعلم ولم يرد هذا الحاكم النزق على الرسالة كما لم يرسل مدفع واحد أو مدفع رشاش إلى أنطاكية للقضاء على جبل موسى.

لقد أنقذ رفض جمال باشا التدخّل في المعسكر الجبلي من التدمير المحتم ولعل دكتاتور سورية وفلسطين نفسه كان يرفض المشاركة في مثل هذا العمل. أما اليوزباشي الذي أصبح القائد العسكري في أنطاكية بدل البنباشي المطرود، فقد سعى للوصول إلى الجنرال في حلب لإمداده بعدّة سرايا من الحامية الموجودة هناك. كما كتب الوالي إلى القائمقام رسالة يعلمه فيها بتوقع وصول تعزيزات ضخمة من الدرك. وهكذا فقد أثمر تحرك القائمقام في حلب والنجاح من شأنه أن يثير الطموح.

عندما كان باكراديان واقفاً عند مركز المراقبة شعر بأن الداملاجيك عبارة عن نقطة ميتة في وسط دوامة واسعة. نقطة ارتكاز مطلقة في عالم شديد العداء. وبينما أخذت العربات التي تجرها الثيران والبغال المحمّلة والجموع تتدفّق إلى الوادي في هذا اليوم، بدأت الحركة حول هذه النقطة

الميتة تأخذ شكلها المرئي. فما هو معنى هذا السيل المتدفق ؟.. أما القائمقام الذي رأى أن الساعة التي ستضع خدماته السياسية في صدارة الحزب تقترب، فقد بدأ ينسج خيطاً جديداً وقوياً مدمراً في الشبكة التي تحيط بالشعب الأرمني فأخذ يستغل الحركة القومية العربية التي بدأت منذ فترة تستحوذ على عدد من المسؤولين السوريين. فقد كانت الجمعيات السريّة العربية الواسعة الانتشار تشنّ حملات دعائية معادية لاستانبول بهدف توحيد جميع البلاد العربية في دولة واحدة مستقلّة. وهنا، كما في أي مكان آخر في العالم، فقد أخذ تفاقم الشعور بالوطنية في تفكيك المفاهيم الدينية الغنية العميقة للدولة إلى مكوناتها البيولوجية التافهة. فقد كان الخليفة يمثل الفكرة الإلهية، إلا أن الأتراك والأكراد والأرمن والعرب كانوا يشيرون إلى أشياء دنيوية فقط . وكان الباشوات في الأيام الماضية يعرفون جيداً أن مفهومهم عن الوحدة الدينية الشاملة - الخلافة - كان أكثر نبلاً من الرغبة في تشكيل كيانات منفصلة بهدف التقدم . إذ عرف هؤلاء بغريزتهم الدقيقة أن قصراً نبيلاً حتى لو كان مهدماً لن يحتاج إلى كثير من الترميم . غير أن الأتراك الشبان عملوا على تدمير جهود قرون عديدة بضربة واحدة. فقد أثارت نعرتهم القومية المحمومة سائر النزعات القومية لمختلف الشعوب التي تعيش في ظل الدولة العثمانية، وفي أية حال كانت القومية العربية تسير قدماً. فقد انتشرت في أنحاء تركيا. وكان الشعور القومي في الولايات السورية عاملاً هاماً يجب أخذه بالحسبان وذلك لأنها تقع في مؤخرة الجيش الرابع أو جناحيه فيعرض الجيش المقاتل للخطر. وهكذا إذن فإن الضجة التي افتعلت ضد البنباشي المسكين في أنطاكية كان لها مصدرها الخفي في خضم هذا المزاج الحسود. إذ كان القائمقام يرغب في استمالة الشعب العربي الذي كان يغلي، على حساب الأرمن. انتقلت جميع ممتلكات الأرمن، استناداً إلى قانون الترحيل إلى الدولة، وكان ذلك الآن على الأقل حبراً على ورق. وفي الواقع ترك ذلك الأمر لتقدير محافظي المناطق للاستفادة منها بالطرق التي يرونها. فبعد يوم واحد من إخلاء القرى المحيطة بجبل موسى، أرسل القائمقام أعوانه إلى جميع المناطق القريبة من القرى السبع التي يقطنها عرب يعلنون فيها أن أكثر الأراضي المثمرة في كل أرجاء سورية الواقعة بين السويدية ورأس الخنزير الممتلئة بالكروم والبساتين ومزارع دود القز والنخيل الغنية بأشجارها ومياهها ستُعطى مجاناً إلى الذين يرغبون في الإقامة بالوادي الأرمني بعد ثمانية وأربعين ساعة. وألمح المدير إلى أنه سيتمّ تفضيل المزارعين العرب النشطين على المزارعين الأتراك. ومن هنا جاءت الهجرة المذهلة. فقد جاء القائمقام بنفسه ليقيم إلى أجل غير محدود في يوغونولوك ليشرف على توزيع الأراضي وليتودد إلى الوجهاء العرب. واتخذ فيلا باكراديان مقراً له. وفي خلال ثمان وأربعين ساعة اكتظت القرى بالسكان كما كانت من قبل وبدأت أواصر الأخوة تتوطد بين العرب والأتراك. وبلمحة بصر تحوّلت الكنيسة إلى مسجد حيث رفع فيه الآذان في ذلك المساء. وكان سكان القرى الأرمن الذين لجاؤوا إلى الجبل يرون بيوتهم وقد احتلها أشخاص آخرون.

استدرجت جولييت كونزاك إلى الداملاجيك. كان متواضعاً لكنه شديد الثقة بنفسه ويتحين الفرص. وقد أثارت قدرته على التركيز في جولييت نقيضها اللامبالاة. وجلسا في مكان هادىء

سمياه بين بعضهما الريفيرا. شطر كونزاك سيكارة إلى نصفين، وأشعل نصفاً بعناية ثم قال: « ما زال عندي خمسون منها» ثم أردف لكي يضفي جواً مرحاً لفكرة التبغ الذي سينفذ قريباً وقال: «لكن لن نبقى هنا طويلاً ».

حدقت به جولييت لكنّها لم تعد تراه هناك « اقترح أن ننأى بأنفسنا عن كل ذلك، أنا وأنت، فلقد آن الأوان ». وكانت جولييت ما تزال ساهمة، وبدا أنّها لم تكن تسمع ما كان يقوله لكنّه أخذ يشرح لها خطته بدقة « يمكن أن تكون الساعات القليلة الأولى صعبة. سنقوم برحلة أثناء النهار إلى الجنوب، على طول حافة الجبل - هذا كل ما في الأمر. ويمكن أن نضطر إلى هبوط بعض الصخور في بعض الأحيان للوصول إلى قرية هاباسته الصغيرة ومن ثم إلى سهل العاصي ومنه إلى طريق السويدية ». وقال أنه جرب الطريق بنفسه الليلة الماضية وكان سهلاً ولم يقابل أي مخلوق حتى وصل إلى مصنع الكحول حيث قابل المدير الذي كان يونانياً ذا نفوذ . وأردف « إن المدير يضع نفسه تحت تصرفنا. ففي 26 آب ستبحر السفينة التابعة للمصنع إلى بيروت وستتوقف في طريقها في اللاذقية وطرابلس . وحسب مخططها فيمكن أن تصل إلى بيروت في التاسع والعشرين. وسترفع الباخرة العلم الأمريكي، فهي كما تعلمين شركة أمريكية والمدير واثق بأنه لن يكون هناك أي خطر، لأنه سيرسي في ذلك الوقت الأسطول القبرصي، وستكون لك غرفتك الخاصة على الباخرة يا جولييت، وعندما نصل إلى بيروت تكونين قد نجوت، وكل ما يبقى هو مسألة النقود وأنت...

بدت عيناها خاويتين « وماذا بشأن ستيفان وكابرييل ؟ ».

كان كونزاك ينفض عن معطفه الغبار « ستيفان وكابرييل ؟ سيرحلان إلى مكان ما على أساس أنهما أرمن، لكني سألت المدير عنهما. إنه يقول إنه لا يستطيع أن يفعل أي شيء حيال الأرمن. فهو على علاقة طيبة مع الحكومة التركية لذلك فهو لا يستطيع أن يقدم على أي مجازفة. قال ذلك بوضوح تام، لذلك لا يمكن إنقاذ كابرييل وستيفان ».

ابتعدت جولييت عنه ودمدمت « وأن تقوم أنت بإنقاذي وحدي ..؟ ».

هزّ كونزاك رأسه، غير قادر على ما يبدو لأن يشعر بالتعاطف مع كلام تلك المرأة المغالية «حسناً. تعرفين جيداً كم كان يرغب في إبعادك ! ومعي، فماذا أكثر من ذلك ».

ضغطت بكلتا يديها على صدغيها وقالت: « نعم لقد أراد أن يرسلني أنا وستيفان.. وأنا فعلت ذلك من أجله.. ثم تريدني أن أكذب عليه.. ».

- « لن تكذبي يا جولييت. فأنا آخر من يريد ذلك لك. بل على العكس. يجب أن تخبريه الأمر كله ومن الأفضل أن تقولي له ذلك اليوم ».

استوت جولييت واقفة. وبدا وجهها شديد الاحمرار وارتسمت عليه إمارات الغضب. ماذا؟ أتريدني أن أقتله؟ إنه مسؤول عن حياة خمسة آلاف شخص. وفي وقت كهذا تريدني أن أقتله؟».

– «إنك تشوهين كل شيء بمبالغاتك » ردد كونزاك الذي ظلّ جالساً وجاداً ثم أردف «إننا نقتل الغرباء عادة فنحن نرى ذلك كل يوم. لكننا في بعض الأحيان نجد نفسنا مرغمين على الاختيار بين أنفسنا وبين ما ندعوهم أقرب المقربين والأعزاء على نفوسنا! هل كابرييل حقاً أقرب المقربين وأعز شخص إلى قلبك؟ وهل حقاً تقتلينه إذا ما لذت بالفرار يا جولييت ؟ » هذه الكلمات الهادئة والعينان الواثقتان جعلها تجلس بجانبه ثانية.

وأمسك كونزاك بيدها وراح يشرح لها فلسفته بوضوح. فلكل واحد منا حياة واحدة، ويتركّز واجبه على هذا الشيء الوحيد الذي لن يتكرّر ثانية وهو الحياة: ولا شيء آخر أو شخص آخر! وما هو جوهر الحياة الحقيقي ؟ من أي شيء تتألف الحياة؟ إنها تتكون من سلسلة طويلة من الرغبات والشهوات، رغم أننا قد نتصور أننا نرغب شيئاً واحداً فقط. أما الآن فالجوهري هو أننا نرغبه بكل قوة، وواجبنا يكمن في إرضاء رغباتنا وشهواتنا. فهذا هو المعنى الوحيد والمطلق للحياة، ولهذا السبب فإننا نعرض أنفسنا للخطر حتى الموت لشيء نريد تحقيقه، لأنه خارج هذه الرغبة الجامحة لا يمكن أن تكون حياة. وأعطى كونزاك نفسه مثالاً عن الطريقة المنطقية الوحيدة للسلوك. فهو لم يتردّد ولا ثانية واحدة في تقبّل الخطر لتحقيق شيء أحبه. واختتم كلامه بشيء من الاحتقار « لكن الشيء الذي تخالينه حباً يا جولييت والتضحية بالذات لا يعدو كونه قلقاً مريحاً؟ » وضعت جولييت رأسها على كتفه «إنك وسيم جداً يا كونزاك. لا تكن واضحاً ومنظماً إلى هذه الدرجة المخيفة يا كونزاك، فأنا لا أستطيع احتمال ذلك! لماذا أنت لست كما اعتدت أن تكون ؟ » وأخذ يداعب ذراعها ويعبث بصدرها ويرص ردفيها. وراحت تنشج باكية إلا أن كونزاك أدخل الطمأنينة في نفسها « ما زال لديك وقت كاف لكي تتّخذي قرارك. فأمامك سبعة أيام بطولها. والأهم من ذلك فمن يعرف ماذا يمكن أن يحدث خلال هذا الوقت».

بعد انقضاء فترة طويلة دعا دير هايكازون مجلس القادة بأكمله للانعقاد، حيث تحدث الأعضاء ساعات طويلة. وكان أفاكيان وكاتب كنيسة يوغونولوك الجالسان متباعدين يدونان ملاحظات عن المقررات الرئيسية لكي يصوغانها فيما بعد في محاضر. وكان حرس المعسكر قد وضع خارج باب المجلس وترأس دير هايكازون المجلس وعيناه نصف مغمضتين كعادته. وتلا القس آرام توماسيان بصفته المشرف على الاقتصاد المحلّي تقريره عن حالة المؤن الغذائية التي كان قد وضعها القس على رأس جدول الأعمال. وقدم صورة دقيقة عن الوضع في المعسكر. إذ أن العاصفة التي هبت والإصابة المباشرة للقذيفة لم تجهز على ما تبقى من الطحين فقط بل على سائر مخزوناتهم القيّمة: الزيت والنبيذ والسكر والعسل، عدا المواد غير الضرورية كالتبغ والقهوة – والأهم من كل ذلك الملح. إذ لم يبق من الملح سوى كمية تكفي لتمليح اللحم لمدة ثلاثة أيام أخرى. أما اللحم فقد كانت كميته في تناقص شديد إلى درجة مخيفة. وقدّم المخاتير بياناً بعدد رؤوس الأبقار المتبقية وقالوا إنّ القطعان قد تناقصت حتى الثلث في تقديرهم. ومثل هذا التقشف لن يستمر نظراً لأن المؤن ستنفد قريباً جداً. وتابع آرام تقريره حول نقص الخبز وما سينجم عن تناول اللحم وحده. فهناك مائة سبب لذلك، فبالإضافة إلى نقص القطعان يجب بذل جهود

لإيجاد أغذية أخرى بالإضافة إلى اللحم. ووافق بدروس ألتوني على أن صحة الناس ستتأثر بشكل سيء في نهاية الأمر إذا لم يتح العثور على غذاء آخر. كما يمكنهم أن يروا كيف أصبح الناس أكثر شحوباً وضعفاً.

وعرض القس توماسيان خطة، إذ أنهم حتى الآن لم يفكّروا بالبحر. ويمكن النزول إلى البحر من نقاط محددة على طول الجروف، خلال نصف ساعة وقد اكتشف هو نفسه طريقاً للبغال غير مطروق يمكن تعبيده بسهولة وجعله صالحاً. فما نفع وجود عمال طرق ماهرين بين القرويين والفارين؟ ولن يستغرق العمل للوصول بسهولة إلى الشاطىء سوى يومين. ويجب أن يشكلوا مجموعة من الشبان وأقوى النساء وأكبر الفتيان للقيام بذلك. وثمة شيء آخر، فقد تذكّر آرام أنه عندما كان صبياً كان يخرج دائماً لاصطياد الطيور بقذائف الحصى. ويجب أن يكون أطفال يوغونولوك مفيدين بدلاً من تسكعهم بدون عمل. فليحضر جميع الأطفال نقّافاتهم وكان أن لاقت مقترحات القس ترحيباً ونوقشت بالتفصيل، وخوله المجلس سلطة تنظيم هذه المشاريع. ثم قدّم بدروس ألتوني تقريره الصحي. فمن بين الأربعة والعشرين جريحاً الذين أصيبوا في المعركة الأخيرة كان أربعة منهم ما زالوا مصابين بالحمى لكنهم تجاوزوا مرحلة الخطر. وقد أرسل ثمانية وعشرون منهم إلى بيوتهم لكي تقوم عائلاتهم بالاعتناء بهم وسيتماثلون للشفاء بعد فترة وجيزة ويعودون معها إلى نشاطهم. لكن الشيء الذي بعث القلق إلى نفس الطبيب هو المرض الجديد الغريب الذي أدخله إلى المعسكر أحد الفارين الشباب القادمين من حلب. فمنذ ليلة البارحة والشاب على حافة الموت ولعله قد توفي الآن. ولكن الأسوأ من ذلك أن المرضى الآخرين الموجودين في المستشفى بدأت تظهر عليهم أعراض المرض التي هي: قيء مفاجيء، وحمى شديدة ونوبات اختناق. ولا بدّ أن هذه الحالة تماثل ذلك الوباء الذي تذكر أنه قرأ عنه في الأشهر القليلة الماضية في صحف حلب. لكن وباء من هذا النوع يشكل خطورة على المعسكر بنفس درجة خطورة الأتراك. فمنذ الصباح الباكر اتّخذ تدابير خاصة لعزل هذه الإصابات بشكل صارم ثم استدار نحو كابرييل وقال: « يا صديقي عليّ أن أطلب منك خدمة خاصة وهي أن ترجو السيدة جولييت أن لا تأتي إلى المستشفى ثانية، صحيح أنني سأفقد عندئذ مساعداً ممتازاً، لكن بصراحة فإن صحتها أهم بالنسبة لي من مساعدتها. كما أود أن أقول لك أني قلق على زوجتك يا بني. فنحن قادرون على التحمّل أما زوجتك فقد تغيرت كثيراً منذ أن وطأنا الداملاجيك. فهي تردّ علي في بعض الأحيان بإجابات غريبة، ويبدو أنها لا تعاني معاناة جسدية فقط، فهي ليست قوية بما يكفي لكي تحتمل هذه الحياة، وكيف يمكنها ذلك؟ وإني أنصحك أن ترعاها أكثر من ذلك، وأفضل شيء بالنسبة لها أن تمكث في الفراش طيلة اليوم وتقرأ الروايات وأن تبعد تفكيرها عما نحن فيه، ومن حسن الحظ فإنه بإمكان كريكور أن يزود مدينة مليئة بالسيدات بالروايات الفرنسية لكي ينسين متاعبهن ».

أثار تحذير ألتوني الفزع في نفس كابرييل وانتابه شعور بالذنب فقد تذكّر أنه لم يتحدث مع جولييت منذ يومين. وأخذ هابيت شاداخيان يتذمّر بشدة من حالة الفوضى التي تفشت بين

الأولاد. إذ أصبح من المستحيل جعلهم يأتون إلى المدرسة. فمنذ أن قام ستيفان باكراديان وهايك بالاستيلاء على مدافع الهاوتزر خرج جميع الشباب عن الطوع وتملّكهم شعور بأنهم مقاتلون أشداء. ووافق المخاتير على تذمر المعلم ودمدم مختار بيتياس: « رحم الله تلك الأيام التي لم يكن يسمح فيها للصبية بالتحدّث إلى الرجال وكان عليهم استخدام الإشارات عند مخاطبتهم» لكن دير هايكازون شعر بأن هذه المشكلة ليست ذات أهمية لتداولها. وفجأة استدار إلى كابرييل وسأله: « كيف حال دفاعاتنا الحقيقية؟ وما هي أطول فترة ستكونون قادرين فيها على الصمود في وجه الأتراك ؟ » فأجابه كابرييل: «لا أستطيع أن أجيب عن هذا السؤال يا دير هايكازون. فالدفاع دائماً يتوقف على الهجوم. « إذاً ما هو رأيك يا كابرييل باكراديان ».

– «لا يوجد لدي سبب لتأخير المجلس أكثر من ذلك يا دير هايكازون فأنا على ثقة تامة بأن موقفنا يائس ». ثم طرح كابرييل اقتراحاً هاماً. فنظراً لأن فكرة الإنقاذ بدت تافهة، فإن المجلس يجب أن لا يسمح لنفسه انتظار الدمار المحتوم في بلادة وكسل، ومن المؤكد فإنه لم تمخر عباب البحر سفينة وكأنه لم يتم اختراع السفن لكننا يجب ألا نترك حجرة تلقى علينا ولا نعيد رميها. والأهم من ذلك فالله أعلم فيما إذا كان، إزاء جميع الاحتمالات، لا يوجد هناك طوربيد للحلفاء يقف خارج خليج اسكندرونة « ومن واجبنا أن نفترض أنه يوجد، ومن واجبنا أن نسلك وفق هذا الافتراض وأن لا نفوت فرصة محتملة. ثم ماذا عن السيد جاكسون، القنصل الأمريكي في حلب؟ فهل سمع يا ترى عن هؤلاء المقاتلين الأرمن القابعين في جبل موسى والذين هم في مسيس الحاجة إلى المساعدة ؟ فمن واجبنا أن نخبره عن وجودنا وأن نطلب الحماية من الحكومة الأمريكية ». ثم أخذ كابرييل يشرح تفاصيل خطته « تنطلق مجموعتان من الرسل، واحدة إلى الاسكندرونة والأخرى إلى حلب –أمهر السباحين إلى اسكندرونة وأفضل الراكضين إلى حلب. وستكون مهمة السباحين أسهل نظراً لأن خليج اسكندرونة يبعد خمسة وثلاثين ميلاً انكليزياً من الشمال، ويمكن أن يشقوا طريقهم عبر قمم جبال نائية، وهدفهم التوجه سباحة نحو أي سفينة حربية قابعة في الخليج. وهذا الأمر يحتاج إلى قوة وعزم كبيرين. أما الراكضون إلى حلب فأمامهم خمسة وثمانون ميلاً للوصول إليها ويتوجب عليهم السير في الليل فقط وأن لا يسلكوا الطريق العام، إذ سيتعرضون لخطر إطلاق النار عليهم، وإذا ما تمكن هؤلاء من الوصول إلى منزل جاكسون فمن المحتمل إنقاذ المعسكر ».

واتخذ قرار بإرسال سباحين اثنين وراكض واحد إلى حلب فلا حاجة لتعريض مزيد من الأشخاص للخطر. إذ يمكن لشخصين الاختفاء أفضل من ثلاثة أشخاص كما يكون من الأسهل لشخص واحد أن يتسلل بين صفوف الدرك وضباط الجمارك أكثر من اثنين. واقترح دير هايكازون أن يتمّ اختيار أولئك من بين المتطوّعين. وسيحمل الراكضون (لم يقرر بعد فيما إذا كان سيرسل واحد أو اثنان) رسالة إلى القنصل الأمريكي. أما السباحان فسيحملان رسالة أخرى موجّهة إلى قائد الأسطول. وللحيلولة دون وقوع هذه الرسائل في أيدي الأتراك إذا ما وقع أحدهم في قبضتهم، إخفاء الرسالة داخل الحزام الجلدي الذي سيرتدونه حيث تخاط في داخله وعرض

كابرييل أن يكتب الرسالة الموجّهة إلى جاكسون في حين تعهّد آرام توماسيان بكتابة الرسالة الأخرى. وعلى الفور انفصل عن بقية أعضاء المجلس وراح يكتب النص الذي سيحمله السابحان رغم الضجة التي كانت تصدر عن الأعضاء لدى مناقشة إحدى النقاط. ومن حين لآخر بدا أنه كان ينجرف بعيداً، ولم تستغرق كتابتها طويلاً، وحفظت كوثيقة من وثائق الأيام الأربعين:

«إلى أي ادميرال أو قبطان أو أي قائد آخر سواء كان انكليزياً أو افرنسياً أو روسياً أو إيطالياً يمكن أن تصله هذه الرسالة:

سيدي! إننا نتضرع إليكم باسم الله والأخوة الإنسانية، نحن سكان القرى الأرمنية السبع، يبلغ عددنا ما يقرب من خمسة آلاف شخص لجأنا إلى قمة جبل موسى المعروف بالداملاجيك الذي يقع على بعد ثلاثة فراسخ شمالي غرب السويدية من شاطىء البحر. لقد لجأنا إلى هذا المكان هرباً من الاضطهادات التركية البربرية. لقد حملنا السلاح للحفاظ على شرف نسائنا. سيدي! لا ريب أنكم سمعتم عن سياسة الأتراك الشبّان الرامية إلى إبادة الأرمن تحت ذريعة قانون النفي المزعوم بحجة وجود حركة ثورية لا أساس لها من الصحة. وهم يطردوننا من بيوتنا وينهبون مزارعنا وبساتيننا وكرومنا وجميع ممتلكاتنا المنقولة وغير المنقولة. وحسب علمنا فقد تمّ ذلك للتو في مدينة زيتون والقرى الثلاثين التابعة لها».

ومضى القسيس آرام في وصف محنته في القافلة بين زيتون ومرعش، وذكر لهم قانون النفي الصادر ضد القرى السبع وأعطى وصفاً حياً عن المحنة البائسة للقرويين في المعسكر على الداملاجيك واختتم بالطلب:

« سيدي نتوسل إليكم باسم المسيح أن تنقلونا إما إلى قبرص أو إلى أي أرض حرة أخرى. فشعبنا ليس كسولاً ونحن نرغب في كسب رزقنا بأي عمل ممكن مهما كان قاسياً إذا ما أُتيحت لنا الفرصة. لكن إذا لم يكن بوسعكم عمل ذلك فعلى الأقل انقلوا نساءنا وأطفالنا وشيوخنا وزودوا المقاتلين بالمدافع والذخيرة والطعام بما يكفيهم للدفاع عن أنفسهم حتى آخر رمق في حياتهم ضد الأعداء. نتضرع إليكم يا سيدي بأن لا تتأخروا حتى لا يفوت الأوان.

باسم جميع الأرمن الموجودين على الجبل
خادمكم المطيع، القس آ. ت ».

وكتب هذه الرسالة بلغتين – على صفحة بالفرنسية وعلى الصفحة المقابلة بالانكليزية. وتمّ

تنقيح النصين من قبل اللغوي هابيت شاداخيان، وكلف المعلم أوسكانيان بكتابتهما لاشتهاره بخطه الجميل.

بعد انفضاض المجلس توجّه كابرييل للقاء زوجته في خيمتها حيث تستقبل زوارها وجاء في تلك اللحظة أوسكانيان وشاداخيان كما كانا يفعلان سابقاً لتقديم احترامهما للسيدة. وأصيب هرانت أوسكاينان بخيبة أمل شديدة لعدم تمكّنه من تقديم نفسه لجولييت على أنه بطل التحصينات الجنوبية. وعندما رأى كابرييل المعلمين، استدار بسرعة واتجه نحو الريفيرا « وتساءل ألن يمكن أن تكون جولييت في مثل هذا الوقت ؟ وشاهد ستيفان في مكان قريب من المعسكر محاطاً كالعادة بمجموعة هايك، فناداه بصوت حاد. انفصل ستيفان عن مجموعة الفتيان واقترب من أبيه بخيلاء وكان قد تعلم ذلك من رفاقه الجدد. وكان شعره الأشعث يتدلى من فوق جبهته. كان وجهه أحمر ونديا بالعرق حتى أن بنطاله كان ملوثاً وممزقاً فسأله كابرييل مقطباً: « حسن ماذا تفعل هنا ؟ » فنظر ستيفان حوله بغموض وقال: «إننا نجري.. إننا نلعب فنحن لسنا في وقت الخدمة ».

– « تلعبون ؟ شبّان كبار من أمثالك ؟ وماذا تلعبون ؟ ».

– «آه لا شيء خاص – فقط... نلعب يا أبتي ! » ونظر إلى أبيه بشيء من الغرابة. وبدا أنه يقول له « يا أبي لماذا تحاول أن تبخس من قدري للعمل الذي قمت به بين أولئك الصبية؟ فإذا ما وبختني الآن فسيبدأ الجميع في الهزء بي » وفهم كابرييل مغزى هذه النظرة وقال: « يبدو أنك لست إنساناً يا ستيفان . هل تجرؤ حقاً على أن تدع أمك تراك بهذه الهيئة ؟ ».

لم يجب الطفل بل أطرق رأسه وراح يحدق بالأرض والألم يعتصره . فحتى الآن كان أبوه يتحدث معه بالفرنسية. لكن الأمر الذي تلى ذلك جاء بالأرمنية وقال له بحيث يسمع الجميع «اذهب الآن مباشرة إلى الخيمة واغتسل وبدّل ثيابك وتعال إليّ في المساء عندما يصبح منظرك لائقاً».

وما أن خطا كابرييل بضع خطوات بشكل غاضب نحو الجنوب حتى توقف فجأة. فهل أطاع الصبي أوامره؟ وكأنه كان شبه متأكد بأنه لم يطعه وبالفعل عندما عاد بعد قليل إلى الخيمة لم يجده هناك.

وقف كابرييل خارج خيمة أوسانا واستأذن بالدخول ليعود الأم الجديدة وطلبت منه أنتارام مايريك الدخول. ورغم كل جهود مايريك فقد بدا أن الصبي الطفل مصمم على عدم الاستجابة. فقد كان لون وجهه ما زال يميل إلى البني وكان ما يزال مجعداً كما ولد. وراحت عيناه الجاحظتان تحدقان دون أن تريا شيئاً. وبدا صوت مايريك نافذ الصبر عندما قالت:« هيا يا أوسانا اشعري بالسعادة لأن طفلك يحمل وحمة على صدره وليس على وجهه. ماذا تتوقعين ؟ » أغلقت أوسانا عينين متعبتين كما لو أنها قد ملت من التأكيد لها عن تحسن حالتها « لماذا لا يأخذ حليبه؟ لماذا لا يبكي ؟ وأشغلت أنتارام مايريك نفسها بتدفئة القماط حول حجرة ساخنة وصاحت:

«انتظري يومين آخرين حتى يتم عماده. فكثير من الأطفال لا يبدأون الصراخ حتى يتم عمادهم » فقالت أوسانا وهي مقطبة:« شريطة أن نتمكن من جعله يعيش حتى ذلك اليوم ».

انتاب زوجة الطبيب غضب شديد «إنك متشائمة ومحبّطة يا مدام توماسيان. إنك تدخلين البؤس في نفوس الجميع. ومن يستطيع القول ماذا سيحدث هنا على الداملاجيك بعد يومين! العماد أو الموت ؟ حتى باكراديان أفندي ليس متأكداً فيما إذا كنا سنبقى أحياء بعد يومين ».

فقال كابرييل مبتسماً: « إذا بقينا على قيد الحياة حتى ذلك الوقت فيجب أن نحتفل جميعاً بالعماد. ولقد تحدثت بهذا الأمر مع القسيس. مدام توماسيان، من هم الأشخاص الذين تودّين دعوتهم؟ ».

استلقت أوسانا بلا مبالاة «أنا لا أنتمي إلى يوغونولوك ولا أعرف أحداً فيها» كانت اسكوهي الجالسة على حافة السرير تنصت إلى كل هذا دون أن تنبس بكلمة. فنظر إليها كابرييل وقال: «اسكوهي توماسيان هل ترغبين في أن نتمشى قليلاً ؟ فقد اختفت زوجتي وأريد أن أبحث عنها».

نظرت اسكوهي إلى أوسانا تستطلع رأيها فحثتها على الذهاب مع كابرييل « بالطبع يجب أن تذهبي يا اسكوهي. فلن أكون بحاجة إليك. وهذا سيكون جيداً بالنسبة لك ». ترددت اسكوهي قليلاً. وكانت تشعر بشيء من الحقد المبطن في كلمات أوسانا لكن أنتارام مايريك ألحت عليها «اذهبي يا عزيزتي ولا تدعيني أراك ثانية حتى حلول الليل. فما هذه الحياة التي تعيشينها! ».

مشى كابرييل واسكوهي باتجاه المخيّم على الرغم من عدم وجود فرصة كبيرة في إيجاد جولييت هناك. وراحا يسيران بين صفوف الأكواخ الضيقة. حيث كان الناس جالسين أمام أكواخهم. وكان الهواء قد أصبح أكثر برودة ولطفاً مما هو في الوادي وكان الجميع منهمكاً في العمل. النساء يرتقن الثياب ويغسلن والرجال يثبتون النعال على الأحذية. ثم غادرا المعسكر وكانا في أثناء ذلك يتبادلان كلمات مقتضبة. أسئلة وأجوبة تافهة جداً. واتجها نحو الغرب باتجاه أعلى قمة على الجبل حيث كانت الأرض مجدبة. فقد كانوا على حافة الصحراء ولم يكن يسمع سوى صوت طيور ونسيم خفيف يهب عليهما. وذهبا حتى حافة الخندق الشمالي. وعندما ودعته وقف طويلاً وهو ينظر إليها، كان يشعر بسعادة فائقة تغمره. لقد انسحب كيان اسكوهي برفق شديد بحيث أن التفكير فيها لم يزعجه وهو يضع خطّته الدفاعية الجديدة. وعندما جاء إليه ستيفان نسي أن يعاقبه لعصيانه أوامره.

تم تحديد موعد عماد الطفل يوم الأحد الرابع والعشرين من آب . وتجمّع الضيوف عند الساعة الرابعة خارج الخيمة. وكان قد أحضر عدد من الكراسي للمسنين، ووضع القندلفت حوضاً صغيراً من التنك على طاولة واطئة. إذ كان جرن المعمودية القديم قد ترك في كنيسة يوغونولوك. ونزولاً عند رغبة آرام قبل كابرييل أن يكون العرّاب. واتخذت فرقة كورال الكنيسة بقيادة آسايان موقعها حول الطاولة التي وضع عليها الصليب وجرن المعمودية المعدني. ووضعت

ماء العماد الدافئة أمام المصلى وخلال ترتيل الكورال، أسقط أحد مساعدي دير هايكازون ثلاث نقاط من الزيت المقدس في الحوض. واحتراماً لهذه المناسبة وضعت النساء الطفل الضامر المائل إلى البني الذي لم يبد حراكاً على وسادة خاصة. أمسك كابرييل العرّاب اللفة أمام القسيس الذي سأله السؤال الطقسي: « ماذا يطلب هذا الطفل ؟ » وكان على كابرييل الذي شعر بالارتباك أن يجيب «الإيمان والأمل والحب » وكرّر ذلك ثلاث مرات. ثم سأله: « وماذا سيدعى الطفل؟ » وسميّ باسم جده المعلم ميكائيل توماسيان. ثم تقدمت أنتارام مايريك واسكوهي وآرام توماسيان إلى كابرييل. ولم يخرج الطفل من قماطه وتلامست يدا اسكوهي وكابرييل عدّة مرات.

أمسك دير هايكازون الطفل بثقة ورشاقة ومدّ يديه بالطفل لكي يتيح للناس رؤيته. وكان بإمكان الجميع مشاهدة الوصمة الحمراء الكبيرة على صدره. ثم غمسه بسرعة ثلاث مرات في الماء راسماً إشارة الصليب في كل مرة على جسده وراح يردد: «إني أعمّدك باسم الآب والابن وروح القدس » ثم نهضت أوسانا من مقعدها. وانحنت بتكشيرة متشنّجة. فقد كانت تلك اللحظة الحاسمة. هل انفجر طفلها في البكاء بعد ملامسته ماء العماد كما كانت قد وعدتها مايريك. ثم أعاد دير هايكازون الرضيع إلى العرّاب، لكن آرام استلمه بدلاً عنه وأخذ يجفف جسمه العليل بلطف بقطعة قماشية ناعمة. لكن الطفل لم يصرخ. وأطلقت أمه أوسانا صرخة عالية ثم صرختين هستيريتين طويلتان ووقع الكرسي من ورائها. وخبأت وجهها بيديها وأخذت تعدو متعثرة إلى الخيمة. وسمعتها جولييت التي جلست بجانبها وهي تبكي وتقول: « خطيئة.. خطيئة ».

صدر كابرييل إنذاراً بالخطر دون أن يكون واثقاً تماماً من وقوع خطر فوري. وفي هذه المرة كان الأمر يحتاج إلى بعض النور ليرى القوى التي كان يحشدها الأتراك - فقد كان ما زال من المستحيل تحديد حجم تلك القوة - في الوادي الأرمني وعبر سهل العاصي. وبدا له أن عدد الجنود النظاميين والرماة كبير جداً بحيث تعذر حشدهم في القرى فضربوا مخيّماً لهم في العراء. وقد امتدّت نصف دائرة نار معسكرهم من آثار سلوقية وحتى آخر قرية أرمنية، ومن الشمال حتى الكبوسية. ووصلت دوريات الكشافة بأنباء مذهلة. إذ كان الأتراك يبرزون فجأة من كل مكان، ليس فقط جنود بل كذلك درك ورجال القبائل من جميع أنحاء الريف وهم مدجّجون بالحراب وبنادق الماوزر. وكان الضباط يقسمونهم إلى تشكيلات متفرقة ولم يكن بالإمكان تحديد عدد المسلحين. وانتقلت أنباء الحشود الضخمة بين الناس، لكن عندما راقب كابرييل نصف الدائرة الضخمة لنار المعسكر ودرسها لم تبد له هذه الأعداد هائلة إلى هذه الدرجة. وكان واثقاً من شيئين: الأول أن القائد التركي يملك قوة كافية لحصار الداملاجيك أو مداهمته من التحصينات الجنوبية إلى المواقع الشمالية. وثانياً أنهم يجب أن يشعروا بالتفوق الكبير بحيث لا يحتاجون لحماية تقدّمهم وهجومهم المفاجيء. وكان يقصد بهذا التقدم الكبير بث الذعر في نفوس الأرمن ووضع كابرييل تعبير حالة « هجوم عام ».

وشعر كابرييل بهدوء شديد أكثر بكثير من الهجومين السابقين مع أن الأمور بدت هذه المرة ميؤساً منها بالنسبة لسكان الجبل. وبعد الإنذار الأول أرسل في طلب جميع القادة العسكريين إلى مقر قيادته. وقد بدا الخوف على جميعهم. وأصدر كابرييل أوامره بأنه يجب أن يكون اللحم المذبوح حديثاً جاهزاً أثناء الليل. ويجب أن يتمّ تزويد جميع الخنادق به قبل بزوغ الفجر بساعتين. كما أمر بتقسيم أنواع النبيذ والبراندي المتوفرين في المعسكر إلى المقاتلين. ووضع جميع القوارير التي تتسع عشر ليترات المتبقية تحت تصرف جولييت (وأدى هذا العطاء إلى تناقل الأسطورة بأن مؤن باكراديان لا تنفذ). وعندما اجتمع المقاتلون وقادة المجموعات والاحتياطيون ألقى كابرييل فيهم كلمة شرح لهم فيها نوع المعركة المقدمين عليها وقال:« بجميع الحسابات البشرية أمامنا خياران اثنان: الموت السهل في المعركة أو الموت الفظيع بذبحنا. وإذا ما أدركنا ذلك حقاً فإننا نختار الخيار الأول، موت مشرف في ساحة القتال، ولعل معجزة حدثت وننقذ من الموت.. لكن عندئذٍ يا أخوتي ...».

وتمّ تشكيل فرقة جديدة تحسباً لشن هجوم شامل على مواقع الجبل، وسلم الجاووش نورهان قيادة المواقع الشمالية، وحدث تغير آخر في القيادة وهو أن عهد كابرييل بقيادة قطاع هام إلى كيليكيان وبعد أن تذكر باكراديان رجال العصابات في حرب البلقان (الكوميتاجي) انتقى ما يقرب من مائة رجل من أشد المقاتلين بأساً وأفضلهم في الرمي والتسلّق وكان عليهم الانتشار في الوادي على جانبي الداملاجيك وأن ينصبوا كمائن ومراصد على طول المنحدرات وفي قمم الأشجار وخلف الصخور والأحراج وفي ثنايا الأرض . وكان عليهم ترك القوات التركية تتقدّم دون تعكير صفوها ثم فتح النار عليها فجأة من الخلف وإذا أمكن من نقاط عديدة على الفور بغض النظر عن كمية الذخيرة التي سيستهلكونها. ووزع على كل مقاتل اثنا عشر مخزناً أي ستون طلقة وكمية كبيرة من الجراية. ولم يقترح كابرييل هذه المرة الاقتصاد في الذخيرة لأن المعركة المقبلة سوف تحسم الأمور نهائياً. وبطريقته البسيطة المنطقية شرح لهم واجبات الرماة لكي يفهم كل واحد منهم مهمّته بدقة وكانت القاعدة الرئيسية السارية « كل رصاصة بقتيل ». وخفض كابرييل عدد الحامية في التحصينات الجنوبية التي جعلت منها تحصيناتها القوية موقعاً لا يمكن اختراقه، إلى العدد الضروري جداً كذلك، سد الاحتياطيون الثغرات، وهذا ما أتاح له توفير حوالي مائة وخمسين رجلاً لتشكيلهم في الحرس المتنقل الذين قادهم شخصياً، والذين سيستخدمون للدفاع عن أي موقع يتعرض للخطر. وكان معظم أفراد قوة الكوميتاجي هذه يمتطون الحمير. علماً أن الحمير في هذه البقاع من العالم ليست بطيئة وحرونة كما هو معروف عنها. وكان على مجموعتي الشباب وعمال الارتباط والكشافة أن يبقوا دائماً وراء الحرس لكي لا تنقطع الاتصالات بين القطاعات والقيادة. وكان كابرييل قد أعد كل ذلك بهدوء تام خلال الساعتين الأوليين من الليل. واستدعى أخيراً جميع الاحتياطيين وطلب منهم إخلاء ساحة المعسكر عند الفجر. وقسمهم إلى قسمين: قسم يكون مستعداً للقتال كإحتياطيين في مختلف القطاعات ويتّخذ القسم الثاني مواقعه على طول القمم العالية. إذ أن عرض هذه القطاعات يبلغ ألف قدم

تشكل منطقة شديدة الخطورة. وألقى كابرييل كلمة بالاحتياطيين وقال لهم إنهم يتمركزون في الخط النهائي لصد أعظم الفظائع التي يمكن أن ترتكب من اغتصاب النساء وقتل الأطفال.

توجه كابرييل لإلقاء نظرة على مدافع الهاوتزر وأمضى شطراً من الليل وهو يركزهما. وبمساعدة نورهان تمكن من تدريب عدد قليل من أذكى الرجال لتسلم مهام المدفعية. وحضر الكشافة قبل منتصف الليل ولم ينقلوا شيئاً جديداً فقد كانت المعلومات الجديدة الوحيدة تتمثل في رفع العلم التركي فوق فيلا باكراديان، وأن عدداً كبيراً من الأحصنة كانت تصطف في خط على طول ساحة الفيلا وأن الضباط يدخلون ويخرجون منها، لذا كان من الواضح أن الأتراك اتخذوا من الفيلا مقراً لقيادتهم. وانتظر كابرييل بزوغ القمر المتأخر. ثم وبمساعدة البوصلات أخذ يحدد بدقة المسافات على خريطته. وساعده في ذلك ضوء القمر الساطع ثم راح ينتقل من موضع إلى آخر لوضع الفتيل بملزمته مستعيناً بضوء المصباح اليدوي. وبينما كان يقوم بذلك ظهرت اسكوهي التي لم يلحظها أحد في البداية نادته بصوت هادىء فأمسك يدها وقادها بعيداً عن المدفع حتى أصبحا وحيدين وجلسا تحت شجرة مشمش بري. وبعد قليل قالت اسكوهي بصوت خافت متردد « كنت أرغب فقط في أن أسألك فيما إذا كان يزعجك كثيراً إذا بقيت غداً قريبة منك » فقال لها:«لا يوجد شيء في العالم يطيب لي أكثر من أن تكوني بجانبي يا اسكوهي ». ثم انحنى عليها قريباً وأخذ يتطلع في عينيها اللتين قابلتا عينيه بحماس شديد وخطرت له فكرة غريبة هذا الإحساس الذي جعلهما يقتربان من بعضهما يمكن أن لا يكون حباً، أو على الأقل حباً بالمعنى العادي للكلمة، ليس الحب الذي ربطه بجولييت ، بل شيء أعظم بكثير، بل شيء أقل من الحب . وهذا ما جعله يشعر بسعادة غامرة ويمكن أن يكون هو ذلك الحب الغامض للدم نفسه الذي جعله يجري كغدير غامض ويتجمع في عيني اسكوهي، وتبسمت عيناه في عينيها وقال:

– «لا يوجد عندي إحساس بالموت يا اسكوهي. إنه جنون، لكني ببساطة لا يمكنني أن أفكر بأنني يمكن أن أكون على قيد الحياة في مثل هذا الوقت من الغد. ربما لا يكون ذلك فألاً حسناً. ولكن بماذا تشعرين أنت ؟ ».

– «إن الموت يحيق بنا لا محالة يا كابرييل. فليس ثمة من منفذ لنا. أليس كذلك ؟ » لكنّه لم يفهم المعنى المزدوج لكلماتها. وبرز في نفسه شعور أكيد « يجب ألا ينظر المرء بعيداً يا اسكوهي. لن أفكر بشيء إلا بالغد. حتى إنّي لا أفكر بليلة الغد. هل تعرفين إني أتطلّع إلى الصباح فقط !».

وقفت اسكوهي لكي تذهب إلى خيمتها وقالت:« أردت فقط أن أطلب منك أن تعدني بشيء يا كابرييل. شيء شديد الوضوح. فإذا ما آلت الأمور إلى وضع لم يعد فيه أمل أرجوك أن تطلق النار علي ثم على نفسك، إنه الحل الأمثل. لا أستطيع أن أحيا بدونك. ولا أريدك أن تستمر في الحياة بدوني – حتى ولا ثانية! لذلك هل لي أن أبقى قريبة منك في الغد؟ أرجوك». لا، يجب أن تعده بعدم مغادرة خيمتها خلال القتال. ولكن بالمقابل أن يعدها أنه إذا أصبحت الأمور ميؤساً منها فإنه سيحضرها أو يرسل في إثرها ويقتلها ويقتل نفسه. وابتسم عندما وعدها

بذلك ، لأنه لم يشعر في قرارة نفسه أدنى شعور بالنهاية عن سابق علم. لذلك لم يخش شيئاً من أجل ستيفان أو جولييت. وعندما عاد إلى عمله خلف المدافع وجد نفسه مندهشاً حول تأكيده الذي ناقضته الحقيقة المحيطة به.

في ذلك المساء، عقد القائمقام واليوزباشي والمدير وقائد الكتيبة المؤلفة من أربع سرايا التي قدمت من حلب وضابطين آخرين اجتماعاً في غرفة الاستقبال في فيلا باكراديان دام مدة طويلة نسبياً دون أن تظهر بوادر اتفاق تام. وكانوا يبحثون في أمر هام وهو هل من المستصوب البدء بشن الهجوم على الداملاجيك عند فجر الغد كما هو مقرر؟. وأخذ القائمقام يوضح إنه نزولاً عند طلب الوالي، فقد أرسل لهم الجنرال من حلب كتيبة كاملة من المشاة، لكنّه لم ينفذ وعده في إرسال مدفعية جبلية ومدافع رشاشة. وشرح لهم الكول آغاسي (الكابتن الركن) الذي جاء من حلب سبب ذلك وقال أن مثل هذه الأسلحة قد نقلت من سورية وأنه لا يوجد مدفع رشاش واحد في كل أنحاء حلب. وسأل القائمقام فيما إذا كان من الأفضل تأجيل الهجوم بضعة أيام وإرسال برقية عاجلة إلى معالي جمال باشا ليرسل السلاح الذي يحتاجون إليه؟ واعتبر الضباط الآخرون أن ذلك من ضرب المستحيل. إذ يمكن أن تثير هذه الطلبات المباشرة جمال باشا بل ومن الجائز أن تجعله يتّخذ إجراءات مضادة. دفع يوزباشي أنطاكية كرسيه إلى الوراء وأخرج ورقة وراحت أصابعه ترتعش وقال: «أيها السادة، إذا انتظرنا حتى وصول المدافع الرشاشة والمدفعية الجبلية، فإن أفضل شيء يمكن أن نفعله هو أن نقضي الشتاء هنا. فالجيش في الميدان يمتلك عدداً قليلاً جداً منها، لذلك فإن طلبنا سيكون سخيفاً. وهل لي أن أذكر القائمقام بالقوة الحقيقية لقواتنا؟ ». وأخذ يقرأ الأرقام بصوت خال من أي نبرة «أربع سرايا من حلب: لنقل ألف رجل . سريتان من الاسكندرونة: خمسمائة رجل ، القوة المدعمة من أنطاكية: أربعمائة وخمسون رجلاً. وهذا يعني قرابة ألفي رجل من المشاة المدربين تدريباً جيداً ، هذا إذا علمنا أن الكتائب الموجودة على الجبهة يمكن أن لا تكون بمثل هذه القوة وفضلاً عن الخط الثاني، أربعمائة دركي من حلب وثلاثمائة دركي من منطقتنا وأربعمائة رجل من القبائل في الشمال - وهؤلاء يشكلون ألف ومائة شخص آخر. وبالإضافة إلى هذا وذاك فهناك الخط الثالث المؤلف من ألفي رجل جمعناهم من القرى وسلّحناهم ولذا فإذا جمعنا كل هؤلاء فإننا سنهاجم بقوة تقدر بخمسة آلاف مقاتل ».

هنا توقّف اليوزباشي ليأخذ جرعة من القهوة ويشعل سيكارة جديدة واستغل أحدهم هذا الموقف وقاطعه «لا تنس أن الأرمن يملكون مدفعي هواتزر». بدا وجه اليوزباشي مفعماً بالحيوية، وبدأت جبهته الصفراء تلمع وبدأ يقول: «إن هذه المدفعية عديمة الجدوى تماماً. إذ أولاً ليس لديهم ذخيرة وثانياً لا يعرف أحد منهم كيفية استخدامها وثالثاً فإننا سنستعيدها بسرعة». غاص القائمقام الذي بدا أنه بدأ يشعر بالملل أو التعب في كرسيه ورفع عينيه المثقلتين «لا تقلل من شأن باكراديان هذا يا حضرة اليوزباشي » وهنا تدخّل المدير الشاب ذو الأظافر المطلية مؤنباً « لقد ارتكبت السلطات خطأ فادحاً بعدم استدعائه للخدمة. فهو احتياطي. وإني أعلم أنه تطوّع عدة مرات فبدونه لكان الساحل هدئاً تماماً والأمور طبيعية ». لكن اليوزباشي قطع هذه التأملات

«باكراديان ذاك! فمثل هؤلاء المدنيين ليسوا على درجة من الأهمية، فقد ذهبت البارحة بنفسي واستطلعت الداملاجيك لأقف على حقيقة الوضع، إن وضعهم سيء للغاية، وبدت لي خنادقهم بدائية جداً. وبتقدير سخي يوجد بحوزتهم بين أربعمائة وخمسمائة بندقية. ويجب أن نبصق في وجوهنا إذا لم نطهّر المنطقة منهم مع حلول الظهيرة. فوافقه القائمقام: « بالتأكيد يجب علينا ذلك.. ولكن حتى أصغر الحيوانات يصبح ضارياً جداً إذا ما تعرّضت حياته للخطر ».

أيد الكول آغاسي وجهة نظر اليوزباشي، وكان يحدوه الأمل بأنه في خلال يومين اثنين سينتهي هذا الأمر ومن ثم يعود إلى مدينته الجميلة حلب. ولما بدا أن جميع الضباط واثقون، أنهى القائمقام الجلسة بتثاؤبة:« حسن - فأنت تضمن النجاح يا يوزباشي ؟ ». نفث ذلك الضابط الضخم الجثة سحابة كبيرة من الدخان من منخريه وقال: «لا يمكن لأحد أن يضمن شيئاً في أي عملية عسكرية. لذلك فاني أرفض كلمة « تضمن ». وكل ما يمكنني قوله هو أنني لا أرغب في الاستمرار في العيش إذا لم يتم تصفية المعسكر الأرمني في مثل هذا الوقت من يوم الغد ». عندها نهض القائمقام بتثاقل وقال: « حسن.. يحسن بنا أن ننام قليلاً ». لكن القائمقام لم يستغرق في النوم في تلك الليلة. فقد نام في غرفة جولييت التي كانت ما تزال تعبق بروائح العطر المنتشرة من الزجاجات الأنيقة الكثيرة التي حطّمها الدرك. ولم يكن استيقاظه أفضل من نومه. فما أن بدأ ضوء النهار يبزغ حتى أفاق مذعوراً من صوت انفجار شديد. فاندفع خارج البيت دون أن يكون لديه الوقت ليرتدي ثيابه. كان الدمار كبيراً، إذ سقطت قذيفة أمام درجات الفيلا وتناثرت شظايا زجاج نوافذ البيت كله. ومن دوي الانفجار انخلع الباب ووقع في الممر. ولكن أسوأ مشهد كان مشهد ضابط الأركان القادم من حلب. فقد كان خارجاً من البيت لحظة الانفجار، فجلس متكوراً مستنداً على الحائط. وبدت عيناه الزرقاوان طفليتين . وكان يتنفس بعمق وبدا أنه غارق في ماضٍ حالم. وكانت شظية قد مزقت لحم كتفه الأيمن وأصابت أخرى وركه، وعلى الفور قدم اليوزباشي لمساعدته. استدار وصاح غاضباً بالرجال الذين تملّكهم الذعر بعدم الوقوف هكذا فاغرين أفواههم، بل أن يسرعوا في إحضار الطبيب وعربة الاسعاف. لكن الأمر لم يكن بهذه السهولة. فقد كان الطبيب مع السرية الثالثة في بيتياس وحمل اليوزباشي الكول آغاسي إلى غرفة نوم ستيفان في الطابق العلوي ومدّده على السرير. وبعد أن استعاد وعيه توسل إلى اليوزباشي لأن لا يتركه وحيداً قبل أن يتم تضميد جراحه. أما القائمقام الذي كان بطبعه كمدني يتقزز من رؤية الدم بقدر ما كان يبدو أنه مغرم به نظرياً، فقد تسلل إلى القبو عبر الدرجات المظلمة الرطبة. وتتابع قصف كابرييل فأصابت قذيفة أخرى البستان.

وكان من سخرية القدر أن أصابت قذيفة الباب الخارجي للفيلا إصابة مباشرة وبذلك يكون قد أحرز نصراً ساحقاً على قائد الكتيبة. إذ أدى ذلك إلى تأخير الهجوم ساعة أخرى. فقد تراجع الأتراك المنتشرون في البساتين والكروم والذين كانوا متخذين وضعية الهجوم. وبدا لهم أن ذلك الخنزير الأرمني كان يعرف تماماً أهدافه ولديه هدّافون خبراء. وعلى الرغم من أن القذائف الثماني الأخرى لم تحقق نجاحاً كبيراً، فقد كان الوادي واسعاً بحيث يكفي على الأقل ضمان أنه

أينما سقطت القذيفة فإن الشظايا ستحدث أضراراً وتبث الرعب في النفوس. واشتعلت النيران في ثلاثة بيوت بيتياس وازيز ويوغونولوك وتكبّدت مفرزة من الدرك كان أفرادها يحتسون القهوة بأكواب من التنك خسائر جسيمة من جراء إصابتهم بشظية، فقتل ثلاثة وجرح عدد كبير منهم. وانسحب الدرك الذين كانت مهمّتهم تنحصر في الحفاظ على القانون والنظام دون أن يطلقوا طلقة واحدة.

لقد أعطى هذا القصف على الأقل النتائج التي كان كابرييل يتوخاها على الرغم من عدم معرفته حقيقة النجاح الذي أحرزه والذي تمثّل في الإخلال بخطّة الهجوم التركية. وأثر على الروح المعنوية للسكان المدنيين الجدد بشكل سيء إذ أخذت النساء تجري باتجاه وادي العاصي. ولم تستجمع صفوف الجنود شجاعتها استعداداً للهجوم وتختفي في الغابة عند المنحدرات الواطئة من جبل موسى إلا عندما توقّف القصف المدفعي. وللحظة أنحى باكراديان باللائمة على نفسه لعدم تملّكه الجرأة الكافية لتمركز ما لا يقل عن أربعمائة رجل من دفاعه الأول وهو نصف عدد رجاله المتشردين على طول خطوط الدفاع هذه، وأن يفسد الهجوم قبل أن يتنامى. إلا أن الرجال المائة (الكوميتاجي) تسلّقوا المرتفعات بمهارة فائقة وأخذوا يطلقون النار بصورة جنونية وجرأة كبيرة فأحدثوا خسائر جسيمة واضطراباً شديداً بين صفوف المجموعات التي تقدمت وهي تلهث. وولت هذه القوات التي تم فصلها عن رؤسائها والتي كانت تتوقع الموت في كل لحظة، هاربة إلى أسفل السفح. ولم يكن ذلك جبناً منهم، بل لأنهم رأوا أن الدفاع كان من ضرب المستحيل. وبعد محاولة يائسة لم يتبقَ أمام اليوزباشي سوى أن يجمع سراياه على خط أكثر انحداراً وإعطاء جنوده فترة راحة قصيرة ويقدّم لهم جراياتهم. وفي تلك الأثناء أخذ المقاتلون الأرمن (الكوميتاجي) يجمعون بهدوء البنادق وأحزمة الخراطيش من القتلى والجرحى ويحملونها إلى ما وراء الخطوط.

وجه القائمقام الذي خرج لرؤية اليوزباشي سؤالاً بلهجة لاذعة « هل ستكرر نفس الخطة؟ إذا فعلت ذلك فلن يبدو أننا سنتمكن من صعود الجبل ». أصبح لون اليوزباشي الغاضب داكناً كلون القهوة وراح يصرخ بالقائمقام «إذا رغبت فتسلم القيادة بنفسك إذا أحببت فهي مسؤوليتك أكثر من كونها مسؤوليتي» وأدرك القائمقام أنه يجب عليه أن يتوخى الحذر في التعامل مع الضابط النزق. فلم تكن هذه اللحظة مناسبة للشجار. فهز كتفيه بطريقته الكسولة «أنت على حق فهي مسؤوليتي لكن لا تنسَ يا يوزباشي أنك ستكون مسؤولاً تجاهي. وإذا منيت بهزيمة فإننا كلينا سيتحمل العواقب أنا وأنت بنفس القدر». فلم ينبس اليوزباشي بأي كلمة، إذ أن اهتمام الدوائر العليا والوالي ووزير الحربية كان منصباً على جبل موسى، وأن أي هزيمة ثالثة ستعني مثول اليوزباشي أمام محكمة عسكرية. ولربما واجه مصيراً أسوأ من مصير سلفه البنباشي. فقد كان هو والقائمقام متضامنين على السراء والضراء. وعلى الفور أصدر أوامره إلى السرايا المتمركزة في الجهة الشمالية بالتقدّم لمهاجمة الخنادق الأرمنية على طول المواقع. واستدعى ضباطه وأمرهم بأن يعلموا فصائلهم بأن أي رجل يحاول الفرار أثناء الهجوم سيُقتل فوراً وبدون رحمة وتمركز صف

طويل من الدرك ورجال القبائل على طول وهدات المنحدر الأمامي وتلقّوا أوامر صارمة بإطلاق النار على جنود المشاة المتقهقرين. كما وضع اليوزباشي صفاً طويلاً ثالثاً من القرويين المسلّحين (وكان يشمل بعض النساء كذلك) في منطقة بساتين المشمش والكرمة. وكان للذعر الذي بثته أوامر اليوزباشي الصارمة في قلوب الجنود تأثير كبير. إذ اندفع هؤلاء الجنود فوق السفوح الوعرة. وأغلقوا أعينهم واندفعوا عبر نيران المقاتلين الأرمن. وعند الظهر تقريباً تمكّنت الفصائل الثلاث على الرغم من تعرضها لوابل كثيف من الرصاص من الأعلى، من الوصول إلى السفوح العليا والبدء بحفر خنادق لها أسفل المواقع الأرمنية. وتمركز بعض الجنود الأتراك خلف الضخور أو أكوام الحجارة أو في وهدات الأرض. وبهذا التقدّم البطولي أحرزت قوات اليوزباشي أول نجاح كبير لها. ولوح الضباط الذي كان منتشياً برغبته في الانتصار بسيفه فتقدّمت قوات جديدة إلى الأمام ونجحت كذلك في التمركز أسفل الخنادق الأرمنية وهكذا تمّ توسيع خط الهجوم. وأدى هذا النجاح إلى رفع الروح المعنوية للأتراك. الذين فتحوا نيراناً غزيرة على طول الخط الجديد على كل النقاط الهجومية. وفي البداية لم يول اليوزباشي اهتماماً فيما إذا كانت الرصاصات تصيب أهدافاً أم لا. ولساعتين كاملتين امتلأت قلوب هؤلاء الأرمن بالذعر وبدأت شجاعتهم تخور. كما كان عليهم أن يعلموا أن الدولة التركية تمتلك من الذخيرة ما يكفي لاطلاقها ثلاثة أيام كاملة. وكان المدافعون قابعون دون حراك في خنادقهم ووابل الرصاص الكثيف ينطلق فوق رؤوسهم. وكانت هذه الرمايات الغزيرة تحدث إصابات من حين لآخر بين سكان المعسكر. لذلك أعطى دير هايكازون أوامره بإخلاء المعسكر وانسحاب المدنيين باتجاه الشاطىء والالتجاء بين الصخور.

وفي أثناء هذه الرمايات الكثيفة. كان اليوزباشي يدفع مجموعة وراء أخرى، ثم السرايا الاحتياطية، ثم الدرك، وأخيراً الفلاحين المسلحين. وكانت تفصل الخطوط الهجومية الثانية والثالثة والرابعة فواصل واسعة نسبياً. ثم أصدر اليوزباشي أوامره إلى الخط الأول بالهجوم. لكن الأرمن الذين اكتسبوا الآن خبرة جيدة في صد مثل هذا النوع من الهجوم الواسع بدأوا يطلقون النار من مواقعهم المرتفعة ونجحوا في تشتيت موجات المهاجمين. وعلى الرغم من الأعداد المتفوقة والموارد اللامحدودة من الذخيرة فلم يتمكن الأتراك من التقدم خطوة حتى بدء هبوط الظلام. وكان الأرمن ما زالوا يجدون سهولة نسبية في صد قوات الأتراك دون تكبّد خسارات كبيرة وذلك بسبب المهارة القتالية التي اكتسبوها. ونظراً لأن خنادقهم كانت على شكل زوايا حادة، فقد كان الأتراك يتلقون نيراناً من الأمام والجوانب. كما أن فرقة الكوميتاجي التي كانت تنقض فجأة على هذا الموقع أو ذاك أدت إلى زعزعة الاحتياطيين بسيل من الرصاص القاتل وقد كلّفت هذه الهجمات التي باءت كلها بالفشل اليوزباشي عدداً من الرجال يبلغ نفس العدد تقريباً من الذين خسرهم البنباشي في هزيمته الأخيرة. لكنّ اليوزباشي كان أكثر عناءاً ولم ينسحب. ومرة بعد أخرى كان يقود رجاله في الهجوم وقد نجا من الموت مئات المرات. وكان كابرييل، بفضل حرسه المتنقل، ما زال مسيطراً على الوضع وقال في نفسه «إن الظلام سيحلّ بعد ثلاث ساعات ». وكان الحرس يتراكضون مسرعين في جميع الجهات لتعزيز قطاع مهدد والتشبث بخنادق غير

ثابتة لسد فجوة بين فرقتين أو ليحلّوا محل فرقة أصابها الإعياء. واستلقى كابرييل منهكاً، شاحباً منقطع الأنفاس وكأنه جثة هامدة. ووجد أنه من المتعذر استعادة قوته. وجلس أفاكيان بجانبه وحوالي اثني عشر من عمال الارتباط بانتظار أوامره. وكانت الأخبار تتوارد في كل لحظة، وكان معظمها يرد من المواقع الشمالية حيث كانت الأمور تجري على ما يرام لكن عند هذا الوقت تقريباً بدا أن الأتراك قد غيّروا نواياهم وبدأوا يستعدون لضربة كبيرة في الجبهة الشمالية. وكانت رسائل الجاووش نورهان تثير مزيداً من القلق إذ لم يصعد اليوزباشي فقط بل كل الضباط الآخرين من وراء الحواجز الصخرية إلى السفح المقابل ويمكن من تمييزهم بوضوح من خلال منظاره الميداني. وكان في نية باكراديان استخدام الحرس، دفاعه الأخير، إذ كان القطاع الشمالي أفضل دفاعاته على الاطلاق ولم يجد داعياً لإرسال تعزيزات إلى هذا الدفاع قبل أن يبدأ قتال حقيقي. وهكذا استلقى هناك وعيناه مغمضتان، وبدا أنه غير مكترث بالرسائل المتتالية الواردة من الجهة الشمالية وقال في نفسه:« بقي ساعتان ونصف ». ثم خفّت حدة النيران وسيطر الاعياء على كابرييل. ولعل هذا الاعياء العقلي والجسدي هو الذي أدى به إلى الوقوع في مصيدة اليوزباشي.

كانت أصداء الانفجارات الشديدة تسمع على طول «الريفيرا» وكانت الرصاصات تبدو وكأنها تتساقط على الأرض حول كونزاك وجولييت. فقد انتابهما شعور بأنهما يجلسان في وسط المعركة، مع انها كانت بعيدة عنهما تماماً. وكانت جولييت تمسك بيد كونزاك الذي كان ينصت بدقة. كما بدا أن كل أحاسيسه كانت تنصت باهتمام كبير وكان يجلس ساكناً دون حراك «أظهر أنها تقترب شيئاً فشيئاً. على الأقل هذا ما يبدو من الصوت ». لم تفه جولييت بكلمة. انحنى كونزاك قليلاً إلى الأمام ليحظى برؤية أفضل لموجات البحر وهي تتكسّر على الشاطىء على مسافة عدة أقدام تحتهما. وكان البحر اليوم هائجاً بصورة غير اعتيادية. وقد امتزج هياجه الغاضب مع أزيز الرصاص. أشار ماريس نحو الجنوب على الشاطىء وقال: «كان من المفروض أن نكون قد قررنا في وقت أبكر يا جولييت. ففي مثل هذا الوقت كان يجب أن تكوني جالسة بهدوء وسكينة في بيت المدير قرب مصنع الكحول». انتابتها رجفة. ثم انفرجت شفتاها لتقولا شيئاً إلا أنها استغرقت وقتاً طويلاً قبل أن يصدر منها أي صوت فقد بدا لها أنها فقدته. «ستبحر السفينة في السادس والعشرين ونحن الآن في الثالث والعشرين وما زال أمامنا ثلاثة أيام».

– « نعم». هدأ من روعها بلطف شديد «أمامك ثلاثة أيام.. لن أحرمك من يوم واحد منها».

ـ «آه يا كونزاك، ينتابني شعور غريب جداً وغير مفهوم». وتلاشى صوتها في آخر الجملة. وبدا أنها لم تكن تنوي محاولة وصف الحالة التي آلت إليها. فقد كانت تسري في أوصالها حياة باردة، ولم تكن على اتصال مع وعيها إلا لماماً. وشعرت أنه بامكانها أن تحرك يديها ورجليها في أي دقيقة وأن تصفها في صندوق وتقفل عليها. فمنذ زمن بعيد، عندما كانت تعيش في عالمها العقلاني والمضيء، لم تكن جولييت تبقى بدون نشاط وكان رد فعلها الفوري قولها «لا بد أن شيئاً ما قد حدث لي» وكانت بدون شك تأخذ درجة حرارتها. أما الآن فلم يكن بوسعها عمل

شيء سوى الجلوس والتساؤل كيف أن حالتها المثيرة للفزع تبدو في الوقت نفسه مريحة وصحيحة . وما أن فكرت بذلك حتى كرّرت كلمة « غامضة» مرتين. «جولييت المسكينة. افهم بالضبط. لقد اضعتِ نفسك. في البداية مدة خمسة عشر عاماً والآن العشرين يوماً الأخيرة. إنك لا تستطيعين الآن أن تجدي جولييت المزيّفة أو الحقيقية. كما ترين فأنا لا أنتمي إلى أي مكان فأنا لست أرمنياً أو فرنسياً أو يونانياً بل حتى لست أمريكياً. بل أنا في حقيقة الأمر لا شيء. ولذلك فأنا حر. وستجدين من السهل جداً أن تكوني معي. لكن يجب أن تقرري ». كانت تحدق به ولم تفهم أي كلمة مما قاله لها. فقد كانت النيران تقترب من ذروة الاثارة. فمن المستحيل الجلوس بهدوء وسكينة في مكان واحد. ساعدها كونزاك على النهوض. تعثرت كما لو أنها كانت تشعر بمتاهة. وبدا القلق عليه « يجب أن نفكر بما سنفعل يا جولييت.. فما هو مخططك؟». رفعت يديها قليلاً وقربتهما من أذنيها « إني متعبة.. أريد أن استلقي ». « هذا من ضرب المستحيل يا جولييت. اسمعي.. يمكنهم التقدّم في أي لحظة. اقترح أن نبتعد عن هذا المكان وأن ننتظر بعيداً لنرى ما سيحدث. هزت رأسها بإصرار وقالت:«لا.. أفضّل أن أعود إلى الخيمة». أمسكها من ظهرها وحاول أن يشدها باتجاهه بلطف «لا تنزعجي يا جولييت لكن تعرفين أنه من الضروري جداً أن تتضح الأمور في عقلك. إذ يمكن أن يصل الأتراك إلى هذا المكان بعد نصف ساعة.. وكابرييل باكراديان؟ ما أدراك أنه على قيد الحياة؟ وبدا أن أزيز الرصاص ودوي الانفجارات من حولهما يعززان مخاوف كونزاك. إلا أن جولييت هبّت من سباتها فجأة وأخذت تقول: «أريد أن أرى ستيفان. أريد ستيفان معي هنا» وراحت تصيح بحماس غاضب. وأمسكت كونزاك بكلتا يديها وأخذت تدفعه بنفاد صبر «اذهب واحضر ستيفان فوراً. هل تسمع.. أرجوك لا تضيع الوقت. ابحث عنه فسأنتظرك هنا.. هيا».

فكر في الأمر برهة ولم يبد أي اعتراض ثم احنى رأسه وقال: «حسن يا جولييت. سأعمل ما بوسعي لكي أجد الصبي وبأسرع ما يمكنني. فلن اجعلك تنتظرين طويلاً. وبالفعل ما إن انقضت نصف ساعة حتى عاد كونزاك وبصحبته ستيفان متعباً جداً بحيث سرعان ما استرسل في نوم عميق. أما على الداملاجيك فقد كانت تستحوذ فكرة واحدة على الجميع باستثناء كريكور وكيليكيان وهي أنه بعد ساعتين في الوادي، فمن الجائز أن تكون الغابة والجبل قد استسلما للهدوء العميق. وكان الكثير من الرجال المنهكين يغمضون أعينهم. وكانت أعداد النائمين في ازدياد مستمر، حتى بدا في نهاية الأمر أن رجلاً واحداً من هؤلاء الذين يحافظون على الخنادق ما زال يقظاً. فقط الموتى وعينا سركيس كيليكيان اللامعتان زعيمهم كانت تحدق بثبات في حافة الغابة المظلمة. وبينما كان بعض الرجال يغطون في نوم عميق، كان آخرون يمسكون بنادقهم ويتطلعون إلى المنظر الساكن القابع تحتهم. وفي تلك اللحظة تركز وهج الغروب وتفجر في شكل قطع متلألئة. شُده الأرمن بتلألؤ الغروب فرفعوا بنادقهم وراحوا ينظرون الى كيليكيان بانتظار أوامره. ثم حدث أمر لا يمكن تفسيره. فبدلاً من أن يشير إليهم، كما فعل من قبل بتسديد بنادقهم مع اقتراب الأتراك منهم، صعد الروسي خارج الخندق وتبعه الآخرون الواحد تلو الآ خر.

أما الأتراك الذين تقدّموا مساحة خمسين خطوة فقد فوجئوا لمرآهم وانبطحوا أرضاً وتوقفت قلوبهم عن الوجيب.

لقد كانوا يتوقعون هجوماً ضارياً، إلا أن سركيس كيليكيان وقف أمام الخندق الأوسط بهدوء تام دون أن يتقدّم أو يتراجع ولم يصدر أي أمر لرفاقه. وعلى الفور فتحت ثلاثمائة بندقية ماوزر ناراً سريعة وكثيفة على الأهداف البشرية المنتصبة فوقهم إزاء أشعة الشمس المائلة للغروب. وفي بضع ثوان، سقط ثلث مقاتلي هذه الحامية وبدأت تسمع أصوات الآنات والصراخ من الجرحى الذين سقطوا فوق جبل موسى الذي تخضب بالدماء. أما سركيس كيليكيان فقد ظل واقفاً مشدوهاً ويداه في جيبيه. وبدا كأن الرصاصات التركية تتفاداه وتحيد عنه. وكأن القدر اعتبر أن وضع حد لهذا الرجل بموت بسيط في ساحة المعركة سيكون أمراً مبتذلاً. وعندما رفع يده أخيراً وصاح بشيء غير مفهوم إلى رجاله، كان الوقت قد تأخر كثيراً. فقد ولّى هارباً مع الآخرين الذين تبقوا من الحامية بكاملها وتوقفوا عند منتصف الطريق عند الحواجز الصخرية التي كانت عبارة عن تلال مستطيلة من الحجارة خارج ساحة المعسكر تقريباً. وقبل أن يصل الهاربون إلى ملاذهم خلّفوا وراءهم ثلاثة وعشرين قتيلاً وجريحاً آخر. أما المشاة الأتراك الذين كانوا يطلقون صيحات الحرب فقد استولوا على الخنادق التي أصبحت خالية من الرجال وحلّ محلهم الاحتياطيون من الدرك ورجال القبائل، وأخيراً القرويون المسلحون. وكان عدد من النساء قد تبعن أزواجهن. وعندما رأت النساء اللاتي كن يختبئن وراء الأشجار الذي أحرزه الهجوم التركي خرجن من الغابة وأمسكن بأيدي بعضهن وشكلن سلسلة من حناجرهن زغاريد لإدخال الشجاعة في نفوس الرجال الذين اندفعوا بسرعة جنونية باتجاه الحواجز الحجرية دون أن يطلقوا طلقة واحدة، بل كانوا يوجهون حرابهم إلى الأمام.

وفي خضم هذه الكارثة، حدثت شذرات من الخط لمساعدة الأرمن. ولقد رأوا الأتراك يجهزون بحرابهم على الجرحى ويطؤونهم بأحذيتهم العسكرية، وظلوا منبطحين خلف الحواجز وقد انتابهم توتر شديد وكانوا يسددون بنادقهم بهدوء. وكانت أشعة الشمس المتلألئة تنعكس على وجوه الأتراك. وكان ثمة ميزة أخرى في هذه النكبة تتمثل في الاضطراب الذي نشأ عن ترك المهاجمين مواقعهم بعد أن شعروا بلذة النصر واندفعوا نحو الفجوة. لذلك ترك المدافعون كذلك خنادقهم وتجمعوا يمنة ويساراً باتجاه البؤرة الخطرة. وكانت النتيجة صراعاً ضارياً بالسلاح الأبيض الذي اختلط فيه العدو بالصديق (إذ أن الكثير من الأرمن كانوا يرتدون بزات عسكرية تركية كانوا قد تمنوها) واستغرق هذا التشابك وقتاً طويلاً وسقط عدد من الرجال صرعى، قبل أن يستجمع الأعداء قوتهم، ونجحت أعداد تفوق عددهم في دحر الأرمن نحو ساحة المعسكر. ووصل باكراديان مع حرسه المتنقّل في آخر لحظة ليحول دون حدوث الأسوأ للمعسكر نفسه، وتمّ دحر الأتراك وتراجعوا ولكن إلى الخنادق التي استولوا عليها والتي تشبّثوا بها بعناد.

وقد حسم المعركة لصالح الأرمن هبوط الليل. كانت السماء مظلمة ولم يكن القمر قد تربع

كبد السماء التي كانت الغيوم التي تجمّعت بسرعة. ولم يعد بوسع اليوزباشي المغامرة القيام بهجوم حاسم آخر. وفي ظلمة الليل الحالكة، كان الأرمن يعرفون كل بقعة من الداملاجيك مثلما يعرفون أنفسهم ما زالوا يتمتعون بشيء من التفوق على الأتراك على الرغم من جراحهم البليغة. أما القائمقام الذي أصيب بانزاعاج شديد نتيجة الخسائر الفادحة التي تكبدوها فلم يعرف ماذا يفعل بهذا النصر غير المجدي. وأقسم اليوزباشي بكل الآلهة أنه سينهي الأمر كله في الساعة الثالثة صباحاً ووضع خطة عمله التالية. وكان على الأتراك، باستثناء حاميات جيدة التمويه الانسحاب بهدوء، وكان على القوة بأكملها أن تعسكر طوال الليل عند مسيل الماء شريطة أن تكون جاهزة قبل بزوغ الفجر بساعات قليلة لشن هجوم كاسح على هذا العائق الأخير.

في حوالي الساعة السادسة دخل آرام توماسيان الذي كان يتفصد عرقاً وقد هده التعب إلى خيمة النساء كأسين من الماء بسرعة ثم قال لاهثاً:« هيا يا اسكوهي وأوسانا، استعدا فالأمور لا تسير على ما يرام. سأحضركما في الوقت المناسب، إذ يجب أن نجد مكاناً نختبيء فيه بين الصخور. وسأذهب الآن لأبحث عن أبينا». وفجأة اختفى توماسيان مرة أخرى دون أن يستجمع أنفاسه. وراحت اسكوهي التي حافظت على وعدها ولم تغادر الخيمة طيلة اليوم تساعد أوسانا المتذمرة المتأففة في ارتداء ثيابها بقدر استطاعتها وأعطت الطفل زجاجة من الحليب الممزوج بالماء ثم سحبت بيدها اليمنى الحقيبة الصغيرة من تحت السرير. لكنها فجأة توقّفت عن ذلك وغادرت الخيمة دون أن تنبس بكلمة وتركت أوسانا وحدها.

وبعد ساعة من الغروب، اتّخذ القادة مجلساً لهم فوق العشب قرب درجات المصلى في ساحة المعسكر وتجمّع الناس حولهم وجلسوا القرفصاء وقد ساد الجميع وجوم صامت. وكانت الأكواخ قد هجرت تماماً. ومن حين لآخر كانت آنات الجرحى الذين كانت إصاباتهم بليغة تتناهى إليهم من كوخ المستشفى. وكان بعض القتلى الجدد يستلقون في صفوف وقد تم تغطيتهم بالشراشف والأكياس. ولم يسمح المجلس بإشعال نار أو صدور أي صوت يتعدى الهمس. وكان الحشد صامتاً بصورة مثقلة بحيث أنهم تمكنوا من تمييز أصوات همسات ممثليهم بسهولة. وبدا أن دير هايكازون هو الوحيد الذي كان ما يزال قادراً على التفكير بشكل منطقي. فقد بدا صوته هادئاً واضحاً « أمامنا ليلة واحدة ، أي ثماني ساعات من الظلام فقط». وتقدّم آرام توماسيان الذي كان قلبه ممزقاً بشأن أوسانا واسكوهي والطفل، بعدة اقتراحات تناولت خططاً سريعة. فقد اقترح وبجدية تامة أنه ربما كان من الأفضل إخلاء المعسكر والالتجاء إلى المنطقة المحاطة بالصخور. إلا أن اقتراحه هذا لم يلق تأييداً وكان من الواضح أن هؤلاء الرجال ودونما سبب بدأوا يحبون بيوتهم هذه وكانوا مستعدين للزود عنها بأي ثمن.ودار جدال حاد بينهم وكان الجميع يخشى أن تمر الساعات القليلة المتبقية من الليل دون الوصول إلى نتائج مثمرة. وكانت بين الحين والحين تصدر من بينهم صرخة مكتومة أو حشرجه فقد أسفر هذا اليوم عن وقوع قتلى في أكثر من مائة عائلة، ودخل في روعهم أن الجرحى قد وقعوا أسرى في أيدي الأتراك. كما لم يكن يعرف أحد كم كان عدد الجرحى الذين ما زالوا يعانون من جراحهم الشخينة أمام المواقع والذين

لم يتمكن أحد من جلبهم إلى المعسكر. كانت الليلة الثقيلة تنوء بحملها بقوة فوق جبل موسى. وعندما بدأت حدة الجدال تتزايد وأخذ الهمس يتنامى، هاجم دير هايكازون كابرييل بحدة قائلاً: «أمامنا ليلة واحدة فقط يا باكراديان أفندي. ألايجب أن تستفيد من الساعات الثماني هذه؟».

كان كابرييل ممدّداً على الأرض وقد شبك يديه تحت رأسه وكان يحدق في السماء المظلمة. وكانت تتناهى إلى أذنيه كلمات لا تحمل معنى ولم يقو على الكاهن في هذه اللحظة همهم بكلمات مبهمة غير مفهومة وفي تلك اللحظة شعر بيد صغيرة باردة كالثلج تلمس وجهه. كان من الصعب تمييز اسكوهي في وسط هذا الظلام الدامس. فقد وجدته أخيراً بعد أن جالت من موقع إلى آخر. وقد جلست الآن كما لو كان الأمر طبيعياً جداً بالنسبة لها بجانبه في حلقة القادة. وبدا أنها لم تشعر بالخجل أمام أخيها. أفلم تكن هذه ليلتهم الأخيرة والوحيدة. أيقظت يد اسكوهي الباردة كابرييل وجعلت دمه يزداد بدفقاً في عروقه. وبدأ فتوره يذوب وأخذ عقله يستعيد نشاطه. فاستوى جالساً وأمسك يدها غير عابيء فيما إذا كان قد شاهده أحد. وبدا أن يد اسكوهي قد انتشلته من خضم اضطرابه نتيجة الارهاق الشديد. وفجأة حبس المجلس أنفاسه وساد السكون وانتصب الجميع واقفين: الأتراك؟ فجأة ظهرت بعض الفوانيس. كانت مفرزة من المدافعين في طريق عودتها إلى المعسكر لتحصل على التعليمات من أجل الغد. وقال هؤلاء أن واحداً منهم فقط لقي مصرعه ووقع اثنان في الأسر بأيدي الأتراك وأنهم تمكنوا من المحافظة على مواقعهم. كما ذكروا أن سرايا الأتراك كانت تخلي معظم القطاعات على المرتفع وتتجمع عند سيل الماء.وكان الاتصال بين الخنادق المحتلة والقيادة يتم بواسطة سلسلة من الدوريات. لقد كانت نواياهم واضحة جداً وضوح النهار.

« سنستفيد من الليل يا دير هايكازون » قالها كابرييل بصوت مرتفع بحيث تمكن الجميع من سماعه. وفي الوقت نفسه بدا أن القادة الآخرين قد سيطروا على حالة الشلل التي تملّكتهم. فقد ومضت الفكرة ذاتها في عقولهم جميعاً قبل أن يتفوه كابرييل بكلمة واحدة. فليس من وسيلة لتجنّب الكارثة إلا شنّ هجموم مباغت قوي على الأتراك. لكن لم تكن هناك قوة ونشاط بالقدر الكافي لدى المقاتلين المنهكين لشن مثل هذا الهجوم. ويجب على الجميع حتى النساء والأطفال المشاركة بشكل أو بآخر في الهجوم وذلك لكي يضيقوا إليه زخماً أقوى. كان الجميع يتحدثون في وقت واحد. وقدم المخاتير والمعلمون اقتراحات متعددة. حتى طلب منهم كابرييل الصمت بحدة إذ يجب عليهم أن لا يناقشوا هذا الأمر بصوت عال. إذ ليس من المستغرب أن يكون قد تسلل عدد من الجواسيس الأتراك إلى المعسكر. وأرسل كابرييل الجاووش نورهان إلى قطاعه لانتقاء مائة وخمسين مقاتلاً، وكان عليه أن يحضرهم بهدوء تام في سكون الليل أما الباقون فيكفون للدفاع عن مواقعهم ضمن حصونهم الصخرية ضد أي هجوم. وكان على التحصينات الجنوبية والقطاعات الموجودة على حافة الجبل التي يبلغ مجموعها عشرين فرقة أن تزود الأعداد نفسها من المقاتلين. وفي خلال الساعات القليلة التالية تمكن كابرييل من جمع قوة يبلغ تعدادها أكثر من خمسمائة مقاتل. واستغرقت هذه التحركات وقتاً طويلاً لأنه كان يجب أن تتّم بهدوء

تام وكانت التعليمات تعطى همساً. وكان من الصعب جداً تصنيف المقاتلين تحت جنح الظلام، إلا أنّ معرفته الشخصية بكل واحد منهم مكّنه من تقسيمهم إلى مجموعتين. الأولى وهي الأكبر ووضعت تحت قيادة قائد فرقة الكوميتاجي. وعندما حصل الجميع على جراياتهم وحصصهم من الخراطيش، الأمر الذي ثبت أنه عمل شاق جداً في الظلام، توجّهوا نحو الجنوب بهدوء تام وكأنهم أشباح صامته تتحرك. وفضلاًعن معرفتهم الدقيقة بكل شبر في الأرض، ساعدتهم كذلك نار المعسكرات التركية التي سمح اليوزباشي بإشعالها على حافة مسيل الماء في تلمس طريقهم. وتمكّن الأرمن من محاصرة الوادي. وقبعوا هناك وراء الأشجار دون حراك وأخذوا يرصدون المعسكر الذي عاد الصمت يسوده بالتدريج.

وأمر باكراديان الجاووش نورهان بقيادة الهجوم على القطاع المحتل مع المجموعة الأخرى التي يبلغ عددها مائة وخمسين رجلاً. وتقدم نورهان مع رجاله من وراء الحواجز الحجرية باتجاه الخندق الرئيسي وتمكّنوا من اجتياز الخنادق قليلاً من الجانبين ومحاصرتها. وكان من الأمور التي ساعدتهم أنّ حامية الخندق التركية وهي واحدة من أقوى السرايا التي بقيت في موقعها قد أضاءت مصباحين من الاستلين وكان نورهم يضيىء رؤوس الجنود مما مكن الأرمن من رؤية أهدافهم بشكل جيد. وبدا وكأن الجميع قد حبسوا أنفاسهم إذ لم يتحرك أي واحد منهم. وبدا أنّ كل شيء كان مدفوناً في هذه الليلة الكالحة.

كان القائمقام والمايجور يقفان بجوار بعضهما عند سفح المعسكر وقد أحاط بهم عدد من الجنود الذين يحملون فوانيس ومصابيح يدوية للإضاءة. نظر اليوزباشي إلى ساعته الحديثة وقال هناك متسع من الوقت سأجعلهم يستيقظون قبل طلوع الشمس بساعةً. وكان القائمقام قلقاً بشأن قدرة اليوزباشي الجدية وقال أليس من الأفضل لك أن تخلد للنوم يا يوزباشي؟ فأمامك يوم حافل وسيكون النوم جيداً بالنسبة لك ». لا..لا..لا أريد أن يغمض جفني » فقال القائمقام: «إذاً تصبح على خير» وابتعد بضع خطوات وقد سار وراءه حاملو الفوانيس لكنه عاد ثانية ليقول «أرجو ألا تسيء فهم سؤالي يا يوزباشي. لكن هل لي أن أتأكد بأن كل شيء سيكون على ما يرام وأنّه لن يحدث شيء غير متوقع في الساعات القليلة التالية؟ ».

أشاح اليوزباشي الذي ظلّ واقفاً في مكانه بوجهه قليلاً وأجاب بغضب: «طبعاً فلقد اتّخذت جميع الإجراءات الاحتياطية العادية. ورغم أن رجالي المساكين بحاجة إلى شيء من الراحة، فقد عزّزت المواقع المتقدمة وأصبحت قوية جداً. وكان بإمكانك أن لا تكلّف نفسك العودة يا قائمقام. كما قررت أن أسير دوريات حول معسكرناً. وعلى الفور نفذ الأمر. إلا أن رجال هذه الدوريات كانوا منهكين من التعب ومروا وهم يتعثرون نصف نيام بجانب الأرمن الذين كانت عيونهم تشع من بين أوراق الأشجار. وسرعان ما عادوا لينقلوا إلى الضابط المكلف بأن المنطقة من حولهم خالية وأن كل شيء كان على ما يرام.

رمى باكراديان عود الثقاب المشتعل الذي أشعل به سيكارته وانتشرت ألسنة صغيرة من النار

على طول العشب وأضرمته. قالت اسكوهي التي كانت ما تزال واقفة إلى جانبه وقد داست فوق لهب النار وقالت: «كم أصبح كل شيء جافاً». وفجأة أوحى عود الثقاب هذا إلى باكراديان فكرة بدت مستحيلة. إذ يمكن أن تحدث ضرراً لشعبه بنفس القدر على أعدائه. مد باكراديان منديله إلى الأمام ليختبر اتجاه الريح القوية. رياح غربية، تهب من البحر وتجرف الأغصان نحو الوادي. ولم يكن بإمكانه لوحده أو المجلس اتخاذ القرار بل كان على دير هايكازون رئيسهم أن يوافق على ذلك. وبعد برهة من الصمت قال دير هايكازون : « نعم».

وفي أثناء ذلك قامت القوة المسلحة بإخلاء ساحة المصلى وساحة المعسكر. وراحت المجموعتان المهاجمتان تنتظران وقد انعقدت أنفاس رجالها على صدور الإشارة. وكان يمين الخندق المحاصر والحواجز الصخرية يقبع جميع القرويين الاحتياطين. لكن ذلك لم يكن كل شيء. إذ يجب الإشارة إلى أن ستيفان كان هرب من أمه منذ فترة بعيدة، وكان يشعر بالسعادة تغمره على الرغم من الكارثة الوشيكة الحدوث. هذا الزحف والهمس في جنح الظلام، والقرب الوثيق من عدد كبير من الأجساد المتوفرة، والومضات المفاجئة الصادرة من فوانيس ذات أغطية وأمور كثيرة أخرى جعلت أعصاب ستيفان متوخزة بحيث جعلته يشعر أنها نقلته إلى عالم من الأحلام المثيرة. وقد عزز كل ذلك الأمر غير العادي الذي صدر إلى الشبان بشأن مخازن النفط، إذ تمّ احضار جميع براميل النفط الموجودة على الداملاجيك إلى ساحة المصلى بالإضافة إلى جميع ما أمكن جمعه من الأغصان والعصي. ففي البدء طلب من ستيفان ورفاقه، ثم النساء وجميع الأطفال الآخرين بدءاً من التاسعة من العمر جمع أكوام من الأغصان والأعواد الجافة. وكان على المعلمين وصامويل أفاكيان الذين كانوا يشرفون على عملية التوزيع أن يحولوا دون حدوث مشادات صاخبة بينهم. فكانوا يضربون بقبضاتهم ويهمسون « بهدوءٍ أيها الشياطين الملاعين». وتمّ نفس الشيء بشأن البراميل، فقد كان يتوجب غمس الأغصان حتى منتصفها في ذلك السائل الثقيل وتحريكها. وكان قد جمع ما لايقل عن ثلاثة آلاف غصن. واستغرق ذلك وقتاً طويلاً. وكان الناس ما زالوا منهمكين في عملهم حول البراميل عندما أطلقت صافرة البدء ففتح المقاتلون المختبئون النار على الخنادق التي كان الأتراك قد استولوا عليها.

وقف كابرييل باكراديان على قمة صخرة ولم يكن قد أدرك أن المرحلة الأولى من هجومه المفاجيء قد نجحت بسرعة هائلة. إلا أن الجاووش نورهان كان يعطي الإشارة بواسطة فانوسه. وتمكن المقاتلون من استعادة الخندق واندفعوا وراء أعدائهم إلى أسفل المنحدر. وضلّ بعض رجال المشاة الأتراك طريقهم في الظلام وسقطوا في أيدي المهاجمين. وجرى البعض الآخر وتعثر، وقفز إلى أسفل التلة نحو سيل الماء حيث كانوا يلقون مصرعهم إما بالحراب أو بأعقاب البنادق. وتوّجه كابرييل إلى الاحتياط (مستعدون، إلى الأمام) وانتظر حتى اقترب السرب من الصخرة الواقف عليها، وجرى أمامهم يتقدّمهم. وتجمّعوا ببطء عند أسفل المنحدرات بين الشجيرات الصغيرة الغليظة وراء الجثث.

كانت المطاردة على أشدها. وكان الضباط الأتراك والمساعدون والجنود الأكثر شجاعة يحاولون عبثاً الاقتراب من أغصان الشجر التي أخذت تضطرم فيها النيران حول معسكرهم. لكن طلقات المهاجمين الكوميتاجي كانت تعيدهم إلى وسط مسيل الماء. وبدأ الضباط يصرخون ويصدرون أوامر متناقضة. لكن لم يكن أحد يستمع إليهم. فقد أخذ الجنود والدرك يهرعون لأخذ بنادقهم لكنهم عندما وجدوها، وجدوا أن من المستحيل استخدامها. إذ أنّ كل طلقة كانت يمكن أن تقتل أخاً أو رفيقاً. ورمى الكثير منهم بنادقهم التي بدأت تعيق حركتهم وهم يجرون أو يقفزون فوق الأشواك. وتمكن اليوزباشي وهو يلوح بسيفه من جمع عدد من الجنود حوله. ثم وجه سيفه باتجاه المرتفعات وصاح: «إلى الأمام.. هيا سيروا خلفي» وفجأة تذكر الكلمات التي كان قد قالها في الليلة الماضية للقائمقام: «لا أريد أن استمر في العيش غداً إذا لم يتم تطهير المعسكر الأرمني ». وبالفعل انتابته في تلك اللحظة رغبة بعدم المضي في الحياة وأخذ يردد «ورائي» مراراً. وتملكه شعور بالقوة والقدرة على تحويل هذه الهزيمة إلى نصر. وكان لهذه القوة تأثيرها في نفوس جنوده وتملّكتهم رغبة جامحة في الخروج من هذا الجحيم. وتبعوا قائدهم وهم يتصايحون، ووصلوا دون أن يصيبهم أي سوء إلى الطرف العلوي من مسيل الماء، وبقلوب تدق بقوة، وقد أصيبوا بالاعياء فقدوا شعورهم بالواقعية واستمروا في تسلق المنحدر، لكنّهم دُحروا مثل ألعاب لاحياة فيها. ولم يدرك اليوزباشي في البداية جرحه، وانتابته دهشة كبيرة عندما وجد نفسه معزولاً. ثم شعر بذراعهالأيمن ثقيلة. وشعر بالسرور عندما رأى الدم تسيل منها. وأصبح شعوره بالخزي والضياع أقل بكثير. أخذ يسحب نفسه وعيناه مغمضتان وقال لنفسه اسقط أينما كان وانسى الأمر كله.

ولم يغمض لأحد جفن في كل القرى الواقعة أسفل الجبل الممتدّة من يوغونولوك وبيتياس وحاجي حابيبلي وأزيز إلى الوقف وخدير بك والكبوسية. إذ ما أن بدأ صوت الهجوم المفاجيء يلعلع ووصل إلى هذه القرى حتى حمل السكان المسلمون بنادقهم وخرجوا ليتجمعوا عند الحواف الواطئة رغم أنّهم لم يجرؤوا على التقدّم إلى مسيل الماء. لكن نساءهم وقفن في الحدائق وعلى الأسطحة يستمعن بشغف إلى أزيز الطلقات. وفجأة، وفي الواحدة صباحاً شاهدوا الشمس تسطع من وراء الداملاجيك. وانتشر خلفه وميض وردي اللون وعندما أخذت ألسنة النار تمتدّ فوق سفح الجبل لم يكن ثمة وقت لتفسير هذه الظاهرة. فقد أضاء عيسى المسيح نبي الكافرين شمسه وراء الجبل؛ أما الجنود الأتراك الذين بقوا على سفح الجبل فقد انتابهم الذعر عندما رأوا هذه الأنوار المتوهّجة وأدخل هذا المشهد في روعهم وجود أعداد ضخمة تفوقهم كثيراً تخرج من كل مكان. كما لو كان الشعب الأرمني كلّه وجميع القوافل المنتشرة على الطرق في أنحاء تركيا قد هبّت هبة رجل واحد للانتقام بمشاعل وكرات نارية من حفنة من الغاشمين ومن الأعمال الوحشية التي تعرضوا لها. وبدأ هؤلاء الجنود يتراكضون إلى أسفل السفح ولم يتمكن أي ضابط من ايقافهم. وأدراك عدد من الضباط والجنود الشجعان أنهم افتقدوا رئيسهم فعادوا ليحملوا ذلك

الضابط الجريح الفاقد الوعي الذي كان على وشك أن يقع في أيدي الأرمن. وعلى الفور حملوه إلى فيلا باكراديان. وعلى الطريق استعاد وعيه وعلم أن كل شيء قد انتهى وأن الأرمن قد شتتوا قواته وأنه بالنسبة له لن يكون ثمة عودة. ومن أعماقه لعن الطلقة التي مزقت ذراعه الأيمن ولم تصبه في مقتل. وكم ود أن يفقد وعيه ثانية ويغيب عن الوجود لكن دعوته لم تستجب.

لم يترك موكب النار أعداء لمواجهتهم. وأخذت خطوط النار الطويلة تقترب ببطء من مسيل الماء والأشجار الميحطة به. وعند منتصف المنحدر تقريباً أوقف دير هايكازون الخطوط الطويلة وأصدر أمره(الذي نقل من واحد لآخر) بإلقاء الأغصان المشتعلة تحت العشب. وبعد دقائق قليلة بدأت تصدر من جميع الجهات أصوات انفجارات لا نهاية لها وكأنّها طلقات صادرة عن مسدس، وكأن الداملاجيك كلّه سينفجر. وارتفعت ألسنة اللهب في أماكن عديدة واشتعلت الغابات وأخذت تحترق. يا إلهي ماذا لو غيرت الريح اتجاهها بعد ساعات قليلة، عندئذ سيصبح القابع بجانب حافة الجبل فريسة الشرارات المتطايرة وألسنة اللهب. ومن حسن الحظ كان كابرييل قد حفر خندقاً أمام هذه القطاعات. فقد التهمت النيران كل شيء في طريقها بلمحة بصر. ولم يكن أمام المقاتلين متسع من الوقت في المنحدر السفلي لانقاذ غنائم المعركة: أكثر من مائتي بندقية ماوزر وكمية وفيرة من الذخيرة ومطبخين ميدانيين وخمسة بغال مع علفها وبطانيات وفوانيس وأشياء أخرى كثيرة.

عندما بزغت الشمس الحقيقية استسلم المقاتلون للنوم وكان لدى عدد قليل جداً منهم القوة على الانسحاب تحت غطاء. ونام الصبية متكورين في أكوام فوق الأرض العادية واستلقت النسوة في ساحة المعسكر فوق بسطتهن بدون حراك. كما استسلم كابرييل للنوم شأن جميع القادة الآخرين. حتى دير هايكازون لم تعد فيه قوة لإكمال قداس الشكر. فقبل أن ينتهي غط في نوم عميق بعد أن غلبه الإرهاق أمام المصلى. ولم يتوجه أحد للعمل في ذلك اليوم. ولم تشعل نيران المطابخ ولم تحمل مياه من الينابيع المجاورة. ولم يستطع أحد الإعتناء بالجرحى الكثيرين الذين كانوا ما زالو مستلقين وهم يئنون تحت وطأة آلامهم في خنادقهم عن أولئك الذين تمكنوا من الزحف إلى كوخ المستشفى. وكان أولئك يجتمعون تحت زمرة« جرحى» وقد استلقوا هنا وهناك في مشهد تنفطر القلوب له: وجوه بدون أعين أو أنوف أو ذقون، وقد امتزجت بالدماء، أجساد مزقتها رصاصات الدمدم، رجال يصيحون من جروحهم التي أصيبوا فيها في البطن يموتون عطشاً. وكان الموت وليس الطبيب بدروس هو العلاج الوحيد لهؤلاء التعساء. أما في الوادي فقد أخلد كذلك الجنود والدرك ورجال القبائل للنوم. ونام الضباط في غرفهم في فيلا باكراديان. وكان الكولجاي أول ضحية البارحة قد نُقل في عربة الاسعاف إلى أنطاكية منذ ساعات عديدة. وحل الآن ضابط آخر محله على سرير ستيفان، واستسلم القائمقام للنوم في غرفة جولييت حيث كان مشغولاً بكتابة تقرير ليرسله إلى والي حلب.

كما أخلد القتلى الأرمن والأتراك لنوم عميق، وكانوا مبعثرين هنا وهناك. وكانت ألسنة النار تزحف باتجاههم. وكانت النار تتزايد وتتسع من ساعة لأخرى عبر الداملاجيك نحو الشمال والجنوب. ولم تتوقف إلا عند المنحدرات الصخرية العارية. ونام المقاتلون والقرويون حتى وقت متأخر من الظهيرة- حيث اجتمع المجلس وقرّر إخلاء جميع النقاط من الأشجار والأعشاب وكان هذا عملاً جديداً شاقاً. ونام الجميع طيلة النهار باستثناء واحد منهم. فقد جلست جولييت في خيمتها دون حراك وقد جعلها ذلك تشعر بالضآلة من جراء شعورها العميق بالأثم.

4- الاعيب ساتو

كان لحريق الغابة هذا تأثير محبط على جميع هؤلاء الناس. فلم يعد ثمة ظلام وراحت أثناء الليل الخيالات تقفز وترقص بشكل جنوني وأصبحت الحرارة اللاهبة لا تحتمل في منتصف الليل وكأنّها في منتصف نهار قائظ، دون أن تهب نسمة باردة واحدة. وخنق الدخان جميع الأنفاس وراح يخرش الأنوف والحناجر.

وبدلاً من الشعور بالزهو بالنصر، بدأت تظهر أولى علائم هبوط الروح المعنوية التي أخذت تهدّد بتحطيم النظام في فورات مفاجئة من سوء المزاج. وكان ذلك يعود إلى حد بعيد إلى المشاحنة السيئة مع سركيس كيليكيان التي حدثت، لسوء الحظ، في ليلة يوم الراحة بالذات.وهو أحد الأسباب التي جعلت دير هايكازون وكابرييل لايتوقعان الحصول على هدنة طويلة. ومن المؤكد،أن فكرة اضطرام الجبل الجنونية، والغنائم الجديدة والكبيرة التي استولوا عليها قد حسنت كثيراً من احتمالات الصمود، لكن الأمل بأن يكف الأتراك عن بذل محاولات أخرى كان محض جنون. وعلى الرغم من أن النار كانت تلتهم وسط الداملاجيك، فقد كانت أطرافه والمنحدرات الصخرية فوق السويدية المواقع الشمالية معرضة كما كان شأنها دائماً للهجوم. لذلك فقد كان من الواجب عدم التساهل في النظام والإبقاء على سلطة القادة القوية كما كانت من قبل.

وفي وقت لاحق من بعد الظهر، أُرسلت مفارز لاحضار القتلى وعادت بسبعة وستين جثة من أصل المائة والثلاثة عشر رجلاً الذين اعتبروا في عداد المفقودين. وكان عدد كبير منهم مصابين اصابات مميتة، وقد ماتوا فعلاً في تلك الليلة نظراً لعدم حصولهم على العلاج. وكان لدى الطبيب بدروس ألتوني الشيء الكثير لكي يقوله للمجلس حول هذا الأمر. إذ راح يعلمهم بصوته الحاد بأنه نظراً لأن حرارة الصيف قد أصبحت لا تطاق بفعل هذه النار، فكان من الأمور الجوهرية دفن الموتى على الفور. وإن كل دقيقة تأخير كانت تنطوي على خطورة للمعسكر كله. ولم يكن بودّه أن يقول ذلك للعائلات المفجوعة لكن لم يكن ثمة وقت لاضاعته. وطلب من كل عائلة مفجوعة الاسراع بدفن موتاها في الأماكن المحدّدة لها. وفي رأي ألتوني، كان من الحكمة لو كان الأموات قد تركوا طعاماً للنيران الهائلة، لكن المجلس لم يتمكن من اتّخاذ قراره بذلك، ووضع الموتى في أكفانهم من أجل راحة اليتامى والثكالى.

وهذا الأمر لم يسبب، كما خشي البعض، الكثير من الاستياء بين الأهالي. فقد كانوا يخافون على صحتهم، وانتهى كل ذلك بعد ثلاث ساعات من منتصف الليل وأدى هذا العمل المرهق إلى كبت الألم، وبقي عدد قليل جداً من الأقارب وأهل الموتى واقفين بجوار القبور يحملون الشموع التي احتفظوا بها من أجل ذلك منذ مدة طويلة.

في صبيحة اليوم التالي، الخامس والعشرين من آب، كان هناك حدثان هامان: الأول يتعلق بانتقاء متطوّعين للذهاب إلى الاسكندرونة وحلب إذ كان يتوجب على السباحين والراكضين المغادرة فوراً والثاني محاكمة سركيس كيليكيان. وعرضت القضية على الشكل التالي: فلم يكن ثمة شك في أن سركيس كان مؤولاً أمام الناس عن الخسائر الجسيمة التي ألحقت بهم. ومع ذلك فلم يفكر كابرييل باستدعائه واتهامه بالاهمال وذلك لأن الروسي كان قد أبدى شجاعة فائقة في صد جميع الهجمات السابقة.وكان لدى كابرييل بصيرة نافذة في الأمور. ودار جدال حاد في ساحة المصلى. أحاطت مجموعة غاضبة سركيس:«.. دعه يشرح ذلك- اجب عن اسئلتهم- برر موقفك!» لكنه لم يبرر موقفه ولم يشرح سبب فعله ذلك، بل وقف ووجهه أبيض شاحب وفمه مغلق إزاء الادانات التي انهالت عليه. ولعل هذا الصمت لم يكن ينم عن وقاحة من قبل سركيس كما بدا للآخرين بل، لأنه هو نفسه لم يكن يفهم سبب اهماله المفاجيء وقد أنف من أن يقدّم اعذاراً سهلة وواهية مثل «الإعياء» أو« نوايا أسيىء فهمها» واعترف أمام المجلس بلا اكتراث بأنه هو الذي بدأ شرارة الضربة الأولى، وأنه كان يعرف العواقب التي تنطوي عليها. ولم يحاول اثبات أنه كان في حالة دفاع عن النفس. وبدا لامبالياً، ملولاً، وبطيئاً في التكلم. وسمع كابرييل القصة دون أن ينبس بكلمة واحدة. كما لم يدافع عنه ولم يوجّه إليه أي اتهام. وطلب من الناس الذين تملكهم شعور بالاستياء انزال العقوبة به. وبعد أن سمع دير هايكازون آخر شاهد تنهد وقال: « ماذا سأفعل بك يا سركيس كيليكيان؟ فلا يحتاج المرء إلا النزر إليك لكي يعرف أنك لا تلائم أي ترتيب وضعه الله بين خلقه ويتوجب علّي أن أطردك من المعسكر». لكنّه لم يفعل ذلك بل حكم على كيليكيان بالسجن خمسة أيام مقيداً بالحديد وصيام لمدة ثلاثة أيام. وكان هذا العقاب أسوأ مما كان يمكن أن يبدو. فقد وجد كيليكيان نفسه وقد جرد من رتبته كقائد محترم وأُنزل إلى مرتبة مجرم حقير.

كان ينتاب كابرييل شعور بقرب حدوث شيء غير متوقع سيؤدي إلى القضاء على نصرهم الأخير. لذلك بادر إلى إرسال الرسائل في ذلك اليوم وبسرعة. وحتى لو أثبتت هذه العملية عدم جدواها فإنها على الأقل ستدخل الأمل والتوقع في نفوسهم. واجتمع ما يقرب من ثلاثين شاباً لكي يقوم مجلس القادة بالانتقاء منهم. وانتاب كابرييل غضب شديد عندما رأى ابنه ستيفان يقف بجانب هايك. وبعد استشارات مقتضبة مع أعضاء المجلس الآخرين أعلن دير هايكازون عن اختياره. فقد كان هو صاحب القرار النهائي في أي تقرير عن قدرات الأشخاص وقوتهم. وكان من السهولة بمكان انتقاء السباحين. ففي قرية الوقف الواقعة في أقصى الجنوب على حافة سهل العاصي وقرب الساحل، كان ثمة سباحان ماهران، واحد في التاسعة عشرة والآخر في العشرين

من العمر. وسلم دير هايكازون لهما الحزام الجلدي الذي خيطت في داخله الرسالة. وكان على السباحين الانطلاق بعد الغروب مباشرة بعد أن يقضيا آخر مساء مع عائلتهما. أما اختيار الراكضين إلى حلب فقد استغرق وقتاً أطول. وقد تقرر أن ينطلق في هذه المهمة شاب واحد، وأجمع الكل على هايك ذلك الصبي الجريء القوي الذي يتمتّع بسرعة أسطورية. ولكن عندما أعلن دير هايكازون اسم هايك وهو يعتلي درجات المصلى، أبدى ستيفان احتجاجه. فانكمش وجه كابرييل من الغضب عندما رأى ابنه يتقدّم من مكانه بجرأة ويكشر عن أسنانه مثل كلب غاضب وقال: «ولماذا هايك فقط؟ أريد أن أذهب إلى حلب أيضاً يا أبي ».

لعلع صوت ستيفان المتمرّد في الساحة كلّها. إذ ليس من المعتاد أن تصدر مثل هذه الكلمات عن ابن لأبيه عند الأرمن. ونظر دير هايكازون إلى الأعلى وقال وقد يميل صبره:«قل لابنك أن يتأدب يا كابرييل باكراديان ». تقدّم كابرييل خطوة سريعة نحو ستيفان وقال: «ماذا؟ أنّك لاتستطيع أن تفعل شيئاً. إنك أوروبي مدلل، هذا هو كل ما أنت. طفل مدلل من المدينة. هيا اخرج.. اذهب إلى أمك.. إذا بقيت هنا دقيقة واحدة فسأ...». لم يبقى أمام ستيفان سوى الإنسحاب. وأخذ كابرييل يرمقه وهو يجر أذياله بصمت. ثم تلاشى غضبه بعد أن تذكر ذلك الطفل الصغير في مونترو- حيث كان يرتدي ثياباً جميلة. أزاح رأسه عن الجريدة قليلاً وقال في نفسه إنّ ستيفان سيصبح شاباً. فيبلغ الرابعة عشرة في تشرين الثاني المقبل.. وها هو تشرين الثاني قد اقترب. يا لها من فكرة طوبادية سخيفة. إنّه أمر لا مندوحة منه.. وعلى الفور توجّه كابرييل إلى منطقة الخيام الثلاث ليتحدث إلى ابنه. لكنه لم يجد ستيفان ولا جولييت. فبدل ثيابه وعندها أدرك أنّه أضاع إحدى القطع النقدية التي أعطاه أياها الآغا رفعت بركات. كانت القطعة الذهبية ذات الرأس النافر الذي يصور ملك الأرمن العظيم أشود باكرادوني. وأخذ يبحث في جيوب بذاته كلّها لكنه لم يجدها.

كان من سوء الحظ أنّ حملة الأتراك هذه قد وضعت حدّاً لحياة ساتو المتسكعة المتشردة. فقد كان وضعها بين الأطفال أدنى بما كان من قبل. وكان دير هايكازون قد أصدر قراراً منذ أيام قليلة بوجوب استمرار التدريس في المدرسة. لكن حتى هرانت أوسكانيان المتنطع في حفظ النظام لم يتمكن من ضبط النظام في الصف نظراً لوجود ساتو فيه. فما أن تكاد تدخل غرفة الصف حتى يأخذ التلاميذ بنعتها« بالنتنة» وخلال أحد الدروس التي كانت تلقيها اسكوهي بلغ صخب الأطفال حداً لايطاق وهم يوجّهون إليها شتّى النعوت والأوصاف فوجدت اسكوهي نفسها مرغمة على طرد ساتو الكريهة من الصف وقالت لها: « هيا اذهبي بعيداً يا ساتو ولاترني وجهك النتن مرة أخرى أبداً..» وكان من دأب ساتو التسكع هنا وهناك. ولكن بعد أن أصبح هذا المجتمع ممزقاً أصبح مملاً أيضاً. فلم يعد ثمة داع للتسكع في أرجاء المخيم وتلقّط الأخبار، وشيئاً فشيئاً تحوّل هذا القلق الكسول إلى أشياء أخرى: التجسس على الكبار. فبالغريزة الحادة التي لم تكن تعلم في الكتب، كانت ساتو تدرك كل ما هو حيواني في هؤلاء الكبار. لذلك لم يكن من المستغرب أن تتبيّن ساتو حقيقة ما يجري بين كونزاك وجولييت فراحت تتعقبهما أينما ذهبا. فبعد كابرييل،

كانت جولييت والمسيو كونزاك النماذج الرفيعة بالنسبة لساتو. إذ لم تكن تكنّ لهما شعوراً بالكراهية بل شعرت بفضول بدائي لشيء يبدو أنه خارق للبشرية.

وسرعان ما اكتشفت المكان السري الذي يلتقيان فيه. وكانت تشعر بمتعة عظيمة وهي تتلصلص عليهما من وراء الأجمة. وكانت عيناها المتلألئتان تنظران إلى هذا المشهد بنهم شديد. السيدة الفرنسية الأنيقة البهية المشوقة والتي تتضوع منها الروائح العطرية الشذية دائماً.. كان شعرها الآن مدلى بخصلات صغيرة فوق وجهها وفمها الواسع ذي السطوح الجامدة يقترب من وجه الرجل الذي بدا متأهباً والذي أسرع في تذوّق تلك العطية بنهم قبل أن يضمها إليه. وكانت ساتو التي كانت مفعمة بالاثارة تراقب يدي كونزاك الطويلتين النحيلتين وهما تلعبان كلاعب أعمى، وتجوسان فوق كتفي السيدة البيضاوين حتى يصل إلى نهديها. ورأت ساتو كل ما كان يجب رؤيته وما لايجب رؤيته. فقد طردها المعلمون من المدرسة دون أن تحرز أي تقدّم، وكانت أحاسيسها المتطورة تقودها إلى حب المطاردة وكشف الأسرار التي استحوذت على جميع ملكاتها العقلية. إذ لم يكن عقلها يساوي شيئاً، بل كانت غريزتها تساوي كل شيء. وثمة شخصان آخران لم ينجوا من مراقبتها، لكنهما لم يقدما عرضاً كهذا، ولم يلجأ للاختفاء في مكان سري للبوح برغباتهما. كما لم يستترا وراء الأشجار على طول الشاطىء، بل كانا يفضلان الأكمات العارية الجرداء وكان من الصعب تعقبهما دون أن يرياها. لكن ساتو كانت تملك القدرة على الاختفاء بسهولة. وفي الحقيقة فقلما رأتهما يعانقان بعضهما. إلا أنّ هذه العاطفة التي كانت تجمع اسكوهي وكابرييل لم ترافقها أية قُبل على الاطلاق. وكان لهذه العلاقة في قلب ساتو تأثير أعمق بكثير من كل العناقات التي كانت تتمّ بين جولييت وكونزاك. إذ كانا يكتفيان بملامسة الأيدي والنظرات السريعة.

كانت جولييت في طريقها إلى كابرييل، وكان كابرييل في طريقه إلى جولييت وتقابل الاثنان في منطقة يتوسّط منطقة الخيام الثلاث والمواقع الشمالية. وبادرته بالقول: « كنت أبحث عنك ياكابرييل ». وقال لها ذات الشيء. أين كانت خطوة وليت الرائعة؟ فقد كانت تمشي كما لو أن أحدهم قد أرسل في مهمة خاصة، وهذا فعلاً ما كان كونزاك قد أرسلها لتخبره بالحقيقة وتعلن له عن رغباتها وذلك لأنّ وقت الانفصال قد حان.. قالت في نفسها هل أصبح بصري ضعيفاً إذ لم أعد أرى بشكل جيد؟.. فقد اعترتها الدهشة لرؤية هذا الشفق من إحدى أمسيات تشرين الثاني الحارة أم كان ذلك بفعل دخان الحريق الذي عشى الداملاجيك؟ أم كان ذلك الضباب الذي كان يزداد سماكة كل يوم والذي بدا أنه يغلّف عقلها؟ لقد اعترتها الدهشة فقد أصبح كونزاك شخصاً غير حقيقي عندما وقفت أمام كابرييل، فقد بدا لها كل شيء يثير الدهشة وبعيداً جداً. كانت حمّالة جوربها قد انزلقت، وسقط جوربها إلى أسفل ركبتها. وانتابها شعور بالكراهية ومع ذلك لم تحرّك ساكناً. وقالت في نفسها لقد فقدت فجأة القوة حتى على أن أشدّ رباط جوربي، ومع ذلك فعليّ هذا المساء أن أهبط كل هذه الصخور حتى السويدية.

وبدأ الزوج والزوجة حديثاً هاماً، لكنّه لم يسفر عن أي نتيجة. إذ بدأت جولييت الحديث «إني أنحو باللائمة على نفسي بشدّة لأني لم أبق خلال الأيام القليلة الماضية. فقد كنت مثقلاً بالاعتناء وكانت الإنجازات التي حققتها رائعة. وكنت دائماً معرضاً للخطر. آه يا حبيبي. لقد كان سلوكي مشيناً نحوك » لو كانت قد أدلت له بمثل هذا الاعتراف منذ أسابيع قليلة لكانت حرّكت شجونه. أما الآن فكان رده رسمياً تقريباً« وأنت دائماً تقبعين في قلبي يا جولييت. وكان عليّ أن أوجّه مزيداً من العناية بك. لكن صدقيني، ولاسيّما في الآونة الأخيرة، لم يكن بوسعي أن أفعل ذلك ». كان هذا الكلام في غاية الدقة رغم أنّه ضمنه معنىً مزدوجاً. وكان صدقه يجب أن يمنحها الشجاعة لتبوح بصدق عن مكنوناتها. لكنّها ترددت في الموافقة « بالطبع لم يكن بإمكانك. أرى أنّه لديك أمور أخرى للتفكير فيها يا كابرييل. وتابع هذا الطريق الخطر لقد كنت أعرف دائماً، وكنت سعيداً، عندما فكّرت بأنك لم تكوني وحيدة تماماً ».

أوصلتهما هذه العبارة إلى النقطة الحساسة في حوارهما الفاتر. فلربما كانت هذه هي فرصة جولييت فيما لو انتهزتها بسرعة. قالت: « أنا غريبة هنا يا كابرييل. لقد كان مصير الأرمن أقوى من زواجنا. والآن تتراءى لي آخر فرصة لتفادي هذا القدر. أنت نفسك كنت قد اقترحت، مائة مرة، وما زلت تضع خططاً لانقاذي، وكان يحدوني الأمل بأن تكون لدي القوى لأن أظل صامدة حتى النهاية. لكني لم أتمكن من ذلك، ولن أتمكن نظراً لأن هذا القتال ليس قضيتي. لذا دعني اذهب». « أفهم ذلك تماماً يا عزيزتي. حتى أنّه إذا تعيّن عليّ أن أهلك فليس لي الحق في الاحتفاظ بك هنا. وسأبذل ما بوسعي لمساعدتك. حتى إني سأدع ستيفان يذهب معك لأنّي أعرف كم ترغبين في إنقاذه ».

كان من الممكن أن تكون الصراحة في هذه الدقائق القليلة عملاً نظيفاً لو لم تكن معقّدة بشكل يتعذّر حلها. فقد كانت جولييت تعرف الشيء القليل عن كابرييل كما كان يعرف عنها. كما لم تكن تعرف فيما إذا كانت تحب كونزاك. فضلاً عن أن كابرييل لم يكن يدرك مدى الحب الذي يكنّه لاسكوهي وما نوع الحب الذي يربطهما. إنّ ماضي جولييت الديني والبرجوازي جعلها تنكفىء لدى فكرة السعادة الآثمة. فكان لديها أسباب كثيرة لعدم الثقة بكونزاك الذي لم يكشف لها عن كوامنه. كما أنّه يصغرها بثلاث سنوات. ففي باريس كان هذا الأمر سيكون تقليدياً، أما هنا، على الداملاجيك، فإنّ الاحساس بالخطيئة قد أناخ عليها بثقل. إلا أن هذه التعقيدات كانت طفيفة. ففي لحظة معينة، كانت مستعدة لتقبل فكرة الهرب من الجبل مع كونزاك وأن تنتظر السفينة البخارية في ذلك البيت الصغير قرب مصنع الكحول. ثم وفي اللحظة التالية بدا لها أن كل ذلك كان من ضرب المستحيل. فقد كان الأمر يحتاج إلى قرار شجاع للاقدام على مثل هذه المغامرة حتى لو نجت من الموت. أليس من الأفضل أن تنتظر وترى ما سيحدث على جبل موسى بدل أن تهرب إلى بيروت؟ إنّ فكرة تسلّق الصخور أثناء الليل والمخاطرة الناجمة عن عبور سهل العاصي والرحلة البحرية بين براميل الكحول، وتهديد الغواصات- كل هذه التوقعات بالاضافة على التعب الشديد تضافرت في جعل هذا الشعور

سخيفاً. ولكن ما كل ذلك، بالمقارنة مع ألم فراق ستيفان؟ فقد ابتعدت عنه هذه الأيام، ولم تعد تهتمّ فيما إذا كان يستحم أو يأكل جيداً، بل حتى لم تعد تستيقظ في الليل، حسب عادات الأم المقدسة، للإطمئنان عليه وهو نائم. كل هذه الأمور تضافرت في جعلها تشعر بالذنب والتي أناخت بكلكلها عليها من أجل ستيفان. وبعد أن أضحت تنوء بهذا الاثم جاءت إلى كابرييل لتقول له إلى اللقاء. وراحت تتدفّق الأفكار في رأسها وهي تقول: « سأبقى سأذهب، سأبقى، سأذهب » لكن قلبها كان يئن آه كم أتمنى لو انتهى كل ذلك وفجأة أصبح وجه جولييت شاحباً وأخذت تترنّح فسارع إلى إمساكها كي لا تقع على الأرض. وجعلت لمسته التي كانت تعرفها آلاف المرات تسري في جسدها نبضاً، وأدارت وجهها إليه وقالت: « اصفح عني يا كابرييل. إنّي أظهر أنني سأمرض أم مريضة فعلاً ».

كان كونزاك ينتظر جولييت في المكان الذي أطلقا عليه اسم الريفيرا. كان قلقاً، ويدخّن نصف سيكارته حتى النهاية ولما كان مقتصداً فقد بقي لديه خمسة وعشرون سيكارة. ولم يكن يرمي الأعقاب بل كان يوفرها لاستخدامها في غليونه. لقد كان كونزاك شديد الحرص على كل شيء، حتى أنّه كان يستخدم آخر نقطة. وعندما تقدّمت جولييت نحوه بخطوات مترنحة غريبة انتصب واقفاً ولاحظ للتو هزيمتها. أرى أنّك لم تتكلمي معه للمرة الثانية. جلست بجانبه دون أن ترد عليه. ما خطب غيابها؟ فقد كان كل شيء، حتى الأشياء القريبة جداً تبدو لها مغلفة في غلالة. وما إن تلاشى الضباب من عينيها حتى بدأت أشجار النخيل تنمو من وسط البحر. جمال بوجوه مائلة تسير في قافلة عبر الأمواج. ولم تكن الأمواج في الأسفل تحدث مثل هذا الضجيج. إذ لم يكن بامكانها أن تسمع ما يقوله. وجاء صوت كونزاك من بعد:

– «هذا ليس جيداً يا جولييت. فأمامك أيام معدودة إذ أنّ السفينة لن تنتظرنا. والمدير لن يقدّم لنا المساعدة مرة أخرى. يجب أن نغادر الليلة. حاولي أن تكوني عاقلة».

خبأت صدرها بيديها المقبوضتين، ومالت إلى الأمام وكأنها تكظم ألماً شديداً «لماذا أنت بارد جداً تجاهي يا كونزاك؟ لماذا لا تنظر إلي؟ هيا انظر!». لكنّه فعل العكس تماماً: فقد أخذ ينظر بعيداً نحو البحر لكي يشعرها بأنّه مستاء، وقال: «كنت أتصور دائماً أنك جريئة، من تلك النساء المصممات غير العاطفيات ». «أنا؟ أنا لست كما كنت. فأنه ميتة الآن. اتركني هنا واذهب لوحدك ». توقعت منه اعتراضاً لكنّه لم ينبس بكلمة وران صمت أكثر مما كانت تحتمله. ثم همست بصوت خافت: « سآتي معك – الليلة ». عند ذلك اخذ يداعب ركبتها بلطافة وقال: «يجب أن تستجمعي قواك يا جولييت وأن تتغلبي على كل هذه العوائق. إنها الوسيلة الوحيدة. لنوضّح كل شيء ولا نخدع أنفسنا. فليس أمامنا عمل آخر. ويجب بشكل أو بآخر أن تخبري كابرييل. وأنا لا اقترح بأي حال أن تقدّمي اعترافاً كاملاً. فهذه فرصتنا ولن نحظى بفرصة أخرى. وهذا يفسّر الأمر بكامله إذ لا يمكنك أن تتلاشي هكذا– عدا أنّ ذلك سيكون أمراً حقيراً، فكيف ستعيش؟ هل فكرت في ذلك؟ ». وبكل الثبات والثقة اللتين يتسم بهما صوته وأسلوبه، أخذ

يقنعها بأن باكراديان يجب أن يتخذ كل الترتيبات التي بإمكانه لكي يضمن لها حياة كريمة ولم يلمح إلى أي مغامرة سوقية فيما قاله، بل حدس صراحة بموت كابرييل بل وبموت ستيفان الوشيك. وراحت تردّد وكأنّها أصبحت مسجلة فوتوغراف وقد علقت عليها الابرة « كيف سأعيش، كيف سأعيش في بيروت.. بيروت.. لماذا؟ ».

شعر كونزاك بالعطف تجاهها الذي تصور أن ضميرها يعذّبها وتمنّى مساعدتها وقال: « يجب ألا تأخذي الأمر بهذا الشكل السيء. فكّري فقط بما يعنيه ذلك! إنّك ستنقذين حياتك! إذا أحببت سأكون معك - ولكن لا أكون إذا لم تذهبي ». يجب عليها حقاً أن تذهب لترى أمها التي تعيش في فندق ذي بهو طويل وله مئات الأبواب، لكن جولييت نسيت الرقم..

جاءها الآن صوت كونزاك ناعماً وساحراً. وكان هذا يدخل السرور في نفسها قائلاً: «سأكون معك. حقاً؟ هل أنت معي الآن يا كونزاك؟ استمعي إليّ جيداً يا جولييت. سأنتظرك الليلة.. يجب أن تكوني مستعدة في حوالي العاشرة. وإذا احتجت لي - ارسلي أحداً ما في أثري وسأساعدك. ويمكنك أن تحضري معك حقيبتك الكبيرة وسأحملها أنا.. كوني حذرة في اختيارك لأشيائك. لكنّك تستطعين شراء أي شيء في بيروت » كانت تبذل ما بوسعها لفهمه وشرعت تكررها تطفلة «الليلة.. حوالي العاشرة .. وعليّ أن أحضر الحقيبة.. ويمكنني أن أحصل على أي شيء في بيروت.. وأنت؟ كم ستبقى معي؟ هذه الدمدمات الغامضة في مثل هذه الساعة الحاسمة استنفذت صبره جولييت. إني أمقت الكلمات إلى الأبد ودائماً». نظرت إليه بإخلاص. وقد تورد خداها وتدلت شفتاها المنفرجتان قليلاً، وكأنّها فتحت الباب الصحيح. كونزاك يجلس أمام البيانو يعزف معزوفة ماتشيل التي عزفها ليلة قدوم رجال الدرك وهو يقول لها: «ابق معي لحظات أخرى فقط ».

أصبح الآن بوسع جولييت أن تفهم بوضوح شديد بأنّه توجد لحظات فقط، بأنّ الليلة، السفينة، الحقيبة، بيروت، قرارها. لم تكن تعني لها شيئاً. تلك العزلة اللعينة كانت في انتظارها التي لن يجد كونزاك أو كابرييل سبيلاً إليها. وقد تملكتها السعادة بذلك وملأتها بالقوة. ولم يعد أمام كونزاك المندهش أمام امرأة محطّمة، بل كانت تقف أمامه سيدة يوغونولوك وقد أصبحت أكثر جمالاً من قبل. ضمّ جولييت إليه. وربما للمرة الأولى أخذ رأسها يتنقل من كتف إلى كتف لكنّه لم يعبأ بذلك، ومرّت الكلمات الغريبة التي بدا أنّها تدمدمها في نشوة حالمة من أذنيه دون أن يسمعها.

وصل الرجال إلى المكان الذي أصبح بإمكانها أن تراهم منه. كانت ساتو ما تزال لا تعرف ماذا سيحدث، إذ كانت تقف على بعد ياردات قليلة من المكان الذي تجري عليه عملية الحب. لكنّها كانت تشعر بخمول شديد لكي تزحف وراء الشجيرات لتراهما عن كثب. اقترب الرجال. كانوا يسيرون ببطء، وتمكنت ساتو من تمييز قادة المجلس- دير هايكازون، باكراديان أفندي، القس آرام. وكان يسير وراءهم المختار توماس كبوسيان والمعلم أوسكانيان وبعض وجهاء قرية بيتياس.

وكان هؤلاء قد انتهوا للتو من الحديث حول أمر هام وخطير، وكانت ترتسم على وجوههم علائم الكآبة. فقد كانت لديهم كل الأسباب التي تدعو لذلك. إذ كان وضع الغذاء شديد الخطورة، وكانت القطعان في تناقص مخيف بالاضافة إلى الجرايات. وعلى الرغم من جهود توماسيان الحثيثة، فلم يتم إحراز أي تقدم بشأن صيد الأسماك بالاضافة إلى الحمّى الجديدة التي تفشّت في المعسكر وأخذت مساراً يثير الفزع. فقد لقي البارحة فقط أربعة مرضى بالحمّى في الغابة المنعزله. وكان الطبيب بدروس لا يكاد يقوى على تحريك ساقيه الصغيرتين الضعيفتين اللتين قوسهما الزمن. فقد كان هناك أكثر من خمسين جريحاً مستلقين في كوخ المستشفى وحوله وعدد لا يقل عن ذلك في الأكواخ الخشبية، وكان هؤلاء محرومين من الأدوية أو الضمادات المناسبة وقد تُركوا وشأنهم وسلّموا أمرهم لله. والأسوأ من كل ذلك، كان هذا الاستياء المتنامي نتيجة غير متوقعة للنصر، وقد تملّك جميع الرجال. ولاشك أن الحرارة التي نجمت عن الحريق الهائل والتعب حتى درجة الاعياء الذي انتاب الجميع ونقص اللحم كلها أسهمت في ذلك. والسبب الأكثر عمقاً هو أنّ الحياة هنا لم تعد تُحتمل. فقد حدثت خلال الأيام القليلة الماضية وباستثناء حادثة كيلكيان عدة مشاجرات استخدمت فيها المدى. وقد أرغم كل هذا القادة على ايلاء مزيد من الاهتمام أكثر من قبل إلى الجانب البحري من الداملاجيك فعلى هذه المصطبة التي كانت بعيدة عن جميع هذه الأحداث كانت ترفرف لافتة كبيرة «أرمن في حاجة للمساعدة». وكان اثنان من الكشّافة يتمركزون باستمرار أسفلها يرصدون البحر لمعرفة أية سفينة عابرة. فهل ينوي الله أن يترك البحر مهجوراً، لكي يحرم من مسيحييه القابعين على جبل موسى من ذلك الأمل الضعيف في البقاء الذي بقي لديهم؟ وقرر المجلس أن يعزز من هذه المراقبة وأنّه يجب أن تتمّ بواسطة رجال راشدين.

ساعد العشب الطري المنتشر في هذه المنطقة المرتفعة على عدم صدور صوت وقع أقدام الرجال وهم يتقدّمون. وعندما استدارت ساتو إلى جانبها، كانوا قد أصبحوا على مسافة قريبة منها تقريباً. وراحت تلوح لهم بيديها. في البداية لم يعرها أحد أي اهتمام. فقد تجاهل الجميع وجود ساتو عندما رأوها وأشاحوا بوجوههم عنها. إذ كانت ساتو شخصاً «لا تمس» وكان ينتاب الجميع هذا الضرب من الشعور على الرغم من أن التعاليم المسيحية تقول بأن جميع مخلوقات الله تتساوى أمامه. لكن توماس كبوسيان الذي كان يسير وراءهم توقف كذلك وراحوا ينظرون إليها. التمعت عينا ساتو واختجلت ساقاها الرفيعتان تحت ثوبها من الاثارة. وظلت تلوح لهم بيديها مرات ومرات. وسرعان ما تلاشت الرغبة في تجاهلها فتقدّموا نحوها وسألها دير هايكازون بفظاظة ماذا كانت تفعل هنا وماذا تحمل في جعبتها. اختلج وجهها الأصفر الشاحب الغجري، وأخذت ترف رموشها في بأس معذب كما لو أنه كان من المستحيل الاجابة. بل راحت تشير باستمرار نحو البحر. نظر الرجال إلى بعضهم البعض وتبادر إلى ذهنهم جميعاً نفس التساؤل: «سفينة حربية؟» ضربها دير هايكازون بعصاه ضربة خفيفة وقال لها: « هيا! سيري أمامنا وأرينا ما رأيت ». وأخذت تقفز أمامهم بافتخار ثم أخذت تجري، ومن حين إلى آخر، كانت

تتوقف لكي تشير إلى الرجال. وفي بعض الأحيان كانت تضع يدها على فمها طالبة منهم الصمت أو عدم احداث ضجة بأقدام. فامتثلوا لذلك وهم مفعمون باثارة غريبة وأمسكوا عن الكلام. وسار الجميع بحذر على رؤوس أصابعهم. ثم وصلوا إلى كتلة كثيفة من الشجيرات الملتفة الكثيفة التي يتخللها فجوات كثيرة. وكان يجري عبرها جدول من الماء ليسقط بشكل شلال من فوق الجرف.

اتخذت ساتو بعناية ماهرة طريقاً فوق الأعشاب بحيث أنّ الرجال وجدوا فجأة أنهم خرجوا إلى مكان مفتوح صغير ازاء البحر. وتملّكت الدهشة بسرعة خاطفة جولييت وكونزاك اللذين ظنا نفسيهما في مأمن عن العيون أكثر من ذي قبل. ووصل كابرييل في الوقت الذي استوى فيه ماريس واقفاً وراح يسوي ثيابه. أما جولييت فبقيت جالسة ولم تأتي بأي حركة. وكان كتفاها عاريتين وشعرها اشعثاً مدلى فوق وجهها وكانت أصابعها مغروزتان في التراب وأخذت تدق وكأنّها امرأة عمياء إلى كابرييل. إذ لم تكن تراه بعينيها بل بكل أحاسيسها. ومرّ الحدث بصمت تام. كونزاك الذي تراجع عدة خطوات تابع هذه الإجراءات بابتسامة دقيقة منتصرة. أما الغرباء ولاسيما دير هايكازون فقد أداروا ظهورهم نحو المرأة وأخذوا يحدقون ببعضهم وكأنّهم وجدوا أنه من المستحيل تحمل هذا العار ولو لحظة أخرى. فقد كان الأرمن يتسمون بالعفة. إذ أن الشعوب ذات الدم الحار تميل دائماً نحو العنف. وهؤلاء الناس لم يكونوا يقدسون شيئاً كتقديسهم للزواج، ولم يكن ليمنع هؤلاء الرجال – الذين أداروا ظهورهم خجلاً – باكراديان لو قام بوضع حد لهذه الفضيحة برصاصة من مسدسه. ومن المؤكد فإن دير هايكازون أو القسيس لن يفعلا ذلك، رغم أنه أمضى في سويسرا ثلاث سنوات. أما هرانت أوسكانيان فقد وقف الأستاذ الغجري الوجه كان على وشك أن يرفع فوهة البندقية قي فمه، وكأن عينيه كانتا تبحثان عن الدقيقة الملائمة للضغط على الزناد. لكن شيئاً من هذا القبيل لم يحدث. ولم يسمع أولئك الذين أداروا ظهورهم وهي تنطلق من مسدس باكراديان وعندما استداروا بعد لحظة من الزمن رأوا كابرييل وهو يمسك يد المرأة ويساعدها على النهوض. حاولت جولييت أن تسير، إلا أن قدميها لم تسعفاها فأسندها كابرييل من أسفل كوعها وراح يقودها بين الشجيرات مثل شخص يقود طفلاً.

وأخذ الرجال يراقبون هذا الأمر اللامعقول بعيون لا تغفر. ودمدم دير هايكازون بضع كلمات فانسحب الجميع من المكان ببطء وأخذت ساتو تدور حول القسيس. وكان كبير الشعب يدمن لها بهذه الخدمة المفيدة ولم يلق أحد منهم نظرة أخرى على الغريب الذي بقي واقفاً لوحده. أما ساتو فقد تكفلت بالباقي. فقد كان هذا انتصاراً ثلاثياً بالنسبة لها. إذ أحدثت جرحاً بليغاً لكابرييل لن يبرأ منه بسهولة، وثانياً، فقد أصبح لديها الحق التام في اعتبار نفسها عضواً مفيداً في مجتمع فاضل يحب النظام بعد أن كشف اللثام عن هذه الفضيحة وثالثاً أنّه يوجد بحوزتها معلومات رئيسية وهامة. فأخذت تستدرج فتيات المدرسة الناضجات باقتراحها التسابق فيما بينهن بـ « هل تعرفين شيئاً أو شيئين » ثم تنضم إليهن فتيات أخريات. فلقد كانت ساتو تجيد فن

الصحافة بالفطرة. وتأخذ في رواية قصتها من الألف إلى الياء، وكان ينتابها خدر لذيذ عندما تجد نفسها مركز الاهتمام. وأخيراً كانت تصور لهن أبشع الصور مستخدمة كلمات فظّة. وتناهى إلى ستيفان قصة العار الذي لحق بأمه تحتل مركزاً سامقاً يعلو كثيراً ساتو والرعاع الذين يلتفون حولها. فقد كان يعتبر أمه بمثابة إلهة مغشاة بهالة. وانتاب ستيفان قلق شديد عندما بدأ الرعاع يحيطون به وتبدأ ساتو بإفراغ ما بجعبتها. وفجأة لم تعد تتأتى في كلامها، بل راحت تتكلم بطلاقة انسان عارف ببواطن الأمور. فكما أن الفشل يفيد الروح، كان النجاح يفعل كذلك للجسد في كلام ساتو. اتسعت عينا ستيفان ولم يكن لديه شيء يقوله.

لكن الأمر لم يحتج إلى ثانية أخرى لكي ينقض عليها ويضرب رأسها بقوة فراح الدم يسيل من فمها وانفها. لكن ساتو، شأنها شأن البدائيين أصيبت بالذعر الشديد عندما رأت الدم يسيل منها. فراحت تطلق صرخات حادة مرعبة كما لو أنّه قد قضي عليها. وارتفعت أصوات أطفال آخرين « لقد ضربت الفتاة »، وهكذا أمكن تحرير شعور طال كبته بكراهية الأجانب. تلك المرتبة الملكية التي مُنحت بصمت إلى آل باكراديان لساعات عديدة بعد صد كل هجوم ثم سرعان ما يصبح في طي النسيان. وكان يبقى شعور أعمق بالكراهية للأشخاص الذين «لا ينتمون إليهم ». وانقض الصبية على ستيفان وتلا ذلك مشاجرة كانت عبارة عن نصف مطاردة من ساحة المعسكر إلى ساحة المصلى. وأخذ هاكوب يساعد صديقه ستيفان، فكان يقفز قفزات واسعة وغاضبة ليحول بين ستيفان وبين مطارديه. وعندما أمسك اثنان بذراعيه أبعدهما عنه وبدا أنّ ألماً فظيعاً يكاد يخذقه وراح يردّد: «لا أستطيع أن أعود إلى البيت ثانية ».

انتهى الشجار بين الأطفال ليبدأ بين زوجات المخاتير وعلى رأسهن مدام كبوسيان. فقبل أن تميل الشمس إلى الغروب أصبح المعسكر كلّه يعرف هذا الأمر. فقد كانوا يعرفون كل شيء بالإضافة إلى شيء من الزيادات لإثارة مزيد من السخط. ماذا؟ هل كان ذلك حقاً ممكن؟ هؤلاء الناس بعد يومين فقط من نجاتهم من الموت المحقّق والوشيك هل يمكن أن يشغلوا أنفسهم بفضيحة كهذه وهم في هذه المحنة البائسة؟ ولم يكن هناك سوى جواب واحد عن كل ذلك: لقد كانوا أجانب. فقد غيرت قيادة كابرييل « كل شيء ». إذ أن الملكة قرينة الملك يجب أن تنحى عليها اللائمة مرتين ويجب محاسبتها حساباً عسيراً إذ أنّ جولييت لم تأثر إزاء زوجها فقط بل إزاء شعبه كلّه. وكان كل شيء تحت سيطرة مدام كبوسيان. فقد آن الأوان لكي ترد على سيدة يوغونولوك(التي كانت تبدي لها لطفاً منقطع النظير) للشعور بالنقص الذي كان ينتابها أثناء حفلات الاستقبال المسائية. فضلاً عن ذلك فقد أصبحت الآن الفرصة متاحة أمام زوجة العمدة لكي تستعيد موقعها كزعيمة للمنطقة. فهي زوجة العمدة التي رأت بعينين مندهشتين داخل الخيمة الفاخرة التي طالما دعيت إليها حتى ملّت من الذهاب إلى هناك. تلك المرأة وهي تعرض محتويات خزنها وصناديقها الممتلئة بالمواد. كميات ضخمة من الارز والقهوة وكعك الزبيب واللحم المعلّب والسردين. فقد كانت تتكدّس في تلك الخيمة جميع أنواع المواد الأوربية فضلاً عن كميات لا تنضب

من الحلويات والشوكولا والفواكه المجفّفة. وأهم من كل هذا وذاك أرغفة الخبز المعددة من أفضل أنواع الدقيق والبسكويت.

عندما وصل دير هايكازون إلى الساحة تقدمت منه مدام كبوسيان وخاطبته:« يا قسيس يجب أن تنزل بهم العقاب. حاول أن يبعدها عن طريقه» «اهتمي بأمورك يا امرأة» لكنّها وقفت في طريقه بشكل وقح وقالت: « هذا الأمر يهمني يا قسيس. ألا يوجد عندي فتاتان متزوجتان وكنتان؟ أنت تعرف ذلك بنفسك! وأليست عيون الرجال أكثر جشعاً من عيون الكلاب المسعورة؟ وقلوب النساء أكثر مكراً؟ فالجميع هنا يعيشون وينامون في كومة واحدة في هذه الأكواخ. فكيف يمكن للأمهات أن يحافظن على النظام وهن يرين هذا المثال أمامهنّ؟ ». دفعها دير هايكازون قليلاً وقال: «لا يوجد عندي متّسع من الوقت لكي اسمع ترهاتك: هيا ابعدي عن طريقي». لكنّها أخذت تقول وقد احمرّت عيناها: « يا قسيس؟ لقد أبعد المسيح الموت عنا حتى الآن. لقد حارب إلى جانبنا هو وأمه تقدّس اسمها. لكنهما الآن أُهينا بخطيئة مميتة. وهما لن ينصرانا على الأتراك إذا لم نكفّر عن هذه الخطيئة ». وهنا شعرت مدام كبوسيان أنها لعبت الورقة الرابحة. ونظرت حولها وقد تملكها شعور بالانتصار. وظل زوجها توماس واقفاً بجانب القسيس وعينه الصغيرة الحولاء ترى الجميع ولا ترى أحداً. لكن دير هايكازون لم يرد على المرأة الخبيثة بصورة مباشرة بل خاطب الجمع المتجهمر أمامه:

– «نعم. هذا صحيح. فقد أنقذنا المسيح المخلّص حتى الآن. ولكن هل تعرفون كيف؟ بانزال معجزة في الوقت الذي احتجنا فيه إلى معجزة. وذلك بإرسال كابرييل باكراديان، ذلك الضابط الشجاع الذي يعرف بأمور الحرب وأساليبها جيداً، وإلا لكان قد قضي علينا منذ أمد بعيد. أما أولئك الذين ما زالوا على قيد الحياة فلديهم العقل والشجاعة لتقديم الشكر له، ومن الأفضل أن تفكّروا جيداً بذلك وليس بشيء آخر.

واجتمع عدد من القادة في كوخ دير هايكازون للنظر في هذه الحالة الصعبة والخاصة. ونظراً إلى أن هذا الأمر شكّل صعوبة أخلاقية عضة، وبما أنّ دير هايكازون كان يتمتع بسلطة كبيرة على مثل تلك الأمور فقد أوكلوا إليه بدون مناقشة مسؤولية اتخاذ القرار بهذا الأمر فطلب من كريكور أن يذهب إلى كونزاك ماريس الذي كان يُقيم في بيته والذي كان قد أحضره إلى يوغونولوك وأن يتوجه الطبيب بدروس ألتوني إلى كابرييل لكونه أقدم صديق له وربيب العائلة. وشرح دير هايكازون لكريكور مهمته. فقد كان عليه أن يعثر على الضيف الأجنبي على الفور وسيساعده في ذلك اثنان من عمال الارتباط وأن يعلمه بصراحة أنّه يجب ألايقترب من المعسكر وأن يهرب بأسرع ما يمكنه وذلك حرصاً على حياته. لكن كريكور اعترض على ذلك قائلاً أن مهنته صيدلي وليس ساعياً في حانة إلا أن دير هايكازون ردّ عليه بصورة لاذعة: «أنت الذي أحضرته والآن يجب عليك أن تتخلّص منه». أما مهمة بدروس فكانت أسهل بكثير. فقد كان

عليه أن يحذر كابرييل من الحالة العامة التي وصلت حداً من الإثارة وأن يلازم جولييت في خيمتها في الوقت الحاضر.

أوصل كابرييل جولييت إلى الخيمة وهو يسندها حيناً ويحملها حيناً آخر. ومدّدها على السرير وقد فقدت وعيها وكانت عيناها شاخصتين. وبذل كابرييل جهده لإعادتها إلى وعيها، فأخذ يمسح وجهها بالعطر، ثم يهزّها ويدعك صدغيها. لكن روحها السعيدة نأت عنه كثيراً. فقد كانت الحمّى تعتمل في دم جولييت منذ أيام عديدة. لكنّها في الساعات القليلة الماضية انطلقت مثل نبتة استوائية وبدا جلدها متورماً، وأخذ تنفسها يزداد سرعة وبدا أن هذه الحياة أخذت تقترب من نهايتها بسرعة.

ولما لم يستطيع إيقاظها، انحنى كابرييل فوق جولييت، وكان يحدوه أمل كبير في أن تستعيد وعيها إذا ما تخلّصت من ثيابها فراح ينزعها عنها. فمزق عباءتها وجلس عند مؤخرة السرير ووضع قدميها فوق ركبته. كانتا ثقيلتين متورّمتين لذلك وجد صعوبة في نزع حذائها وكلساتها. حتى أنه لم يلحظ قط غياب هذه العواطف الكامنه فيه. لم يشعر كابرييل بهول المفاجئة، وبدا وكأنه يسعى لتحقيق هذا المصير. وكأن الأمر لايصدق فقد أدى عدم اخلاص جولييت له ثم انهيارها إلى التقائهما ثانية بعد أن افترقا مدة طويلة. وقف ينظر إلى جسدها الأبيض بينما قفزت إلى رأسه مئات الأفكار، لكنّها ما كانت تكاد تتشكّل حتى تعود وتتلاشى. يا إلهي ماذا يحدث. لاحظ دلو ماء النبع الموجود دائماً هناك في ركن الخيمة فأخذ يغمس المنديل فيه. لم يكن الأمر سهلاً. فقد وجد من الصعوبة أن يرفع جسدها المتصلّب. وفكّر كابرييل في استدعاء إحدى خادماتها اللاتي أصبحن يجئن بين الفينة والفينة بعد أن اكتنف سيدتهن الغموض كما توقفت عن مكافأتهنّ تقريباً لكن الخجل حال دون ذلك. إذ يجب أن يبقى وحيداً الآن. وعندما جاء الطبيب العجوز وجد كابرييل يحدق بغموض إلى جولييت الفاقدة الوعي. وبنظرة واحدة، خامر بدروس الشك في أنّها غائبة عن الوعي أو أنّ ضميرها يعذّبها لكنه اكتشف بنظرته الثانية أنّها كانت مصابة بالحمّى، وهو المشهد الذي ألف رؤيته في عيادته. ارتفاع مفاجئ في درجة الحرارة وغياب عن الوعي الذي يأتي عادة بعد فترة طويلة نسبياً من المرض والذي قلّما يتمّ ملاحظته.

أنهض المريضة على السرير فبدت عليها على الفور علائم القيء وصعوبة في التنفس. كان الأمر واضحاً. لكنه عندما فحص جلدها عند الصدر وأسفل البطن حيث كانت توجد علائم الإصابة بشكل أكبر، وجد ثلاث أو أربع بقع حمراء صغيرة فقط. وكان على الطبيب أن يطلب من كابرييل أن يغادر الخيمة وعدم العودة إليها لكنّه لم يفه بشيء. فقد لاحظ عيني كابرييل الغائرتين في محجريهما، كما لم ينقل له رسالة دير هايكازون أو يبحث معه الاضطراب الذي حدث بين سكان المعسكر. ومن الناحية الأخرى فقد طُلب منه أن يريه صندوق الأدوية الذي كانت جولييت قد أحضرته معها. كان صندوقاً كبيراً لكن ثلاثة أرباعه كان فارغاً. فقد كانت قد أرسلت معظم محتوياته إلى المستشفى. ثم

وضع بدروس علبة معدنية في يد كابرييل الذي كان ما زال مشدوهاً وقال له أنه يجب أن يستخدم هذا الدواء إذا ما بدأ نبضها يتلاشى، وإن زوجته ستأتي لرعايتها غداً. ولم يقلق كابرييل بشأن فقدان جولييت وعيها وهذيانها. فقد حدس أنها النتيجة الطبيعية لارتفاع درجة حرارتها. وحسب مجريات الأمور فقد كان ذلك نعمة لها. غمس بدروس كأساً في الدلو وراح يبحث عن ملعقة، ثم بدأ يحاول إقحام بعض قطرات الماء في فم جولييت لكنه أخفق في ذلك فقال هامساً أنّ يديه أصبحتا ترتعشان ولم يعد كفؤاً للعمل.

قال لكابرييل: «يجب أن تجعلها تشرب باستمرار حتى لو لم تستعد وعيها». هز زوج جولييت رأسه ولم يجب. نظر الطبيب حوله في الخيمة الضيقة وقال: «يجب أن يبقى أحد معها». ولما بدأ الظلام يحلّ شيئاً فشيئاً أشعل المصباح الزيتي ثم أمسك يد باكراديان وقال: «حسن. وسيكون الأمر هاماً إذا ما شنّ الأتراك هجوماً أخرى هذه الليلة؟».

ابتسم كابرييل ابتسامة مصطنعة وقال: «لقد أحرقنا جبل موسى ولن يشنوا هجوماً آخر». «لا.. للأسف» وكان في نبرة ألتوني الحادة شيء من الخيبة العميقة. وذهب وقد احنت السنون ظهره دون أن يتفوه بأي كلمة تظهر تعاطفاً مع هذا الرجل الذي ساعده في رؤية نور الدنيا. إذ لم يعد معنى لكل الكلمات سواء كانت طيبة أو سيئة وأصبحت عديمة الجدوى. ورغب كابرييل في الخروج معه قليلاً لتنشّق هواء نقي. إلا أنّه سرعان ما عاد. ولو اختار الأتراك أن يشنّوا هجومهم في تلك اللحظة على جميع خنادقه فلن يكون بإمكانه إرغام نفسه عل الخروج من الظلام.

استلقى كابرييل على الأريكة إزاء سرير جولييت وقال في نفسه بأنه لم يشعر بتعب شديد مثل اليوم. فهذه المعارك الثلاث وما صاحبتها من إراقة دماء، والليالي التي لم يغمض له فيها جفن والتنقّل المستمر بين مراكز المراقبة والخنادق وهذه الأيام الموحشة على جبل موسى أصبحت كلها تنوء بها في كل ثانية. وغلبه نعاس شديد فاسترسل في النوم. وبينما هو غارق في النوم تراءى له وجود اسكوهي وهي تقف إزاءه وتنظر إليه. أفاق بصعوبة ونهض واقفاً على الفور.

– «لايمكنك البقاء هنا يا اسكوهي! حتى ولا ثانية. فمن الآن وصاعداً لن يكون بوسعنا أن نرى بعضنا».

اتسعت عيناها وامتلأتا غضباً وقالت: «إذا مرضت، ألا يجب أن أصبح مريضة كذلك؟».

– «ولكن ماذا بشأن أوسانا والطفل؟».

اتجهت نحو السرير ووضعت كفيها على كتفي جولييت. وبهذه الوضعية استدارت إلى كابرييل. « هناك! الآن لا أستطيع العودة إلى خيمتينا. لا أستطيع أن ألمس أوسانا ثانية بل وحتى الطفل».

حاول إبعادها «وماذا سيقول آرام توماسيان عن ذلك؟ لا.. لا أستطيع أن أجيبه يا اسكوهي. هيا يا اسكوهي من أجل أخيك».

انحنت فوق وجه المريضة الفاقدة الوعي وقالت: « ولكن لماذا تبعدني؟ أخي؟ لم يعد يهمني شيء بعد الآن». جاء من خلفها وقال: « يجب ألا تفعلي ذلك يا اسكوهي ».

بدت على وجهها تعابير ساخرة «أنا؟ من أنا؟ أنت القائد. وإذا ما مرضت فستكون نهايتنا جميعنا» وراحت تجفف شفتي جولييت بمنديلها وقالت: «عندما وصلنا من زيتون. كانت جولييت في غاية اللطف معي. ولدي واجب يجب علي أن أؤديه لها. ألا ترى ذلك؟ ». وقبّلها من شفتيه في شعرها، لكنّها شدّته إليها بكل قوتها» سرعان ما سينتهي كل شيء. ولا أريد أن أفقدك. أريد أن أكون معك» كان ذلك أول تعبير مكشوف عن حب اسكوهي وراحا يتعانقان بقوة. أما جولييت فكانت تتنفس بصعوبة، وكانت تنطلق من بين شفتيها من حين وآخر زفرة طويلة.

قرر كونزاك ماريس عدم الانتظار أكثر من ذلك. هز كتفيه وردد: «الماضي ماضي» ومع ذلك لم يكن من السهل أن يخرج من كل هذا بسهولة. هل كان قد أحبّ جولييت أكثر مما يظن؟ هل كان ثمة إحساس بالذنب يغلف حريته؟ ففي الأيام القليلة الماضية كان سلوك المرأة يتسم بعدم المسؤولية. وكان عذابها يحرك عطفه ويثير فيه رغبة شديدة لمساعدتها وحمايتها. ولكن الأمور انتهت نهاية سيئة. وأكثر من مرة ترك كونزاك مخبأه وسار باتجاه الخيام الثلاث للقاء كابرييل والتحدّث بشأن جولييت، لكنّه في كل مرة كان يعود أدراجه.

وعندما شقّ كونزاك طريقه بين الأشواك والشجيرات المخصصة دوت أربع رصاصات متتالية في الفضاء وهوت بقربه. وبسرعة انبطح على الأرض وأخرج مسدسه. أخذ قلبه يخفق بقوة، ثم قفز وأمسك حجراً كبيراً ورماه إلى أسفل الوادي، فصدر صوت دحرجة. فظن مطاردوه أنهم أصابوه وأطلقوا عدّة طلقات وراءه بينما أخذ كونزاك يبتعد عنهم وقد أسلم ساقيه للريح حتى وصل إلى النقطة التي ينحدر عندها الجبل إلى قرية هاباسته، توقف وهو يلهث. ابتسم وتحرّكت عيناه تحت حاجبيه القصيرين المقوسين وهو يرصد الطريق أمامه.

في هذه اللحظة كانت جولييت ما تزال تتأرجح بين الغيبوبة والنسيان ألم يقل أحدهم «نعم. اخلدي إلى النوم يا جولييت؟ » وصوت من؟ حسن. هل أخذوا يردّدونها؟ أم قالوها فقط...؟ نعم اخلدي إلى النوم يا جولييت. فتحت عينيها. وبعد نصف دقيقة عرفت أن هذه هي الخيمة.. وكابرييل واسكوهي. وكان من الصعب جداً عليها أن تحرك لسانها. لماذا لايتركنها تلك النساء وشأنها؟ أشاحت بوجهها وقد أصبح ثقيلاً كالجبل وقالت: «لماذا تتركون المصباح يشتعل؟.. أطفئوه.. إن رائحة الزيت كريهة».

لم تر عينا جولييت شيئاً. فقد كانت تبحث عن الأشياء غير الموجودة ولكن شيئاً فظيعاً بدا واضحاً لها. وبدا أنّها استعادت كامل قوتها فأزاحت الشرشف عنها وألقت بساقيها خارج السرير وصاحت: « ستيفان! أين ستيفان؟ أحضروا لي ستيفان».

أرغم كابرييل واسكوهي جولييت على الاستلقاء ثانية لكنّها قاومتهما. فأخذ كابرييل يلاطفها

ويهدئ من روعها قائلاً: «إنك مريضة يا جولييت. يجب ألا يراك ستيفان فهذا سيكون خطيراً عليه، كوني عاقلة». إلا أن حياتها وسمعها وإدراكها تمحورت كلها في صياحها الذي انطلق من فمها: «ستيفان، ستيفان، أين أنت؟ » فخرج كابرييل على الفور من الخيمة واتجه تحت ضوء القمر إلى الخيمة الأخرى حيث ينام ستيفان. لكنّها كانت خاوية. أشعل باكراديان ضوءاً. كانت البطانيات متدلية من على السرير الذي وضعت عليه حقيبة الصبي مفتوحة وقد تدلّت منها ثيابه الداخلية وبذلاته وكلساته. كما فُتح صندوق الطعام باستخدام القوة ونُهبت محتوياته. وبعد أن بحث بعناية ثانية حول الخيمة لعله يجد أي أثر له، خرج ببطء من الخيمة ووقف خارجها ورأسه محني قليلاً. وراح يفكّر في الأمر. ماذا يعني ذلك؟ لعل الصبية يخططون لعملية غبية أخرى. لكنّه كان في غاية الهدوء كما كان عهده في اللحظات الحاسمة. وفي خيمة الخدم وجد كريستوفر فقط فأيقظه «استيقظ يا كريستوفر بسرعة. يجب أن توقظ أفاكيان. لعلّه يعرف شيئاً عن مكان ستيفان. إنه مفقود ». قالها بدون إثارة واستغرب الخادم لهذا الهدوء بعد كل ما حدث. واتجها نحو المواقع الشمالية بحثاً عن أفاكيان ثم عاد كابرييل إلى خيمة جولييت، حيث كان يسود الهدوء. وأخذ كابرييل يفذ الخطى بحيث وجد كريستوفر أنه من الصعب اللحاق به والمشي بجانبه.

الكتاب الثالث

الكارثة- الانقاذ- النهاية

«من غلب فإني أوتيه المنّ الخفي وحصاة بيضاء مكتوباً عليها
اسم جديد لا يعرفه أحد إلا الذي يأخذه»

سفر الرؤيا 2 – 17

1- تدخّل الآلهة

«هاك يا عزيزي الدكتور لبسيوس، قسماً ضئيلاً جداً من ملفنا عن «القضية الأرمنية».

وهكذا وضع المستشار الملكي الدمث يده البيضاء المعروقة على كومة من الملفات يعلوها الغبار فوق الطاولة، اختفت وراءها ملامحه الارستقراطية وكانت نوافذ هذه الغرفة الخاوية بصورة ملحوظة طويلتين ومفتوحتين على مصراعيهما. وهبت نسمة صيفية كسولة من حديقة وزارة الخارجية.

جلس جوهانس لبسيوس متشنجاً بعض الشيء على الكرسي وقد وضع قبعته على ركبته. فلقد مر شهر منذ أن أجرى لقاءه الذي لا ينسى مع أنور باشا، إلا أن القسيس بدا أنه تغيّر بشكل يثير الفزع.

فقد بدا شعره خفيفاً ومتفرقاً، ودب الشيب في لحيته أكثر مما سبق وبدا وكأن أنفه قد تقلص وأصبح مدبباً أكثر، ولم تعد عيناه مشعتين. وتلاشى منهما بريقهما الحالم وحلّ مكانهما نظرة يشوبها الريب الساخر. هل يمكن للمرض في دمه أن يكون قد جعل صحته تسوء إلى هذه الدرجة في هذه الأسابيع القليلة؟ أم كانت اللعنة التي حلّت على الأرمن هي التي أخذت تلتهم ذلك الألماني؟ أم كان مقدار العمل الضخم الذي قام بتنفيذه في وقت قصير جداً؟.

حملة جديدة شديدة التنظيم ضد الموت والشيطان. كما كانت تتوفر أموال كافية، وأمكن استمالة جميع أصحاب النفوذ وكل ما تبقّى الآن الحصول على رد بالقوة من رجل الدولة الأشبه بأبي الهول.

وراحت عينا الكاهن من خلف نظارته ترمق باحتقار أكداس الوثائق، ورفع حاجبيه ليس عن الدهشة بل لسقوط نظارته الأحادية الزجاجة ذات الإطار الذهبي.

- «صدقني لا يمر يوم دون خروج بعض التعليمات من هنا إلى السفارة في القسطنطينية. ولا تمرّ ساعة لا يبذل فيها سفيرنا جهداً كبيراً لكي يحدث تأثيراً على طلعت وأنور بشأن القضية الأرمنية البشعة».

وعلى الرغم من معظم هموم الدولة الملحة، فإن المستشار نفسه يقف وراءنا بقوة في كل هذا، أنت تعرفه، رجل أشبه بماركوس أورليوس.

– «آه وبالمناسبة يا دكتور لبسيوس، لقد طلب مني هيريشمان هولويج الاعتذار ومن سوء الحظ أنه من المتعذر عليه أن يراك اليوم».

مال لبسيوس إلى الوراء، حتى أن صوته الجهوري أصبح مضرباً وأكثر حدّةً، «وما هي النجاحات التي سينقلها دبلوماسيونا أيها المستشار؟ ».

راحت اليد المرمرية تبحث في الوثائق، «انظر هنا، كل هذه من شوبنر ريختر في أرضروم، كل هذه من هوفمان في اسكندرونة، وروسلر القنصل الرئيسي في حلب».

– «لماذا لايفعلون شيئاً سوى إرسال التقارير». «إنهم يفعلون ما بوسعهم لإنقاذ الأرمن.والسماء تعرف كم عدد الاشخاص التعساء الذين تمكن روسلر وحده ان ينقذهم. وما هو الشكر الذي يحصل عليه من جهوده للحفاظ على إنسانيتهم؟» فالصحافة الانكليزية تصفه بالّدموم(كلب ليتعقب طريدي العدالة) وتقول إنه هو الذي حرض الأتراك على مذابح الأرمن في مرعش. ماذا بوسع المرء أن يفعل؟». وأخذ لبسيوس الآن يبذل ما بوسعه ليقابل ويثبت العينين اللتين كانتا تجيئان وتذهبان من وراء غمامات من الورق «أعرف ما سأفعله يا مستشار، إن روسلر والآخرين أشخاص لطيفون جداً. أعرفهم وخاصة روسلر فهو في غاية اللطف حقاً. ولكن ماذا بوسع قنصل مسكين غير هام أن يفعل إذا لم يدعم بشكل لائق؟» حقاً ياأيها القسيس، لا أفهم ذلك: أليس مدعوماً بشكل لائق هذا أكثر من اجحاف ». وأبدى د. لبسيوس حركة عصبية بسيطة كانت تنطوي على أن هذا الأمر كان شديد الأهمية. وكان الوقت قصيراً جداً لكي يلف ويدور حول هذا المسؤول، «أعرف تمام المعرفة يا مستشار أنه بذلت شتّى المحاولات. وإني على الرغم بجميع المداخلات اليومية لسفرائنا لكننا لا نتعامل مع رجال دولة ناضجين في اللعبة الدبلوماسية، بل إننا نتعامل مع أناس مثل أنور وطلعت. وكل مسعى ممكن يعتبر لطيفاً جداً بالنسبة لهذه العزب من الناس.»

– «إن إبادة الأرمن هو محور سياستهم الوطنية. وقد توصلتُ إلى هذه القناعة من خلال حديث طويل مع أنور باشا نفسه ولن تشكل المساعي الألمانية في أفضل حالاتها ازعاجاً لهم بل يجب أن تحدث ضغطاً على دمائهم المشوبة بالنفاق ».

ثنى المستشار الملكي يديه وبدت على وجهه الطويل نظرة مستبشر،« وهل تعرف يا دكتور لبسيوس طريقة أخرى للتدخل في السياسة الداخلية لبلد صديق وحليف؟» أمعن جوهانس لبسيوس النظر في قبعته كما لو أنه كان يخزن فيها مجموعة من الأوراق. لكن يا إلهي! وما نفع هذه الأوراق. بذل جهداً لكي يستجمع قوته ويدخل في الموضوع باقتضاب وبمنهجية.

– «قبل كل شيء يجب أن نعرف حقيقة ما حدث ويحدث للتو في تركيا. إذ يجري اضطهاد ضد الأرمن لدرجة أنه لايقارب بأعمال الاضطهاد التي قام بها نيرون، علاوة على ذلك فهي أسوأ جريمة في التاريخ المسجل حتى الآن، وهذا بحد ذاته يعني شيئاً ما، أظن أنّك ستقر بأن...». لكن فضولاً غامضاً أضاء هاتين العينين الشاحبتين للمستشار الملكي، وكان صامتاً بينما تابع لبسيوس

حديثه. ولا ريب أنه تناهى إليه منذ أن هزمه الباشا معلومات أكثر قليلاً ولكن ما هي الطريقة للتعامل مع السياسيين.

- « يجب ألا ننظر إلى الأرمن على أنهم نوع من قبيلة شرقية نصف متوحشة، إنهم مثقفون ومتعلمون ويتمتعون بحساسية غير موجودة غالباً في أوروبا». وأردف د. لبسيوس وهذه ليست بأي حال من الأحوال موضوع سياسة داخلية لكي يقوم الأتراك بتسويتها كما يرونه ملائماً. حتى لا يمكن اعتبار قضية إبادة قبيلة كاملة من الوثنيين قضية تخص المبيدين والضحايا. فعلى أقل تقدير يمكننا نحن الألمان أن نقدمه هو أن نلجأ إلى التوسل أو الحياد اليائس، فأعداؤنا في الخارج يحملوننا المسؤولية.

- «دفع مستشار الملك الوثائق بيده كما لو أنه كان بحاجة إلى قليل من الهواء». سيكون من المأساة بالنسبة للموقف الألماني كبلد مقاتل بأنه مهما كان ضميرنا نقياً أن نحمل وزر شعوب أخرى.

- «كل شيء في هذا العالم يقوم أساساً على الأخلاق وفي الأخير تأتي السياسة». هز المستشار رأسه موافقاً وقال: هذا ممتاز يا سيادة القس وأنا أوافقك تماماً. ففي كل قرار سياسي يجب على المرء أولاً أن يحسب التأثير الأخلاقي ». أحسّ لبسيوس بالانتصار. وشعر بأن عليه أن يستغل ذلك على امقى درجة.

أنا لست هنا كفرد مجرد من القوة يا سيدي المستشار، ولا أظن أنه يتعين على ذكر أنني هنا باسم المسيحية الألمانية كلها. سواء كانوا بروتستانت أو كاثوليك. وأنا أتعرف وأتحدث بالنيابة عن أشخاص ذوي نفوذ مثل هارناك وايسمان وديبيلوس. نظر المستشار بعين من التقدير، وأبدى اهتماماً لكل اسم ذكره القسيس ولكن جوهانس لبسيوس انطلق بغضب.

- «إن المسيحيين الألمان يرفضون الاستمرار في التفرّج وهم مكتوفو الأيدي على جريمة ترتكب ضد المسيحية برمتها. إن ضمائرنا لن تسمح لنا أن نكون متواطئين. إن أمل الامبراطورية يتوقف على رضاء المسيحيين الألمان. وأنا شخصياً أشعر بالقرف والخجل أن تقوم الصحافة المعادية بنشر مقالات عن ترحيل الأرمن بينما ينخدع الشعب الألماني بتصريحات أنور الكاذبة ولا يوجّه له أحد كلمة واحدة. حول مصير أخواتنا في الدين، يجب وضع حد لهذه الحالة المشينة». اندهش المستشار لهذا الصوت التحذيري، وأطبق رؤوس أصابعه على بعضها وقال ببراءة: «ولكن الرقابة؟ إن الرقيب لن يسمح بمثل هذا الشيء! أنت حقاً لا تعرف كم هي معقّدة هذه الأشياء يا سيد لبسيوس ».

- « إنّ أبسط حقوق الشعب الألماني عدم خداعه » افترت عن المستشار ابتسامة وقال:« وماذا ستكون نتيجة مثل هذه الحملة الصحفية؟ توتر شديد على أعصاب الألمان والتحالف التركي، يجب على هذا التحالف أن لا يسمح لنا بأن نكون متواطئين في عين التاريخ. لذا نريد أن تتعرف حكومتنا بأسرع ما يمكن. لماذا لا تطالب في استانبول بالسماح بدخول لجنة تحقيق حيادية من الأمريكان والسويسريين والهولنديين والاسكندنافيين إلى الأناضول وسورية؟ ».

- « أنت تعرف جيداً نوع أقطاب الأتراك الشباب يا سيد لبسيوس، لكي تحكم على نوع الجواب الذي يمكن أن نحصل عليه لمثل هذا الطلب؟».

- «عندئذ يتعين على ألمانيا أن تتخذ إجراءات شديدة».

- «وما هي في رأيك...؟».

- «التهديد بسحب دعمها لتركيا واستدعاء القوة العسكرية الألمانية وسحب الضباط والقوات الألمانية من الجبهات ».

- «أنت تعرف يا سيد لبسيوس، لقد أثبت لي الآن كم أنت برىء».

نهض واقفاً. كان رشيقاً. وكان عدم تقيده بقواعد السلوك يوحي بتعاطف وثقة دائمين. استدار إلى خارطة كبيرة معلّقة على الجدار، خارطة أوروبا وآسيا الصغرى. وكادت يده ذات العروق الزرقاء تغطي الشرق الأدنى تقريباً. «الدردنيل، القوقاز، فلسطين وبلاد الرافدين هي الجبهات الألمانية اليوم يا سيد لبسيوس، أكثر من كونها جبهات تركية. فإذا أسقطت تسقط تركيبة الحرب برمتها معها ونحن حقاً لا نستطيع أن نهدّد تركيا بانتحارنا إلا إذا أردنا أن نكون أغبياء. كما لا أظن أني بحاجة لأن أذكّرك بالأهمية الكبيرة التي يعلقها جلالة القيصر على قوتنا في الشرق. بل أنك لا تدرك أن الأتراك يشعرون أنهم مدينون لنا، بل على العكس فهم يعتبرون أننا نحن المدينون لهم. ولا أدري لماذا لم يعلمك أحد أن مجموعة قوية جداً في اللجنة ستكون جاهزة تماماً في أي لحظة لتغيير الأحصنة والتفاوض مع الحلفاء. ومن الجائر أن تعيش لترى بسهولة أن فرنسا وانكلترا اللتين تثيران كثيراً من اللفظ حول فظائع الأرمن يغلقون أعينهم عن مثل هذه الفظائع غداً». «إنك تقول الحقيقة يا سيد لبسيوس والحقيقة أن الأتراك يمسكون بالأوراق الرابحة في هذه اللعبة بالذات لذا يجب أن نتطلع إلى مصالحنا ونبقى ضمن حدود الممكن». انصت جوهانس لبسيوس بهدوء تام. فقد سمع هذه الحقائق مراراً وتكراراً على لسان أطفال هذا العالم بمنطقية شديدة وكانت دائماً تؤدي إلى نتائج لا تدحض. فمن يعترف بحلقة واحدة في السلسلة يضيع إلى الأبد. لكن القس لم يكن يقبل بكل هذا، فقد أصبح في الأسابيع القليلة الماضية مثل موقفه لا تتأثر بهذه الأمور. ولن يسمح لنفسه الخروج منها.وبعناد ظل متشبثاً بموقفه:

- «أنا لست سياسياً. وليس من طبيعة عملي أن أجد وسائل ممكنة يمكن من خلالها إنقاذ جزء من الشعب الأرمني ولكن من واجبي بصفتي ممثلاً لعدد كبير من المسيحيين الألمان الذين يفكرون بالطريقة التي أفكر فيها أن أطلب فوراً بأن يتم العثور على مثل هذه الطرق قبل فوات الأوان».

- «لا يهم كيف يمكن أن تقبل هذا الأمر يا سيد لبسيوس، فمن الممكن توفير خط أفضل لهؤلاء الأرمن هنا أو هناك ولكن لسوء الحظ ليس بوسعنا أن نغيره». «لا أنا ولا أصدقائي نستطيع قبول وجهة النظر غير المسيحية هذه».

- «أرجو أن تدرك وجود قوى تاريخية تلعب دورها في مصير الأرمن وليس بوسعنا التحكّم بها. إني أدرك فقط أن أنور وطلعت قد استغلا بمكر شيطاني أفضل لحظة ممكنة للعب دور القوى

التاريخية. ابتسم المستشار كما لو أنه جاء دوره ليعرض جزءاً من آرائه الدينية». ألا يقول نيتشه: إنه يجب رمي المتعثرين إلى الحفيض؟ ولكن نيتشه لم يكن ذلك الشخص الذي يقنع جوهانس لبسيوس. فأبدى انزعاجه من التعميمات التي اتخذتها المحادثة فأجاب باقتضاب: « من منا يعرف فيما إذا كان سيسقط أو سيدفع إلى السقوط ».

عاد المستشار ثانية إلى طاولته وألقى نظرة قصيرة أخرى على الخريطة المعلقة على الجدار وقال: «إنّ الأرمن يسقطون بسبب موقعهم الجغرافي. إنه قدر الضعيف والأقلية المكروهة».

– «كل إنسان وكل شعب في وقت أو آخر يصبح ضعيفاً ولهذا السبب يجب ألا يتسامح أحد مع الاضطهاد والظلم إذا ما استثنينا الإبادة كسابقة ».

– «ألم تسأل قط يا سيد لبسيوس أنّ الأقلّيات الوطنية لا يمكن أن تحدث مشاكل غير ضرورية، وفيما إذا كان من الأفضل أن تتلاشى؟ ».

رفع لبسيوس نظارته وراح يمسحها بقوة. وراحت عيناه ترفان بإرهاق وقال: سيدي المستشار ألسنا نحن الألمان نعيش ضمن أقلية؟ ».

– «ماذا تعني بذلك؟ لا أفهم ما تقصده».

إننا نُعتبر أقلية في وسط أوربا الموحدة ضدنا ومعرضون للخطر. ونحن لم نختر جغرافياً بذكاء شديد كذلك. لم تعد تبدو على وجه المستشار اللطافة بل بدا شاحباً وقاسياً. وكانت قد بدأت حرارة منتصف النهار تتسلّل عبر النافذة. «صحيح أيها القس. لذلك فمن واجب كل ألماني أن يعنى بمصير شعبه وأن يفكر بأنهار الدم التي تراق والتي تفضّل أن تدعوها بالأقلية الألمانية. هذه هي وجهة النظر الوحيدة التي يمكن لألماني أن ينظر من خلالها إلى المسألة الأرمنية ».

– «نحن المسيحيون نعتمد على رحمة الرب وعلى طاعتنا للكتاب المقدس، أقول لك بصراحة شديدة يا سيدي المستشار بأني أرفض أي وجهة نظر أخرى. وقد بدأت أرى بوضوح يوماً بعد يوم بأنه يجب انتزاع السلطة من بين أيدي أطفال هذا العالم، ويجب على السياسيين إذا كانوا على اتصال بالرب وجسد المسيح أن يصبحوا حقيقة في عالمنا المسكين الصغير هذا».

– «أعطي لقيصر..».

لكن ما قيصر سوى قطعة نقدية مهترئة، لقد كان المسيح حكيماً عندما قال لنا ذلك لا! لا! إن الشعوب هي عبدة خلافاتها العرقية. والذين يتملقونهم ويرغبون في العيش عالة عليهم هم الذين يفاقمون الأمور ويثيرون غرورهم. كما لو أنه توجد ميزة خاصة في أن يولد أحد كلباً أو قطة أو قطعة بطاطا. عيسى المسيح الذي يقدم لنا مثلاً خالداً عن الإنسان الإلهي، يرتدي شكل الإنسان لكي يتغلب عليه، لذلك يجب أن يحكم الأرض أبناء الله فقط لأنهم تغلّبوا إلى عرقهم وتمكنوا من التكيف على الأرض. هذه هي عقيدتي السياسية يا سيدي المستشار».

لم يبد الوجه البروسي الارستقراطي أدنى ملامح بالسخرية. «إنك تتحدّث وكأنك كاثوليكي متشدد أيها الكاهن ».

– «أكثر كاثوليكية من أي كاثوليكي نظراً لأن الكنيسة موضع ثقتي لا تشاطر سلطتها مع أي سلطة علمانية». ربط المستشار ساعته ثانية مما أشار إلى انهاء اللقاء.«لكن حتى يمكننا إعادة إرساء محاكم التفتيش الدينية، يجب علينا نحن أطفال هذا العالم المساكين أن نأخذ بزمام المسؤولية ».

لكن جوهانس لبسيوس الذي ربما قطع شأواً بعيداً عاد لينزوي في موقعه. وبدا صوته هادئاً مرتجلاً: « دعني أبقى صريحاً معك يا سيدي المستشار. حتى أيام قليلة مضت كان يحدوني الأمل وكنت ما أزال أعتقد أنّ السيد بيثمان هولويج سيدعمني في هذا القتال باتخاذ إجراءات صارمة أكثر مما اتخذها حتى الآن. وأنت جعلتني أرى في النهاية أنّ يدي حكومتنا مكتوفتان في تداولها مع الأتراك وأننا يجب أن نحصر أنفسنا باللقاءات والمساعي الاعتيادية ولكن لن تجعلني الأسباب التي تراها الدولة مكتوف اليدين والآن تبقى قضية الأرمن في ألمانيا على عاتقي فقط. ولا أنوي تقديم التنازلات أو الاستسلام». ثم أردف قائلاً «أنا وبالاشتراك مع أصدقائي نسعى لتنوير ذلك لأنه عندما يعرف الشعب الحقيقة سيصبح من الممكن فقط إرساء مساعدتنا على أساس واسع لذلك أطلب أن لا تقيد يداي في هذه النشاطات ».

كان المستشار يمعن النظر في ساعة معصمه. تطلّع من فوقها مسروراً.

– «إن الصراحة جديرة بصراحة أخرى يا سيدي القسيس ويجب عليك ألا تسيء فهمي إذا قلت لك إننا نراقبك منذ بعض الوقت. إقامتك في الأستانة كانت موضع الكثير من التذمرات، وإني أكرر أنه ليس لديك فكرة عن مدى تعقد الموقف. أنا آسف وإني أكن احتراماً عميقاً لما تقوم به من نشاطات إنسانية. ومع ذلك فمن الناحية السياسية فهذه النشاطات ليس مرغوباً فيها. وإني أنصحك يا عزيزي هير لبسيوس بأن تبقيها ضمن حدود معينة وتجعلها غير متطفلة بقدر الامكان». وجاء رد الكاهن اشبه بالدمدمة:« لقد جاءني هاتف ولا تستطيع قوة على الأرض أن تحول دون اتباع صوتي ».

آه يجب ألا نقول ذلك يا دكتور لبسيوس. قال المستشار وقد بدت علامات الغضب على وجهه:« هناك قوى عديدة في هذا العالم تبذل ما بوسعها الآن لمنعك بصورة فعالة». ربت القس على الجانب الأيسر من معطفه قبل أن يستوى واقفاً «إنني شديد الإمتنان يا سيدي المستشار لهذه الصراحة والنصيحة التي أسديتها إلي ». واجه المستشار الطويل النحيف لبسيوس شيء من الارتباك مما أبقاه جالساً.

إني سعيد جداً بأننا تمكننا من التوصل إلى هذا التفاهم السريع يا سيدي القسيس، وتبدو وكأنك بحاجة إلى قسط من الراحة. أليس من الأفضل لك أن ترتاح قليلاً، استمر فقط في العيش ليومك. ألا تقيم في بوتسدام؟ وأبدى جوهانس لبسيوس أسفه لاستغراقه كل هذا الوقت. إلا أنّ المستشار قاده إلى الباب وعلى وجهه ابتسامة متوددة. عزيزي القسيس منذ وقت طويل لم أحظ

بساعة شائعة كهذه. عندما وصل إلى شارع ويلهلم عند منتصف النهار القائظ وقف جوهانس لبسيوس وسأل نفسه فيما إذا كان كما أعلمه ربه دمثاً لطيفاً كالحمامة وحكيماً كالثعبان. وأرغم على القبول على الفور أنّ كلا من الحمامة والثعبان قد فشلا في التوصل إلى نتيجة. لكنه من حسن حظه تمكن من الحصول منذ فترة مضت على جميع الجوازات والأوراق الضرورية وأذونات السفر وتصريح بتصدير العملة. ولهذا السبب ربت على الجانب الأيسر من معطفه منذ دقائق لكي يتأكد من وجود هذه الأغراض المقدسة في مكانها. استدار فجأة، افترض أنّ مُخبراً كان يتبعه! لقد اتخذ قراره. لقد كان القطار السريع إلى بازل قد غادر في الساعة 3.40 ولديه أكثر من ثلاث ساعات لكي يُتلفن إلى بوتسدام من أجل حقائبه واتخاذ جميع ترتيباته الأخرى للإنطلاق، إذ يمكن أن تغلق الحدود في وجهه في الغد. لكن يجب أن يعود إلى استانبول! فهناك مكانه، مع أنه لم تكن لديه فكرة واضحة ماذا سيفعل هناك. أما في ألمانيا فإن عمله سيستمر بدونه في جميع الأحوال. فقد تم بناء المنظمة وافتتح المكتب، وتم تجنيد مناصرين وأصدقاء ومتعاونين. لم يكن مكانه في موضع السلامة بل شطآن بحر الدم.

حياة حيوان خجول ليلي في استانبول

كان جوهانس لبسيوس يعرف أنه ثمة أحداً يتجسس عليه ويتعقبه. لذلك كان عادة يغادر فندق توكاتليان في الليل فقط.

وفي اليوم الذي أعقب وصوله قام بزيارة إلى السفارة الألمانية كما يتطلب الواجب. وبدلاً من أن يستقبله السفير أو سكرتير السفارة أو الملحق الصحفي استقبله موظف صغير جداً وسأله بطريقة فجة عن الهدف الذي جعله يعود إلى الآستانة. فأجاب لبسيوس أنه جاء بدون هدف محدد، بل لمجرد أنه يستريح في هذه المدينة التي أغرم بها غراماً شديداً. وكان بالفعل لايوجد هدف محدد أمام القس أو فكرة واضحة عما يمكن أن يفعله. ولم يعد محبوباً من قبل الأتراك والألمان. فقد قابل الآن مثلا قائد البحرية الرائع الملحق بالسفارة الذي ساعده في إعداد لقائه مع أنور في شارع بيرا الكبير. ولايعرف إلا الله ما هي الأكاذيب القذرة التي نسجت عنه.

وكانت تسري في جسده رعشة عندما يفكر بأنه كان وحيداً تماماً في العاصمة التركية وأنّ سفارة بلده لم تكف عن تقديم الدعم له بل كادت تكون معادية به. هل تخطر للاتحاد فكرة التخلص منه بصورة نظيفة وليس ثمة احتمال لحدوث ضجة دبلوماسية حول جسده. وفي لحظات اليأس فكر بالعودة إلى ألمانيا. فقد كان يضيع وقته. فكان ذلك الإسبوع الثالث من شهر آب. وكانت تهب حرارة خانقة من البوسفور «لماذا أنا هنا؟» ظل يسأل نفسه، وقارن نفسه لسارق غير ماهر في محاولة منه لكسر قفل باب حديدي بيديه العاريتين دون أن يستخدم أي آلة لفتحه بل والأكثر من ذلك فهو مرغم على العمل تحت أعين الشرطة.

تجرأ جوهانس لبسيوس على زيارة البطريرك الأرمني المطران زافين. فمنذ أن تقابلا في آخر

مرة، تلاشى ما بقي من الحياة في وجهه المائت. نظر رجل الدين هذا إلى زائره بشكل مجرد. وعندما تعرف عليه لم يتمكن من الإمساك عن ذرف دموعه. همس له:« لن أفيدك بشيء يا بني إذا كانوا يعرفون بأنك أتيت إلى هنا لتراني ». سمع الآن لبسيوس الحقيقة العظيمة التي جرت خلال الأسابيع التي سافر خلالها. قالها البطريرك بجفاف واقتصار، وأن أي محاولة أخرى لتقديم المساعدة ستكون أسوأ من عدم الافادة وذلك لأن قانون الترحيل قد نفذ على آخره وقد أصبح الآن مؤلفاً من النساء والأطفال الجائعين. وإن أي محاولة لتقديم المساعدة من جهات محايدة أو ألمانية لنساء الأرمن أولئك ستعمل على إثارة أنور وطلعت إلى عمل وحشي أشد.

إن أفضل شيء هو عدم محاولة الاقدام على أي شيء بل إبقاء الأمور على حالها والموت.

ألم يلاحظ لبسيوس أن البطريركية كانت محاطة بجواسيس الشرطة؟ وكل كلمة كانا يقولانها ستنقل في اليوم التالي إلى طلعت بك. لذلك طلب البطريرك زافين والذعر واضح في عينيه، من زائره أن يقرب رأسه من شفتيه وبهذه الطريقة علم لبسيوس بأنباء الثورة الأرمنية على جبل موسى، وهزيمة الجيش النظامي التركي وأنّ الجبل أثبت أنه صامد حتى الآن وأصبحت همسات البطريرك غير ثابتة:« أليس ذلك فظيعاً؟ يقولون إن ضحايا الجيش أكثر من مائة رجل» ولم يعتبر جوهانس لبسيوس ذلك فظيعاً بأي شكل من الأشكال ولمعت عيناه الزرقاوان مثل صبي خلف نظارته ذات الحواف الحادة. فظيعاً؟ هذا رائع! لو كان هناك ثلاثة مثل جبل موسى كلنا سمعنا قصة مختلفة تماماً. آه كم أود لو كنت على جبل موسى. قالها القس بصوت عالٍ جداً. ورفع البطريرك يده المستشخبة إلى فمه. وعندما استأذن في المغادرة سلمه لبسيوس بعض الأموال التي تم جمعها في ألمانيا. وبسرعة حشر القسيس الأوراق النقدية في الخزينة في مكتبه كما لو أنها جمراً يحترق.

لا يوجد ثمة أمل كبير بوصولهم إلى المكان المحدد. دير الزور. همس البطريرك مرة أخرى بحدة في أذن الألماني، شيء ما لم يكن مفهوماً في البداية. ليس بوسع أحد سواء في البطريركية أو أنت أو أي ألماني آخر أو حيادي مساعدتنا. يجب أن نجد أتراكاً كوسطاء، هل تفهم؟ «أتراك، أتراك ». دمدم د. لبسيوس وهو يستعيد ومضة من وجه أنور باشا « يا لها من فكرة مجنونة» يا لها من فكرة مجنونة ومع ذلك كانت في سبيلها للتحقيق. فقد تعرف القس في صالة الطعام في الفندق على شخص تركي طبيب في حوالي الأربعين من العمر يدعى البروفسور نظمي بك وكان أنيقاً ويرتدي زياً أوروبياً. وكان يقيم في فندق توكاتليان، وكان له عيادة في أحد أفضل الشوارع في بيرا.

وفي البداية ظنه لبسيوس أحد تلك الأرواح المنقصمة التي بعثت بالأتراك الشبان إلى هذا العالم. لكن بالرغم من علومه الأوروبية وثيابه المفضلة بشكل يثير الاعجاب أثبت أنّ المظاهر خداعة. فكانا غالباً يشاركان في الحديث. وتصادف أن تناولا طعامهما على نفس الطاولة، وكان لبسيوس شديد الحذر فقد أرغم على أن يكون كذلك، كما كان الطبيب التركي حذراً أو

متحفظاً وبدأ الألماني ولكنه أمسك لسانه عندما أخذ الطبيب يعبّر عن كراهيته لسياسة أولئك القابضين على زمام السلطة وكان حقده واضحاً على أنور وطلعت.

هل أرسلا إليه عميلاً؟ لكنه عندما أخذ ينظر إلى تعابير نظمي الناعمة، درس موقفه، وطريقة التعبير عن نفسه، وقدراته المدهشة كدارس لغوي، بدا له أن هذا الاشتباه سخيف جداً. فمن المستحيل أن يبث أنور عملاء من هذه النوعية. ومع ذلك فقد بقي لبسيوس حذراً بحيث لايترك لنفسه العنان للتحدث بحرية تامة. ولم ينكر أنه كان يبذل ما بوسعه كقس مسيحي، للتخفيف من محنة اخوته في الدين. لكنه لم ينتقد. اقتصر على دور المستمع باهتمام وعلى الرغم من أن نظمي بدا أنه لا يناصر الأرمن بشكل صريح فقد استشاط غضباً ضد سياسة الترحيل التي نفّذتها جمعية الاتحاد والترقي « تلك الحقول المغشاة بجثث الأرمن ستعني نهاية تركيا». وظل لبسيوس ينظر إليه صامتاً.«إنّ الأغلبية العظمى من الشعب تقف وراء أنور وطلعت ».

ماذا؟، حدق به نظمي، الأغلبية العظمى من الشعب!.

ألا توجد لديكم يا معشر الأجانب أي فكرة عن الأهمية الحقيقية للحزب فهو فوق كل شيء متدن أخلاقياً! لأنه مكون من حثالات الناس. عندما يصر شعب من هذا النوع على التمسك بالانتماء إلى العرق العثماني فهذه أسوأ إهانة. إذ أن العثمانيين الأصليين أتوا من الوعاء المكدوني الذي يطفو على وجهه الخليط العرقي لجميع البلقانيين.

– «هذه قصة قديمة يا بروفسور، فالشعب الذي يعيش في كنف عرقه هو الذي يكون في أمس الحاجة لذلك..» حدق نظمي بحزن إلى لبسيوس، «من المحزن أنّ رجلاً من نوعيتك الذي درس عن كثب أحوالنا ما تزال لا توجد لديه فكرة عن تركيا الحقيقية. هل تعرف أن جميع الأتراك الحقيقيين يمقتون عمليات الترحيل الأرمنية بل حتى أكثر منك؟ ». شنف لبسيوس أذنيه « ومن هم هؤلاء الأتراك الحقيقيون إذاً لم تجد ضيراً في سؤالي يا بروفسور؟ ».

– «كل الذين يحافظون على دينهم».

ولكن نظمي لم يقل أكثر من ذلك. وفي ذلك المساء بالذات قرع باب غرفة القس وأعطاه انطباعاً باثارة غريبة.

– «إذا رغبت فإني سأصحبك غداً إلى تكية الشيخ أحمد وهو شرف عظيم بوسعي أن أقدمه لك. وهناك يمكنك أن تعبر عن نفسك بشأن الأرمن ولعلك تجد طريقة لمساعدتهم وكرر: وأكون قد قدمت لك شرفاً عظيماً».

وفي اليوم التالي وفور انتهائهما من تناول طعام الغداء رافق نظمي الدكتور لبسيوس كما اتفقا. وسارا شطراً كبيراً من الطريق على الأقدام. ففي ذلك اليوم كانت تهب نسمات عليلة من بحر مرمرة تلطف من حرارة الشمس الحارقة عند الظهيرة. وكانت أسراب الطيور تحلّق في سماء استانبول متّجهة إلى أعشاشها في الجانب الآخر. وقاد الطبيب الدكتور لبسيوس عبر وزارة الحربية حيث يقبع أنور باشا وجامع السلطان بيازيد متجهين إلى شوارع لا نهاية لها من آل سراي، ثم

اتجها نحو الغرب حيث لم توجد طرق معبدة وأحاطت بهما قطعان من الأغنام والماعز وأطل عليهم الجدار البيزنطي القديم من فوق البيوت الخشبية المرتبة بشكل فوضوي لكن القس لم يكن في زاج رائق لكي يتمتع احساسه الجمالي بهذا المشهد الرائع، وذلك لأن فكرة واحدة كانت تستحوذ عليه وهو آلام الأرمن، ثم سأل دليله: أظن أننا في طريقنا إلى دراويش المولوية.

على الرغم من الفترات الطويلة التي أقام فيها لبسيوس في فلسطين وآسيا الصغرى فلم يكن يعرف شيئاً البتة عن الإسلام إذ كان أسوأ أنواع الضعف الإنساني تتمثل في أننا نعرف القليل جداً عن الشخص الذي يتوجب علينا أن ننفذ إلى عقله حتى اللب، العدو وهكذا فلم تكن لدى الكاهن سوى مفاهيم غامضة جداً عن حقيقة الدين الإسلامي وقال: الدراويش الملوية فقط لأن اسمهم كان شائعاً بالنسبة له.

حرّك الدكتور نظمي يده نافياً هذا الاقتراح وقال: لا لا الشيخ أحمد، سيدنا، رئيس الفرقة التي يدعوها شعبنا« سارق القلوب».

يا له من اسم غريب حقاً ولماذا تسمى سارق القلوب؟. سترى ذلك بنفسك. وتنازل الدليل أثناء الطريق لتقديم بعض التفاصيل فقد أعلم الألماني أن الدين الإسلامي ينقسم إلى تيارين قويين رئيسيين وهما الشريعة والطريقة. لأن يكون المرء درويشاً لايعني أن ينبذ العالم ويعتكف بقية حياته في التكية. ويمكن لأي فرد أن يصبح درويشاً شريطة أن يلبي بعض الشروط وهذا لا يستدعي أن ينبذ عمله أو عائلته. إنّ الصدر الأعظم له نفس الحقوق التي يتمتّع بها الخياط أو الحداد وموظف البنك أو الضابط. لذا فإن الاخوة من شتى المشارب يتناثرون في طول البلاد وعرضها وهؤلاء الاخوة يعرفون بعضهم بعضاً في جميع الأماكن بالغريزة فقط. وسأله جوهانس لبسيوس: وهكذا فإن مراتب الدراويش هذه تشكل قوة كبيرة من الناحية العددية؟.

- «ليس فقط عددياً يا دكتور صدقني ».

- «ومن ماذا تتألف حياتهم الدينية؟».

أظنّ أنك ستدعوها « تمارين روحية» لكن لعل ذلك تعبير مضلل آخر. فنحن نجتمع من وقت لآخر وندرب ملكتنا الروحية. ونصلي وهو ما يدعى بالذكر ويجب على كل شخص أن يخدم التكية مرة أو مرتين في حياته ويجب أن يعيش فيها لبعض الوقت. ولكن الشيء الرئيسي هو أننا نطيع أستاذنا ورئيسنا من صميم قلوبنا.

- «هل أستاذكم ورئيسكم هو الشيخ أحمد يا بروفسور؟ ».

ومع أن لبسيوس لم يسأل من هو الشيخ أحمد بالتحديد فقد أجابه نظمي: إنه ولي من أولياء الله أي يمكن أن تقول «رجل دين»- ومع ذلك فهذه ترجمة سيئة للكلمة. وحياته التي هي حياة أعلى من حياة الرجال الآخرين مكنته من تطوير قدرات وقوى داخل نفسه. أنت تعرف التعبير الفرنسي initiution وكما سترى فإن أروع ما فيه هو أنه شخص عادي جداً.

توقفا عند حائط عالٍ. أشجار تين وقمم أشجار السرو والوستارية كشفت عن وجود حديقة. دق نظمي بك بعصاه دقاً خفيفاً على الباب المتآكل.

انتظر فترة ثم خرج رجل مسن، ممتلىء الجسم ذو عينين لطيفتين هادئتين وفتح الباب لهما. وتبدى لهما جمال الحديقة، الرائع إذ انتصبت فيها شجرة أرز تعود إلى قرون عديدة وكانت تتدلى من أغصان الشجرة الكبيرة سلسلة حديدية ثقيلة فقال نظمي للقس:« لقد ربطت شجرة الأرز بالسلسلة وهي يانعة وعندما كبرت تقطعت السلسلة وهي تعتبر رمز حياة الدراويش في وسط هذا الهدوء البعيد عن صخب الشوارع. وفي وسط الحديقة كانت توجد بركة ماء، وبدا هذا أيضاً رمز لأحترام الأتراك للماء. وعلى يمين الحديقة كان ينتصب منزل مظلم غريب، وإلى اليسار بيت مضيء يبدو في حالة جيدة. وقاد نظمي الألماني وصعدا درجاً مظلماً ضيقاً إلى مكان يشبه الايوان بني فوق مبنى التكية الكبيرة. وبني في جداره الشرقي المتجه نحو مكة محراب عليه حصيرة مرتفعة، وكان ثمة عدد من الرجال يجلسون القرفصاء على جانبي الأريكة المرتفعة، ووصفهم الطبيب بـ«الخلفاء» وهم عبارة عن نواب أو أتباع يكونون موضع ثقة للشيخ أو الأشخاص المقربين إلى قلبه. وكان جميعهم يرتدون عمامات بيضاء، وكان بينهم ضابط برتبة كابتن من الجيش التركي. ولاحظ لبسيوس رجلاً مسناً ضئيل الجسم وقال في نفسه لابد أنه يعاني من مرض عصبي وذلك لأن وجهه النحيل ذا اللحية النصفية كان يختلج، وبجانبه رجل وسيم جداً ذو لحية خفيفة بنية اللون ويرتدي جلباباً طويلاً. فقال له نظمي إنه ابن الشيخ، وكان يجلس بجانبه صبي في الخامسة عشرة من عمره القرفصاء وهو حفيد الشيخ ويرتدي جلباباً أبيض مثل أبيه. لكن عينيّ لبسيوس تركزتا بصورة خاصة على أحد هؤلاء الرجال الذي حدس من موقفه وسلوكه أنه رئيسهم جميعاً، وأنه يتمتع بأقوى شخصية في الغرفة، فهمس نظمي في أذن لبسيوس: « هذا تربيدار بروصة». ثم شرح له: «إن هذا اللقب هو اسم منصب رسمي رفيع، القيّم على مقابر السلاطين والأولياء، كما كان الرجل على درجة كبيرة من العلم، ليس فقط في علوم الدين والقرآن بل في علوم حديثة عديدة أخرى. أما الرجل الضئيل الجسم الجالس إزاءه- نعم ذلك الرجل ذو اليدين البيضاوين ويحمل بيده سبحة من الكهرمان- كان يشغل كذلك وظيفة رمزية عالية أخرى وهي الإشراف على شجرة نسب الرسول.

- «وهل يعيش هؤلاء الرجال في التكية دائماً؟ ».

- «لا، بل كانت مصادفة طيبة أن تقوم بزيارة التكية اليوم. فقد جاء الرجل المسن، المشرف، من مكان بعيد جداً، من سورية، أنطاكية على ما أظن. وهو أقدم صديق للشيخ واسمه الآغا رفعت بركات».

- «آغا رفعت بركات» أخذ لبسيوس يردد الاسم وهو شارد البال، كما لو أن الاسم لم يكن غريباً عليه تماماً. لكنه لم يكن ينظر إلى الآغا أو إلى الخمسة والثلاثين شخصاً الآخرين الذين كانوا يدمدمون أصواتاً ملأت الغرفة، بل ركّز انتباهه على التربيدار المزهو بنفسه. لذلك لم يلاحظ

دخول الشيخ أحمد حتى اللحظة التي أخذ فيها مكانه على الأريكة. وما إن وصل الشيخ حتى نهض الجميع وأخذوا يتدافعون بحماس زائد لتقبيل يده.

إن نشوة آيات الذكر التي حضرها الآن لم يترك الدكتور لبسيوس بارد الأحاسيس فقط بل مفعماً بقلق مبهم لم يعرف كنهه. وجرت الحفلة على النحو التالي: وقف ابن الشيخ الوسيم في صف من الشبان يرتدي جميعهم جلابياً طويلة بيضاء إزاء الحائط الغربي من الغرفة. ووقف الصبي الصغير في نهاية الصف. ثم انطلق صوت ناي. ثم بدأ رجل بترتيل القرآن وقد أغمض عينيه وهو يفعل ذلك. رمى الصبي رأسه إلى الوراء وهو ينصت باهتمام بالغ، كما لو أنه يحاول إمساك أصغر نقطة من المطر المنهمر على وجهه، ثم انطلقت من حنجرته أصوات مخنوقة، وكانت السعادة تغمره وراح يردد«لا إله إلا الله» عندئذ ألقى الجميع رؤوسهم إلى الوراء وراحوا يرددون الجملة نفسها. وبدأ الآن جسم الابن يترنح بزوايا خفيفة، إذ أخذ يهتز من الخصر إلى الأمام والخلف واليمين واليسار. وانتقلت هذه الحركة إلى الآخرين. لكن الحركة لم تكن منتظمة بين الجميع، بل كان كل واحد منهم يتحرك بطريقته الخاصة. وبدا أن كل واحد منهم قد انفصل عن الجماعة وهو في نشوة الاتصال مع الله. وبعد حوالي عشر دقائق، أخذ الدراويش ينحنون بزوايا حادة ثم أخذت أصواتهم تعلو وتعلو. وبحركة واحدة من الشيخ توقف كل شيء، وبدت السعادة والرضا على وجوه الجميع وراح الرجال يعانق بعضهم بعضاً. ثم دلف رجلان إلى الغرفة من باب جانبي صغير، وكانا يحملان أباريق من الماء وصحوناً مليئة بالطعام، بالإضافة إلى ثياب، ووضعاها أمام الشيخ الذي راح ينفخ فيها لكي تتلقى قوة شافية. وبعد توقف قصير بدأ الذكر مرة أخرى ولكن بعنفوان أكبر هذه المرة.

استقبله الشيخ أحمد بترحاب شديد وتقدم بضع خطوات للقاء لبسيوس ونظمي بك. وكان في الغرفة الكبيرة كذلك الشيخ التربيدار الذي قدم من بورصة، والآغا رفعت بركات، والشيخ الشاب، وكابتن المشاة. وجلس الجميع على أرائك واطئة وأسندوا ظهورهم على الحائط. وأشار الشيخ أحمد إلى لبسيوس بأن يجلس بجانبه. وكان على لبسيوس أن يجلس وساقاه مضمومتان تحته مثل الآخرين. واستدار الشيخ الذي كانت عيناه المليئتان بمعرفة العالم تنمان عن هدوء وصفاء إلى ضيفه وقال:

– «نحن نعرف من أنت والسبب الذي أتيت من أجله إلينا. وليس لدي شك في أنك ستفهمنا كما نأمل أن نفهمك . ولعل أخانا نظمي قد أخبرك أننا نعتمد هنا على الاتصال القلبي أكثر من الكلمات. حسن، لنحاول إذاً ونرى كيف ستكون عليه الأمور بقلوبنا». كان معطف الألماني مازال مزرراً، فراح الشيخ أحمد يفك أزرار معطفه بيده البيضاء وارتسمت على وجهه ابتسامة أشبه بالاعتذار:« كما ترى نريد أن نقترب من بعضنا أكثر وأكثر».

تحدث الدكتور لبسيوس الذي كان يفهم التركية بشكل جيد كما كان يجيد اللغة العربية، غير أن الشيخ أحمد أخذ يستخدم في حديثه مزيجاً صعباً من هاتين اللغتين، لذلك، عندما أصبح

كلامه مليئاً بالمصطلحات الصعبة، بدأ نظمي يترجم له. «يوجد ثمة قلبان. القلب العادي الذي نحمله في صدورنا، والقلب السري الرباني الذي يحيط بالقلب الآخر تماماً كما يحيط الشذى بالوردة. وهذا القلب الثاني يوحدنا مع الله ومع الرجال الآخرين. افتحه أرجوك ».

وانحى جسد الشيخ المسن الذي ربما كان يبلغ الثمانين من العمر إلى الأمام باتجاه القس. ودلت إحدى قسماته إلى أنه سيغلق عينيه تماماً كما فعل مضيفه. فقد حلّ بجوهانس لبسيوس شعور بالطمأنينة والسكينة، وسرعان ما تلاشى شعوره بالقلق الذي كان ينتابه منذ لحظات قليلة. واستغل هذا الوقت ليستجمع أفكاره. وقد جرت المحادثة الهامة على النحو التالي:

جوهانس لبسيوس(في البداية انطلقت الكلمات التركية ببطء وقساوة وكان نظمي يسعفه بالتعبير الصحيح): بفضل الطيبة المتناهية التي يتسم بها الشيخ أحمد أفندي قدمت إلى هذا المكان، إلى هذه التكية الموقرة بصفتي أجنبياً ومسيحياً... بل إنكم تفضلتم بالسماح لي أن أحضر الشعيرة الدينية. إن الحماس والتفاني الذي رأيته في سعيكم للتوصل إلى الله قد أفعم قلبي بالبهجة. وحتى لو أنني، كأجنبي يجهل مثل تلك الأمور، لا استطيع أن افهم المعاني العميقة لطقوسكم الدينية، فقد تمكنت على الأقل من الشعور بتقاكم وورعكم الشديدين... ولكن بالنظر إلى هذا الورع الذي تتمتعون به، وهذا الإحساس الديني العميق، والأشياء التي تحدث والتي يسمح لها بالحدوث في بلادكم فهي تبدو لي بأنها أكثر فظاعة».

الشيخ الشاب(يحصل على اذن من والده بالحديث بالنظر إليه): إننا نعرف أنك صديق حميم للملة الأرمنية منذ أعوام كثيرة....».

جوهانس لبسيوس: «بل أكثر من صديق. فلقد كرست حياتي كلها وقوتي للشعب الأرمني».

الشيخ الشاب: « والآن ترغب في إدانتنا لما ألحق بهم؟ ».

جوهانس لبسيوس: إني أجنبي. ولا يحق للأجنبي بأي شكل من الأشكال أن يوجه الإدانات. فأنا لست هنا لكي أدين أحداً بل لأعبّر عن استيائي فقط من هذه الأشياء، وأن أتوسل للحصول على مساعدتكم ونصحكم».

الشيخ الشاب:(بعناد واضح، ودون أن يستخدم كلمات ملطفة): ومع ذلك فإنك تحمّلنا نحن الأتراك بصفة عامة مسؤولية ما حدث ؟ ».

جوهانس لبسيوس:«إن الشعب يتكون من شرائح عديدة: من الحكومة والمنفذين لأوامرها. ومن تلك الطبقات التي تقف وراء الحكومة والمعارضة».

الشيخ الشاب:«وأي من هؤلاء تحمّله المسؤولية ؟ ».

جوهانس لبسيوس:«منذ عشرين سنة وأنا أعرف أحوالكم جيداً. حتى شؤونكم الداخلية. فلقد أجريت مفاوضات مع رؤساء حكومتكم- ساعدني الله- يجب أن أقول إنني أحمّلهم وحدهم وزر عملية إبادة شعب بريء».

التربيدار(يرفع رأسه النحيل المتعصب بعينيه القاسيتين اللتين لا تعرفان الشفقة وبصوته الذي ملأ الغرفة على الفور): « ولكن من كان مسؤولاً عن حكومتنا؟ ».

جوهانس لبسيوس:« لا أفهم سؤالك ؟ ».

التربيدار:« حسن، دعني أسألك سؤالاً آخر. هل كان العثمانيون والأرمن يعيشون دائماً في حالة من القلق والتوتر؟ ألم يكن هناك زمن كانوا يعيشون فيه بسلام ووئام جنباً إلى جنب؟ إنك تعرف بلدنا، لذا افترض أنك تعرف ماضينا كذلك ».

جوهانس لبسيوس:« على قدر ما أعلم، فلم تبدأ المجازر الكبرى إلا في القرن الماضي- بعد مؤتمر برلين ».

التربيدار:« هذا يجيب عن سؤالي الأول. ففي ذلك المؤتمر بدأتم أنتم الأوروبيون تتدخلون في الشؤون الداخلية للامبراطورية. فقد طلبتم إدخال إصلاحات، وأردتم شراء الله ودِيننا بمبلغ زهيد، وكان الأرمن هم الوسطاء التجاريون بالنسبة لكم».

جوهانس لبسيوس: «ألم يحتاج ذلك العصر بتطوراته العامة التي حصلت فيه إلى تلك الإصلاحات بشكل أكثر إلحاحاً حتى من أوروبا؟ والأهم من ذلك، فقد كان من الطبيعي جداً أن يطلبها الأرمن بشكل ملح بصفتهم الشعب الأضعف والأكثر نشاطاً».

التربيدار(غاضباً):« لكننا لانريد إصلاحاتكم، تقدمكم، نشاطكم التجاري. نحن نريد أن نعيش من أجل الله، وأن ننمي في نفوسنا تلك القوى التي تتعلق بالله. ألا تعرف أن كل ما تسميه نشاطاً وتقدماً هو من عمل الشيطان؟ هل أثبت لك ذلك ؟ لقد أجريتم دراسات سطحية في جوهر العناصر الكيميائية. ما هي نتيجة علومكم عندما تتصرفون من وحي معرفتكم القاصرة؟ تصنعون الغازات السامة التي تستخدمونها لشن حروبكم الدنيئة والجبانة. وهل يختلف الأمر مع طياراتكم؟ إذ لا تستخدمونها إلا لتقصفوا بها مدناً بأكملها وتبيدوها عن بكرة أبيها. وفي الوقت ذاته فهي لا تخدم سوى ازدهار المراين والتجار وجعلهم قادرين على نهب الفقراء بسرعة كبيرة. إن قلقكم الشيطاني بكامله يبين لنا بشكل واضح أنه لا يوجد« نشاط تقدمي » لا يقوم على التدمير والخراب. وكم كنا نرغب في الاستغناء عن إصلاحاتكم وتقدمكم، وجميع ثمرات علومكم، وكنا نفضل الاستمرار في العيش في فقرنا القديم واحترامنا لذاتنا».

الشيخ أحمد(في محاولة لإدخال ملاحظة توفيقية في حديثهما):« لقد صنع الله لكل إنسان مشربه الخاص ».

التربيدار(ما زال غير قادر على ضبط نفسه، فقد انتابه إحساس بأنه إزاء العدو الحقيقي ورغب في صب حقده عليه): «إنك تقول إن حكومتنا هي المذنبة باقتراف هذا الظلم الدموي. لكن حقيقة الأمر فإن حكومتكم هي المذنبة وليست حكومتنا التي أخذت تسلك وفق منهجكم، وقدمتم لها الدعم في نزاعها الإجرامي ضد أكثر الكنوز المقدسة. والآن فهي تقوم بتنفذ تعليماتكم وتوجيهاتكم. لذلك يجب عليك أن تعترف أنت وليس نحن العثمانيين، بل أوروبا والمتعلقين

بأذيالها أنهم في الحقيقة هم المسؤولون عن مصير هذا الشعب الذي أنت بصدد الدفاع عنه. وقد استحق الأرمن ما نالوه بشكل عادل،لأنهم هم الذين أرادوا أن يعيدوا أولئك الخونة إلى بلادنا. وهم الذين قدموا لهم الرعاية وأشادوا بهم لكي يحلق بهم الدمار. ألا ترى بنفسك عدالة الله في هذه الأحداث؟ فأيما حللتم أنتم وتلاميذكم جلبتم الفساد معكم. بوسعكم أن تتملقوا دين عيسى المسيح، لكنكم في أعماقكم لا تؤمنون بشيء سوى قوى المادة العمياء والموت الأبدي. إن قلوبكم سوداء ولا تعرف شيئاً عن قوى الله التي تتلاشى وتذوب فيها دون استخدامها. نعم إن دينكم هو الموت وإن جميع أوروبا هي عاهرة الموت ».

الشيخ أحمد(يطلب من التربيدار التحكم بنفسه بنظرة عابسة ثم يمسح يد الكاهن كما لو أنه يهدئه ويرضيه):« كل شيء يكمن في إرادة الله».

الشيخ الشاب:«صحيح يا أفندي ولا تستطيع إنكار ذلك. إن القومية التي أخذت تهيمن علينا هذه الأيام هي من السموم التي وردتنا من أوروبا. ومنذ عقود قليلة ماضية فقط كان شعبنا كله يعيش تحت لواء النبي- الأتراك، العرب، الأكراد، اللاز وغيرهم -، إن روح القرآن تلغي الخلافات الدموية على الأرض . ولكن اليوم، حتى العرب الذين لا يوجد لديهم شيء يتذمرون منه أصبحوا قوميين وانقلبوا إلى أعداء لنا».

الشيخ أحمد: «إن القومية تملأ الفراغ اللاهب الذي يتركه الله في قلوب الرجال عندما يخرجونه منها. ومع ذلك فلا يمكن للإنسان أن يخرجه ضد إرادته».

جوهانس لبسيوس (الذي يجسد أوروبا المدانة، يجلس وساقاه مضمومتان تحته إلا أنه لم ينس الهدف الذي جاء من أجله، لذلك راح يستمع بدون غضب إلى شتائم التربيدار التي كانت تسبب له ألماً أقل من الألم الحاصل في رجليه): «إن كل ما قلته ليس بجديد عليّ. فأنا نفسي كثيراً ما كنت أقول ذات الشيء إلى مواطنيّ. فأنا مسيحي وفي الواقع رجل دين مسيحي - وبالرغم من هذا فإني أعترف لكم بسعادة إن الكثيرين من المسيحيين الذين أقابلهم ليسوا أكثر من أناس يقولون ما لا يفعلون ».

التربيدار (يشعر بعناد بأنه محق رغم لوم الشيخ أحمد الصامت له): « وهكذا ترى بأن مسيحييكم هم المذنبون الحقيقيون ».

جوهانس لبسيوس: «إن ديني يأمرني بأن أرى جميع الذنوب على أنها ميراث آدم الذي لامفر منها. والناس والشعوب كلها تلقي بهذا الذنب البشري بعضها على بعض مثل الكرة. ومن المستحيل تحديد لحظة الذنب من حيث الزمن أو الحدث. من أين يجب أن نبدأ. وإلى أين سننطلق؟ وأنا لست هنا لكي أقول حتى كلمة واحدة لإنحاء اللوم على الشعب التركي. إذ أن ذلك خطأ كبير وأنا هنا لا أطلب إلا التوفيق ».

التربيدار: «أنت تأتي طالباً التوفيق بعد أن أثرت سوء النية ؟ ».

جوهانس لبسيوس: «أنا لست متعصباً قومياً. فكل كائن بشري ينتمي إلى مجتمع قومي

ويبقى جزءاً منه سواء أراد ذلك أم لا. فهذا واقع طبيعي واضح. وكمسيحي فإني أعتقد أن أبانا الذي في السموات قد خلق هذه الفروق بيننا لكي يعلمنا الحب. نظراً لأنه لايمكن أن يوجد حب بدون تنوع وتوتر. وأنا كذلك أختلف بطبيعتي كثيراً عن الأرمن. ومع ذلك فقد تعلمت أن أحبهم وأفهمهم».

التربيدار: «هل فكرت يوماً كم يكن لنا الأرمن حباً وفهماً؟ فهم الذين نقلوا، مثل تيار كهربائي، قلقكم الشيطاني إلى وسط سكينتنا. وهل تعتبرهم حملاً بريئة؟ أقول لك ما أن تتاح لهم الفرصة حتى يجهزوا على أي تركي يقع بين أيديهم ببرودة دم. ولعلك لا تدرك أن قساوستهم المسيحيين يسعدون كثيراً عندما يأخذون دورهم في ذلك الضرب من القتل».

جوهانس لبسيوس(للمرة الأولى يتعين عليه ضبط نفسه من الرد بحدة): «إذا قلت ذلك يا أفندي، فليس بوسعي إلا أن أعتقد أن مثل هذه الجرائم قد ارتكبت هنا وهناك. لكن لا تنس أن الخواجات والعلماء والمشايخ قد قاموا بإثارة شعبكم. بالإضافة إلى ذلك فأنتم الأقوياء والأرمن ضعفاء وعزل».

التربيدار(الذي كان بالإضافة إلى كونه عالماً فهو ماهر في المجادلة. إذ يعرف جيداً فن الانسحاب فوراً من خطر التفاصيل محتمياً خلف حصون الأمور العامة): « لقد بثثتم الأكاذيب الباطلة عن ديننا في أرجاء المعمورة. وأكثر هذه الأكاذيب حقداً هو قولكم أننا لا نتسم بالتسامح. هل تفترض حقاً أنه لو لم نكن متسامحين فهل كان سيبقى مسيحي واحد على قيد الحياة في الامبرطورية التي حكمها الخلفاء منذ قرون؟ ماذا فعل السلطان الأكبر الذي فتح استانبول في السنة الأولى من حكمه؟ هل طرد المسيحيين من المنطقة؟ هل فعل ذلك؟ لا.. فقد أسس البطريركيتين اليونانية والأرمنية ودعمهما بالقوة والحرية. ولكن ماذا فعلتم أنتم المسيحيون في اسبانيا؟ لقد طردتم المسلمين الذين أقاموا حضارة هناك وألقيتم بالآلاف في البحر بل وأحرق الكثيرون أحياء. هل نقوم نحن بإرسال بعثات تبشيرية كما تفعلون أنتم تجاهنا؟ إنكم ترفعون الصليب أمامكم لكي تدفع شركة خط حديد بغداد وشركات النفط عائدات أفضل ».

الشيخ أحمد:«الشمس متعالية وعدوانية، والقمر لطيف وزاخر بالسلام. إن التربيدار يقول كلمات قاسية لكنها ليست موجهة إليك شخصياً. فأنت ضيفنا. ويجب أن تفهم أن شعبنا يشعر بالمرارة كذلك إزاء الإجحاف الحاصل تجاه ديننا بشكل غير صحيح. هل تعرف ما هي الكلمة التي تتكرر في القرآن كثيراً بعد اسم الله؟ كلمة السلم. وهل تعرف كيف وردت في السورة العاشرة» وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا. ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون». ولكننا نسعى جاهدين كذلك، شأن المسيحيين، للحصول على مملكة من الوحدة والحب. ونحن كذلك لا نكن شعوراً بالكراهية لأعدائنا، إذ كيف يمكن أن تتواجد الكراهية إذا فتح القلب نفسه لله؟ إن سيادة السلام هو أحد الواجبات الرئيسية التي نضطلع إليها. حتى التربيدار هذا الذي يتكلم بقساوة شديدة هو أحد أكثر المتحمسين لإقامة السلام. فقبل أن نعرف

اسمك بزمن طويل كان يعمل من أجل هؤلاء المنفيين. وليس هو فقط، بل لدينا صناع سلام بين صفوف الجيش(ويشير إلى كابتن المشاة الذي يفترض أنه أصغر أفراد المجموعة وكان يجلس على حصيرة بعيداً عنه).

الكابتن (يتقدم ويعلوه شيء من الخجل ويجلس بجانب الشيخ أحمد. عيناه كبيرتان لطيفتان ووجهه حساس، ولا يدل سوى شاربه المشذب بعناية على أنه ضابط يتمتع بشيء من القسوة).

الشيخ أحمد: «لقد قمت بزيارة معسكرات اعتقال الأرمن في المناطق الشرقية أليس كذلك؟».

الكابتن(يستدير نحو جوهانس لبسيوس):«أنا كابتن ركن في إحدى الفرق التابعة لقيادة المارشال كولتز باشا من مواطنيك الألمان. ويمكنني القول إن قلب الباشا مفعم بالأسى وهو متعاطف جداً مع إخوته المسيحيين لكنه لا يملك أن يفعل شيئاً لمساعدتهم ضد رغبة وزير الحربية، وكان قد وافق على منحي إذن للقيام بمهمتي تلك ».

الشيخ أحمد:« وما هي الأماكن التي قمت بزيارتها في رحلتك ؟ ».

الكابتن:« إن معظم معسكرات اعتقال المنفيين تقع على ضفاف نهر الفرات في المنطقة الواقعة بين دير الزور ومسكنة. وقد أقمت عدة أيام في ثلاث من أكبر المعسكرات تلك ».

الشيخ أحمد:« وهل لك أن تخبرنا ما شاهدته هناك ؟ ».

الكابتن(يلقي نظرة معذبة إلى لبسيوس):«أفضّل أن لا أقول لكم شيئاً أمام هذا الأجنبي..».

الشيخ أحمد:« يجب أن يعلم الأجنبي أن وصمة العار هذه هي من صنع أعدائنا. تكلم».

الكابتن(يطرق رأسه ويحاول البحث عن كلمات، لكنه يجد أن الكلمات عاجزة عن وصف ما رآه. ولا تنقل كلماته المترددة إلا جزءاً من الحقيقة التي يرتعش من تذكرها بقرف): «إن ساحة المعارك فظيعة... لكن أسوأ ساحة معركة لا تقارن بما شاهدته في دير الزور. لا يمكن لأحد أن يتصور ذلك».

الكابتن: «إنهم لم يعودا كائنات بشرية بل أشباح... أشباح بشرية... أشباح قرود.. يموتون ببطء لأنهم يأكلون العشب وأحياناً يتناولون قطعة خبز هنا وهناك. ولكن الأفظع هو أنهم ليسوا على قدر دفن موتاهم الذين يقدرون بعشرات الألوف. إن دير الزور مقبرة عظيمة.

الشيخ أحمد (بعد توقف طويل):« وكيف يمكن تقديم المساعدة لهم برأيك ؟».

الكابتن:« مساعدتهم؟ إن أفضل عمل يقدمه المرء لهم هو قتلهم كلهم في يوم واحد.. لقد أرسلت رسالة إلى جميع الأخوة.. ولقد تمكنا من إيجاد مأوى لأكثر من ألف يتيم في كنف عائلات تركية أو عربية.. ولكن كل هذا لايشكل شيئاً يذكر».

الترييدار: «وماذا تكون النتيجة إذا ما أخذنا هؤلاء الأطفال واعتنينا بهم وعطفنا عليهم وربيناهم في بيوتنا؟ سيقول الأوروبيون إننا سرقناهم لكي نسيء معاملتهم».

الشيخ أحمد: «هذا صحيح ولكن المهم (موجهاً كلامه إلى الكابتن) هل رأى هؤلاء الأرمن أنك عدو لهم كونك تركياً أم تمكنت من اكتساب ثقتهم ؟ ».

الكابتن: «إن حالتهم البائسة في غاية السوء بحيث لم يعودوا يميزون بين الصديق والعدو.. فكلما كنت أصل إلى أحد المعسكرات كانوا يتحلقون حولي بأعداد ضخمة... وفي العادة لم تكن هناك سوى نساء ومسنين فقط. وكانوا نصف عراة ويئنون جوعاً.. وكانت النساء يستخرجن حبات الشوفان من روث حصاني التي لم يكن قد هضمها.. ثم كادوا يمزقونني من توسلاتهم.. وقد حُمِّلت أعداداً ضخمة من العرائض والرسائل التي لا يمكنني تسليمها... وها هي مثلاً رسالة.. (يخرج قصاصة وسخة من الورق من جيبه ويريها لجوهانس لبسيوس) لقد كتبها أحد قساوستكم المسيحيين، من دينكم، وكان يجلس بجانب جثة زوجته التي لم تدفن بعد.. وقد بقيت ملقاة هناك منذ ثلاثة أيام.. رجل نحيل جداً، ولم يكد يبقي شيء منه. اسمه هاروتيون نوخوديان. من سكان إحدى القرى الواقعة على الشاطىء السوري، ويقول إن معظم السكان في القرى المجاورة له قد التجأوا إلى قمة الجبل. وقد وعدته بتوصيل الرسالة إليهم، لكن كيف ؟ ».

جوهانس لبسيوس (وقد أذهلته الصورة المرعبة التي رواها الضابط. ولم يعد يشعر بالألم في ساقيه المتشنجتين تحته، فأخذ الرسالة من الكابتن وتمكن من قراءة بضع كلمات مكتوبة بأحرف أرمنية كبيرة «إلى قس يوغونولوك دير هايكازون »): حتى إن هذه الرسالة لايمكن تسليمها شأنها شأن الكثير من الرسائل الأخرى».

الآغا رفعت بركات (يضع سبحته في جيبه، وينحني عدة مرات أمام الشيخ): «لا.. بل ستسلم هذه الرسالة.. وأنا بنفسي سأوصل رسالة نوخوديان إلى أصدقائه. إذ سأعود بعد بضعة أيام إلى الساحل السوري».

الشيخ أحمد (يستدير وتعلو وجهه ابتسامة خفيفة إلى لبسيوس): «يا لها من مصادفة بقدرة الله! أخوان غريبان عن بعضهما يتقابلان هنا في هذه المدينة الكبيرة، لكي تصل رسالة من شخص بائس.. لكن ربما عرفتنا الآن بشكل أفضل. فهذا صديقي الآغا من أنطاكية.. وهو ليس شاباً مثلك. فعمره سبعون سنة ومع ذلك فهو يعمل منذ شهور ويقطع الفيافي ليدافع عن الطائفة الأرمنية، وهو من الأتراك الطيبين. بل حتى تمكن من مقابلة السلطان وشيخ الإسلام ليدافع عنهم».

الآغا رفعت بركات: «ذاك الذي يرشد قلبي يعرف أهدافه. لكن لسوء الحظ فإن الآخرين أقوياء جداً ونحن ضعفاء جداً».

الشيخ أحمد: «نحن ضعفاء لأن أذناب أوروبا هؤلاء سرقوا الدين من الشعب كما قال التربيدار ولو بكلمات قاسية. وها قد أصبحت تعرف الحقيقة الآن. لكن الضعفاء ليسوا بأنذال. ولا أستطيع أن أعرف فيما إذا كانت جهودك من أجل الأرمن تشكل خطراً عليك. لكن يمكن أن تكون شديدة الخطورة على الآغا والكابتن. فإذا ما وشى خائن أو جاسوس من الدولة بهما فيمكن أن يوضعا في غياهب السجن إلى الأبد».

جوهانس لبسيوس (ينحني فوق يد الشيخ أحمد ليقبلها، لكن القبلة لا تكتمل نظراً لأن الكاهن يجد أنه لا يستطيع التغلب على شعوره بالخجل وتحفظه): إني أبارك هذه الساعة وأبارك أخاك نظمي الذي أحضرني إلى هذا المكان. فلقد فقدت كل أمل. أما الآن فإن الأمل يحدوني مرة أخرى بالرغم من جميع القوافل ومعسكرات الاعتقال. إذ ما زالت هناك إمكانية لإنقاذ قسم من الشعب الأرمني بفضل مساعدتكم».

الشيخ أحمد: «هذا بيد الله وحده. يجب أن تحصل على موعد مع الآغا».

جوهانس لبسيوس: «هل توجد ثمة فرصة في إنقاذ هؤلاء الأشخاص على جبل موسى؟».

الترييدار (غاضباً مرة أخرى، إذ أن هذا التعاطف مع الثائرين كان كثيراً على قلبه): يقول الرسول إن ذاك الذي يتوسط لدى القاضي ليدافع عن خائن فهو خائن ،لأنه يثير القلاقل سواء كان عن قصد أو غير قصد».

الشيخ أحمد (لأول مرة يتخلى عن طريقته الرادعة وتبدو عيناه ساهمتين وكلماته غامضة): «لعل أولئك الذين ضاعوا هم في أمان، والآمنون قد ضاعوا للتو».

ثم أحضر خادم الشيخ والبواب ذو العينين اللطيفتين قهوة وشيئاً من الحلويات التركية. وقدم الشيخ أحمد بيده فنجان القهوة إلى ضيفه. وكان جوهانس لبسيوس يود العودة إلى التحدث عن الأرمن قبل الانتهاء من هذا اللقاء، إلا أنه لم يفلح. فقد رفض الشيخ بشكل سلبي التحدث أكثر من ذلك، إلا أن الآغا رفعت بركات وعد الكاهن بزيارته في المساء في الفندق إذ كان عليه أن يغادر استانبول بعد ثلاثة أيام.

عندما وصلا إلى مبنى وزارة الحربية، استأذن الدكتور نظمي بك لبسيوس بالانصراف. وكانا قد سارا طول الطريق في صمت مطبق. وقد تصور التركي أن ما رآه قد أثر على الكاهن بحيث كانت أفكاره مشغولة، ولذلك لم يفه بكلمة واحدة. كان ذلك حقيقي فعلاً ولكن بمنظور مختلف. فلم يكن الكاهن يفكر كثيراً بعالمه الجديد الغامض الذي أمضى فيه بضع ساعات بل كان يشغله أمر كيفية التسلل إلى المناطق الداخلية. وبقي يضغط على يد نظمي لكي يعبّر له عن شكره دون التفوه بكلمة. ومرت الكلمات التي قالها نظمي دون الشعور بها. حيث كان التركي ينصحه بتوخي الحذر في الأيام القليلة القادمة لأن ثمة أحداثاً طفيفة يمكن أن تجري له فأي إنسان يحظى بشرف لقاء الشيخ أحمد سيتعرض بالتأكيد إلى أحداث عديدة، التي إن شوهدت في منظورها الصحيح، ستكون مليئة بالمعاني. وعندما بقي وحده بقرب مبنى وزارة الحربية راح لبسيوس يحدق في نوافذ قلعة أنور المتلألئة بأشعة شمس بعد الظهر. ثم اندفع إلى عربة أجرة وقال للسائق «إلى البطريركية الأرمنية». ولم يعد يأبه الآن بجميع جواسيس العالم. وما أن وصل هناك حتى اندفع إلى البطريرك الأشبه بجثة. فقد كانت فكرة المطران زافين في سبيلها إلى التحقيق. كانت الأوساط التركية القديمة تمد يد المساعدة للأرمن مع أن أحداً لم يكن يعرف ذلك حتى الآن. إذ كانت الخاصة من الأتراك يغلون حقداً لزعمائهم الملحدين، ويجب أن يستخدم ذلك

للقضية العادلة. وضع المطران زافين أصابعه على شفتيه مشيراً بالسكوت بتوسل: «أرجوك لا تتكلم بصوت عالٍ كرامة للسيد المسيح ». وكان عقل الكاهن ينظم بسرعة مخططاً جديداً لتقديم العون. وعلى البطريرك أن يتصل سراً مع الطبقات العليا من الدراويش، وإرساء الأسس لمساعدة واسعة النطاق ومتشعبة الأوجه التي يجب أن تنمو حتى تصبح عملاً إنقاذياً. وأنه يجب دعم الطبقة الدينية بين الأتراك في نضالها بدافع جديد قوي وتطوير معارضة قوية ضد أنور وطلعت بين صفوف الشعب نفسه. غير أن المطران زافين كان أقل تفاؤلاً من الدكتور لبسيوس، إذا لم يكن كل ذلك خافياً عليه. وهمس له بصوت يكاد يكون مسموعاً. بأنه لم تكن جميع طبقات الدارويش من هذا النوع. فقد كانت على سبيل المثال أكثر الطبقتين تأثيراً المولوية والرفاعية تكنان كراهية عمياء للأرمن. ومع أنهما كانتا تمقتان أنور وطلعت وأعضاء الجمعية الآخرين، لكنهما لم تكونا ضد الإبادة. لكن لبسيوس رفض أن تتزعزع ثقته، إذا كان عليهم التشبث بأي يد تمتد لهم. وأقترح أن يقابل البطريرك نفسه الشيخ أحمد سراً، وسيقوم نظمي بك بترتيب مثل هذا اللقاء. لكن المطران زافين أصيب بالهلع لهذا الاقتراح الجريء وشعر بالراحة لدى مغادرة الكاهن المتحمس الغرفة.

صرف لبسيوس العربة عند الطرف الآخر من الجسر، إذ قرر أن يعود إلى فندق توكاتليان الذي يقع على مسافة قصيرة سيراً على الأقدام. فبعد أشهر من الكآبة، شعر اليوم بالانشراح الشديد. وكان عقله مليئاً بالمشاريع فسار حتى تجاوز فندقه على طول شارع بيرا الكبير وكانت تهب نسمات باردة عليلة. وكان هذا الشارع أحد أجمل المناطق في المدينة فهو شارع السفراء المضاء بالمصابيح الكهربائية. واتجهت نحوه سيارة تسير بسرعة معتدلة. وكان الضوء مضاء من الداخل. وشاهد لبسيوس ضابطاً ومدنياً بديناً جالسين بجانب بعضهما ويتحدثان بحماس. وانتاب حنجرة لبسيوس ذعر غامض مفاجئ. فقد ميّز أنور باشا، ولا ريب أن الشخص الآخر الذي أزاح طربوشه إلى جانب ويرتدي صدارة بيضاء كان طلعت بك، كما كان يبدو الوزير في كثير من الصور. وهكذا وجد لبسيوس نفسه الآن في مواجهة العدو الكبير. وقف ممتلئاً بالدهشة وهو ينظر إلى السيارة. لكن لم تكد تبعد مائة وخمسين ياردة حتى سمع دوي انفجاري، الواحد تلو الآخر. صوت مكابح السيارة، ثم انطلقت أشكال غير مميزة من الظلال. وانطلقت أصوات حادة. هل كانا يطلبان المساعدة؟ وبدأت أعضاء القسيس ترتعش، أمحاولة اغتيال؟ هل تخلص القدر من أنور وطلعت؟ وهل سيدعى كشاهد؟ وجد نفسه يسير في اتجاه الحادث. لم يرغب في إلقاء نظرة لكنه لم يتمكن من عمل سوى ذلك. واقترب من المجموعة التي كانت تصيح بصوت عال. أشعل أحدهم مصباح استيلين، وفتح السابلة أفواههم وكل يقدم نصيحة. كان السائق ممدداً على الأرض يلعن ويدمدم تحت السيارة. أما أنور وطلعت فقد وقفا بهدوء بجانب بعضهما ينفثان دخان سكائرهما. كان مجرد ثقب في إطار السيارة. إذ برز تحت الإطارين الأماميين شيء حاد وانفجر وأصيبت السيارة بالضرر. لكن الشيء السخيف

هو أن أنور لم يعد أنور وطلعت لم يعد طلعت. وأصبح أحدهما ضابطاً عادياً جداً والآخر رجل أعمال أو موظف مغمور. ولعن لبسيوس خياله الخصب الذي أثار مثل هذه التخيلات ودمدم لنفسه «إني مجنون».

عندما جلس الآغا رفعت بركات في غرفته بعد حوالي ساعة، كان قد نسي كل شيء عن حادث السيارة. وكان الآغا في عمامته البيضاء وجلبابه الأزرق الطويل لا يلائم وجوده في هذه الغرفة من الفندق الأوروبي. وتوسل إليه لبسيوس أن يأخذ خمسمائة ليرة من أموال الإغاثة الألمانية واستخدامها إن أمكنه ذلك في صالح الأرمن على جبل موسى. ومع ذلك، لم يتصرف الكاهن في ذلك باندفاع كما يمكن أن يظن البعض، فهاتان اليدان المشعتان اللتان كان يراهما بنفسه كانت بمثابة وديعة مأمونة لأمواله، ولعله بإمكانه أن يستخدمها بشكل أفضل من جميع القنصليات والبعثات التي لا حول ولا قوة لها. ولعلها في نهاية الأمر تنفق بالطريقة المخصصة لها. وكتب رفعت بركات وصلاً رسمياً بأحرف منمقة بالمبلغ، غطت صفيحة كاملة وقدمها إلى الألماني وقال له: « سأبعث لك رسالة تتضمن تفاصيل جميع مشترياتي ».

– « لكن في حال عدم تمكنك من توصيل المؤن إلى الجبل ؟ ».

– «يوجد لدي وثائق ممتازة.. لا تخشَ شيئاً. أما المبلغ المتبقي فسأقسمه بين معسكرات الاعتقال وسوف تصلك التفاصيل».

وطلب منه لبسيوس أن يوجه رسائله إلى نظمي بك وذلك للحرص ويجب أن يكون حذراً إذ لا يمكنهم المجازفة بفشل هذه الوسيلة الجديدة.

– «هكذا إذن لم آت إلى استانبول مقابل لا شيء». قال الدكتور لبسيوس بنفسه وبعد أن قاد الآغا إلى الشارع عاد إلى غرفته. وكان هذا الزائر التقي قد خلف شيئاً في هذه الغرفة الصغيرة، هدوء أكثر عمقاً من قبل. وبعد أن أضحى الكاهن متأكداً بأن يومه قد تقدم بنجاح ذهب إلى سريره. ولم يكن قد أدرك حتى الآن بوضوح شديد كم كانت هذه الشخصيات التي التقاها اليوم: الشيخ أحمد وابنه والتربيدار أتقياء وأكبر من الحياة. وأخلد للنوم، لكنه لم يدم طويلاً. فقد أيقظه هزيم الرعد الممل في الليل. وكان زجاج نوافذه يرتج من شدة الصوت. كان هذا الصوت مألوفاً. إذ كانت مدافع الأساطيل الفرنسية والانكليزية تدك المدينة. نهض جالساً على السرير. وراحت يده تبحث عن المفتاح لكنه لم يجده. كانت أشبه بطعنة حادة في القلب. ألم يحذره نظمي من تدقيق كل حادثة صغيرة؟ وأن لكل شيء مغزاه الخاص. لقد كانت تلك المحاولة التي استهدفت حياة طلعت وأنور وجهاً من أوجه الحقيقة وليس وهماً فارغاً. ولكن في علاقة عضوية عميقة مع قوة الشيخ أحمد. وغزا روحه وجل عميق. هل ألقى نظرة إلى المستقبل أم استسلم فقط إلى فكرة قاتلة غامضة في نفسه؟ وأخذت المدافع تدوي. وارتج الزجاج. عبث. عبث. حاول أن يقول لنفسه. لكن قلبه المضطرب كان يعرف للتو أن الله أعاد العدل قبل أن تنوء الموازين بحملها الثقيل.

2- انطلاق ستيفان وعودته

انطلق هايك والسباحان أمام أعين جميع الناس الذين تجمعوا عند الغسق حول المواقع الشمالية لمشاهدتهم وهم ينطلقون. وللمرة الأولى لم يحضر كابرييل حدثاً عاماً بهذه الدرجة من الأهمية. ومع ذلك فقد بدا أن أحداً لم يفتقد الزعيم، ذلك الرجل دحر الأتراك في المعارك العظيمة الثلاث. ذلك القائد الذي يكنُّ له أهالي القرى السبع عن عظيم شكرهم وامتنانهم وذلك لبقاء بضعة آلاف منهم على قيد الحياة، والذين يمكن أن تتيح لهم الظروف فرصة النجاة بأرواحهم. أما ستيفان فقد فقدَ مكانته المرموقة بين زملائه، ويا له من يوم مليء بالكوارث! إذ لم يسمح له بالتطوع لأنه اعتبر غير مؤهل مثل هايك لمثل هذه المهمة، ذلك البطل الذي استولى على مدافع الهواتزر! وكان ذلك لم يكن كافياً، فقد وبخه والده أمام الجميع وقلل من شأنه أمام اسكوهي وجميع رفاقه. وكان من الطبيعي جداً أن ستيفان الطموح والذي طعن في كرامته قد أدرك القلق الذي يبطن كلمات أبيه اللاذعة والمليئة بالكره والحقد. فلقد كُتبت فيه جميع المشاعر بالطموح والزهو ولم يبق فيه سوى هذا الحزن المحترق. فقد تشاجر مع والده وفقد أمه بطريقة غامضة. فكان كل هذا أشد حزناً من الموت نفسه. ومع مرور الوقت، أتضح له بأنه لم يعد بوسعه العودة إلى أي منهما. وبطريقة غريبة شعر بانقطاعه عنهما. فلقد أصبحا عدوين بالنسبة له. وحتى قبل أن يتخذ قراره الحاسم قرر أن يتجنب منطقة الخيام الثلاث. إذ أصبح لقاء السيد كونزاك مرة أخرى ومشاركته في مكان نومه أمراً غير وارد، وذلك لأن اليوناني، أصبح الآن في نظر الصبيان حقيراً تافهاً. ومع حلول المساء اتخذ ستيفان قراره النهائي وحسم الأمر. فقد زحف إلى خيمة الشيخ وملأ ما رآه ضرورياً في جعبته، وصمم أنه مهما عانى فلن يأكل مرة أخرى على مائدة أمه أو ينام في سرير والده. وسيعيش وحده بعيداً عن الجميع رغم أن القرار كان مستحيلاً. ثم، وقف بعد ذلك بضع دقائق خارج باب خيمة جولييت التي ربط بابها بقوة من الداخل. ولم يسمع كلمة أو صوتاً يصدر من داخلها، ولم يكن يصدر سوى الضوء الخافت من المصباح الزيتي من خلال الفتحات. ثم توجه إلى المواقع الشمالية حيث كانت الحشود متجمهرة بانتظار انطلاق هايك والسباحين. ولم يتحدث أحد إليه، ذاك البطل الساقط. بل وأخذ الجميع يحدقون به بغرابة وأشاحوا بوجوههم عنه. وأخيراً استلقى ستيفان وراء إحدى التحصينات الدفاعية حيث كان بإمكانه المراقبة دون أن يلحظه أحد.

في البداية انطلق السباحان بعد أن حملا بالأماني بالتوفيق. ونظراً لأنهما كانا ينتميان إلى الطائفة البروتستانية، فقد وجّه إليهما القسيس آرام توماسيان كلمة. ورسم دير هايكازون إشارة الصليب على جبهتيهما. ثم قاد الكاهن والقسيس الشابين وراء الخنادق الأولى وثم إلى منحنى الممر حيث يمتد السفح العشبي نحو الشمال. وفي الوقت نفسه قال دير هايكازون بضع كلمات للشاب المراسل الذي سيجري إلى حلب ومنحه بركاته ورسم شارة الصليب على جبهته. وكان هذا الوداع أسرع وأكثر عرضاً، إذ لم يكن لدى شوشيك والدته أي أقارب في هذه البقاع، كما لم تتخذ لها أصدقاء، إذ كانت تعتبر دائماً أن الغرباء موضع شبهة. لذلك رافقها آرام توماسيان ودير هايكازون، بينما قدمت الآن كنزها الوحيد المتبقي لها. ابنها هايك. وضم دير هايكازون الذي اعتبر نفسه والداً له، وقبل هايك، ثم مد يده للصبي لكي يقبلها. وقدم له هو وآرام مبلغاً من المال الذي يمكن أن يحتاج إليه في رحلته، ثم تركا الابن والأم وحدهما، ولم تفعل شوشيك شيئاً سوى أن راحت تمسح جبهة هايك قبل أن تستدير لتتبع الراهبين.

كانت هذه هي المرة الأولى التي يقضي فيها كابرييل باكراديان الليلة بأكملها في الخندق الشمالي، وكان المجلس قد سلم أمور القيادة في هذه الليلة إلى الجاووش نورهان. ولحسن الحظ لم تكن الدلائل تشير إلى وجود احتمال بشن هجوم تركي، فقد أعلن الكشافة عن عدم وجود حركة مريبة في الوادي. ولم يسيطر هذا الاحساس بالأمن أفراد الحامية فقط بل كذلك نورهان الذي راح يلعب الورق مع رفاقه. وكان الجميع يشعرون بالراحة. وكان الحراس يغادرون أماكن حرسهم للتحادث مع رفاقهم. كما سمحت القيادة في تلك الليلة بتجاوز إحدى المحظورات الصارمة وأشعلوا بعض الأغصان الصغيرة. شيء لم يكن ليحدث مع وجود كابرييل. وقد مكّنت هذه النار والأصوات المرتفعة ستيفان من التسلل بسرعة إلى الطرف الآخر دون أن يلحظه أحد. فقد كان في عجلة من أمره لأنه ظن أن هايك لابد وأن يكون قد انطلق الآن. وأخذ ستيفان يركض بكامل طاقته. ولم تكن جعبته التي تحوي خمس علب من السردين وبضعة ألواح من الشوكولاته، وقطعتين من البسكويت وبعض الألبسة الداخلية ثقيلة والترمس الذي كان والده قد نسيه في الخيمة والذي كان قد طلب من كريستوفور إملاءه بالنبيذ بالإضافة إلى غطاء وآلة تصوير. وانتظر ستيفان في مكمنه حتى يدع هايك أن يتقدم. إذ يجب أن يكون أمام صديقه وقت لكي ينسى الوداعات قبل أن يجري وراءه. لكن ستيفان لم يحسب حساب هاكوب، ذلك العاجز ذو الشعر الأصفر، الحاس الذي لم يتمكن من ثني ستيفان عن عزمه. فقد أنب هو أيضاً صديقه. صحيح أن هاكوب كان قد بذل كل جهده للتخفيف من وطأة الخيانة عندما بدأ الجميع يطاردون ستيفان. لكن العجزة، شأن كل الناس الممقوتين الآخرين يجدون من الصعب كبح مشاعر النصر عندما يشاهدون خزي شخص متفوق حتى لوكان صديقاً عزيزاً عليهم. ولم يشعر هاكوب بالذنب فقط، بل انتابه قلق شديد مفعماً بالهواجس وأخذ يبحث عن ستيفان لساعات طويلة وهو يقفز على رجله الوحيد حول المعسكر وفي جميع الأماكن التي يتجمع فيها الصبية. حتى أنه تجرأ واختلس النظر في خيمة جولييت من خلال إحدى فتحات باب الخيمة. ولم يتمكن

من انتزاع ما رآه من مخيلته بسهولة: المرأة الطويلة المشوقة البيضاء ممددة كجثة هامدة على السرير، والقائد واقف أمامها ويحدق بها وكأنه يحلم. وعندما وقع نظر هاكوب على ستيفان ومعه الجعبة بين الحشد الذي جاء لوداع المراسلين، أصبحت مخاوفه الغامضة أموراً مؤكدة. وتمكن أخيراً من الإمساك بستيفان وهو يلهث.

- «يجب ألا تفعل ذلك..لا.. يجب أن تبقى هنا» لكن ستيفان رمى هاكوب أرضاً بضربة منه وقال «أيها الكلب القذر.. لاأريد شيئاً منك أكثر من ذلك».

لم يكن ابن كابرييل كالذي يصفع بسهولة. لكن هاكوب امسكه من ساقه.

- «يجب أن لا تذهب. لن أدعك تذهب. يجب أن تبقى هنا».

- «دعني أذهب أو سأركلك في وجهك». لكن العاجز تشبث بستيفان وراح يتوسل «يجب أن تبقى. إن أمك مريضة! ألا تعرف ذلك بعد...».

حتى ذلك لم يجد نفعاً. تردد ستيفان لحظة فقط ثم قال: «لا يمكنني أن أفعل شيئاً من أجلها...» قفز هاكوب بضع خطوات إلى الوراء «ألا تعرف أنك لن تعود أبداً إلى هنا وأنك لن تراها ثانية ؟ ». وقف ستيفان برهة وراح يتطلع إلى الأرض، لكنه استدار وأخذ يجري خلف هايك. وتابعه هاكوب وهو يقول: «سأصرخ.. سأوقظ الجميع. سيمسكون بك. وسأصرخ أقول لك». وبالفعل أخذ يصرخ. لكن صوته الرفيع لم يكد يسمع أحداً سوى هايك الذي لم يبعد مئتي ياردة عنهما. استدار هايك وتوقف عن الجري. فاندفع ستيفان للقائه يتبعه هاكوب «هايك.. سآتي معك».

انتظر هايك حتى اقتربا منه قبل أن يرد عليه. وراح يتفحص ستيفان «لماذا تؤخرني؟ يجب أن لا أضيع ثانية واحدة». ضم ستيفان قبضتيه وقال: « أقول أني أريد أن أذهب معك إلى حلب ». وكان هايك يمسك بغصن شجرة واستخدمه كسلاح لمنع هذا المتطفل: «لقد أرسلني مجلس القادة وقد باركني دير هايكازون. وأنت لم يرسلك أحد ولم يباركك أحد». أمسك ستيفان بطرف عصا هايك التي راح يضغطها وكأنه يصافحه: «يوجد مكان لي ولك ».

- «إنها ليست مسألة أنت أو أنا.. إنها مسألة إيصال الرسالة إلى القنصل جاكسون. وضع ستيفان يده في جيبه كأنه انتصر وقال: «لقد نسخت الرسالة الموجهة إلى جاكسون، واثنان أفضل من واحد». غرز هايك عصاه في الأرض ليضع حداً لذلك: «إنك تحاول دائماً أن تكون أذكى من الجميع ».لكن ستيفان لم يتراجع عن قراره: «افعل ما تشاء! يوجد متسع لكلينا، ولا تستطيع منعي من الذهاب إلى حلب ». فرد هايك: «لكنك يمكن أن تحول دون وصول الرسالة إلى هناك». «أنت لست أفضل مني في الجري» أجابه ستيفان.

فبعد كل الجروح التي تلقاها ستيفان اليوم، كان ذلك أكثر مما يحتمل. فجلس على الأرض وخبأ وجهه وأجهش بالبكاء. لكن هايك جعله يشعر بازدراءه وقال: «تبكي وتقول أنك ترغب في الذهاب إلى حلب!» أخذ ستيفان ينشج قائلاً : «لا أستطيع أن أعود الآن . آه يا إلهي لا

أستطيع أن أعود»، لكن هاكوب استجمع شجاعته واعترض بشكل يائس «ماذا؟ أستطيع أنا أن أمنعه. المسيح المخلص. سأذهب وأخبر القادة». فرد هايك: «ماذا؟ تخبر القادة؟ ولكن قبل أن تفعل ذلك... أبتر لك ساقك الثاني ثم أدار وجهه إلى استيفان وسأله: «هل لديك ما يكفي من الطعام لخمسة أيام؟ فإن الرحلة ستستغرق ذلك الوقت، إذا ما وصلنا إلى هناك...» ضرب ستيفان على جعبته مطمئناً وأمره هايك بلطف:«حسن هيا امشِ بسرعة. لقد أضعت وقتاً طويلاً». وأخذ يسير وستيفان وراءه.

بينما كان السباحان يدوران حول صخور رأس الخنزير، أخذا يوجهان خطواتهما بثقة نحو أرسوز القرية الساحلية، سار الصبيان طوال الليل في ممرات ووهاد منخفضة ومرتفعة عبر الجبال. وكان هايك قد حُذِّر بأن يبقى بقدر ما يستطيع على محاذاة سفح الجبل حتى يصل إلى الطرف الشمالي من ممر بيلان. وعند وصولهما إلى السهل عن طريق قرق خان، كان عليهما أن يسيرا بمحاذاة الطريق العام المؤدي إلى حلب عن طريق حمام. وكانت ليالي آب المقمرة تجعل من السهل عليهما أن يشقا الطريق فوق حقول الذرة، حيث بإمكانهما أن يجدا ملجأً كافياً في حال تعرضهما لأي خطر. لكن فور الاقتراب من المدينة الكبيرة كان من الأفضل الخروج إلى الطريق العام والقفز فوق إحدى عربات الفلاحين المحملة بالذرة أو جذور العرق سوس والاختباء تحتها لاجتياز الحواجز العسكرية عند حدود مدخل المدينة. ولكنه مهما حدث فيجب ألا يعثر أحد على الرسالة الموجهة إلى جاكسون. وشرح هايك كل ذلك بدقة إلى ستيفان وشرح له المخاطر والعوائق التي يمكن أن يواجهاها ما إن تطأ أقدامهما السهل. ثم توقف هايك وحذر ستيفان: «يوجد أمامك الآن وقت إذا أردت أن تعود. لا يمكنك أن تضيع . فكر في الأمر وإلا فلن تتمكن من عمل ذلك بعد الآن».

قام ستيفان بحركة غاضبة. لكن قلبه كان مفعماً بالشكوك. وبدت فجأة أن أسباب هربه من البيت غير منطقية كما كانت تبدو. أشار هايك إلى الداملاجيك وقال: « لن تعود أبداً إلى هناك ولن تراهم ثانية». كان باكراديان الصغير ما زال غير قادر على معرفة ما يريده حقاً. وكان يتمنى الموت على أن يفكر هايك بأنه جبان.

قال له هايك: «يجب علينا أن نضع الآن عمامات لكي لا يلاحظنا أحد» ومد نطاقه وربطه بحذق حول قبعته المصنوعة من الكتان. وعمل ستيفان قبعته بشكل سيء فتدخل هايك لمساعدته. وبينما كان يفشل في صنع غطاءه الرأسي قال لستيفان الذي كانت تعوزه الخبرة: «إذا دعت الضرورة يجب عليك أن تقلدني. افعل ما أفعله تماماً ولا تتحدث أبداً». كان الوقت قد تجاوز الظهر. وكان قد مضى على مسير الصبيين ست ساعات على الطريق. غير أن كلمة الطريق هنا مجازية، إذ كانا يشقان طريقهما على طول الجداول الجافة لكي يكونا متأكدين من سيرهما باتجاه الوادي. وامتلأت ركبتا وساقا ستيفان بالخدوش والجروح من جراء سيرهما فوق الأعشاب الجافة والأشواك. ولساعات طويلة لم يتفوه بكلمة واحدة. لكنه لم يتذمر. ثم جلسا فوق صخرة

عارية تطل على الطريق العام الأبيض اللون الممتد من بيلان وكانت أكوام الحجارة على طول الطريق تشير إلى أنه من صنع البشر. وفي الحقيقة فإن فضل هذا الطريق الفرعي الذي كان يربط ميناء اسكندرونة بسهول حلب، أي البحر المتوسط مع آسيا يعود إلى نشاط وحماس الدكتاتور جمال باشا حاكم سورية. فقد أصدر الجنرال ذو الإرادة الحديدية أوامره بأنه يجب أن يصبح هذا الطريق السيء طريقاً عاماً جيداً خلال شهر واحد. وبالفعل فقد تم ذلك. وأصيب الأتراك بدهشة كبيرة للقدرة التي يمتلكونها. وفي هذه النقطة، وتحت ناظري هايك وستيفان، كان الطريق ينحني باتجاه الشرق. وكان بإمكانهما رؤية شطر صغير منه، ولم يكن يسير عليه أي مخلوق. ودون أن ينبس بكلمة إلى ستيفان، قفز هايك وأخذ يجري في السفح، وتبعه ستيفان. وعندما شعرا بالطريق الأملس تحت قدميهما، كان أشبه بشراب عندما يكون المرء عطشاً. وتجددت طاقة ستيفان وأخذ يسير إلى جانب هايك. وكانت ترتفع على جانبي الطريق حواف وجروف حادة، ثم أصبح الطريق أشبه بممر ضيق بين جرفين. ثم اتسع الجرفان قليلاً، وانحدر الطريق بشكل حاد. لكنهما عندما وصلا إلى المنحنى، لم يجدا الوادي أمامهما، بل محرساً تركياً يرفرف فوقه العلم التركي. وكان يقف أمامه أربعة رجال من الدرك القساة. وسرعان ما تبين لهما أن فرق العمل تشق الطريق على طول الحافة. وانتابهما هلع شديد بحيث أن هايك تسمر في مكانه دقيقة كاملة دون حراك. لكنه أمسك بسرعة يد ستيفان وأخذ يجره بعيداً. وراحا يجريان حول المنحنى وبين الأشجار. ولسوء الحظ كان المكان مكسواً بالصخور العارية مما جعل أمر الاختباء وراءها صعباً، كما لم يكن من الممكن الاختباء وراء أشجار الزان الرفيعة الصغيرة ثم ارتفع المنحدر قليلاً. إلى أين الذهاب يا ترى؟ وتمكن هايك من رؤية رأس الدركي المنحني إلى الأمام وقد وضع كفه فوق جبينه مظللاً عينيه وهو يزمجر ويصدر أوامره. كان ذلك أسوأ من كابوس . وبدأا يسمعان صوت خفيف أوراق من خطوات الأتراك. أغلق ستيفان عينيه واقترب من هايك الذي أمسك سكينه بيده اليمنى. لكن الهمس الحاد الذي ترامى إليهما لم يكن باللغة التركية، بل باللغة الأرمنية:

– «أيها الصبيان... من أنتما؟ لا تخشيا شيئاً». وعندما فتح عينيه شاهد جندياً أرمنياً بثياب رثة وقد برز من بين أغصان الأشجار مقطوع الأنفاس. تمالك هايك نفسه وأبعد سكينه ثم عاد صوت عامل الطريق يرتعش مضطرباً «ألست أنت ابن الأرملة شوشيك التي يقع منزلها في يوغونولوك؟ ألم تعرفني ؟».

اقترب هايك من الهيكل العظمي. ونظر إليه بحدة: «فاهان ملكينتز من قرية أزيز؟» فهز الجندي العامل رأسه بالإيجاب. وأخذت الدموع تنهمر على خديه الغائرين. رفع ملكينتز يدين يائستين وقال: « هل أنتما مجنونان؟ لماذا جئتما إلى هنا؟ حمداً للمخلص المسيح أن الأونباشي لم يركما. فالبارحة وهنا عند المنحنى قتلوا خمسة أرمن، عائلة تحاول الهرب إلى اسكندرونة» وشرح له هايك عن مهمته. أصيب ملكينتز بالذعر: «إن الطريق مليء بعمال الإنشاءات حتى حمام. والبارحة وصلت إلى حمام سريتان في طريقهما إلى الداملاجيك. كل ما يمكنكما أن تفعلاه هو أن تسيرا ليلاً بمحاذاة مستنقعات البحر الأبيض المتوسط. لكنكما ستقعان في المستنقع ». لكن

هايك رد عليه: «لا.. لن نقع هناك ». وطلب منه أن يدله على أقرب طريق إلى الوادي، فقال ملكينتز بنبرة حزينة «إذا لم يجدوني الآن أو إذا تأخرت سأنال عقاباً بالضرب على القدمين بل وربما رموني بالرصاص ، وكم أتمنى أن يفعلوا ذلك. آه كم كنت أتمنى أن يكون مصيري مثلكم وألا أذهب مع القسيس نوخوديان. لقد كنتم أنتم الأذكياء وليساعدكما المسيح، فهو لم يساعدنا». وقبل أن ينطلقا أعطاهما قليلاً من العسل التركي كانت قد أعطته له امرأة تركية.

كانت الشمس تميل نحو الغروب عندما وجدا نفسيهما يقفان على آخر منحدر من الجبل. وامتدت أمامهما أرض منبسطة فسيحة تمتد حتى الأفق. وراحا يتطلعان إلى بحيرة أنطاكية الكبيرة التي أخذت مياهها تتلألأ تحت أشعة الشمس . وبينما كان ستيفان ينظر إلى البحيرة كانت عينا هايك الحادتان تريان خيام البدو المتناثرة هنا وهناك وعدد من الأحصنة التي ترعى العشب. وأشار متأكداً من الاتجاه: «ذاك هو الطريق الذي يجب أن نسلكه بين الطريق والمستنقع. سننطلق عندما يطلع القمر. أعطني القارورة لأملأها بالماء. إذ يجب أن تشرب ماء كثيراً. وفي الوقت نفسه يمكنك أن تخلد إلى النوم». لكن ستيفان لم يغمض له جفن بل انتظر حتى عاد صديقه وقد ملأ قارورتين بالماء فأخذ يغب من الماء بقدر ما يستطيع. ثم استسلم الاثنان للنوم وقد وسد بعضهما بذراع الآخر. وعندما أفاقا أخذا يسيران في السهول الفسيحة باتجاه الشمال. رأى هايك نهر الأسود، ثم تسلقا جدار الجسر الذي يفصل النهر حتى وصلا إلى الطريق ثانية. وكان المحرس الموجود على الجسر فارغاً. وعندما تجاوزا الجسر بدأ ستيفان يتعثر في مشيته وبدأ يترنح ويمشي بشكل متعرج. وفجأة استلقى على الطريق. ووقف هايك ينظر إليه ثم قال له بيأس: «إني أضيع وقتي معك ». ثم استأنفا السير وبعد مسيرة ساعة تقريباً من الجسر وصلا إلى طريق مشيد فوق دكة حجرية عالية وطويلة ذات ممرات تحيط ببحيرة العمق التي تدعى جسر مراد باشا. وهي البداية الحقيقية للبادية الواسعة التي تمتد على مسافة مئات الأميال بعد حلب والفرات إلى بلاد ما بين النهرين. وفي مكان ليس ببعيد وراء هذه الدكة الحجرية كانت تقبع على الجانب الشمالي من الطريق وعلى سفح هذه الهضاب الصغيرة قرية تركمانية صغيرة تدعى عين البيضة. وكانت تمتد على طول الطريق بيوت منعزلة قبل أن تتكاثف لتشكل القرية. إذ أصدرت حكومة عبد الحميد أمراً منذ خمسين عاماً بتوطين قبيلة من البدو التركمان في هذا المكان.

وكانت أولى تلك المزارع تقع على حافة الطريق. وبعد الشروق بساعة جاء صاحب المزرعة ووقف أمام باب بيته، وأخذ يتطلع إلى السماء ليختبر الطقس ويحدد اتجاه الريح. ثم فرش حصيرة صغيرة وبدأ يصلي وقد اتجه نحو مكة. وبعد قليل أدرك هذا الرجل التقي الورع وجود الصبيين اللذين رآهما بطرف عينه وهما يؤديان حركات الصلاة بالقرب منه. وأخذا يقلدانه في كل حركة من حركاته. وقد أدخل هذا المشهد السرور في نفس التركماني الذي كان كهلاً. وعندما أنهى صلاته اتجه نحوهما وقال: «حسن أيها الوغدان! ماذا تفعلان على الطريق في هذا الصباح الباكر. ماذا وراءكما؟ ماذا تبغيان وعن ماذا تبحثان ؟».

«صباح الخير يا أبتِ» قال هايك « نحن من أنطاكية، وضللنا الطريق عن والدينا اللذين ذهبا بعربتهما إلى حمام. وقد أردنا أن نركض قليلاً فأضعنا طريقنا، وكاد هذا الطفل حسين أن يغرق في المستنقعات وهو الآن مريض. انظر إليه ألا تستطيع أن تمنحنا مكاناً ننام فيه؟». مسح التركماني لحيته الفضية وقال: «يا لهذا الأهل يفقدان ولديهما في مستنقع ثم يذهبان ولا يعبآن بهما؟ هل هذا الصبي أخوك؟».

ردّ هايك قائلاً:«لا.. إنه قريب لي من أنطاكية. اسمي سعد..».

قال التركماني: «حسن.. إن حسين يبدو مريضاً بالفعل. هل شرب ماءً من المستنقع ؟» فأجابه هايك: «أرجوك قدم لنا طعاماً ومكاناً نبيت فيه يا أبتِ!».

ولم يكن ثمة داع لكل هذا الخداع. إذ أن قلب التركماني كان مفعماً بالطيبة. فمنذ أشهر وهو يرى قوافل المهجرين الأرمن تمر من أمام منزله. ولم يكن يتوانى عن تقديم المساعدة للأرمن المرضى والنساء الحوامل، ويقدم لهم الطعام والشراب والأحذية والثياب قدر إمكانيته دون أن يفكر بجزاء هذا العمل الخير يوم القيامة. لكن مثل هذه الأعمال الرحيمة كان يجب أن تتم بمنأى عن الدرك. إذ أن جريمة التعاطف على أرمني تقضي حسب القوانين الجديدة بالضرب على القدمين أو السجن أو في بعض الحالات القتل.

نادى صاحب البيت بصوب حاد، وعلى الفور جاءت امرأتان، واحدة مسنة والأخرى في ريعان الشباب، لكنهما ما إن شاهدتا الصبيين الغريبين حتى أسدلتا حجابهما. وقال لهما بضع كلمات فذهبتا بسرعة. وقاد التركماني ستيفان وهايك إلى منزله، وقادهما إلى غرفة صغيرة فارغة أشبه بمخزن تضيئها فتحة في السقف. وفي أثناء ذلك، دلفت المرأتان وهما تحملان حصراً وأغطية. ومدتا الحصر على الأرض الجافة. وما إن شاهدتا ذراعي وساقي ستيفان المكسوتين بالوحل والأوساخ حتى أحضرتا وعاء من الماء المغلي وفراشي قاسية وأخذتا تغسلانه. ثم أحضرتا لهما صحناً من جريش الشعير مع حليب الماعز ورغيفاً من الخبز وملعقتين خشبيتين. وعندما أخذ الصبيان يأكلان جاء عدد كبير من أفراد الأسرة التركمانية وراحوا يعبرون عن بهجتهم وسعادتهم بهذه الاستضافة ويحثون الصبيين على تناول المزيد من الطعام. ولكن بالرغم من كلماتهم الودية والطعام الدافيء لم يتمكن ستيفان من تناول أكثر من لقمتين، إذ كانت حنجرته متورمة وتسبب له ألماً شديداً. أما هايك فقد تناول وجبته بالكامل. وما إن ابتعد أفراد العائلة حتى غط ستيفان في النوم على الفور، بينما أخذ هايك يرسم خططاً سريعة لمسيرة الغد. وحداه أمل كبير بأن يتماثل ستيفان للشفاء ويصبح على ما يرام لكي ينطلقا مع ظهور القمر. إذ يمكن الوصول إلى حمام بسهولة كبيرة خلال الليل. وكلما كان الطريق خالياً كان ذلك أفضل. فقد كانت المخاطر الكبيرة ما تزال أمامهما، مع أن الشطر الشاق من الطريق قد اجتازاه. واستيقظ هايك من نومه على أصوات حشرجة وأنات. فقد كان ستيفان يتمزق ألماً وقد جلس متكوراً فوق الحصيرة بعد أن أصابه مغص شديد، وكاد يمزق جسده إلى قسمين. وكان كل ذلك بسبب مستنقع العمق.

وشاهد هايك لسع البعوض التي تغطي جسم ستيفان بعد أن أصبح نظيفاً، ولم يعد يستطيع النوم بأي بشكل من الأشكال. وقد غمر هذين الصبيين أصحاب البيت بالعطف، إذ هرعت النسوة ورحن يدفئن أحجاراً مستديرة لوضعها على بطن الصبي المريض، كما أعددن شاياً لكنه لم يتمكن من شربه.

استجاب الفلاح التركماني لتوسلات «أسعد» و «حسين» وسمح لهما بالنوم على سطح البيت. إذ بعد أن بقيا لأسابيع في العراء لم يعودا يتحملان النوم في هذه الغرفة الصغيرة التي تفوح منها رائحة الدهن المقلي. واستلقيا على السطح بين أكوام عرانيس الذرة وجذور العرق سوس. وكان ستيفان الذي يرتعش من الحمى يلتف في حصيرة، ولم يكن يحول عينيه عن الغرب. ففي هذه الساعة من المساء، كانت الجبال الممتدة على طول الشاطىء تبدو ضخمة جداً، بل حتى أضخم مما هي في الواقع. ما الذي جعله يقدم على ذلك؟ وبذل جهده لكي يتذكر لكن دون جدوى. وظل ستيفان الذي انتابته الحمى يحدق إلى الجبال وقد غمرته بهجه عارمة وهو يدمدم: «إنها قريبة.. قريبة جداً.. أعني إن الجبال...» وفجأة انتصب واقفاً، وأخذ يتكلم وأسنانه تصطك « إنها ليست مسألة أنا أو أنت، إنها مسألة إيصال الرسالة إلى جاكسون..». هز هايك رأسه، لكنه لم يحنِ عليه باللائمة. «كان من الأفضل لو منعك هاكوب..». لم يعد وجه ستيفان المتقلص الصغير غاضباً الآن، بل حاول أن يبتسم:« هذا لايهم.. لن أجعلك تضيع مزيداً من الوقت.. سأعود غداً..» خفض هايك رأسه فجأة وأشار إلى ستيفان أن يفعل ذلك. وفجأة سمعا أصواتاً غريبة، وسرعان ما تبين أن قافلة أرمنية صغيرة كانت تسير على الطريق الذي لم يطرقه أحد طيلة النهار، وكانت تنطلق منها أصوات أنّات وحشرجة، وكان يرافقها عدد قليل من الدرك، وهي في طريقها إلى حمام. وقد حدا هذا المشهد بهايك أن يتخذ قراره:« نعم من الأفضل لك أن تعود، ولكن كيف؟ فلن تستطيع أن تجتاز المستنقع بدون مساعدتي » فأجابه ستيفان:« لم لا؟ إنها ليست بعيدة..» غير أن هايك هز رأسه قائلاً:«لا.. لا.. لا تستطيع أن تعبر المستنقع لوحدك. من الأفضل لك أن تعود عن طريق أنطاكية. هناك.. هل ترى؟ فسيكون أسهل بكثير.. لكنك حتى لو سلكت ذلك الطريق فإنهم سيمسكون بك، إذ أنك لا تعرف التركية، ولا تعرف كيف تصلي مثلهم ». عاد ستيفان واستلقى على الحصيرة وأخذ يحلم: « سأسير في الليل فقط.. ربما لن يمسكوني إذا فعلت ذلك ». وراح هايك يفكر إلى أي مدى بوسعه أن يعود معه دون أن يضيع أكثر من يوم من مهمته العظيمة. إلا باكراديان الصغير الذي جعلت الحمى كل شيء يبدو سهلاً بالنسبة له استلقى هناك وراح يدمدم:« لعل المسيح المخلص يساعدني ». وفيما عدا المساعدة الإلهية لم يكن ثمة أمل كبير بعودته سالماً إلى جبل موسى. لكن في هذه اللحظة بدا وكأن السماء كانت تقف إلى جانب ستيفان. إذ صعد التركماني في هذه اللحظة بالسلم إلى السطح وراح يلقي أكوام القصب وجذور السوسن إلى أسفل، فنهض هايك على الفور وراح يساعده بحماس ونشاط شديدين.

عندما فرغا من عملهما قال الفلاح إلى هايك: «إلى أين تريدان الذهاب يا أولاد؟ ففي الصباح الباكر سأذهب إلى السوق في أنطاكية. وبما أنكما من أنطاكية فليس عندي مانع من مرافقتكما،

وسنصل إلى هناك في المساء». وأشار بسبابته إلى الاسطبل الكبير خلف البيت وأردف: « لن أسوق عربة يجرها ثور، بل سأخذ عربتي ذات الدواليب الكبيرة التي يجرها حصاني الصغير». دفع هايك عمامته التقليدية إلى طرف رأسه قليلاً وحك رأسه وقال: « يا أبتِ.. هل تمانع من أخذ ابن عمي حسين معك إلى أنطاكية؟ فهناك يعيش أهله.. أما أهلي فهم يعيشون في حمام. وللأسف فإنك لست ذاهباً إلى حمام بحصانك.. وعليّ أن أسير على قدمي ».

دقق التركماني النظر في هذا الصبي المخادع وقال:« هكذا إذن يعيش أهلك في حمام أليس كذلك؟ الله كريم أيها الشاب. أظنُّ أني أعرف جميع العائلات في حمام..فماذا يعمل أهلك هناك ؟».

أجاب هايك: «ها.. صحيح.. ألم أقل لك يا أبتِ أنهم ذهبوا إلى هناك البارحة؟ وهم يقيمون في خان عمر آغا». رد عليه التركماني قائلاً: «أسعدهم الله هناك يا بني، لكن خان عمر آغا مليء بالعسكر المتوجهين لقتال الأعداء الخونة في جبل موسى».

– «ماذا تقول يا أبتِ؟ العسكر؟ لم يكن أهلي يعرفون ذلك. حسن لعل الجنود قد غادروا الآن. وعلى كل حال، فإن حمام كبيرة ولعلهم وجدوا مكاناً آخر ليقيموا فيه».

بدأ هايك يستعد للانطلاق قبل منتصف الليل، لكنه قبل أن يغادر المنزل بذل كل ما بوسعه لمساعدة ستيفان. فقد ملأ جعبته بقطع النقانق. فلا يعرف أحد سوى الله إن كان سيضل طريقه وتنفذ مؤونته. لكن هايك لم يخشَ من عدم الحصول على طعام في رحلته إلى حلب. وعلى الفور ملأ قارورة ستيفان من ماء الجدول الذي كان يجري بجانب البيت، ونظف ثوب ستيفان. وبينما كان يفعل ذلك بعناية، كان يكرر عليه التعلميات الدقيقة بما يجب أن يفعله: «إن صاحب البيت سينقل هذه الأشياء إلى السوق. ومن الأفضل ألا تنبس بكلمة. إذ إنك مريض– هل تفهم؟ وما أن تصل إلى المدينة اقفز من العربة.. بهدوء شديد دون أن يشعر بك– هل تفهم؟ ومن الأفضل أن تختبيء في أحد الحقول– في حفرة أو خندق، حيث يمكنك أن تنتظر هناك حتى حلول الظلام.. هل تفهم ».

جلس ستيفان متكوراً فوق البساط يضغط بطنه بعد أن عاوده المغص. ولم تكن تكسو السماء غيوم كالليلة الماضية، بل كانت صافية الأديم، وكان درب التبانة يطل متلألأ فوق سطح التركماني. وللحظة أحس ستيفان بيد هايك في يده. كان ذلك كل شيء وسمعه يقول: «اسمع – لا تنس أن تمزق رسالتك الموجهة إلى جاكسون». كان هايك يهم في النزول على السلم، إلا أنه عاد فجأة إلى ستيفان وبدون أن ينبس بكلمة رسم شارة الصليب على جبهته وعلى صدره بشيء من الحياء وانطلق.

كان طريق العربات خارج قرية عين البيضا يلتف نحو السهول. وأخذ التركماني يحث حصانه لكي يسرع. أما ستيفان فكان مستلقياً على حصيرة بين أكوام القصب وقد عاودته الحمى. وعندما عبرا نهر عفرين الصغير عن طريق جسر خشبي، فكر الفلاح أن الوقت قد حان

للتوقف لنيل شيء من الراحة. ففك الحصان عن العربة وعلق حول رقبة الدابة كيساً من العلف. وكان على ستيفان كذلك أن يترجل من العربة ويجلس بجانب الرجل على قارعة الطريق في هذه البادية الجافة. ولم يكن هذا الطريق مطروقاً كثيراً، إذ لم ير طيلة الصباح سوى عربتين قادمتين من الاتجاه المقابل. إذ أن معظم الفلاحين في تلك البقاع كانوا يستخدمون الطريق العام الكبير المؤدي من حمام إلى أنطاكية. وأخرج التركماني رغيفاً مرقداً من الخبز وجبن ماعز ودفع بعضاً منها إلى ستيفان وقال له:« هيا يا بني كل، فالأكل يقضي على الألم». ولم يشأ ستيفان أن يجرح مشاعر مضيفه، وبذل جهداً كبيراً في ازدراد بعض الجبن، وراح يمضغ ويمضغ لكن دون أن يتمكن من ابتلاعها. وراح التركماني الودود يتطلع إليه بعينين قلقتين وقال: «لعلك بحاجة إلى قوة أكبر مما لديك يا ولدي الصغير». لكن ستيفان لم يكن يفهم ما كان يقوله التركماني، لكنه انحنى ووضع يده فوق قلبه وكرر الجملة التي علمه إياها هايك «إني لست على ما يرام». بقي التركماني صامتاً بعض الوقت، ثم بدأ يحرك فكيه القويين وقد أمسك بالسكين وأخذ يحركها كما لو أنه يقطع شيئاً إلى شطرين، وشعر ستيفان بجسده يتجمد عندما سمع كلمات ارمنية:«إن اسمك ليس حسين! كفّ عن رواية هذه القصص. هل تريد حقاً أن تذهب إلى أنطاكية؟ لا أصدق ذلك ».

كان ستيفان فاقد الوعي تقريباً. إذ أنه بالرغم من الحمى التي انتابته كان يتصبب عرقاً بارداً من جبهته. وكان يظهر من عيني التركماني الصغيرتين شعور بالأسى وقال: «لا تخف، مهما كان اسمك، ضع ثقتك بالله. فطالما بقيت معي لن يحدث لك شيء بإذن الله». استجمع ستيفان أفكاره وحاول أن يتلعثم بشيء من التركية، إلا أن الفلاح أشار إليه بأن يصمت، وكانت يده ما تزال تلوح بالسكين، إذ لم يكن بحاجة إلى مزيد من الكلمات، فقد كان يفكر بأسراب الناس البائسين الذين كانوا يمرون ليلاً ونهاراً من أمام منزله برفقة الدرك.

- «من أين أنت أيها الصبي؟ من الشمال؟ هل هربت من القافلة؟ هل تم ذلك ؟».

لم يعد الإنكار يجدي الآن. فهمس بكلمات أرمنية سريعة بحيث يسمع مضيفه فقط وليس العالم المعادي له:«إني قريب من هذه المنطقة، من جبل موسى. من يوغونولوك وأريد العودة إلى أمي وأبي ».

- «إذاً أنت واحد من أولئك الذين صعدوا إلى جبل موسى ويقاتلون الجنود؟ ثم أصبح صوت الفلاح يهدر هدراً. فقال ستيفان في نفسه إن الأمر قد قضي، واستلقى على جانبه مستسلماً للقدر ودفن وجهه في العشب الجاف. أما التركماني الذي كان ما زال يمسك بسكينه فقد سأله:«ولكن ما هو اسم الصبي الآخر- ابن عمك أسعد؟ إنه ذكي ولا يمكن كشفه بسهولة مثلك ». لم يرد ستيفان.. وانتظر الموت باستسلام، لكنه لم يجد يدين قاسيتين بل يدين لطيفتين تحملانه وسمعه يقول: «لا يمكنك أن تحمل وزر والديك. أرجو من الله أن يعيدك إليهما. مع أن ذلك لن يجديك شيئاً، وهما كذلك. هيا الآن، سنرى ماذا سنفعل». ووضع ستيفان ثانية بين أكوام القصب. وبدا الآن أن التركماني قد أصبح في عجلة من أمره، فراح يحث حصانه الصغير ليجري بسرعة. ثم

توقف الفلاح وطلب من ستيفان النزول من العربة ففعل ذلك بصعوبة، ورأى في مكان ليس ببعيد بلدة جرداء صغيرة تحيط بها جدران عالية، وبيوت بيضاء اللون مبعثرة عند السفح. وأشار التركماني بسوطه وقال: « هذه قلعة حبيب النجار في أنطاكية، والآن يجب أن تختبىء بشكل أفضل» وأخذ يزيح حزم القصب وترك فجوة عميقة في العربة وقال له:« اختبىء هنا يا ولدي وسآخذك إلى المدينة بل أبعد قليلاً حتى جسر الحديد. لكن ليس أبعد من ذلك. هيا اصعد الآن واستلق هنا ولا تتحرك ».

تمدد ستيفان وغطاه الفلاح بمهارة كبيرة بحيث ترك له منفذاً لكي يتنفس. وبعد قليل ترامى إلى سمع ستيفان وهو في مخبئه أصوات مختلفة. وفجأة توقفت العربة واقترب عدد من الرجال وتجمعوا حول العربة. لا بد أنهم الدرك أو الشرطة أو الجنود. وتناهت إلى ستيفان أصوات مبهمة ولكن عالية.

- «إلى أين أنت ذاهب أيها الفلاح؟».

- «وإلى أين سأذهب سوى سوق المدينة ».

- «هل أوراقك على ما يرام؟ أعطني إياها.. ماذا تحمل معك ؟».

- «بضاعة لأبيعها في السوق. قصب وحزمتان من عرق السوس».

- «أليست بضاعة مهربة؟ أنت تعرف القانون الجديد؟ يجب تسليم الحبوب والذرة والبطاطا والأرز والزيت إلى السلطات ».

- «لقد سلمت كل ما لدي من الذرة في حمام».

وأخذت بعض الأيدي تجوس فوق الطبقات العليا من الحزم بشكل عاجل واعتباطي. وانتاب ستيفان شعور مختلط بالشجاعة والخوف. غير أن الحصان المتعب استأنف سيره وعبر نفقاً من الضجيج، وأخذ الضوء الذي كان يتخلل الأغصان يخف شيئاً فشيئاً إلى أن ساد الظلام، ولم يعد ستيفان يرى أي بصيص ضوء. وسمع صوتاً للمرة الثانية يطلب من التركماني الوقوف، لكنه لم يتوقف على الفور، وتبعه صوت عال مؤنباً:« ما هذه الأساليب الجديدة؟ في المرة الثانية يجب أن تسير أثناء النهار. هل تفهم؟ ألن تدركوا أيها الحمقى إننا في حالة حرب ؟».

كانت حوافر الحصان تقعقع فوق الأحجار المربعة المرصوفة فوق جسر الصليبيين والذي يطلق عليه جسر الحديد لسبب لا يعرفه أحد. وعندما اجتازا الجسر رفع التركماني الحمل عن ستيفان الذي أنهكته الحمى. واستلقى الآن وهو متدثر بغطاء فوق حزم القصب. انتاب التركماني السرور وقال لستيفان:« افرح يا بني. فلقد تجاوزنا أسوأ الأمور! إن الله يحميك. سآخذك يا بني إلى أبعد من ذلك، حتى مكنوليا حيث يمكنني أن أمضي الليلة عند أحد أصدقائي ». ثم أخذ يحث حصانه لكي يسرع في الوصول بأسرع ما يمكن مع ستيفان إلى قرية مكنوليا - حيث يتبقى أمام ستيفان مسافة عشرة أميال سيراً على الأقدام إلى النقطة التي يتفرع عندها الطريق المؤدي إلى

وادي القرى السبع. لكن التركماني لم يكن يعلم بالمشاكل التي تعترض مصير الأرمن. فقد استيقظ ستيفان على أضواء مصابيح الاستيلين وهي تعلو وتنخفض فوق وجهه. وكانت بذّات عسكرية تنحني فوقه: شوارب ومعاطف. وكانت العربة تقف في وسط معسكر إحدى السرايا التي أرسلها الوالي من مدينة كلس إلى قائمقام أنطاكية تقف لدعم القوات. وكانت خيام الجنود منتصبة في صفين على طول الطريق. واتخذ الضباط منهم مقراً لهم في مكنوليا. وقف التركماني بهدوء بجانب عربته وكان يضرب حصانه ربما لتغطية المخاوف التي تنتابه. سأله أحد الضباط «إلى أين ذاهب؟ ومن هذا الصبي؟ هل هو ابنك ». هز الفلاح رأسه مفكراً:«لا. لا. إنه ليس ابني» وحاول أن يكسب الوقت لكي يشكل فكرة معقولة. زمجر به الضابط بأن لا يقف هناك. ولحسن الحظ كان التركماني يعرف أسماء معظم قرى المنطقة. أطلق تنهدة الآن وأمال رأسه وقال: «إننا ذاهبان إلى سيريس، هناك عند سفح الجبل ». استدار الضابط وراح يحدق بحدة إلى ستيفان. قال له التركماني: «نعم. انظر جيداً إلى الصبي. فعلّي أن أعيده إلى عائلته في سيريس». وفي هذه الأثناء بدأ العرفاء والجنود يتجمعون حول العربة. لكن التركماني بدا فجأة مفعماً بالإثارة: «لا تقتربوا أكثر.. لا تقتربوا أكثر انتبهوا».

وبالفعل أثار هذا التحذير الضابط، فنظر إلى الفلاح الذي أشار باصبعه إلى ستيفان «ألا تلاحظ أن الصبي محموم ولا يعرف أين هو؟ ابتعدوا عنه أنتم هناك.. إذا أردتم ألا تصابوا بالعدوى أيضاً. فلقد أبعد الطبيب الصبي عن أنطاكية..». وأدخل التركماني الآن الذعر في قلب الضابط عندما قال: «حمى التيفوس». إذ لم تكن في تلك الأيام في سورية كلها كلمات «الطاعون» و«الكوليرا» تثير الذعر مثل «حمى التيفوس». فابتعد الجنود والضباط على الفور، إلا أن هذا الرجل الرائع أخرج أوراقه وطلب التأكد منها وأخذ يلوحها تحت انف هذا الرقيب الذي أخذ يلعن المهمة التي أوكل بها.

وبعد مسيرة عشر دقائق عاد الطريق سالكاً أمامهما مرة أخرى. وكان التركماني يسير بجانب ستيفان وقد انتابه الفخر والحبور لنجاحه في المرور: «أرأيت يا ولدي كيف حماك الله. ألم يكن يحبك عندما بعثك إلي؟ اشكر الله أنك وجدتني. اشكر الله. سأذهب معك لمسافة نصف ساعة أخرى لكي أقضي الليلة في مكان آخر». لكن ستيفان لم يكد يسمع ما قاله صديقه التركماني فقد أصيبت أعضاؤه كلها بالشلل من الرعب الذي انتابه من الحاجز الأخير. وعندما أيقظه التركماني لم يقو على الحركة، فحمله بين ذراعيه كطفل صغير وأجلسه على قارعة الطريق المؤدي إلى مصب العاصي في خليج السويدية.

– «لا يوجد أي كائن هنا يا بني. وإذا ما أسرعت تستطيع أن تعود إلى الجبل قبل طلوع النهار وقدم له قليلاً من الجبن، ورغيفاً مرقداً من الخبز، وقارورة الماء التي كان قد ملأها من أنطاكية. ثم قد م له عدة نصائح وشجعه على مواصلة رحلته، وتمنى له الوصول بالسلامة وقال له: «السلام عليك ». لكن ستيفان لم يكن يسمع أي كلمة مما قاله. إذ كان لا يسمع سوى طنين حاد في

أذنيه، وكان يشعر بأن رأسه خاو من أي شيء. ولم يكن يرى إلا العمامة على رأس ذلك الرجل الطيب ولحيته البيضاء وهي تتحرك. ثم تلاشى في الظلام ولم يكن القمر قد ظهر بعد فوق هضاب الأمانوس الوعرة.

كان دير هايكازون قد بعث بكلمة- ربما الأولى من نوعها منذ تسلمه رئاسة هذه الأبرشية - إلى قاطني المقابر في جميع القرى. وكان على نونيك وأخواتها أن ينطلقن في أنحاء الريف حول جبل موسى بحثاً عن آثار ستيفان باكراديان. فإذا ما نجحن في الحصول على معلومات هامة أو العثور عليه وإعادته فستقدم لهن جائزة كبيرة وهي الحصول على ساحة المعسكر. ومع ذلك فقد كان لدى نونيك أمل ضعيف بالفوز بذلك. وذلك لأنه بعد الانتصار الأرمني الأخير أصبحت الأمور بالنسبة للناس الذين بقوا في الوادي أكثر صعوبة. إذ أصدر المدير أمراً عممه على القرى يقضي بأنه من واجب كل تركي إلقاء القبض على أي أرمني يعثر عليه مهما كان، أسواء كان أعمى أو مريضاً أو مجنوناً أو عاجزاً أو مسناً أو طفلاً. وكان هذا الأمر يرمي إلى جعل التجسس من جانب سكان المعسكر في الجبل مستحيلاً. فما إن علّق هذا الأمر على جدار الكنيسة، حتى تقلص عدد سكان المقابر الذين كانوا سبعين شخصاً إلى أربعين. أما ستيفان الذي كانت الحمى تلهب جسده، فقد أخذ يتعثر وهو يصعد فوق كتل من الصخور وقد تسلخت ركبتاه، وكان يقع على الأرض ثم يعاود الوقوف بصعوبة بالغة. وكان ينبعث من يمينه بصيص من نور من بين الآثار الرومانية التي لجأ إليها هؤلاء المشردون البائسون. وقد أعطى القدَر باكراديان الصغير فرصة أخرى فقد أحست نونيك بحركة ما. فقد لاحظت في الظلام خيالاً مترنحاً، فأرسلت طفلاً لم يتجاوز الثامنة من العمر لاكتشاف كنه هذا الخيال. ولكن عندما سمع ستيفان صوتاً خلفه، لم يستدر بل تقدم إلى الأمام بسرعة كحصان جامح. وأخذ يجري مستخدماً كل قواه وطاقته ثم استدار نحو الوادي وأخذ يصرخ بقوة دون أن يدري ماذا يقول. لكنه لم يبتعد، فقد اصطدم بجذع شجرة برزت أمامه فجأة وهوى على الأرض دون حراك.

عندما استعاد ستيفان وعيه كان ضوء النهار قد بدأ ينتشر. وكان يعتقد أنه ما زال في اليوم الذي خرج فيه من المستنقع. ونسي كل ما حدث له، أو كان يتذكر الأحداث التي جرت معه وكأنها حلم. وقد عزز إحساسه المريض بالزمن ظهور منزل أمامه، لكنه لم يكن من الكلس الأبيض، بل كوخاً من الطين قبيح ليس له نوافذ. وخرج من البيت كذلك رجل يرتدي عمامة على رأسه وذو لحية بيضاء. لعله ليس ذاك الرجل الملاك الحارس التركماني، بل على الأقل رجل عجوز. ويا لها من مصادفة فقد خرج هذا الرجل العجوز ليختبر الريح وراح ينظر إلى السماء ثم مد حصيرة قصيرة وراح يصلي. ومثل ومضة تذكر تحذير هايك له: «قلّد كل شيء». وعلى الفور أخذ يقلد حركاته في المكان الذي كان يقبع فيه. شاهده الرجل العجوز إلا أنه بدا أنه ليس تقياً مثل الفلاح التركماني. إذ توقف في منتصف الصلاة ونهض من على حصيرته وتقدم من ستيفان وسأله: « من أنت؟ ومن أين أتيت؟ وماذا تريد؟». جثا ستيفان على ركبتيه وانحنى ووضع يده فوق قلبه وقال: «إني لست على ما يرام يا أفندي»، وأشار إلى أنه عطشان. في البداية تردد

العجوز، ثم توجه إلى البئر وملأ ابريقاً وأعاده. فراح ستيفان يغب من الماء بسرعة. في تلك الأثناء خرج شخص آخر من المنزل، لكنه لم يكن امرأة كما توقع ستيفان، بل رجلاً ذا لحية سوداء، فكرر نفس اسئلة العجوز كلمة كلمة: «من أنت؟ ومن أين أنت؟ وماذا تريد؟».

أدى ستيفان الضائع حركتين غامضتين في اتجاهين مختلفين، وهذا إما يعني السويدية أو أنطاكية. لكنه سرعان ما انتاب الرجل الغضب وقال: «ألا تستطيع أن تتكلم؟ هل أنت أخرس؟ ابتسم ستيفان وبدت عيناه الكبيرتان غامضتين وبدا عاجزاً مثل طفل في الثالثة من العمر. كان ما زال جاثياً على ركبتيه أمامهما. سار العجوز حوله مرتين ثم أمسك ستيفان من ذقنه وأدار وجهه نحو الضوء. كان اختباراً له. كما بدا الرجل الشاب شديد الاهتمام. انتحيا جانباً وأخذا يتحدثان بأصوات عالية وكأنهما يتشاجران وهما يتطلعان إليه. وعندما انتهيا، كان وجهاهما متجهمين. وأخذ الشاب يستجوبه: «أيها الشاب هل أنت مطهّر أم لا؟». لم يفهم ستيفان لكن صمته أثار حنق الرجلين. لكن صبر الشاب كان قد نفد، فأمسك بستيفان من تحت إبطيه ورفعه بقوة وراح العجوز ينزع عنه ثيابه. وتأكدت لهما شكوكهما الآن. هذا الأرمني يحاول أن يتظاهر بأنه أبكم أطرش. إنه جاسوس حقير أرسل من المعسكر على جبل موسى. لا يوجد وقت لاضاعته. ألقيا ستيفان المترنح أمامهما وسارا به إلى طريق الوادي الضيق الممتد من عين الجرب إلى الطريق العام، وأوقفا عربة يجرها ثور كانت قادمة من منطقة مجاورة لأنطاكية متجهة إلى السويدية. وكان على السائق أن يغير اتجاهه على الفور من أجل المصلحة العامة. ووضع الرجلان السجين على العربة، وجلس بجانبه الشاب القرفصاء، أما العجوز فقد مشى متحمساً مع صاحب العربة وراح يشرح له الخطر الذي أمكن تفاديه الآن.

كان مصير ستيفان قد انتهى الآن. لكن قوة رحيمة جعلته لا يعرف أين هو. وقد غاص رأسه بين ركبتي الشاب. لكن ستيفان نسي جبل موسى، بل حتى نسي مدافع الهاوزر التي كان قد استولى عليها، ونسي الجنود الخمسة الذين أرداهم قتلى. وكان هايك قد أصبح اسماً واهياً وكذلك اسكوهي. وفجأة وجد ستيفان نفسه يرتدي بذته الأوروبية وحذاءه النظيف الملمع، يسير مع أمه بين الشوارع التي تحفها الأشجار، ثم على جانب بحيرة مونترو. فقد كان هو وأمه يقيمان في فندق بالاس، جلس معها أمام طاولة وضع عليها غطاء أبيض. كان يلعب بالحصى مع أولاد آخرين. كان كل ذلك رائعاً ولطيفاً بحيث لم يلحظ وصولهم إلى مخفر الدرك بجانب قرية الوقف. وجاء دركيان لمساعدة الشاب وأمسكا ستيفان من قدميه. وفي قرية الوقف نفسها انضمت إليهم مفرزة كاملة من الدرك. وتجمع وراءهم عدد من الرجال والنساء والأطفال. ثم وصلت العربة إلى ساحة كنيسة يوغونولوك قبل منتصف النهار بوقت طويل. وكان قد تجمهر ما يقرب من ألف شخص، وعلى الفور أرسل في طلب المدير ذو الشعر الأحمر من فيلا باكراديان. دفع الدرك ستيفان خارج العربة وأمره المدير بأن يتجرد من ملابسه خشية أن يكون ثمة شيء مكتوب على جسده. وفعل ستيفان ذلك بهدوء شديد وبلا مبالاة. وفي الوقت نفسه أفرغ الدرك جعبته ووجدوا فيها آلة تصوير من طراز كوداك ونسخة عن الرسالة الموجهة إلى جاكسون.

أمسك المدير الهدية التي كانت قد قدمتها له أمه في عيد الميلاد وراح يعرضها على الجمهور الذي لم يكن قد رأى معظمهم آلة تصوير وقال: «هل تعرفون من يحمل هذه الأداة؟ إنه جاسوس». وفك رموز الرسالة وراح يقرأ مضمونها إلى الناس بلهجة منتصرة. وعندما فرغ من ذلك نظر الجميع إليه باحتقار وكراهية. اقترب المدير من ستيفان وسأله: «والآن يا طفلي العزيز. قل لنا ما هو اسمك؟». ابتسم ستيفان ولم يفه بشيء. لقد كان بحر الواقع بعيداً جداً. لكن المدير تذكر صورة الصبي التي كان قد رآها في غرفة الاستقبال في الفيلا. فاستدار إلى الجمهور بوقار وقال: «إذا لم يخبركم من هو فسأخبركم أنا. إنه ابن باكراديان».

اخترقت أول طعنة ظهر ستيفان لكنه لم يشعر بها، لأنه هو وأمه كانا في طريقهما لإحضار الوالد الذي كان من المزمع أن يصل إلى باريس من سويسرا. كان والده يدلف من باب مرتفع جداً وكان يرتدي بذة بيضاء دون قبعة. أشارت له والدته. إلا أنه عندما شاهد ابنه الصغير منتظراً، فتح كابريل ذراعيه بلطف بالغ. كان ستيفان حقاً طفلاً صغيراً. وأخذ والده يرفعه من وجهه المشع ومن ثم إلى الأعلى والأعلى...

وجدت نونيك جثة ستيفان في تلك الليلة. لم يكن مشوهاً بل ممزقاً ومرضضاً. فقد ألقى به الدرك وهو عار تماماً في ساحة الكنيسة.ووصلت نونيك في الوقت المناسب لإبعاده عن الكلاب البرية المسعورة. وأرسلت أحد مساعديها إلى معسكرهم في الخرائب لمناداة جميع الشحادين. فالآن يجب أن يتوقفوا عن الخوف بسبب حدوث شيء في غاية الأهمية. فقد انقطعت سلالة أواديس باكراديان إلى الأبد. وحانت ساعة تنفيذ دير هايكازون لوعده. وعلى الفور حمل ابن باكراديان إلى الجبل للحصول على الجائزة. وصل الشحادون الخجلون إلى المقبرة في مجموعات صغيرة، وبدأوا على الفور يغسلون جسد ستيفان فأزالوا الدماء والأوحال العالقة بالجسد الجميل المهشم. بل حتى أن نونيك قدمت بسخاء شيئاً آخر لآخر شخص في عائلة باكراديان. إذ أخرجت من كيسها ثوباً أبيض لتلفه به. وبينما كانت تفعل ذلك راح شحاد أعمى يغني: « تدفق دم الحمَل نحو بيتهم..».

وعندما انتهت نونيك من كل هذه الإجراءات، حملت الجثمان بمساعدة فارتوهي ومانوشاك وبقية الشحادين، وسار الجميع باتجاه الداملاجيك وقد غشاهم الصمت. وعلى الرغم من ضوء الهلال فلم يكادوا يبصرون طريقهم وهم متجهون إلى ساحة المعسكر متبعين ممرات سريّة. وكانت نونيك تقود المجموعة بعصاها الطويلة. وعندما أصبحوا في مكان آمن في الغابة أشعلوا مِشعَلين ورفعوهما عند طرفي الجثمان لكي يعود الجثمان مضيئاً ومشرفاً.

3- الألم

عاد كابرييل يمضي لياليه في مكانه المعتاد في الخنادق الشمالية. وقد انتاب دير هايكازون قلق شديد بسبب تباطؤ العزيمة بين صفوف الرجال، وعدم الالتزام بالنظام. فطلب من كابرييل في الليلة التي اختفى فيها ستيفان من الداملاجيك أن يستأنف قيادته للرجال. وقبوله بذلك كان اثباتاً واضحاً لثباته ونظامه أكثر من المعارك الثلاث الماضية. إذ أخذت يداه في هذه الأيام ترتجفان، ولم يعد بإمكانه أن يتناول ولو لقمة واحدة أو يغمض له جفن. ولم يكن ألمه ينبع من عدم تأكده من مصير ابنه ستيفان، بل كان الألم الحقيقي يكمن في استحالة عمل شيء من أجل العثور عليه أو إنقاذه. هل يطلب من الحرس المتنقل الانتشار والبحث عنه حتى حلب؟ لكنه سرعان ما كبت هذه الفكرة الخيالية الرومانسية فهل لديه الحق في أن يجازف بحياة مئات الأشخاص من أجل محاولة يائسة لإنقاذ ابنه؟ ولم يكن ثمة سبب هام لقلب السماء والأرض من أجل العثور عليه، لذلك قرر كابرييل أن يستأنف عمله، وأعطى الجاووش نورهان أوامر تقضي بوضع الفِرَق في حالة قتالية مستمرة. وكانت هذه الأيام أشبه بالأيام الأولى من صعودهم الجبل فلم يعد يسمح لأحد حتى في ساعات الراحة أن يترك مكانه، كما لم يسمح بالمجيء إلى ساحة المعسكر إلا في حالات الضرورة القصوى. ولم يجرؤ أحد على تحدي جهود باكراديان اليائسة.

وقد نأى الجميع بأنفسهم عنه الآن. حتى آرام توماسيان الذي كان يستغل أي مناسبة للتحدث معه. ولاحظ كابرييل كيف أن جيرانه، رفاقه الذين ينامون بجواره في الخندق الشمالي، كانوا يبتعدون عنه. وكانوا يفعلون ذلك بحجة الخوف من نقل العدوى لهم نظراً لأنه اعتاد أن يقضي في كل يوم ساعة أو أكثر بقرب جولييت. إلا أن مشاعر أكثر تعقيداً كانت تكمن وراء ذلك. وكان الطبيب بدروس ألتوني يأتي لزيارة جولييت مرتين في اليوم وهو يمتطي حماره. وانتابته الحيرة عندما لاحظ أن الحمى لا تأخذ مسارها الطبيعي في حالة جولييت. إذ لم تكن تُصَبْ، شأن المرضى الأخرين، بالإغماء أو الهلوسة، بل أصيبت بالنوام، ومع ذلك، فخلال نومها كانت تحرك رأسها وتفتح فمها وتزدرد الحليب الذي كانت تقدمه لها اسكوهي دون أن تضيق. وفي بعض الأحيان كانت تدمدم ببعض كلمات.

في البداية، كانت اسكوهي تغادر خيمتها سراً، فقد كانت قد نقلت سريرها إلى خيمة

جولييت. ولم تعد ترى أوسانا وطفلها إذ أصبح ذلك أمراً متعذراً بالنسبة لها. وكانت أفضل ساعة بالنسبة لها هي الساعة الأخيرة قبل الشروق، حيث كانت تجلس مثلما تفعل الآن أمام خيمتها بانتظار كابرييل. دخل كابرييل إلى خيمة جولييت فتبعته اسكوهي. انحنى كابرييل فوق زوجته وفتح جفنيها. تحركت جولييت قليلاً وتنفست بصعوبة لكنها لم تَفِقْ. وراحت اسكوهي تروي له أحداث اليوم. وكان حديثها داخل الخيمة أمراً واقعاً، لكن حتى خارجها لم يكن حبهما مأموناً. ثم تسللا خارج الخيمة إلى الحديقة حيث كانت جولييت تستقبل زوارها. وبالرغم من أنهما كانا وحيدين، فقد راحا يتحدثان همساً، ولم يلمس أحدهما الآخر:

- «تعلمين يا اسكوهي، كنت أظن في البداية أنه من الممكن أن أصاب بالجنون، لكن في اللحظة التي شعرت فيها أنك بقربي، زال الرعب عني. كم هو جميل المكان هنا. ليس أمامنا وقت طويل». مال إلى الوراء مثل رجل مصاب بألم، وأخيراً وجد وضعية غير مؤلمة فرغب في الإبقاء عليها: «كنت أحب جولييت وربما ما زلت. على الأقل كذكرى. لكن هذا بيني وبينك. ما هذا يا اسكوهي؟ لقد كان قدري أن أحبك الآن، عند نهاية حياتي، تماماً كما كان قدري أن أجيء إلى هنا . ليس صدفة، بل.. حسناً، كيف سأقولها؟ طيلة حياتي كنت أبحث فقط عن الأمور الغريبة بالنسبة لي. لقد أحببت الغريب. جذبني لكنه لم يدخل السعادة إلى نفسي. وأنا جذبته أيضاً لكني لم أدخل السعادة إليه كذلك. يعيش المرء مع امرأة يا اسكوهي ثم يقابلك، الأخت الوحيدة في هذا العالم... وقت متأخر جداً.

أشاحت اسكوهي بوجهها عنه وراحت تنظر إلى الشجيرات وقد أنعشها نسيم الليل اللطيف:

- « لكن افترض أننا تقابلنا في مكان ما من العالم . هل كنت ستبقى تلاحظ أني أختك؟».

- « الله وحده يعلم.. ربما لا..».

لم تبد أي امتعاض: «وكان بإمكاني أن أرى على الفور ماذا تعني أنتَ بالنسبة لي.. في ذلك الوقت عندما شاهدتك في الكنيسة عندما وصلنا من زيتون».

- « ذلك الوقت؟ لم أكن أعتقد أبداً أنه بإمكان المرء أن ينقلب إلى شخص آخر. بل كنت أعتقد أن المرء يضيف إلى ذاته. يتطور. إن الحقيقة هي العكس. المرء يذوب في النار. إن ما يحدث الآن لي ولك ولشعبنا هي عملية إذابة. هذه طريقة حمقى في التفكير. لكني أشعر الآن كم أصبحت ذائباً. فقد تلاشى مني كل شيء، وسرعان ما سأصبح فقط قطعة من المعدن. وهذا هو السبب الحقيقي الذي مات من أجله ستيفان..».

أمسكت اسكوهي يده: «لماذا تقول ذلك؟ لماذا يموت ستيفان؟ إنه صبي قوي. من المؤكد أن هايك سيصل إلى حلب، ما المانع أن يصل ستيفان أيضاً؟».

- « لن يصل إلى حلب.. فقط فكري بما حدث وهو ينوء بكل ذلك؟».

- « يجب ألا تقول أشياء كهذه يا كابرييل. إنك تسيء إليه معهم. وينتابني شعور كبير بالأمل

بأنه بخير». وفجأة نظرت اسكوهي إلى خيمة جولييت، فقال كابرييل في نفسه دون أن يعرف سبباً لذلك: «إنها تريد أن تموت، جولييت. لا بد أنها تريد ذلك».

استوت اسكوهي واقفة «ألا تسمع شيئاً؟ أظن أن جولييت تنادي».

لم يسمع شيئاً لكنه تبع اسكوهي. اندفعت بسرعة إلى الخيمة. كانت جولييت تتقلب على الفراش مثل امرأة مقيدة وتحاول تحرير نفسها. ولم تكن فاقدة الوعي ولا مستيقظة. وبدا أنها تمكنت من تمييز كابرييل. تحركت يدها وأمسكت سترته. ولم يكد يفهم سؤالها الذي همهمت به: «هل صحيح؟ هل هذا كله صحيح؟» وكان ثمة توقف بين سؤالها وجوابه الصامت. لكنه عندئذ انحنى فوقها، وقال مؤكداً على كل حرف يقوله: «لا يا جولييت هذا ليس صحيحاً.. ليس صحيحاً». انطلقت منها تنهدة وقالت: «حمداً لله.. أنه ليس صحيحاً».

استرخى جسدها وسحبت ركبتيها كما لو أنها ستعود إلى رحم الحمى بسعادة وبراءة. وأخذ كابرييل يجس نبضها. لم تكن الضربات الخفيفة ملحوظة، وبدا أنه يشك في أنها ستعيش إلى اليوم الثاني. ثم دفعت اسكوهي ملعقة الدواء بين شفتي جولييت. استعادت جولييت وعيها وحاولت أن تجلس وتنهدت: «وحليب ستيفان كذلك.. لا تنسيه».

كانت أوسانا تعتقد أن الله عاقبها.فالطفل يجب أن يكون نعمة الرب، أما هذا الطفل فكان عقاباً من الله. إن الله ينزل عقابه على الخاطئين. غير أن أوسانا كانت تدرك أنها لم ترتكب خطيئة، لذلك يجب أن يكون الآخرون هم الذين ارتكبوها ولا سيما أولئك المحيطين بها. وبالتأكيد فإن آرام لم يرتكب خطيئة كذلك. أوسانا كانت زوجة مخلصة وزواجها، كما يعرف، لم تكن تَشُبْهُ شائبة. فمن أين إذن جاءت هذه الخطيئة التي أصابت طفلها البريء؟ لقد كان دائماً وأبداً الشيء الذي يثير غضب الله، جولييت باكراديان. فهي تمثل الزانية، المهووسة بالأزياء، الأجنبية. وفكرت أوسانا بجميع الآثام التي تنتقل آثارها كالعدوى. ومع ذلك فقد عاشت هذه الأيام دون خجل أو حياء بالقرب منها، بل حتى في خيمتها، نامت في سريرها وأكملت من طعامها. لكن أفكار أوسانا لم تتوقف عند ذلك! فقد اخترقت الحقيقة قلبها: اسكوهي. التي يجب أن لا يشك فيها! فقد كانت تعرف أوسانا كيف أنها تفكر في أخت زوجها، فهي الأخرى كانت زانية في قلبها. أفلم تكن دائماً، عندما كانوا في زيتون، تشغل نفسها بذاتها بعناد شديد، تسعى وراء المتعة حتى في الأيام التي طلب فيها آرام من زوجته التضحية المريرة بمشاركتها المنزل مع تلك المرأة. لكن آرام كان دائماً يرفض أن يتطلع إلى الحقيقة ولم يكن من الممكن قول كلمة صريحة واحدة عن اسكوهي. أخته الصغيرة العزيزة. ففي اللحظة التي أخذت فيها أوسانا تجري وهي تجهش بالبكاء، عندما كانوا يعمدون ابنها، رأت العلاقة المخيفة بين جميع هذه الأشياء، أصبحت تعرف أن طفلها ملعون من الله. ولم تعد تبكي. وفي الليلة الماضية طلبت من آرام بإصرار أن ينقلها إلى كوخ الأب توماسيان إذ أن طفلها لن يفلت من عقاب الله، ما دام يعيش في ظل الخطيئة التي تكتنف عائلة باكراديان المجاورة لها. نظر القس إليها فاغراً فاه ولم يستوعب كل

ما قالته: «وما علاقة خطيئة جولييت بنا وبطفلنا؟». أبعدت أوسانا طفلها عن صدرها وشعرت أن غضبها يسمم حليبها: «حتى أنت تريد أن تتعامى عن هذه الحقائق؟» لكن آرام بذل كل ما بوسعه للتخفيف من حدة غضبها الذي لا يستند على أساس. ثم فقد أعصابه وراح يوبخها بعنف وقال لها إن اسكوهي تجازف بحياتها من أجل غريبة. وهل يتوجب شكر طيبتها المسيحية بتوبيخها بشكل غامض، ومن أخت زوجها؟ لكنه قال لها أنه يتفهم حالتها وأنه سينسى كل ما قالته وسيصفح عنها.

لكن أوسانا ضحكت بازدراء وقالت: « تستطيع أن تقنع نفسك يا قسيس بالطريقة التي يفكر فيها قلبك الطيب بأن اسكوهي تعتني بالمريضة. اقحم رأسك مرة داخل الخيمة. وستجدهما سوية. وهما في بعض الأحيان يخرجان دون حياء ويتمشيان في منتصف الليل...».

كانت كلمات أوسانا وضحكتها المزدرية ما تزال ترن في أذنه وهو يهبط السفح ليرى ما آل إليه صيد السمك. ولم يكن يفكر بشيء آخر. وأصبحت الحقيقة تزداد وضوحاً أمامه مع كل خطوة يخطوها. فلقد عاقبه الله في طفله لخطيئته الكبرى في مرعش وخيانته للأطفال اليتامى. فالمذنب هو وليس اسكوهي. وعندما انحنى بين الصخور، اكتشف آرام أن فكرته العظيمة لم تسفر إلا عن نتائج واهية جداً. فعلى الرغم من هدوء البحر، فقد تحطمت القوارب التي كان قد وضعها، وكاد ثلاثة صيادين يغرقون. ولم يكن الصيد يكفي قِدراً كبيراً من الحساء. وسخر توماسيان من ذلك وأصدر أوامر جديدة. فقد كان استخراج الملح أكثر نجاحاً من صيد السمك. إذ أمكن نقل كمية لا بأس بها من الملح إلى المعسكر. لم يبق آرام هناك أكثر من ربع ساعة. إذ حمله قلبه القلق على العودة، ولم تكن لديه فكرة واضحة عن كيفية انقاذ اسكوهي. هل يفاتح باكراديان بالشكوك التي تعتريه، لكن كيف يجرؤ على عرض مثل هذا الشك الشيطاني مع رجل من هذه المرتبة الذي يفرض احترامه على الجميع؟ وكاد يقرر أن يترك الأمر وشأنه على الأقل في الوقت الحالي. لكنه قبل أن يستدير نحو ساحة المعسكر للتحدث مع أبيه، وطد العزم على اتخاذ آخر خطوة، وإلقاء نظرة سريعة على أوسانا. لكنه قابل شخصاً آخر. فقد كانت اسكوهي تجلس أمام خيمة جولييت وهي تحدق بعينين ساهمتين بالاتجاه الذي ذهب منه كابرييل ولم تلاحظ أخاها حتى أصبح قريباً جداً منها.

جلس آرام إزاء اسكوهي على الأرض ووجد صعوبة في ايجاد كلمات لبدء الحديث: «لم نتحدث مع بعضنا منذ زمن طويل يا اسكوهي». ثم أردف: «إن أوسانا مشتاقة إليك كثيراً». لكن اسكوهي قاطعته بنفاذ صبر: «لكن بالتأكيد يا آرام يجب أن تعرف أنه بسبب الطفل فهذه آخر مرة يجب أن أرى فيها أوسانا».

– «أعرف أنه عليك أن تبقي هنا للاعتناء بجولييت.. وهذا أمر طيب منك.. لكن ربما الآن تكون عائلتك في حاجة إليك أكثر».

تملكت اسكوهي الدهشة وقالت: «إن الإنسانة القابعة هناك ليس لديها أحد.. أما أوسانا فقد تماثلت للشفاء ولديها كل من ترغب في الاعتناء بها».

ابتلع آرام ريقه بصعوبة عدة مرات كما لو أنه يوجد ألم في حنجرته: «أنت تعرفين يا اسكوهي كم أكره اللف والدوران. هل ستكونين صريحة تماماً معي؟».

تركت عينيها تتركزان بكراهية غامضة على أخيها: «إني صريحة معك».

بدأ يشعر بعدم الراحة وحاول جاهداً أن يبني جسراً فوق براءتها. فلو كان الأمر موضوع رفيق، صديق، شخص تتعاطف معه فهو أمر غير هام. وشعر برغبة في أن تخبره بذلك وأن تعلمه بأن شكوك زوجته لا أساس لها من الصحة ومجرد كذبة.

- «إن أوسانا قلقة جداً بشأنك يا اسكوهي. وهي تقول باستمرار أنها تلاحظ أشياء معينة. لقد تشاجرنا في منتصف الليل حول ذلك. ولهذا أسألك. أرجوك أن تسامحيني . هل يوجد ثمة شيء بينك وبين كابرييل باكراديان ؟».

لم يحمر وجه اسكوهي، كما لم تبد أي ارتباك. وكان صوتها هادئاً وثابتاً: «لم يحدث شيء بعد بيني وبين كابرييل... لكني أحبه وأنوي البقاء معه حتى النهاية».

انتصب آرام واقفاً مذعوراً. كان أخاً غيوراً. فأي نبأ يفيد بأن أخته تحب فهو أمر غير مستحب. وهذه الضربة التي وجهتها إليه بهدوء سببت له شعوراً بالألم:

- «وتجرؤين على قول ذلك بهدوء لي وفي وجهي؟».

- «أنت طلبت ذلك يا آرام».

- «هل أنت هكذا يا اسكوهي، أنت؟ لا أصدق. وماذا عن شرفك وشرف عائلتك؟ ألا تذكرين بحق المسيح أنه رجل متزوج؟».

رفعت رأسها فجأة لتنظر إليه. وكان التصميم واضحاً في وجهها: «إني في التاسعة عشرة من عمري ولن أبلغ العشرين أبداً». لكن آرام صاح فيها ساخطاً: «ستكبرين في الله لأن روحك فيه خالدة ومسؤولة». ومع ازدياد حنق آرام ازدادت اسكوهي هدوءاً: «إني لا أخاف من الله». ضرب القسيس يده على جبهته وردد: «إني لا أخاف من الله! هل تعرفين ماذا تفعلين؟ ألا تشمين الرائحة الخبيثة التي تعيشين فيها؟ فهناك تستلقي المرأة فاقدة الوعي. مريضة على وشك الموت. زانية دون حياء! لكنك تخدعينها أكثر مما خَدَعَت هي بألف مرة». أحكمت اسكوهي قبضتها على الحبل بيدها اليمنى وأمسكته بقوة. واتسعت عيناها. وظن آرام أن كلماته قد أثرت عليها. الحمد لله فقد كان ما زال له تأثير على أخته. وبدأ يعدّل من حدة غضبه: « لنكن منطقيين يا اسكوهي. فكري في العواقب ليس فقط لك ولي بل لباكراديان والمعسكر بأكمله. يجب أن تصححي هذا الخلل الفظيع، يجب أن تضعي حداً لذلك على الفور. سيأتي والدنا ويأخذك معه إلى البيت».

انطلقت من فم اسكوهي زفرة عميقة وانحنت إلى الوراء. وأدرك القس الآن أن حركتها

المحزنة لم تكن نتيجة لومه لها، بل هناك شيء ما حدث وراءه أثار الرعب في اسكوهي. وعندما استدار شاهد صامويل أفاكيان، وهو منقطع الأنفاس يبحث عن كابرييل . ولم يكن يقوَ على الوقوف منتصباً والدموع تنهمر من عينيه. أشارت اسكوهي إليه باتجاه المواقع الشمالية حيث يمكنه أن يجد كابرييل هناك. ثم وبدون أن يلاحظ آرام خبأت وجهها. فقد عرفت كل شيء. فقد كان موكب ستيفان قد وصل إلى ساحة المعسكر قبل بزوغ الفجر ووضع الكفن أمام المصلّى. وجلست حوله النساء والنوّاحات وكشفت نونيك عن وجه الصبي. فقد نفذت أمر دير هايكازون بقدر استطاعتها. وعلى الرغم من أن نونيك كانت قد أحصت أربعين جرحاً وضربة سكين بالإضافة إلى الرضوض والكدمات في أنحاء جسده فقد كان ظهره مهشماً وحنجرته مفتوحة بشق واسع. وكان بإمكان ستيفان أن يرى أباه الذي طال اشتياقه له وهو يعبر الباب المرتفع في محطة مونترو من وراء عينيه المغمضتين. ورغم ذلك فلم يتمكن أربعون عسكرياً من تشويه ابتسامته. وكان كريكور أول من وصل إلى ساحة المصلّى، وانتابه الفزع لدى رؤيته ستيفان في الكفن.

اقترب كريكور على عكازين ببطء من ستيفان. وانحنى فوق باكراديان الصغير وقرّب وجهه الشاحب من وجهه وأخذ يهز رأسه الأصلع من هول المشهد. ثم وصل دير هايكازون والطبيب بدروس إلى الساحة. ووقف الكاهن عند رأس الجثة متشنجاً، ويداه المتجمدتان مختبئتان في أكمام ثوبه. وأبعد الطبيب العجوز بأصابعه النحيلة الغطاء عن الجثة للحظة ثم أعاد الغطاء ثانية بهدوء. وتوافد الناس من الشوارع ومن الخنادق القريبة وتجمهروا حول المصلّى. وعندما وصل باكراديان ووراءه أفاكيان وهو ينشج بالبكاء إلى ساحة لم يقترب منه أحد، بل أخذ الناس يبتعدون عنه حتى أصبح بينه وبين المصلّى فراغاً واسعاً. حتى إن الشحادين والنوّاحات تلاشوا بين الناس. ولم يبقَ سوى دير هايكازون وبدروس ألتوني في مكانهما. لكن كابرييل لم يسرع بل أبطأ أكثر في مشيته. ها هو أخيراً. لقد فكر بذلك خمسة أيام بلياليها، وقلّب كل الاحتمالات، ولم يعد يقوى على قبول الحقيقة. تقدم خطوة خطوة عبر المكان الفارغ حيث يرقد ابنه، كما لو أنه يرغب في تأجيل الصدمة ثواني أخرى. وبدا أن جسمه قد جف، عيناه وفمه. حاول كابرييل أن يبتلع ريقه ويبصقه، لكن كل ما كان بإمكانه أن يفعله هو أن يبلع فقاعات هوائية تتفجر في حنجرته الملتهبة. وكان الشيء الأكثر فظاعة هو أن كل الجهود التي بذلها لضبط النفس قد انتهت بدون نتيجة. فقد تلاشت فيه كل قوة، وبدت أمامه مثل فجوة فارغة. هذا الفراغ، هذا العدم بداخله كان شعوراً بالألم. كيف يحدث ذلك؟ لماذا لا أستطيع أن أتألم الآن؟ لماذا لا أصرخ؟ لماذا لا تنهمر الدموع من عينيّ؟ حتى إن حقده على ستيفان لم يمت. وها هنا يرقد الطفل الذي طالما أحبه! لكن كابرييل لم تكن لديه القوة الكافية لكي يلقي نظرة إلى هذا الوجه المائت. بل رأت عيناه الجافتان خطاً أبيض طويلاً، وآخر أصفر قليلاً. أراد أن يركز أفكاره على أشياء محددة، على الذنب الذي كان ينوء تحته. فقد كان قد أهمل الصبي هذا ما حدا به إلى الهروب بعد أن وجه إليه كلمات لاذعة مهينة، لم يبدأ في إدراكها إلا في الأيام القليلة الماضية. لكن أفكاره لم تذهب

بعيداً جداً: صور، تفاصيل عقيمة، معظمها ليس لها علاقة بستيفان استمرت في الظهور من الفجوة الفارغة. وفي غضون ذلك ومن الفراغ ذاته، برزت رغبة جامحة، كان قد ظن أنه تغلب عليها منذ عدة أسابيع، من أجل تدخين سيكارة. وراح يبحث في جيوبه دون وعي منه. وفي تلك اللحظة أحس بالألم يعتصره لأنه أدرك الآن أنه سيفارقه. لماذا كان بعيداً جداً عن ستيفان بحيث لم يتمكن من رؤية وجهه؟ ففي إحدى المرات، في الفيلا في يوغونولوك كان يجلس على طرف سرير ستيفان ويتطلع إليه وقد أخلد للنوم. الآن بالتأكيد وللمرة الأخيرة، يجب عليه أن يقترب أكثر من ابنه الذي سيأخذ معه وإلى الأبد كل شيء. جثا كابرييل إزاء الجسد المسجى لعل عينيه الكفيفتين تريان الصورة المشوهة للوجه الصغير أمامه.

شاهد دير هايكازون وألتوني والآخرون قائدهم يقترب ببطء، يترنح قليلاً نحو جسد ابنه. شاهدوا كيف وقف معزولاً، فاغراً فاه لكي يستنشق الهواء، وكيف تحركت يداه بدون هدف. ورأوا كيف أنه كان من المستحيل عليه أن يطيل النظر إلى ابنه. فوقف وأشاح بوجهه عنه. في النهاية عندما جثا على ركبتيه بصمت، سرت رعشة في قلوب الناس الواجمين. وضع كابرييل وجهه على وجه ستيفان. وكان من الممكن أن يغط في نوم عميق أو أن يموت هناك وهو جاثٍ على ركبتيه. لم تنهمر أية دمعة من عينيه المغلقتين. بينما كانت جميع النساء وكثير من الرجال يذرفون الدمع الغزير. وبدا أن موت ستيفان يقرب الغريب من قلوب شعبه ثانية. تقدم دير هايكازون والطبيب بدروس منه وأمسكا الرجل الجاثي من تحت إبطيه ورفعاه وأبعداه دون أن ينبسا بكلمة، وأسلم نفسه لهما مطيعاً. وعندما لاحت الخيام الثلاث لهم قال له دير هايكازون الذي كان يسير على يمين كابرييل: «كابرييل باكراديان يا بني، فكر بأنه سبقك يوماً أو يومين فارغين». إلا أن الطبيب بدروس الذي كان على يساره قال عكس ذلك: «كابرييل باكراديان يا طفلي العزيز لا تفكر بأن الأيام القليلة المقبلة فارغة بل مليئة بالشرور، وبارك هذه الليلة». توقف كابرييل دون أن يقول شيئاً ومد ذراعيه ساداً الطريق أمامه. ففهما قصده واستدارا إلى الوراء وتركاه وحيداً.

لم تخفّ حدة حمى جولييت. فقد كانت مستلقية الآن وجسمها متشنج لا تتحرك فيه ولا عضلة واحدة. وكانت تحاول التنفس الذي كان يأتي قصيراً وضحلاً فوق شفتيها المتقشرتين. هل هي أزمة هذه الحمى؟ لم تعد اسكوهي تعير انتباهاً لجولييت. وتركتها لتحيا أو تموت كما تشاء هي. ولم تعد تفكر بتهديدات أخيها آرام الذي قال لها إنه سينبذها إن لم تترك عائلة باكراديان مع حلول منتصف النهار. كان كابرييل واقفاً في الخيمة منتصباً بحيث أن رأسه كاد يلمس سقف الخيمة. لكنه بدا أنه بعيد عن جولييت المحمومة وأنه لا يعرف أنها بجانبه. كانت قد حبت نحوه وضغطت برأسها بين ركبتيه. لقد أثر فيها موت ستيفان بصورة أقل من ألم كابرييل. وعلمت أن روحه كانت متوحشة ودون عون. ومع ذلك فقد قرر كابرييل أن يحمل على عاتقه عالماً ملتهباً. الداملاجيك بأكمله. أما هو فقد قطع عروقه بنفسه. أولاً جولييت والآن ابنه الميت. ومع ذلك فقد وقف منتصباً شامخاً. ماذا كان هو، ماذا كانت اسكوهي، ماذا كان آرام، ماذا كان الآخرون

كلهم بالمقارنة معه؟ حشرات حقيرة. فلاحون قذرون، رؤوسهم خاوية من أي شيء وقلوبهم فارغة من أية مشاعر، غير قادرين على رؤية من تنازل وهبط إلى مستواهم. شعرت اسكوهي نفسها محنية أمامه نتيجة ضعفها وعدم قيمتها. ماذا بوسعها أن تفعل أو تقدم له لكي تجعل نفسها جديرة بكابرييل؟ لا شيء. مدت يدها المفتوحة مثل شحادة. كانت تطلب جزءاً يسيراً من الألم، من الحمل الذي ينوء تحته. كم شعرت بأنها مسكينة لأنه لم يكن بوسعها مساعدته. وأخيراً أصبحت بمثابة أم له: «من المفضل ألا تقف وأنت في هذه الحالة. يجب أن يستلقي.. أن ينام.. يجب أن يخلد إلى النوم فالنوم وحده الذي سيساعده وليس أنت». فكت رباط حذائه وأرغمته على الاستلقاء على سريرها. قال كابرييل لنفسه: «ها أنا استلقي على سرير ناعم». فمنذ أسابيع قد اعتاد النوم على الأرض الصلبة في الخنادق الشمالية. وبدأت أسنانه تصطك. كانت هذه الرعشة نصف ألم ونصف راحة. وجلست اسكوهي في ركن الخيمة وتمنت أن يغط في سبات عميق.

بدأ الضوء يتسلل من خلال الخيمة، وكان وجه جولييت يضطرم بالحمى. ثم رأت اسكوهي أن حالة المرأة المريضة قد تغيرت فجأة. فقد كان العرق يتصبب من جبينها، وكانت عيناها مفتوحتين بشكل واسع وهي تحدق، ورأسها مرفوع وهي ترهف السمع. فلقد أثار شيء ما حماس جولييت من أعماقها. لكنها وجدت أنه من الصعوبة بمكان أن تعبِّر عن عاطفتها فراحت تدمدم: «أجراس.. كابرييل.. اسمعوا!... أجراس.. مئات الأجراس.. أتسمع؟». وحاولت أن تجلس وهي تقول: «أصبح العالم كله فرنسياً الآن». لقد كان ذلك صحيحاً فبعد أن أُريقَ دم ستيفان، ابنها الوحيد الذي قدمته للشعب الأرمني أصبح العالم كله بالنسبة لها فرنسياً.

4- انحطاط وإغراء

ووري جثمان ستيفان التراب في اليوم الحادي والثلاثين من الصعود إلى جبل موسى. وفي اليوم الثاني والثلاثين حلّت المصيبة الكبرى. خطأ من كان ذلك؟ هذا ما لم يعرفه أحد. فقد أنحى المخاتير باللائمة على بعضهم البعض. ولكن بقي من الثابت أن إهمال واحد من الأوامر الشديدة الأهمية التي كان المجلس قد أصدرها أسفر عن حدوث نتائج وخيمة على المعسكر بأكمله. ولم يخفق المختارون المسؤولون فقط في وضع حد لهذه «العادة الجديدة» التي طالما غضوا من بصرهم عنها. دعهم يقولون ما يحلو لهم ويدينوا الواحد الآخر، ويستمرون في الإصرار بأن المرعى الموجود في ساحة المعسكر قد استهلك تماماً. هذا صحيح. فقد كانت الأغنام بحاجة إلى كلأ طازج. وكان ذلك المرعى الجديد في موقع قريب، إذ يقع أسفل المواقع الشمالية بين الصخور، ولا أحد يعرفه سواهم. لكن ذلك لم يكن عذراً للوثوق بالرعاة الذين كانوا من الرجال المسنين الحالمين وبرفقتهم عدد قليل من الصبية لمساعدتهم. فقد صدرت الأوامر لفصيلتين من المشاة الأتراك، ومفرزة من الدرك بالتسلل ليلاً إلى جبل موسى من خلف الممر القريب من بيتياس وتسللت نصف السرية إلى المرعى، حيث كان الرعاة يغطون في سبات عميق. وحتى اللحظة الأخيرة لم يكن الملازم المسؤول يعتقد بأنه يمكن أن يتم ذلك دون قتال. وانتابت الجنود الدهشة لدى رؤيتهم عدداً قليلاً من المسنين يتلفحون بأغطية من جلد الغنم الأبيض، فأجهزوا عليهم بصمت تام وساقوا القطعان إلى الوادي بسرعة كبيرة قبل بزوغ الفجر.

لقد زعزع هذا الحادث أركان سكان الداملاجيك. إذ اختفت كل الأغنام والأكباش والحملان ومعظم الماعز وجميع الحمير- التي كانت تستخدم من حين لآخر كحيوانات نقل وحمل- وبأحسن الحسابات فإنه يمكن أن تكفيهم الحيوانات المتبقية من ثلاثة إلى أربعة أيام مع الحرص على الاقتصاد الشديد في استهلاكها. ومن ثم تبدأ المجاعة. وفي صبيحة ذلك اليوم، عندما تناهى إلى دير هايكازون هذا الخبر المثير للفزع دعا المجلس للانعقاد على الفور. وكان يعرف تأثير ذلك على الناس. فمنذ تفشي الكراهية إزاء جوليت، بدأ ينمو إحساس بالمرارة والكراهية دونما سبب ظاهر في المعسكر. ولم يكن ذلك يحتاج إلا لشرارة لتفجير هذا اللغم. وبالإضافة إلى باكراديان لم يشارك زعيم آخر في هذا الاجتماع الهام رغم وجوده بالقرب منه. إذ لم يتمكن الصيدلي كريكور منذ صباح اليوم السابق من مغادرة سريره. ولم تجد معه الأدوية أو الدفء نفعاً.

وكان كل ما يأمل به الهدوء والتخلص من الألم. لكنه نظراً لأنه كان يعيش في الكوخ الحكومي، فلم يكن بإمكانه الحصول على ما ينشده من الهدوء والراحة، فقد كان قد أقام جداراً من الكتب يفصل بين سريره وهموم العالم. ولم يكن قادراً على تحريك أي عضو من أعضائه. وكان المجلس اليوم مثيراً للفزع منذ بدايته، فقد كان المخاتير يتحدثون بأصوات مرتفعة، إذ كان كل واحد منهم يبذل ما بوسعه ليكتم ضميره بالصراخ.وأخيراً تقدم دير هايكازون إلى وسط الغرفة وطلب منهم الجلوس. ووجد من الصعب ضبط صوته وأخذ يقول: «إن أي جيش محارب يُنزل عقوبة الرمي بالرصاص على الفور لمثل هذه الجريمة. لكننا لسنا مجرد كتيبة عسكرية بل شعب مشبع بالآلام. ونحن لا نحارب قوة توازينا من حيث القوة بل قوة أخرى أقوى منا بمئات آلاف المرات. ادركوا الآن ماذا سيعني إهمالكم هذا، لا يتعين علي أن أرميكم بالرصاص أيها المخاتير البائسون، بل يجب علي أن أمزقكم إرباً إرباً وببطء. وإني أقسم لكم أني سأفعل ذلك بمزيد من السرور ودون الخشية من غضب الله لو كان ذلك يجدينا نفعاً. لكني مرغم على الحفاظ على مظهر الوحدة في هذا المجلس لكي ننفذ سلطتنا كهيئة واحدة. إني مرغم على تركككم أيها المخاتير الخونة المهملون، لأن أي تغيير في العضوية يمكن أن يعرض النظام العام للخطر. وإني أجد نفسي مرغماً على أن أنحي باللائمة على نفسي لأسباب واهية وأعذار حقيرة، وأن أدافع عن المجلس إزاء الغضب العادل الذي انتاب الناس جميعهم. والشيء الذي لم يتمكن الوالي والقائمقام والبنباشي واليوزباشي أن يفعلوه، قمتم أنتم به بذكاء خارق أيها القادة المسؤولون. إن هذه هي نهايتنا».

غاص المخاتير في كراسيهم. وطلب دير هايكازون من آرام توماسيان بالتكلم بنظرة منه رغم أنه لم يكن له علاقة بموضوع القطعان، بل كان مسؤولاً عن كل شيء يتعلق بالغذاء. وكان وجه القسيس النحيف شاحباً وأخذ يقول: «في رأيي إنه من الأفضل أن لا نتكلم عن من يجب أن يتحمل المسؤولية. لأنه ما الجدوى من ذلك؟ فما قضي قد قضي. ودير هايكازون يطلب منا أن نظهر بمظهر الوحدة. ولا نستطيع أن ننظر إلى الوراء بل إلى الأمام، وأن نقدح أذهاننا ونشغل فكرنا لإيجاد موارد بديلة». لكن دير هايكازون ضرب بقبضته على الطاولة وقال: «لا توجد موارد بديلة». لكن فجأة نهض هرانت أوسكانيان الذي كان قابعاً بهدوء في إحدى الزوايا ليدافع عن المخاتير. ذلك الشخص الذي كان يحلق ذقنه كل يوم من أجل جولييت، بدا الآن رجلاً متوحشاً قادماً من الغابة، إذ كانت لحيته السوداء الكثة تحيط بمنخريه بصورة شعثاء: «هل ما زلتم تصرون على عدم رؤية الحقيقة التي طالما كررتها على أسماعكم منذ الإسبوع الماضي؟ لقد تعبت وأنا أصيح لكي أقنعكم. وها قد وجدتم الدليل في النهاية! ومع ذلك فإن دير هايكازون يرغب في رمي شعبنا بالرصاص. وأنا أسأله ما هي الأسباب التي توجد لديه والتي يرغب في حجبها عن المجلس؟ لماذا يستمر في القول إننا خُدعنا؟ عمن يحاول أن يحمي؟ فإذا لم يكن ثمة خائن في المعسكر فهل كان بوسع الأتراك أن يعرفوا مكان هذا المرعى؟ أبداً، أبداً فمكان المروج مخفي تماماً بين الصخور. ولا يمكن لأحد، إلا إذا كان يعرفها جيداً، أن يعرف موقعها. وأنتم تعرفون أن كونزاك ماريس قد جال في جميع المناطق. وهذه ما هي إلا البداية. إذ أن الخطوة الثانية تكمن في

وصول الأتراك إلى وسط المعسكر. لأن ذلك اليوناني سيقودهم عبر الممرات الوعرة على الجانب الصخري التي أصبح يعرفها شبراً شبراً- حيث لا توجد حماية للجبل..».

ولم يكن المخاتير بحاجة لسماع ذلك مرتين. فتفسير الأحداث على هذا النحو الجديد، رغم أنهم لم يؤمنوا به على أقل تقدير، أعاد لهم اعتبارهم ومقامهم السابق وغمرت توماس كبوسيان السعادة.

إن جميع الأشخاص الذي يحملون أفكاراً ثابتة تتوفر لديهم الفرصة لنقلها إلى الآخرين حتى لو كانت جموعاً كبيرة. وهذا هو سر نجاح الدعاية السياسية التي تحرز تأثيرها بأبسط الوسائل: عدد محدود من المفردات لكنها منتقاة بحيث تكون شديدة التأثير ولا تحتاج إلا إلى صوت جهوري. وهكذا استسلم المخاتير وعدد آخر من الأعضاء إلى الإثارة التي أحدثتها طريقة أوسكانيان المقنعة من طرفهم، لكن المعلم هاييت شاداخيان لم يكن قادراً بالكاد على جعل الآخرين يسمعون صوته. فقد استشاط غضباً من منافسه القديم الذي كان عليه أن يتحمله طيلة ثمان سنوات. فأخذ يصيح: «أوسكانيان، إني أعرفك جيداً. فأنت لست سوى مخادع محتال. إنك تحاول أن تلوث أناساً أبرياء. فإنك تبصق على كونزاك ماريس لأنه رجل متعلم، فرنسي تقريباً. وليس مثلك أو مثلي مولود قرية قذرة ومرغم على قضاء كل حياته فيها. فأنا على الأقل، وبفضل شقيق كابرييل، أتيحت لي فرصة الدراسة بعض الوقت في سويسرا- لكنك لم تكن طيباً بشكل كاف لذا لم تبتعد أكثر من مرعش. ولن أدع القردة أمثالك يمسّون عائلة باكراديان بسوء والتي نكنّ لها جميعاً بالحب والعرفان. أما بالنسبة لك يا أوسكانيان فإنك لا تفتري على ذلك اليوناني بل على مدام جولييت، لأنها قالت إنك سخيف وتافه بطريقة جلوسك المزهوة ولا تفه بشيء، أيها القزم الأحمق - أنت وأشعارك - وخطك الجميل».

كان هذا مجحفاً. إذ لم يجرؤ أوسكانيان على رفع عينيه إلى جولييت. وتوقف الآن عن الصراخ، بل أجاب بهدوء ووقار: «إني لست بحاجة إلى رأي سيدتك الفرنسية الطيبة، فهي التي تحتاج إلى رأيي. وقد شاهدنا بأم أعيننا ما هو نوع أولئك الناس». ثم استدار نحو المخاتير ووجه كلامه إليهم: «إني أبارك أمهاتنا وزوجاتنا وفتياتنا اللاتي يجب أن تجثو هذه الفاسقة الأوروبية عند أقدامهن. وقد أصاب هذا الكلام الهدف بشكل حاذق فصفق له الجميع. زمجر بدروس ألتوني وهو متكىء على عصاه: « ظننت أن دير هايكازون قد دعانا الآن إلى هذا المكان لبحث موضوع الكارثة التي حلت بنا. ومزاجي لا يسمح لي أن أراك وأنت تمثل يا أوسكانيان. فلدي شيء أهم منك أيها الأستاذ الذي لاحظت منذ فترة وجيزة أنك تهرب من المدرسة- وكذلك الأطفال. وأستطيع أن أفيدك يا أوسكانيان بأنك مصاب بلوثة عقلية . فذلك الشاب كان قد انضم إلينا في آذار، وكان يحمل رسالة توصية إلى الصيدلي. وفي ذلك الوقت لم يكن حتى والي حلب يعرف بشأن الترحيل. فهل جاء اليوناني وفي نيته أن ينقل خبر المراعي الجديدة على جبل موسى إلى الأتراك؟. لقد أصبح المرء يرى الآن بوضوح ما هي العقول المنطقية التي تخرّجها مدرسة المعلمين

في مرعش». لكن هرانت أوسكانيان رد عليه بحدة: «ربما يا دكتور إنه منذ خمسين أو ستين سنة خلت قد درست الطب. من يستطيع أن يثبت ذلك اليوم؟. ففي بعض الأحيان يبدو أنك قادر على العثور على شيء في ذلك الكتاب القديم الذي تحمله معك. وأنت تشارك الصيدلي في ذلك، الصيدلي الذي لم يفعل شيئاً منذ سنوات سوى أن يضرب على وتر مكتبته، وأنا لا أمانع في أن أراهن، أن نصف تلك الكتب الموجودة عنده هي أوراق فارغة لكن مجلدة بشكل أنيق. لكنكم أنتم معشر المسنين متشابهون تماماً عندما يتعلق الأمر بالحياة، وإلا لكنتم علمتم أنه منذ اندلاع الحرب والحكومة تبث جواسيسها إلى المناطق الأرمنية، وجواسيس مسيحيين لكي لا يلاحظهم أحد. ولعب أوسكانيان ورقته الأخيرة أمام المخاتير: «وهذا كله ناشيء عن إن هؤلاء العجائز متشبثون، كسارقين، بآل باكراديان الذين يرسلون حمقى مساكين أمثال شاداخيان إلى أوروبا بالنقود التي حصلوا عليها من عرق جبيننا. أليس سبب كل هذه المشاكل يعود في المقام الأول إلى هذه العائلات الغنية؟. وعلى الشعب الأرمني بأكمله أن يُقتل ليدفع ثمن صفقاتهم القذرة».

مس ذلك وتراً حساساً في نفوس الفلاحين. فأغمض توماس كبوسيان عينيه نصف إغماضة، وعاد يسبح في الذكريات: «حتى أواديس العجوز كان يسلك تلك الطريقة. فلم يكن يشغله شيء طيلة الوقت سوى العمل التجاري في حلب، استانبول، في أوروبا. ولم يكن يمكث هنا أكثر من شهرين في العام. وأنا لم يخطر ببالي قط أن أغادر يوغونولوك». وبدأ شيء يتحرك وراء صف الكتب، ومن بين الفجوة الضيقة خرج شكل محدودب يدمدم ويرتدي ثوباً أبيض طويلاً. إنه كريكور المعروف الذي كان يرتدي كفنه منذ البارحة. كان صدغاه الشاحبان قد أصبحا غائرين وقد ارتفع كتفاه حتى أذنيه. وخرجت كلماته مرتعشة متقطعة: «هذا المعلم هنا... لقد عملت معه... لسنوات عديدة... لقد نفثت فيه دم الدارسين والشعراء... كنت أظن.. أنه كان ذكياً... وأنه لديه مقومات الملاك الإنساني.. لكني كنت مخطئاً... كنت أقول إنه لا يفكر دائماً بالروث... لكن هذا المعلم هو أدنى الناس المساكين الذين لا يفكرون إلا بالروث.. هذا يكفيه..أما بالنسبة لضيفي ماريس .. فلم أخبر أحداً حتى الآن.. لقد وعدني أن يبذل كل ما بوسعه من أجلنا في بيروت... مع القناصل».

كان كريكور ضعيفاً جداً بحيث لم يكن قادراً على مواصلة حديثه. لكن أوسكانيان انقض عليه:« ومن أين حصل على جوازات سفره؟ أنت تصدق الكلام الفارغ لكن ليس الوقائع الواضحة». بدا أن المخاتير قد رأوا الضوءأخيراً. نعم. فمن أين أتى بجوزات السفر؟. نهض القس آرام واقفاً: «هذا يكفي يا أوسكانيان! كف عن هذه الحماقات التي لا تحتمل. لقد أضعنا وقتنا ولم يقل أحد كلمة مفيدة واحدة. وبعد ثلاثة أيام لن يكون أمامنا طعام نقتات به». لكن أوسكانيان قال هازئاً: «آه.. حتى القسيس؟ نعم بالطبع فهو لا يستطيع أن يفعل شيئاً آخر نظراً لأن اخته تعيش قريبة جداً من باكراديان». هم آرام بالانقضاض عليه لكن الحاضرين أمسكوه وأبعدوه عنه. وراح توماسيان الأب الذي امتقع لونه يصرخ ويلوح بعصاه، إلا أن دير هايكازون كان أسرع من

توماسيان الأب والابن. فأمسك بقميص المعلم وقال: «لقد منحتك وقتاً يا أوسكانيان لكي تثبت ما هو بحاجة للإثبات. والآن كلنا يعرف من ينشر السم الذي تسمم فيه عقول الناس منذ وقت طويل. لقد اختاروك قائداً لهم لأنك كنت مدير مدرسة بالصدفة. حسناً. وأريدك أن تعود إليهم الآن وأنوي أن أعلمهم بحقيقتك. وانصت الي فأنا أعفيك من حضور كل الجلسات الأخرى».

زمجر أوسكانيان قائلاً بأن ذلك لا يعني له شيئاً. فقد جاء ذلك اليوم الذي يترك فيه هذه المجموعة الثرثارة من العجائز الذين سيلفظهم الناس اليوم أو غداً كما يستحقون. لكنه لم يكمل سيل الكلمات التي أخذت تتدفق منه لأن دير هايكازون دفعه بقوة وركله ثم أوصد الباب وراءه. وساد صمت قلق وبدأ المخاتير يتغامزون، فقد كان ثمة خطر معين في الأساليب الدكتاتورية التي مارسها دير هايكازون، الذي يمكن أن يفعل الشيء نفسه لكل واحد منهم. لكن القائد المنتخب لا يمكن تنحيته إلا بواسطة المجلس بأكمله وليس من قبل عضو من أعضائه حتى أعلاهم منصباً. وللمرة الأولى بدأت تتشكل معارضة واضحة تألفت بالإضافة إلى المخاتير من بعض المعلمين الشباب وأحد قساوسة القرى الذي لم يكن يحب دير هايكازون. وكان توماسيان الأب والابن ما زالا يعتملان غضباً وقد بدت عليهما علائم الحيرة. أما البقية بدءاً من دير هايكازون فقد أصبحوا إلى جانب باكراديان دون أن يعرفوا سبباً لذلك أو يرغبوا في ذلك. وبدأت المناقشة تتركز على كابريل بدلاً من الكارثة الكبيرة. وعندما أوقف دير هايكازون بحسم أي حديث آخر حوله، للتحدث عن كيفية الحصول على المؤن، كان الوقت قد تأخر كثيراً.

كان قد انقضى أسبوع على النصر العظيم الذي أحرزه الأتراك. وعاد اليوزباشي الذي كان قد أصيب بجرح في ذراعه إلى الخدمة. وكان هناك مزيد من القوات النظامية والدرك يحيطون بجبل موسى. ومع ذلك لم يحدث شيء. كما لم يكن ثمة إشارة بأنه سيحدث ذلك. وكان الرجال على الداملاجيك يشاهدون تحركات القوات العسكرية في الوادي، ولم يكن بإمكانهم تفسير ذلك بالرغم من هذه التهديدات والقوات المتزايدة. وكان قائمقام أنطاكية قد ذهب في مهمة. فقد دعا جمال باشا جميع الولاة والمتصرفين والقائمقام في الولاية السورية للاجتماع بهم في مقر قيادته في القدس. وقد استدعت سلسلة من الأحداث الطبيعية المتوقعة اتخاذ إجراءات فورية لمواجهتها، وإلا فإن مسار الحرب وحياة سورية بأكملها، وهي أكثر مناطق الحرب أهمية ستصاب بالشلل. فقد تفشى الطاعون في مصر ورافقته شتى أنواع الإصابات الوبائية في جميع المناطق الممتدة من الشمال والشرق. كما تفشى في الشرق وباء حمى التيفوس في المناطق الممتدة من حلب إلى أنطاكية واسكندرونة والجبال الممتدة على محاذاة الساحل. وبلغت نسبة الوفيات في بلاد الرافدين بحمى التيفوس ثمانين بالمائة. فخلال شهري أيار وحزيران سقط مئات الآلاف من الأرمن وأخذت جثثهم تتفسخ وتتعفن. أما الوباء الثاني في الشمال فكان يتمثل في هجوم أسراب ضخمة من الجراد من منطقة طرسوس إلى سهل أنطاكية ومن ثم اتجهت لتغطي جميع سورية. وكان الجراد يغطي مئات الأميال المربعة من الأرض ولم يكد يسلم منها شريط واحد من الأرض. وكانت رؤية هذه الأسراب وهي تحط في حقل فتتركه عارياً تماماً. وتَعري الأشجار من أوراقها

في بضع ثواني كان أمراً مثيراً للفزع. وفي شهر آب، لم تعد هناك شجرة خضراء واحدة في شرقي المنطقة الساحلية من سورية حتى وادي الفرات. إلا أن جمال باشا لم يشغل نفسه بالأشجار. إذ لا يبدأ موسم الحصاد في شمالي سورية قبل منتصف تموز ويستمر عدة أسابيع، وذلك لأنه لايتم دراس القمح والشوفان والشعير في نفس الوقت مع الذرة، حيث يترك الفلاحون حزم المحصول ملقاة لمدة أسابيع ولا يخشون المطر. وعندما انقض الجراد في تموز، وجد أن نصف الحب ما زال معلقاً في السنابل والنصف الباقي ملقى في حزم مفككة في الحقول. وهكذا ففي بضعة أيام، أجهزت على المحصول كله في سورية ومع حلول منتصف الشهر لم تبق سنبلة واحدة في الحقول التي أصبحت عارية جرداء. وكان جمال باشا يعتمد اعتماداً رئيسياً على المحصول السوري، فارتفع ثمن الخبز ارتفاعاً كبيراً. وبالرغم من الإجراءات الصارمة فقد هبطت قيمة الليرة التركية إلى حد أدنى بكثير من قيمتها الطبيعية. كما شهد شهر آب سقوط عدد كبير من الناس بسبب المجاعة في منطقة لبنان بينما كان المقاتلون يدافعون عن أنفسهم في جبل موسى.

كانت هذه هي الحال عندما دعا جمال باشا المحافظين في سورية إلى الاجتماع في مقر قيادته. غير أن الاجتماع هذا ساده الاضطراب تماماً كما حدث في مجلس القادة في جبل موسى. فلم يعد بإمكان الولاة والمتصرفين الحصول على الحبوب مثلما لم يعد لدى المخاتير أغنام. لكن كلمة حاكم سورية كانت مقتضبة وصارمة. إذ يتوجب على ولاية حلب أن تسلم في يوم معين ذاك القدر من القمح إلى المفوضية. وامتقع لون المسؤولين واستشاطوا غضباً ليس إزاء هذه الأوامر المستحيلة فقط بل بسبب اللهجة التي تكلم بها كذلك. وجلس الجميع وقد سادهم شعور بالاستكانة والذل. أما قائمقام أنطاكية فقد كان يستمع بحماس شديد إلى كل كلمة كان يقولها جمال باشا. في حين راح الحكام الآخرون يندبون حظهم وكانوا مرغمين على الوعد بعمل المتسحيل. فإن لم يكن بإمكانهم إرسال حبوب الشيلم أو القمح فعلى الأقل سيرسلون الذرة الصفراء حسب ما يكون متوفراً. لكن هل يتفضل الباشا ويزوِّدهم بوسائط النقل الضرورية؟ وفي إحدى هذه الجلسات برز قائمقام أنطاكية على أنه نبراس مضيء للمحافظين الآخرين. واستغل القائمقام هذه الفرصة وطلب عقد اجتماع قصير مع الباشا بعد انتهاء الجلسة. وكان ذلك خرقاً مباشراً لقانون التسلسل الرسمي، إلا أن القائمقام كان يأمل استمالة رئيس الأركان بشكل مباشر. وفي غرفة جمال، لم يكن هناك أحد سوى عثمان حارس جمال البربري الخاص بالاضافة إلى القائمقام. قَبِلَ حاكم منطقة أنطاكية سيكارة وقال: «إني أتوجه مباشرة إلى سعادتكم طمعاً في كرم سعادتكم. ولا ريب أن معاليكم قد حدس بنوعية طلبي».

نطقت شفتا الجنرال الغليظتان الأسيويتان بشيء من الحقد من بين شعرات لحيته الكثة: «إنه عار... عار قذر». فقال القائمقام وهو مطأطئ الرأس: «إني أوافقك تماماً يا صاحب السعادة. إنه عار. لكنه ليس ذنبي، بل إنه من سوء طالعي أن يحدث ذلك في ناحيتي».

- «إنه ليس خطأك؟ إنه خطؤكم جميعاً أيها المدنيون. إنْ خسرنا الحرب بسبب هذه الحماقة مع الأرمن، وربما أدى ذلك إلى تمزيقنا إرباً».

بدا أن القائمقام قد اهتز من العمق لهذه النبوءة: «إنه لمن سوء الحظ أن معاليكم لا توجهون سياستنا في استانبول».

قال الباشا: «إنه من سوء الحظ، يمكنك أن تكون متأكداً من ذلك».

رد القائمقام: «لكني لست سوى مسؤول صغير يتوجب عليه تلقي الأوامر وتنفيذها مطيعاً».

قال الباشا: «يتلقى؟ نفذها يا سيدي الطيب. نفذها. كم أسبوعاً دامت هذه الفضيحة؟ إنك لا تستطيع حتى أن تتخلص من حفنة من الفلاحين نصف المتضورين جوعاً، يا له من نصر لسعادة وزير الحربية ها ها! وسعادة وزير الداخلية أيضاً!».

توجه جمال القصير الممتلئ نحو عثمان الضخم وضربه على صدره براحة يده وقال: «كان بإمكان الذين يعملون معي أن ينهوا الأمر في نصف ساعة».

همهم عثمان. واتبسم القائمقام «إن نصر سعادتكم في قناة السويس يعتبر نصراً كبيراً في تاريخنا. وأرجوا أن تستميحني عذراً إذ أقدم رأيي كمدني. لكن بالنسبة لي يبدو دائماً أنه ربما أعظم جانب من الحملة هو أنها كلفت سعادتكم عدداً قليلاً من الرجال». انطلقت ضحكة صغيرة من جمال: «صحيح يا قائمقام فأنا لست عظيماً مثل أنور. ثم حوّل القائمقام الحديث للولوج في صلب الموضوع الذي جاء من أجله: «إن المتمردين من القرى السبع مسلحون تسليحاً جيداً. وأنا لست جندياً يا صاحب السعادة. لكني أحجم عن التضحية بروح أخرى من أجلهم. يا صاحب السعادة، كونك أعظم جنرال لنا، فإنك تعرف أفضل مني أن حصناً جبلياً لا يمكن تطهيره بدون مدفعية جبلية ومدافع رشاشة. وليحرز عندها هؤلاء الأرمن الملاعين النصر! لقد بذلت كل ما بوسعي ». لم يتمكن جمال باشا الذي كان يسعى لضبط مزاجه السيء من التحدث بصوت هادئ فصاح: «اطلب من وزير الحربية! ليس لدي مدفعية جبلية أو مدافع رشاشة. إن الناس يتحدثون عن قوتي. حسن أنا أسوأ قائد في الامبراطورية. فقد جردني هؤلاء السادة القابعون في استانبول من آخر طلقة لدي. وفضلاً عن ذلك فهذا ليس من شأني».

اغتمّ القائمقام وانتابه حزن شديد وصالب يديه على قلبه وقال: «يا صاحب السعادة اغفر لي جرأتي لأن أعارضك، لكن ربما كان هذا الأمر يعنيك قليلاً... لأنه ليس فقط الموظفون المدنيون يبدون سخيفين في عيون العالم كله من جراء هذه الهزيمة، بل حتى قوات الجيش الرابع التي تحمل اسم سعادتكم الشهير».

- «ماذا تظنني؟» قال جمال باشا هازئاً «لا تستطيع أن تنال مني بسهولة».

وهكذا تحطم كل شيء وانسحب القائمقام. لكن عثمان جاء إلى مقر القائمقام بعد منتصف الليل واصطحبه إلى جمال على الفور. وكان من الأمور التي تثلج صدر الدكتاتور وتدخل السعادة

إلى قلبه اثبات قوته لنفسه وللآخرين بمثل هذه الدعوات المفاجئة في كل الأوقات. ولم يستقبله جمال باشا في بذته العسكرية بل كان يرتدي برنصاً جميلاً أضفى عليه مظهر شيخ بدوي.

- «يا قائمقام. لقد فكرت جيداً في موضوعك وتوصلت إلى بعض القرارات» وضرب الطاولة بيده وأردف قائلاً: «لقد تم التضحية بالامبراطورية على يد بعض المجانين غير الكفؤين». انتظر القائمقام بحزن لما سيحدث بعدئذ. وعندما شاهد عثمان عند المدخل تسآل في نفسه: «متى يحصل هذا الرجل على فرصة للنوم؟». أما جمال فقد أخذ يسير في الغرفة ذهاباً وإياباً ثم قال: «أنت على حق يا قائمقام. فهذا العار يؤثر على سمعتي كذلك ويجب إزالته على الفور مع أنه كان يجب أن لايحدث، هل تفهمني؟».

بقي القائمقام صامتاً ينتظر ما سيقوله الجنرال الذي نظر إليه وقال: «قبل عشرة أيام يجب أن يوضع حد لكل هذا ويصبح نسياً منسياً.. سأبعث إليك واحداً من أكثر ضباطي الأكفاء وكل ما يلزم. ولا أريد أن أسمع المزيد عن هذا الموضوع».

كان القائمقام على درجة من الذكاء بحيث أنه لم يجب بأي كلمة. تراجع الجنرال إلى الوراء خطوتين وبدا الآن أنه فعلاً أحدب الظهر وأردف: «لا أريد أن أسمع عن هذا الموضوع مرة أخرى. وإذا جئتني وسمعت عنها مرة أخرى، وإذا لم يحسم بسهولة فسأرمي جميع المسؤولين عن ذلك بالرصاص وأنت يا قائمقام ستذهب إلى الشيطان».

استيقظ المدير المقيم في فيلا باكراديان مرتين في ذلك اليوم من قيلولته. الأولى كانت لاستلام رسالة من القائمقام يعلمه فيها عن وصوله الفوري. لكن عندما ظهر الرقيب الدركي مرة أخرى وطلب منه الخروج من الفيلا الباردة إلى حرارة النهار القائظة في الخارج، أخذ يكيل اللعنات على رأس ذاك الذي يسبب له الازعاج وود لو هشم رأسه. لكنه ما إن وصل إلى ساحة الكنيسة حتى عجل الخطا. فقد كان بانتظاره مشهد غير معهود. فقد كان يقف أمام الكنيسة عربة يجرها بغلان، عربة قديمة ذات دواليب عالية. وكان يجلس بداخلها رجل محترم يرتدي بذة أنيقة. وكانت أصابعه تداعب حبات سبحة من الكرمان. وتذكر المدير أنه كان قد قابل هذا الرجل المسن من قبل، في مناسبتين أو ثلاث مناسبات في أنطاكية، حيث يكنّ له الناس احتراماً كبيراً. ولم تكن العربة لوحدها بل اصطف وراءها صف من البغال المحملة وهي تدق بحوافرها. شاهد المدير إلى جانب سائقي البغال تركيين مسنين آخرين، ورجلاً آخر يتكئ على باب العربة وقد أسدل حجاباً على وجهه. وضع المدير الشاب يده بتهذيب على جبهته محيياً الرجل. ورد عليه الآغا رفعت بركات التحية. وتقدم عضو الاتحاد، عدو التقاليد، مباشرة إلى العربة ليسمع ما سيقوله الرجل العجوز: «أننا في طريقنا إلى المعسكر الأرمني. أعطنا مرشدين يا مدير». وبدا ذلك وكأنه أمر صادر من جهة عليا. تشنج المدير وقال: «إلى المعسكر الأرمني؟ هل أنت مخبول؟».

لم يولِ رفعت بركات هذه الكلمات أي اهتمام. وعلى المقعد الخلفي كانت تقبع حقيبة صفراء حديثة وقال: «لدي مهمة إلى الأرمن».

سلم الآغا التصريح إلى المدير ذي الشعر الأحمر الذي أخذ يتفحصها. وعندما لم يتمكن من إيجاد ما كان يبحث عنه قال له بركات آمراً: «اقرأ الكتابة فوق الختم».

أطلع المدير طلبه وقرأ: «يمنح حامل هذا التصريح موافقة للذهاب إلى كل معسكرات ترحيل الأرمن، ولا يحق لأي مسؤول سياسي أو عسكري مهما كانت صنعته أن يرفض هذا الطلب». أعاد الشاب الوثيقة إلى رفعت آغا وقال: «ولكن هذا ليس معسكر ترحيل، بل عش من الثوار والخونة الخطرين الذين تمردوا على السلطة وقتلوا جنوداً أتراكاً. فأجاب الآغا بلطف: «إن مهمتي موجهة إلى جميع الأرمن»، وأعاد التصريح بحذر شديد إلى الحقيبة وأخرج منها وثيقة أخرى، رأى المدير عليها ختماً غريب الشكل، فأخذ يحاول قراءة أحرفه العربية: «إن شيخ الإسلام، أعلى سلطة روحية في تركيا، يطلب من كل مسلم أن يقدم يد المساعدة لحامل هذه الوثيقة مهما كان نوع هذه المساعدة». قال المدير في نفسه: «ما هو التأثير الذي يملكه عالم البراغيث هذا، فعلى الرغم من سلطة طلعت وأنور، كان شيخ الاسلام ما زال من أكثر المسؤولين قوة ونفوذاً في الدولة. وهذه الوثيقة التي تعود إلى العصور الوسطى كانت عبارة عن أمر رسمي يمكن أن يكلفه غالياً إن لم يُطِعْ الأمر. ونَظَرَ إلى البغال المثقلة بأكياس الحبوب: « وإلى أين تبغي أخذ هذه الأكياس؟» فرد عليه رفعت بركات بهدوئه المعهود: «إنها ذاهبة معي». فأجابه المدير بصورة رسمية مع أنه امتعض من جلوس الآغا أمامه وهو ممثل الحكومة: «لا أعرف يا أفندي إذا كان الأمر واضحاً بالنسبة لك. فقد حمل الأرمن في هذه المنطقة السلاح ضد الحكومة، وأقاموا معسكراً ثورياً في جبل موسى. وتجرؤوا على تحدي الجيش التركي وقتلوا الجنود الأتراك. ونحن الآن نحاول أن نمنع الغذاء عنهم، وأنت تأتي الآن يا آغا بأكياس من القمح». سمع رفعت بركات كل ذلك ورأسه محني بشيء من التعب ولم ينظر إليه إلا عندما فرغ من كلامه: «ألم تحمل السلاح أنت مرة ضد السلطان؟ ألم تعارض جنوده، وأنت تحمل سيفك في يدك تهاجمهم؟ فالثوريون يجب ألا يلجأوا أبداً إلى السلطة الشرعية». وللمرة الثالثة،أخرج الآغا، وهو يتحدث، ورقة عليها صورة وجه السلطان تقول: «يأمر الخليفة والسلطان محمد الخامس جميع رعاياه ولاسيما السلطات المدنية والعسكرية بوجوب مساعدة الآغا رفعت بركات من رعايا أنطاكية في جميع مساعيه وعدم وضع العراقيل أمامه».

كان من المستحيل أن يدع المدير لهذه المؤن أن تذهب إلى الثوار. كما إنه من المستحيل عدم السماح لأي رجل يقع تحت حماية السلطان من المرور. وأخيراً توصل إلى حل وسط. فقد قضى بأن يسمح للآغا بالمرور إلى جبل موسى شريطة إبقاء البغال المحملة بالمؤن في الوادي. ولم يتمكن الآغا من الحصول على أي تنازل بهذا الشأن سوى أن سمح له حمل كمية ضئيلة من البن والسكر وبعض أوراق التبغ. وأخيراً راح المدير يسأل عن مرافقي الآغا فقال: «إن هؤلاء هم خدمي وأعواني. ها هي جوازات سفرهم. دققها أرجوك وستجدها نظامية». « لكن هذا الرجل هناك. لماذا يسدل على وجهه حجاباً مثل النساء؟». فقال له الآغا إنه مصاب بمرض جلدي في وجهه ويجب ألا يعرضه للهواء. هل تريد أن يرفع حجابه؟». فهز المدير رأسه مقطباً حاجبيه بعدم الموافقة.

جلس الآغا وكابرييل باكراديان إزاء بعضهما داخل الخيمة. وطلب الآغا أن يجري الحديث على انفراد. وجلس مرافقو الآغا الآن خارج الخيمة بجانب البغال التي أنزلوا عنها الأحمال وأخذ الجمع يزداد حولهم دقيقة بعد دقيقة.

– «لقد أتيت إليك يا كابرييل باكراديان بصفتي صديقاً لجدك، وصديقاً لأبيك وصديقاً لأخيك أواديس كما جئت بصفتي صديقاً للشعب الأرمني وأنت تعرف تماماً إنني أعمل من أجل قضية السلام الذي تقوض للأبد بين شعبينا...» ثم أردف كلامه بعد أن أطرق مفكراً: «هناك ذنب يقع عليكم وذنب يقع علينا. وأنا أقول هذا فقط لكي لا يخطئ حكمك، على الرغم من كل ما حدث وأن لا يقسو قلبك..». بدا وجه كابرييل أشد حزناً وكآبة من قبل. «إن الذي وصل إلى ما وصلتُ إليه لا يعرف الذنب، ولم يعد يشغلني أي ذنب أو حق أو ثأر». تثبتت يد رفعت وقال: «لقد فقدت ابنك». أدخل كابرييل يده في جيبه وراح يبحث عن شيء معين، ثم أمسك بالقطعة النقدية الاغريقية التي حافظ عليها مثل حجاب له ورفعها: «لقد جلبتُ لي هديتك قليلاً من الحظ يا آغا. ولكني فقدت القطعة الأخرى التي نقش عليها رأس الملك في نفس اليوم الذي فقدت فيه ابني. أما الأخرى...». قال الآغا: «إنك ما زلت لا تعرف آخر يوم لك».

رد كابرييل: «إنه قريب جداً. ومع ذلك فهو يبدو أنه يقترب ببطء شديد. وكم تنتابني رغبة جامحة في أن أندفع إلى وسط الأتراك لكي ينتهي كل شيء». نظر الآغا إلى يديه المضيئتين: «يجب ألا تقلل من شأن حياتك، بل يجب أن ترفع من شأنها. إنك تتمتع بقوة أكبر من معظم الرجال يا باكراديان. ومع ذلك فإن الله يقرر كل شيء».

كانت الحقيبة الصفراء موضوعة بجانب ساقي رفعت، وعليها رسالة القسيس هاروتيون نوخوديان التي كان من المزمع أن يسلمها إلى دير هايكازون.

– «كما تعلم يا باكراديان، فإني دائم الترحال منذ أشهر من أجلكم. لقد تخليت عن شيخوختي. وبعون الله سأصل حتى دير الزور. لكن زيارتي الأولى في سورية كانت إليك. وكما تعرف لديكم أصدقاء في خارج تركيا وداخلها. فقد جمع قسيس ألماني مبلغاً كبيراً من المال لكم، وأنا على اتصال معه. وقد حصلت على خمسين كيساً من القمح لكي أعطيها لكم. لكن لم يسمحوا لها بالعبور. غير إن القائمقام لن ينجح في مصادرتها، وستذهب إلى اخوتكم في المعسكرات. ومع ذلك فإن الهدف الحقيقي من زيارتي لكم على قمة جبل موسى ليس أكياس الحبوب..». ثم سلمه رسالة نوخودويان وقال: «إن هذه الرسالة ستنبئكم بما لم تسمعوه أبداً عما يجري لبني جلدتكم. لكن في الوقت نفسه يجب أن تذكر أن شعبنا كله لا ينتمي إلى الاتحاد أو إلى طلعت وأنور وما يلوذ بهم. فالكثيرون غيري، تركوا بلادهم واتجهوا شرقاً لمساعدة المتضررين جوعاً..» ثم أردف: «أستطيع أن أساعدك يا بني، وهذا ما دعاني للجلوس في خيمتك». ثم شرح الآغا خطته من أجل إنقاذ كابرييل باكراديان. فقال له إنه لا بد أن شاهد الرجال الخمسة الذين يرافقونه. فالشخصان الملتحيان ينتميان إلى جمعية دينية، أما سائسا البغال فهما خادمان قديمان له.

في حين أن الشخص الخامس يمثّل حالة خاصة. إذ كان قد لقي على يديه عدد كبير من الأرمن مصرعهم، وإن ضميره يعذبه من جراء ذلك. وقد تمكن شيخهم الكبير من هدايته وقد أقسم على أن يكفر عن ذنبه وهو مستعد لأن يبدّل ثيابه مع ثياب كابرييل وأن يختفي. شعر كابرييل باختناق فخرج من الخيمة قليلاً لتنشق هواء نقي. وعندما هدأ وعاد إلى الخيمة قبل يد الآغا وقال: «ولكن لماذا لم تأت من قبل يا أبتِ، عندما كانت الأمور ما تزال سهلة، عندما كنا نعيش في الفيلا».

- «كان يحدوني أمل كبير أن تنجو من هذا المصير.. ولكن ما زالت أمامك فرصة لذلك».«لا.. هذا غير ممكن».« هل أنت خائف؟... نستطيع أن ننتظر حتى يحلّ الظلام. ولن يكون ثمة خطورة من جراء ذلك».

- «إن المسألة ليست مسألة ليل أو نهار يا آغا. لقد كانت زوجتي على وشك الموت، وهي الآن تتماثل للشفاء».

- «زوجتك؟ ستجد نساء أخريات».

- «وابني مدفون هنا».

- «إن من واجبك أن تنجب طفلاً آخر لكي يستمر نسلك».

- «لا يوجد شخص في مكاني يمكنه أن يبدأ ثانية من البداية».

- «لماذا تفكر بالمستقبل؟ فكر بالساعات القليلة القادمة». كان ضوء المساء يملأ الخيمة. وقف كابرييل وقال: «كنت أنا الذي أوحى للقرى السبع فكرة إقامة المعسكر في جبل موسى. وقد نظمت عملية المقاومة بأسرها. وقدت المعارك ضد الجنود. ما زلنا أحياء بفضل هذه المعارك. وسأكون مذنباً ومسؤولاً- إذا ما قام الأتراك بعد بضعة أيام بقتلنا جميعنا حتى أطفالنا الصغار والمرضى. ماذا تقول يا آغا؟ هل أستطيع أن أنقذهم؟». لكن الآغا لم يحر جواباً.

وعلى الفور أمر كابرييل بحمل هدايا الآغا إلى ساحة المصلى لكي يقوم المجلس بتوزيعها على الناس. وكان سائسا البغال قد تمكنا من تهريب كيسين من الأرز فضلاً عن السكر والبن وقليل من التبغ. ونظراً لأن هذه الكمية كانت ستوزع على ألفي عائلة، فيمكن تصور ضآلة هذه الكمية التي ستنالها كل منها. ثم عاد الآغا مع مرافقيه الخمسة دون أن تعصب عيونهم إلى المواقع الشمالية. وكان يسير معهم كابرييل ودير هايكازون والطبيب بدروس ومختاران كحرس شرف وحولهم حشد كبير من القرويين. وكان الحديث الذي دار في الخيمة والذي لم يعرف أحد ماهيته مصدر آمال كبار للجميع. وكان الآغا يشعر بأنه يسير عبر سحب من الرماد، سحابة الموت الكثيفة للشعب الأرمني الذي أحرق بكامله.

كان الآغا يسير وهو محني الظهر فوق عكازة، وقد شعر أنه شاخ بسرعة كبيرة في هذه اللحظات. وراح يسر ع الخطا وكأنه هارب، وشعر أنه من الممكن أن تخذله قوته. ولم يعد يسمع أصوات الناس الذين كانوا يتوسلون إليه. ولم تسعفه قوته إلا عند خنادق المواقع الشمالية. وشعر

بدوار شديد وهوى على الأرض. فهرع خدمه لنجدته. كان الآغا رجلاً مريضاً. وكان الطبيب الفرنسي في استانبول قد أوصاه بعدم تعريض نفسه للإرهاق. وأخرج الخادمان من الكيس المخملي الأخضر الذي كان يحمله دائماً دواءه المنشط للقلب. وعندما استعاد الآغا وعيه بسرعة ابتسم إلى دير هايكازون وكابرييل اللذين انحنيا فوقه وقال: «لا شيء.. لا شيء.. فأنا كبير في السن.. وقد مشيت بسرعة كبيرة.. ومن ثم.. لقد حملتموني الشيء الكثير». وعندما نهض بمساعدة مرافقيه، أدرك أن مهمته لن تنتهي، لكنه لن يصل أبداً إلى دير الزور. وعندما وصلت عربته إلى منزله في أنطاكية قبل منتصف الليل كان قد هده التعب. وحال وصوله إلى بيته انكب على كتابة رسالة موجهة إلى نظمي بك، لكنها كانت موجهة في حقيقة الأمر إلى القسيس لبسيوس يعلمه فيها عما تمكن من تحقيقه حتى الآن.

وفي الوقت الذي كان الآغا رفعت بك يخطُّ رسالته إلى الدكتور لبسيوس، كان كريكور قد أسلم روحه.

5- حريق المصلّى

بعد حديث طويل جرى مع القس آرام وألتوني، قرر دير هايكازون أنه يجب عدم الاقتصاد بما تبقى من مؤن. أليس من السخف الشح في العيش مع ما يصاحبها من آلام؟ وقبل أن تحل المجاعة الحقيقية، فقد كان هناك عدد كاف من الرجال المسنين والنساء والأطفال الذين انتابهم هزال شديد وسقطوا على الأرض ولم يعد لديهم قوة على النهوض ثانية. وقد أثبتت هذه العملية الطاحنة البطيئة أنها أسوأ أنواع التهديم والتدمير. وحدت بالكاهن رغبة شديدة في وضع حد لكل ذلك. ففي تلك الأيام من أيلول ذبحت بقرتا باكراديان مع جميع العنزات المتبقية. وكان حليب العنزات شحيحاً جداً، ولم يكن يجدر التفكير فيه. ثم جاء دور الدابات وبغال الركوب التي كان من المستحيل أن ينضج لحمها، إضافة إلى كل ذلك، كان هناك البن والسكر الذي أحضره رفعت بركات وأصاب كل عائلة ربع رطل إلا أن الناس كانوا يستخدمون الحثالة مرات ومرات.

وفي اليوم الرابع والثلاثين من صعود الجبل، وبعد وفاة كريكور بأربع وعشرين ساعة وصل عدد المصابين بالحمى ما يقرب من مئتي مريض وأكثر من مائة آخرين كانوا قابعين في كوخ المستشفى. فأدخل دير هايكازون اسلوباً جديداً من الدفن دون أن يخبر الناس به. ففي وقت متأخر من الليل الدامس، كانوا يجمعون الجثث ويحملونها على الصخور الناتئة باتجاه البحر. وكان على الجميع المشاركة في ذلك. وكان لزاماً الذهاب مرتين أو ثلاث مرات قبل أن يتم ربط هؤلاء الموتى بأكفانهم ووضعهم في صفوف على الصخور العارية.

ولم يكن أحد يتوقع عودة السباحين من اسكندرونة. ففي صباح أحد الأيام ظهر هذان الشابان عند الخنادق الشمالية بعد أن تمكنا من التسلل عبر خطوط الدرك والجنود الذين أحاطوا منذ الأيام القليلة الماضية بجميع مرتفعات جبل موسى من الكبوسية وحتى قرية أرسوز الساحلية في الشمال. وهلل القرويون لقدومهما سالمين غير أن الأنباء التي حملاها كانت تقصي على كل أمل لهم. فقد بقيا ستة أيام كاملة في اسكندرونة دون أن يريا أي أثر لسفينة حربية في الميناء الخارجي. ولم تكن ترسو في الميناء سوى قوارب محطمة وزوارق محملة بالفحم الحجري وقوارب صيد. لكن الخليج الواسع الذي كان يشكل زاوية قائمة بين آسيا الصغرى وآسيا، كان خاوياً تماماً من أي سفينة. ولم يكن أحدٌ قد رأى منذ أشهر عديدة حتى خيال سفينة حربية في عرض البحر. وراحا يرويان كل ذلك وهما يشعران باضطراب شديد. وأخذا يصفان للناس ما

حدث لهما يوماً بيوم بالتفاصيل الدقيقة. وإذا ما نسي أحدهما أمراً تافهاً تدخل الآخر ليقوله لهم. ففي اليوم الأول من انطلاقهما، اجتازا قمة الجبل ودارا حول رأس الخنزير وهكذا وصلا دون أن يدركهما أحد إلى الطريق المؤدي من أرسوز إلى الميناء على طول الساحل ثم أمضيا يوماً كاملاً فوق هضبة قرب اسكندرونة، وراحا يرقبان الميناء وهما مختبئان وراء الأشجار. وعند حوالي الرابعة بعد الظهر، ظهر في عرض البحر خط رمادي متجه إلى الساحل مخلفاً وراءه خطاً من الزبد. فغاص السباحان في البحر وأخذا يسبحان باتجاه مدخل الميناء. وكما قضت الأوامر، فقد أخذا وحسب اعتقادهما يقتربان بدوائر واسعة باتجاه الطوربيد الفرنسي أو الانكليزي، لكن الهلع انتابهما عندما أدركا أن القارب كان يرفع العلم التركي. إلا أن الرجال على ظهر القارب شاهدوهما وصاروا يصيحون لهما بالتوقف. وعندما لم يستجيبا، أخذ طاقم سفينة خفر السواحل هذه يطلقون عليهما وابلاً من الرصاص . فغاصا وراحا يسبحان تحت الماء لمسافة بعيدة. وعندما وصلا إلى الشاطىء اختبأا بين الصخور الضخمة. ومن حسن الحظ كان قد حل المساء وكان الميناء مهجوراً. وكانا يسمعان صوت وقع أقدام الحرس الثقيلة فوق ألواح خشب الجسر العفنة. حيث قبعا تحته عاريين مبللين. فقد أضاعا ثيابهما ومؤنتهما. ولجعل الأمور أكثر سوءاً،كان هناك ضوء متقطع يتجه نحوهما. ولم يتمكنا من الهرب إلا بعد منتصف الليل. ولم يبدُ أمامهما أي خيار سوى البقاء بين التلال أو المغامرة والذهاب إلى المدينة. لكنهما وجدا طريقة ثالثة. فعلى تلة أشبه بحديقة، كانت تقبع عدة فيلات فخمة. وظن السباحان أنه لا بد أن يكون صاحب إحدى هذه الفيلات أرمنياً وذلك مما كانا قد سمعاه عن اسكندرونة. وأكد ظنهما هذا من الاسم المكتوب على اللوحة على مدخل الفيلا، لكن الهدوء كان يخيم على البيت. ظلام والنوافذ موصدة. ووجدا معولاً ومجرفة إزاء حائط الحديقة فراحا يحاولان كسر الباب دون أن يخطر ببالهما لفت الانتباه من الجلبة التي كانا يحدثانها. وبعد دقائق، سمعا صوت سلسلة من الداخل. وانفتح الباب. ضوء خافت ورجل يرتعش يقول: «من؟ من هناك؟..». «أرمن. باسم المسيح أعطنا شيئاً من الطعام نسد به رمقنا وخبئنا عندك. لقد جئنا من البحر. إننا عاريان وليس لدينا ثياب..» وانساب ضوء المصباح الذي كان الرجل يحمله على جسديهما: «يا الله يا رحيم. لا أستطيع أن أدخلكما وإلا قضي علينا جميعاً. لكن انتظرا». ومرت دقائق. ومن خلال الباب المنفرج، قدم لهما قميصين وغطاءين صغيرين. كما قدم لهما خبزاً ولحماً بارداً وليرتين ذهبيتين لكل منهما. وراح صوت الرجل يقول لهما وهو يرتعش: « باسم المخلص المسيح لا تبقيا هنا، ربما رآكم أحد، اذهبا إلى القنصل الألماني، إنه الوحيد الذي بإمكانه مساعدتكما.. اسمه السيد هوفمان. سأرسل امرأة عجوزاً ترشدكما إلى الطريق. امرأة تركية. اتبعاها لكن لا تسيرا قريباً منها ولا تتحدثا معها».

ولحسن الحظ كان السيد هوفمان يعيش في المنطقة نفسها. وكان نائب القنصل الألماني ذا أخلاق جيدة. فقد بذل ما بوسعه لمساعدة الأرمن في المنطقة. أدخلهما هوفمان وقدم لهما الطعام وخصص لهما غرفة ذات سريرين. وزودهما بثلاث وجبات فاخرة ثلاث مرات في اليوم. وعرض عليهما البقاء في هذا البيت ريثما تنجلي الأمور وتعود إلى طبيعتها. ولكن في اليوم الثالث من

حياتهما الرغيدة هذه قالا له إنه آن لهما أن يعودا إلى جبل موسى، إلى شعبهما المقاتل هناك. وشاء القدر أن يأتي روسلر القنصل العام الذي كان في زيارة إلى حلب في نفس اليوم الذي أعلما فيه هوفمان بقرارهما بالمغادرة. وقال لهما روسلر أن يحمدا الله لأنهما نفذا بجلديهما، وحذرهما من مغادرة هذا المكان الأمين. فقد كانت فكرة قوارب الإنقاذ مجرد خيالات مجنونة لشعب أدت الأهوال التي لاقاها لأن يفكر بأمور مستحيلة. فأولاً لم يكن ثمة سفن حربية فرنسية من أي نوع في شمالي شرق البحر المتوسط. صحيح أنه كان ثمة اسطول انكليزي يربض في ميناء قبرص، لكن نظراً لأن مهمته كانت تتمثل في حراسة قناة السويس ومصر فهو لا يتجه نحو الشمال. ولماذا يفعل ذلك؟ فلم يكن ثمة فرصة أو مناسبة لإنزال قوات على شواطىء سورية. وثانياً قال لهما روسلر إنه من حسن طالعهما أن يتمكن لاجئان أرمنيان اللجوء إلى منزل القنصل. وأن المساعدة الخارجية خارجة عن الصدد. فلم يكن بوسعه هو أو هوفمان أو زميله الأمريكي في حلب السيد جاكسون أن يقدم لهم أي مساعدة. لكنه أضاف برضاء تام أن جاكسون آوى شاباً أرمنياً وصل من المعسكر في جبل موسى منذ بضعة أيام. فغمرتهما السعادة لهذا الخبر إذ إن ذلك يؤكد أن هايك قد وصل بسلام إلى حلب وهو في مأمن الآن. وشكرا السيد روسلر والسيد هوفمان وقالا: «هناك آباؤنا وأمهاتنا واخوتنا ولم نعد نستطيع أن نتحمل إذا ما حدث شيء هناك ونحن هنا على قيد الحياة في هذا المنزل الجميل». وهكذا تركهما نائب القنصل هوفمان يعودان في الثاني من أيلول. وكانا قد أخبراه بوجود نقص شديد في الخبز على الجبل، فحصلا على كيسين من البسكويت العسكري من المفوضية الامبرطورية العثمانية وقدمهما لهما هدية الوداع. لكن أفضل شيء فعله لهما يتمثل في مرافقتهما في عربته التابعة للقنصلية. وجلس الشابان على جانبيه، واجتازا محارس الدرك وقد انتابتهما مشاعر الفخر. وكان رجال الدرك الأتراك يقفون باستعداد ويؤدون التحية إلى ممثل الحكومة الألمانية الذي كان يرفع علم بلاده على العربة. وقد أوصلهما هوفمان إلى الحرس الثاني خارج أرسوز. وهناك نزل الشابان من العربة وهما يبكيان وودعا حاميهما.

كان بالإمكان سماع أصوات المعاول في المواقع الشمالية من المرتفعات الشمالية البعيدة لجبل موسى. فقد كان الأتراك يحفرون على سفح الجبل. هل كانوا بصدد بناء مواقع دفاعية، أم كانوا يقيمون معسكراً محصناً لكي تكون لهم نقطة انسحاب لهجومهم التالي؟ وأُرسل الكشافة لاستطلاع الأمر،أربعة من أسرع الصبيان في مجموعة الكشافة، لكن أحداً منهم لم يعد. وساد قلق عميق. وأُرسلت ساتو لاستطلاع الأمر وعادت دون أن يمسها أي أذى، لكنها لم تجلب أخباراً مفيدة: «آلاف عديدة من الجنود.. إنهم يطهون الطعام. يدقون أخشاباً». حدث ذلك في اليوم السادس والثلاثين في المعسكر، الرابع من أيلول. وقدمت في ذلك الصباح حصة كل عائلة من لحم الحمير. ولم يعلم أحد أيمكن أن تكون هذه هي الوجبة الأخيرة لهم؟ وفي الوقت نفسه أرسل جميع المراقبين تقاريرهم التي تفيد بوجود حركة غير طبيعية في القرى وفي الوادي بأسره.

ولم تكن ثمة حشود من الجنود والدرك فقط بل تجمعت كذلك أسراب من الرعاع الذين

توافدوا من القرى الأخرى. وسرعان ما تبين سبب هذه الضجة والحركة غير العادية. فعندما اعتلى أفاكيان ذروة المرتفع وراح يستطلع الأمر باستخدام منظار كابرييل، اندفع الكشافة وقد انتابهم اضطراب شديد. فقد أفادوا أنهم شاهدوا شيئاً جديداً لم يروا مثيله من قبل. وتوقف على الطريق العام الممتد من أنطاكية إلى السويدية عند مدخل قرية يديجة حيث كان باستقبالها مفرزة من الخيالة. وتمكن أفاكيان من أن يميز، بواسطة منظاره، عربة عسكرية رمادية صغيرة. وهبط منها ثلاثة ضباط، وامتطوا أحصناً كانت تقف بانتظارهم. ثم اتجهت العربة على الفور إلى وادي القرى، وسار أمامها الضباط وتبعها الخيالة. وما هي إلا دقائق معدودة حتى وصلوا إلى قرية الوقف. وكان الضابط الذي يسير في الوسط يسبق الضابطين الآخرين. وتمكن أفاكيان من تبيان الخط الأحمر على بنطال الجنرال. واجتاز الخيالة القرى دون أن يتوقفوا. ولم يستغرق وصولهم إلى يوغونولوك أكثر من ساعة. وكان بانتظارهم قي ساحة الكنيسة عدد من المدنيين. ومما لا شك فيه أن قائمقام أنطاكية والمدير وعدداً من الموظفين الآخرين كانوا برفقة الجنرال وحاشيته إلى فيلا باكراديان. وعلى الفور تم نقل هذه الأنباء إلى القائد. وأطلق صامويل أفاكيان جرس الخطر على مسؤوليته، ووافق كابرييل على هذا الاجراء ودعمه بإصدار أوامر بأنه من الآن وصاعداً يجب أن يكون المعسكر في حالة تأهب دائم سواء أحدث شيء أم لم يحدث. لكنه أسّر إلى أفاكيان رأيه بأن الأتراك لن يشنوا هجوماً اليوم أو غداً، بل ربما في الأيام القليلة القادمة. وبدا أنه على حق. إذ بعد أن أمضوا ساعتين في الفيلا عاد الضباط وامتطوا أحصنتهم واتجهوا إلى يديجة. وعند منتصف النهار عادت العربة باتجاه أنطاكية ثانية، ورافق القائمقام هؤلاء الضباط إلى عاصمته الاقليمية.

في اليوم التالي قام كابرييل بزيارة التحصينات الجنوبية. إلا أنه توقف أولاً عند مدافع الهاوتزر لفحصها. وكان المدفعان موجهين في اتجاهين معاكسين. الأول باتجاه المرتفعات الشمالية والثاني باتجاه السويدية. إذ يمكنهما على أقل تقدير إعاقة تقدم الأتراك. وكان ما يزال في المغلاق أربع قذائف وخمس عشرة قنبلة يدوية. وكان يقوم على حراسة المدفعين ثمانية رجال كان نورهان قد دربهم على استعمالهما. ورافق نورهان وأفاكيان وعدد من قادة الوحدات كابرييل في زيارته المفاجئة تلك. وكانت انطباعاتهم الأولى لدى وصولهم إلى التحصينات الجنوبية عدم إثارة أية شكوك. ولم تكن ثمة مخالفات شديدة هناك. إذ كان الجميع ينفذون التعليمات بشكل دقيق. وكان الحرس يقومون على حراسة المراكز والنقاط المتقدمة المتمركزة عند حافة المنحدر الصخري العريض. لكن إهمالاً واحداً لم يكن يقدر على تحمله والتساهل به وهو اشعال النار. فعلى الأطراف الغربية من التحصينات الجنوبية التي تنحدر معها سفوح الداملاجيك باتجاه البحر كانت قد أقيمت ثلاثة حواجز دفاعية. وعلى بعد عشرين خطوة أسفل هذه الحواجز، كانت تشتعل نار في العراء دعوة ودية جداً للأتراك رغم الأوامر الصارمة بمنع إشعال النار في الخنادق. لكن ذلك لم يكن كافياً. فقد كانت تجلس مع مجموعة من الفارين مومستان كانتا قد جاءتا من ساحة المعسكر للانضمام إلى هذه المجموعة. وكانت هاتان المرأتان تشويان لحم عنزة فوق النار. فاندفع نورهان والآخرون بعصبية بالغة على المجموعة. وكان باكراديان يسير وراءهم ببطء. أمسك

نورهان أحد الفارين من قميصه الرث وجذبه نحو الأعلى وقال: «أيها القذر، من أين حصلت على تلك العنزة؟». حاول الفار ذو الشعر الطويل أن يحرر نفسه من قبضة نورهان وأدعى أنه لا يعرف من هو الجاووش نورهان: «وما شأنك أنت؟ ومن أنت على أي حال؟».

- «هذا ما أنا» ووجّه إليه لكمة على فكه وكاد يسقط فوق النار المضطربة. لكنه نهض وراح يزمجر: «لماذا تضربني؟ ماذا فعلت لك؟ لقد ذهبنا إلى هاباسته ليلاً لنصطاد هذه العنزة».

- «إلى هاباسته أيها الخنزير القذر؟ لقد سرقت هذه العنزة من المعسكر أيها المحتال. لقد سرقتها من أفواه الجياع.. الآن فهمنا..» وأدار السارق الطويل الشعر عينيه إلى كابرييل الذي انتحى جانباً وترك لرفاقه تصفية الأمر. وزمجر الفار قائلاً: «يا أفندينا ألسنا نحن بشر؟ هل تشعر بجوع أقل من أي شخص آخر؟ ومع ذلك فإنك تطلب منا العمل. يجب علينا أن نحرس ليلاً نهاراً في حالة أسوأ من الثكنات العسكرية..».

لم يحر كابرييل جواباً بل أشار بجدة إلى مرافقيه إطفاء النار بأقدامهم وطلب منهم احتجاز العنزة. وكان الجاووش نورهان ما زال غاضباً، وقال للفار وهو يلوح بساق العنزة المشوية «ستجوع أكثر قبل أن تموت. من الأفضل أن تبدأ بأكل العنزات الأخرى».

اقترب السارق من باكراديان ورسم شارة الصليب على صدره بتواضع وقال: «يا أفندينا أعطنا ذخيرة.. فليس لدى كل واحد منا سوى حزام من الطلقات. لقد أخذت ما تبقى لدينا. ومن الخطأ أن لا يكون معنا كمية كافية من الذخيرة والطلقات. فمن المحتمل أن يشن الأتراك هجومهم في أية لحظة». لكن كابرييل أدار ظهره ولم يرد عليه. وفي طريقهم إلى المعسكر أعلن نورهان بحماس: «يجب أن ننظف التحصينات الجنوبية. إن أفضل شيء هو أن نطرد عشرين من أسوأ هؤلاء الرجال من المعسكر». لكن فكر كابرييل كان مشغولاً بأمور أكثر أهمية من هذا الحادث المزعج وقال بشرود « هذا مستحيل.. فلا نستطيع أن نطرد مواطنينا من الأرمن لكي يلاقوا الموت».

- «مواطنينا من الأرمن؟» وبصق الجاووش نورهان باحتقار.

في صباح اليوم السادس من أيلول، وعندما بدأت النسوة بالتجمع حول الطاولة لاستلام حصصهن من الطعام، أعطيت لبعضهن عظام قد علق فيها شيء من لحم الحمير. وأحاطت الأمهات بالمخاتير الذين كانوا يشرفون على توزيع الجرايات وقد تملكهن اليأس. إذ وزعت أفضل أنواع اللحم على المقاتلين في الخنادق وذلك حسب أوامر المجلس. إذ كان على المقاتلين أن يكونوا أقوياء لمواجهة الهجوم التالي. أما بالنسبة لآخر العنزات والحمير المتبقية فقد تقرر عدم ذبحها بغية الحصول على الحليب من الماعز الذي كان يوزع على الأطفال الصغار. أما آخر أربعة حمير فقد أُبقيَ عليها وذلك لوجود حاجة إليها أثناء القتال. لذلك لم يبقَ أمام الأمهات إلا أن يبحثن عن طعامهن بأنفسهن. ثم تفرقت النسوة في الأراضي الخضراء المنتشرة في الوادي. وكان أولادهن يجرون وراءهن لا يزيد عمر بعضهم على ثلاث أو أربع سنوات. وحاولت بعض النسوة ارتياد

المناطق التي ينمو فيها التين الهندي اللذيذ المذاق. ولكن ما نفع كل ذلك؟ فقد كانت معدتهن تقرقع وتصيح من أجل الحصول على الدقيق أو الدهن أو حتى قطعة من الجبن يسددن بها رمقهن. كما لم تجد نفعاً خطة صيد القس آرام. وخلال حملات البحث اليائسة التي قامت بها النسوة، عقد مجلس القادة جلسة. وكان القادة ما زالوا يدركون أن هذا هو آخر يوم لهم يمضونه في كوخ الحكومة. وكان الجدار الذي كان كريكور قد أقامه من الكتب ما زال قائماً. وكان وجه دير هايكازون أبيض كالشمع وطلب من القس آرام افتتاح الجلسة. وكان السبب الذي دعا إلى عقد اجتماع اليوم الشعور المتوتر الناشيء بين آرام توماسيان وكابرييل. ولم يكن توماسيان قد فاتح كابرييل بهذا الموضوع بعد. فقد كان يكن لاسكوهي حباً كبيراً . ولم يعد الآن يراها إلا لماماً واستمرت أوسانا في التعريض لأخته ونعتها بأفظع الكلمات والصفات. ومع ذلك فقد زاد حبه لها بشكل لم يسبق له مثيل. وكانت كلماتها ترن في أذنه.

– «أنا في التاسعة عشرة من عمري ولن أبلغ العشرين أبداً». لذا حاول توماسيان عدم تصعيد الأمر. لكن هذا الاجتماع، الذي كان الأول بالنسبة لكابرييل الذي لم يعد يحضر جلساته منذ وفاة ستيفان، ملأ آرام بنوع من الإحراج المرير. ولم يتمكن من التعبير له عن أي تعاطف. وافتتح الاجتماع بالتقرير التالي: «لقد تم تنفيذ القرار الذي اتخذناه بتوزيع اللحم. وتم الاحتفاظ بالجزء الأخير منه للمقاتلين فقط. وعلى أكبر تقدير فإن ذلك يمكن أن يدوم يومين اثنين. وقد بدأت اليوم النساء والأطفال الصيام، هذا إذا لم تُعتبر الجرايات التي كانت تقدم إليهم في الأيام القليلة الماضية نوعاً من الصيام. رفع المختار كبوسيان يده بعد أن ألقى نظرة حوله لكي يتأكد من أن جميع مؤيديه في الاجتماع الماضي كانوا جالسين في أماكنهم: «لا أرى سبباً كافياً يدعو لتقديم الطعام للرجال في الخنادق، وأن يترك الأطفال والنساء يتضورون جوعاً. إذ يمكن للرجال الأقوياء أن يحزموا بطونهم قليلاً».

وهنا تدخل كابرييل على الفور: «هذا في غاية البساطة يا مختار كبوسيان. إذ أن المقاتلين بحاجة إلى الاحتفاظ بقوتهم الآن أكثر من ذي قبل». ومن أجل دعم كلام قائدهم حوّل دير هايكازون المناقشة عن موضوع الطعام وقال: «لعل كابرييل باكراديان سيقدم لنا وجهة نظره عن الوضع الحقيقي لقوتنا الدفاعية». أشار كابرييل إلى الجاووش نورهان وقال: «إن معنويات المقاتلين ليست في واقع الأمر أسوأ مما كانت عليه قبل القتال الأخير. وهذا أمر يثير الدهشة. لكن هذا هو الواقع. ويؤيد ذلك الجاووش نورهان. وأستطيع القول إن دفاعاتنا الآن هي أقوى بكثير مما كانت عليه في المرة السابقة. والنقاط التي يحتمل أن يشن الأتراك منها هجومهم محدودة جداً. وبشكل عام لا يوجد أمامهم سوى الجبهة الشمالية للهجوم وجميع استعدادتهم تثبت ما أقوله. وبالرغم من قدوم جنرالهم الجديد، فلن يجرؤوا على مهاجمة المعقل. وهذا من حكم المؤكد. والمعقل هنا كما يعرف الجميع لا يقدم لنا فائدة خاصة. لكني أنوي إرسال نورهان إلى هناك لمدة يومين لكي يحافظ على النظام قليلاً. أما الهجوم التركي في الشمال فسيكون أسوأ من جميع الهجمات مجتمعة. والسؤال هو ما إذا كانوا سيستخدمون المدفعية، وكم لديهم منها. وهذا أمر لم نتوصل

إلى معرفته حتى الآن. وسيتوقف الأمر كله على ذلك وما إذا كان ضرورياً أن نتبع أسلوباً جديداً، لكني سأتحدث عن ذلك فيما بعد».

بيد أن دير هايكازون الذي كان جالساً كالعادة ويداه متجمدتان وعيناه مطرقتان، لم يستطع أن يطرح سؤاله الأساسي: «حسناً وماذا بعدئذ؟». فتحدث كابرييل الذي كانت تتملكه الآن رغبة جامحة في حدوث النهاية والتحرر من كل ذلك بشيء من الرطانة: «حسناً. فكروا معي! ففي هذه اللحظة بالذات هناك ملايين الرجال الرابضين في خنادقهم في جميع أنحاء العالم، تماماً كما هو شأننا هنا. إنهم يقاتلون، أو إنهم يستعدون للقتال، تنزف دماؤهم، يموتون تماماً كما هو حالنا. هذه هي الفكرة الوحيدة التي تعزيني وتجعلني في سكينة، وعندما أفكر في ذلك، أشعر أني لست في حال أسوأ، أو أقل شرفاً من أي رجل آخر بين تلك الملايين. وهذا ينطبق علينا جميعاً. فبالقتال لا نبقى مجرد روث نتعفن في مكان ما على الفرات. وبالقتال نحوز على الشرف والمجد. لذلك يجب ألا نرى شيئاً أمامنا ولا نفكر في شيء آخر، سوى أن نقاتل..».

وبدا أن قلة قليلة جداً تشاطره هذه النظرة البطولية. لكن دير هايكازون تابع سؤاله: «وماذا بعدئذ؟» فنظر كابرييل وقد علته الدهشة «وماذا بعدئذ؟ كنت أظن أننا جميعاً موافقون على ذلك. ماذا إذن؟ لا نأمل بشيء أكثر من ذلك».

وهنا برزت فرصة لأسايان، المغني في الكورال، لكي يقدم خدمة طيبة لصديقه أوسكانيان. فقد كان قد عزم على أنه لن يدع الفرصة تفوته في هذه الجلسة ليرمي بذور الشقاق. ولا يحتاج إلا إلى التلميح إلى «خيانة» كونزاك ماريس وزيارة الآغا الغامضة إلى كابرييل. تنحنح وقال: «يا أفندينا. إن موت المحارب لا يعتبر دائماً أمراً بطولياً. وأنا شخصياً لا أتمنى شيئاً أفضل من ذلك. كما ليس من المفروض عليّ أن أعبر عن رأيي حول زوجة مصونة. ولعلك اتخذت تدابير معينة من أجلها مع الباشا التركي الذي زارك منذ بضعة أيام، ونحن لا نعرف ماذا دار بينكما. ولكن هل لي أن أسأل ماذا سيحدث لزوجاتنا وأخواتنا وبناتنا؟».

وكان من طبيعة كابرييل أن لا يكون مستعداً لهذا الضرب من الهجوم. لكن دير هايكازون الذي كان يعرف طبيعة كابرييل جيداً استلم زمام الرد عليه وقال: «أيها المغني احفظ لسانك! ولكن إذ شئت حقاً أن تعرف سبب مجيء الآغا رفعت بركات من أنطاكية لمقابلة الأفندي فأنا سأقول لك. لقد كان بوسع كابرييل باكراديان الآن أن يكون في مأمن في منزل الآغا في أنطاكية، يأكل خبزه وطعامه في هدوء وسكينة، بعد أن عرض عليه التركي أن يهرب معه وعرض عليه فرصة طيبة جداً للقيام بذلك. لكن كابرييل فضل أن يبقى على عهده معنا وأن يتابع مسيرته حتى آخر لحظة. وكان هذا الإعلان خرقاً ضرورياً للثقة بكابرييل. وتبع ذلك صمت طويل يشوبه القلق. فباستثناء دير هايكازون لم يكن أحد يعرف بذلك سوى الطبيب بدروس ألتوني، وخيم الصمت لفترة من الزمن. لكن من الخطأ الافتراض أن هذا الصمت كان يعبر عن اتفاق عام لتصرف باكراديان في رفض طلب الآغا له. وقال الجميع في سرهم إن هذا الأوروبي حفيد

أواديس العجوز سلك بطريقة غبية. وكان آرام توماسيان أول من كسر هذا الصمت فأخذ يتحدث لكنه لم يتمكن من إبقاء عينيه مثبتتين على مناوئه: «إن في داخل كابرييل باكراديان شعور وروح العسكري، الضابط. ولكن لا يمكن لأحد أن يوجه لي اللوم إذا ما لذْت بالفرار في هذه الفترة. إذ أني لا أملك روح العسكري والأمر مختلف بالنسبة لي. ونحن جميعنا هنا نرى الأمور بمنظار يختلف عن رؤية باكراديان ولا مفر من ذلك، وإني إذ أتسأل، هل ثمة هدف من إراقة مزيد من الدماء في معركة أخرى غير متكافئة، لكي نموت جوعاً بعد ثلاثة أيام أخرى على أبعد تقدير؟ ومع ذلك فإنه حظ لم يسمع به أحد. وماذا سنجني من كل ذلك؟.. إن دير هايكازون والآخرين يجب أن يقروا بأنه لا توجد جدوى من بقائنا هنا على الداملاجيك، وأنه من الأفضل علينا أن نقتل زوجاتنا ومن ثم أنفسنا، على أن نموت ببطء جوعاً أو أن نقع في أيدي الأتراك، لذلك اقترح أن نهجر الجبل غداً أو بعد غد وفي أسرع وقت ممكن. أما بشأن أفضل وسيلة لعمل ذلك فيجب بحثها بعناية، وإني اقترح أن نتجه شمالاً على طول الشاطئ، ويمكننا أن نضع رأس الخنزير أول هدف لنا. فالخليج هناك محمي بشكل جيد، وفيه سمك أكثر من هنا».

بدأت الرؤوس التي لم تكن قد تحركت أبداً بالتحرك الآن كما لو أن ريحاً خفيفة قد هزتها. أما كابرييل فهو الوحيد الذي لم يتغير، بل رفع يده للسماح له بالتحدث وقال: «إنه حلم جميل وخيال رائع ذاك الذي يقوله القس آرام. وإني اعترف أني حلمت بذلك بنفسي. لكن يتعين علينا أن نختبر تخيلاتنا حسب إمكانية جعلها واقعية. لذلك، فإني على الرغم من أني القائد المسؤول فليس لي الحق في أن أفترض بأننا سننجو خلال الليل من اختراق الأتراك لصفوفنا، والوصول إلى رأس الخنزير. بل سأذهب شأواً أبعد من ذلك وسأفترض بشيء من العبثية أن الدرك والجنود لن يلاحظوا موكباً طويلاً متعثراً مؤلفاً من أربعة إلى خمسة آلاف شخص يسيرون على طول الجروف الحوارية على الشاطئ. وهنا يجب أن نواجه نتوءاً صخرياً طويلاً. لا تقاطعني يا قس أرجوك، وتستطيع أن تعتمد على ما أقول فلدي تفاصيل الخارطة مرسومة في دماغي. ولا أعرف إن كانت هذه الخلجان مجرد صخور عارية أم فيها أي نوع من الأعشاب القابلة للإقتتات. لكني حتى لو افترضنا ذلك، فسأعطي القس البنية لذلك، نعثر على معسكر يكفينا، ويصاب الأتراك بالعمى بحيث يحتاجون إلى ستة أو إذا أردتم لنقل ثمانية أيام لمطاردتنا، وهنا يأتي السؤال الهام الحقيقي: ماذا نكون قد جنينا؟ الجواب: نكون قد استبدلنا المجهول بالمعلوم. نكون قد عرضنا نساءنا الذاويات الضامرات الجائعات وأطفالنا المساكين إلى مسير طويل مرهق فوق صخور لا تعرف الرحمة، على طول جروف حادة، بل ربما لم يتمكنوا من عمل ذلك. فبدلاً من هذا المعسكر الذي اعتدنا عليه وتحصنا به، يتوجب علينا أن نبني معسكراً جديداً بدون قوة تحميه وبدون وسائل متوفرة لنا. وإني متأكد أنكم ترون ذلك. فنظراً لأنه ليس لدينا بغال، يجب علينا أن نخلف وراءنا أسرتنا وبسطنا وأدوات طبخنا وجميع ما لدينا على الجبل. لكن بدون أدوات، حتى لو وجدنا أنفسنا في الجنة، وبوجود خبز ينمو على الأشجار فلن نتمكن أبداً من بدء حياة جديدة. ولن ينكر ذلك القس. سنتخلى عن قلعة محصنة يكنّ لها الأتراك احتراماً ووجلاً ونذهب إلى موقع

مكشوف في الوادي لا يوجد ستار أو غطاء يحمينا. حيث سنقتل خلال نصف ساعة يا توماسيان، ولكن بطبيعة الحال، سيكون لهذا الأمر فائدة كبيرة. فهناك لن يكون أمامنا طريق طويل لكي نسقط في البحر كما يوجد لدينا هنا من على الجبل. لكني أخشى أنه سيكون أمام السمك فرصة التهامنا أكثر من فرصة اصطيادنا له». لكن آرام توماسيان كان يستمع إليه وكان يحاول مقاطعته بين حين وآخر. «إن كابرييل باكراديان استبدادي دائماً في الدفاع عن وجهة نظره. ولا يتيح لنا فرصة إظهار ذكائنا. فنحن بالنسبة له لسنا سوى مجموعة من الفلاحين الفقراء وهو يعلونا مقاماً. ومع ذلك فأنا لا أنكر ذلك. فنحن عبارة عن فلاحين وحرفيين فقراء ولسنا على مستواه. ولكن نظراً لأنه طرح علينا عدة أسئلة فهل لي أن أساله بالمقابل؟ فهو الضابط المدرب الذي جعل من الجبل قلعة محصنة. وهذا أمر ثابت. لكن ما جدوى كل هذا التحصين لنا اليوم على الداملاجيك؟ لا شيء البتة. بل على العكس. فهو يحول دون القيام بأي محاولة لإيجاد طريقة أخيرة للهرب. فإذا كان الأتراك أذكياء فلن يشنوا معركة أخرى. لأنهم سيحققون هدفهم بعد بضعة أيام دون أن يخسروا رجلاً واحداً. لكن سواء رغبنا أم لا فهناك معركة أخرى. فهل ثمة فكرة أو محاولة جديدة لتفادي الموت؟ والسؤال الأكثر أهمية هو: ما هي الاقتراحات التي لدى كابرييل التي تمنع عنا غائلة الجوع؟ فهل يكفي أن يهزأ من محاولتي بصيد السمك؟ ولسوء الحظ كانت وما زالت المحاولة الوحيدة. لو كان لدي دعم جيد، لو كنت قد تلقيت مساعدة كافية من الرجال القادرين لكنا نجحنا». ثم اندفع القس الذي حافظ على هدوئه حتى الآن بحماس وأخذ يصيح: «دير هايكازون إني أقدم اقتراحاً هاماً جداً وهو أن تأمر بذبح جميع الحيوانات المتبقية وطهيها وتوزيعها وأن نغادر المعسكر ليلة الغد أو على أبعد تقدير ليلة بعد غد. وأن تضرب لنا مخيماً في أحد الخلجان حيث يسهل صيد السمك».

هذه الاقتراحات جعلت عقول هؤلاء الفلاحين الثقيلة تضطرب. وأخذ المخاتير يتململون على مقاعدهم. هز والد آرام طرفه مذعوراً. لكن توماس كبوسيان مسح صلعته التي أخذ العرق يتفصد منها ودمدم متذمراً: «آه لوكنا قد ذهبنا في القافلة! أحياء أو أمواتاً.. لكان أفضل بكثير».

أخرج دير هايكازون ورقة مجعدة قذرة من جيبه. وكانت هذه فرصة ليس ليكبت التنهدة التي صدرت عن كبوسيان بل للدفاع عن الداملاجيك ضد آرام وأخذ يقرأ الورقة بصوت منخفض:

- «من هاروتيون نوخوديان، قسيس بيتياس، إلى دير هايكازون كبير قساوسة المنطقة الساحلية حول السويدية في يوغونولوك. أولاً السلام عليك وأطال الله عمرك يا أخي الحبيب في المسيح دير هايكازون وإلى جميع مواطني الأحباء الرابضين معك على جبل موسى، أو أينما يصلك كتابي هذا، آملاً أن تكونوا ما زلتم على الجبل. وإذا شاء الله فستصلكم هذه الرسالة التي سلمتها إلى ضابط تركي طيب وذي أخلاق حميدة. لقد وضعت ثقتنا في الله موضع اختبار فظيع، وإني على ثقة بأنه سيصفح عنا إذا ما فقدناها. إني أكتب إليكم هذه الرسالة وأنا أجلس بجانب جثمان

زوجتي العزيزة، القديسة الملائكية اللطيفة التي بقيت دون دفن. فهي، كما تذكر، كانت تدأب باستمرار على العناية بصحتي ورفاهيتي. لكن الآن انقلب كل شيء رأساً على عقب. وقد سمعتُ صلاتها المتحمسة، فهي التي رحلتْ وتركتني وحيداً وقد ماتت تضوراً من الجوع. وكان آخر تصرف لها هي أنها كانت في الصباح البارد في هذه البوادي تخلع لفاعها عنها وتلفه حول رقبتي. فليعاقبني الله. فأنا الضعيف، المريض لدي قوة تأبى أن تخبو، والتي لعنتها ألف مرة. لكنها هي التي دأبت على حمايتي على الأرض، ماتت وبقيتُ أنا على قيد الحياة. لقد تم فصل جميع الشباب عنا في أنطاكية ولا نعرف ماذا حل بهم. أما الباقي، باستثناء سبعة وعشرين منا فقد لقوا حتفهم، وكل ما أخشاه هو أني سأكون الأخير، أنا الذي لا يستحق الحياة. ونحصل الآن على جراية ضئيلة يومية من الخبز والبرغل لا يمكنها إلا أن تطيل من آلامنا. ولعلهم سيرسلون اليوم فرقة الإنشاءات لدفن الجثث الكثيرة. وعندما يصلون سيأخذون عزيزتي مني، ومع ذلك فسأكون شاكراً لهم على ذلك. أدامكم الله يا دير هايكازون وأتساءل متى يمكن أن نلتقي ثانية؟».

بعد أن أنهى القسيس قراءة السطور الأخيرة، رفع بدروس ألتوني صوته عالياً: «حسن، أظن أن توماس كبوسيان لم يعد يتوق الآن لبركات الترحيل. إذ أننا نعيش هنا حياتنا منذ ثمانية وثلاثين يوماً، لم تكن سهلة لكنها كانت معقولة في رأيي. ومن المؤسف أنه لن يتاح لأحد منا أن يفاخر بها فيما بعد، وإني اقترح أن يقوم دير هايكازون بقراءة رسالة نوخوديان على الملأ وأمام الجميع من ساحة المصلّى.

وافق الجميع على ذلك لأنه سرعان ما انتشرت في صفوف الناس النهدة التي ندت عن كبوسيان «آه، لوكنا قد ذهبنا مع القافلة». لكن كابرييل لم يحفل بكل ذلك، بل ظل جالساً غارقاً في أفكاره. فقد سمع لتوه رسالة القس الصغيرة وراح يفكر الآن في سبب إظهار عداوته له بهذا الشكل المتحمس. وعرف على الفور أن السبب هو اسكوهي. وخطر بباله اقتراح عظيم، فسعى جاهداً لأن تكون كلماته توفيقية بقدر الإمكان: «لم يكن في نيتي أبداً أن أحط من شأن خطط آرام توماسيان. فمنذ البداية، كنت أعتبر أن اقتراحه لصيد السمك هو اقتراح جيد. وإذا فشل فهذا ليس خطأ الفكرة بل يعود ذلك إلى الأدوات السيئة. أما بالنسبة لاقتراحه بإقامة معسكر جديد، فقد أرغمت بدافع من واجبي أن أظهر أنها ليست غير عملية فحسب، بل ستؤدي إلى الإسراع في القضاء علينا وجعل نهايتنا أكثر قسوة. ومن الناحية الأخرى، كان القس آرام على حق عندما سألني ماذا اقترح بشأن المجاعة. اسمعوا الآن من فضلكم جميعكم، فأنا سأجيب على كل هذه الأسئلة على الفور.. فهناك طريقة قديمة كان يتبعها المحاصَرون من غابر الأزمان.... فقد نقل الأتراك قواتهم إلى جبل موسى حتى لو كان لديهم ستة أو ثمانية سرايا، والله وحده يعرف كم عدد الدرك والجنود الموجودين، فإنهم سيحتاجون إلى معظم هذه القوات للإطباق على الجبل. وما نحتاجه هو أن نقدر المسافة من الكبوسية إلى أرسوز مثلاً. فمن الواضح أنهم يهدفون إلى تجويعنا، لذلك فسيتنظرون أياماً أخرى قبل أن يشنوا هجومهم الرئيسي. وثبت كلامي ذهاب جنرالهم الذي سيقود المعركة. وأنا افترض أن هذا الجنرال مع ضابطه والقائمقام وربما شخصيات مرموقة

أخرى ستعود قريباً جداً وتتخذ من منزلي مقراً لها.. لذلك أريد أن نحاول شن غارة، هل تفهم ما أعني يا دير هايكازون؟ على النحو التالي: نشكل فرقة هجومية ننقيها من بين المقاتلين، ولا أعرف فيما إذا ستكون مؤلفة من أربعمائة أو خمسمائة رجل. وفي الليل سأضع خطة كاملة بالتفصيل. وثمة طرق كثيرة بين الفجوات التي أحدثتها النار للوصول إلى الوادي، وإني على يقين بأن قيادتهم قد وضعت دوريات تجوب الوادي أثناء الليل، وكل ما علينا معرفته هو أن نعرف متى يتم تبديل هذه الدوريات وأن نتسلل عندئذ. ولن يكون ذلك صعباً. ونستطيع أن نهاجم في الساعة الثانية أو الثالثة صباحاً.. كيف؟ .. لا ليس على يوغونولوك فيجب ألا نبتعد إلى تلك المسافة.. يمكننا مهاجمة منزلي بقوة متفوقة. ومن الطبيعي أنه يجب أن نعرف عدد الرجال الذين يقومون بالحراسة هنا، ونجهز عليهم ونستولي على الحديقة والاصطبلات. أما الأشياء الأخرى فلسنا بصدد الحديث عنها. فهي من اختصاصي أنا والجاووش نورهان. وبمشيئة الله سنتمكن من أسر الجنرال والقائمقام والمدير واليوزباشي والضباط الآخرين. وإذا نجح الهجوم فسنتمكن من إحضار هؤلاء إلى الجبل خلال ساعتين بل حتى يمكننا جلب الدقيق والمؤن الأخرى. صاح مغني الكورال: «لقد بدأ كابرييل يحلم الآن». لكن شاداخيان الدمث انتصب واقفاً بحماس وقال: «في رأيي، قدم باكراديان اقتراحاً جريئاً وشجاعاً. بل إنه أكثر الاقتراحات أهمية. فإذا ما نجحنا في الاستيلاء على الفيلا وأسر الجنرال والقائمقام واليوزباشي فلا داعي لأن نأبه لما يمكن أن يحدث..». لكن آرام توماسيان قاطعه بازدراء: «إن النتيجة واضحة. فإذا ما أسرنا أحد جنرالاتهم وعدداً من المسؤولين الكبار فسيكف الأتراك عن اعتبارنا مجرد دعابة، وسيرسلون لنا فيالق وكتائب لمحاربتنا. وإذا تصور كابرييل باكراديان أن الجيش سوف يتفاوض من أجل قادته، ويقدم تنازلات فهو مخطئ جداً. إن موت جنرال أو قائمقام على يد المتمردين الأرمن هو كل ما يسعون إليه. إذ أن ذلك يجعلهم على حق في نظر جميع البلاد الأجنبية، وهو أكبر تبرير لسياستهم في تصفية الأرمن. وهم يرحبون بأي شيء من هذا القبيل. ماذا تعرفون أنتم يا سكان يوغونولوك عن هذا؟ فقد كنت في زيتون». بيد أن شاداخيان انفجر قائلاً: «إنه ليس كابرييل باكراديان المخطئ، بل أنت أيها القسيس، على الرغم من كل زيتون التي تتكلم عنها. فأنا أعرف الاتحاديين وأعرف حزب تركيا الفتاة، على الرغم من أنني قضيت حياتي في يوغونولوك. فهم يتحدون ولا يضحّون بأحد منهم. فهي قضية تتعلق بشرفهم، وإن الموت المخزي لجنرال أو قائمقام سيحطم سمعتهم في عيون الناس. وهو أمر لن يتحملوه. بل على العكس، سيفعلون كل ما بوسعهم لمقايضة هؤلاء بالدقيق والسمن بل وحتى بالحرية».

لكن تفاؤل المعلم شاداخيان المفرط، جعل جميع الذين يشكون بذلك يبدون احتقارهم وازدراءهم. وفي الوقت نفسه فقد تملك توماسيان الشيطان. إذ كان هجومه شنيعاً وبدون معنى أو أي سبب وقال: «يا دير هايكازون، ألست أنت أعلى سلطة هنا والمسؤول عن كل شيء. إني أوجه إليك الإدانة بعدم اتخاذ القرار. أنت تدع كل شيء ينزلق، فأنت لا تريد أن يتدخل أحد معك. فبالمعجزة فقط ما زلنا على قيد الحياة بالرغم من هدوئك هذا». كان هذا الهجوم الشنيع

على أعلى سلطة أمراً فريداً وسابقة لم يسبق لها مثيل. وقد أثار حفيظة ألتوني الذي اندفع قائلاً: «ماذا لديك لتتذمر منه أيها الشاب؟ فأنت لاتعرف شيئاً عنا وعن حياتنا لأن أباك أخذك إلى مرعش وأنت ما زلت صغيراً. لا تتعالى على من هم أعلى منك». فطلب آرام النظام وقد انتابه الخجل لعدم براعته في عرض أفكاره فأصبح صوته أكثر برودة: «ربما كنت غريباً لكي يتعذر عليّ فهمكم، مع أن الغرباء الحقيقيين بينكم يبدو أنهم يفهمونكم تماماً. لكنني ما زلت متمسكاً باقتراحي الأول. علاوة على ذلك، فقد قررت أن أفعل ما أظنه ملائماً من قِبَلي ومن قِبَل عائلتي. فمن قال إنه يجب أن نبقى مع بعضنا حتى النهاية؟ ومن الحكمة فضّ المعسكر بأكمله. دع كل عائلة تنقذ نفسها بأفضل وسيلة تراها، إذ من السهل احتجازنا في مكان واحد لكننا إذا ما تفرقنا في أنحاء الشاطئ فلعل بعضنا يبقى على قيد الحياة بشكل أو بآخر. وأنا أنوي حزم أمتعتي والخروج مع عائلتي وإيجاد وسيلة لنفسي. قلت عائلتي كلها يا كابرييل باكراديان».

لم يفقد دير هايكازون أعصابه أثناء هذه الجلسة العاصفة، بل وقف شاحباً وقال: «هذا يكفي. لم يعد لجلساتنا هدف آخر نسعى إليه. فلقد اختارنا الناس لكي نَقُودهم. وأنا هنا أعلن في اليوم الثامن والثلاثين إلغاء هذا التفويض وهذه السلطة نظراً لأن مجلس القادة لم تعد لديه القوة والوحدة الضروريتان لاتخاذ القرارات. فإذا كان من الممكن لرجل مثل القسيس آرام توماسيان المسؤول عن القانون والنظام المدني في هذا المعسكر أن يقترح بأنه سيعمل على تشتيته، فمن الواضح أنه لا يحق لنا أن نفرض الطاعة على أي شخص آخر. لذا، فإن الأمور هنا أصبحت منذ اللحظة كما كانت من قبل، قبل أن يختار القرويون المجلس. وعلى المخاتير أن يكونوا مسؤولين عن سكان قراهم، وبصفتي كبير القساوسة في المنطقة فإني سأرشد المجتمع بأكمله. وبهذه الصفة أطلب من كابرييل باكراديان الاستمرار في القيادة. فقيادته أمر مستقل. ويبقى الأمر منوطاً به سواء قرر شن هجوم مفاجئ أو اتخاذ أي وسيلة تتعلق بالمقاومة المسلحة. وبصفتي قسيساً كذلك آمر بإجراء صلاة قداس توسل يقرر موعده فيما بعد. فليس لدي الحق في أن أنبذ أي فرصة محتملة في الإنقاذ. وبعد القداس يكون أمام القسيس آرام توماسيان فرصة أن يعيد اقتراحه هذا على مسامع الناس جميعهم ويعرض لهم أسبابه. عندئذ يمكن للأغلبية أن تقرر فيما إذا كان عليها أن تغادر الجبل أو تستمر في إيلاء ثقتها بشجاعة مقاتلينا وخطط قائدنا العسكرية. وحتى يتخذ هذا القرار، يجب علينا أن نصدر قراراً يقضي بأن أي شخص يعارض الرغبة العامة سواء بالعمل أو القول فسيقتل على الفور. حسن الآن، هل من اقتراحات أخرى؟».

بزغ فجر اليوم الأربعين على جبل موسى المصادف الثامن من أيلول مع ثالث أيام المجاعة. ففي هذا اليوم لم تشغل النساء أنفسها في الذهاب بحثاً عن الأعشاب ليقتن به، بل كانت مياه النبع تقيم الأود. وكان الجميع ما يزالون قادرين على الوقوف في مجموعات حول الينابيع المختلفة. مسنون، أمهات، فتيات، أطفال، كان مشهداً غريباً. حيث كان جميع هؤلاء ينحنون فوق ماء النبع مرات ومرات ليشربوا دون أن يكونوا عطشى بأيديهم الفارغة، كما لو أن الشرب أصبح حاجة ماسة. وكان الكثير منهم يستلقون على الأرض، يتنفسون بصعوبة ويشعرون بأن أجسادهم

أصبحت أشبه بطين ذي مسامات وقد أصبحت قاسية من جراء تعرضها للهواء. في حين استسلم آخرون للأحلام بسعادة. وكان الأطفال الصغار قد استسلموا لنوم عميق. وفي صبيحة هذا اليوم مات ثلاثة أشخاص مسنين وطفلان رضيعان. وراحت الأمهات يضغطن أطفالهن البائسين على صدورهن الفارغة. أما الرجال في الخنادق فقد كانت ما تزال تسري في عروقهم حياة وطاقة كافيتان على الرغم من أنهم لم يكونوا يسدون رمقهم. إلا أن نقص المؤن هذا جعلهم يتوقون إلى معركة لحسم الأمر نهائياً. وهذه الحال الجديدة التي آلت إليها الأمور. جعلت بوسع كابرييل أن يشن غارته الليلية المقترحة دون أن يشغل نفسه بمسألة فيما إذا كان الناس سيختارون مغادرة الداملاجيك، فقد كان واثقاً من رأي مقاتليه، وقد وضع خطة للهجوم في تلك الليلة، لذا تم بحث كل تفاصيل الغارة على الوادي ولم ينس شيئاً. فقد أخذ كل دقيقة بالحسبان ولم يترك شيئاً للحظ. وكان قد قَرَرَ أن يُشْغِلَ الأتراك طيلة النهار، وأن يُدْخِلَ الرعب في قلوبهم على المرتفعات الشمالية بطلقات مفاجئة وهجوم مزعوم لكي ينقلوا أكبر عدد من قواتهم من الوادي. وبشكل غير متوقع، حدسوا بآماله، ونفذوا هم أنفسهم هذا التكتيك. فقد أظهرت استعداداتهم بوضوح أنه خلال الأربع والعشرين ساعة سيتقرر كل شيء. فقد كانت المرتفعات الواقعة وراء المواقع الشمالية تشير إلى تحركات الجنود في الخنادق التي تسبق عادة القتال. إذ تمكن الأرمن من رؤية صفوف المشاة وهي تتقدم ببطء، ويجر الجنود جذوع الأشجار الغليظة والتي جردت من أغصانها ويلقونها على طرف الهضبة لإحداث أصوات قرقعة وجلبة. ومما لاريب فيه، أن هذه الجزوع، كانت تهدف جعلها تغطية متنقلة عندما ستقوم هذه الصفوف الطويلة بالزحف. وتنقل كابرييل ونورهان من رجل إلى آخر في الخندق الأمامي من أجل تقدير المسافة، وأصدرا أمراً لرجالهما بإطلاق النار إذا ما غامر أحد الجنود الأتراك بالتقدم بعيداً عن الأشجار. وعند منتصف النهار، لقي عدد قليل من الجنود الأتراك مصرعهم. وكانت كل طلقة قاتلة تُقابَل بوابل من الطلقات العشوائية التي كانت تمر فوق رؤوسهم أو كانت ترتطم بأكوام الحجارة أمامهم. وانتاب المقاتلين شعور بالفخر بأن دفاعاتهم حصينة، وأنه لا يمكن إلا للمدفعية أن تخترقها. لكن الجوع الذي انتاب هؤلاء المقاتلين كان يحدث فورات من الجنون فيهم، فقد كانوا حريصين على استخدام أية طريقة تجر الأتراك إلى القتال، فكانوا يصعدون إلى التلة فوق خنادقهم ويرقصون لكن الأتراك كانوا حريصين على عدم الانجرار وراء ذلك.

وعند حوالي منتصف النهار وصل دير هايكازون لزيارة الخندق، وطلب منه كابرييل أن يؤدي الصلاة بينهم، وذلك لأن المقاتلين لن يكون بإمكانهم حضور قداس التوسل. فأدى الصلاة معهم ثم قال كابرييل للكاهن إنه لا توجد حاجة لأخذ أصوات هؤلاء الرجال في الاستفتاء لأنهم أعلنوا قرارهم إلى الجاووش نورهان بالسير وراء قائدهم أينما ذهب. وقد انتابت دير هايكازون الدهشة والإعجاب للطاقة التي يتمتع بها كابرييل وأخذ يتحدث بحماس كبير عن العمل المقبل.

كان الجنرال علي رضا بك واحداً من أكثر الجنرالات الشباب في الجيش التركي. إذ لم يكن قد بلغ الأربعين من عمره. لكن علي في مظهره وعقليته، كان على نقيض دكتاتور سورية. فقد

كان يميل إلى حد معين نمط الجندي الأوروبي، ولم يكن يدخن أو يشرب، كما لم يكن يحب النساء أو الرجال على السوء، وأشيع أنه كان يعيش على حليب الماعز الطازج بسبب ضعف معدته. تقدم منه الأونباشي وهو يحمل تقريراً. نظر إليه الجنرال وزم شفتيه: «وقع عدد من الإصابات بسبب الهجوم الأرمني في الشمال. وإني أنوي أن أحمّل قادة السرايا مسؤولية ذلك.. وآمل أيها السادة أن تأخذوا علماً بما سأقوله: لقد وعدت معاليه بأنه لن نضحي برجل من طرفنا في كل هذه العملية.. إننا سنقوم بتطهير معسكر من المتمردين القذرين.. وأي شيء خلاف ذلك سيكون عاراً وخزياً». بحث بعينيه عن المساعد وسأله: «هل من أخبار عن بطاريتي المدفعية؟». فأجابه المساعد: «لا.. إنها تنتظر منذ يومين وصول المدفعية الجبلية المرسلة إلى حلب. لكنه نظراً لأنها لم تنقل عن طريق أنطاكية، بل عن طريق بيلان حيث توجد ممرات صعبة ووعرة، فهي ستتأخر إلى وقت غير معلوم». لذلك اضطر الجنرال إلى تأجيل هجومه الرئيسي حتى يوم الغد. توجه إلى أصغر ضباطه وسأله: «كم ياردة يوجد من شريط الهاتف في مخازن السرية». اصفر وجه الشاب وراح يدمدم. لكن علي رضا بك لم يكد يستمع إليه: «حسناً. هذا ليس من شأني، لكن مع حلول المساء، أي قبل الغروب بساعة، يجب أن يكون هاتف في هذا المنزل قد رُكّب ليصلني بالجبل باتجاه الشمال والجنوب. لكن كيف تفعل ذلك فهذا ليس من شأني بل شأنك أنت. أريد تقارير عن هجوم الغد من المايجور بالهاتف. يمكنك الانصراف الآن». لكن الضابط الصغير المنكود الحظ، الذي لم تكن لديه فكرة عن عدد بكرات الشريط الموجودة بحوزة السرايا، اعتبر ذلك مهمة مستحيلة. وأضاف الجنرال بحدة لضابط آخر: «يوزباشي.. إذا سمحت اتبعني». استجمع اليوزباشي الجريح نفسه وتبعه إلى إحدى الغرف الفارغة. وألقى علي رضا نظرة باردة سريعة إلى ذراعه المجروحة وقال: «يوزباشي إني أمنحك فرصة في هذه العمليات لكي تعوض عن الإثم الذي ارتكبته».

رفع اليوزباشي ذراعه المجروحة احتجاجاً، فقد أدى أكثر من واجبه وقال: «لقد ذهبت بنفسي إلى خنادقهم فوق هاباسته البارحة يا جنرال. إنها فارغة تماماً. كان ذلك قبل الغروب بساعة».

– «حسن وسراياك الأربعة؟».

– «أظن أن تقدمهم في الليل نجح نجاحاً تاماً ولم يظهر أي ضوء. ولم يبرح الرجال هاباسته طيلة نهار البارحة. والآن هم منتشرون تحت الصخور في مواقع مخفية تماماً بالإضافة إلى المدافع الرشاشة الثلاثة التابعة لمجموعتي».

– «غداً مساء عندما ينتهي كل شيء يجب أن تخبرني بالهاتف يا يوزباشي. ولا أريدك أن تبتعد أكثر من القمة عندما تصلها».

بهذه الكلمات انتهى الحديث. فقد أدار علي رضا ظهره، لكن صوت اليوزباشي أوقفه ثانية: «أرجو أن تعذرني أيها الجنرال. إني أريد أن أقول شيئاً. هؤلاء الفارون، لقد تبين لي أنه ليس موضوع الأرمن فقط.. والبارحة جاء إلي أرمني سابق، إنه محامي ويدعى حكيميان وقد

الإسلام.. وهو مستعد للتعامل مع هؤلاء الأشخاص وأن يجعلهم يتركون خنادقهم طواعية.. ربما تعين علينا تقديم التنازلات، لكن من الناحية الأخرى سنضمن أننا لن نخسر شيئاً». استمع الجنرال إليه بإمعان وهدوء وفجأة قاطعه: «هذا أمر غير وارد يا يوزباشي. إذ يجب ألا نسمح لأن يقال عنا إننا تمكنا من القضاء على هؤلاء الشياطين الأرمن بسبب خيانة واحد منهم. تصور ما ستفعله الصحافة الأجنبية التي ستصب حقدها وسمها على معاليه وعلى الجيش الرابع بأكمله».

وسُمع صوت وقع أقدام ثقيلة على بلاط القاعة ودخل القائمقام الطويل يتبعه المدير. لمس القائمقام طربوشه بلا مبالاة وقال: «وأخيراً أيها السادة، أيها الجنرال أود أن أقول لكم إن بطارياتكم ستصل إلى جبل سيلدران بعد ثلاث ساعات».

كان وجه على رضا المتقشف يثير حفيظة القائمقام المتشائم والصفراوي إلى درجة كبيرة. فقرر أن يزعج الجنرال. وما كادت يده تلمس قبضة الباب حتى استدار قبل أن يخرج من الغرفة وقال بتشامخ: «آمل أن لا تخيب قواتنا المسلحة أملنا للمرة الرابعة».

كانت اسكوهي لم تر كابرييل منذ خمسة أيام، ولم تكن قد تناولت شيئاً يقيم اودها منذ يومين. خمسة أيام كاملة لم تر فيها كابرييل، في حين جاء أخوها آرام مرتين ووقف عند باب خيمتها. حيث كانت تقبع في داخلها ولم تفتح له الباب. ومرت الأيام الخمسة هذه بطيئة وكأنها سنوات طويلة. لكن لماذا لم يأت كابرييل لزيارتها؟ فقد كانت اسكوهي تنتظره كل ثانية من الليل والنهار. والآن حتى لو سمح لها جسدها المنهك وأتتها القوة لكي تفعل ذلك، فلن تذهب مطلقاً لرؤيته في الخندق. فقد كانت تستلقي على سريرها، تتنفس بصعوبة في الخيمة التي كانت تقيم فيها أوسانا ولم تقو على تحريك أي عضو من أعضائها. وكانت تسمع طنيناً حاداً في أذنيها وكأنه صوت تلاطم موجات البحر التي تكاد تفجر رأسها. لكن هذا الطنين لم يكن عالياً بشكل يكفي للتغلب عل الحقيقة التي تصطرع في رأسها.. كم دقيقة بقيت أمامهم لإضاعتها على الداملاجيك؟ إذ ان كابرييل لم يضيّع دقائق لا تعوض، بل أياماً أبدية كاملة من حبها القصير. وراحت اسكوهي تستعرض في مخيلتها كل تجربتها مع كابرييل. نعم. لقد كان لطيفاً إزاءها، لكن حزنه المضني كان متركزاً على ستيفان. وعندما فتح قلبه كان متعاطفاً وحزيناً لزوجته الزانية. لقد كان كابرييل على الأقل صريحاً معها. وفي الحقيقة بدا أن موقفه يقول لها: «أختي الصغيرة، أتقدم إليك بالشكر، بيدي الباردتين، وقبلاتي الأخوية لأنك حاولت أن تحملي آلامي معي. لكن كيف كان بإمكان فتاة صغيرة مسكينة من يوغونولوك أن تفعل ذلك؟ فعلى الرغم من كل ذلك، وإلى الأبد، فأنا أنتمي إلى المرأة الفرنسية، الغربية. ولن أموت مع اسكوهي بل مع جولييت. فعلى الرغم من خيانة جولييت لي فإني أنحني إليها، لكني أنحني فقط أمام اسكوهي كي أصل إليها».

ما الشيء الذي جعل اسكوهي غير جديرة بأن تكون محبوبة؟ هل لأنها لم تكن أوروبية بل مجرد فتاة قروية من يوغونولوك، ابنة نجار قروي أرمني؟ هل كان كابرييل نفسه أوروبياً؟ ألم يأت

من نفس القرية الأرمنية؟ وهي قد عاشت في سويسرا سنتين، وهو عاش في باريس ثلاثاً وعشرون سنة. هذا هو كل الفرق. عندما كان ينظر إليها، كان يقول لها إنها جميلة. لحظة! هذا هو السبب! لماذا كان يتطلع إليها غالباً بنظرة غريبة؟ شيء في داخلها كان يزعجه ويجعله بارداً تجاهها. تغلبت اسكوهي على ضعفها وهرعت لتنظر في المرآة الصغيرة الموضوعة على المنضدة. ولم تكن بحاجة لأن تنظر، فقد كانت تعرف ذلك تماماً. لقد كانت عاجزة مع أنها لم تكن مولودة كذلك. ففي خلال الأشهر الستة منذ القافلة التي انطلقت من زيتون، كانت ذراعها اليسرى تزداد سوءاً، وإن لم تكن قد علقتها بقطعة قماش، لكانت تتدلى ذاوية ومنفتلة إلى جانبها. لقد كان على كابرييل أن يتطلع إلى التشويه الذي آلت إليه مهما كان مخفياً بشكل حاذق. لقد كانت تعرف! عندما قبّل يدها المشلولة قبلة خفيفة... هوت اسكوهي على السرير وكان ما يزال الطنين في أذنيها مثل عاصفة بحرية. وظلت تبذل جهداً لتبرر غياب كابرييل بالوقائع. فمما لا شك فيه أن سوء النظام قد ساد في خنادقه في هذه الأيام الأخيرة من التضور جوعاً. وكان عليه أن ينظم دفاعاً جديداً تماماً. وراح صوتها يغني «أغنية الحب» التي غنتها مرة نزولاً عند طلب جولييت في فيلا باكراديان، وكان ستيفان هناك وقد دلف في حينها كابرييل إلى الغرفة. وبقيت الأبيات الأولى من تلك الأغنية الشعبية تتردد في رأسها حتى جعلتها تصاب بالجنون:

« خرجت من حديقتها
وضمتها بقوة إلى صدرها
ثمرتان من شجرة الرمان
تفاحتان كبيرتان تتلألأان،
أعطتني إياهما ولن آخذهما».

وتوقفت الأغنية عند هذا الحد. وفجأة انتابها الذعر الذي طالما كان ينتابها. ذلك الوجه على الطريق العام إلى مرعش، وجه ذلك القاتل، ولكن الآن وبطريقة خفية أخذ ذلك الوجه البشع يتحول إلى وجه كابرييل لكن أكثر بشاعة وحقداً بل أكثر قتلاً. لم تعد اسكوهي تتنفس من الخوف والبؤس. وأخذت تجهش بالبكاء بصمت. «آرام!» وبالفعل، كان القس آرام قد وصل في تلك اللحظة إلى خيمة أخته. وكان مع أوسانا التي كانت تحمل طفلها بين ذراعيها. ولم يصدر صوت من الداخل عندما طلب آرام الدخول بصوت فظ أخرج سكينه وقطع حبل الباب المعقود من الداخل، وأنزل الكيس الكبير الذي كان يحمله على كتفه إلى الأرض. وبقيت المرأة تحمل طفلها الذي لم يكن يبدي حراكاً واقفة على بعد بضع خطوات منه.

لو كان القس توماسيان في تلك اللحظة كما كان على عهده في السابق- لطيفاً حنوناً، الأخ القوي المنفرج القسمات كما كان في زيتون- فلربما لم تتردد اسكوهي وذهبت معه. فما الذي يدعوها للبقاء هنا وحدها في هذه الخيمة الفارغة؟ وكانت تعرف أنه لم يكن لديها القوة الكافية لتمشي بعيداً. لكن بدلاً من ذلك الأخ الحنون الذي عهدته في زيتون وقف في خيمتها رجل فظ

قاسي الفؤاد وأخذ يلوح بعصاه: «هيا انهضي! استعدي، إني آمرك بصفتي أخاك الكبير وأباك الروحي. هل تفهمين؟ سأرى إذا كان بإمكاننا أن ننتشلك من خطيئتك».

كان كل شيء يسير في ذهول حتى كلمة «خطيئة» التي راحت تضرب في رأسها بغضب. وتلاشى على الفور ضعف اسكوهي. فقفزت واقفة، وتراجعت خلف السرير، وأغلقت قبضة يدها اليمنى الصغيرة للدفاع عن نفسها. ودلف عدو جديد إلى الخيمة، أوسانا حيث أخذت تقول: «اتركها أيها القسيس! دعها وشأنها! إنها امرأة ضائعة. أرجوك ألا تقترب كثيراً منها، لربما أصابتك بالعدوى. اتركها! فلو جاءت معنا فالله سيعاقبنا أكثر! لا يوجد معنى لذلك! تعال يا قسيس. لقد كنت دائماً أعرف ما كانت عليه، وكنت دائماً مخدوعاً بها حتى في المدرسة في زيتون. لم تكن تبعد عينيها عن الأساتذة الشبان! تلك الخاطئة! اتركها أرجوك يا قسيس وتعال!».

اتسعت عينا اسكوهي أكثر وازدادت غضباً. فمنذ مرض جولييت لم تعد ترى أوسانا، ولم يكن يخطر ببالها أنها امرأة مجنونة إلى هذه الدرجة. فقد تغيرت زوجة القسيس تغيراً تاماً. وللتخفيف من حدة غضب الله بشيء من التضحية، قصت شعرها الجميل وجعلته قصيراً جداً بحيث يلامس فروة رأسها. وبدا وجهها الآن صغيراً مثل وجه ساحرة مليئاً بالحقد. وبدا كل شيء فيها صغيراً ومنكمشاً سوى بطنها التي كانت ما زالت كبيرة نتيجة حملها المريض. وبحركة غريبة من الإدانة رمت أوسانا رضيعها في وجه اسكوهي وأخذت تصرخ: «انظري إليه! أنت جلبت النحس علينا جميعنا». وهذا جعل اسكوهي تتكلم للمرة الأولى: «مريم العذراء». وغاص وجهها إلى الأمام وفكرت في حالة أوسانا الصعبة وكم استخدمت ظهرها كسند لها. ماذا يريد هؤلاء المجانين منها؟ لماذا لا يمنحونها شيئاً من الهدوء في آخر يوم من حياتها».

وفي الوقت نفسه أخرج القسيس ساعة فضية قديمة وقال: «أعطيك عشر دقائق لكي تستعدي». واستدار إلى أوسانا وقال: «لا. ستأتي معنا. لن اتركها. إني مسؤول عنها أمام الله...». بقيت اسكوهي متسمرة وراء السرير. ولم ينتظر آرام الدقائق العشر، بل خرج من الخيمة بعد ثلاث دقائق وكانت الساعة ما تزال معلقة من قبضته. وسمع صوت ضجة غريبة عند منطقة الخيام الثلاث.

ظهر الثلاثة والعشرون رجلاً دون إحداث ضجة، وتحركوا نحو المنطقة التي تفصل بين خيمة كابرييل وخيمة جولييت.وكان ذو الشعر الطويل يبدو أنه زعيمهم وشعرت ساتو التي انضمت إليهم بأنها دليلتهم. وبقيت تفرك انفها بطرف كمها، لتوحي بأنها، هي تلك البريئة، لا تعرف ماذا أحضر هؤلاء الفارون المسلحون إلى ساحة الخيام الثلاث. وكانت جميع الدلائل لا تشير إلى حدوث خطر من هؤلاء الفارين، إلا عندما ثبت واحد أو اثنان منهم حرابهم التركية على بنادقهم. وعندما كان آرام قد خرج من الخيمة كان عملهم قد بدأ للتو، ومع ذلك راح ينظر إليهم لبرهة بدون اكتراث. فقد ظهر أن كابرييل قد أرسل فرقة المحاربين هذه لمهمة معينة. وفضلاً عن ذلك فماذا يعني له الدفاع عن الداملاجيك بعد الآن؟». لكن شوشيك حدست بالخطر عندما

رأتهم بعينيها الحادتين. مدت ذراعيها مستعدة لدرء الخطر بجسدها. وتقدم ذو الشعر الطويل وقال مخاطباً شوشيك: « لقد أُرسلنا لأخذ الطعام الذي تحافظين عليه هنا».

- «ليس لي علم بوجود طعام».

- «لا بد أنك تعرفين. أعني الصناديق الفضية المملوءة بالسمك المغمور بالزيت، وقوارير النبيذ».

- «لا أعرف شيئاً عن كل هذا. من أرسلكم؟».

- «وما دخلك في ذلك؟ القائد».

- «حسناً ابتعدوا عن الطريق! إني أحذركم للمرة الأخيرة أيها الكلاب القذرة».

وعندما تقدم أحدهم منها ليبعدها عن الطريق، أمسكته بيديها الحديديتين ورمته على الأرض، وفتحت ذراعيها منتظرة الشخص التالي. لكن قبل أن تعرف شوشيك أنها ستموت، كانت قد ماتت فعلاً. فقد جاءتها ضربة بمؤخرة البندقية هشمت رأسها.

فهم الآن القس آرام، فاندفع وهو يصرخ ويلوح بعصاه إلى المجموعة وراح يضرب بها في جميع الاتجاهات. وكان الرد طعنة بالحربة من الوراء، أسفل كتفه.

- «ما هذا» قال لنفسه «وماذا فعلت؟ إني رجل من رجال الله ومهمتي أن أعظ بالكلمة التي أعطاني الله إياها وليس من ذلك. لندع هؤلاء الغرباء». سقطت عصاه من يده، لكنه استجمع نفسه وعاد: «آه. النساء هناك! حسن؟ هل قررت اسكوهي أخيراً؟ هل قررت أن تطيع أوامره، لكنها لماذا كانت ترتدي ثوباً أبيض؟ نعم يجب أن يعيشوا جميعهم في محبة كما كانوا في زيتون». وبدت الرحلة إلى الخيمة الثالثة طويلة جداً. ابتسم القس لزوجته ابتسامة تشجيع. لكنها بدت تنظر بعينين مليئتين بالفزع. وعلى بعد ثلاث خطوات منها هوى آرام على العشب الجاف الذي تلوث بالدماء. ومع أن جرحه لم يكن بليغاً لكنه غاب عن الوعي. انحنت أوسانا فوقه وطفلها في يدها لا تعرف ماذا تفعل. لكن عندما شاهدت اسكوهي الدم عادت إلى الخيمة راكضة وهي تصرخ وأحضرت قماشاً نظيفاً ومقصاً وجثت بجانب أخيها. والآن فقط استجمعت أوسانا نفسها ووضعت وليدها بجانبها على العشب. وشقت معطف آرام وضغطت اسكوهي القماش بكامل قوتها فوق الجرح. وامتلأت يدها اليمنى بدماء أخيها التي شعرت بالغربة عنه.

- ضمدت اسكوهي أوسانا هوفسانة الجرح واستعاد القس وعيه. وبدا في غاية الاندهاش. ولم يدرك أن الكلب المسعور قد قتل فيه. لقد أريق الدم. هذا الدم هو النعمة التي أنقذته من الاختبار الذي لم يحدث بعد. راح ينظر إلى أوسانا التي كانت تنظف يديها بالعشب لكي لا يتلوث ملفُّ وليدها. وكانت اسكوهي ما تزال تضغط بيدها اليمنى على جرحه بالكمادة. وكان وجهها يبدو منقبضاً وهي تفعل ذلك. أبعد آرام رأسه وقال: «اسكوهي» ورد دها خمس أو ست مرات وكأنه يقول لها: «سامحيني».

انتفض قيمُ الكنيسة وهو يقرع جرسه الصغير الذي كان يتدلى من عامود بجانب المصلّى كالمجنون. ولم تكن هذه الجلجلات السريعة ضرورية لأن الجميع كانوا قد احتشدوا لحضور القداس منذ فترة طويلة من الزمن. ومع ذلك فقد استمر في قرع الجرس بجنون، والجرس يجلجل مرة بعد أخرى إلى مسافة بعيدة فوق رؤوسهم، كما لو أنها كانت دعوة موجهة ليس لجنود المشاة الأتراك فقط بل دعوة إلى الأرض والبحر، كذلك للأحرار بأن هذه الساعة هي ساعة الموت الأرمني. ومن حبل معلق بين العامودين فوق أعلى درجة من درجات المصلّى، كانت ستارة معلقة على حلقات ومسدلة بانتظار فتحها أمام الكاهن كما هي عادة عن الأرمن عند احتفالهم بالقداس. وساد صمت مشوب بالقلق بين عصفات الرياح، وإذ ذاك سُمعَت صوت طلقة نارية من المواقع الشمالية.

كان دير هايكازون قابعاً في كوخه منذ فترة طويلة استعداداً لصلاة القداس وكان مغنو الكورال ينتظرونه عند الباب. لكن شعوراً عميقاً بالقلق كان ما زال يمنعه من الخروج من كوخه والصعود إلى المصلّى. ماذا كان سبب ذلك؟ لقد كان قلبه يخفق بقوة. هل كان يخشى المجهول الذي كان قريباً جداً الآن؟ انتابه شك في أن تصرفه لم يكن سليماً في اتخاذه قرار دعوة الناس مباشرة في هذه اللحظة وهم في هذه الحالة البائسة؟ كانت عينا دير هايكازون مطبقتين. ورأى نفسه وحيداً بين الموتى. وكان يعرف أنه سيكون آخر واحد. وأخذ قلبه يدق بقوة أكبر لكنه بالمقابل كان مفعماً بإحساس مبهم بالموت. وظل أحد مساعديه يمد رأسه بين حين وآخر من الباب يذكّره بالقداس. لقد مضى زمن طويل على وقت القداس. ويخشى أن يستمر الاجتماع إلى ما بعد حلول الظلام. ومع ذلك لم يتمكن دير هايكازون من تحرير نفسه من ذلك. وكما لو أن قوة داخلية كانت تمنعه من الخروج لكي تحول دون حدوث قداس التوسل. وخشي أن يرغمه إحساسه بالدوار والإعياء على الاستلقاء في السرير. لقد كان مريضاً وجائعاً. هل يتوجب عليه أن يلغي القداس أو أن يدع قسيساً آخر يؤديه بدلاً عنه؟ وأدرك دير هايكازون أن المسألة هذه المرة لم تكن مسألة ضعف أو مرض بل خوفه من أن لا يكون جديراً بالمهمة الملقاة على عاتقه اليوم، وثمة شيء مبهم آخر. استوى واقفاً أخيراً وأعطى إشارة البدء. حمل أحد المرتلين الصليب الطويل وأخذ يسير به في مقدمة الموكب. وبيطء وبعينين واجمتين تبع دير هايكازون الشماس والمغنين. ولم يكن أمامه أكثر من خمسين خطوة حتى يصل إلى المصلّى. ومع ذلك فقد بدت أن الحالة الروحية لهؤلاء الناس من حوله تخترقه بألم فظيع. وكان الأطفال الصغار يصيحون بكامل قوتهم ويرمون بأنفسهم على الأرض، ولعل ذلك سببه الألم الناجم عن الانتفاخ في بطونهم. لاحظ دير هايكازون أن الانحطاط في الروح المعنوية تسير بخطى واحدة مع الجوع. وقال في نفسه: «إنه من الجيد أن المقاتلين لن يحضروا هذا الاجتماع، فطالما هم صامدون فلن نخسر شيئاً». وفي خضم ذلك رفع عينيه برهة جامداً. ماذا يعني ذلك؟ رجال مسلحون بين الحشد، كانوا منفردين أو في مجموعات صغيرة. ولكن في جميع الأحوال، كان ذلك خرقاً صارخاً لأوامره وأوامر باكراديان. من أرسل هؤلاء الرجال بعيداً عن خنادقهم؟ وبنظرة واحدة شاهد دير هايكازون أن هؤلاء لم

يكونوا من الرجال الموثوق بهم من القطاعات القريبة، بل كانوا من الفارين من التحصينات الجنوبية، أولئك الغرباء عن وادي يوغونولوك كانوا دائماً في المؤخرة ولم يحضروا قط القداس. هل أصبحوا متدينين فجأة؟ وأدار دير هايكازون بسرعة رأسه نحو مبنى الحكومة على يمينه: «أين الحرس؟ آه. بالطبع. إن باكراديان بحاجة إلى الجميع حتى بعض الاحتياطيين في الخنادق. وبرقت في رأسه فكرة أن يعود ويقدم اعتذاراً وأن يؤجل هذا القداس. ويرسل في أثر باكراديان. يستدعي المخاتير. يتخذ إجراءات احتياطية. لكن بالرغم من هذه الأفكار التي كانت تدور في رأسه استمر في صعوده الدرج بخطوات مترددة هادئة. وكان الأعيان والمخاتير وزوجاتهم وبناتهم يقفون قرب المصلّى. أما بالنسبة لكابرييل فقد وعد أن يحضر في الوقت المحدد للقداس، إلا أن شيئاً لا بد أن يكون قد حال دون قدومه. وبينما كانت صفوف الجموع تبتعد لإفساح الطريق أمام الموكب، خطر لدير هايكازون تحذير ثاني. فقد كان هرانت أوسكانيان يقف بين أحد الفارين وبين سركيس كيليكيان. وكأنه معتقل بينهما. وانتاب دير هايكازون شعور بأن يستدير فجأة نحو المعلم المطرود ويقول له: «ماذا يعني كل ذلك؟ ماذا تريد أن تقول يا معلم أوسكانيان؟». ومرة أخرى استمر دير هايكازون وكأن قوة ما أو ضعفاً ما يقوده. وما إن وطأت قدمه أول درجة من المصلّى، تذكر أنه نسي رسالة نوخودويان في غرفة الكوخ. وهذا الأمر جعل روحه تضطرب كثيراً. وعندما وصل إلى آخر درجة من المصلّى وصل كابرييل باكراديان مسرعاً وقد انقطعت أنفاسه ووقف في الصف الأول. ولثانية انتابه شعور بالراحة. وراح الكورال ينشد وراءه. أغلق يمينه وقد شعر بالتعب الشديد وارتفعت أصوات جوفاء نحو السماء:

– «أنت يا من مددت ذراعيك الخالقتين إلى النجوم. امنح أذرعنا القوة لكي تصلك وهي ممدودة إليك، نحن ملائكة الله الزاهية، مفعمين ومتشحين بالحب لخدمة السر، قدس الأقداس».

صمت الكورال. حدق دير هايكازون بالابريق الفضي الصغير الذي أمسكه الشماس له. بلل أصابعه وأبقاها طويلاً مغمورة في الماء، بحيث سحبها الشماس المنبهر أخيراً نيابة عنه. عندئذ استدار إلى الناس ورسم شارة الصليب فوقهم ثلاث مرات ثم استدار إلى المصلّى ورفع يديه.

كان دير هايكازون منقسماً إلى شطرين. الأول كان يمثل الكاهن الذي يؤدي صلاة التوسل الاستثنائية هذه، والثاني نفس مقسمة إلى طبقات عديدة على رأسها الاضطراب الذي يعتمل في نفسه ضد جسده. وقد حذره الشطر الثاني هذا: «ألم تلاحظ أني لم أترك نقطة دم واحدة في رأسي؟ دقيقة أخرى أو دقيقتان وأجعلك تشعر بالخزي وتنهار هنا على المصلّى». أمسك دير هايكازون كتاب المزامير وأخذ ينشد بصوت منفصل عنه:

– «اللهم احكم لي وخاصم لدعواي..» فرد الشماس: «مع أمة غير صفية، ونجّني من صاحب الكيد والإثم».

– «فلماذا أقضيتني؟ ولماذا أتمشى بالحداد من مضايقة العدو؟»

– « فأدخل إلى مذبح الله، إلى إله فرحي وابتهاجي».

وبينما يتابع دير هايكازون هذا المقطع حتى النهاية مع الشماس، أخذت نفس دير هايكازون الأخرى ترى مشاهد غريبة لا تحتمل. فقد رأى قذارة، روثاً مبعثراً حول المصلّى من قبل أعداء الله المجرمين. ولم يكن ثمة تفسير آخر لأن القذارة لا يمكن أن تهطل بالمطر من السماء. حدق دير هايكازون في كتاب الصلوات لكي يتجنب هذا المشهد الفظيع. لكن ألم يشاهدها الناس كذلك؟ وهنا ارتكب أول خطأ كان على الكاهن أن يرد وراءه الجملة التالية، إلا أنه لاذ بالصمت. حدق الشماس بالكورال. وعندما ظل دير هايكازون صامتاً تقدم منه خطوة وهمس في أذنه: «في بيت المقدس..».

وبدا أن الكاهن لم يسمع شيئاً. لكن الشماس همس في يأس وبصوت عال: «في بيت المقدس وفي بيت..» أفاق دير هايكازون وقال: «في بيت المقدس، وفي بيت أناشيد الحمد، في مسكن الملائكة، ومكان توبة الرجال، نتمدد أمام إشارة الرب المجيدة الزاهية إجلالاً، ونصلي».

أخذ دير هايكازون نفساً عميقاً، وأخذ العرق يتصبب عند أسفل رقبته وجبهته. ولم يجرؤ على مسحه. وارتفع وراءه صوت أسايان، رئيس الكورال: «في هذا المكان المقدس من التضحية، في هذا المعبد، نجتمع لتقديم الشكر والصلاة..».

- «مباركة مملكة الأب والابن والروح القدس»- ولم يتمكن الاستمرار أكثر من ذلك. راح دير هايكازون يراقب سحابة البخور الصاعدة، غير أن صوته والشكل الذي كان يتراءى له استمر: «ما هذا الرب الشيطاني الذي يجلب البؤس على أتقيائه الأرمن». وبدأ دير هايكازون صلاته: «أيها الرب المقدس، المقدس والقوي، المقدس والأبدي، ارحمنا. احفظنا من الإغراء ومهامه» وبدا أن صوتاً قد صدر من قلبه: «إنك لست مؤمناً! إنك لا تؤمن بحدوث معجزة! أنت تعرف ذلك تماماً. ففي مثل هذا الوقت من يوم الغد، سيكون مسجى على الأرض أربعة آلاف وخمسمائة جسد أرمني على الداملاجيك..» وأعطى الشماس المبخرة إلى دير هايكازون لكي يبخّر الناس. شعر بعطش شديد. سقطت المبخرة من يده. وكأن تلك اللحظة خلقت دير هايكازون جديداً. وبصرخات بربرية حادة أمسك الشمعدانات الفضية الثقيلة وأخذ يلوح بها عالياً واندفع إلى وسط الجمع.

ربما لم تحدث تلك الفتنة لولا نوبة الهذيان التي أصابته والتي نجمت عن جوعه الشديد. حتى أن الفارين القابعين في التحصينات الجنوبية كانوا أرمناً يملأهم الخوف والوجل من المصلّى. بيد أن ذي الشعر الطويل كان قد جمع رفاقه حول كوخ الحكومة وكان على أهبة الانقضاض. وعندما حدثت الفوضى في مؤخرة الساحة، اعتبر ذلك بمثابة إشارة. فأخذ عشرة من رجاله يطلقون النار في الهواء. واندفع آخرون يحطمون الأبواب فوجدوا الذخيرة. وفي ثوان معدودة، جروها خارج الكوخ. وما حدث في المصلّى، حدث بسرعة هائلة، بحيث لم يدرك باكراديان والمخاتير حقيقية الأمر. إذ عندما أخذ دير هايكازون يلوح بالشمعدان في الهواء واندفع إلى وسط الناس ساد الاضطراب وأخذ الناس يندفعون في شتى الاتجاهات. وقع بصر كابرييل على القسيس وهو يشق

طريقه بين الحشد ساعياً للوصول إلى بعض الفارين. فهو كذلك لم يكن يعرف من الذي دعا هذه العصبة إلى حضور القداس. وبدا هايكازون وكأنه يبحث عن شخص معين. وبعد لحظة أحاط به عدد من المسلحين. فاختطفوا الشمعدان منه وأخذوا يتدافعونه من واحد إلى آخر وهم يصيحون صيحات عالية. وفي النهاية رموه أرضاً. ثم سمع دويّ طلقات في مؤخرة الحشد. واندفع الناس في كل صوب وقد امتلأت قلوبهم رعباً. وحاول المخاتير الفرار إلى ملاذ ما مع زوجاتهم. وشق كابرييل الذي أشهر مسدسه طريقه بين الجمع لكي يساعد دير هايكازون. لكن أحد الفارين ضربه على رأسه بأخمص بندقيته. تهاوى كابرييل على الأرض. ولولا الخوذة الشمسية التي كان كابرييل يرتديها، لكان قضي عليه، إذا أن أخمص البندقية لم تعمل إلا على دفع الخوذة قليلاً إلى فوق وجهه، وهذا مما خفف كثيراً من وقع الضربة. وسقط كابرييل على الأرض إلا أنه لم يصب بأية جراح. في حين سارع آخرون إلى تقييد دير هايكازون بحبال من القنب على إحدى زوايا عواميد المصلّى. وجاهد الكاهن بقوة مذهلة لكن بصمت. لو كان معه السكينة التي اعتاد أن يحملها في جيبه، لكان قد قضى على أحد هؤلاء الأوغاد. أما المخاتير فقد وقفوا بعيداً وهم يصرخون ويئنون، لكن أحداً منهم لم يهرع لنجدته. وحتى تلك اللحظة لم يكن الناس قد فهموا شيئاً مما حدث. وكان بعض أسوأ هؤلاء الفارين الذين لم يلمسوا امرأة منذ أشهر عديدة، يندفعون وراء امرأة هنا وفتاة هناك. واندفعت مجموعة أخرى إلى الكوخ لنهب محتوياته. أما دير هايكازون فقد كان يبذل ما بوسعه لتخليص نفسه من قيوده، وكان يتطلع بعينيه الحمراوين بحثاً عن بقية القساوسة وأفراد الكورال وأسايان والشماس. هل هربوا جميعهم؟ أم لم يجرؤوا على الاقتراب من رئيسهم الذي كان يحرسه عدد من الفارين الذين كان من بينهم سركيس كيليكيان الذي كان واقفاً قرب المصلّى والذي كان يراقب باهتمام محاولات دير هايكازون لتحرير نفسه من قيوده؟ وبعد لحظات انسل بعيداً. لكن ما كاد كيليكيان يبتعد عنه حتى بدأ الشيء الرهيب. وفيما بعد قرن هايكازون كيليكيان بهذا الحريق لأن اختفاءه توافق مع اشتعال النار. وانطلقت في السماء سحابة سوداء، وهبت ريح من البحر جعلت النار تدخل المصلّى وتنتشر بسرعة كبيرة إلى اليمين. وعندما اندلعت ألسنة اللهب في كل اتجاه، انتشر الناس وكأنهم قذيفة. ونسي الجميع أمر المجرمين ولم يعد أحد يفكر بالمصلّى أو بالكاهن المقيد إليه. بل أخذوا يندفعون وهم يطلقون صيحات إلى أكواخهم. ليس ثمة أمل من شيء يطفؤوها الآن. دعهم فقط ينقذوا ما يمكن إنقاذه.

بعد محاولة أخيرة وعنيفة توقف دير هايكازون عن بذل أي جهد. فقد أدت الحبال الغليظة إلى سلخ جلد ذراعيه وصدره. وبدأ عرق بارد يتصبب أسفل عامودة الفقري. وبدأت قطع من الخشب المشتعل فوق المصلّى تتساقط على الأرض. وكادت هذه الجمرات اللاهبة تحرق الكاهن. كانت الساحة فارغة بينما كانت النار تلتهم المصلّى. وكانت العائلات تدور حول أكواخها المحترقة. ولماذا يطلب النجدة؟ فالكاهن الذي يموت شهيداً مقيداً بمصلاه يفوز بالغفران لخطاياه. آه لو كان الأتراك هم قتلته! لماذا من أفراد شعبه هو! أرمن! كلاب مسعورة! كلاب. وراح يزمجر بغضب شديد يكاد يمزق رأسه. أصوات عويل من الأكواخ القريبة. لكن عندما وصلت صيحات

دير هايكازون « كلاب! كلاب » عبر الساحة، أفزعت أولئك الذين أخذوا يبحثون عن النقود التي كانوا قد أخفوها في أكواخهم، فاندفعوا إلى المصلّى لفك كاهنهم. وقبل أن يصله أول شخص منهم، تداعى العامود وسقط الإطار وقد التهمته النيران. وهوى الكاهن على الأرض. رفعوه. وبسرعة أخذوا يحطمون قيوده. وتمكن دير هايكازون من السير بضعة خطوات لكنه سرعان ما وقع مغشياً عليه.

وصل الطبيب بدروس في اللحظة المناسبة. بينما كان بعض المسنين والنساء يرثون لحال كابرييل الذي ما زال فاقد الوعي. ورأى الطبيب أن كابرييل كان ما زال على قيد الحياة. جلس ألتوني وهو يجهش بالبكاء، ووضع رأس كابرييل على ركبته وأخذ يرفع الخوذة عن رأسه بحذر. وما أن فعل ذلك حتى فتح كابرييل عينيه. كان يظن أنه نائم. فقد حدث كل ذلك خلال فترة قصيرة جداً. جس الطبيب رأسه ولم ير دماً، بل أحس بوجود كتلة متورمة كبيرة. إلا أنه يُخشى أن تكون هذه الضربة قد أحدثت ضرراً داخلياً، فجرت شرياناً في مقدمة الرأس. وبلطف زائد نطق بدروس اسم كابرييل. حدق كابرييل وهو غير مصدق وقال: «ماذا يجري هنا؟» فأطلق الطبيب بدروس ضحكة صغيرة وقال «كنت أتمنى أن أعرف أنا بنفسي يا بني». وبلطف امسك خدي كابرييل بين يديه المرتعشتين وقال «على كل حال لم يحدث لك مكروه».

انتصب كابرييل واقفاً، ورفض في البداية أن يستخدم ذاكرته. بل تمكن من التحدث بصوت متلعثم: «وماذا بشأن الهجوم المفاجئ؟ هل قمنا به؟ يا إلهي، التحصينات الجنوبية.. لقد قضي علينا..» وكان دير هايكازون قد استوى واقفاً الآن وقال بصوت مترنح واضح: «لم يعد أمامنا الآن أي أمل». لكن باكراديان لم يسمعه لأن الضجيج والأزيز كانا عاليين. وفي أثناء ذلك كانت النار تلتهم كوخاً بعد كوخ وكانت مجموعة الأشجار على حافة الساحة قد علتها النيران. وفي هذه اللحظات البائسة وصلت نجدة من المواقع الشمالية. إذ هرع أفاكيان مع عشرة مقاتلين لكن بعد فوات الأوان. وهرع أفاكيان مذعوراً نحو كابرييل وقال له: «هل جرحت يا أفندينا؟ يا إلهي ماذا جرى؟ وجهك.. قل شيئاً أرجوك..». لكن باكراديان لم يفه بكلمة. واجتاز المصلّى المحترق بخطى سريعة ثم أخذ يجري وتوقف فجأة على قمة تلة صغيرة. وتبعه أفاكيان دون أن ينبس بكلمة. مد كابرييل رأسه إلى الأمام محاولاً أن يسترق السمع من خلال صعصعة اللهب. صوت طلقات كثيرة في الجنوب، مدافع رشاشة؟ ومرة أخرى. لكن لعل ذلك كان وهماً لأن الألم في رأسه كان فظيعاً لا يطاق.

6- خط في الضباب

تمكن الضابط الصغير من تنفيذ مهمته المستحيلة. فقد مدد الهاتف الميداني، لكنه لم يصل بطبيعة الحال إلى فيلا باكراديان. ولعل مرد ذلك عدم وجود أسلاك كافية في الجيش الرابع بأكمله لعمل ذلك. لكن على الأقل تم ذلك حتى قرية هاباسته التي تبعد حوالي أربعمائة قدم أسفل التحصينات الجنوبية. وقد كان إنجازاً عظيماً إذا علمنا أن رجاله لم يكونوا مدربين تدريباً جيداً والصعوبات الكثيرة التي اعترضته بسبب الأراضي الصخرية الوعرة. وجاء الجنرال علي رضا بك وقد تخفّى بزي شيخ للتمويه على المراقبين الموجودين على الداملاجيك إلى هاباسته. وكانت الشمس قد بدأت تميل إلى الغروب عندما بدأ الهاتف البدائي الموضوع على الطاولة الميدانية الصغيرة أمامه يرن. واستمر فترة طويلة إذ كانت ما تزال هناك صعوبات فنية كبيرة تعترضه في الجانب الآخر من السلك، وأخيراً أصبح صوت اليوزباشي مسموعاً بشكل واضح، إنه يقول:

- «أيها الجنرال لدي تقرير أود أن أنقله لك. لقد استولينا على الجبل. من الطرف الجنوبي».

- « شكراً. أية خسائر؟».

- «لا أبداً.. ولا حتى رجل واحد».

- « وكم عدد الأسرى يا يوزباشي؟».

وهنا حصل عطل فني. نظر الجنرال بحدة إلى ضابط الإشارة. لكن صوت اليوزباشي سرعان ما عاد، بالرغم من أنه لم يكن واضحاً جداً.

- « لم نأسر أحداً. فقد كانت خنادق العدو خالية من الرجال. وقد ظننا أنها يمكن أن تكون كذلك. كانت خالية تقريباً سوى عشرة رجال تقريباً وأربعة أطفال بينهم».

- «وماذا حدث لكل أولئك الناس؟».

- « لقد تخلص رجالنا منهم».

- «هل دافعوا عن أنفسهم؟».

- «لا يا جنرال؟».

- « هذا يقلل كثيراً من نجاحك يا يوزباشي. كان من الممكن أن يوفر هؤلاء الأسرى علينا الشيء الكثير».

وأمكن سماع صوت اليوزباشي الغاضب عبر سماعة الهاتف «لم أكن أنا الذي أعطى الأوامر». إلا أن برودة الجنرال ظلت ثابتة «وماذا حل بهولاء الفارين؟».

- « لقد وجدنا الحثالة منهم ليس إلا».

- «حسناً. هل ثمة شيء آخر يا يوزباشي؟».

- « لقد أضرم الأرمن النار في معسكرهم».

- « وماذا يعني ذلك يا يوزباشي؟ ما هي الأسباب التي دعتهم لعمل ذلك في رأيك؟».

كان صوت اليوزباشي ممضاً منتقماً «ليس من حقي أن أحكم على ذلك يا جنرال.. ستعرف كل ذلك أفضل مني. ربما كان الرجال يرغبون في تطهير الجبل في الليل..».

حدق علي رضا بعينيه الرماديتين بصمت في البعد لثانيتين ، ثم أبدى رأيه:

- «ربما.. لكن ربما كان هناك خدعة من وراء ذلك. فقد قضى قائد العصبة هناك على أفضل ضباطنا عدة مرات.. ومن الممكن أن يكونوا قد خططوا للغارة». ثم استدار إلى ضباطه المحيطين به وقال: «يجب تعزيز جميع الخطوط المتقدمة في الوادي بصورة جيدة الليلة».

- جاء صوت اليوزباشي وقد نفذ صبره «أية أوامر أخرى يا جنرال؟».

- «ما هو التقدم الذي أحرزتْه سراياك؟».

- «إن السرية الثالثة ومجموعتَي المدافع الرشاشة تحتل أقرب تلة وهي تبعد حوال خمسمائة خطوة عن قاعدتي».

- «إننا نسمع صوت طلقات رشاشة من هنا. ما معنى ذلك؟».

- «عرض بسيط للقوة فقط».

- «هذا العرض ضار جداً وغير ضروري. يجب على رجالك أن يبقوا في أماكنهم وأن يكونوا تحت تغطية جيدة وأصبح الآن الصوت من الطرف الآخر حاداً يشوبه الحقد».

- «يجب على رجالي أن يبقوا حيث هم. هل لي أن أحصل من فضلك على أمر كتابي بذلك يا سيدي؟ غداً إن أمكن؟».

- «غداً، قبل الشروق بنصف ساعة افتح نار المدفعية من الشمال. اضبط ساعتك على ساعتي يا يوزباشي من فضلك.. جيد.. سأكون عندك قبل الشروق لأقود العملية من الجنوب. شكراً».

عندما أطبق اليوزباشي السماعة كشر عن أسنانه وقال: «سيأتي إلى هنا ذلك الباشا الذي كبر على حليب الماعز في آخر لحظة، وعندها سيصبح بطل جبل موسى».

عاد كابرييل إلى ساحة المصلّى، وكان طوال الطريق القصير يمسك بيد أفاكيان. فقد كانت

النار تلتهم كل شيء في طريقها على طول الشوارع ولم يكن قد مضى على غروب الشمس وقت طويل. وبدأ العالم يزداد إظلاماً حول كابرييل وأخذت تتأرجح موازين حياة كابرييل بأكملها. ألم يكن من حقه أن يترك جسمه ينهار مرة ثانية، وهذه المرة إلى الأبد، وأن لا يعود يعرف شيئاً. فقد مات ستيفان، فلماذا البدء من جديد؟ كما أن رأسه الذي شعر بأنه يكاد ينفجر أخذ يمتلئ بأفكار واضحة هادفة، وفي تلك الأثناء تماثل دير هايكازون للشفاء وتمكن من الوقوف على قدميه. وكان أول ما خطر بباله أن يكوّم ثيابه وكل ما لديه، وكان جزءاً من لحيته قد احترقت وغطى خده حرق أحمر كبير. وبدا وجهه مختلفاً تماماً. وسعى بعبث لأن يتكلم مع كابرييل لدى رؤيته. وكف الناس عن إطفاء الحريق، فقد تلاشت فيهم أي قدرة على ذلك. كما لم يتمكن الرجال الذين أرسلهم الجاووش نورهان من انقاذ شيء سوى أنفسهم. فقد وقفوا عاجزين يراقبون ألسنة اللهب التي بدت أنها لا تنتقل من كوخ إلى آخر من الخارج بل تكاد تنفجر من الداخل. وكانت قد احترقت أسطح الأكواخ المؤلفة من أوراق الأشجار وأغصانها في حين كانت الريح تجعل الشرر ينطلق في السماء. وبعد فترة وجيزة، كان أفراد المعسكر جميعهم يجلسون القرفصاء فوق الأرض العارية في الساحة الكبيرة. نساء وأطفالاً ومسنين. ولم يعد بوسع هؤلاء الجائعين التحرك. وأضاءت النار المتراقصة وجوههم الوسخة، ولم تُظهر عيونهم أية إشارة كانوا مدركين لها. وكان موقفهم يعبر عن رغبة واحدة فقط: وهي أن لا يطلب منهم أي قائد التحرك شبراً واحداً أو يرفعوا يداً أو يقوموا بأي نشاط مهما كان. إذ سيجلسون القرفصاء هنا بانتظار نهايتهم دون مقاومة، فقد تملكتهم حالة من «غبطة الفناء».

لكن كابرييل استجمع أفكاره، وتم ذلك تقريباً بالرغم عنه. إذ يجب إحياء هذه الأجسام البالية المهترئة. هل فُقد آخر أمل؟ لا.. من الواضح أن الأتراك قد احتلوا التحصينات الجنوبية. وأحضروا مدافع رشاشة. وكان المعسكر يضطرم بالنيران. فماذا سيحدث بعدئذ؟ يجب إنشاء خط دفاعي جديد يسد طريقهم. لكن قبل كل شيء يجب إخلاء المرتفعات من الناس ونقلهم إلى الشاطئ. اقترب أفاكيان. ناداه كابرييل: «ماذا تفعل هنا؟ أسرع. اذهب إلى نورهان. يجب عليه أن لايتحرك من مكانه. ويجب أن يأتي جميع المقاتلين الذين كنت قد اخترتهم للقتال على الفور، ونصف مجموعة الكشافة. يجب علينا أن نشكل خطاً جديداً». تردد أفاكيان وحاول أن يلقي أسئلة. دفعه كابرييل بعيداً عنه وتوجه إلى وسط الناس وقال: «لماذا أنتم يائسون يا إخوتي وأخواتي؟ لاحاجة لذلك. فما زال لدينا سبعمائة بندقية ومدفعان كبيران. لاحاجة بكم للقلق. ومن الأفضل لدواعي الدفاع أن يعسكر الناس على الشاطئ هذه الليلة. وعلى الاحتياطيين أن يبقوا معي».

وأمر دير هايكازون المخاتير أن يجمعوا أبناء قراهم وقيادتهم إلى الشاطىء وقال أنه هو نفسه سيذهب ليجد أفضل مكان لهم. ثم استدار إلى كابرييل وقال: «إن أهم شيء هو إنزال العقوبة بهؤلاء المجرمين. يجب أن تقتلهم يا باكراديان». حدق كابرييل به وهو صامت وقال لنفسه: «لكني لن أعثر على كيليكيان». وبدأ القرويون يمشون ببطء وهم يترنحون. وأخذ المخاتير وقساوسة القرى

وأستاذان يجمعونهم في مجموعات. ولم يبد أحد أي مقاومة أو اعتراض. حتى إن الأطفال لم يعودوا يصرخون. وهرع الطبيب بدروس إلى المستشفى لإحضار المرضى القادرين على المشي.

جمع كابرييل جميع الرجال المسلحين ونصف المسلحين حوله. حتى الأطفال الصغار إذ كان عليهم أن يبقوا معه. وسكنت الريح الآن. وأحاطت بهم سحب الدخان السوداء. وكان الجميع يتنفسون بصعوبة، وعيونهم تدمع. ثم أعطى كابرييل الإشارة بالتحرك. وفي منتصف الطريق، وعندما بدت لهم مواقع مدافع الهاوتزر حدث شيء غير متوقع. توقف كابرييل وشاداخيان. واستلقى الرجال المتعثرون خلفهم على الأرض. فقد كان هناك صف من الرجال المسلحين يسير باتجاههم، ولاحت أشكالهم السوداء بينما أخذوا يلوحون لهم ببنادقهم. أتراك؟ وأخذت تقترب تلك الأشكال السوداء. كانوا حوالي ثلاثين رجلاً. ولاحظ كابرييل أنهم كانوا يدفعون أمامهم رجلاً مقيداً. تقدم منهم قليلاً ليتبين من هم. كانوا يحملون فوانيس. وعندما خطا خمس خطوات رأى سركيس كيليكيان مقيداً أمامهم. كانوا جميعهم من الفارين. انبطحوا أرضاً حتى لامست الأرض جباههم. وكانت هذه الحبال التي قيدوا بها كيليكيان إقراراً منهم بأنهم ارتكبوا عملاً شنيعاً، وقد أحضروا كبش الفداء. وكانوا مستعدين لأية عقوبة تنزل بهم. وكوّم أحدهم كل ما سلبوه عند قدمي كابرييل . طلقات سرقت من مخزن الذخيرة. لكن كابرييل لم يرَ سوى كيليكيان الذي جثا على ركبتيه ودفع رأسه إلى الوراء. أرجع كابرييل دقرة المسدس وصوبه إلى جبهة الروسي بسرعة. لكن الطلقة الأولى لم تصبه ولم يغمض كيليكيان عينيه.وكان فمه ومنخراه يختلجان. وعندما ضغط كابرييل على الزناد للمرة الثانية، كان كابرييل ضعيفاً بحيث أدار رأسه. وهكذا مات سركيس كيليكيان بعد حياة يشوبها الغموض قضاها في سجون كثيرة، وبعد أن نجا من المجزرة التركية وهو طفل ورجل جاء ليلقى مصرعه أخيراً برصاصة من مواطن له. وأشار كابرييل بسرعة إلى الرجال أن ينضموا إلى المجموعة. وكانت قوى حتى أفضل المقاتلين قد خارت. فقد استلقى الرجال وكأنهم قطع خشبية نصف نائمين. ولم يكن أحد يقوى على تنفيذ الأوامر بتكويم الحجارة وهيل التراب لإقامة ستار. وعندما أخذ ينتقل من رجل لآخر يحثهم على العمل اتجه إلى مدافع الهاوتزر. حيث جلس بعد أن أرسل رجاله للنوم. مدد أفاكيان حصيرة له دون أن يغطي نفسه، فقد كان جسده يضطرم بالحمى، وشعر أن رأسه قد أصبح خفيفاً جداً بحيث يكاد يطير منه.

في حوالي الثانية صباحاً أخذت النار تخمد في المعسكر. وفي حوالي ذلك الوقت أيقظ كابرييل أفاكيان الذي كان يغط في سبات عميق. رفع أفاكيان رأسه بعد عدة حركات من الاحتجاج وهو ما زال نائماً. لكنه ما إن شعر بأن كابرييل هو الذي يوقظه حتى انتصب واقفاً واقترب عن شفتيه ابتسامة. قدم له كابرييل قارورة فيها قليل من الكونياك وقال له: «هيا اشرب يا أفاكيان.. اجرعها.. فأنا بحاجة إليك الآن ولن يكون أمامنا وقت للتحدث بعدئذ». وجلسا وظهرهما لساحة المعسكر، حيث كانا يشاهدان بشكل غير واضح مجموعات رصد الخط الأول. وكان بعضهم يحمل فوانيس ذات أغطية. وكانت الريح قد هدأت تماماً.

- «لم يغمض لي جفن» قال كابرييل «هناك أمور كثيرة تشغل بالي رغم هذا التورم في رأسي».

- «للأسف. كان يجب أن تخلد إلى النوم يا أفندي».

- «لماذا؟ إن الغد هو اليوم تمكنا من إطالته حتى الآن. نعم أردت أن أقول لك يا أفاكيان إننا نتشابه كثيراً من الناحية العملية. وأنت أكثر الأشخاص الذين يمكنني الاعتماد عليهم. أنا أعرف واغفر لي هذه الطريقة الحمقى في قولها بهذه الطريقة. وبالطبع أنت أكثر من ذلك».

سببت هذه الكلمات شيئاً من الحرج لأفاكيان. لكن كابرييل وضع يده على ركبته وقال: «بعد كل شيء يجب أن نتحدث بصراحة.. وهل يوجد وقت لذلك بعد؟».

- « هؤلاء الخنازير دمروا كل شيء» قال أفاكيان غاضباً لأنه شعر بالارتباك. لكن كابرييل لم يشأ أن يتكلم عن الماضي وقال: «يجب أن نُعنى بالحاضر. وعادة في هذا الكون يأتي الشيء الذي لا تتوقع مجيئه بطريقة لا تتوقعها. لكن ليس هذا هو الموضوع الذي أردت أن أحدثك به. اسمع. قبل أن يحدث كل هذا، كان ينتابني دائماً شعور بأنك ستنجو. لماذا؟ أنا نفسي لا أعرف. لعله مجرد هراء، لكني أتوقع أنك ستعود إلى باريس، والشيطان وحده يعرف كيف ستتدبر ذلك».

- «هذا محض هراء، اغفر لي قولي هذا يا كابرييل باكراديان، فما سيحدث لك سيحدث لي وليس ثمة شيء آخر».

- «لم لا؟ إني أوافق أنه إذا فكرنا بذلك فليس ثمة طريقة أخرى. لكن دعنا نكون غير عقلانيين لمرة واحدة. لنفترض أنك نجوت».

توقف كابرييل وراح يحدق في الظلام. ثم أخرج من جيبه دفتراً صغيراً ووضعه على العشب بجانبه وأردف: «لم أشأ أن أحتفظ بك هنا. أردت أن أعيدك إلى الخنادق الشمالية. أشعر أن الأمر سيكون أكثر سهولة عندما تكون برفقة نورهان، لكن هذا لايهم كثيراً. فلدي أمر أكثر أهمية. أريدك أن تفعله لي يا أفاكيان. ابق مع النساء. أعني زوجتي والآنسة توماسيان. لعلك تجلب الحظ السعيد لهما. افعل ما بوسعك. لكن قبل كل شيء أرجوك أن تحرص على إخلاء الخيمة قبل بزوغ الشمس. واحرص على أن تنقل المدام بحرص شديد إلى الشاطئ. جد شخصاً آخر غير كيفورك. إني أكره أن أفكر بيديه. خذ كريستوفر أو ميساك.

احتج صامويل أفاكيان، إذ ستكون الحاجة إليه ماسة في المعركة الأخيرة. وراح يعدد له قائمة بالواجبات التي عليه أن ينفذها لكن قائده رفض اعتبارها وقال: «لا.. لا.. لقد اتخذنا جميع الاستعدادات التي بوسعنا. اترك الباقي لي ولم أعد بحاجة إليك هنا، وهذا ينهي خدماتك ياأفاكيان. أما الطلب الآخر فهو طلب شخصي». وقدم له رسالة مختومة وقال: «ها هي ياصديقي وصيتي. احتفظ بها حتى تستعيد المدام صحتها. أتفهم؟ فما زال ينتابني ذلك الشعور السخيف بأنك ستنجو. هل تفهم؟ وهذا شيك مسحوب على بنك كريدي ليوني. ليس عندي فكرة بالمبلغ الموجود لي عندهم. بالطبع يحق لك أن تعتبرني مجنوناً. فحسب ما نحن عليه تعتبر هذه

الحسابات سخيفة جداً. ربما كان الأمر مجرد خرافة. دعنا نقول إني أعمل سحراً. هل ترى؟ قليل من السحر» واستوى كابرييل واقفاً وقال ضاحكاً: «لكني إذا بقيت على قيد الحياة فهذا يلغي الوصية والشيك . لذا احذر». وعندما بدأ أفاكيان يبدي اعتراضه قال له كابرييل وقد عيل صبره: «اذهب الآن أرجوك. سأشعر براحة أكبر..».

كانت الساعات الأخيرة قبيل بزوغ الفجر بطيئة بشكل لا يحتمل. ومع ظهور الشفق وجه كابرييل مدافعه إلى التحصينات الجنوبية. جثا كابرييل حسب التعليمات على يمين الهاوتزر الأول وشد سلك الصاعق. وكان صوت الدوي والنار والدخان أشبه بخلاص. فقد انطلق كل التوتر غير المحتمل في عقل كابرييل في هذه القذيفة. ما هو السبب الذي دفع قائد الداملاجيك إلى تضييع قذائف لا يمكن تعويضها قبل حصول أدنى علامة بوجود هجوم تركي؟ هل كان يحاول إيقاظ الأعداء أو إدخال الفزع إلى قلوبهم أم كان يشجع نفسه؟ هل كان يأمل بأن تتمكن قذيفته من تدمير السرايا التركية لكي تجردهم من شجاعتهم للهجوم؟ لم يكن الأمر كذلك. بل أطلق كابرييل القذيفة الأولى هذه، ليس لسبب تكتيكي بل لأن الانتظار أكثر من ذلك أصبح أمراً لا يطاق. كانت مجرد صيحة، نصفها للمساعدة ونصفها مؤلف من التهليل المأسوي بأن الليلة قد انقضت. وليس هذا فقط. فقد انتاب جميع رجاله المنهكين المتقوقعين من البرد نفس الشعور. وصعد الرجال المتركزون في المواقع المتقدمة إلى أقرب تلة لكي يتمكنوا من الرؤية بشكل أفضل. ولا يبدو أن الأتراك قد تركوا قاعدتهم بعد، وليس في الشمال كذلك. لكن الرد جاء بعد فترة وجيزة. لم يعرف أحد ما هو. وبدا أن هذا الدوي قد ملأ الجبل بأكمله من الأمانوس إلى الجبل الأقرع.

أصيب الجنرال والقائمقام واليوزباشي بدهشة كبيرة بأمر التوقف عن القصف. فقبل دقائق من تلقي هذا الأمر، كانوا مجتمعين كما كان مقرراً في مقر اليوزباشي. حتى أن القائمقام النكد البليد، الذي كان صعود وهبوط التلال يعتبر تضحية كبيرة بالنسبة له، أسرع بالمجيء. وكان قادة السرايا الأربع يقفون حول اليوزباشي منتظرين الحصول على الأمر بالتقدم. وكان جنود الاستطلاع قد قاموا بعمل رائع خلال الليل. فقد تمكنوا من جلب معلومات دقيقة عن ملجئهم الجديد على الشاطئ. كما علم أنه يوجد خطان ضعيفان محميان بشكل سيء يسدان المدخل الجنوبي إلى الداملاجيك. لذلك، وبأمر من علي رضا، كان على سريتين مع مدافع رشاشة أن تقوما بمهاجمة هذه الجبهة المخلخلة. وكان بدء الهجوم موقتاً عند اللحظة التي تقوم فيها المدفعية الجبلية في الشمال بدك خنادق الأرمن. لكن القائمقام واليوزباشي كانا واثقين بأن المقاومة ستنهار. لكن هذه المرة قضي عليهم. فقد أصابت القذيفة الأولى التي أطلقها باكراديان المنحدر الواقع تحت الصخور، أما قذيفته الثانية فقد سقطت في مكان أبعد من ذلك، في حين الثالثة سقطت بالقرب من مجموعة الضباط هذه. وتطايرت الشظايا وقطع الحجارة من حولهم وأصيب جنديان من المشاة. أشعل اليوزباشي سيكارة بعناية وقال: «وقعت بعض الخسائر يا جنرال» فقال علي رضا غاضباً: «يا يوزباشي. إني آمرك بأن تحرص: على أن لا يصاب باكراديان هذا بأذى وأن

يحضر أمامي.. هل تفهم؟». وما كاد ينهي كلامه حتى سمع صوت دوي هائل. فهرع الضباط إلى ملجئهم الغربي حيث يطلون بشكل جيد على البحر. كان الطراد «كيشين» الأزرق الرمادي جاثماً فوق الأمواج. وكان القائمقام أول من تحدث. كان مضطرباً: «لنفهم بعضنا يا جنرال. فأنت قائد المساعدة العسكرية لكن القرار النهائي يعود لي». لكن علي رضا راح يتطلع في منظاره الميداني متفحصاً الـ «كيشيش» دون أن يرد على القائمقام. غير أن القائمقام نفذ صبره: «إني أطلب منك يا جنرال أن تشن الهجوم على الفور. فتلك السفينة الرابضة هناك لا يمكن أن تعيقنا».

خفض علي رضا منظاره واستدار إلى مساعده: «اهتف إلى هاباسته. يجب أن تصل أوامري على الفور إلى كل المدافع في الشمال: يجب عدم فتح النيران».

كرر المساعد: «يجب على المدفعية أن لا تفتح النيران» وانطلق بسرعة. قال القائمقام: «ماذا يعني هذا الأمر؟ إني أطلب تفسيراً يا أفندي». لكن الجنرال بدا وكأنه لا يراه بل استدار إلى اليوزباشي وقال: «اسحب سراياك المتقدمة. يجب على جميع القوات أن تخلي الجبل وتتمركز في وادي يوغونولوك.. هيا».

– «إني أطلب منك تفسيراً» صاح القائمقام. وكان الانتفاخ تحت عينيه أزرق داكناً.

– «هذا جبن. أنا مسؤول تجاه صاحب السعادة. لا يوجد داع لوقف العمليات».

رمقه الجنرال بنظرة باردة: «لايوجد سبب؟ هل تريد أن تعطي اسطول الحلفاء ذريعة لقصف الشاطئ بأكمله؟ إن قذائفهم البعيدة المدى ستصل إلى أنطاكية. هل تظن أن الطراد القابع هناك سيبقى وحده يا قائمقام؟ هل تريد أن ينزل الفرنسيون والانكليز اليابسة وأن نفتح جبهة جديدة في وسط سورية غير المحمية؟ ما رأيك يا قائمقام؟» لكن القائمقام أخذ يدمدم بشفتيه وظهر الزبد على طرفيهما: «لايهمني كل ذلك! أنا، بصفتي المسؤول، آمرك..». لكنه لم يكمل. إذ أن الأمر المعاكس للجنرال لم يصل المدفعية في الدقائق القليلة، فأخذت أولى قذائفهم ترمي المواقع الشمالية. وفي الحال بدأت مدافع «كيشين» تتحرك. وما هي إلا ثوان حتى أخذت أولى القذائف تتساقط فوق بيوت السويدية والإسكل ويديجة. وفجأة رفع العلم الأمريكي فوق المدخنة العالية لمصنع الكحول، وأخذت النيران تشتعل في البيوت الخشبية التركية. صاح علي رضا باليوزباشي «اتصل وقل لهم أن يوقفوا النار. لعنك الله! يجب على الدرك أن يخلوا جميع المدنيين. ليتجه الجميع إلى وادي القرى السبع». صاح المدير الذي كان واقفاً باحترام حتى الآن: «هذا خرق فاضح للقانون الدولي.. شاطئ مفتوح.. تدخُّل في السياسة الداخلية..» لكن الجنرال علي رضا أمسك عكازه واستدار للخروج. وتحلق حوله ضباطه. توقف ثم قال: «لماذا تصرخ أيها المدير؟ من الأفضل لك أن تشكر الاتحاد».

– «إني أشعر بأني لست على ما يرام» راح يئن القائمقام «هذه هي النهاية.. هذه هي النهاية..» وطلب المدير أربعة من رجال الدرك ليحملوا رئيسه إلى الوادي.

أما أول ردة فعل لكابرييل فكانت أن أصدر أمراً إلى خطوط دفاعه: «يجب ألا يتحرك أحد

من مكانه. يجب على الجميع البقاء في أماكنهم». فقد كان هذا أمراً في غاية الأهمية، وذلك لأن كابرييل لم يكن يعرف ماذا كان في نية الأتراك، وهو نفسه لم ير بأم عينه العلم الذي ترفعه السفينة. كما بدا أنه من غير الممكن أن تحمل السفينة على متنها أربعة آلاف وخمسمائة شخص. ولم يكن تأثير هذه المعجزة على المدافعين الذين قضوا هذه الفترة الطويلة بانتظار الموت أقل إدهاشاً. وحمل النبأ صبي انقطعت أنفاسه. ولم تتبع الخبر صيحة واحدة بالفرح بل وجوم صامت. ولكن فجأة أخذت الصفوف تتزعزع. فأولئك الذين سمعوا بهذه المعجزة اعتلوا التلة عند مرابض مدفعي الهاوتزر. فقد عرفت أصواتهم قبل أرواحهم أنهم أُنقذوا. لكنهم نفذوا أمر قائدهم على الفور وعادوا وانبطحوا في صفوف طويلة كل يحمل بندقيته. وتوسل المعلم هابيت شاداخيان إلى القائد لكي يرسله كموفد عن الأهالي إلى الطراد نظراً لأنه يتقن الفرنسية، فهو من غير شك أفضل رجل يقوم بالمفاوضات. وسمح له وحمله التعليمات التالية: «مهما حدث يجب أن يبقى الاتصال قائماً بين الناس المعسكرين على الشاطىء والمقاتلين على الجبل. وعلى دير هايكازون والطبيب بدروس التوجّه إلى السفينة الفرنسية مع شاداخيان كما أنه يجب إعلام ربان «كيشين» على الفور بوجود سيدة فرنسية مريضة بشكل خطير في معسكرهم.

وأكدت نيران المدفعية التي فتحت على المواقع الشمالية شكوك كابرييل. لكن ما إن توقفت هذه النيران حتى أخذت مدفعية «كيشين» تقصف القرى التركية، حتى عندما اعتلى كابرييل مركز المراقبة شاهد الدخان واللهب يتصاعدان من السويدية والإسكل واليديجة بل حتى من عين الجرب. وكان الناس في هذه القرى يهرعون على أحصنتهم وبغالهم والعربات للنجاة بأرواحهم إلى وادي يوغونولوك. جلس كابرييل على الأرض بقرب الهاوتزر. وأخذ يحدق في العالم الخارجي والداخلي: «ربما تمكنت من العودة إلى باريس بعد بضعة أسابيع. وسوف نعيش في الطابق القديم في حي كلبير ونبدأ حياة ثانية». لكن هذه الفكرة التي كانت منذ لحظات قليلة تبدو خيالاً جنونياً . لم تفعل شيئاً لملء فراغه المدهش. لم يكن ثمة رغبة شديدة في نفس كابرييل لباريس أو للشقة هناك أو الناس المثقفين، الراحة، بل حتى الطعام الجيد أو السرير النظيف. بل كان يتوق إلى عالم لا يقطنه أناس. كوكب دون رغبات بهيمية أو حتى حركة. صومعة مترامية الأطراف، وهو وحيد منها يتطلع منها إلى السلام . دون أي ماضٍ أو حاضر أو مستقبل.

كانت أرض المعسكر الجديد على أبعاد مختلفة عن القرى. فقد سيطر سكان يوغونولوك وحابيبلي على المرتفعات، بينما اختار سكان بيتياس وأزير والكبوسية أماكن على طول الشاطىء. وكان الجميع نائمين عندما أخذ المعلم أوسكانيا يلوّح بعلمه. وبدا أن هؤلاء المستلقين هنا وهناك مواد جامدة كالصخور وليسوا بكائنات بشرية. لكن الدويّ الذي أحدثته مدافع الطراد جعل ما يقرب من أربعة آلاف امرأة وطفل ومسن يفتحون أعينهم على ضوء هذا اليوم الرابع من أيام الذعر والهلع. ورأى أولئك القابعون على الشاطىء ما يشبه سراباً لا يصدق، وقد برز بهدوء فوق البحر المتلاطم. تعثّر بعضهم وهم يقفون لتبيان حقيقة هذا الشبح. في حين استلقى آخرون فوق الصخور غير مبالين وكان الطراد الكبير «كيشين» يجثم على مسافة نصف ميل عن الشاطىء كما

رأى ضباط «كيشين» مشهداً فظيعاً: مئات من الأيدي الهزيلة العارية تمتد نحوهم بتوسل. وقد بدت هذه الكائنات من خلال المنظار وكأنها أشباح. وقبل أن يتمكن ربان الطراد من اتخاذ قرار بشأن هؤلاء المنكودين، غاص شيئان ضئيلان من فوق الصخور، بدا أنهما صبيان، وراحا يسبحان باتجاه السفينة. وعندما وصلا إلى مسافة مئة ياردة تقريباً منها بدأت قواهما تخور. فأرسل لهما زورقاً على الفور لانتشالهما. وتحرك قارب آخر باتجاه الشاطىء لنقل مندوبي هؤلاء المحتاجين. ومضت ساعة من الجهود الفاشلة للنزول إلى اليابسة قبل أن يتمكن دير هايكازون وألتوني وهايبت شاداخيان من ركوب السفينة. وتم ذلك خلال قصف السفينة بقوة على السهل التركي رداً على قصفهم على جبل موسى.

عندما استقبل الربان بريسون الوفد في نادي الضباط في السفينة، كانت مدافعه قد توقفت عن القصف. وارتعد بريسون لدى رؤية هؤلاء الرجال . بأجسادهم النحيلة وألبستهم البالية ووجوههم التي تكسوها لحى غليظة كثة بعيون كبيرة. وبدا دير هايكازون أكثرهم وحشية. فقد كانت نصف لحيته قد احترقت من طرف خده الأيمن. ونظراً لأن ثوبه قد احترق فقد كان يضع لفاعاً صوفياً سميكاً حول كتفه. مد الربان يده وسأل: «الكاهن؟ المعلم؟» إلا أن شاداخيان لم يمنحه فرصة لمزيد من الاستفسارات فقد استجمع قواه وانحنى وبدأ قوله بـ «سيدي الجنرال » وراح الربان بريسون ينقل عينيه من واحد لآخر ثم سأله عن اسم السيدة باكراديان الأصلي. وسر هايبت شاداخيان بإعلامه بذلك وادعائه بأنه يعرف أسماء العائلات الفرنسية العريقة. ثم تحدث دير هايكازون. ولدهشة الأستاذ، بل لقرفه، أخذ يتحدث بطلاقة مع إنه لم يكن قد تحدث بالفرنسية طوال هذه السنوات بصفته مديراً للمدرسة. وتكلم على الفور عن الجوع والضعف الذي ينتاب شعبه وتوسل للحصول على مساعدة بدون تأخير، وإلا فإن عدداً من النساء والأطفال لن يتمكنوا من العيش بعد ساعات قليلة. وبينما كان يشرح ذلك انهار الطبيب بدروس وكاد يسقط عن الكرسي الذي كان يجلس عليه. وطلب بريسون على الفور قهوة مع كونياك، ووجبة دسمة لكل منهم. ومع ذلك فلم يتمكن الطبيب العجوز والآخرون من تناول أكثر من لقيمات قليلة. وفي غضون ذلك، طلب قائد السفينة من مدير حركة السفينة أن يرسل قوارب على الفور لتنقل لهم ما يمكن نقله من المؤن. كما أمر طبيب السفينة والممرضين ومفرزة عسكرية بالنزول إلى الشاطىء. ثم شرح لهم بريسون بأن «كيشين» لم تكن وحدة مستقلة، بل قطعة في اسطول مختلط من الانكليز والفرنسيين، وتحمل أوامر بالإبحار تجاه الشمال على طول الشاطىء الأناضولي. والبارحة مساء انطلقت من خليج فاماغوستا القبرصي قبل زميلاتها بثلاث ساعات. وأن قائد الاسطول الأدميرال يقود «جان دارك». ويجب عليهم انتظار قراره. إذ بعث إليه ببرقية منذ ساعة وعلى المبعوثين ألا يخشوا شيئاً، فلم يكن من المتوقع أن أدميرالاً فرنسياً سيترك مجتمعاً من المسيحيين الأرمن يلاقي مصيره بهذا الشكل دون إحداث ضجة. أمال دير هايكازون رأسه وقال: «هل تسمح لي بأن أسأل يا سيادة الربان. أنت تقول أن سفينتك ليست مستقلة بل تخضع لقيادة أخرى. فكيف إذن سلكتم هذا الطريق على طول الشاطىء بدلاً من الاتجاه شمالاً؟». «أيها

السادة أظن أنكم لم تدخنوا سكائر منذ وقت طويل. هل لي أن أقدم لكم علبة من السكائر؟ وأعطى بريسون المعلم علبة كبيرة ثم استدار نحو دير هايكازون وقال: «إن سؤالك يثير اهتمامي يا أبتِ. وذلك لأني في الواقع خالفت الأوامر وخرجت عن مساري المحدد. لماذا؟ في حوالي الساعة العاشرة مررنا عبر الرأس الشمالي من قبرص، وتلقيت بعد منتصف الليل بساعة تقارير تفيد بوجود حريق هائل على الشاطىء السوري. إذ بدا وكأن مدينة كبيرة قد اضطرمت النار فيها. فقد كانت بقعة كبيرة من السماء حمراء اللون. وكنا نبحر على بعد ثلاثين ميلاً من اليابسة. وكما تعرفون فإن الضباب يعمل غالباً فعل العدسات المكبرة. إذ كانت نصف السماء حمراء لاهبة. وهكذا، ومن باب الفضول ـ مجرد فضول ـ غيّرت مساري.

نهض دير هايكازون من كرسيه وبدا أن لديه شيئاً هاماً سيقوله. تحركت شفتاه، لكنه فجأة، وبخطوات مترنحة توجه إلى حائط المقصورة وأخذ يضغط بوجهه على لوح الزجاج. وتصور الربان بريسون أن الكاهن مثل الطبيب العجوز كان على وشك الانهيار. وراح يدمدم بالأرمنية: «لقد حدث الشر.. لكي يتمكن الرب من اظهار خيره لنا». ورفع يديه قليلاً وكأن هذه الحملة قد استحوذت على كل هذا الألم. ولم يفهم الفرنسي شيئاً. وغط الطبيب بدروس في النوم وقد أسند رأسه على الطاولة. وبعد ساعتين ظهرت «جان دارك» الضخمة في الأفق تتبعها الطرادات الانكليزية والفرنسية. لكن السفينة الضخمة لم تصل إلا عند منتصف النهار تقريباً. واقتربت السفن الحربية هذه وهي تبحر في صف عريض جميل نحو اليابسة. وبعث قائد الاسطول إشارة إلى الربان بريسون يقول فيها أنه لن يغير مساره لإنقاذ هؤلاء الأرمن فحسب، بل كذلك كان مهتماً شخصياً في زيارة هذا المعسكر البطولي الذي تمكن سكانه الأرمن من الصمود أربعين يوماً في وجه قوة بربرية ضخمة. وعلى الفور كان كبير الجراحين في «كيشين» مع مساعديه والممرضين منهمكين في العناية بالمرضى الذين أنهكهم الجوع. وأثنى على بدروس ألتوني الذي حرص على عزل المرضى عن المشتبه بهم بنقل العدوى. ووُزِّع على الأصحاء كميات كبيرة من الخبز والأطعمة المعلبة. كما قُدِّم لهم حساء البطاطا المغلي. لكن الناس تلقوا كل هذه الأطعمة وكأن ذلك حلم لذيذ.

نزل الأدميرال مع عدد كبير من ضباطه إلى اليابسة ونزلت مفارز من البحارة من جميع السفن يحملون مدافع رشاشة لحماية قائدهم. وراح يسأل أسئلة عن قوة الأتراك ثم أشار بعصاه الخيزرانية إلى جدران الصخور، وأعلم مساعده عن رغبته في زيارة قمة الجبل والمعسكر. ولاحظ أحدهم أن ذلك سيحتم عليه صعود مئات الأمتار الأمر الذي يمكن أن يكون متعباً لقائدهم، كما أن ذلك لن يمكنهم من العودة لتناول الغذاء في الوقت المحدد. لكن الأدميرال لم يرد عليه وأصدر إشارة بالبدء. حافظ كابرييل على صفوفه رغم وصول تقارير تفيد بأن القوات التركية قد انسحبت من الشمال والجنوب. وبدا أنه غير واثق من هذا السلام. فلربما كان الأمر مجرد خطة عسكرية مدبرة، ولم يسمح لأي مقاتل أن يتخلى عن موقعه حتى يتم تحديد مصير شعبه بصورة تامة. لكن ربما كانت هناك أسباب أكثر عمقاً لتطبيق النظام بشدة. فقد قال كابرييل لرجاله إنه يجب ألا

يتصور أحد أنه في مأمن حتى يصبح آخر طفل وامرأة منهم على متن السفينة. وإن ثباتهم هذا يجب أن يظهر للفرنسيين أنهم شعب أرمني جدير بالاحترام. ويجب أن يغادروا معسكرهم كجنود غير مهزومين وبنادقهم في أيديهم. كما لم يقبل أن يترك مدافع الهاوتزر دون حماية خشية أن يقوم الأتراك بالاستيلاء عليها. بل وفكر في إهداء هذه الغنائم إلى الشعب الفرنسي. كما كان ارسال دير هايكازون مؤن كثيرة إلى الداملاجيك: من خبز، مربى، نبيذ، ولحوم معلبة بالإضافة إلى التبغ. كانت بلا شك مقنعة مثل كلمات كابرييل. وكان الرجال مستلقين نصف نائمين وقد غمرتهم السعادة. وانتهت فترة راحتهم عندما ظهر رجال البحرية على المرتفع وأخذوا يسيرون في صف طويل مباشرة باتجاه مرابض الهاوتزر. عندئذ انتصب الأرمن واقفين، وبصيحات من الحبور اندفعوا لاستقبال الفرنسيين. وكان هؤلاء البحارة يرتدون زيهم الأنيق على عكس هؤلاء المقاتلين الذين كانوا في ألبستهم البالية المتضورين جوعاً وكأنهم خيال المآتة. ثم وصلت مجموعة الضباط وتوجه كابرييل ببطء للقائهم. وضع بندقيته على الأرض، ورفع خوذته للقاء الأدميرال. نظر إليه ذلك الرجل الكبير بعينين متحمستين قبل أن يمد يده: «أنت القائد؟» أشار كابرييل على الفور إلى مدفعي الهاوتزر. وبدا أنه من الأهمية بمكان أن يُري هؤلاء أنه لم يأتِ إليهم خاوي الوفاض.

– «مسيو الأدميرال، أسلمكم وأسلم الأمة الفرنسية هذين المدفعين اللذين استولينا عليهما من الأتراك». وقف الأدميرال محيياً، وكذلك فعل بقية الضباط وقال: «شكراً لك أيها القائد باسم الأمة الفرنسية التي تستلم غنائم النصر الأرمنية». ومد يده ثانية إلى باكراديان وسأله: «هل استوليت أنت بنفسك على هذين المدفعين؟».

– «بل ابني الصغير الذي قتل».

تبع ذلك صمت طويل. ثم دفع الأدميرال حَجَرة بعصاه واستدار إلى مرافقه وسأله: «هل من الممكن إنزال هذين المدفعين ورفعهما على ظهر السفينة. وبدا الخبير الذي سأله الأدميرال غير واثق من ذلك. وقال إنه يمكن أن يستغرق ذلك يوماً كاملاً إذا ما قدمت لهم المساعدة الضرورية، لكن ذلك ستكتنفه صعوبات كبيرة. فكر الأدميرال لحظة ثم قرر «إذاً اعمل على إبطال مفعول هذين المدفعين. من الأفضل تفجيرهما لكن بعناية أرجوك».

ثم طلب الأدميرال من كابرييل أن يحدثه عن معاركه ودفاعاته. فأخذ كابرييل يصفها له باقتضاب. وكان بلا شك يرغب في الحصول على تقرير دقيق لتقديمه إلى الأدميرالية الفرنسية. إذ أن إنقاذ القرى الأرمنية السبع كان أمراً عظيماً. لذلك لم يبق أمام كابرييل سوى أن يرضي أمنية الأدميرال. وعلى الفور أرسل كلمة إلى الجاووش نورهان، واتجه الجميع في الوقت نفسه إلى المواقع الشمالية حيث وصلوا بعد نصف ساعة. وتوجه كابرييل مباشرة إلى الجاووش نورهان وعانقه وقال: «جاووش نورهان. لقد انتهى كل شيء الآن. شكراً لك وشكراً لكم جميعكم». أحاط الرجال بكابرييل. وراح الكثير منهم يحاول تقبيل يده. وعندما تفقد الأدميرال الخنادق والحواجز

الصخرية، اعتبر أن من واجبه أن يعبر عن تقديره لكابرييل باكراديان والمقاتلين في كلمة يلقيها بهم فراح يقول: «السيد القائد، في جميع البلاد اليوم، وفي كل البحار تنجز أعمال بطولية رائعة. لكن أولئك هم جنود مدربون. أما هنا، على جبل موسى فقد كان الأمر مغايراً تماماً. إذ لا يوجد رجال مدربون، بل فلاحون وحرفيون بسطاء مسالمون، ومع ذلك، فلم تصمد هذه الحفنة من القرويين المسلحين ضد جيش منظم مرات عديدة فقط، بل خرجت منتصرة من أجل الحياة تحت قيادتك ويجب ألا ينسى أحد هذه الجدارة. وكان ذلك ممكناً فقط بمساعدة الله. إن الله ساعدكم لأنكم قاتلتم لأكثر من أنفسكم من أجل صليبه المقدس. لذلك فقد برهنت أيها السيد وقدمت إثباتاً عن كل البطولات، بطولة دافعت فيها عن شيء أكثر قيمة من البيت والأرض. إني أتقدم إليك بالشكر باسم الأمة الفرنسية كما إني فخور بأن أقدم لكم يد المساعدة. ويسرني أن أنقلكم جميعكم إلى مكان أمين، وإني أعلمكم أن سفني ستقوم بنقلكم إلى ميناء بور سعيد أو ميناء الاسكندرية في مصر».

انحنى كابرييل معبراً عن أعمق امتنانه رداً على هذه الكلمة الصغيرة المخلصة وأمسك بود يد الأدميرال النحيفة الصغيرة وفكر في نفسه: «بور سعيد؟ الاسكندرية؟ أنا؟ ماذا سأفعل هناك؟ هل أعيش في معسكر اعتقال. لماذا؟».

نظر الأدميرال نظرة أبوية مفعمة بالحب والعطف إلى كابرييل وقال: «مسيو باكراديان أطلب منك أن تكون ضيفي في الرحلة على متن جان دارك..» ولم ينتظر منه شكراً على ذلك بل أخرج ساعة ذهبية كبيرة ونظر إليها بقلق وقال: «هل لي أن أحظى بشرف لقاء مدام باكراديان؟ فقد كنت أعرف أباها معرفة جيدة».

كانت جولييت قد أحكمت خلال الليل إغلاق باب خيمتها، ولم تدع أحداً الدخول إليها. لكنها سمعت في الصباح صوت الناقوس الذي كان يدق بصوت عالٍ. لكن جولييت لم تتحرك. كما لم يحركها صوت أفاكيان المتوسل. ثم جاءها صوت دوي الهاوتزر والقذيفة المريعة التي أطلقتها «كيشين». فقد كان الليل الدامس ما يزال مخيماً على جولييت التي اندست تحت أغطيتها لكي لا تسمع شيئاً أو يزعجها أحد. جاء صوت كريستوفر مع صوت أفاكيان «مدام نرجوك.. افتحي.. افتحي فوراً يا مدام نرجوك! وأخذت الخيمة تتحرك بقوة أكثر وأكثر. رفعت جولييت رأسها وتعرفت كذلك على صوت أنتارام مايريك تتوسل إليها «ردي يا عزيزتي أرجوك، من أجل المسيح.. لقد نالنا حظ رائع». لكن جولييت استدارت إلى الطرف الآخر. «ما هذا الذي يسميه هؤلاء الأرمن بالحظ الجيد؟ حتى لو جاء كابرييل فلن أهتم وسأبقى حيث أنا ولن أخرج، ومن هو هذا كابرييل باكراديان بعد كل هذا؟ هل أصبح اسمي كذلك باكراديان؟ جولييت باكراديان؟ وأخيراً فك أحدهم رباط الخيمة من الخارج وفتحها. إلا أنها أدارت ظهرها للمقتحمين. راح أفاكيان وأنتارام مايريك وكريستوفر يصرخون في صوت واحد ويتكلمون عن سفينة فرنسية اسمها «كيشين» لكنها تظاهرت بأنها فاقدة الوعي، غير أنها شنقت أذنيها وقالت إنه

مجرد فخ. ألم يحاول الدكتور ألتوني في الليلة الماضية أن يرغمها على ترك خيمتها الحبيبة لتذهب وتعيش مع الآخرين؟ تلك الحيوانات القذرة... الذين جعلوها تشعر بالغثيان، أولئك الذين يكنون لها كراهية كبيرة. ولا ريب أن هذه الخديعة دبرها كابرييل واسكوهي، قصة السفينة تلك. وعندما أخفقت جميع المحاولات هزت المرأة العجوز كتفيها وقالت: «دعوها فيوجد وقت كثير» غير أن أفاكيان وكريستوفر راحا يخرجان الصناديق خارج الخيمة لتنظيفها وترتيبها. وأرسل كابرييل يطلبهما قبل أن ينتهيا من ذلك.

كان الوقت ما زال في الصباح الباكر عندما أزيحت الستارة مرة أخرى، ووقف رجلان مع أنتارام مايريك، لكن هذين الرجلين كانا شاين يرتديان بزة زرقاء مرصعة بأزرار لامعة وأشرطة مرسوم عليها صليب أحمر حول ذراعيهما الأيسرين. نهضت جولييت وشاهدت وجهين مسرورين بعينين صافيتين. فانتابتها رعشة لهذا المشهد. قدم لها أحدهما تحية وقال لها: «نأسف لازعاجك يا مدام. فنحن المشرفون في مستشفى «كيشين». ولدينا أوامر من كبير الجراحين أن نحملك مع الباقين، سنعود فيما بعد، هل تتفضل المدام وتستعد». وعاد ورفع يده محيياً بينما تقدم الآخر بخطوات مرتبكة داخل الخيمة ووضع ترمساً بجانب المرآة وصحناً من الزبدة وقطعتين من الخبز الأبيض. أوامر كبير الجراحين، شاي، خبز، زبدة للمدام لكي تتدبر نفسها ثم خرجا وتبعا أنتارام مايريك إلى كوخ المستشفى الذي لم تكن قد وصلته النيران. حيث اجتمع هناك ممرضو السفينة مع نقالاتهم لنقل المرضى.

أزاحت جولييت الغطاء عنها وجلست على حافة السرير، وغطت وجهها بكلتيا يديها وأخذت تمرر أصابعها بين خصلات شعرها المتنفش وتدمدم «فرنسيون، فرنسيون... كيف أبدو» وكأن الحياة بعثت فيها ثانية. فجلست أمام المرآة، وراحت تضع مكياجاً أحمر على خديها وتمشط شعرها وهي تكرر هامسة: «كيف أبدو..».

أسرع كابرييل لكي يعدها لزيارة الأدميرال ووجدها جالسة على حافة السرير. وكانت مايريك تمسك كوباً من الشاي وتحاول أن تقنع جولييت أن تشربه كطفل مدلل وسمعها تقول: «إذا كنت ترغبين في أن تظهري في أحسن صورة لك أمام الفرنسيين فيجب أن تقوي يا عزيزتي، وإلا فإن ثيابك كلها لن تكون ذات نفع..» وقفت جولييت برسمية وكأن غريباً قد دلف إلى الخيمة، وبسرعة تركت مايريك الخيمة وخرجت بعد أن ألقت نظرة أخيرة على الزوجين، وأخذت قطعة من الخبز لأنها كانت تتضور جوعاً. رأى كابرييل حياته القديمة. جابهته في صورة حية، وعلم أن العودة إليها لا يمكن سد رأبها. وسألها إن كان بوسعها أن تتقدم بضع خطوات للقاء أدميرال الاسطول الفرنسي، إذ كان واثقاً أنها لا ترغب في استقباله في هذه الخيمة المظلمة المشبعة بالمرض. نظرت جولييت حولها ثم مدت يدها في تعبير غريب عن اشتياقها لوسادتها. أمسكها كابرييل من ذراعها وقال: «ستأخذين كل أشيائك معك الليلة يا جولييت، فلن ينسوا شيئاً هنا».

جاء الأدميرال برفقة مساعده وضابط شاب. وكان قد حذر بأن لا يقترب كثيراً من جولييت

التي كانت تمر في فترة نقاهة. فقد كانت الحمى التي انتشرت على جبل موسى من أعتى الأنواع. لكن الأدميرال تقدم منها وقبّل يدها وقال: «أنت أيضاً يا مدام، كامرأة فرنسية، غريبة، لعبت دوراً بارزاً في الآلام والأعمال البطولية على هذا الجبل. اسمحي لي أن أتمنى لك شفاء عاجلاً».

- «وفرنسا يا مسيو، كيف حالها؟».

- «إن فرنسا تعيش الآن في خضم محن رهيبة يا مدام، ونأمل بأن الله سوف يمنحها الرحمة».

بدا أن مظهر جولييت قد أقلق الأدميرال. فأمسك يدها النحيلة بين يديه وقال: «هل تعرفين يا فتاتي إن هذه هي المرة الاولى التي أراك فيها مذ كبرت.. لقد كنت فتاة صغيرة عندما قضيتُ مع والديك يوماً كاملاً في آخر مرة زرتكم فيها. كان ذلك بعد زواجهما بوقت قصير. لم أكن أبداً صديقاً حميماً لأبيك، لكني أظن أنه عندما كنا شابين كنا نراود نفس العالم تقريباً..».

أخذت جولييت تنشج لكنها لم تزرف دمعة واحدة، وراحت تقول كلمات متقطعة غريبة: «لكن من الطبيعي.. بيع البيت بعد موت بابا..وماما..ماما تعيش الآن.. آه.. نسيت الشارع.. أنت لا تعرف عنها شيئاً يا سيدي؟ لكن ربما كنت تعرف زوج أختي.. أعني ذاك الذي يعمل في وزارة البحرية.. إنه مسؤول كبير.. ما هو اسمه؟... رأسي! كولومب. آه. طبعاً جاك كولومب، هل تعرفه ؟ أنا أرى أختي قليلاً جداً..... لكن عندما أعود إلى باريس سأرى جميع أصدقائي ثانية. أليس كذلك.. هل ستأخذني إلى باريس؟ ترنحت جولييت. ساعدها الأدميرال على الوقوف وأسرع كابرييل في إحضار كرسي من داخل الخيمة لكي تجلس عليه. انتاب الأدميرال شعور بالقلق، وأخيراً نادى أحد رجاله الشباب وقال له: «يا صديقي احرص على تلبية طلبات المدام ورافقها إلى ظهر السفينة إن «جان دارك» هي سفينة حربية، لذا يجب ألا تتوقعي أن تكون مريحة جداً. لكنا سنبذل ما بوسعنا لكي نجعل رحلتك مريحة يا طفلتي العزيزة».

حتى عندما جاء الإنقاذ لم يكون كوب الأسى مترعاً. فقد أخذ صوت عالٍ ينادي من خيمة توماسيان: «كابرييل باكراديان، تعال يا رجل! ظن كابرييل أن اسكوهي برفقة أخيها المريض، لكنه لم يعثر عليها. دخل إلى خيمة آرام، ووجد القس محموماً. سأله القس «أين اسكوهي ياكابرييل باكراديان بحق المسيح. إلى أين أخذت اسكوهي؟»....رد كابرييل: «اسكوهي؟ لقد أمضت معي بعض الوقت بعد منتصف الليل عند مرابض الهاوتزر ثم طلبتُ منها أن تذهب لترى زوجتي. هذا كل ما في الأمر». صاح القس: «كنت واثقاً هذا الصباح أن اسكوهي كانت معك. لقد اختفت.. وقد أرسلت من يبحث عنها.. إنهم يبحثون عنها منذ ساعات.. إن الممرضين الفرنسيين ينتظرون نقلي منذ فترة. لكني لن أغادر الجبل بدون اسكوهي.. لو حدث شيء لها.. لن أغادر الجبل أبداً». وأمسك بيد كابرييل وبذل جهداً لكي يجلس على الرغم من جرحه «إنه خطأي يا باكراديان- لا أستطيع أن

أشرح لك الآن- لكني أنا المذنب. إن الله يعاقبني شخصياً في طفلي وأختي بعد أن أنقذنا جميعاً.. وكانت زوجتي أداة عادلة. «أين زوجتك؟» سأله كابرييل بثبات.

- «لقد هرعت إلى الشاطىء مع الطفل. قالوا لها انه يوجد حليب هناك. لم أتمكن من إبقائها». حاول النهوض لكنه تهاوى إلى الفور «اللعنة» أنت ترى أني لا أستطيع أن أفعل شيئاً. لا أستطيع أن أتحرك. افعل شيئاً يا كابرييل باكراديان. إنه جزء مع خطيئتك مع اسكوهي.. حتى أنت..».

- «ماذا يا قس.. سأذهب».

لكن اسكوهي كانت على قيد الحياة. ويبدو أنها كانت قد ضلت طريقها في الظلام وسقطت في حفرة ليست عميقة. ولم يصبها أذى سوى بعض الخدوش على الذراعين والساقين. ولم تصب بجروح أو كسور أو التواء من أي نوع كان. وكان كيفورك قد عثر عليها. وعندما حملها استعادت وعيها، لكنها لم تستطع أن تتكلم، ولحسن الحظ جاء الطبيب الثاني من «كيشين» وأعطاها منشطاً قوياً للقلب، لكنه أصر على وجوب نقلها بسرعة إلى ظهر السفينة.

استمرت عملية الصعود إلى السفن ببطء. وكانت هناك مصاعب عديدة يجب مواجهتها. وعلى الرغم من أنه كان بالإمكان نقل أكثر من نصف القرويين إلى سفينة الجنود، فقد عارض الأطباء بالإجماع هذا الحل السهل لحل مشكلة المكان، فقد كان من الخطورة بمكان جمع مئات من الناس في مكان قريب من المرضى بالحمى. بل على العكس تماماً، يجب أن يوضع المرضى والمشكوك في أنهم مرضى في سفينة النقل. ويجب عزلهم عن الطواقم والأرمن الأصحاء. وقامت لجنة طبية مؤلفة من أطباء وضباط بحريين بفحص كل أرمني على حدة للتأكد من عدم إصابتهم بالقمل والمرض. وكانت هذه الطريقة شاقة جداً. وبقي دير هايكازون الوحيد الذي كان يدافع عن مصالح الناس محاولاً إقناع الضباط والأطباء بعدم فصل العائلات بشكل غير ضروري.

اقترب كابرييل من اللجنة الطبية، ووضع كلتا يديه على كتفي دير هايكازون. استدار إليه. كان وجهه أبيض كالشمع. وكانت ذقنه المحترقة تذكر بالأحداث الأخيرة على الداملاجيك. وثبت عينيه في كابرييل الأمر الذي قلما حدث وقال: «من الجيد أنك جئت يا كابرييل باكراديان، لدي شيء أود أن أسألك إياه». كان دير هايكازون يتحدث بهدوء شديد، ومن المؤكد أن الفرنسيين بجانبه لم يكونوا يفهمون لغته الأرمنية. لقد اختفى الوغدان. أعني أوسكايان وكيليكيان وآخرون كذلك. فقال كابرييل: «لقد مات كيليكيان» ولم تقلقه الفكرة على أقل تقدير. وبدا أن دير هايكازون فهم ما كان يعنيه، وأشار إلى الصخرة المسطحة حيث كانت تقف مجموعة من الأرمن المشكوكين في أمرهم، «حسن هذا هو سؤالي.. هل يحق لنا إنقاذ هؤلاء الأوغاد؟ ومن يقوم بعملية الإنقاذ؟». رد باكراديان: «لقد أنقذنا نحن، فلا يحق لنا أن نستثني

أحداً من الإنقاذ» كانت عينا دير هايكازون تومضان «حسن.. لقد أردت فقط أن أتأكد».

وقف كابرييل طويلاً يراقب اللجنة. ونظراً لأن أفكاره كانت تدور بعيداً لم يكن يرى سوى أشكال تأتي وتروح. أخيراً استدار دير هايكازون بصورة مفاجئة وسأله: «أما زلت هنا يا كابرييل باكراديان؟ انظر.. يجب أن لا تتوقف هنا لمساعدتي. لقد انتهت مهمتك. أما مهمتي فلا.. لذا اذهب ببركة الله واسترح سأذهب أنا إلى «كيشين».

لكن شيئاً في خاطر كابرييل حال دون استئذانه بشكل نهائي: «ربما سأعود فيما بعد لكي أبحث عنك يا دير هايكازون» وشق طريقه بين الجمع، وخطا بضع خطوات باتجاه الجبل. نزل أفاكيان للقائه وتبعه كريستوفر وميساك وكيفورك وهم يجرّون وراءهم صناديق باكراديان. خاطبهم كابرييل: «مرحباً يا أفاكيان! لماذا كل هذه الصناديق؟ تبدو وكأنها رحلة إلى أعالي النيل» ثم أمسكه كابرييل من يده بقوة وقال: «أفاكيان، ثمة شيء أريدك أن تفعله من أجلي. كنت أفكر طيلة الوقت كيف بإمكاننا تدبره. فأنا بحاجة ماسة إلى الراحة. يجب أن أحصل عليها. وهذا ما لن أحصل عليه في الأيام القليلة القادمة. فقد طلب مني الأدميرال أن أجلس إلى مائدته وأن أكون ضيفاً عليه. وهذا يحتم عليّ أن أتحدث الساعات الطوال مع غرباء، أروي لهم قصصاً أو أن أتظاهر بالتواضع وهذا سيتعبني جداً. على أية حال سيكون سجناً آخر. ولكني لن أفعل ذلك. أتفهم يا أفاكيان؟ إني أرفض ذلك، فعلى الأقل أريد أن أكون وحيداً خلال هذه الأيام الثلاثة، وحيداً تماماً. لذلك قررت أن لا أسافر على متن «الجان دارك» بل على سفينة الجنود. إذ سيكون فيها عدد قليل من الضباط. وسأرتاح هناك تماماً». بدا صامويل أفاكيان مذعوراً: «لكن يا أفندينا إن سفينة الجنود ستستخدم كحجْر صحي» «أنا لا أخاف من الحجْر الصحي، كما لن يكون بمثابة سجن آخر يمكن أن يطول أكثر من أربعين يوماً». فأجابه أفاكيان معارضاً متردداً: «لكن ألن تؤذي مشاعر الأدميرال الذي كان ملاكنا الطيب بهذا التصرف؟».

– «بالضبط. وهذا ما أريدك أن تساعدني به يا أفاكيان. يجب أن تذهب إليه في الحال. وتعتذر له بالنيابة عني بسبب مقنع. قل له إنه يوجد في السفينة أناس لا يمكن الاعتماد عليهم، وقل له أيضاً إنه لم يكن ثمة وقت لتنظيم الأمور بشكل دقيق. قل له إنه يتعين وجود شخص ما هناك من أجل حفظ النظام. قل له إني قررت» .. فقال أفاكيان متردداً: «وهكذا إذن فلن نتقابل إلا بعد أيام أخرى؟».

– «حان الوقت للذهاب يا أفاكيان. فالقارب ا لمتوجه إلى «جان دارك» لن يقوم برحلات أخرى. تمسك بالأوراق التي أعطيتك إياها جيداً في الوقت الحالي».

كان القارب يتحرك وهو يصدر إشارة بالانطلاق، حتى لم يكد أفاكيان يتمكن من مصافحة كابرييل، وأخذ كابرييل يراقبه وهو يبتعد. وسأل أحد الضباط عن موعد انطلاق آخر قارب لسفينة الجنود التي سينقل إليها معظم المرضى، فقال له، وقال في نفسه إن الأمر سيستغرق ساعات أخرى. اتجه نحو ممر الجبل ليبتعد عن صوت الضجيج وشمس أيلول. ثم

أخذ يصعد نظره نحو الجبل إلى أبعد نقطة ممكنة، فقد تذكر ستيفان. وأخيراً توقف وقد انتابته دهشة. فلقد ابتعد كثيراً. إلا أن هذه البقعة بدت لطيفة. جلس وتمكن من رؤية كل شيء تحته. الناس على الشاطئ الصخري. السفن الخمس الرابضة فوق الماء. وكانت سفينة الجنود أكثرها بعداً، أما «كيشين» التي نقلت إليها اسكوهي فكانت تليها. وكان الناس قد اصطفوا في صف طويل ينتظرون دورهم لركوب القوارب. وكانت ما زالت أعداد كبيرة تنتظر دورها «ما زال لدي وقت طويل» قال كابرييل في نفسه. وغلب عليه النعاس من جراء التعب والتوتر خلال ليالي الأربعين يوماً.

إن الأم التي لايستطيع طفلها أن يبقي عينيه مفتوحتين تقول «إنه يغط في سبات عميق» وهكذا كان كابرييل يغط في نوم عميق كالموتى.

7- إلى الشيء المبهم فينا وفوق قدرتنا

أطلقت السفن الخمس صافراتها. فتح كابرييل عينيه بهدوء، ونظر إلى الأسفل ليرى أكوام الناس الذين تصور أنه رآهم منذ دقيقة خلت. كانت «كيشين» قد أخذت مسارها وراحت تخلف وراءها خطاً عميقاً من الزبد في البحر. وكانت السفن الأربع الأخرى قد سبقتها. راح كابرييل ينظر إلى كل ذلك باهتمام وإمعان. وهنا فكّر: «ودير هايكازون؟ ألم يلاحظ غيابي؟ لا.. فهو يظن أني على متن «جان دارك». قفز كابرييل وأخذ يصرخ بأعلى صوته ويلوح بيديه. لكن صوته لم يصل، ولم تكن حركاته حركات رجل يائس. كان يجب عليه أن يقفز فوق الصخور وأن يعتليها ويستخدم أي وسيلة لكي يجعل نفسه مرئياً. فقد كان سطح «كيشين» مكتظاً بالأرمن وهم ينحنون على الحاجز يراقبون جبلهم وهم يبتعدون عنه.

لكن كابرييل المنكود لم يرفض أن يغادر موقعه المظلل بالشجر فحسب، بل كف عن الصياح والتلويح، كمل لو أنه ملّ من هذه الرسميات العبثية. إن رجلاً مثله يجب أن يطلب النجدة كمجنون. كان يجب عليه أن يندفع نحو البحر، وأن يسبح وراء السفن، فإما أن يُنقَذ أو يغرق. لقد كانت السفن تتحرك ببطء شديد. وكان مازال أمامه وقت كاف. لم يفهم كابرييل سبب هدوئه. هل كان ما زال يشعر بالخدر؟ لقد كانت القارورة التي ملأها له الفرنسي بالقهوة والكونياك مازالت قابعة فوق الصخرة الملساء التي كان جالساً عليها. أخذ جرعات طويلة لكي يجعل نفسه تشعر باليأس. غير أن تأثيرها عليه كان معاكساً، فقد أخذ الدم يجري بسرعة في عروقه، وبدت عضلاته أكثر حيوية، لكن هدوءه بقي كما كان. لا صياح، لا خوف من الموت، بل شعر بالسعادة بالعزاء: «سأصعد إلى نقطة أعلى وألوح بمعطفي لعلهم يروني» لكن لم يكن ثمة معنى لذلك. كان كابرييل يقدم الأعذار لنفسه لكي يخفي نواياه عنها. لقد كان مرغماً على الصعود وليس الهبوط. وبشكل طبيعي كان ما يزال يفكر: «كيف سأعيش؟» تحسس جيوب معطفه. لوحان من الشوكولاته.لا يوجد طعام البتة في جيوب سترته، خريطة الداملاجيك، رسائل قديمة، ملاحظات، علبة سكائر فارغة، والقطعة النقدية التي أهداها له الآغا رفعت بركات منقوش عليها الكتابة الأغريقية أمسك القطعة الذهبية، ثم تذكر أنه في أمسية النزوح الكبير، عاد إلى الفيلا لاستعادتها.

كم كان من الأفضل لو أبقاها. أعادها إلى جيبه ثانية. سار كابرييل إلى طرف الصخرة الناتئة

لكي يلوح بمعطفه في دوائر واسعة حول رأسه. ولكن ما كاد يفعل ذلك حتى هوى بذراعيه إلى جانبيه ثانية. والآن في ومضة واحدة أدرك أنه لم يشأ أن تشاهده السفن. إن وجوده هنا لم يكن حدثاً غير سعيد، بل أكثر القرارات عمقاً. ليس قرار الله وحده بل قراره أيضاً.

كيف كان ذلك؟ لم يتمكن من العثور على أي أثر لعاطفة أو حساسية مغلفة في نفسه. كان عقله جلياً واضحاً مثلما كان قلبه رائقاً. كان كل شيء فيه يتوق إلى تسوية نهائية، بوعي صادر عن قوة لم يعرفها من قبل. غادر مكانه المطل على البحر. وحمله جسده بخطوات نشيطة إلى الممر الوعر المتعرج بين الجدران الصخرية على طول المجاري المائية. كان نبضه وإدراكه يعملان جنباً إلى جنب. كان هذا الطريق تسوية فخورة للحسابات. وأدرك الآن لماذا في ذلك الصباح عندما دوت المعجزة من البحر، شعر بنوع من الانزعاج. ولهذا السبب شعر بعدم الراحة بشكل غامض عندما علم أنهم سيوضعون في الاسكندرية أو بور سعيد. ففي تلك اللحظات الأولى من الإنقاذ، أحس فجأة أن العودة بالنسبة له إلى الحياة ستكون مستحيلة. فقط لأن باكراديان الحقيقي، باكراديان الذي بعث للحياة في الأيام الأربعين، كان عليه أن يُنقذ. يُنقذ إلى بور سعيد أو الإسكندرية؟ إلى معسكر للآجئين الأرمن؟ يُنقذ لاستبدال جبل موسى بمكان ضيق آخر. تذكر قولاً قديماً لبدروس ألتوني: «لأن تكون أرمنياً فهذا أمر مستحيل» صحيح جداً. لكن كابرييل عمل المستحيلات وهذا ما ملأه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه. إذ شارك في مصير شعبه، قاد نضال شعبه من القرويين. ألم يكن أكثر من أرمني؟ فكر في نفسه مرة أنه «كائن مجرد» لا فرد حقيقي. وعند قمة شعوره بالفخر انتابه شعور بالضعف. النساء! هل وجود النساء إثم متأصل في الرجال؟ عاد كابرييل إلى ذلك السفح حيث شاهد عيني اسكوهي وهما تودعانه. لم ير اسكوهي بل رأى جولييت وهي ملفعة بالوشاح المحفوف بالدانتيل. ماذا سيحل بها؟ وقف كابرييل لحظة يتطلع إلى البحر. كانت السفن تبحر ببطء شديد. ولم تكن قد وصلت إلى أواسط الأفق. لعل الرجال المراقبين يرونه إذا ما لوح بمعطفه فوق رأسه. لكن فكرة أخرى ومضت في رأسه. إن جولييت ستصبح حرّة ويمكنها أن تستعيد بسهولة جنسيتها الفرنسية. وما إن يكتشفوا أنه مفقود فإن الأدميرال والآخرين حولها سيصبحون في غاية اللطف معها. لقد زاد هذا التفكير من حريته. اجتاز كابرييل منحنيين آخرين قبل أن يتجمد قلبه. هل كان ذلك ممكناً؟ هل كانت اسكوهي حقاً متوارية في مكان ما في اللحظة الأخيرة لكي تبقى معه؟ وبدا له للحظات أن هذه من صنع الخيال. بل حتى أنه أحس بها. ثم جاءت خطوات اسكوهي خلفه. كان بإمكانه أن يسمع قرع كعبها العالي. أين سنكون؟ أنا وأنت يا أختاه؟. لقد حافظت على كلمتها «معك». لم يتطلع حوله، بل أخذ يبتعد مسرعاً ثم توقف فجأة. وراحت خطوات اسكوهي الخفيفة تتبعه. ثم أخذت تتضح له وقع خطوات امرأة وهي تصعد المنحدر أكثر وأكثر. وكانت الأحجار الصغيرة تتدحرج نحو الأسفل. انتظر كابرييل. لا بد أن تكون اسكوهي قد وصلت الآن، لكن صوت كعبها العالي ما زال يطرق فوق الصخر. لم تكن قريبة أو بعيدة. لذا فكر أخيراً أن خطوات اسكوهي لم تكن خارجة منه بل في داخله. انزلقت يده على طول جسمه يبحث عن ساعته. عندما أخرجها، كان

صوت تكاتها عالياً. إن الوحدة تضخم الضجيج. أم كان هذا وقت كابرييل الخاص وهو يتصاعد مع حياته؟

كان ما زال يمسك الساعة في يده. ذلك النوم لم يكن نوماً عادياً. لقد تملكه النعاس لمساعدة ضعفه من أجل أن يتم مصيره. ولولاه لعاد إلى العالم. لكن بالنسبة إليه كان الله ينوي له شيئاً آخر. متى كان ذلك؟ هل كان ذلك تخيلاً، أم هل تحدث الكلمات حقاً: «منذ فترة وأنا واثق بأن الله يرغب في استخدامي بطريقة ما». الآن أصبح يعرف أعماق هذه النية. لم تعد مجرد الحرية والراحة والمتعة هي التي أفعمت قلبه. لا، بل شيئاً جديداً ظهر إلى وعيه. لذة الاتحاد ما فوق الطبيعي. إن حياتي مسيرة لذا فهي آمنة. سارت أقدامه على الطريق المعتاد، هو طريق الخيام الثلاث. كانت الخيام ضد الحريق لذا لم تلتهمها النار. حتى في الداخل كانت الأسرّة ما تزال قائمة. مر كابرييل دون أن يتوقف عندها. توقف عند طرف ساحة المعسكر وهو ما زال متردداً. أراد الاتجاه شمالاً نحو الخنادق الشمالية. عمله الرئيسي. لكنه اتخذ الاتجاه المعاكس نحو تلة الهاوتزر. لعله كان راغباً في مشاهدة كيف أن البحارة أبطلوا مفعول هذين المدفعين. وبين ساحة المعسكر والتلة كانت تمتد المقبرة الواسعة. توجه كابرييل إلى ستيفان. كان التراب ما زال طرياً نسبياً. متى دفنوه؟ في اليوم الثلاثين واليوم هو الواحد والأربعون. وكم مضى على ذلك اليوم عندما فاجأني؟ لم يتحرك كابرييل من مكانه على قبر ستيفان. مع أنه لم يفكر بستيفان فقط بل بمائة حادثة خلال هذه المعارك. لم يزعج سكينته شيء. ولم يكد يدرك ميل الشمس نحو الغروب.

وفجأة حل الظلام وانتشر البرد. أبعد هذه الأفكار. ماذا كان كل ذلك؟ صافرات خمس سفن وهي تعطي إشارات مختلفة. التقط كابرييل معطفه من الأرض. «لقد أدركوا إني لست على متن السفينة. إنهم ينادونني لأسرع إلى النجد وأشعل ناراً. هناك عسى ولعل...» ثارت الحياة فيه. تقدم خطوة واحدة ثم عاد إلى الخلف. كانوا يزحفون نحوه في نصف دائرة. هل كانت كلاب مسعورة؟ لا توجد أعين تشع في الظلام. تظاهر كابرييل بأنه لم يلاحظها. نظر إلى الأعلى. تراجع خطوة أخرى وقبع وراء قبر ستيفان. لكن طلقات غير متوقعة انطلقت من الجانب. واحدة. اثنتان، ثلاث طلقات.

كان كابرييل باكراديان محظوظاً. فقد هشمت الرصاصة التركية الثانية صدغه. تعلق باللوح الخشبي وشده معه. وجثم صليب ابنه فوق قلبه.

سلسلة الاعمال الادبية

1

الأيام الأربعون لجبل موسى

رواية



هذا الكتاب

إنها قصة القرى الأرمنية السبع القابعة في مرتفعات أنطاكية والمطلّة على سهل السويدية وخليج الإسكندرونة ... هذه المنطقة التي كانت تابعة لولاية حلب. وضعت أيضاً على خارطة التطهير العرقي والتذبيح وفق خطة تركية مدروسة. بدأ تنفيذها آنئذ في بلدة زيتون ثم في دير الزور وفي أماكن أخرى عديدة كانت تقطنها غالبية أرمنية.

كانت قرية يوغونولوك وجبل موسى وسفح الداملاجيك وما يلوذ بتلك الربوع مسرح تلك الأحداث. إنها حكاية الأسابيع الستة. أو محنة الأربعين يوماً التي كانت في حقيقة الأمر مادة هذه الرواية.

إنها قصة القرويين الذين اعتصموا بقمة جبلهم. وأبوا أوامر الحكومة العثمانية القاضية بتهجيرهم. وقاوموا الجيش العثماني طيلة أربعين يوماً. إلى أن ظهرت سفينة حربية فرنسية. وأقلّتهم إلى ميناء بور سعيد في مصر وخلّصتهم من الإبادة المؤكدة.

ولا يستطيع المرء إلا أن يعيش تلك الأيام الأربعين بكل جوارحه. وأن يمضي مع أولئك القرويين الصابرين عبر درب الآلام. ويحيا معهم في أحلك لياليهم. وهم أيقاظ نائمون. يفترشون الأرض. ويتوسدون الصخر. وبنادقهم العتيقة ملتصقة على جنوبهم.

إن محنة جبل موسى ليست مجرد فصل من مأساة شعب أرمني قدّر لها أن تحدث في زمن محدود ومكان معلوم. وهي ليست أيضاً قصة الحزن والجوع والصبر والرعب والتهجيروالعذاب. ولكنها فوق ذلك. وفي عالم تحكمه شريعة الغاب. شعلة وهّاجة لكل المستضعفين في الأرض. إنها ملحمة الكفاح المرير والمقاومة العنيدة لكل شعب ينشد الكرامة ويتوق إلى الحرية.

بقي أن نضيف بأن هذه الرواية ترجمت إلى عشرات اللغات الحية في العالم. وطبعت ضمن سلسلة "المليون كتاب" بعد صدور طبعتها الأولى مباشرة.